

مُعَايِجُ التَّفَكُّرِ

وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

تَفْسِيرُ تَدْبِيرِيٍّ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِحَسَبِ تَرْتِيبِ النُّزُولِ
وَفُقْ مَنْهَجِ كِتَابِ «قَوَاعِدِ التَّدَبُّرِ الْأَمْثَلِ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»

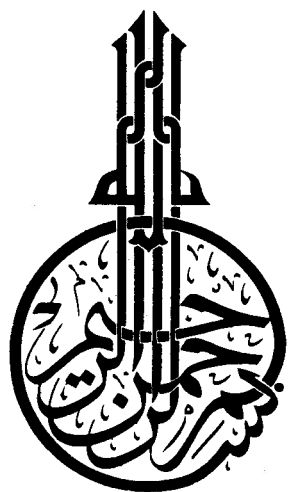
المجلد الخامس

تفسيرُ سُور

تابع تفسير سورة الأعراف (٣٩)
من الآية (١٧٢) وحتى آخر السورة وملاحظتها
وتفسير سورة الجمعة (٤٠) وملاحظتها

عبد الرحمن حسن بركة الميذاني

دار الفقه
دمشق



مِجَالُ التَّفَكُّرِ
وَدَقَائِقُ التَّذَكُّرِ

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف^٧

تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عمه طريقه

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

(١١)

التدبر التحليلي للدرس السابع من دروس السورة وهو الآيات من (١٧٢ - ١٧٤)

قال الله عز وجل:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَنْتَ عَلَيْنَا يَا فَعْلَ الْمُبْتَلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

القراءات:

(١٧٢) • قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب،
[ذُرِّيَّتَهُمْ] بالجمع.

وقرأ باقي القراء العشرة: [ذُرِّيَّتَهُمْ] بالإفراد.

والقراءتان وجهان عربيان متكافئان، لأن لفظ «ذُرِّيَّة» بالإفراد اسم جنس، وبإضافته إلى ضمير بني آدم دل على كل ذُرِّيَّتَهُمْ، فتساوى في الدلالة هنا الإفراد والجمع.

(١٧٢ - ١٧٣) • قرأ أبو عمرو: [أَنْ يَقُولُوا] - [أَوْ يَقُولُوا] بضمير

الغائبين.

وقرأ باقي القراء العشرة: [أَنْ تَقُولُوا] - [أَوْ تَقُولُوا] بضمير المخاطبين.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني، ففي الخطاب يُواجه الله عز وجل مُنكري ربوبيته جل جلاله، وفي الحديث بالغية يخاطب الله عز وجل

المؤمنين، فَيَعْلَمُهُمْ طَرِيقَةً مِنْ طَرَائِقِ إِقْنَاعِ الْمُنْكَرِينَ، وَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا يُقْوِي إِيْمَانَهُمْ، وَيَحْذَرُهُمْ مِنَ الْإِنْكَارِ وَالْجُحُودِ مُسْتَقْبَلًا.

تمهيد:

هَذَا دَرْسٌ يَتَعَلَّقُ بِفَقْرَةٍ مُهِمَّةٍ مِنْ تَارِيخِ ذُرِّيَّةِ بَنِي آدَمَ، وَهُمْ فِي مَرَحَلَةِ التَّكْوُنِ الذَّرِّيِّ، إِذْ كَانُوا فِي ظُهُورِ آبَائِهِمْ، فَاسْتَخْرَجَهُمُ اللَّهُ رَبَّهُمْ، وَأَعْطَاهُمْ مَلَكَ الْوُغْيِ، وَإِذْرَاكَ الْخُطَابِ بِمَا يَفْهَمُونَ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ قَائِلًا لَهُمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا تَلَقَّايَا وَانْسِجَامًا مَعَ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا: بَلَى شَهِدْنَا أَنْتَ رَبُّنَا، أَي: أَنْتَ خَالِقُنَا وَمِمْدُنَا بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِكَ، وَالْمُتَصَرِّفِ فِيْنَا بِتَصَارِيفِكَ، مَا أَبْقَيْتَنَا فِي الْوُجُودِ عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاكِحِهِ، مِنْذُ النُّشْأَةِ الْأُولَى فِي عَالَمِ الذَّرَّاتِ، حَتَّى الْبَقَاءِ الْأَبَدِيِّ الَّذِي تَقْضِيهِ لَنَا.

وَأَلْحَقَ بِهَذَا الدَّرْسِ آيَةً فَاصِلَةً تُبَيِّنُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي بَيَانِهِ فِي كِتَابِهِ، الْقَائِمَةِ عَلَى تَفْصِيلِ الْآيَاتِ إِلَى أَجْزَائِهَا، وَالتَّعْرِيفِ بِهَا، فِي أَمَاكِنَ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ السُّورِ.

إِنَّ الْفِطْرَةَ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا مِنَ الْاعْتِرَافِ لِلرَّبِّ الْخَالِقِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ بِرُبُوبِيَّتِهِ لَهُمْ، وَالْإِذْعَانُ لَهُ بِهَذَا الْحَقِّ، قَدْ أَشْهَدَ اللَّهُ بِهِ النَّاسَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَهُمْ فِي مَرَحَلَةِ عَالَمِ الذَّرِّ، وَهُمْ خَالُونَ مِنْ شَهَوَاتِ الْحَيَاةِ وَنَزَعَاتِهَا وَنَزَعَاتِهَا، قَبْلَ أَنْ يُوصِلَهُمْ بِعَمَلِيَّاتِ الْخُلُقِ إِلَى مَرَحَلَةِ حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ، مَزُودِينَ بِالْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ، وَالنَّزَعَاتِ وَالنَّزَعَاتِ، وَالْإِرَادَةِ الْحَرَّةِ، وَالْقُدْرَةِ عَلَى كَسْبِ الْخَيْرِ، وَاكْتِسَابِ الشَّرِّ.

وَكَانَ ذَلِكَ الْإِشْهَادُ بِصُورَةٍ أَخْبَرَنَا اللَّهُ عَنْهَا فِي كِتَابِهِ الْمَنْزَّلِ، بَعْدَ أَنْ لَمْ يَبْقَ لَهَا فِي ذَاكِرَاتِنَا صُورَةٌ تَذَرُّكٌ، لَكِنْ بَقِيََتْ أَدَلَّةُ الْمَشْهُودِ بِهِ فِي عُقُولِنَا الْمَفْكُورَةِ، وَبَقِيََتْ خُيُوطٌ تَشْدُنَا إِلَيْهِ فِي مَشَاعِرِ إِحْسَاسَاتِنَا الدَّاخِلِيَّةِ الْعَمِيقَةِ، الَّتِي تَتَحَرَّكُ بِهَا قُلُوبُنَا، وَتَجْذِبُنَا نَحْوَهُ عِنْدَ اضْطِرَارِنَا، وَعِنْدَ حَاجَاتِنَا

الْمُلِحَّةَ، الَّتِي لَا نَجِدُ أَسْبَاباً لِحَقِيقِهَا غَيْرَ اللُّجُوءِ إِلَى الْقُوَّةِ الْغَيْبِيَّةِ الْكُبْرَى،
الْعَلِيمَةِ الْحَكِيمَةِ الرَّحِيمَةِ الْقَدِيرَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

وليس من الْعَقْلِ وَالرُّشْدِ أَنْ نَسْتَبْعِدَ هَذَا، فَمُعْظَمُ مَا جَرَى لَنَا فِي
طُفُولَتِنَا، وَكَثِيرٌ مِمَّا جَرَى لَنَا وَنَحْنُ أَخْدَاتُ مُمَيِّزُونَ قَدْ نَسِينَاهُ، وَيُخْبِرُنَا عَنْهُ
أَهْلُونَا وَالَّذِينَ كَانُوا مُشْرِفِينَ عَلَى تَرْبِيَّتِنَا، فَتَنْحُنْ نُحَدِّثُ بِهِ رِوَايَةً عَنْهُمْ.

وَبَعْضُهُ نَتَذَكَّرُهُ تَذَكُّراً بَاهِتاً، وَبَعْضُهُ نَتَذَكَّرُهُ فِيهِ مِقْدَارٌ غَيْرُ كَثِيرٍ مِنَ
الْجَلَاءِ، وَبَعْضُهُ نَتَذَكَّرُهُ جَلِيّاً.

وَنُصَدِّقُ مَا يُحَدِّثُنَا بِهِ أَهْلُونَا عَنْ طُفُولَتِنَا، وَمَا يُحَدِّثُنَا بِهِ مَنْ كَانُوا
مُشْرِفِينَ عَلَى تَرْبِيَّتِنَا، وَكَثِيرٌ مِنْهُ قَدْ اكْتَسَبْنَا بِهِ مَعَارِفَ وَعُلُوماً، وَصَارَتْ هَذِهِ
الْمَعَارِفُ وَالْعُلُومُ أَجْزَاءً مِنْ ذَوَاتِ عُقُولِنَا وَأَفْكَارِنَا، وَفِي مَهَارَاتِ أَعْضَائِنَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْنَا اللُّغَةَ الَّتِي نَتَحَدَّثُ بِهَا، وَحِينَ بَدَأْنَا تَعَلَّمَهَا كُنَّا شَاهِدِينَ كُلَّ
مَرَحَلَةٍ مِنْ مَرَاكِهَا، لَكِنَّا بَعْدَ أَنْ كَبُرْنَا نَسِينَا كُلَّ هَذِهِ الْمَرَاكِ الَّتِي عِشْنَاهَا
وَشَهِدْنَاهَا، وَبَقِيََتْ لَدَيْنَا آثَارُهَا وَثَمَرَاتُهَا، فَالْمَلَكَةُ الْبَيَانِيَّةُ، وَمَحْفُوظَاتُنَا مِنْ
الْكَلِمَاتِ ثَمَرَةٌ تِلْكَ الْمَرَاكِ.

أَفَتُنْكِرُهَا لِأَنَّا نَسِينَاهَا؟!

أَفَتُنْكَذِّبُ مَنْ يُحَدِّثُنَا عَنْهَا لِأَنَّا مُسِحِّحَتُ مِنْ ذَاكِرَاتِنَا، أَوْ طَوَيْتُ فِي
أَعْمَاقٍ تَلَايِفِهَا؟!

لَوْ لَمْ يُحَدِّثُنَا أَهْلُونَا وَمُرَبُّونَا عَنْهَا، لَكَانَ عَلَيْنَا أَنْ نُثْبِتَهَا بِدَلِيلِ آثَارِهَا
فِيْنَا.

كَذَلِكَ نَقُولُ فِيمَا أَخْبَرَنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَالِقُنَا وَرَبُّنَا عَنْهُ، مِنْ أَنَّهُ أَشْهَدُنَا
عَلَى أَنْفُسِنَا بِأَنَّهُ رَبُّنَا، أَيُّ: خَالِقُنَا وَمُمِيدُنَا بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَوَاماً، مُنْذُ كُنَّا
فِي مَرَحَلَةِ عَالَمِ الدَّرِّ، مِنْ مَرَاكِ بِدْءِ تَكْوِينِنَا، وَهِيَ غَيْرُ مَرَاكِ عَوَالِمِ
التَّحْرُكِ مِنَ الْأَصْلَابِ، إِلَى الْأَرْحَامِ، إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وهذه قصّة مضت من تاريخ مراحل تكويننا، قد أخبرنا الله عز وجل عنها في هذا النصّ.

لَقَدْ قَدَّرَ اللَّهُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ الْقَدِيرُ، أَنْ يَخْلُقَ مِنْ شَاءَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ مِنَ النَّاسِ بِمَخْتَلَفِ صُورِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ، وَقَضَى لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَقْتاً يَظْهَرُ فِيهِ فِي عَالَمِ الْإِبْتِلَاءِ، وَعُمُراً يَعْيشُهُ، وَظُرُوفَ امْتِحَانٍ يَتَعَرَّضُ لَهَا.

وَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْدَعَ فِي ظَهْرِهِ كُلَّ ذُرِّيَّاتِهِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَجَعَلَهُمْ مُتَدَاخِلِينَ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، عَلَى وَفْقِ نِظَامٍ تَنَاسُلِهِمُ الَّذِي ظَهَرَ فِيهَا بَعْدُ.

دَلَّنَا عَلَى هَذَا مَا جَاءَ فِي بَيَانِ الرَّسُولِ ﷺ لِهَذَا الْأَخْذِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا النَّصِّ، إِذْ جَاءَ فِي بَيَانِ الرَّسُولِ أَنَّ اللَّهَ مَسَحَ عَلَى ظَهْرِ آدَمَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ كُلَّ ذُرِّيَّتِهِ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِسَنَدِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

«إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِنُعْمَانٍ يَوْمَ عَرَفَةَ، فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَاهَا^(١)، فَتَنَنَاهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قُبُلًا^(٢)، قَالَ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى شَهِدْنَا».

وَجَاءَ هَذَا الْحَدِيثُ مَوْقُوفاً عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، فِيمَا رَوَى الثَّسَائِي، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَكَذَا رَوَاهُ غَيْرُهُمْ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاجِمٍ: حَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ:

«إِنَّ اللَّهَ مَسَحَ صُلْبَ آدَمَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ كُلَّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا إِلَى يَوْمِ

(١) ذَرَأَاهَا: أَيِ خَلَقَهَا.

(٢) قُبُلًا: أَيِ: مُوَاجَهَةً وَعِيَانًا.

الْقِيَامَةِ، فَأَخَذَ مِنْهُمْ الْمِيثَاقَ أَنْ يَغْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَتَكْفُلَ بِالْأَرْزَاقِ، ثُمَّ أَعَادَهُمْ فِي صُلْبِهِ، فَلَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، حَتَّى يُوَلَّدَ مَنْ أُعْطِيَ الْمِيثَاقَ يَوْمَئِذٍ، فَمَنْ أَدْرَكَ مِنْهُمْ الْمِيثَاقَ الْآخَرَ فَوْقَى بِهِ، نَفَعَهُ الْمِيثَاقُ الْأَوَّلُ، وَمَنْ أَدْرَكَ الْمِيثَاقَ الْآخَرَ فَلَمْ يُقَرَّ بِهِ لَمْ يَنْفَعَهُ الْمِيثَاقُ الْأَوَّلُ، وَمَنْ مَاتَ صَغِيراً قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَ الْمِيثَاقَ الْآخَرَ، مَاتَ عَلَى الْمِيثَاقِ الْأَوَّلِ عَلَى الْفِطْرَةِ».

أقول: الميثاق الآخر هو ميثاق الدُّخُولِ في الإسلام، بإعلان، «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» في حياة الابتلاء، والعهد على الالتزام بمقتضاها.

وما جاء موقوفاً على ابنِ عباسٍ في هذا، لا يُقَالُ من قِبَلِ الرَّأْيِ، فَلَهُ فِي الرَّاجِحِ حُكْمُ الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

التدبر:

قول الله عز وجل:

• ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾ (٧٢)

[إذ]: ظرف زمان بمعنى «الحين» وهو معمول لفعلٍ محذوف تقديره، [اذكر].

أي: وضع في ذاكرتك أيها الصالح لتلقي هذا النبأ حين أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم.

والمعنى أخذ من ظهر كل واحدٍ منهم ذريته، ونفهم كيف كان هذا حين نذرك أن مصغر كل إنسان قد أودع الله في ظهره مصغرات كل من سيخرج من نسله، وتتسلسل الظهور والمصغرات في كل منها، متداخلة بعضها في بعض، حتى آخر نسل من الناس.

وليس هذا مما يستبعد على قدرة الله جل جلاله وعظم سلطانه - فقد

اكتشفنا في عَصْرِنَا الحَاضِرِ مِنَ المَصْغَرَاتِ الذَّرِّيَّةِ المتداخلة ما لو ائتشر وكبر بخصائصه لملأ العالم، وقُدْرَةُ الله أَعْظَمُ وَأَجَلٌ.

إِنَّ خَلْقَ اللَّهِ المَتَقَّنَ خَلَقَ مُدْهِشٌ مُحَيِّرٌ، سواء فيما أَتَقَنَ مِنَ المَصْغَرَاتِ الَّتِي قَدْ يَجْمَعُ مِقْدَارُ رَأْسِ الإِبْرَةِ مِنْهَا، عشرات ملايين الوَحَدَاتِ ذوات الصفات الخاصة، الَّتِي لو كُبِّرَتْ لكانت خَلْقاً مُدْهِشاً. أم فيما أَتَقَنَ - جَلَّ جَلَالُهُ - من المَكْبَرَاتِ اللَّاتِي لا يَسْتَطِيعُ الوَهِمُ إدراك مَدَاهَا.

والمراد بالأخذ هنا القبض والاستخراج من مُسْتَقَرِّ أصْلاب الذكور، للذَّرِّيَّةِ الإنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا، المَقْدَرُ إيجادها في أزمانها المحددة لظهورها في حياة الابتلاء على هذه الأرض.

قول الله تعالى:

• ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا...﴾ (١٧٢)

أي: جَعَلَهُمْ يَشْهَدُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ، خَالِقُهُمْ وَمُؤَدِّهُمْ بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ مَا دَامُوا فِي الوجود، وَمُهَيِّئِنَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِيهِمْ.

وهذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ - قَدْ عَرَضَ عَلَيْهِمْ مَا شَاهَدُوا بِهِ أَفْعَالَ رُبُوبِيَّتِهِ لَهُمْ، فَلَمَّا شَاهَدُوا شَهِدُوا بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ، وَيَدُلُّ أَيْضاً عَلَى أَنَّهُ مَنَحَ مُصْغَرَاتِ ذُرِّيَّةِ آدَمَ حِينُنْذٍ وَغِيّاً إِذْ رَاكِباً لِفَهْمِ الخُطَابِ، وَلِفَهْمِ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ، وَلِفَهْمِ مَعْنَى الإِقْرَارِ والشَّهَادَةِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾: اسْتَفْهَامُ تَقْرِيرِيٍّ عَنْ نَفْيِ رُبُوبِيَّتِهِ لَهُمْ، وَجَوَابُهُ فِي حَالَةِ إِثْبَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ يَكُونُ بِحَرْفِ «بَلَى» إِذْ هُوَ حَرْفُ جَوَابٍ يَخْتَصُّ بِالنَّفْيِ، وَيُفِيدُ إِبْطَالَهُ وَإِثْبَاتَ نَقِيضِهِ، وَلَا يَصْلُحُ فِي هَذَا الاسْتَفْهَامِ وَلَا فِي أَمْثَالِهِ الْجَوَابُ بِحَرْفِ «نَعَمْ» لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الإِقْرَارِ بِنَفْيِ رُبُوبِيَّتِهِ لَهُمْ، فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا: نَعَمْ لَسْتُ بِرَبَّنَا، وَهَذَا نَقِيضُ مَا أَشْهَدَهُمْ عَلَيْهِ.

﴿قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ : أي: أجابوا بإبطالِ نفيِ رُبِّيَّتِهِ لهم، وإثباتِ نقيضِهِ، وهو رُبُوبِيَّتُهُ لهم، وأعلنوا أنَّهم قد شهدوا على أنفسهم مُعْتَرِفِينَ بِأَنَّهُ جَلَّ جلالُهُ هو رَبُّهُمْ، أي: بَلَى، أنت رَبُّنَا، ونشهد بهذا على أنفسنا.

أمَّا تفصيلُ كَيْفَ أشْهَدْنَا على أنفسنا، ففِصَّةٌ من الغَيْبِ عَنَّا، بَعْدَ أَنْ نَسِيْنَاهَا، فَهِيَ مَطْوِيَّةٌ فِي أَعْمَاقِ ذَاكِرَاتِنَا، الَّتِي لَا تُذَرِّكُ رُؤْيَيْنَا الْحَاضِرَةَ مِنْهَا إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهَا.

لَكِنَّ خَبَرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ حُدُوثِ هَذَا الْأَمْرِ، وَنَحْنُ فِي مَرَحَلَةٍ مِنْ مَرَاكِجِ أَطْوَارِ وَجُودِنَا خَبَرَ حَقٍّ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَقَدْ بَقِيَثْ لَدَيْنَا آثَارُ هَذَا الْإِشْهَادِ، وَهِيَ الْفِطْرَةُ الَّتِي بِهَا تُذَرِّكُ الْخَالِقَ الرَّبَّ جَلَّ جلالُهُ، وَتَشْدُنَا إِلَيْهِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ، فَتُدْعُوهُ، وَتُلْجَأُ إِلَيْهِ، وَتَشْدُنَا إِلَيْهِ الْمَشَاعِرُ الدَّاخِلِيَّةُ النَّفْسِيَّةُ وَالْقَلْبِيَّةُ، لِنَمْجِدَهُ، وَنُحْمَدَهُ، وَنُعْظِمَهُ، وَنُعْبُدَهُ.

فدليلُ الْعَقْلِ، ودليلُ الْفِطْرَةِ النَّفْسِيَّةِ وَالْقَلْبِيَّةِ، ودليلُ الْخَبَرِ عَنْ اللَّهِ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَنَا فِيهِ أَنَّهُ أَشْهَدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا، إِذْ قَالَ لَنَا فِي مَرَحَلَةِ الذَّرِّ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ فَقُلْنَا: بَلَى، شَهِدْنَا. كُلُّ هَذِهِ الْأَدْلَةُ تُؤَكِّدُ أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ الْخَالِقِ الرَّبِّ، فِطْرَةٌ فَطَرَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا، وَسَوْفَ يَدْعُوهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الدِّينِ إِلَى الشَّهَادَةِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَإِذَا جَحَدُوا أَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ الدَّامِغَةَ، وَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ.

الزمن الملائم لهذا الحدث من تاريخ أطوار وجود بني آدم:

دَلَّتْ كَلِمَةُ [إِذ] الظَّرْفِيَّةُ، عَلَى أَنَّ حَدَثَ إِخْرَاجِ الذَّرِّيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَإِشْهَادِهَا عَلَى أَنْفُسِهَا بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ لَهَا، قَدْ تَمَّ فِيهَا مَضَى لِكُلِّ الذَّرِّيَّةِ مِنْ بَنِي آدَمَ، حَتَّى آخِرِ نَسَمَةٍ تُولَدُ قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ.

وبالتفكير نُذَرِّكُ أَنَّ الزَّمَانَ الْأَفْضَلَ لِهَذَا الْإِخْرَاجِ، هُوَ الزَّمَنُ الَّذِي كَانَ فِيهِ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيًّا، قَبْلَ أَنْ يُولَدَ لَهُ وَلَدٌ مَا، لِأَنَّ أَوْلَادَ آدَمَ الْمُبَاشِرِينَ

لَهُ قَدْ أُجْرِيَ عَلَيْهِمْ حَدَثُ هَذَا الْإِشْهَادِ، وَهُمْ فِي عَالَمِ الذَّرِّ، قَبْلَ أَنْ يَنْتَقِلُوا مِنْ مُسْتَقَرِّ صُلْبِهِ، إِلَى مُسْتَوْدَعِ رَحِمِ أُمِّهِمْ حَوَاءَ.

فَدَلَّ الْبَيَانُ عَنْ طَرِيقِ اللِّوَازِمِ الْفِكْرِيَّةِ عَلَى أَنَّ الرَّبَّ جَلَّ وَعَلَا، قَدْ اسْتَخْرَجَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ حَافِظَةَ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

وَدَلَّ أَيْضاً عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْحَافِظَةَ تَشْتَمِلُ عَلَى أَكْوَانِ أَوْلَادِهِ الْمُبَاشِرِينَ، وَفِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَكْوَانُ أَوْلَادِهِ، وَهَكَذَا تَسِيرُ إِلَى أَكْوَانِ أَوْلَادِهِمْ، فَأَوْلَادُ أَوْلَادِهِمْ، بِالتَّسْلُسِ إِلَى آخِرِ ذُرِّيَّةِ آدَمَ.

فَنَشَرَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الذَّرِّيَّاتِ أَفْرَاداً، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُتَدَاخِلَةً فِي الظُّهُورِ، أَي: فِي الْأَضْلَابِ مِنْهَا، ضِمْنَ نِظَامٍ مُتَقَنٍّ مُدْهِشٍ مُحِيرٍ لِلْعُقُولِ، كَوَعَاءٍ فِيهِ مَصْغَرَاتُ أَوْعِيَةٍ، بَعْدَ بَنِي آدَمَ، مُنْذُ خَلَقَ آدَمَ، حَتَّى آخِرِ إِنْسَانٍ يُوَلَّدُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مَوْجُودٌ ضِمْنَ ظَهْرِ رَجُلٍ وَاحِدٍ هُوَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَجَاءَ فِي بَيَانِ الرَّسُولِ ﷺ، أَنَّ اللَّهَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ أَنْ لَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَهُمْ فِي ظَهْرِ آدَمَ.

أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِسَنَدِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟» قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ.

فَيَقُولُ (أَي: الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى): قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئاً، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ بِهِ.

قول الله تعالى:

• ﴿... أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١٧٢)

أي: نُخَبِّرُكُمْ بهذا الحدثِ الَّذِي جَرَى لَكُمْ، وأنْتُمْ في طور الوجودِ الذَّرِّيِّ في ظُهورِ آبائكم، دَفَعَ أَوْ مَنَعَ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ، لَمْ يَكُنْ هَذَا الحدثُ حَاضِراً في ذَاكِرَاتِنَا، فَقَدْ نَسِينَاهُ.

ودَفَعَ أَوْ مَنَعَ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، مُنْصَرِفِي الْأَذْهَانَ، إِذَا قُلْنَا لَكُمْ لَقَدْ أَبْقَيْنَا آثَارَهُ فِي عُقُولِكُمْ أدَلَّةً تَدُلُّكُمْ عَلَى أَنَّ رَبَّكُمْ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَبْقَيْنَا فِي نُفُوسِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ فِطْرَةَ تَنْزِعُ بِكُمْ إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ.

فبهذا الإخبار نَدْفَعُ وَنَمْنَعُ اعتذاركم بالنسيان، وَنَدْفَعُ وَنَمْنَعُ اعتذاركم بالغفلة يوم الدين.

الغفلة: عن الشيء، هي انصرافُ الذَّهْنِ عن مُلَاحَظَتِهِ، ومُراقبته، مع وُجُودِهِ في مجال الإِذْرَاكِ، أَوْ وُجُودِ أدَلَّتِهِ، وإمكانِ إِذْرَاكِهِ بِهَا، لَوْلَا وُجُودُ الصَّارِفِ، أَوْ السَّهْوِ الَّذِي هُوَ بِمَثَابَةِ إِطْبَاقِ الْجَفْنَيْنِ عَلَى الْعَيْنَيْنِ مع إمكانِ الرُّؤْيَةِ.

إِذَنْ: فَلِدَفْعِ الاعتذار يوم الدين، بنسيانِ حَدَثِ إِشْهَادِكُمْ السَّابِقِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِأَنِّي أَنَا رَبُّكُمْ، وَلِدَفْعِ الاعتذارِ بِالْغَفْلَةِ عَنْ آثَارِ هَذَا الحدثِ الْبَاقِيَةِ فِي فِطْرِ عُقُولِكُمْ وَنُفُوسِكُمْ وَعُمُقِ قُلُوبِكُمْ، أَخْبِرْكُمْ بِهَذَا الحدثِ، لِأَوْجَهٍ أَنْظَارَكُمْ إِلَى آثَارِهِ فِيكُمْ، وَلَأَقِيمَ الْحُجَّةَ عَلَيْكُمْ بِأَنِّي أَخْبَرْتُكُمْ بِمَا شَهِدْتُمْ بِهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِذْ كُنْتُمْ فِي مَرْحَلَةِ الذَّرِّ مِنْ أَطْوَارِ وُجُودِكُمْ، فَكَذَّبْتُمْ خَبْرِي، وَلَمْ تَعْبُؤُوا بِمَا أَبْقَيْتُ فِي فِطْرِكُمْ مِمَّا شَهِدْتُمْ بِهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مِنْ آثَارِ.

فَدَلَّ ذِكْرُ الغفلةِ عَنِ الْآثَارِ الْمَوْجُودَةِ فِي فِطْرِ الْعُقُولِ وَالنُّفُوسِ وَالْقُلُوبِ، عَلَى أَنَّهُمْ يَغْتَذِرُونَ قَبْلَهَا بِالنَّسيانِ، لَكِنْ إِنْزَالُ هَذَا الْبَيَانِ فِي الْقُرْآنِ يَدْفَعُ الْعِذَارَ بِالنَّسيانِ، وَيَدْفَعُ الْعِذَارَ بِالْغَفْلَةِ مَعاً.

وهذا من إبداعات الإيجاز القرآني، إذ يُوجَدُ في المذكور ما يدلُّ على المحذوف، مع نظرات التلاؤم واللوازم الفكرية، فذِكْرُ الْعَقْلَةِ يلائم آثار الإشهاد في العقول والنفوس وعمق القلوب، والإنباء بأضل الحدث يستدعي عن طريق اللوازم الفكرية أن يَعْتَدِرُوا بالنسيان لو لَمْ يَنْزِلْ به هذا البيان القرآني.

قول الله تعالى:

● ﴿أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (١٧٣)

المبطلون: هم الذين يفترون الباطل - أو يستمسكون به، أو يعملون بمقتضاه، والباطل المراد هنا هو الشرك بالله ولوازمه.

والمعنى: ونُخَبِّرُكم بهذا الحدث الذي جرى لكم وأنتم في مَرَحَلَةِ الذَّرِّ من أطوار وجودكم، وأبقينا آثاره في فطر عقولكم ونفوسكم وقلوبكم، دفع أو منع أن تقولوا إن أتنكُم بواذر الإهلاك في الدنيا: إنما أشرك آباؤنا من قبل، أي: لم نكن نحن مُخْتَرِعي الإشراك، ولا البادئين به، إنما أشرك آباؤنا من قبلنا، وقد ورثنا عنهم عقائدهم بتأثير البيئة، وسلطان موارثها الضاغطة، فقد كُنَّا ذُرِّيَّةً من بعدهم مقلدين لهم، والناشئ في بيئة لا بد أن يتأثر بالموارث الفكرية والاعتقادية التي يجدها في بيئة آباءه وأجداده.

لكن اعتذارهم هذا يدفعه ويسقطه، أن يُقال لهم: إِنَّ الرَّبَّ الْخَالِقَ لَكُمْ ولآبائكم، قد أبان لكم في كتابه الذي أنزله على رسوله، أنه أشهدكم وأشهد آباءكم وكلُّ ذُرِّيَّةِ آدم وأنتم في مَرَحَلَةِ الذَّرِّ من وجودكم، على أنفسكم بأنه هو وحده رَبُّكُمْ الذي لا ربَّ لكم غيره، فلا إله لكم غيره، وبعد هذا البيان الذي نقص عليكم فيه قصة إشهادكم على أنفسكم ينسقط اعتذاركم بموثرات البيئة، وموارث آباؤكم الشركية، ولا سيما ما في فطركم

من آثار ما أَشْهَدَكُمُ اللَّهُ بِهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَمَسْئُولِيَّتُكُمْ عَنْ إِشْرَاكِكُمْ
مسؤولية كاملة.

واستِعمالُ عبارة: ﴿أَفْهَلِكُنَا﴾ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ اغْتِذَارَهُمُ الْوَاردَ فِي هَذِهِ
الآيةِ، إِنَّمَا يَكُونُ حِينَمَا يُشَاهِدُونَ بِوَادِرِ الْإِهْلَاكِ فِي الدُّنْيَا، عِقَاباً لَهُمْ عَلَى
شُرْكِهِمْ، إِذِ الْإِهْلَاكُ هُوَ الْإِمَاتَةُ بِاسْتِثْصَالِ شَامِلٍ، بِالْمَهْلِكَاتِ الْمَعْذَبَاتِ،
وَالِهْلَاكُ هُوَ الْمَوْتُ الَّذِي يَسْتَهْلِكُ وُجُودَ الْكَائِنِ الْحَيِّ، أَمَّا عَذَابُ يَوْمِ الدِّينِ
فَلَا مَوْتَ فِيهِ وَلَا اسْتِهْلَاكَ يَغْتَبُهُ.

وَكُلُّ مَا اسْتُعْمِلَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ مَادَّةِ الْهَلَاكِ وَالْإِهْلَاكِ، فَهُوَ فِي
الْمَوْتِ، وَالْعَذَابِ الدُّنْيَوِيِّ الْمَمِيتِ.

وَلَمْ أَجِدْ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ مَنْ تَنَبَّهَ إِلَى هَذِهِ الْفِكْرَةِ، فَوَجَّهَ الْاعْتِذَارَ فِي
الْآيَتَيْنِ (١٧٢ - ١٧٣) لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، يَوْمِ الْحِسَابِ، وَفَضَّلَ الْقَضَاءَ.

لَكِنَّ الْفَهْمَ الَّذِي فَتَحَ اللَّهُ بِهِ عَلَيَّ أَوَّلَى بِالْاعْتِمَادِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَيُتِمُّ مَا جَاءَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ نَصُّ آخِرِ جَاءَ فِي سُورَةِ (الْأَحْزَابِ/
٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ
مِنَهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢):

كَانَ عَرَضُ الْأَمَانَةِ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَالْإِنْسَانِ عَرَضٌ
تَخْيِيرٌ، بِقَبُولِ حَمْلِ الْأَمَانَةِ، أَوْ عَدَمِهِ، أَمَّا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ،
فَاخْتَرَنَ عَدَمَ قَبُولِ حَمْلِ الْأَمَانَةِ، مَا دَامَ الْعَرَضُ عَرَضٌ تَخْيِيرٌ لَا إِلْزَامَ فِيهِ،
وَلَا عِتَابَ عَلَى الْاغْتِذَارِ عَنْ قَبُولِ حَمْلِهَا.

وَكَانَ إِبَاءُ هُنَّ قَبُولَ حَمْلِهَا خَوْفًا مِنَ الْانْزِلَاقِ إِلَى مَخَاطِرَ، تُقْضِي بِهِنَّ
إِلَى عَذَابِ اللَّهِ.

﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾: أي: وَخِفْنَ وَحَذِرْنَ مِنْ تَحْمِلِ الأمانة، وَمِمَّا يَتَرْتَبُ عَلَى حَمْلِهَا مِنْ مَسْئُولِيَةٍ وَمُحَاسِبَةٍ وَجِزَاءٍ، لِأَنَّ حَمْلَهَا مَعَ مَا فِيهِ مِنْ تَكْرِيمٍ وَتَشْرِيفٍ، يَسْتَلْزِمُ مَنْحَ شُرُوطِ الْامْتِحَانِ وَالْمَسْئُولِيَةِ وَالتَّكْلِيفِ، وَيَسْتَتْبِعُ الْمُحَاسِبَةَ، وَقَضَى الْقَضَاءِ، وَالْجِزَاءِ، بِالنَّعِيمِ أَوْ بِالْعَذَابِ. فَالْإِشْفَاقُ وَالْخَوْفُ مِنْ هَذَا.

أَمَّا الْإِنْسَانُ فَقَدْ اخْتَارَ حَمْلَ الْأَمَانَةِ، وَأَحَبَّ الْمَغَامِرَةَ وَالْمَخَاطِرَةَ، لَكِنَّهُ بَعْدَ حَمْلِ الْأَمَانَةِ، وَدُخُولِهِ مَرْحَلَةَ الْامْتِحَانِ، كَانَ فِي وَاقِعِ رِخْلَتِهِ، الَّتِي وُضِعَ فِيهَا مَوْضِعُ الْامْتِحَانِ، ظُلُومًا وَكَانَ جَهُولًا، فِي النِّسْبَةِ الْعَظْمَى مِنْ أَفْرَادِهِ، فَالْحُكْمُ عَلَى الْإِنْسَانِ بِالظُّلْمِ وَالْجَهْلِ حُكْمٌ لَوْحَظَ فِيهِ أَكْثَرُ الْأَفْرَادِ.

ظُلُومًا: أي: كَثِيرَ الظُّلْمِ لِنَفْسِهِ، بَارْتِكَابِهِ مَا يَسُوقُهُ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ. جَهُولًا: أي: كَثِيرَ اخْتِيَارِ سُبُلِ الْجَهْلِ الْمَعْرِفِي، وَسُبُلِ الْجَهْلِ السُّلُوكِيِّ، الَّتِي تَدْفَعُ إِلَى سُلُوكِهَا الْحِمَاقَةُ، وَالْأَهْوَاءُ الرِّغْنَاءُ، وَالشَّهَوَاتُ الطَّائِشَاتُ.

ما هي الأمانة التي عرضها الربُّ جلَّ جلاله؟:

ونتساءلُ عن الأمانة الَّتِي عرضها الله عزَّ وجلَّ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَالْإِنْسَانِ، فَأَبَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ أَنْ تَحْمِلَهَا، وَأَشْفَقَتْ مِنْ حَمْلِهَا، وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ؟!!

لَا بُدَّ لِلْإِجَابَةِ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ مِنْ تَحْلِيلِ لِلصِّفَاتِ الَّتِي تَتَّصِفُ بِهَا هَذِهِ الْكَائِنَاتُ، وَلِعُنَاصِرِ الْأَمَانَةِ، لِإِذْرَاكِ الْأُمُورِ الَّتِي جَعَلَتْ الْأَرْضَ وَالْجِبَالَ وَالسَّمَاوَاتِ تَأْتِي حَمْلَهَا، وَالَّتِي جَعَلَتْ الْإِنْسَانَ يَقْبَلُ حَمْلَهَا، وَيَسْتَعِدُّ لَتَحْمِلِ التَّكْلِيفِ الْمُرَافِقِ لِحَمْلِهَا، وَتَبَعَةِ الْحِسَابِ، وَقَضَى الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزِ الْجِزَاءِ بَعْدَ ذَلِكَ.

إِنَّ الْعَرَضَ يَسْتَلْزِمُ عَقْلاً إِذْرَاكَ الْمَعْرُوضِ عَلَيْهِ حَقِيقَةً مَعْنَى مَا يُعْرَضُ عَلَيْهِ، أَيْ: فَهْمَهُ، وَالْعِلْمَ بِهِ، إِذَا كَانَ أَمْرُ الْعَرَضِ أَمْرًا حَقِيقِيًّا، لَا مُجَازِيًّا.

ومعلوم أن الفهم لشيء ما يستلزم وجود أداة الفهم، أو جهاز الفهم لدى الفاهم، والاستعداد لإدراك وسيلة التفهم.

والإدراك قد يكون صفة للمخلوق دون أن تكون له صفات الشهوة، والإحساسات باللذة والألم ونحو ذلك، ودون أن تكون له إرادة واختيار وقدرة على تنفيذ شيء مما يريد.

وهل يشترط له نوع حياة أو لا؟.

أقول: هذا أمر من أمور الغيب عتاً، ومن الصعب علينا البت به سلباً أو إيجاباً.

وقد أخبرنا الله عز وجل أن كل شيء يسبح بحمده، ولكن لا نفقه تسبيحهم، فهل هذا التسبيح بدلالة الحال، أم هو تسبيح معه نوع إدراك خلقه الله للأشياء؟

احتمالان قائمان، والثاني منهما غير مستحيل، والله على كل شيء قدير.

وقد كشفت العلوم الحديثة لنا من خصائص الخلايا، وأعمالها، ووظائفها، وما تؤدّيه من أعمال مثقنة في أجساد الأحياء، ما يذهش العقول، فكان لها إدراكات، وتحمل إنذارات ورسائل، وترجع بالمطلوب على أحسن وجه، فسبحان الخالق العليم الحكيم، الذي هو على كل شيء قدير.

وبناء على هذا نقول: حين عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال، وعلى الإنسان الأول وفيه ذريته، أو على الإنسان الشامل لكل

أفراده وهم في مَرَحَلَةِ الدَّرْ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَوْلَاءَ قَدْ أَدْرَكُوا مَا عُرِضَ عليهم وفهموه، حتَّى يَأْتِي حَمْلَ الأمانةِ مِنْ أباه، وَيَقْبَل حَمْلَهَا مِنْ قِبَلِهِ.

وَيُمْكِنُ أَنْ نُصَوِّرَ هَذَا الْعَرَضَ وَالْجَوَارَ الَّذِي جَرَى حَوْلَهُ تَخْيِلاً، وَاسْتِنْبَاطاً مِنْ وَجِيزِ الْبَيَانِ الْقِرَائِيِّ.

الْعَرَضُ: أَتُرِيدُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ؟ أَتُرِيدِينَ أَيُّهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ أَنْ تَحْمِلِي الأمانةَ.

المعروض عليهم: مَا هِيَ الأمانةُ الَّتِي نَحْمِلُهَا؟

العرض: تُجْعَلُ لَكُمْ إِرَادَةُ حُرَّةٍ، وَسُلْطَةُ عَلَى بَعْضِ مَا يُوَضَّعُ فِي ذَوَاتِكُمْ مِنْ قُوَى وَطَاقَاتٍ وَأَشْيَاءَ أَمَانَةٍ عِنْدَكُمْ، عَلَى سَبِيلِ الْإِعَارَةِ لِلانْتِفَاعِ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ الْوَدِيعَةِ، وَيُؤَدَّنُ لَكُمْ بِالتَّصَرُّفِ فِيهَا بِإِرَادَاتِ حُرَّةٍ، وَبِالتَّصَرُّفِ فِيهَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْكُونِ، مِمَّا تَصِلُ قُدْرَاتُكُمْ إِلَى التَّصَرُّفِ فِيهِ، أَوْ إِلَى مَفَاتِيحِ التَّصَرُّفِ فِيهِ.

المعروض عليهم: هَذَا التَّصَرُّفُ مِنْ صِفَاتِ الْخَالِقِ الْمَالِكِ، وَكَيْفَ نَتَصَرَّفُ وَلَيْسَ لَدَيْنَا رَغَبَاتٌ، وَلَا شَهَوَاتٌ، وَلَا حَاجَاتٌ، وَلَا أَهْوَاءَ، وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ تَكُونَ لَنَا صِفَاتُ الرَّبِّ الْخَالِقِ الْحَكِيمِ.

العرض: تَخْلُقُ فِيكُمْ رَغَبَاتٌ، وَشَهَوَاتٌ، وَحَاجَاتٌ، وَلَذَاتٌ، وَأَلَامٌ.

المعروض عليهم: وَهَلْ يُبَاحُ لَنَا أَنْ نَتَصَرَّفَ بِإِرَادَاتِنَا الْحُرَّةِ وَفَقَّ رَغَبَاتِنَا وَشَهَوَاتِنَا وَحَاجَاتِنَا وَأَهْوَانِنَا، دُونَ مَسْئُولِيَّةٍ، وَلَا حِسَابٍ وَلَا عِقَابٍ.

العرض: يُعْطَى لَكُمْ التَّمْيِيزُ مِنَ التَّصَرُّفِ، لَكِنْ لَا عَلَى سَبِيلِ إِبَاحَةٍ كُلِّ شَيْءٍ.

المعروض عليهم: كَيْفَ نَتَصَرَّفُ إِذَنْ؟.

العرض: يُوجَّهُ لَكُمْ الْأَمْرُ الرَّبَّانِي بِفِعْلِ أَشْيَاءَ، وَبِتَرْكِ أَشْيَاءَ، عَلَى

خلاف رَغْبَاتِكُمْ، وشَهَوَاتِكُمْ، وأَهْوَاتِكُمْ، وتُبَاحُ لَكُمْ أَشْيَاءٌ لَتَلْبِيَةِ مَطَالِبِ حَاجَاتِكُمْ وشَهَوَاتِكُمْ.

المعروض عليهم: فإذا عَصَيْنَا أَمَرَ رَبِّنا ونَوَاهِيه، فَمَا هُوَ جَزَاؤُنَا؟.

العرض: أَنْتُمْ إِذَنْ مُلَاحِظُونَ بِالمَحَاسِبَةِ، والقضاء، وتنفيذ الجزاء على اختياركم المخالفة لأَمْرِ رَبِّكُمْ ونَوَاهِيه، وعليكم أَنْ تَتَحَمَّلُوا عَذَابَ العصيان.

أَمَّا إِذَا أَطَعْتُمْ وَاسْتَقَمْتُمْ فَإِنَّا نَمْنَحُكُمْ سَعَادَةً أَبَدِيَّةً، نُحَقِّقُ لَكُمْ فِيهَا مِنَ النِّعَمِ الْخَالِدِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ أَذَكَّى المَخْلُوقَاتِ.

المعروض عليهم: هذا تَكْرِيمٌ وَتَشْرِيفٌ، مقرونٌ بتكليف، ومُسْتَتَبِعٌ بِحِسَابٍ، وقضاءٍ، وجزاءٍ، وَلَكِنْ هَلْ يَبْقَى فِي ذَاكِرَاتِنَا هَذَا الْعَرَضُ، ولهذا الحَوَازُ؟

العرض: لَا، فهذا الْعَرَضُ وهذا الْحَوَازُ، سَيُطَوَّى مِنْ ذَاكِرَاتِكُمْ، وَتُطَوَّى أَيْضاً هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ الْحَاضِرَةُ بِخَالِقِكُمْ، وَيَبْقَى فِيكُمْ مَا يَشْدُكُمْ إِلَى مَعْرِفَتِهِ، وَالْإِيمَانِ بِهِ إِيْمَانًا غَيْبِيًّا، وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْغَايَةِ مِنْ وُجُودِ الْأَمَانَةِ الْكُبْرَى تَحْتَ سُلْطَتِكُمْ، وَتُرْسَلُ إِلَيْكُمْ الرُّسُلُ، وَتُنْزَلُ إِلَيْكُمْ الْكُتُبُ لِتُغْرِيفَكُمْ، وَبَيَانِ الْمَطْلُوبِ مِنْكُمْ، وَإِنذَارِكُمْ وَتَحْذِيرِكُمْ، وَتَبْشِيرٍ مَنْ آمَنَ وَأَطَاعَ مِنْكُمْ.

المغْرُوضُ عليهم: مَا نَوْعُ هَذَا الْجَزَاءِ؟

العرض: عَذَابٌ أَبَدِيٌّ أَلِيمٌ بِالحَرِيقِ عَلَى الْكُفْرِ بِالْخَالِقِ وَالْإِشْرَاقِ بِهِ، جَحْدُوداً لِرُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ إِلَهِيَّتِهِ، أَوْ الْإِشْرَاقِ بِهِمَا، وَعَذَابٌ دُونَ ذَلِكَ بِالْعَدْلِ عَلَى الْمَعَاصِي وَالْإِسَاءَاتِ.

ونعيمٌ أَبَدِيٌّ عَلَى الْإِيمَانِ بِالرَّبِّ إِيْمَانًا غَيْبِيًّا، وَعَلَى الْإِسْلَامِ لَهُ. وفي

هذا النعيم درجاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، عَلَى مَا يُقَدَّمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ، مع اخْتِمَالِ غُفْرَانٍ وَعَفْوٍ عَنْ سَيِّئَاتٍ دُونَ الشُّرْكِ، بِحَسَبِ مَشِيئَةِ بَارئِكُمْ الْحَكِيمَةِ.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ: هَذِهِ مُحَاطَرَةٌ مُخِيفَةٌ نَأْبَى دُخُولَهَا وَقَبُولَهَا، مَا دَامَ الْعَرَضُ تَخْيِيرًا لَا جَبْرَ فِيهِ، وَلِهَذَا فَإِنَّا نَأْبَى حَمْلَ هَذِهِ الْأَمَانَةِ.

الإنسان: (ذُو الْعَنَاصِرِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تُحِبُّ الْمَخَاطَرَةَ وَالْمَغَامَرَةَ وَالسُّلْطَةَ تَمَلُّكَ وَأَمْرًا وَاسْتِعْلَاءً).

قَبِلْتُ هَذَا الْعَرَضَ، فَأَنَا أَخْمِلُ هَذِهِ الْأَمَانَةَ الْكُبْرَى، وَأَتَحْمِلُ تَبِعَاتَهَا، وَتَخْلُو عِنْدِي هَذِهِ الْمَخَاطَرَةُ، وَيَشْدُنِي إِلَيْهَا الطَّمَعُ فِي أَنْ أَتَالَ مَقَامَ التَّكْرِيمِ، وَأُبْلَغَ الْمَجْدَ الْعَظِيمِ.

العرض: خُذِ الْأَمَانَةَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، وَاذْخُلْ رِحْلَةَ الْامْتِحَانِ.

الأشياء الَّتِي وَضَعَهَا الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ أَمَانَةً تَحْتَ سُلْطَةِ الْإِنْسَانِ:

بِالتَّفَكُّرِ الْمَتَعَمِّقِ بِصَبْرٍ وَأَنَاقَةٍ، نُذَرِكُ أَنَّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي وَضَعَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمَانَةً تَحْتَ سُلْطَةِ الْإِنْسَانِ، الْمَزُودِ بِالْخَصَائِصِ الَّتِي تُؤْهِلُهُ لِحَمْلِ الْأَمَانَاتِ، بُغْيَةً اخْتِبَارَهُ فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، هِيَ كُلُّ شَيْءٍ مَادِيٍّ أَوْ مَعْنَوِيٍّ دَاحِلٍ فِي ذَاتِ الْإِنْسَانِ، أَوْ خَارِجٍ عَنْ ذَاتِهِ، مِمَّا هُوَ مُمَكِّنٌ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيهِ، بِالتَّمَكُّنِ الْقَدْرِيِّ الرَّبَّانِيِّ.

وهنا يَرُدُّ سُؤَالُ:

وهو، إِذَا كَانَتِ الْأَشْيَاءُ الدَّاخِلَةُ فِي ذَاتِ الْإِنْسَانِ أَمَانَةً عِنْدَهُ أَيْضًا، كَالْأَشْيَاءِ الْخَارِجَةِ عَنْ ذَاتِهِ، فَمَنْ هُوَ الْمُسْتَأْمَنُ؟

أقول: إِنَّ لِلْإِنْسَانِ هُوِيَّةً دَاحِلِيَّةً فِي غَمَقِ ذَاتِهِ، وَهَذِهِ الْهُوِيَّةُ مُمَكِّنَةٌ

بِتَمْكِينَ اللَّهُ وَإِقْدَارِهِ مَنِ التَّصَرُّفِ الْإِرَادِيِّ بِجَوَارِحِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ .
 وَلِهَذِهِ الْهُيُوتِ الَّتِي تَخْتَلُّ مَرْكَزَ الْعُمُقِ مِنْ ذَاتِهِ ، لَهَا الصِّفَاتُ الْأَسَاسِيَّاتُ
 الْمُؤَهِّلَاتُ لِتَحْمِيلِ الْأَمَانَاتِ ، وَالْمَسْؤُولِيَّاتِ عَنْهَا ، وَمِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ مَا
 يَلِي :

(١) الإرادة الحرة غير المجبورة .

(٢) التَّمْيِيزُ بَيْنَ وُجُوهِ التَّصَرُّفِ الْمُخْتَلِفَةِ ، تَمْيِيزاً كَافِياً لِتَحْمِيلِ الْأَمَانَةِ ،
 وَهِيَ مِنَ الْمَلَكَةِ الْإِذْرَاكِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ .

(٣) الْقُدْرَةُ عَلَى التَّصَرُّفِ بِالطَّاعَةِ وَبِالْمَعْصِيَةِ .

كَيْفَ كَانَ حَالُ مُعْظَمِ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ بَعْدَ دُخُولِهِمْ رِحْلَةَ الْامْتِحَانِ :
 بَعْدَ كُلِّ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ يَرِدُ سَوَالٌ ، وَهُوَ ، كَيْفَ كَانَ حَالُ الْإِنْسَانِ بَعْدَ
 دُخُولِهِ رِحْلَةَ الْامْتِحَانِ ؟ .

وَيَأْتِي الْجَوَابُ الْقُرْآنِيُّ فِي الْآيَةِ : [... إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۖ] :

أَيُّ : إِنَّ مُعْظَمَ أَفْرَادِهِ كَانُوا بَعْدَ التَّجَرِبَةِ وَالْإِحْتِبَارِ ظُلُومِينَ جَهُولِينَ .
 وَقَدْ أُثْبِتَتْ الْإِحْصَاءَاتُ بَعْدَ التَّجَرِبَةِ وَالْإِمْتِحَانِ أَنَّ النُّسْبَةَ الْعَظْمَى مِنَ
 النَّاسِ كَانُوا ظُلُومِينَ لَأَنْفُسِهِمْ ، وَكَانُوا جَهُولِينَ .

وَقَدْ سَبَقَ التَّحْلِيلُ اللَّغَوِيُّ لِكَلِمَتَيْ «ظُلُومٌ» وَ«جَهُولٌ» .

فَصَحَّ أَنْ يُدْمَعَ الْإِنْسَانُ بِوَجْهِ عَامٍّ بِصِفَتَيْ أَنَّهُ ظُلُومٌ جَهُولٌ ، بَعْدَ حَمْلِهِ
 الْأَمَانَةَ وَدُخُولِهِ رِحْلَةَ الْامْتِحَانِ ، لَا عِنْدَ حَمْلِهِ الْأَمَانَةَ .

وَفِعْلُ «كَانَ» دَلٌّ عَلَى أَنَّ وَضْفَهُ الَّذِي كَشَفَهُ الْامْتِحَانُ ، هُوَ أَنَّهُ ظُلُومٌ
 جَهُولٌ ، إِذِ الْامْتِحَانُ كَاشِفٌ لِمَا هُوَ فِي عُمُقِ الْأَنْفُسِ .



قول الله تعالى :

﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٧٤)

هذه الآية هي بمثابة فاصلٍ يكشف إحدى وظائف القرآن البيانية، للتوقُّف قليلاً عنده، قبل المتابعة لاستِكمالِ عناصرِ السُّورة الموزَّعة على خُطوطها.

وإذا أخرجنا هذه الآية إلى الجانب الأيسر عن حدِّ صفحات السُّورة، لإظهار كونها بمثابة الفاصل الذي يَحْسُنُ التَّوقُّفُ عنده قليلاً، وفعلنا نظير هذا في جزء الآية (٣٢) من السُّورة، الذي قال الله عزَّ وجلَّ فيه: ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٢). وفعلنا نظيره أيضاً في جزء الآية (٥٨) من السُّورة، الذي قال الله عزَّ وجلَّ فيه: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (٥٨).

ثم إذا نظرنا إلى هذه الفواصل الثلاثة في السُّورة، ضِمنَ نظامِ كِتَابِيٍّ خارج عن الحدود الشمالية لصفحات السُّورة، أذركنا سرَّ العَطفِ في قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٧٤).

لقد جاء الفاصل الأول بعد بيانِ اشتملٍ على آياتٍ فيها تفصيلٌ لقضايا وأحكام، اشتملت على قصة خَلْقِ آدمٍ وأمَّهاتِ الأحكام الذين المنزَّلِ عليه، لِيَعْمَلَ بِهِ بَنُوهُ.

ثمَّ جاء الفاصل الثاني بعدَ عَرَضِ آياتٍ من آياتِ الله في كونه، تَهْدِي المتفكرين إلى طائفة من صفات ربوبية الله في كونه، وأنه لا شريك له، وهي تستلزم عقلاً توحيدَهُ في إِلَهِيَّتِهِ.

ثم جاء الفاصل الثالث بعدَ بيانِ طويلِ اشتملٍ على تفصيلٍ لقضايا وأحكام دينية، مقترنة بعَرَضٍ لقِصَّةِ الرُّسُلِ وأمَمِهِم في التاريخ قبلَ بَعْثَةِ الرُّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ ونزول القرآن.

إِذَا جَمَعْنَا هَذِهِ الْفَوَاصِلَ ، وَتَدَبَّرْنَاهَا تَدَبُّراً تَكَامُليّاً ، فَهَمَّنا مِنْهَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ :

(١) قَدْ فَصَّلَ بَعْضُ آيَاتِهِ فِي كِتَابِهِ الْمَجِيدِ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٢) :

أي: لقوم يتابعون مصادر العلم الحق، لاكتساب ما يهتمهم مما كانوا يجهلون.

(٢) وَأَنَّهُ قَدْ صَرَّفَ الْآيَاتِ ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (٥٨) : أي: يتابعون ما يُذَرِّكُونَ، مِمَّا يُبَيِّنُ لَهُمْ مِنْ آيَةِ اللَّهِ الَّتِي هِيَ مِنْ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ، بِشُكْرِ اللَّهِ عَلَى نِعَمِهِ، وَجَزِيلِ فَضْلِهِ عَلَى عِبَادِهِ.

(٣) وَأَنَّهُ قَدْ فَصَّلَ بَعْضَ آيَاتِهِ فِي كِتَابِهِ لِلخَارِجِينَ عَنْ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٧٣) : أي: راغبين في أَنْ يَعْلَمُوا، وَفِي أَنْ يَرْجِعُوا بِتَأْثِيرِ مَا يَكْتَسِبُونَ مِنْ عِلْمٍ إِلَى صِرَاطِ الْحَقِّ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِي أَوْدَعْنَا فِي قُدْرَاتِهِمُ الْفِكْرِيَّةِ مَا يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ، وَأَوْدَعْنَا فِي نَفُوسِهِمْ وَقُلُوبِهِمُ الْفِطْرَةَ الَّتِي تَنْزِعُ فِي دَاخِلِهِمْ إِلَيْهِ، اسْتِحْسَاناً وَمَيْلاً وَطَلَباً، وَلَا تَضَرِّفُهُمْ عَنْهُ إِلَّا وَسَاوِسُ الشَّيَاطِينِ وَتَسْوِيلَاتُهُمْ، وَنَزَعَاتُ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ الْعَاجِلَاتِ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

التفصيل في الأشياء: يكون بتمييز بعضها عن بعض، لإبراز حدود كل منها، فالمعرفة الصحيحة من شروطها تمييز حدود عناصرها.

فمعنى قول الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٧٤) .

وَكَذَلِكَ التَّفْصِيلُ الَّذِي أَجْرَيْنَاهُ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَاتِ مِنَ السُّورَةِ، نَقُصِّلُ الْآيَاتِ فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ، لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ حَتَّى يَعْلَمُوا الْحَقَّ، وَلِقَوْمٍ لَدَيْهِمُ الْاسْتِعْدَادُ وَالرَّغْبَةُ فِي أَنْ يَشْكُرُوا، حَتَّى يَشْكُرُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَلِقَوْمٍ أَخْرَجَتْهُمْ أَهْوَاؤُهُمْ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بِجَهْلِهِمْ أَوْ غَفْلَاتِهِمْ، لَكِنَّهُمْ غَيْرُ مَيُؤُوسٍ مِنْ رُجُوعِهِمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَهَؤُلَاءِ نَقُصِّلُ لَهُمُ الْآيَاتِ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَعْلَمُوا، وَأَنْ يَرْجِعُوا إِلَى الصِّرَاطِ.

ولَمَّا كَانَ رُكُوبُ مَرْكَبِ الْبَاطِلِ وَالضَّلَالِ خُرُوجًا عَنْ بَوَائِحِ الْفِطْرَةِ
فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَمَوَازِينِ الْعُقُولِ الْفِطْرِيَّةِ، كَانَ تَرْكُ الْبَاطِلِ وَالضَّلَالِ،
وَالْتِزَامُ الْحَقِّ وَالْهُدَى، رَجُوعًا إِلَى جُذُورِ الْفِطْرَةِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:
﴿... وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٧٨).

وهذا من الدقة في البيان، لملاءمة الواقع النفسي.

استعراض النصوص المشابهة حول تفصيل الآيات في القرآن:

لدى استعراض النصوص المشابهة للتصينين الواردتين في سورة
(الأعراف) بشأن تفصيل الله عز وجل للآيات في القرآن، نجد النصوص
القرآنية التالية:

(١) بمناسبة بيان أن الله عز وجل جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً
وقدره منازل، ليغلم الناس عدد السنين والحساب، قال الله جل جلاله في
سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿... يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥): بضمير الغائب الذي يعود
على الله جل جلاله، والتفصيل لقوم يعلمون مماثل لما جاء في الآية (٣٢)
من سورة (الأعراف).

(٢) وجاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) أيضاً قول الله
عز وجل:

﴿... كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٤): فجاء في هذا النص
استعمال عبارة: [لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] لأن تفصيل الآيات يتعلّق بموضوعات
تحتاج تفكيراً، لاكتشاف الغاية من خلق الحياة الدنيا.

(٣) وجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قول الله عز
وجل:

﴿الرَّ كِتَبٌ أَخْبَتَ ءَابَتْهُ ثُمَّ فَصَلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾﴾:

أي: أَخْبَتَتْ آيَاتُهُ بِالْكُلِّيَّاتِ الْعَامَّاتِ الْمُحْكَمَاتِ، ثُمَّ فَصَلَتْ لِبَيَانِ الجزئيات، وتطبيقاتها، إذا كانت مما له تطبيقات في السلوك.

(٤) وجاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) قول الله عز

وجل:

﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾: أي: وممن

وظائف تفصيل الآيات القرآنية، بيان صراط الله المستقيم، وتمييز سبيل المجرمين أهل الكفر.

(٥) وجاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً قول الله عز

وجل:

﴿... قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾: فجاء في هذا النص

استعمال الفعل الماضي: [قَدْ فَصَّلْنَا].

(٦) وجاء أيضاً في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) قول الله عز

وجل:

﴿... قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾: فجاء في هذا النص

استعمال عبارة [لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ] الدالة على الفهم العميق الدقيق، لأن الموضوع يحتاج فقهاً.

(٧) وجاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً قول الله عز

وجل:

﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾:

أي: لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، وَيَضْعُونَ مَا عَلِمُوهُ مِنْ دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ فِي

ذاكراتهم، لاستدعائه عند المناسبات الداعيات، وللعمل به إذا كان فيه ما يذعوا إلى فعل أو ترك.

(٨) وجاء في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١/ مصحف/ ٦١ نزول) قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿كَتَبْنَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُكُمْ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣): فجاء التعبير في هذه الآية عن كُلِّ القرآن، بأن آياته قَدْ فُصِّلَتْ بمقتضى قواعدِ اللُّسَانِ العَرَبِيِّ.

(٩) وجاء في سورة (الروم/ ٣٠/ مصحف/ ٨٤ نزول) قول الله عز وجل:

﴿...كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٨): فجاء في هذا النص استعمال عبارة [لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ]: أي: لقوم يعقلون بأدوات الإدراك الفكري لديهم عقلاً علمياً، وَيَعْقِلُونَ بإراداتهم الحازمات شهواتهم وأهواءهم ومطالب نفوسهم، عن الانزلاق إلى مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(١٠) وجاء في سورة (الرَّغْد/ ١٣/ مصحف/ ٩٦ نزول) قول الله عز وجل:

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُؤْتُونَ﴾ (٢):

أي: فمن أهداف تفصيل آيات القرآن المتعلقة بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ لِكُلِّ ما في الكون، والمتعلّقة باليَوْمِ الآخِرِ، تهيئة الشروط المساعدة على الإيقان بِلِقَاءِ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ.

(١١) وجاء في سورة (التوبة/ ٩/ مصحف/ ١١٣ نزول) بشأن الذين يَتُوبُونَ من المشركين عن كفرهم، قول الله عز وجل:

﴿إِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَفَخَّوْنَكُمْ فِي الدِّينِ وَفُصِّلَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (١١):

أي: فَمِنْ سُتَيْتَا فِي هَذَا الْكِتَابِ أَنَّ نُفَصِّلَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. وهذا آخرُ النُّصُوصِ فِي مَوْضُوعِ تَفْصِيلِ الْآيَاتِ.

ويلاحظ المتدبر أن أول نص نزل من هذه النصوص بحسب ترتيب النزول، هو قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

﴿... كَذَلِكَ نَفْصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

وأن آخر نص نزل من هذه النصوص بحسب ترتيب النزول هو قول الله عز وجل في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿... وَنَفْصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

وبهذا انطبق قفل أول آيات الموضوع مع آخرها بنصين متناظرين، وهذا من أسرار الإعجاز القرآني.



(١٢)

التدبر التحليلي للدرس الثامن من دروس السورة

وهو الآيات من (١٧٥ - ١٧٧)

قال الله عز وجل:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُ ءَايِينَآ فَاَنسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطٰنُ فَكَانَ مِنَ الْغٰوِيْنَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلٰكِنَّهُ اَخْلَدَ اِلَى الْاَرْضِ وَاتَّبَعَ هُوَٓهُ فَسَخَّرْنَا لِكَذٰبٍ اِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلٰهَتْ اَوْ تَنٰزَعْهُ يَلٰهَتْ ذٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِيْنَ كَذَّبُوْا بِءَايٰتِنَآ فَاقْصِصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُوْنَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِيْنَ كَذَّبُوْا بِءَايٰتِنَآ وَاَنفُسُهُمْ كَانُوْا يَظْلِمُوْنَ ﴿١٧٧﴾﴾.

تمهيد:

هذا النص يكشفُ حالَ من سَبَقَ أَنْ تَلَقَّى آيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ فِي الشَّرَائِعِ الرَّبَّانِيَّةِ السَّابِقَةِ لَمَّا أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، مِنْ يَهُودِيٍّ أَوْ صَابِئِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ أَوْ غَيْرِهِمْ، وَبَعْدَ أَنْ تَلَقَّاهَا وَاخْتَوَتْ عَلَيْهِ، كَمَا يَشْتَمِلُ جِلْدُ الْحَيَوَانِ عَلَى كُلِّ جِسْمِهِ، انْسَلَخَ مِنْهَا، فَلَمْ يَعْمَلْ بِهَا، فَعَرَضَ نَفْسَهُ لَوَبَاءِ الشَّيْطَانِ، فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ مُغْوِيًّا مُضِلًّا، فَتَأَثَّرَ بِهِ فَعَوَى، فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ.

التدبر التحليلي:

● ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ آتِلْ: فعلٌ أمرٌ موجَّهٌ للرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ أولاً، فَلَكَـلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، عَلَى سَبِيلِ الْخُطَابِ الْإِفْرَادِيِّ.

فعل: «تَلَاةٌ يَتْلُوهُ تُلُوًّا» أي: تَبِعَهُ فَهُوَ «تَالٍ لَهُ» أي: تَابِعَ لَهُ، وَاسْتَعْمَلَ فِعْلَ «تَلَا يَتْلُو تِلَاوَةً» فِي تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، بِمَعْنَى النُّطْقِ بِهِ، مَعَ تَتَبُّعِ حُرُوفِهِ وَكَلِمَاتِهِ كَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ، فَإِذَا كَانَتِ التِّلَاوَةُ تَتَبُّعًا لِلْمَكْتُوبِ مِنْهُ فَهِيَ قِرَاءَةٌ.

والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ صَالِحٌ لِأَنْ يُرَادَ بِهِ كُلُّ مَنْ يَصْلُحُ لِأَنْ يُتْلَى عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ مُؤْمِنٍ وَغَيْرِهِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى مِنْ غَيْرِهِمْ بِأَنْ يُتْلَى عَلَيْهِمْ نَصٌّ هَذَا الدَّرْسِ مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ، إِذْ يَتَحَدَّثُ عَنْ قِصَصِ الَّذِينَ أَتَتْهُمْ آيَاتُ اللَّهِ فَأَمَّنُوا بِهَا، وَلَبِسُوهَا كَجُلُودِهِمْ، وَلَكِنْ لَمْ يَطْلُبْ بِهِمُ الْعَهْدَ حَتَّى انْسَلَخُوا مِنْهَا.

والغرض تحذيرُ المؤمنين من أن يَنْسَلِخُوا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ كَمَا انْسَلَخَ مِنْهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَهُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَأَمْثَلُهُمَا، إِذْ تَخَلَّوْا عَنْ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ عَلَى رُسُلِهِمْ، وَالْعَمَلِ بِهَا.

وظاهرٌ أنَّ هذا الدرس من دروس السورة مُتَّصِلٌ اتِّصَالاً جَلِيًّا بِالْخَطِّ الأعظم من خُطوطِ السُورَةِ الَّتِي تَتَفَرَّعُ مِنْ مَوْضُوعِهَا، وهو الخطُّ الممتدُّ من الآية (٣) الواردة في صَدْرِ السُورَةِ، وهي قول الله عزَّ وجلَّ خِطَاباً للناس جميعاً:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

● ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا... ﴿١٧٥﴾﴾:

النَّبَأُ: الخبرُ البارزُ الظاهرُ ذو الأهميَّةِ الذي يَلْفِتُ إِلَيْهِ أَنْظَارُ أُولِي الألباب.

ولكن مَنْ هَذَا الشَّخْصُ أو الصَّنْفُ من الناس الذي آتاه اللهُ آيَاتِهِ، فَلَيْسَها كَجَلْدِهِ، ولم يَطْلُ بِهِ الْعَهْدُ حَتَّى انْسَلَخَ مِنْهَا، وَنَجِدُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قِصَصاً تَتَحَدَّثُ عَنْهُ، حَتَّى يَتْلُوها المأمُورُ بِتِلَاوَةِ نَبِيِّهِ.

ذكر المفسِّرونَ آراءَ لَمْ يَثْبُتْ شَيْءٌ مِنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

فقال بعضهم: هو رجلٌ من الكِنَعَانِيِّينَ، كَانَ فِي زَمَنِ مُوسَى عليه السلام، يقالُ له: بِلْعَامُ بْنُ بَاعُورَاءَ، وَفِي قِصَّتِهِ تَخْلِيطُ مَرْفُوضٍ.

وجاء في سِفْرِ الْعَدَدِ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَنَّ بِلْعَامَ كَانَ نَبِيًّا فِي جِيلِهِ، فِيمَا بَيْنَ الثَّوَرَيْنِ، وَأَنَّ «بَالَاقَ» مَلِكُ «مُؤَابَ» اسْتَدْعَاهُ لِيَلْعَنَ شَعْبَ إِسْرَائِيلَ، فَسَأَلَ رَبَّهُ، فَلَمْ يَأْذُنْ لَهُ، فَرَفَضَ طَلَبَ «بَالَاقَ» وَذَهَبَ أَخِيراً وَبَارَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَنَسَبُوا إِلَيْهِ أَنَّهُ دَبَّرَ وَسِيلَةً لِلإيقاعِ بِهِمْ فِي شَرِكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَأَخِيراً قُتِلَ فِي حَزْبِ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَهْلِ «مَدْيَنَ».

وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ، هُوَ أَبُو عَامِرٍ الرَّاهِبِ، وَاسْمُهُ «الثُّغْمَانُ بْنُ صَيْفِي» كَانَ نَصْرَانِيًّا مِنَ الْخَزَرَجِ، إِخْدَى الْقَبِيلَتَيْنِ الْكُبْرَتَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا هَاجَرَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، نَاصَبَ الرَّسُولَ الْعَدَاءَ الشَّدِيدَ.

وَلَا يَصُحُّ هَذَا لِأَنَّهُ إِنْسَانٌ لَمْ تَرِدْ لَهُ قِصَّةٌ تَتْلَى فِي الْقُرْآنِ. وهذا الدُّرْسُ من سورة (الأعراف) مَكِّيَّ التنزيل، وظهورُ هذا الرَّجُلِ قد كان بَعْدَ هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، فكَيْفَ يَنْزِلُ نَصُّ مَكِّيٍّ يُحَالُ فِيهِ عَلَى حَدَثٍ مَضَى، مع أَنَّهُ لم يَأْتِ بَعْدُ في الواقع، هَذَا من الأَغَالِيطِ.

وَقِيلَ: هُوَ أُمِّيَّةٌ بَنُ الصَّلْتِ، وَلَكِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَا يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ الوُضْفُ الذي جَاءَ فِي هَذَا الدُّرْسِ.

لَكِنَّ النَّصَّ يَنْطَبِقُ عَلَى عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ، الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَأَشْبَاهِهِمْ، فَهُمْ الَّذِينَ تَلَقَّوْا آيَاتِ اللَّهِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، فَلَبِسُوهَا، وَآمَنُوا بِهَا، وَبَعْدَ ذَلِكَ انْسَلَخُوا مِنْهَا، فَلَمْ يَعْمَلُوا بِمَقْتَضَاهَا، بَلْ حَرَّفُوا فِيهَا، وَغَيَّرُوا وَبَدَّلُوا وَكْتَمُوا.

وَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَمَّا جَاءَ فِي كُتُبِهِمْ مِنْ مِيثَاقِ الْإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ.

فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ انْسَلَخُوا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْمَخْلُوكِ﴾ (١٧٥).

وَيَحْمِلُ هَذَا النَّصَّ عَلَى كُلِّ مُنْسَلَخٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَأَمْثَالِهِمْ، تَكُونُ السُّورَةُ قَدْ اسْتَعْرَضَتْ أَهَمَّ اللَّقَطَاتِ مِنْ تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ، تُجَاةَ آيَاتِ اللَّهِ، مُنْذُ عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى نُزُولِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ عَلَى خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَى سَائِرِ إِخْوَانِهِ النَّبِيِّينَ.

وهؤلاء المنسلخون هم الَّذِينَ نَجِدُ فِي الْقُرْآنِ أَنْبَاءَ انْسِلَاخِهِمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْمَنْزَلَاتِ.

● ﴿فَإَنْسَلَخَ مِنْهَا﴾: أَي: فَأَخْرَجَ نَفْسَهُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْمُحِيطَةِ بِهِ، إِحَاطَةً جِلْدِهِ بِجَسَدِهِ.

السَّلَخُ: هو في اللُّغَةِ كَشَطُ جِلْدِ الحيوانِ عن جَسَدِهِ الواقعِ تَحْتَهُ، فالجِلْدُ مَسْلُوخٌ ومُنْسَلَخٌ عن الحيوانِ، والحيوانُ مُنْسَلَخٌ من جِلْدِهِ، وكلُّ شيءٍ يُفْصَلُ عَن قِشْرِهِ أو جِلْدِهِ فقد انْسَلَخَ منه.

ومن المعروف أَنَّ الحَيَّاتِ تَنْسَلِخُ مِنْ جِلْدِهَا الْقَدِيمِ إِذَا كَسَاها الله جِلْدًا جَدِيدًا، فَتَنْسَلُ مِنْهُ انْسِلَالًا.

وهذا المعنى يُنَاسِبُ من كان قد لبسَ آياتِ اللَّهِ حَتَّى كانت بِمَثَابَةِ جِلْدِهِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ جَسَدِهِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ انْسَلَخَ منها.

وهذا يَنْطَبِقُ على اليَهُودِ والنَّصَارَى وأمثالِهِمْ، الَّذِينَ آمَنُوا بِرُسُلِهِمْ، وبِالآياتِ اللَّاتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَاحْتَمَمُوا بِهَا مُدَّةً من الزَّمَنِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ انْسَلَخُوا مِنْهَا، تَخْرِيفًا، وَتَبْدِيلًا، وَكُتْمَانًا، وَتَخَلُّيًا عن تطبيقِهَا.

وفي هذه العبارة استعارة بديعة قائمة على تشبيه الإيمان بآيات الله والعمل بها كالمحتمي بجِلْدٍ لاصقٍ بلحمِ بَدَنِهِ.

● ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾: أي: فَتَبِعَهُ الشَّيْطَانُ لِإِغْوَائِهِ وَدَفْعِهِ إِلَى شِقَائِهِ وَالْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ.

يقال لُغَةً: تَبِعَهُ، وَاتَّبَعَهُ، وَأَتْبَعَهُ، قال الفراء: «أَتْبَعَهُ» أَحْسَنُ من «اتَّبَعَهُ».

● ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾: أي: فوسَّوسَ الشَّيْطَانُ لَهُ، فَاسْتَجَابَ لوساوسِ الشَّيْطَانِ، وتضليلاته، وتزويناته، وإغوائاته، فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، أي: من الضَّالِّينَ، الْفَاسِدِينَ، الْخَائِبِينَ.

يقال لغة: غَوَى يَغْوِي غَيًّا، وَغَوِي يَغْوِي غَوَايَةً، أي: ضَلَّ، وَخَابَ، وَفَسَدَ، وَتَرَكَ سَبِيلَ الرُّشْدِ، عن قَصْدٍ وَتَعَمُّدٍ، اتِّبَاعًا لِلهَوَى.

● ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾: أي: وَلَوْ شِئْنَا رَفَعْنَاهُ بِآيَاتِنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا،

ولكن هذا لا يكون إلا إذا سَلَبْنَاهُ اخْتِيَارَهُ الحرّ، وجَعَلْنَاهُ مَجْبُوراً، وهذا يتناقض مع وضع الإنسان في الحياة الدنيا موضع الابتلاء والامتحان.

● ﴿وَلَكِنَّهُمْ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾: أي: وَلَكِنَّهُمْ اتَّبَعَ بِإِرَادَتِهِ الْحُرَّةَ أهواءَهُ وشهواتِهِ، فَأَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ.

أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ: أي: اطمأنَّ عَلَيْهَا، وَسَكَنَ إِلَيْهَا، وَنَزَعَ مِنْ تَصَوُّرِهِ قضيةَ الإيمانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَوَجَّهَ كُلَّ هَمِّهِ للحياة الدنيا على الأرض.

● ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾: أي: وَإِذْ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ والحياة الدنيا فيها، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَّبِعَ هَوَاهُ، لِيَنَالَ مَا يَصُوبُ إِلَيْهِ مِنْ متاع الحياة الدنيا، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، والاستِهِانَةِ بِآيَاتِهِ المنزلات.

● ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثَ﴾:

أي: فَوَضَعَهُ وَهُوَ يَتَّبِعُ هَوَاهُ فِي الحياة الدنيا، كَوَضَعَ الْكَلْبِ الَّذِي يَظُلُّ لَاهِئاً دَوَاماً، لَا يَنْتَهِي لَهْثُهُ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ.

إِنَّ مَنْ يَتَّبِعُ أَهْوَاءَ نَفْسِهِ، لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَمِرَّ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ كَاذاً لَاهِئاً، مِنْ جَزِيهِ وَرَاءَ مَطَالِبِ نَفْسِهِ الَّتِي تَتَجَدَّدُ دَوَاماً، فَكُلَّمَا حَقَّقَ مُطْلَباً، أَوْ خَابَ فِي سَعْيِهِ، تَجَدَّدَ فِي نَفْسِهِ مَطْلَبٌ يَطْمَعُ فِي تَحْقِيقِهِ، فَيَسْعَى مُجْتَهِداً كَاذاً لَاهِئاً فِي جَزِيهِ، طامعاً فِي الحصولِ عَلَيْهِ، مَشْوقاً لِلظفرِ بِهِ، فَهُوَ بِسَبَبِ أهْوَاتِهِ، وشهواتِهِ، وَشَرِّهِ نَفْسِهِ لِمَتَاعِ الحياة الدنيا، لَا يَتَوَقَّفُ عَنِ الكَذِّ والكَدْحِ الَّذِي يَجْعَلُهُ لَاهِئاً دَوَاماً.

● ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا...﴾ (١٧٦).

أي: ذَلِكَ الْوَضْعُ الْمُنْحَطُّ السَّافِلُ، البعيدُ عَنْ مستوى التَّكْرِيمِ الَّذِي كَرَّمَ اللَّهُ بِهِ الْإِنْسَانَ، هُوَ أَيْضاً وَضْعُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ابْتِدَاءً، دُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهَا، فَتَحِيطُ بِهِمْ كَجُلُودِهِمْ.

لَأَنْ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْمَنَسْلُخُ مِنْ آيَاتِنَا، يُمَاتِلُ مَا ابْتَدَأَ بِهِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا.

● ﴿... فَأَقْصِرِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٧٦) ﴿:

أي: فَحَدَّثَ بِأَخْبَارِ الْأَوَّلِينَ، رَاجِئاً مِمَّنْ تُحَدِّثُهُمْ أَنْ يُؤَثَّرَ فِيهِمْ حَدِيثُكَ، فَيَجْعَلَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ، فَيُذَرِّكُونَ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، وَتَذِيرِهِ لَشُؤُنِ تَرْبِيَّتِهِمْ، وَتَأْدِيبِهِمْ، وَعِقَابِهِمْ، مَا يُقْنِعُهُمْ وَيَعْظُمُهُمْ، وَيَكُونُ دَافِعاً لَهُمْ لِلِاسْتِقَامَةِ عَلَى صِرَاطِ الْحَقِّ، صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

يقال لغة: قَصَّ الشَّيْءَ قَصّاً، وَقَصَصَ، أَي تَتَبَعَ أَثَرَهُ، بِالْفِعْلِ، أَوْ بِرَوَايَةِ الْأَخْبَارِ عَنْهُ. وَيُقَالُ: قَصَّ عَلَيْهِ خَبْرَهُ، إِذَا أَوْرَدَهُ عَلَى وَجْهِهِ. وَالْقِصَّةُ: الْحَدِيثُ، وَالْأَمْرُ، وَالْخَبَرُ، وَجَمْعُهَا الْقِصَصُ.

● ﴿سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا...﴾ (١٧٧) ﴿:

أي: إِنَّ قِصَصَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا تُقَدِّمُ مَثَلًا مُّخِيفاً سَيِّئاً، وَخِيَمَ الْعَاقِبَةِ، يَتَعَزَّ بِه، وَيَتَأَثَّرُ بِهِ الْمُتَفَكِّرُونَ، الَّذِينَ تَلِينُ قُلُوبُهُمْ لِلْحَقِّ، أَوْ تَخْشَى نَفْسُهُمُ الْعَوَاقِبَ السَّيِّئَةَ، الَّتِي تُسَبِّبُهَا مَعْصِيَةُ اللَّهِ، بَعْدَ اتِّبَاعِ آيَاتِهِ الْمُنَزَّلَاتِ، لِلْإِيمَانِ بِهَا وَاتِّبَاعِهَا.

سَاءَ: كَلِمَةٌ تُقَالُ فِي إِنْشَاءِ الذَّمِّ، مِثْلُ: «بُئْسَ» وَعَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ.

● ﴿... وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٧٧) ﴿: أي: وَكَانُوا يَظْلِمُونَ بِتَكْذِيبِهِمْ بَيِّنَاتِ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُمْ مَا كَانُوا يَظْلِمُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، لِأَنَّ تَكْذِيبَهُمْ لَمْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً، وَإِنَّمَا عَرَّضَهُمْ لِعُقُوبَةِ اللَّهِ فِي عَذَابٍ خَالِدٍ يَوْمَ الدِّينِ، وَرَبَّمَا عَرَّضَهُمْ لِإِهْلَاكِ بَعْذَابٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

واستفيد الحصر في الجملة من تقديم المعمول: [أَنفُسَهُمْ] على عامله: [يَظْلِمُونَ].

بيان عام حول هذا الدرس :

إِنَّ أَحَقَّ مَنْ يُتْلَى عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ آيَاتِهِ، فَاَنْسَلَخَ مِنْهَا، فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ، فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ، هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وبما أنزل الله عَلَيْهِ من آياتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَكَانَتْ شَامِلَةً لَهُمْ مِنْ كُلِّ جَوَانِبِهِمْ، كَجُلُودِهِمْ الشَّامِلَةِ لِكُلِّ أَجْسَادِهِمْ.

والغرض من هذه التلاوة، تحذيرُهُمْ مِنْ أَنْ يَتَعَرَّضُوا لِمِثْلِ مَا تَعَرَّضَ لَهُ الْمُنْسَلِخُونَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِمْ.

لَقَدْ تَلَقَّوْا آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِالْقَبُولِ، فَأَخَذُوهَا، وَغَلَّقُوا بِهَا عُقُولَهُمْ، وَنَفَسُوهُمْ، وَقَلَّبُواهُمْ، عِنْدَ انْدِفَاعِ الْإِيمَانِ الْأَوَّلِيِّ، الْمُقْتَرِنَةِ بِحَرَارَةِ الْاسْتِجَابَةِ، وَالطَّمَعِ بِالسَّعَادَةِ الْعَظِيمَةِ.

وَلَكِنَّ الْمَحْذُورَ مِنْهُ أَنْ تَبْرُدَ حَرَارَةُ هَذِهِ الشَّرَّةِ، وَتَخَفَّ حِدَّةُ الانْدِفَاعِ، وَتَسْتَوْلِيَ عَلَيْهِمُ الْغَفَلَاتُ، وَتَتَوَارَدَ عَلَى نَفْسِهِمْ مَطَالِبُ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ، مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَيَنْسَلِخُوا شَيْئاً فَشَيْئاً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، كَمَا فَعَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِنْ قَبْلِهِمْ، إِذْ لَبِسُوا آيَاتِ اللَّهِ أَوَّلَ الْأَمْرِ كَجُلُودِهِمْ، فَلَمْ يَلْبَثُوا طَوِيلًا حَتَّى انْسَلَخُوا مِنْهَا كَمَا تَنْسَلِخُ الْحَيَاتُ مِنْ جُلُودِهَا، اتَّبَاعاً لَأَهْوَائِهِمْ، وَشَهَوَاتِهِمْ، وَلذَّاتِهِمْ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

فَاتَّبَعَهُمُ الشَّيْطَانُ، إِذْ وَجَدَهُمْ لَا دِرْعَ لَهُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَلَا حَاجِبَ يَخْبِئُهُمْ مِنْ وَاغِدَاتِ الْأَوْبَةِ الْمُسْقِمَةِ أَوْ الْقَاتِلَةِ، فَمَا زَالَ بِهِمْ يُوسَّسُ لَهُمْ، وَيُسَوِّلُ لَهُمْ، وَيُزَيِّنُ لَهُمُ الْبَاطِلَ وَالْفِسْقَ وَالْفُجُورَ وَالْعَصِيَانَ، وَمَا زَالَ يُغْرِيهِمُ، حَتَّى دَفَعَ بِهِمْ إِلَى الْعَوَايَةِ، فَكَانُوا مِنَ الْغَاوِينَ الضَّالِّينَ الْفَاسِدِينَ الْخَائِبِينَ.

وقد تحدَّثَ النَّصْرُ عَنْ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ النَّاسِ بِصِيغَةِ الْحَدِيثِ عَنِ الْمَفْرَدِ، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَتَحَمَّلُ مَسْئُولِيَّتَهُ عَنْ انْسِلَاخِهِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ

بِصُورَةٍ إِفْرَادِيَّةٍ، مع أنَّهُمْ في الواقع كثيرون جدًا، بَلْ هُمْ النُّسْبَةُ الْعَظْمَى من الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وسائرِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ من أَهْلِ الْقُرُونِ الْأُولَى.

بَلْ كُلُّ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِالْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، من أَهْلِ الْكِتَابِ، هُمْ مُنْسَلِخُونَ من آيَاتِ اللَّهِ، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ آتَاهُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ فِي التَّوْرَةِ وَالزَّبُورِ وَالْإِنْجِيلِ، فَأَحَاطَتْ بِهِمْ بَيَانَاتُهَا، وَدَلَّالَاتُهَا، وَلَبِسُوهَا كَجُلُودِهِمْ، وَأَعْطَوْا عُهُودَهُمْ وَمَوَاقِيقَهُمْ عَلَى الْإِلْتِزَامِ بِمَا جَاءَ فِيهَا، وَمِنْهَا أَنْ يُؤْمِنُوا بِالرَّسُولِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَنَقَضُوا عُهُودَهُمْ وَمَوَاقِيقَهُمْ، وَانْسَلَخُوا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ خُرُوجًا عَنْ مَطْلُوبِ اللَّهِ مِنْهُمْ فِيهَا، بِالتَّخْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالكِتْمَانِ، وَبِمَعْصِيَةِ مَا جَاءَ فِيهَا مِنْ أَوْامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ، اتِّبَاعًا لِلْهَوَى، وَإِثَارًا لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلذَاتِهَا، وَتَحْقِيقِ شَهَوَاتِهِمْ مِنْهَا.

ومن هذه الآيات البشائرُ بِالرَّسُولِ الْخَاتَمِ، وَالْعُهُودُ الْمَذْكُورَةُ عَنْدهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، الَّتِي أَخَذَتْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّبِعُوا الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ، مَتَى بَعَثَهُ اللَّهُ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، فَانْسَلَخُوا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ بِكُفْرِهِمْ، وَبَرَفْضِهِمْ دَلَائِلَ الْبَشَائِرِ، وَبِنَقْضِهِمُ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ.

هذا ما ظهر لي لَدَى تَدَبُّرِ هَذَا النَّصِّ مع سوابقه ولواحقه في السورة، مُنْضَمًّا إِلَى دَلَالَاتِ آيَاتِ دُرُوسِ السُّورَةِ بِوَجْهِ عَامٍ، فِي وَحْدَةٍ مَوْضُوعِيَّةٍ، مع النَّظَرِ إِلَى مَا أُنْزِلَ مِنْ سُورٍ قَبْلَ نُزُولِ سُورَةِ (الأعراف) فِي التَّنْزِيلِ الْمَكِّيِّ، وَإِلَى الْمَرَحَلَةِ الزَّمَنِيَّةِ الَّتِي أُنْزِلَ فِيهَا، عَلَى خِلَافِ مَا طَرَحَهُ الْمَفْسُرُونَ مِنْ اخْتِمَالَاتٍ لَمْ يَرِدْ عَنِ الْمَعْصُومِ فِيهَا شَيْءٌ.

إِنَّ التَّعْبِيرَ بِالْإِفْرَادِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ أَهْلَ التَّأْوِيلِ يَنْبَحِثُونَ عَنْ شَخْصٍ

بِعَيْنِهِ، يَحْمِلُونَ النَّصَّ الْقَرَّانِيَّ عَلَيْهِ. غير أن النَّصَّ جَاءَ التَّعْبِيرُ فِيهِ بِصِيغَةِ الإفراد، إبرازاً للمسؤولية الفردية لدى كل المنسلخين، وإعلاماً بأن قضية هؤلاء ليست قضية جماعية تؤثر فيها ضواغط الجماعة، بل هي قضية إيمانية وسلوكية فردية، وتتمثل في القادة الذين علموا مضمون آيات الله، وأحاطت بهم دلالاتها من كل جانب، إحاطة جلودهم بكل أجسادهم.

أما الأتباع المقلدون الذين لا يفقهون دلالات آيات الله، فانسلخهم انصياداً لقادتهم من العلماء بدلالات آيات الله.

ودل التعبير بالانسلخ على أن هذه الجلود قد لازمتهم حقبة من الزمن، بمعنى أنهم حافظوا على إحاطة آيات الله بهم زمناً كافياً لاكتساب خلق العمل بما تهدي إليه، وإشعاراً بهذه الإحاطة اللاصقة، جاء التعبير بالانسلخ اللاحق، مع الإيماء إلى أن كل فرد من أفراد هذا الصنف من الناس، قد تحول فصار كالحيّة التي تنسلخ من جلدها، ومعلوم أن الحيات لينات الأبدان، وفيهن السم الزعاف المميت بشدة، والأنياب النواهش القواثل.

وجاء في النص الاكتفاء بذكر عبارة: ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ اعتماداً على ذكاء المتلقي، الذي يستكمل ما أشار إليه الانسلخ، الذي يعرفه في الثعابين، إذ يرى جلودها التي انسلخت منها، وهذا من الاستعارات المكنيات البديعات.

إن المتلقي الذكي يذكرك أن كل فرد من هؤلاء المنسلخين من آيات الله، ينطوي على اللؤم والخسة التي تنطوي عليها الحيّة التي تنسلخ من جلدها.

وقد أبرز هذا النص أن المنسلخ من آيات الله قد عرض نفسه بانسلخه للفساد، إذ لم تبق لديه وقاية تخميه من الشيطان ووساوسه، لقد

خَلَعَ الدَّرْعَ الَّذِي كَانَ يَقِيهِ مِنْ شَرِّ عَدُوِّهِ الْأَكْبَرِ، إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ وَدَلَّتْ عبارة: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ على أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ عَدَا إِلَيْهِ بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ، لَمَّا رَأَاهُ قَدْ انْسَلَخَ مِنْ إِيَّاتِ اللَّهِ، حَتَّى لَحِقَهُ، وَأَخَذَ يُوسَّوسُ لَهُ وَيَسُوءُ وَيُزَيِّنُ لَهُ الشَّرَّ، وَيَسْتَذِرُجُهُ، وَيُدْلِيهِ بِغُرُورٍ.

ودلَّتْ عبارة: ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ على أَنَّ هَذَا الْمُنْسَلِخَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ قَدْ اسْتَجَابَ بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّةَ لَوْسَاوَسِ الشَّيْطَانَ وَتَسْوِيلَاتِهِ، حَتَّى كَانَ مِنْ فِتْنَةِ الْغَاوِينَ، الضَّالِّينَ، الْفَاسِدِينَ الْخَائِبِينَ.

وَمَتَّى صَارَ الْمَخْلُوقُ الْمَمْتَحَنُ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْغَاوِينَ بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّةِ، رَدَّ اللَّهُ بِسَبَبِ غَوَايَتِهِ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ، فَاسْتَقَرَّ فِي حَضِيضِ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ.

وقد كان هذا بإمكانه وهو حُرُّ الإرادة أَنْ يَرْتَفِعَ بِآيَاتِ اللَّهِ، لَوْ التَّزَمَ بِمَا لَهَا مِنْ وَقَايَةٍ وَحِمَايَةٍ، وَحَافِظَ عَلَى أَنْ تَكُونَ بِمَثَابَةِ جِلْدِهِ الْمَحِيطِ بِكُلِّ جَسَدِهِ، إِيْمَانًا وَعَمَلًا، وَإِذَا عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَهُ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبِّهِ، رَفَعَهُ بِهَا فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَأَعْلَى مَنْزِلَتِهِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ بِمَقْدَارِ مَا يَعْلَمُ مِنَ التَّزَامِهِ بِآيَاتِهِ، وَصِدْقِهِ فِي ابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ.

ودلَّتْ عبارة: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾: على أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَتْ حِكْمَتُهُ لَمْ يَشَأْ رَفْعَهُ بِآيَاتِهِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَحِقْ هَذَا الرَّفْعَ وَهُوَ مُمَكَّنٌ بِاخْتِيَارِهِ الْحَرَّ أَنْ يَرْتَفِعَ، وَلَيْسَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ أَنْ يَرْفَعَ الْمَتَسَفِّلِينَ بِإِرَادَتِهِمْ الْحَرَّةَ، وَهُمْ مَوْضِعُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِمْتِحَانِ.

ولو شاءَ اللَّهُ رَفْعَهُ لَسَلَبَ مِنْهُ الْإِخْتِيَارَ، وَلَجَعَلَهُ مُجْبُورًا غَيْرَ مُخْتَارٍ، وَحِينَئِذٍ لَا يَكُونُ مِنَ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ.

إِنَّ إِرَادَاتِ اللَّهِ لَا تَتَنَاقَضُ فِيمَا بَيْنَهَا، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَجْعَلَ عَبْدَهُ حُرَّ الْإِرَادَةِ مُمْتَحِنًا، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَجْعَلُهُ مُجْبُورًا مُسْلُوبَ الْإِرَادَةِ الْحَرَّةِ، هَذَا تَنَاقُضٌ يَسْتَحِيلُ عَقْلًا أَنْ يَكُونَ.

إِنَّ هَذَا الْمُنْسَلِخَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ قَدْ اسْتَعْمَلَ حُرِّيَّةَ إِرَادَتِهِ بِإِثَارِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاتَّبَاعِ أَهْوَاءِهِ وَشَهَوَاتِهِ لِلإِسْتِمْتَاعِ بِأَنْوَاعِ مَتَاعِ الدُّنْيَا، وَلَمْ يَعْمَلْ بِمَا يَحَقُّ لَهُ السَّعَادَةُ الْحَقِيقِيَّةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، مَعَ عِلْمِهِ بِذَلِكَ، فَأَيَّاتُ اللَّهِ بِدَلَالَتِهَا قَدْ كَانَتْ مُحِيطَةً بِهِ كإِحَاطَةِ جِلْدِهِ بِهِ، وَكَانَ مُلْتَصِقاً بِهَا وَمُتَمَتِّحاً بِتَطْبِيقِ مَضْمُونِهَا، وَجِئَ أَحْسَنَ بِثِقَلِ التَّكَالِيفِ عَلَى نَفْسِهِ، انْسَلَخَ مِنْهَا.

وَدَلَّتْ عِبَارَةُ: ﴿وَلَكِنَّهُمْ أَخْلَدُوا إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعُوا هَوَاهُمْ﴾ عَلَى أَنَّهُ اطمَأَنَّ إِلَيْهَا، وَلَا زَمَ انْحِطَاطُهَا، وَآثَرَ شَهَوَاتِهِ وَلَذَاتِهِ وَأَهْوَاءَهُ مِنْهَا، وَآثَرَ أَنْوَاعِ مَتَاعِهَا الْعَاجِلِ، غَيْرِ مُتَعَالٍ إِلَى سَمَاوَاتِ الْكَمَالَاتِ، وَغَيْرِ سَاعٍ إِلَى مَرْضَاةِ الْعَلِيِّ الْمُتَعَالِي.

وَهُنَا يَطْوِي النَّصُّ تَسَاوُلًا يُقَدِّمُهُ الْمُتَفَكَّرُ بِشَأْنِ هَذَا الْمُنْسَلِخِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَمُضْمُونِ هَذَا السُّؤَالِ:

هَلْ حَقَّقَ هَذَا الْمُنْسَلِخُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، بِإِثَارِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَإِخْلَادَهُ إِلَى الْأَرْضِ، وَاتَّبَاعِهِ هَوَاهُ، مَا كَانَ يَضْبُو إِلَيْهِ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَيَأْتِي الْجَوَابُ الرَّبَّانِيُّ فَيَدُلُّ بِإِشَارَاتِهِ الْأَدَبِيَّةِ الرَّفِيعَةِ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَحَقِّقْ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ، بَلْ اسْتَمَرَّ يَتَّبِعُ أَهْوَاءَهُ وَشَهَوَاتِهِ، وَيُلَاحِظُهَا دَوَاماً، فِي كَدِّ لَاهِثٍ، يَتَنَاوَلُ فِيهِ رَدَادَ لَذَاتٍ عَابِرَاتٍ، بَيْنَمَا هُوَ فِي مُحِيطٍ مِنَ الْكُدِّ وَالْكَذْحِ وَالْمُلَاحَقَةِ، كَمُلَاحَقَةِ أَمْوَاجِ الْبَحْرِ لَسَفْحِ الْجَبَلِ، بُغْيَةً أَنْ تَزْنَقِيَ إِلَى أَغْلَاهُ، فَتَتَكَسَّرَ عَلَى صَخْرَاتِهِ، وَيَسْتَمِرُّ هَذَا اللَّاهُثُ يُعَاوِدُ مُحَاوَلَاتِهِ دُونَ أَنْ يُزْوِي ظَمَأَهُ مِمَّا يَضْبُو إِلَيْهِ.

وَأَخِرُ بِهِذَا الْكَادِحِ الْكَادُ اللَّاهُثِ، الَّذِي يَبْتَغِي الْوُضُوءَ إِلَى مَا يَشْتَهِي مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، مُتَبِعاً هَوَاهُ، أَنْ يَكُونَ مَثْلَ كَدِّهِ، وَلَهْثِهِ فِيهِ، وَأَنْ تَكُونَ صُورَةُ حَيَاتِهِ النَّفْسِيَّةِ، وَصُورَةُ حَيَاتِهِ الْمَعَاشِيَّةِ:

﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ﴾.

وجاء في هذا النص الاكتفاء بهذا المثل عن كل الجواب الذي فصلته آنفاً.

إنه مثل من كلمات مغذودات، إلا أنه دلّ باشعاعاته المتفرعات على جواب طويل، يُشرح بمقالة مُستفيضة.

هذا المثل على إيجازه البديع، هو صورة تمثيلية رائعة لحالة اللّهث النفسى، والظماً لمطالب الحياة الدنيا، وتخصيل الأهواء والشهوات منها، لدى الذي انسلخ من آيات الله، بغد أن آتاه الله إياها.

ويُشبه حال هذا المنسلخ، حال الذي كذب بها ابتداءً، فأتبعه الشيطان حتى أذركه وقبض على ناصيته.

وكانت علته النفسية أنه أخلد إلى الأرض طلباً للطمأنينة فيها، والاستمتاع بلذاتها، وأنه اتبع هواه.

ما أبدع هذا المثل في دلالاته، إن هؤلاء اللاهثين لا يظفرون من دنياهم للذاتهم الحقيقية بطائل، أكثر من متاع زائل، ولو جمعوا وملكوا كل كنوزها، ويستمر الظم النفسى لديهم على حاله، ويستمرّون في لهث نفسي متواصل.



(١٣)

**التدبر التحليلي للدرس التاسع من دروس السورة
وهو الآيتان: (١٧٨ و ١٧٩)**

قال الله عز وجل:

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا

يُصِرُّونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعَانُ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَانَتْ لَكُمْ بَلًا هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴿١٧٨﴾

تمهيد:

هذا درس من دروس سورة (الأعراف) يَغرِضُ الله عز وجل فيه لفظة ختام من لَقَطَاتِ مَوْقِفِ الحِسَابِ وَفَضْلِ القِضَاءِ يَوْمَ الدِّينِ، ويشتمل على تَغْلِيْقِ بَشَائِنِ أَهْلِ جَهَنَّمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ عَلَى رُسُلِهِ لِلإِيمَانِ بِهَا وَاتِّبَاعِ مَا جَاءَ فِيهَا، فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا، وَلَمْ يَتَّبِعُوا مَا جَاءَ فِيهَا، بَلِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ.

وقد جاء هذا الدرسُ بَعْدَ الْبَيِّنَاتِ الْكَثِيرَاتِ حَوْلَ وَاجِبِ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ عَلَى رُسُلِهِ، الْمُؤَيَّدَةِ بِآيَاتِ اللَّهِ الْإِعْجَازِيَّةِ الَّتِي شَهِدَ اللَّهُ بِهَا لِرُسُلِهِ بِصِدْقِهِمْ فِي بَلَاغَاتِهِمْ عَنْهُ، وَبِآيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ الْمُنْبِئَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَالدَّلَالَةِ عَلَى رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ وَأَحَدِيَّتِهِ فِيهَا، وَعَلَى إِلَهِيَّتِهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهَا فِيهَا شَيْءٌ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَبِآيَاتِ اللَّهِ الْجَزَائِيَّةِ الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ بِحُكْمَتِهِ لِلأُمَمِ السَّالِفَةِ.

● فَأَمَّا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ عَلَى رُسُلِهِ، وَوَضَلُّوا بِجَمَاعَاتِهِمْ إِلَى حَالَةٍ مَيُوسٍ مِنْهَا، فَلَا تُفَرِّزُ مَجْتَمَعَاتُهُمْ إِلَّا فَاسِدِينَ مُفْسِدِينَ، فَقَدْ كَانَ مَصِيرُهُمُ الْإِهْلَاكَ الشَّامِلَ.

● وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا صَالِحَاتٍ مَا، عَلَى تَفَاوُتِ دَرَجَاتِهِمْ وَتَفَاضُلِ مَرَاتِبِهِمْ، فَقَدْ كَانَتْ عَاقِبَتُهُمُ النِّجَاةُ مِنَ الْهَلَاكِ الشَّامِلِ، وَمَرُّوا فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ بِحَسَبِ أَعْمَارِهِمُ الْمَقْدَرَةِ لِكُلِّ مِنْهُمْ، يَعْمَلُونَ وَهُمْ مَخْفُوفُونَ بِالْمَعُونَةِ الرَّبَّائِيَّةِ.

وَلَفْظَةُ الْخِتَامِ هَذِهِ تُبَيِّنُ: أَنَّ مَنْ يَخْخُمُ اللَّهُ لَهُ بِالْهِدَايَةِ يَوْمَ الدِّينِ، بَعْدَ السُّؤَالِ وَالْمَحَاسَبَةِ وَوزْنِ الْأَعْمَالِ، أَوْ دُونَ حِسَابٍ، فَيَقْضِي لَهُ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ

الجنة، استناداً إلى ما قَدَم في الحياة الدنيا لآخِرَتِهِ من عَمَلٍ صالح، مع فَضْلِ اللَّهِ عليه، وَيَكُونُ هو المهتدي يومئذٍ.

وَأَنْ من يحكُم الله عليه بالضلالةِ يَوْمَ الدين، بَعْدَ السَّوَالِ والمحاسبة وَفَضْلِ القضاء، فيقضي عليه بأنه من أَهْلِ جَهَنَّمَ بمقتضى عدله - جَلَّ جلالُهُ وعَظَمَ سلطانه - فهو الضَّالُّ الخاسِرُ لا محالة، الَّذِي خَسِرَ مَا وَهَبَهُ اللَّهُ من تكريم، وخَسِرَ مكانَهُ في الجنة، الَّذِي كان باستِطَاعَتِهِ أَنْ يَنَالَهُ بِفَضْلِ الله، لَوْ أَنَّهُ آمَنَ وَاتَّبَعَ آيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ على رُسُوله، وَلَمْ يَتَّخِذْ من دُونِ اللَّهِ أولياء، وخَسِرَ راحةَ نَفْسِهِ وعافِيَتَهَا، إِذْ عَرَضَهَا لعذابِ أَلِيمٍ دائمٍ في نارِ جهنم.

إِنَّهُ لَا يَمْلِكُ أَحَدُ الْحُكَمِ بالهداية، لِمَنْ حَكَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بالضلالةِ يَوْمَئِذٍ، وَلَا يَمْلِكُ أَحَدُ الْحُكَمِ بالضلالةِ على مَنْ حَكَمَ اللَّهُ لَهُ بالهداية.

إِنَّ الْمُلْكَ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ وَخَدَهُ، جَلَّ جلالُهُ وعَظَمَ سلطانه.

وهذا الدَّرْسُ مَوْصُولٌ بما جاء في الدَّرْسِ الأول من دُرُوسِ السُّورَةِ، بِالآيَاتِ من (٦ - ٩) منه، وهي قول الله عز وجل:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ وَأَلَوَزُنَا يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

وقد جاء هذا الدَّرْسُ التاسعُ بَعْدَ أَكْثَرِ من (١٦٠) آيَةٍ، بِمَثَابَةِ تكميلٍ لِمَا جاء في الدَّرْسِ الأولِ مِنْهَا، لِنُذْرِكَ بِإِمْعَانٍ ترابطِ آيَاتِ السُّورَةِ كُلِّهَا في وَخْدَةٍ مَوْضُوعٍ.

التدبر التحليلي :

قول الله تعالى :

• ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىَّ...﴾ (١٧٨) :

أي : مَنْ يَحْكُمَ اللَّهُ لَهُ بِالْهِدَايَةِ فَهُوَ الْمُهْتَدِي، وَمَعْلُومٌ أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لأفراد عباده بالهداية، أو حُكْمُهُ عَلَيْهِم بِالضَّلَالَةِ، حُكْمًا مُبَرِّمًا، إِنَّمَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مُحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ، بَعْدَ السُّؤَالِ وَالْحِسَابِ وَوَزْنِ الْأَعْمَالِ، أَوْ دُونَ سُؤَالٍ وَلَا حِسَابٍ، إِذْ يُدْخَلُ بَعْضُ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

وَمَنْ يَحْكُمُ اللَّهُ لَهُ بِالْهِدَايَةِ فَالْجَنَّةُ مَصِيرُهُ حَتْمًا، هَذَا وَغَدُ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ لأفراد عباده بالهداية، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُسْتِنْدًا إِلَى مَا قَدَّمُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ إِيْمَانٍ صَحِيحٍ صَادِقٍ، وَعَمَلٍ صَالِحٍ، يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ الْعَظِيمِ عَلَيْهِم بِالْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ، وَالتَّجَاوُزِ عَنِ السَّيِّئَاتِ، وَتَبْدِيلِ السَّيِّئَاتِ حَسَنَاتٍ لِبَعْضِ أَهْلِ الْمَرَاتِبِ الرَّفِيعَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ الَّذِينَ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِم صِفَاتُ عِبَادِ الرَّحْمَنِ.

وقد وجب حملُ فعلِ «يَهْدِي» في هذا النَّصِّ عَلَى مَعْنَى الْحُكْمِ بِالْهِدَايَةِ، أَحَدِ الْعَلَاqَاتِ الَّتِي بِمَقْتَضَاهَا يُسْنَدُ الْفِعْلُ إِلَى فَاعِلِهِ، لِأَنَّ الْعَلَاqَاتِ الْآخَرَى لَا ثَلَاثَمَ مَضْمُونٍ هَذَا النَّصِّ.

• أَمَّا الْهِدَايَةُ بِمَعْنَى جَعْلِ الْإِنْسَانِ مُجْبُورًا عَلَى الْهِدَايَةِ بِالْخَلْقِ الرَّبَّانِيِّ الْمُبَاشَرِ، دُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُ إِرَادَةٌ حُرَّةٌ مُخْتَارَةٌ، فَإِنَّهَا تُلْغِي كَوْنَ الْإِنْسَانِ مُمْتَحِنًا مُخْتَارًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فِي رَحْلَةِ الْإِبْتِلَاءِ مِنْ وَجُودِهِ، وَتَتَنَاقَى مَعَ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا - لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَتْهَا﴾ إِذِ التَّكْلِيفُ ضِمْنُ حُدُودِ الْوُسْعِ يَتَنَاقِضُ مَعَ الْجَبْرِ، وَمِنْ

المعلوم من الدين بالضرورة، أَنَّ الإنسان البالغ العاقل عَبْدٌ مُكَلَّفٌ مُبْتَلَى فِي ظروف الحياة الدنيا.

● وَأَمَّا الْهِدَايَةُ بِمَعْنَى الدَّلَالَةِ وَالذَّعْوَةُ إِلَى سَبِيلِ الْهُدَى وَالْخَيْرِ، فَقَدْ جَعَلَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَامَّةً شَامِلَةً، لِمَنْ اسْتَجَابَ وَاهْتَدَى، وَلِمَنْ أَبَى وَضَلَّ، فَلَا تُنَاسِبُ مَا جَاءَ فِي هَذَا النَّصِّ.

● وَأَمَّا سَائِرُ الْعِلَاقَاتِ الَّتِي بِمَقْتَضَى وَاحِدٍ مِنْهَا يُسْنَدُ الْفِعْلُ إِلَى الْفَاعِلِ فَلَا يُنَاسِبُ شَيْءٌ مِنْهَا مَا جَاءَ فِي هَذَا النَّصِّ.

فَانْحَصَرَ الْمَلَائِمُ بِالْعِلَاقَةِ الَّتِي تَكْشِفُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَجَدَ عَبْدَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُهْتَدِيًا، بِمَا قَدَّمَ لِنَفْسِهِ مِنْ إِيمَانٍ وَصَالِحٍ عَمَلٍ، فَهَذَا اللَّهُ، أَيُّ: فَحَكَمَ لَهُ بِالْهِدَايَةِ.

قول الله تعالى:

● ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٨):

أَيُّ: وَمَنْ يَحْكُمُ اللَّهُ عَلَيْهِم بِالضَّلَالَةِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ضَالِّينَ بِاخْتِيَارِهِمُ الْحَرَّ، فَأُولَئِكَ الْبَعْدَاءُ الَّذِينَ حَاجَبُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ هُطُولِ رَحْمَةِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ عَلَيْهِمْ، هُمُ الْخَاسِرُونَ، الَّذِينَ خَسِرُوا كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَنْفُسَهُمْ، إِذْ جَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ مُحْرَمِينَ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ، وَمُعَذِّبِينَ دَوَامًا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، لِأَنَّهُمْ رَفَضُوا الْإِيمَانَ وَالطَّاعَةَ، وَلَمْ يَتَّبِعُوا آيَاتِ كِتَابِ اللَّهِ، وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ.

وكلمة «مَنْ» فِي: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ وَفِي: ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ﴾ اسْمُ شَرْطٍ جَازِمٍ، يَجْزِمُ فَعْلَيْنِ، يَسْمَى أَوْلَهُمَا فِعْلَ الشَّرْطِ، وَيَسْمَى الثَّانِي جَوَابَهُ وَجَزَاءَهُ، وَكَلِمَةُ «مَنْ» هَذِهِ تُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ فَأَكْثَرٍ، وَقَدْ يُرَاعَى لَفْظُهُ الْمَفْرَدُ فَيُعَادُ الضَّمِيرُ عَلَيْهِ بِالْإِفْرَادِ، كَمَا فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى، وَقَدْ يُرَاعَى مَعْنَاهُ الدَّالُّ عَلَى الْجَمْعِ فَيُعَادُ الضَّمِيرُ عَلَيْهِ بِالْجَمْعِ، كَمَا فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ، وَالتَّنْوِيعُ فِي

الْجَمَلَتَيْنِ تَفْتَنُ فِي الْبَيَانِ. وَقَدْ يُفْهَمُ مِنَ الْإِفْرَادِ فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى تَكْرِيمُ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْمُهْتَدِينَ، بِأَنَّهُ يَحْمِلُ مِنْ رَبِّهِ شَهَادَةَ «الْمُهْتَدِي» بَعْدَ فَضْلِ الْقَضَاءِ يَوْمَ الدِّينِ.

أَمَّا الضَّالُّونَ فَإِنَّهُمْ يُجْمَعُونَ مَعًا فِي زُمَرٍ ذَوَاتِ رَايَاتٍ مُهَيَّاتٍ، أَوْ عَلَامَاتٍ يُعْرِفُونَ بِهَا أَنَّهُمْ الْخَاسِرُونَ الْمُثْبُودُونَ.

وَبَعْدَ الْحُكْمِ عَلَى الضَّالِّينَ بِالضَّلَالِ يَوْمَ الدِّينِ، وَأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ جَهَنَّمَ، يُسَاقُونَ إِلَيْهَا لِيُكَبِّكَبُوا فِيهَا، وَلِيَذُوقُوا جزاءَ كُفْرِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ، وَعَدَمِ اتِّبَاعِهِمْ آيَاتِهِ، عَلَى اخْتِلَافِ دَرَكَاتِهِمْ.

وَأَمَّا الْمُهْتَدُونَ فَيُسَاقُونَ مَعَزَّيْنِ مَكْرَمَيْنِ إِلَى جَنَّاتِ النِّعَمِ، لِيَحْتَلُّوا مَنَازِلَهُمْ فِيهَا بِحَسَبِ دَرَجَاتِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ.

وَقَدْ طُوِيَ فِي النَّصِّ هُنَا هَذَا السُّوقُ اكْتِفَاءً بِإِيرَادِهِ فِي نُصُوصٍ أُخْرَى، عَلَى مَنَهِجِ الْقُرْآنِ فِي تَوْزِيعِ أَفْكَارٍ وَعَنَاصِرِ الْمَوْضُوعِ الْوَاحِدِ عَلَى مُخْتَلِفِ الْآيَاتِ وَالسُّورِ، وَاقْتِصَرَ فِيهِ عَلَى بَيَانِ يَتَعَلَّقُ بِوَضْفِ كَاشِفٍ لِحَالِ أَهْلِ جَهَنَّمَ الْفِكْرِيِّ تَجَاةَ آيَاتِ اللَّهِ الْبَيَانِيَّةِ، وَالْإِعْجَازِيَّةِ، وَالْكَوْنِيَّةِ، وَالْجَزَائِيَّةِ، وَيُفْهَمُ مِنْهُ بِالْمُقَابَلِ ذَهْنًا وَلَوْ لَمْ يُذَكَّرْ فِي الْعِبَارَةِ وَضْفُ حَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

● ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ...﴾ (١٧٥) ﴿

﴿ذَرَأْنَا﴾: أَي: خَلَقْنَا. قِيلَ: وَكَأَنَّ الذَّرْءَ مَخْتَصُّ بِخَلْقِ الذَّرِيَّةِ. وَقُدِّمَ الْجِنُّ عَلَى الْإِنْسِ لِأَنَّهُمْ أَسْبَقُ خَلْقًا.

وَمِنَ الْمَطْوِيِّ هُنَا فِي النَّصِّ، وَيُمْكِنُ إِذْرَاكُهُ ذَهْنًا: لَقَدْ خَلَقْنَا لِلْجَنَّةِ عِبَادًا لَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾.

أَي: وَلَقَدْ خَلَقْنَا كَثِيرًا مِّنْ ذَرَارِي الْجِنِّ وَالْإِنْسِ صَائِرِينَ لِجَهَنَّمَ دَارٍ

عَذَابٍ مِّنْ نَّحْكُمُ عَلَيْهِمْ بِالضَّلَالِ، لَأَنَّهُمْ ضَلُّوا بِإِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ، دُونَ جَبْرِ
وَلَا إِكْرَاهٍ مِنَّا، فَاقْتَضَى الْعَذْلُ الْحَكْمَ عَلَيْهِمْ بِالضَّلَالِ.

لَقَدْ هَيَّأْنَا لَهُمْ كُلَّ ظُرُوفِ الْامْتِحَانِ الْأَمْثَلِ، فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى
الْبَصَرِ، وَالضَّلَالَ عَلَى الْهُدَى، فَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، بِمَقْتَضَى قَانُونِ
الْعَذْلِ.

وَإِذْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ ضِمْنٌ خَصَائِصِ رُبُوبِيَّتِهِ، أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ سَيَخْتَارُونَ بِإِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ سُبُلَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، حِينَ يَضَعُهُمْ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ، أَعْتَدَ لَهُمْ جَهَنَّمَ دَارَ الْعَذَابِ.

ثُمَّ خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ وَفَقَّ نِظَامَ التَّنَاسُلِ، وَسَخَّرَ لَهُمْ أَسْبَابَ الْإِيمَانِ،
وَأَسْبَابَ الْكُفْرِ، وَأَسْبَابَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَسْبَابَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، وَأَرْسَلَ
إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ إِلَيْهِمُ الْكُتُبَ، وَحَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ وَبَشَّرَهُمْ، وَضَرَبَ
الْأَمْثَالَ مِنَ الْوَقَائِعِ الْعَمَلِيَّةِ عَلَى جَزَائِهِ، وَجَعَلَهُمْ جَمِيعًا أَمَامَ نَجْدَيْنِ، وَهُمْ
يَمْلِكُونَ مِنَ الْقُوَى الْفِكْرِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ وَالْجَسَدِيَّةِ، مَا يُمَكِّنُهُمْ مِنْ سُلُوكِ نَجْدِ
الْإِيمَانِ وَالْحَقِّ وَالْخَيْرِ، الْمَوْصِلِ إِلَى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ الْخَالِدَةِ، وَيُمَكِّنُهُمْ مِنْ
سُلُوكِ نَجْدِ الْكُفْرِ وَالْبَاطِلِ وَالشَّرِّ، الْمَوْصِلِ إِلَى الشَّقَاءِ وَالْعَذَابِ الْأَبَدِيِّينَ.

فَافْتَرَقُوا فِرْقًا، فَسَلَكَ أَكْثَرُهُمُ النَّجْدَ الْمَوْصِلَ إِلَى الشَّقَاءِ وَالْعَذَابِ
الْأَبَدِيِّينَ، فَكَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، وَتَمَرَّدُوا عَلَى طَاعَتِهِ.

وَسَلَكَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ سَبِيلَ الْإِيمَانِ، مَعَ الْإِسْرَافِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْعَصْيَانِ،
وَاسْتَحَقُّوا مِنَ الْعَذَابِ عَلَى مَقَادِيرِ مَعَاصِيهِمْ.

وَسَلَكَ الْأَقْلُ مِنْهُمْ صِرَاطَ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، مَعَ عَصْيَانِ مَشْمُولٍ بِالْعَفْوِ أَوْ
بِالْغُفْرَانِ.

جَهَنَّمَ: اسْمٌ عَلِمَ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِيُعَذَّبَ فِيهَا يَوْمَ
الدِّينِ، الْكَافِرِينَ، وَالْعَصَاةَ عَلَى مَقَادِيرِ مَعَاصِيهِمْ.

وهو ممنوع من الصَّرفِ، للعملية والتأنيث.

ويقال لغة للقعر البعيد: جَهَنَّم. ويقال: يثرُ جَهَنَّم، أي: بعيدة القعر.

قول الله تعالى:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَفْئَادٌ لَا يَشْعُرُونَ بِهَا...﴾ (١٧٩)

يراد بالقلوب هنا القوى الداخلية في الإنسان المخلوقة لفهم، وللحفظ، وللتذكر باختزان صور الأشياء، وقضايا المعرفة، كلياتها وجزيئاتها، ولتخيّل صور ومركبات غير مشهودة للإبداع والابتكار، ولإدراك المعاني، وللبحث عن حقائق الأشياء.

وفي هذه القوى الداخلية المغربية، والتفكرية والإدراكية موازين فكرية، مؤهلة بالكوين الرباني الذي فطرها الله عليه، للتمييز بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين النافع والضار، ولقياس الأشياء والنظائر بغضها على بغض، وللحكم على الغائب منها بمثل الحكم على المشهود منها، وللاعتبار بالسّنن الربانية، وللإستدلال بالظواهر على البواطن، ولتتبع الأمارات والعلامات والدلائل، للوصول إلى حقائق الأشياء والكائنات على مقادير الاستطاعات البشرية، على اختلاف درجاتها، ولفهم دلالات التعبيرات الكلامية، ذوات الرموز والأوضاع اللغوية المتعارف عليها في مضطلحات لسان الأمة، ومنها فهم دلالات الأوامر والنواهي، وسائر التكاليفات، وفهم دلالات العام والخاص، والمطلق والمقيد، ونحو ذلك، وفهم دلالات الأخبار مع التمييز بينها بحسب درجات الثقة بصديقها ترجيحاً حتى درجة اليقين، أو بحسب دركاتها في عدم الثقة بها، تنازلاً حتى دركة تيقن كذبها، وإخراجها من كل مستويات المعرفة، ولمعرفة ما هو الأفضل والأحسن والأحقّ بالعناية والاهتمام، من عاجل المنافع والخيرات وآجلها،

وَمُؤَاوِزَةٍ مَا فِي الْأَشْيَاءِ مِنْ مَنَافِعَ وَمَضَارٍّ، حَتَّى لَا تَسْقُطَ الْإِرَادَةُ فَرِيَسَةً الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَحُبِّ الْعَاجِلَةِ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، الْمَفْضِي إِلَى الْحَرَمَانِ مِنَ النِّعَمِ الْمَقِيمِ الْخَالِدِ فِي الْآجِلَةِ، وَالتَّعَرُّضِ لِلْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِيهَا، الَّذِي يَقْدِي الْعُقْلَاءَ أَنْفُسَهُمْ مِنْهُ بِكُلِّ مَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ مُلْكٍ عَظِيمٍ، وَلَذَاتِ أَسْرَاتٍ، وَشَهَوَاتٍ عَارِمَاتٍ، يَتَقَاتَلُ عَلَيْهَا طُلَّابُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

﴿لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ المراد بالفقه هنا ليس مجرد الفهم والإدراك، بل هو العلم ببواطن الأمور وخفاياها، والبحث عنها للتوصل إلى معرفتها، فهو أخص من مطلق العلم.

وَكَوْنُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ الصَّائِرِينَ إِلَى جَهَنَّمَ، بِاخْتِيَارِهِمُ الْحُرَّ لَمَّا يَلْذُّ لَهُمْ، مِمَّا يُوصِلُهُمْ إِلَى عَذَابِهَا وَالْخُلُودِ فِيهَا، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا، فَسَبَبُهُ أَنَّهُمْ وَجَّهُوا كُلَّ قُوَاهُمْ التَّفَكُّرِيَّةَ وَالْمَعْرِفِيَّةَ وَالْإِدْرَاكِيَّةَ، لَخِدْمَةِ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَلذَاتِهِمْ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْفَانِيَّةِ، فَتَوَقَّفُوا عِنْدَ حُدُودِ ظَاهِرِ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَتَزَلَّ بِهِمْ دَاءُ الْعَقْلَةِ عَمَّا وَرَاءَ هَذِهِ الْحُدُودِ مِنْ حَقَائِقِ تَهْدِي إِلَى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَهِيَ تَقَعُ وَرَاءَ ظَوَاهِرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَلَمْ تَتَجَهَّ قُوَاهُمْ الْإِدْرَاكِيَّةُ وَالْمَعْرِفِيَّةُ لِلْبَحْثِ عَنِ الْبَوَاطِنِ مِنْ حَقَائِقِ هَذَا الْوُجُودِ، وَلِلْبَحْثِ عَنِ الْغَايَةِ مِنْهُ.

ثُمَّ تَرَاكَمَتْ عَلَيْهِمْ آثَارُ هَذِهِ الْغَفَلَاتِ، مِنْ ظُلُمَاتِ الْأَهْوَاءِ، وَدُخَانِ الشَّهَوَاتِ الْمَلْتَهَبَاتِ، حَتَّى جَلَّلَتْ قُلُوبَهُمْ الْغِشَاوَاتِ، وَتَوَالَى بَغْضُهَا عَلَى بَغْضٍ، وَتَرَاكَمَ بَغْضُهَا فَوْقَ بَغْضٍ، إِلَى أَنْ أَمَسَتْ قُلُوبُهُمْ لَا تَذَرُكَ وَلَا تَبْعِي إِلَّا مَا يَخْدُمُ دُنْيَاهُمْ الْعَاجِلَةَ الْفَانِيَّةَ.

وَأَتَى لِمَثَلِ هَذِهِ الْقُلُوبِ الَّتِي أَصَابَهَا عَمَى نَوْعِي، هُوَ الْعَمَى عَنْ حَقِّ اللَّهِ عَلَيْهَا، وَوَاجِبِهَا تَجَاهَهُ، وَالْعَمَى عَنْ مُلَاحَظَةِ يَوْمِ الدِّينِ، وَمَا اعْتَدَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِيهِ لِلْمَجْرِمِينَ الْكَافِرِينَ، الَّذِينَ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ

من رَبِّهِمْ من آياتٍ بَيِّنَةٍ، وهذا الذي أَعْتَدَهُ رَبُّهُمْ لَهُمْ، هو عَذَابُ أَلِيمٍ، في جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا.

أَتَى لِمِثْلِ هَذِهِ الْقُلُوبِ أَنْ تُوَجَّهَ أَعْيُنُ أَجْسَادِهَا لِمُشَاهَدَةِ آيَاتِ اللَّهِ الْمُشْهُودَةِ فِي الْكَوْنِ، وَأَتَى لَهَا أَنْ تُذَرِكَ دَلَالَاتِهَا الدَّلَالَاتِ بِإِتْقَانِهَا وَبِصِفَاتِهَا عَلَى صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ مُشْغُولَةٌ مُفْتُونَةٌ بِزِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْمُخْتَلِفَاتِ، خِدْمَةٌ لِلْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةِ الْفَانِيَةِ.

أَتَى لِمِثْلِ هَذِهِ الْقُلُوبِ أَنْ تُوَجَّهَ آذَانُ أَجْسَادِهَا لِاسْتِمَاعِ آيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ، وَالْإِنْصَاتِ لَهَا، وَتَدَبُّرِ مَعَانِيهَا، وَهِيَ مُنْصَرَفَةٌ عَنْهَا، مُشْغُولَةٌ مُفْتُونَةٌ بِكُلِّ قَوْلٍ أَوْ حَدِيثٍ يَخْدُمُ الْأَهْوَاءَ وَالشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةِ الْفَانِيَةِ.

إِنَّ قُلُوبَهُمْ تَعْمَلُ وَتُفَكِّرُ، وَلَكِنْ فِي حُدُودٍ ظَاهِرٍ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَهِيَ لَا تَفْقَهُ بِوَاطِنِ الْأُمُورِ وَدَقَائِقِهَا النَّافِعَةِ لَهُمْ فِي الْآجِلَةِ. وَلَا مَا يَكُونُ سَبَبَ سَعَادَةٍ أَصْحَابِهَا فِي الْآخِرَةِ، لِأَنَّهَا مُغْرِضَةٌ عَنْهَا، غَارِقَةٌ فِي غَفَلَاتِهَا.

وإِنَّ أَعْيُنَهُمْ تُبْصِرُ مَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ زِينَاتٍ وَأَنْوَاعٍ مَتَاعٍ عَاجِلٍ، لَكِنَّهَا لَا تُوصِلُ إِلَى مَرَاكِزِ الْإِذْرَاكِ الْبَصَرِيِّ فِي الدِّمَاغِ، مَا فِي خَلْقِ اللَّهِ مِنْ آيَاتٍ كَوْنِيَّةٍ دَالَّاتٍ عَلَى عَظِيمِ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَدَالَّاتٍ عَلَى أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ خَلَقَ النَّاسَ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَأَنَّهُمْ يَغْبُرُونَ فِيهَا عَلَى جِسْرِ، وَهُمْ فِيهِ مَمْتَحَنُونَ فِي كُلِّ مَا يَخْضَعُ لِإِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةِ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِيَلْأَقُوا فِي مُحْكَمَةِ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ الرَّبَّانِيَّةِ الْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يُوجَّهُونَ لِيَنَالُوا جَزَاءَهُمْ بِالثَّوَابِ أَوْ بِالْعِقَابِ، عَلَى مَا قَدَّمُوا لِأَنْفُسِهِمْ فِي رَحَلَةِ ابْتِلَائِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

لَقَدْ أَلْقَتْ الْغِشَاوَاتُ عَلَى مَرَاكِزِ إِذْرَاكِهِمِ الْبَصَرِيِّ حُجُبًا كَثِيفَةً، حَجَبَتْ عَنْهُمْ كُلَّ الْمَشَاهِدِ الَّتِي تَهْدِيهِمْ إِلَى سَعَادَةِ أَخْرَاهُمْ.

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ مُسْتَغْرِقُونَ فِي غَفْلَتِهِمْ .

وإِنَّ آذَانَهُمْ تُوصِلُ إِلَى مَرَائِجِ السَّمْعِ فِي أَذْمِغَتِهِمْ كُلَّ كَلِمَةٍ وَهَمْسَةٍ تَخْدُمُ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَلذَاتِهِمْ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلِكِنَّهَا لَا تُوصِلُ إِلَيْهَا آيَةٌ عِبَارَةٌ أَوْ كَلِمَةٌ أَوْ صَنِحَةٌ تُذَكِّرُهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُحَذِّرُهُمْ مِنْ اتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَوَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ وَتَسْوِيلَاتِهِمْ، وَتُخَوِّفُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَنَقْمَتِهِ، أَوْ تُبَيِّنُ لَهُمْ وَاجِبَاتِهِمْ تَجَاهَ رَبِّهِمْ، أَوْ تَصِلُهُمْ بِالذَّارِ الْآخِرَةِ إِنْذَارًا أَوْ بَشَارَةً وَإِطْمَاعًا.

إِذَنْ: فَالْبَيَانُ الْمَطَابِقُ لِحَالِهِمْ بِالنَّسْبَةِ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِوَاجِبِهِمْ تَجَاهَ رَبِّهِمْ، وَمَصِيرِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، وَسَائِرِ الْقَضَايَا الدِّينِيَّةِ، أَنْ يَقَالَ بِشَأْنِهِمْ: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا...﴾ (١٧٩) ﴿

أي: بالنسبة إلى قَضَايَا الدِّينِ، وَيَوْمِ الدِّينِ.

قول الله تعالى:

﴿...أُولَئِكَ كَانُوا فِي أَعْيُنِنَا...﴾ (١٧٩) ﴿

أي: فَإِذَا كَانَ وَاقِعَ حَالِهِمِ النَّفْسِيِّ هُوَ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ، فَمَا هِيَ الْمَخْلُوقَاتُ الْحَيَّةُ الَّتِي يُشَبِّهُونَهَا، بَعْدَ أَنْ فَقَدُوا فَهْمَ الْقُلُوبِ، وَحُجِبَتْ مَرَائِجُ إِبْصَارِهِمْ وَمَرَائِجُ سَمْعِهِمْ عَنْ أَنْ تَصِلَ الْوَارِدَاتُ الَّتِي تُوصِلُ إِلَى قُلُوبِهِمْ مَا يَهْدِيهِمْ إِلَى مَعْرِفَةِ بَوَاطِنِ الْأُمُورِ وَخَفَايَاهَا، وَمَعْرِفَةِ مَا وَرَاءَ ظَوَاهِرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَعْرِفَةِ مَا يُسَدِّدُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَسِيرَتَهُمْ، لِلظَّفَرِ بِالْمُسْتَقْبَلِ السَّعِيدِ يَوْمَ الدِّينِ؟؟

الجواب: إِنَّ الْمَخْلُوقَاتِ الْحَيَّةَ الَّتِي يُشَبِّهُونَهَا هِيَ الْأَنْعَامُ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ مِنَ الْأَنْعَامِ، لِأَنَّ الْأَنْعَامَ لَمْ تُؤْتَ مَا أُوتُوا مِنْ تَكْرِيمِ الصِّفَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي أُوتُوها، فَهِيَ تَعِيشُ ضِمْنَ هَبَاتِ اللَّهِ لَهَا عِشَاءٌ سَوِيًّا.

لَكُنْهُمْ عَطَّلُوا بِإِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ تَفْضِيلٍ وَتَكْرِيمٍ،
لِيَصِلُوا بِهِ إِلَى مَنَازِلِ جَنَاتِ النِّعَمِ خَالِدِينَ فِيهَا، وَاسْتَعْمَلُوهُ فِيمَا يَقْذِفُ بِهِمْ
إِلَى دَرَكَاتِ الْجَحِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا، مَفْتُونِينَ بِمَا يَنَالُونَهُ مِنْ شَهَوَاتِ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا، وَفِيمَا يُرْضُونَ بِهِ أَهْوَاءَهُمُ الْجَانِحَةَ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ،
وَدَوَافِعَ نَفُوسِهِمُ الْجَامِحَةَ الَّتِي تَدْفَعُهُمْ لِلظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَالْبَغْيِ وَالْإِثْمِ
وَالْعَصْيَانِ وَالطُّغْيَانِ.

لَقَدْ أَنْزَلُوا بِإِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ مَرَاتِبِ التَّكْرِيمِ الرَّبَّانِيِّ، الَّذِي
جَعَلَهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَهِيَ لَهُمْ إِذَا حَافَظُوا بِإِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ عَلَى
مَا كَرَّمَهُمْ بِهِ، جَنَاتِ النِّعَمِ يَوْمَ الدِّينِ.

لَكُنْهُمْ أَنْزَلُوا أَنْفُسَهُمْ بِإِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ.

فَهُمْ كَالْأَنْعَامِ، يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ، وَيَشْرَبُونَ كَمَا تَشْرَبُ
الْأَنْعَامُ، وَيَتَسَافَدُونَ كَمَا تَتَسَافَدُ الْأَنْعَامُ، وَيَسْتَمْتِعُونَ بِلَذَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا
تَسْتَمْتِعُ الْأَنْعَامُ.

بَلْ هُمْ فِي الْحَقِيقَةِ أَضَلُّ مِنَ الْأَنْعَامِ، لِأَنَّ الْأَنْعَامَ تَضْبِطُهَا غَرَائِزُهَا
الْفِطْرِيَّةُ، أَمَّا هَؤُلَاءِ الْمَتَسَفِّلُونَ فَلَيْسَ لَهُمْ مَا يَضْبِطُهُمْ مِنْ غَرَائِزٍ فِطْرِيَّةٍ،
لِأَنَّ اللَّهَ - جَلَّتْ حَكْمَتُهُ - أَعْطَاهُمُ الْبَدِيلَ مِنْ أَجْلِ امْتِحَانِهِمْ، وَهِيَ الْقُوَى
الْعِلْمِيَّةُ التَّفَكِيرِيَّةُ الْإِذْرَاكِيَّةُ، مَعَ الْإِرَادَةِ الْحَرَّةِ، فَعَطَّلُوهَا عَنِ الْخَيْرِ،
وَسَخَّرُوهَا لِتَحْقِيقِ رَغَبَاتِهِمْ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مُنْطَلِقِينَ فِي الظُّلْمِ
وَالْعُدْوَانِ، وَارْتِكَابِ الشُّرُورِ فِي كُلِّ وَادٍ وَنَفَقٍ مَظْلَمٍ وَمِيدَانٍ، وَعَرَّضُوا
أَنْفُسَهُمْ لِنِقْمَةِ بَارِيهِمُ الْعَزِيزِ الْمُتَنَقِّمِ الدَّيَّانِ.

فَكَانُوا بِذَلِكَ أَضَلُّ مِنَ الْأَنْعَامِ.

الأنعام: هي الإبل والبقر والغنم، وأشباهاها.

قول الله تعالى:

﴿...أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١٧٩):

هذه الجملة الختامية تكشف عن سبب وصولهم إلى ما دون دركة الأنعام في السلم الحيواني، ألا وهو غفلتهم عن الله عز وجل وعن كل ما يصلحهم به، وغفلتهم عن المصير يوم الدين بعد رحلة الحياة الدنيا رحلة الامتحان، ومعلوم أن سبب غفلتهم هو انشغالهم بأسباب متاع الحياة الدنيا. الغفلة عن الشيء: انصراف الذهن عن ملاحظته، وعن إدراكه ومراقبته، مع وجوده أو وجود أدلته في مجال الإدراك المستطاع للمخلوق. اسم الإشارة [أُولَئِكَ] الذي يُشار به إلى البعيد، قد استعمل هنا للدلالة على بُعد درجتهم في السفل.



(١٤)

التدبر التحليلي للدرس العاشر من دروس السورة وهو الآية (١٨٠)

قال الله عز وجل:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨٠):

ما في هذه الآية من القراءات:

• قرأ جمهور القراء العشرة: [يُلْحِدُونَ] من فعل «أَلَحَدَ».

وقرأ حمزة: [يُلْحِدُونَ] من فعل «لَحَدَ يَلْحَدُ».

«أَلَحَدَ يُلْحِدُ» و«لَحَدَ يَلْحَدُ» كلاهما بمعنى عدل عن طريق الحق، وانحرف عن الصراط المستقيم، وجاز وظلم، وحرف وبدل، فهما متكافئان في اللغة.

تمهيد:

هذا الدرس مُتصل بخطّ السُورة الأعظم، وهو الذي دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ في الآية (٣) من السُورة:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ .

ففي مُقدّمة ما أُنزل إلى النَّاس من ربّهم، أن يَدْعُوهُ مُخْلِصِينَ له الدّين، ولا يُشْرِكُوا في دُعائِهِ أحداً، سواء أكان دُعاؤهم لأُمور دنياهم أم لأُمور آخِرَتهم، ومعلوم أن الدُّعاء أوّل العبادات وفاتِحَتها، والعبادة لا تَكُون إِلَّا لِلَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وتتبعاً لدُرُوس السُورة، مع هذا الخطّ الأعظم الَّذِي يُمَثِّل أَكْثَرَ عناصر موضوعها نلاحظُ ما يلي:

إنَّ اتِّبَاعَ مَا أُنْزَلَ اللَّهُ لِعِبَادِهِ يَكُونُ بِطَاعَتِهِ، في فِعْلٍ ما أَمَرَ به واجْتِنَابِ ما نَهَى عَنْهُ، وَهَذِهِ الطَّاعَةُ من كبريات عناصر عِبَادَةِ الْعِبَادِ لِرَبِّهِمْ.

(١) فجاء في مُقَدِّمَاتِ تَفْصِيلاتِ عِبَادَةِ اللَّهِ في السُورة قِصَّةُ أَمْرِ اللَّهِ الْمَلَائِكَةَ وَمَنْ كَانَ مُنْذِسًا فِيهِمْ، بِالسُّجُودِ لآدَمَ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ عَصَى أَمْرَ رَبِّهِ، ولم يكن من المطيعين العابدين الساجدين.

(٢) وَبَعْدَ ذَلِكَ جَاءَتْ في السُورة قِصَّةُ آدَمَ وَحَوَاءَ، وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ نَهْيِهِمَا عَنْ أَنْ يَأْكُلَا مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي عَيْنُهَا لِهَما، فَأَكَلَا مِنْهَا عَاصِيَيْنِ، ثُمَّ تَابَا فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا، وَأَهْبَطَهُمَا إِلَى الْأَرْضِ.

(٣) وَبَعْدَ ذَلِكَ جَاءَتْ قِصَّةُ أَوَامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ الْمَوْجَّهَةِ لِبَنِي آدَمَ الْأَوَّلِينَ، فَعَصَى فَرِيقٌ مِنْهُمْ، وَاتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَدَخَلَ إِلَيْهِمُ الشَّرْكَ، وَافْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، وَافْتَرَنَ بِهَذَا الْبَيَانِ مُعَالَجَاتُ إِقْنَاعِيَّةٍ وَتَحْذِيرِيَّةٍ، تُنْذِرُ الْمَكْذِبِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْ اتِّبَاعِ مَا جَاءَ فِيهَا، وَبَياناتُ تَرْغِييَّةٍ لِلْمَطِيعِينَ الْعَابِدِينَ، بِأَنْ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ النعيم.

(٤) وافرزت عبادة الله وخذه بالدعاء، اهتماماً بشأن هذه العبادة من صور عبادة الله، لأن الدعاء أول مظهر تلقائي يلجأ إليه أصحاب الضرورات والحاجات حينما يعجزون عن تحقيق مطالبهم بالأسباب المتاحة لهم في الظواهر الكونية، فقال الله عز وجل في الآية (٢٩) من السورة:

﴿...وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾ (٢٩):

أي: وادعوا ربكم لمطالب دنيائكم وأخرائكم مخلصين له في الدعاء، الذي هو من عناصر الدين، ويكون هذا الإخلاص بأن لا تدعوا غير الله، ولا تشرِكوا في دعائه أحداً.

(٥) ثم وجه الله عز وجل في الدرس الخامس من دروس السورة لعبادة الدعاء، من صور عبادات العباد له، مبيناً آداب الدعاء، فجاء في الآيتين (٥٥) و(٥٦) من السورة قوله تبارك وتعالى:

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمَعْتَدِينَ﴾ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦):

(٦) وبعد ذلك عرض الله عز وجل لقطات مهمات من قصص الأولين المذكورين في القرآن، مبرزاً دعوة الرسل لأقوامهم، بأن يعبدوا الله وخذه ولا يشركوا بعبادته شيئاً، وبأن يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم، إذ ليس لهم في الحقيقة إله غيره يجوز أن يعبدوه ويدعوه، فهو الرب الذي لا رب غيره، وهو الذي سيجازيهم على أعمالهم.

إن عاداً لما اتخذوا إلهة من دون الله يعبدونها، ويدعونها لتلبية مطالبهم في حياتهم، قال لهم رسولهم هود عليه السلام كما جاء في الآية (٧١) من السورة:

﴿...أَتَحَدِّثُونَ فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ...﴾ (٧١):

ولَمَّا جَرَبَ آلَ فِرْعَوْنَ دُعَاءَ آلِهَتِهِمْ لِيَرْفَعُوا عَنْهُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ عَذَابٍ، لَمْ تَنْفَعْهُمْ آلِهَتُهُمْ بِشَيْءٍ، عِنْدَئِذٍ تَوَجَّهُوا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ طَالِبِينَ مِنْهُ أَنْ يَدْعُو رَبَّهُ بِمَا عَاهَدَ عِنْدَهُ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ الرِّجْزَ، وَوَعَدُوهُ إِذَا كَشَفَ رَبُّهُ عَنْهُمْ الرِّجْزَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ مُسْلِمِينَ لَهُ، وَأَنْ يَأْذِنُوا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْخُرُوجِ.

دلَّ على هذا ما جاء في الآية (١٣٤) من السَّورة، وهو قول الله عز وجل:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدُّ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيَنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ﴾

لَكِنَّهُمْ نَكَثُوا عَهْدَهُمْ لَمَّا كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ الرِّجْزَ بِدُعَاءِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٧) ثم جاءت الآية (١٨٠) الَّتِي تُمَثِّلُ الدَّرْسَ الْعَاشِرَ مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ، مَوْضُوعَةً بِخَطِّ الدُّعَاءِ فِي السُّورَةِ، الَّذِي هُوَ فَرْعٌ مِنْ فُرُوعِ عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَذَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَدَاخِلٌ تَحْتَ عُمُومِ وَجُوبِ اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ إِلَى الْعِبَادِ مِنْ رَبِّهِمُ الَّذِي جَاءَ بَيَانُهُ فِي الْآيَةِ (٣) مِنَ السُّورَةِ.

التدبر التحليلي:

قول اللَّهِ تعالى:

● ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا...﴾

أي: وتختصُّ بالله الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، والمطلوبُ من العباد إذا أَرَادُوا دُعَاءَ غَائِبٍ لَأُمُورِ دُنْيَاهُمْ أَوْ آخِرَاهُمْ، أَنْ يَدْعُوا اللَّهَ وَخَذَهُ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى.

وأسماءُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، مِنْهَا مَا هُوَ عَلَمٌ عَلَى ذَاتِ الْخَالِقِ الرَّبِّ الْجَامِعَةِ لِكُلِّ صِفَاتِهِ، وَهُوَ لَفْظُ «اللَّهُ» فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ.

وَمِنْهَا مَا هُوَ دَالٌّ عَلَى صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ لِدَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ،
أَوْ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ أَعْمَالِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أَوْ الْبِرَاءَةِ مِنْ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ
النَّقْصَانِ الَّتِي لَا تَلِيقُ بِهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَتَنْزَهَتْ عَنِ النَّقْصَانِ ذَاتُهُ وَصِفَاتُهُ.

وَكُلُّ أَسْمَاءِ اللَّهِ حُسْنَى، بِالْعَمَلِ الْغَايَةِ الْعَظْمَى فِي الْحُسْنِ.

لفظ «حُسْنَى» مؤنث «أَحْسَنَ» وصيغة «أَفْعَل» و«فُعَلَى» للتفضيل.

فالمعنى: وَلِلَّهِ أَكْمَلُ الْأَسْمَاءِ، لِأَنَّ لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَكْمَلَ الذَّاتِ،
وَأَكْمَلَ الصِّفَاتِ وَأَسْمَاهَا، فَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ أَحْسَنُ الْأَسْمَاءِ.

وقد أثبتت هذه الجملة أَنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَسْمَاءَ عَدِيدَةً كُلُّهَا حُسْنَى،
وَأَنَّ مِنْ أَرَادَ أَنْ يَغْبُدَ اللَّهَ بِالِدُّعَاءِ لِمَطَالِبِ الدُّنْيَا أَوْ الْآخِرَةِ، لِنَفْسِهِ أَوْ
لِغَيْرِهِ، فَلْيَدْعُ بِاسْمٍ أَوْ بِأَكْثَرِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ، أَوْ
بِأَسْمَائِهِ جُمْلَةً، دُونَ تَحْدِيدٍ وَلَا تَفْصِيلٍ.

وأسماء الله عَزَّ وَجَلَّ الْوَاردَةُ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ غَيْرُ مَحْصُورَةٍ، وَقَدْ
جَاءَ فِي الصَّحِيحِ تَخْصِيصُ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ مِنْهَا دُونَ تَغْيِينِ لَهَا، بِأَنَّ مِنْ
أَخْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ.

روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِثَّةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ
الْجَنَّةَ، إِنَّهُ وَثَرٌ يُحِبُّ الْوِثْرَ».

وَمَا وَرَدَ فِي بَعْضِ رَوَايَاتِ هَذَا الْحَدِيثِ، مِنْ سَرَدِ الْأَسْمَاءِ التَّسْعِ
والتَّسْعِينَ المشهورة، فَقَدْ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي شَأْنِهَا: وَالَّذِي عَوَّلَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ
مِنَ الْحَفَاطِ، أَنَّ سَرَدَ الْأَسْمَاءِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مُدْرَجٌ فِيهِ.

أي: لَيْسَ هُوَ مِنْ مَثْنِ الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، وَهِيَ فِيمَا

يَرَىٰ بَغْضَ الْعِلْمَاءِ مَجْمُوعَةً مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، جَمَعَهَا بَغْضُ رُؤَاةِ الْحَدِيثِ^(١).

قول الله تعالى خطاباً للمؤمنين:

● ﴿... وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ...﴾ (١٨٠):

أي: واثركوا طرائق الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى، فلا تَتَّبِعُوهَا، إذ هي باطلة، يَغْدِلُونَ بها عن الحق، وعن صراطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَيُجَوِّزُونَ وَيُظْلِمُونَ بها وَيُبَدِّلُونَ وَيُحَرِّفُونَ.

وَالَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ عَلَى أَصْنَافٍ.

(١) فالمشركون يُنْكِرُونَ بَغْضَ أَسْمَائِهِ الدَّالَّةِ عَلَى بَغْضِ صِفَاتِهِ، كَاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ، فيَجْعَلُونَ هذا الاسمَ من صفاتِ شركائهم، لذلك فَهُمْ يَدْعُونَ شُرَكَاءَهُمْ لِيَتَّالُوا مِنْهُمْ آثارُ الرَّحْمَةِ، فيَحْقُقُوا لَهُمْ مطالبهم.

وظاهر أَنَّ هَذَا مِنَ الْعُدُولِ عَنِ الْحَقِّ، وَمِنَ الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ فِي صِفَاتِ اللَّهِ، فَهُوَ مِنَ الْإِلْحَادِ فِي أَسْمَائِهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

(٢) وَرَأَى بَغْضَ أَهْلِ الرَّأْيِ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ أَخَذُوا بَغْضَ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى، فَاشْتَقُّوا مِنْهَا عُذُولاً عَنِ الْحَقِّ وَالْحَادِثِ فِي أَسْمَائِهِ، وَأَطْلَقُوهَا عَلَى بَغْضِ أَوْثَانِهِمْ.

فَأَخَذُوا مِنَ الْأَسْمِ الْعِلْمِ (اللَّهُ) لَفْظَ «الْأَلَاتِ» وَسَمَّوْا بِهِ وَثْنًا مِنْ أَوْثَانِهِمْ.

وَأَخَذُوا مِنْ اسْمِ اللَّهِ «الْعَزِيزِ» لَفْظَ «الْعَزَى» وَسَمَّوْا بِهِ وَثْنًا مِنْ أَوْثَانِهِمْ.

وَأَخَذُوا مِنْ اسْمِ اللَّهِ «الْمِثَّانِ» لَفْظَ «مِثَّانَ» وَسَمَّوْا بِهِ وَثْنًا مِنْ أَوْثَانِهِمْ.

وهذا العمل هو من الإلحاد في أسماء الله الحسنى.

(١) انظر روايات أحاديث أسماء الله الحسنى عند ابن كثير، وعند الشوكاني، في تفسير هذه الآية.

(٣) وَيَدْخُلُ فِي عَمُومِ الْإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنَىٰ إِنْكَارُ بَعْضِ أَسْمَاءِ اللَّهِ الدَّلَالَتِ عَلَىٰ بَغْضِ صِفَاتِ اللَّهِ الْعَظْمَىٰ، أَوْ تَخْرِيفُهَا عَنْ مَعَانِيهَا، أَوْ تَعْطِيلُ دَلَالَتِهَا، أَوْ تَشْبِيهَهَا بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ لِلَّهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَيَدْخُلُ فِيهِ أَيْضًا تَسْمِيَةُ اللَّهِ بِمَا لَا يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ.

فالمعنى: واثركوا سُبُلَ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ، فلا تَسْلُكُوا سبيلاً منها.

قول الله تعالى:

• ﴿... سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨٠):

أي: سَيُجْزَى الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنَىٰ، عِقَابَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، عِنْدَ انْتِهَاءِ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا، بَعْدَ الْمَوْتِ، ثُمَّ يَوْمَ الدِّينِ بَعْدَ الْبُعْثِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

فالإلحاد في صفات الله وفي أسمائه الحسنَى هو من الكُفْرِ بِاللَّهِ، شِرْكَاً، أَوْ جُحُوداً، أَوْ وَضْفاً لِلَّهِ بِمَا لَا يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ مِمَّا لَمْ يَثْبُتْ عَنِ الْمَعْصُومِ.



(١٥)

التدبر التحليلي للدرس الحادي عشر من دُرُوسِ السُّورَةِ
وهو الآيات من (١٨١ - ١٩٨)

قال الله عز وجل:

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ
يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ هَادٍ لَمْ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرَثْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ الشُّوْءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَفَلَتْ دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتُمَا صَدِيقًا لَتُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَدِيقًا جَعَلَ لَهُمْ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْتَجِيبُوا سَوَاءً عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَالِحُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَثْنَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَزْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أُنْدٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنْ وَلِيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ❖

القراءات:

(١٨٦) • قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر: [وَنَذَرُهُمْ]

بثون المتكلم العظيم، ورفع الفعل.

وقرأ أبو عمرو، وعاصم، ويعقوب: [وَيَذَرُهُمْ] بضمير الغائب الذي

يعود في الآية على: [اللَّهُ] ورفع الفعل.

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَيَذَرُهُمْ] بضمير الغائب الذي يعودُ.

في الآية على: [اللَّهُ] وِيَجْزِمُ الفِعْلَ.

«نَذَرُهُمْ» و«يَذَرُهُمْ» قراءتان بينهما تكامل في الأداء البياني، فتون المتكلم العظيم تُشيرُ إلى حكمة الله العظيم الجليل في ترك الذين اختاروا لأنفسِهِم الضلال، يتحيرّون في ضلالِهِم من رحلة امتحانهم. والقراءة الأخرى تُخاطِبُ أهل الإيمان، الموقنين بحكمةِ اللَّهِ السَّامِيَةِ في تركهم في ضلالهم يَغْمَهُونَ.

وأما الرُّفْعُ والجَزْمُ في قراءتي: [وَيَذَرُهُمْ] و[وَيَذَرُهُمْ] فهما وجهان عَرَبِيَّانِ جائزان ومُتَكَافِئانِ، فالرفع على الاستئناف، والجزم على أن الفعل معطوف على جواب الشرط الذي هو في موضع فعل مجزوم.

(١٨٨) • قرأ قائلون في أَحَدِ الوجهَيْنِ عنه: [إِنْ أَنَا إِلَّا] بِالْفِ مَمْدُودَةٌ لضمير «أنا».

وقرأ باقي القراء العشرة وهو الْوَجْهُ الثَّانِي لقالون: [إِنْ أَنَا إِلَّا] بِثَوْنٍ مَفْتُوحَةٍ دُونَ أَلِفٍ بَعْدَهَا لضمير «أنا».

والقراءتان وجهان عربيان لثُطْق ضمير: «أنا».

(١٩٠) • قرأ نافع، وشُعْبَةُ، وأبو جعفر: [جَعَلَ لَهُ شِرْكَاً] بكسر الشين، وإسكان الراء، وهو مصدر: «شَرِكَ فُلَاناً فِي الْأَمْرِ يَشْرِكُهُ شِرْكَاً» وَأُطْلِقَ الْمَصْدَرُ هُنَا مُرَاداً بِهِ اسْمُ الْفَاعِلِ، أي: جَعَلَ لَهُ شَرِيكاً.

وقرأ باقي القراء العشرة: [جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ] جمع شريك.

وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد، إذ من المشركين مَنْ يجعل لله شَرِيكاً واحداً في الخلق، ومنهم من يجعل له شركاء، اثنين أو أكثر.

(١٩٣) • قرأ نافع: [يَتَّبِعُوكُمْ] من فعل «تَبِعَهُ يَتَّبِعُهُ» المجرّد.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لَا يَتَّبِعُوكُمْ] من فعل «اتَّبَعَهُ» المزيد، وهو على وزن «افْتَعَلَ» الذي يُفيد معنى التكلف.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى: أي: لَا يَتَّبِعُوكُمْ بِئْسَر، وَلَا يَتَّبِعُوكُمْ مَهْمَا كَلَفْتُمُوهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوكُمْ.

(١٩٥) • قرأ أبو جعفر: [يَنْبُطُشُونَ] بضَمِّ الطاء.

وقرأ باقي القراء العشرة: [يَنْبُطُشُونَ] بِكَسْرِ الطاء.

ضَمُّ الطاء في مضارع فعل «بَطَشَ» لغة عربيّة، يقال فيها: بَطَشَ يَنْبُطُشُ، وكَسْرُ الطاء أكثر استعمالاً في لسان العرب «بَطَشَ يَنْبُطُشُ» أي: أخذ بعُنْفٍ وقوّة.

(١٩٥) • قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب: [قُلْ أَدْعُوا] بكسر لام «قُلْ» في الوصل، للتخلص من التقاء الساكنين.

وقرأ باقي القراء العشرة: [قُلْ أَدْعُوا] بضم لام «قُلْ» في الوصل، للتخلص من التقاء الساكنين.

والقراءتان وجهان عربيان جائزان في مثل هذا.

(١٩٥) • قرأ أبو عمرو، وأبو جعفر: [ثُمَّ كِيدُونِي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل. وقرأ يَعْقُوب، وهشام بإثباتها في الوصل والوقف.

وقرأ باقي القراء العشرة: [ثُمَّ كِيدُونِ] بحذف ياء المتكلم في الوصل وفي الوقف، وكسر النون دليل عليها.

(١٩٥) • قرأ يَعْقُوب: [فَلَا تُنْظِرُونِي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل وفي الوقف.

وقرأ باقي القراء العشرة: [فَلَا تُنْظِرُونِ] بحذف ياء المتكلم إيجازاً في الوصل والوقف، وكسر النون دليل عليها.

والقراءتان وجهان عربيان جائزان في النطق.

وَإِذَا حُذِفَتْ يَاءُ الْمُتَكَلِّمِ فِي النَّطْقِ إِيجَازاً فَهِيَ مُقَدَّرَةٌ ذَهْنًا.

تمهيد:

هذا درسٌ موجّهٌ لأُمَّةٍ دَعَا مُحَمَّدٌ ﷺ، حَوْلَ عناصر موضوع سورة (الأعراف) والتي جاء فيها عَرْضُ مَلَخَصِ تاريخِ البشريّةِ تُجَاهَهَا، مُنْذُ خَلْقِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى بَغْيَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَحَتَّى نُزُولِ آيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتِ عَلَيْهِ.

وقد بدأ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ هذا الدرس المراد به أُمَّةٌ دَعَا الرَّسُولَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِبَيَانِ وُجُودِ أُمَّةٍ مِنْهُمْ يَسْتَجِيبُونَ لدعوته، وَيَتَّبِعُونَهُ، وَيَقُومُونَ بِوظيفَةٍ مِنْ وظائفِ رسالته المماثلة لوظيفة الأنبياء من قَبْلِهِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ يَهْدُونَ النَّاسَ بِالْحَقِّ، فَإِذَا اسْتَخْلَفَهُمُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ فَجَعَلَهُمْ ذَوِي حُكْمٍ وَسُلْطَانٍ، فَإِنَّهُمْ يَغْدِلُونَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَقْتَضَى قَوَاعِدِ الْعَدْلِ وَأَحْكَامِهِ.

وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ هَذَا سُنَّتَهُ فِي الَّذِينَ كَذَّبُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ، وَكَذَّبُوا بِالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَيْهِ.

وَعَالَجَ جَلَّ وَعَلَا هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بِالْوَسَائِلِ الْإِقْنَاعِيَةِ الْفِكْرِيَّةِ، مَعَ الْإِلْمَاحِ لِمَا يُمْكِنُ أَنْ يُنْزَلَ بِهِمْ مِنْ عِقَابٍ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ رَبِّهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِهِ، وَعَدَمِ اتِّبَاعِهِمْ مَا أَنْزَلَ لَهُمْ فِيهَا.

وَوَجَّهَ قِسْماً كَبِيراً مِنْ هَذَا الدَّرْسِ لِبَيَانِ أَوَائِلِ نُبُوغِ الشُّرُكِ فِي النَّاسِ، وَلِإِقَامَةِ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ الدَّامِغَةِ لِلْمُشْرِكِينَ، وَالْكَاشِفَةِ فِسَادَ وَبُطْلَانِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شُرُكٍ تَرْفُضُهُ الْعُقُولُ السَّوِيَّةُ، مَعَ اسْتِخْدَامِ أَسْلُوبِ الاسْتِفْهَامَاتِ الْإِنْكَارِيَّةِ التَّعْجِيبِيَّةِ التَّوْبِيخِيَّةِ، وَتَغْلِيمِ الدَّاعِي إِلَى الْإِيمَانِ التَّوْحِيدِيِّ، بَعْضَ طَرَائِقِ الْمُنَاطَرَةِ الْمُلْزِمَةِ وَالْمَفْحَمَةِ، الْمَقْرُونَةِ بِالتَّحْدِي.

التدبر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١):

هذه الآية خاصة بِأُمَّةٍ الإِجَابَةِ لِذَعْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ. قال قتادة في تفسير هذه الآية: بَلَّغْنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: «هَذِهِ لَكُمْ، وَقَدْ أُعْطِيَ الْقَوْمُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مِثْلُهَا: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٩)»:

وقد سبق شرح هذه الآية في سورة (الأعراف) بشأن بَعْضِ قَوْمِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامِ السَّابِقِينَ، قَبْلَ كُفْرِهِمُ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِ مُوسَى وَهَارُونَ، إِذْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ.

أي: وَقَسَمَ مِمَّنْ خَلَقْنَا مِنَ النَّاسِ، أَوْ قَدَرْنَا خَلْقَهُمْ مُسْتَقْبَلًا، وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا أَوْ سَيُؤْمِنُونَ بِالرُّسُولِ مُحَمَّدٍ وَبِمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ، تَوَجَّدَ أُمَّةٌ يَقُومُونَ بِوِظَافَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَالتُّضْحِ وَالْإِشَادِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالتَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَيَهْدُونَ النَّاسَ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ بِالْحَقِّ، وَلَا يَتَّخِذُونَ الْبَاطِلَ وَزُيُوفَ الْأَقْوَالِ وَسِيلَةً إِلَى الْهَدَايَةِ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِذَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ حُكْمًا وَسُلْطَانًا فِي الْأَرْضِ، فَإِنَّهُمْ بِالْحَقِّ يَعْدِلُونَ بَيْنَ النَّاسِ أَيْضًا.

[أُمَّة]: تُطَلَّقُ الْأُمَّةُ فِي الِاسْتِعْمَالِ الْقِرَائِيِّ عَلَى كُلِّ مَجْمُوعَةٍ تَجْمَعُهَا صِفَاتٌ أَوْ خَصَائِصٌ أَوْ رَوَابِطٌ مُمَيِّزَةٌ.

فَكُلُّ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ أُرْسِلَ إِلَيْهَا رَسُولٌ لِيَبْلَغَهَا رِسَالَةَ رَبِّهِ أَوْ رِسَالَاتِهِ، هُمْ أُمَّةٌ بَلَغَ هَذَا الرَّسُولُ.

وَمِنْ أَجَابَةِ مَنْهُمْ إِلَى دَعْوَتِهِ، فَهُمْ أُمَّةٌ الإِجَابَةِ. وَمَنْ قَامَ بِوِظَافَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ مِنْهُمْ أُمَّةٌ فَهُمْ الدَّعْوَةُ إِلَى الدِّينِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ. وَمَنْ

قَامَ بِوَاجِبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَهُمْ أُمَّةٌ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ
وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ. وَمَنْ قَامَ مِنْهُمْ بِوَاجِبِ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُمْ أُمَّةٌ
الْقِتَالِ جِهَاداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَالْفَرِيقُ مِنَ الْأُمَّةِ إِذَا اجْتَمَعُوا عَلَى رَأْيٍ مُتَمَيِّزٍ تُطْلَقُ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ أُمَّةٍ.
حَتَّى الْفَرْدُ الْوَاحِدُ الْمَتَمَيِّزُ هُوَ أُمَّةٌ وَخَدَهُ، وَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَوَّلِ دَعْوَتِهِ أُمَّةً وَخَدَهُ.

● ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾: أَي: يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى صِرَاطِ الْهُدَايَةِ وَالنَّجَاةِ
وَالسَّعَادَةِ، وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، بِالْحَقِّ مِنْ قَضَايَا
الْفِكْرِ، وَبِالْمُهَيِّنِ الْعِلْمِ وَأَدْلَتِهِ وَحُجَّتِهِ، وَبِالْحَقِّ الْمَنْزَلِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى
رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ.

فَهُمْ لَا يَتَّخِذُونَ الْبَاطِلَ وَسِيلَةً لِنُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ، لِأَنَّ دِينَ اللَّهِ حَقٌّ،
وَاللَّهُ لَا يَأْذُنُ لِمَنْ آمَنَ بِدِينِهِ الْمَنْزَلِ بِالْحَقِّ، أَنْ يَنْصُرُوهُ إِلَّا بِالْحَقِّ.

بِخِلَافِ أَهْلِ الْبَاطِلِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ لِنُصْرَةِ بَاطِلِهِمْ إِلَّا زُخْرُفًا مِنَ
الْبَاطِلِ، وَزُيُوفًا مِنَ الْأَقْوَالِ ذَوَاتِ الظُّوَاهِرِ الْمَزُورَةِ الَّتِي تَوَهُمُ أَنَّهَا حَقٌّ.

فَعَلِ ﴿يَهْدُونَ﴾ مُسْتَعْمَلٌ بِمَعْنَى يَدْعُونَ، وَيُرْشِدُونَ، وَيَهْدُونَ، وَفِي
الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ يُرْغَبُونَ، وَمِنَ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ وَالرَّذِيلَةِ يُحْذَرُونَ، وَمِنْ
عِقَابِ اللَّهِ عَلَى مَعْصِيَتِهِ يُخَوَّفُونَ وَيُرْهَبُونَ، فَكُلُّ هَذَا مِنَ الْهُدَايَةِ.

إِنَّ إِسْنَادَ الْفِعْلِ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ إِلَى زُكْنِ الْإِسْنَادِ الْآخِرِ، تَكْفِي فِيهِ
مُلَاحَظَةُ إِحْدَى الْعِلَاقَاتِ الَّتِي تُصَحِّحُ هَذَا الْإِسْنَادَ، وَإِنَّ عِلَاقَةَ الدَّعْوَةِ
وَالدَّلَالَةِ وَالتَّزْيِينِ وَالتَّحْسِينِ وَالتَّرْغِيبِ فِي فِعْلَيْنِ «هَدَى» وَ«أَضَلَّ» إِحْدَى
الْعِلَاقَاتِ الَّتِي تُصَحِّحُ أَنْ يَقَالَ: فَلَانُ هَدَى فَلَانًا، وَأَنْ يَقَالَ: فَلَانُ أَضَلَّ
فَلَانًا.

● ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾: أي: وبمقتضى قواعد العدل، المستندة إلى قضايا الحق يَعْدِلُونَ، بحسب اجتهادهم، وعلى مقدار استطاعتهم البشرية.

وكونهم بالحق يَعْدِلُونَ يَدُلُّ على أنهم يَعْدِلُونَ بمقتضى كونهم حُكَّاماً أو قُضَاةً بين الناس، وهذا يقتضي باللُزوم العقلي أن تكونَ لهم سُلْطَاتٌ وِلَايَاتٌ على الناس، أو سُلْطَاتٌ قِضَاءٍ بَيْنَ النَّاسِ، وهذا لا يكون للمُسْلِمِينَ إِلَّا إِذَا مَنَحَهُمُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ الْاِسْتِخْلَافَ، الْمُعَانَةَ مِنْهُ بِمَعُونَةٍ غَيْبِيَّةٍ.

وهذه الآية هي بمثابة وعْدٍ ضَمْنِيٍّ من الله عزَّ وجلَّ، بأنَّ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، سَيَسْتَخْلِفُهُمُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في الأرض، بالحُكْمِ والسُّلْطَانِ، كما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، ويكون ذلك بمَعُونَةٍ مِنْه جَلٍّ وَعَلَاً، إِذَا وَجَدَهُمْ فِي وَضْعِهِمُ الْإِيمَانِيَّ وَالسُّلُوكِيَّ، يَسْتَحَقُّونَ هَذَا الْاِسْتِخْلَافَ، وَإِذَا عَلِمَ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ - أَنَّهُمْ إِذَا صَارُوا مُسْتَخْلَفِينَ فِي الْأَرْضِ، حَمَلُوا مُهِمَّةَ الْهَدَايَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ بِالْحَقِّ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ دَاخِلِ مَجْتَمَعِهِمْ بِالْحَقِّ وَالصُّدُقِ، وَحَكَمُوا بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ، الْمُسْتَعِدِّ إِلَى قَوَاعِدِ الْحَقِّ وَضَوَائِطِهِ.

وَيَتَحَقَّقُ هَذَا الْاِسْتِخْلَافُ حِينَمَا تُوجَدُ فِي الْمُسْلِمِينَ نِسْبَةٌ كَافِيَّةٌ، نَفْسِيًّا، وَعَدَدِيًّا، وَسُلُوكِيًّا، لِلْقِيَامِ بِوَاجِبَاتِهِ، وَلَا يَكُونُ تَطَلُّعُهُمْ لِلْحُكْمِ وَالسُّلْطَانِ فِي الْأَرْضِ ابْتِغَاءً تَحْصِيلِ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالِاسْتِمْتَاعِ بِزِينَتِهَا، وَإِرْضَاءِ شَهَوَاتِ أَنْفُسِهِمْ لِلْحُكْمِ وَالسُّلْطَانِ.

وَقَدْ تَحَقَّقَ بِفَضْلِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ هَذَا الْوَعْدُ الَّذِي جَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ضَمْنًا، وَجَاءَ صَرِيحًا وَاضِحًا فِي سُورَةِ (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) بِقَوْلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ فِيهَا خُطَابًا لِلَّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَاتَّبَعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا

أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِي النَّارِ وَلَيْسَ الْأَمِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٨﴾

وحين حَقَّقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلأُمَّةِ الإسلاميةِ هذا الوَعْدَ، استخْلَفَهُمْ فِي الأرضِ، وَأَبَانَ لَهُمْ بِالوَأَقِعِ الْعَمَلِيِّ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَكَانَتْ لَهُمْ دُولٌ عَظُمَى، لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ، إِذْ أَسْقَطَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ دَوْلَهُمْ، وَشَتَّ شَمْلَهُمْ، وَمَزَقَ الْجَبَارِينَ مِنْهُمْ شَرَّ مُمَزَّقٍ.

وحين قَامَتْ دَوْلَةُ الْمُسْلِمِينَ، وَاسْتَخْلَفَهُمُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ بِمَعُونَاتٍ غَيْبِيَّةٍ مِنْهُ، هَدَوْا بِالْحَقِّ، وَعَدَلُوا بِالْحَقِّ، وَاسْتَمَرَّ اسْتِخْلَافُهُمْ قُرُونًا.

وَلَمَّا فَقَدَ الْمُسْلِمُونَ شُرُوطَ الْإِسْتِخْلَافِ الْمُؤَيَّدِ مِنْ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، انْتَزَعَهُ مِنْهُمْ، كَمَا انْتَزَعَهُ مِنَ الَّذِينَ كَانُوا مُسْتَخْلَفِينَ قَبْلَهُمْ.

لَكِنَّهُمْ مَتَى عَادُوا إِلَى الْإِلْتِزَامِ بِشُرُوطِ الْإِسْتِخْلَافِ فِي الْأَرْضِ أَعَادَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، تَحْقِيقًا لَوَعْدِهِ الْكَرِيمِ.

بقاء طائفة من أمة محمد ظاهرين على الحق:

تَمْتَازُ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ، بِأَنَّهَا أُمَّةٌ مُصْطَفَاةٌ لِحَمَلِ رِسَالَةِ الْإِسْلَامِ دَوَامًا، فَلَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَلَا يَزَالُ فِيهَا طَائِفَةٌ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَالَفَهُمْ، وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ.

وَتَدْخُلُ هَذِهِ الطَّائِفَةُ فِي عَمُومِ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ...﴾ (١٨١)

وَنَجِدُ تَفْصِيلًا لِهَذَا فِيمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

وجاء في رواية لهذا الحديث:

«حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ».

وجاء في رواية عَنْ عُمَيْرِ بْنِ هَانِي قَالَ: سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى الْمَنْبَرِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ».

فَقَامَ مَالِكُ بْنُ يَحْيَى السَّكْسَكِيُّ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، سَمِعْتُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ يَقُولُ: «وَهُمْ أَهْلُ الشَّامِ».

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ - وَرَفَعَ صَوْتَهُ -: هَذَا مَالِكٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاذًا: «وَهُمْ أَهْلُ الشَّامِ».



قول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾

أَي: وَالَّذِينَ كَذَبُوا مِنْ أُمَّةٍ دَعَا مُحَمَّدٍ الْعَامَّةُ لِكُلِّ النَّاسِ بَعْدَ بَعْثِهِ، بِآيَاتِنَا الْبَيِّنَاتِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَيْهِ قُرْآنًا يُتْلَى، وَبِآيَاتِنَا الْإِعْجَازِيَّةِ الشَّاهِدَةِ لَهُ بِالصَّدْقِ فِي نُبُوتِهِ وَرِسَالَتِهِ وَفِي كُلِّ مَا يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ، وَبِآيَاتِنَا الْجَزَائِيَّةِ، وَبِآيَاتِنَا الْكُونِيَّةِ.

والتكذيب بآيات الله عز وجل مُلَازِمٌ لِلْكُفْرِ بِهَا، وَمُلَازِمٌ لَتَكْذِيبِ الرُّسُولِ، وَيَقْتَرِنُ بِهِ بَقَاءُ الْمَشْرِكِ عَلَى عَقَائِدِهِ وَمَفْهُومَاتِهِ الشَّرِكِيَّةِ، وَبَقَاءُ النَّصْرَانِيِّ عَلَى الْبَاطِلِ مِنْ عَقَائِدِهِ وَمَفْهُومَاتِهِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَبَقَاءُ الْيَهُودِيِّ عَلَى

الباطل من عقائده ومفهوماته اليهودية، وبقاء كل ذي ملّة ومذهب ودين على ما كان عليه، أو على ما اختار لنفسه من آراء ضالّة، وعقائد ومفاهيم باطلات، سواء اتّبِع فيها أو ابتدع.

واختار الله عزّ وجلّ هنا التّثنية على التّكذيب بآياته من عناصر الكُفْرِ الكثيرة، لأنّ الخطّ الأعظم الذي يُمثّل أعظم عناصر موضوع السّورة، هو وجوب اتّباع آيات الله اللّاتي أنزلها لعباده، ليعملوا بما جاء فيها من وصايا وأحكام، والتحذير من التّكذيب بها، وعدم اتّباع ما جاء فيها، ويتّصل بهذا الخطّ الأعظم بيان أحوال الذين كذبوا بآيات الله ولم يتّبعوها، وبيان عقوباتهم العاجلات في الدّنيا، والآلات إلى يوم الدّين.

● ﴿.. سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٢): هذه العبارة وما عطف عليها خبر المبتدأ في: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

الاستدراج: مأخوذ من الدّرج بمعنى الطريق، لا بمعنى درجّات المرقاة، على وزن «استفعل» بمعنى: طلب مضمون الفعل، أو أغراه به، أو ساعده على فعله، أو وضع له من المرغبات ما يستميله إلى فعله.

يقال لغة: درج الرّجل يدرج درجاً، أي: مشى في طريقه، وأكثر ما يستعمل في مشي الشيخ الذي يمشي مشياً دّبّاً، وفي مشي الصّبي الذي يمشي مشياً ضعيفاً، وذلك في أوائل مشيه.

فمن أسماء الطريق لفظ «الدّرج» الذي يدرج فيه سالكه «الدّرج»، والمدرج، والمدرجة الطريق، وجمع «درج» أدراج.

ويطلق الدّرج على المراقى، ويقابل درجات المراقى الدّركات، واجدّها دركة.

الدّرجات: منازل بعضها فوق بعض، والدّركات منازل بعضها تحت

بعض.

والاستدراج العادل يكون بوضع أشياء في طريق السالك مما يحب ويشتهي، فكلما تناول ما أمامه منها وجد بعدها أشياء مماثلة يجبها، أو أكثر منها إغراء، فيتأبع في طريقه رغبة في أن يتألفها، وهكذا حتى يجد نفسه قد سقط في الفخ، ونزل به العقاب وهو لا يعلم أن فخ العقاب منصوب له في مكان ما من طريقه الذي اختاره لنفسه بإصرار، بعد أن وجهت له النصائح والتخذيرات، بأن لا يسلك هذا الطريق ذا العواقب الوخيمة.

هذا إذا كان الاستدراج في سبل الضلالة، ونظيره يكون في صراط الهداية، ولكن الله لم يسمه في القرآن استدراجاً، بل هو توفيق ومعوثة، وزيادة في الهدى، وتيسير، وحلاوة إيمان يمتنحها الله عز وجل للسالكين المؤمنين على طريق مرضاة ربهم.

وخص الله عز وجل في القرآن الاستدراج بالنوع الأول، للتفريق بين النوعين المتشابهين في الجنس العام لوسائليهما.

● ﴿مَنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي: من مكان لا يعلمون أنهم يستدرجون بأشياء وضعت فيه، لترزقهم على حرياتهم يتابعون مسيرتهم بمقتضى أهوائهم وشهواتهم، حتى تدمغهم الإدانة بأوفى وأكمل صورها.

فلماذا نزل بهم عقاب الله العادل، لم يجدوا عذراً يعتذرون به عند ربهم، ولا تكون دغواهم حينئذ إلا أن يقولوا: إنا كنا ظالمين، معترفين لربهم بأنهم عصوه، وخالفوا أوامره ونواهيه ووصاياه، ولم يغبوا بتخذيرواته وإنذاراته ظالمين أنفسهم بالاستيهانة بحق الله عليهم.

قول الله تعالى:

● ﴿وَأَمِلْ لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (١٨٢):

يقترن بالاستدراج الذي سبق بيانه وتحليل عناصره، للذين كذبوا بآيات الله، أن يملئ الله لهم، أي: أن يرزقي لهم الحبلى، فتزداد حريته حركتهم في الحياة، وأن يمهلهم ويؤخرهم بإطالة أعمارهم.

يقال لغة: أَمْلَى لَهُ إِمْلَاءً، أي: أَمَهَلَهُ، وطَوَّلَ لَهُ مَجَالَ حُرْيَتِهِ، وأُطَالَ عُمُرَهُ.

وفعل «أَمْلَى» يَدُورُ اشتقاقه حول أَضْلَيْنِ:

الأصل الأول: «الْمَلَا» وهو ما اتَّسَعَ من الأرض، يقال لغة: أَمْلَى لِلْبَعِيرِ فِي الْقَيْدِ، أي: أَرْخَى لَهُ، ووسَّعَ وطَوَّلَ لَهُ فيه، لتزداد حُرْيَةُ حَرَكَتِهِ فِي الْمَلَا، أي: فيما اتَّسَعَ لَهُ من الأرض.

الأصل الثاني: «المَلَوَة» وهي المدة من الزَّمن، ومن هذا المعنى عبارة: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي: واهْجُرْنِي زَمَنًا فَانْقَطِعْ عَنِّي فيه.

فمعنى: ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾: وَأَمَهَلَهُمْ، وَأَطَوَّلَ لَهُمْ، حَتَّى تَزْدَادَ حُرْيَةُ حَرَكَتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ، وَقَدْ أَطَوَّلَ أَعْمَارَهُمْ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ الدَّامِغَةِ لَهُمْ.

● ﴿لَئِنْ كِيدَىٰ مَتَيْنٌ﴾:

الكَيْدُ فِي اللِّغَةِ: التَّدْبِيرُ بِحَقٍّ، أَوْ بِبَاطِلٍ. وَالْحَرْبُ، وَإِعْدَادُ وَسَائِلِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَكِيدُ إِلَّا بِالْحَقِّ.

الْمَتَيْنُ فِي اللِّغَةِ: الصَّلْبُ الشَّدِيدُ الْقَوِيُّ، يُقَالُ لُغَةً: مَتْنُ الشَّيْءِ يَمْتَنُّ مَتَانَةً، أي: صَلْبٌ وَاشْتَدَّ وَقَوِيَ، فَهُوَ مَتْنٌ، وَمَتَيْنٌ.

وَالْمَتَيْنُ: مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى، بِمَعْنَى الْقَدِيرِ ذِي الْقُوَّةِ وَالشَّدَّةِ.

أي: وَلَكِنْ إِذَا اقْتَضَتْ الْحُكْمَةُ أَنْزَالَ الْعُقُوبَةَ الْعَادِلَةَ بِهِمْ، وَقَضَمَ ظُهُورَهُمْ، وَقَطَعَ دَابِرَ شُرُورِهِمْ، فَإِنِّي أَذْبِرُ لَهُمْ كَيْدًا مَتِينًا، لَا يَسْتَطِيعُونَ التَّخْلَصَ مِنْهُ.

ومعنى: ﴿لَئِنْ كِيدَىٰ مَتَيْنٌ﴾: إِنَّ تَذْبِيرِي مُخَكَّمٌ قَوِيٌّ، وَوَسَائِلَ عِقَابِي وَحَرْبِي لِلطَّغَاةِ الْمَجْرَمِينَ، الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بآيَاتِي، شَدِيدَةٌ قُوَّةً صُلْبَةً، لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْ دُونِي حَاجِزَهَا وَلَا مَنَعَهَا، وَلَا مَقَاوِمَتَهَا، وَلَا الصُّمُودَ أَمَامَهَا.

وقد جاءت هذه العبارة بمثابة إنذارٍ للمكذِّبين بآياتِ الله، إذ فيها إلماحٌ إلى أنَّهم سيلاقون من الله حَزْباً لا يَسْتَطِيعُونَ دَفْعَهَا، ولا الْخَلَّاصَ مِنْ سَطَوَاتِهَا، ولا الْفِرَارَ مِنْ عَذَابِهَا.

والكلام على تقدير: وأُملي لهم أولاً، ثُمَّ أُنزل بهم عِقَابِي وعَذَابِي، بِتَذْيِيرٍ مُحْكَمٍ، وبوسائل شديدة قُوَّةٍ صُلْبَةٍ، لأنَّ كَيْدِي مَتِينٌ.



قول الله تعالى:

● ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨١﴾﴾ :

استفهامٌ فيه معنَى التَّلْوِيمِ والتَّوْبِيخِ والتَّشْرِيبِ والإنكارِ، مع الْحَثِّ على التَّفَكُّرِ في شَخْصِيَّةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ وَكَمَالِ صِفَاتِهِ الْبَشَرِيَّةِ، وَكَمَالِ أَخْلَاقِهِ، وَعَظِيمِ مَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ.

فهذه الآية تتحدَّث عن الْمَكْذِبِينَ بآيَاتِ اللَّهِ، الَّذِينَ كَذَّبُوا رَسُولَ اللَّهِ مُحَمَّدًا ﷺ، وَكَذَّبُوا بِمَا أُنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ آيَاتٍ بَيَانِيَّةٍ، وَبِمَا أَيْدَهُ رَبُّهُ بِهِ مِنْ آيَاتٍ إِعْجَازِيَّةٍ، بِأَسْلُوبِ الْحَدِيثِ عَنِ الْغَائِبِينَ، لَا بِأَسْلُوبِ مُوَاجَهَتِهِمْ بِالخُطَابِ، إِغْرَاضاً عَنْهُمْ، وَتَخْرِيضاً عَلَى تَلْوِيمِهِمْ وَتَثْرِيهِمْ، بِبَيَانِ فُسَادِ مَذْهَبِهِمْ بِشَأْنِهِ فَسَاداً لَا يَقْبَلُ بِهِ أَدْنَى الَّذِينَ لَدَيْهِمْ تَفْكِيرٌ سَلِيمٌ.

سبب النزول:

ورد في سبب نزول هذا النَّصِّ مَا رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ وَعَنْ قَتَادَةَ، فَقَالَ قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ:

«ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ عَلَى الصَّفَا، فَدَعَا قُرَيْشاً، فَجَعَلَ يُفَخِّذُهُمْ^(١)، يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي فُلَانٍ، فَحَذَرَهُمْ بِأَسِ اللَّهِ، وَوَقَّاعِ اللَّهِ.

(١) يُفَخِّذُهُمْ: أَي: يَذْكُرُهُمْ فَيَخِذًا فَيَخِذًا.

فَقَالَ قَائِلُهُمْ: إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا لَمَجْنُونٌ، بَاتَ يُصَوِّتُ إِلَى الصَّبَاحِ،
أَوْ حَتَّى الصَّبَاحِ.

فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ
مُّبِينٌ﴾.

عبارة: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ مُصَدَّرَةٌ باستفهام تغجيبي، توبيخي، إنكاري،
يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَةِ، قَدْ سَلَكَوا مَسْلَكاً مُنَافِئاً
لِمَوَازِينَ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ مِنْ عِدَّةِ وَجْهٍ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ الَّتِي كَذَّبُوا بِهِ، هِيَ بِحَدِّ ذَاتِهَا
وَمَا فِيهَا مِنْ إِعْجَازِ فِكْرِي وَبَيَانِي بَلِيغٍ، تَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا تَنْزِيلٌ مِّنْ لَّدُنْ عَزِيزٍ
حَكِيمٍ عَلِيمٍ، وَلَيْسَتْ كَلَاماً مِّنْ كَلَامِ الْبَشَرِ، وَدَلَالَتُهَا الذَّاتِيَّةُ هَذِهِ تُؤَدِّي
بِالْزُّورِ الْعَقْلِيِّ إِلَى دَلَالَةٍ أُخْرَى، وَهِيَ أَنَّ مِبْلَغَ هَذَا الْقُرْآنِ عَنْ رَبِّهِ صَادِقٌ
فِي تَبْلِيغِهِ، وَأَنَّهُ أَهْلٌ لِلْإِصْطِفَاءِ بِالنُّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ، بِمَقْتَضَى حُكْمَةِ اللَّهِ، مُنْزَلُ
الْقُرْآنِ عَلَيْهِ، فَهُوَ كَامِلُ الْعَقْلِ، عَظِيمُ الْفِطْنَةِ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ بِهِ جُنُونٌ.

فَلَوْ أَنَّ الَّذِينَ اتَّهَمُوهُ بِالْجُنُونِ لَأَنَّهُ دَعَا عَشِيرَتَهُ إِلَى دِينِ اللَّهِ فِي مَكَّةَ
فَخِذّاً فَخِذاً، طَوَالَ لَيْلَةٍ كَامِلَةٍ، تَفَكَّرُوا فِي آيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ عَلَيْهِ، الَّتِي
يُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهَا، وَكَانَ لَدَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِكْرٌ نَظِيفٌ، وَرَأْيٌ حَصِيفٌ،
وَوَجْدَانٌ مُنْصِفٌ، لَمَّا اتَّهَمُوهُ بِالْجُنُونِ، بَلْ لَأَمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ شَخْصِيَّةَ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، الَّتِي عَرَفُوهَا فِي
تَعَامُلِهِمْ مَعَهُ، قَبْلَ بَغْيَتِهِ، وَبَعْدَ بَغْيَتِهِ، وَأَنَّ دَعْوَتَهُ إِيَّاهُمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ،
وَالِى نَبَذِ أَوْثَانِهِمْ وَعَقَائِدِهِمُ الْخَرَافِيَّةِ، وَالْإِيمَانِ الْكَامِلِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ
وَالِهَيْبَتِهِ، لَيْسَ فِيهَا أَمَارَةٌ وَاحِدَةٌ عَلَى أَنَّ بِهِ جُنُوناً مَا.

فَكَيْفَ يَتَّهَمُونَهُ بِالْجُنُونِ عَلَى سَبِيلِ قَذْفِ الشَّتَائِمِ، الَّتِي يَدْفَعُ إِلَيْهَا
الْغَضَبُ، أَوْ النُّفُورُ، أَوْ كِرَاهِيَتُهُمْ تَرَكَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ تَقَالِيدٍ، أَوْ كِرَاهِيَتُهُمْ

مَا وَجَّهَ لَهُمْ مِنْ إِنْذَارَاتٍ بِعَذَابِ اللَّهِ، إِذَا أَصْرُوا عَلَى شِرْكِهِمْ، وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ.

لَقَدْ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَفَكَّرُوا قَبْلَ أَنْ يَقْذِفُوا شَتَائِمَهُمْ دُونَ تَفَكِيرِ.

وَقَدْ ذَلَّ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الثَّانِي صَرِيحُ عِبَارَةِ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾.

جِنَّةٌ: قَالَ اللَّيْثُ: الْجِنَّةُ الْجُنُونُ. الْأَسْمُ وَالْمُضَدُّ عَلَى صُورَةِ وَاحِدَةٍ، يُقَالُ: فُلَانٌ بِهِ جِنَّةٌ، وَجُنُونٌ، وَمَجِنَّةٌ، وَالْفِعْلُ الْمَاضِي مِنْهُ: «جَنَّ» بِالْبَاءِ لَمَّا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

وَالْمَعْنَى: لَوْ تَفَكَّرُوا لَمَّا جَازَفُوا بِإِطْلَاقِ مَقُولَتِهِمُ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا مِنَ الْحَقِيقَةِ الْفِكْرِيَّةِ شَيْءٌ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُرَاجِعُوا أَنْفُسَهُمْ بِالتَّفَكُّرِ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ صَاحِبَهُمْ مُحَمَّدًا الَّذِي يُنْذِرُهُمْ بِعَذَابِ رَبِّهِمْ، أَكْمَلَ مِنْهُمْ عَقْلاً وَتَفَكُّيراً، وَأَبْصَرَ مِنْهُمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ وَبِمَا يَضُرُّهُمْ.

وَعَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَنْسُوا أَنَّهُمْ قَدْ صَاحَبُوهُ زَمَناً طَوِيلاً، فَلَمْ يَجِدُوا فِيهِ مَا يُشْغَرُهُمْ بِأَيَّةِ أَمَارَةٍ مِنْ أَمَارَاتِ الْجُنُونِ، بَلْ وَجَدُوا فِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَى عَقْلِ رَاجِحٍ، وَفِطْنَةٍ قَدْرَةٍ، وَخُلُقٍ عَظِيمٍ.

وَأَمَّا الْوَجْهُ الْأَوَّلُ فَمَطْوِيٌّ فِي اللَّفْظِ لَمْ يُصْرِّحْ بِهِ، لَكِنْ أَشَارَ إِلَيْهِ حَرْفُ الْعَطْفِ «الْوَاوُ» الْوَاردُ بَعْدَ هَمْزَةِ الاسْتِفْهَامِ، وَلَدَى التَّصْرِيحِ بِهَذَا الْمَطْوِيِّ نَقُولُ:

أَلَمْ يَتَفَكَّرُوا بِآيَاتِنَا الَّتِي يُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهَا رَسُولُنَا مُحَمَّدٌ، لِيَعْلَمُوا مِنْهَا أَنَّهُ رَسُولٌ صَادِقٌ آمِنٌ كَامِلُ الْعَقْلِ وَالْفِطْنَةِ، أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ^(١)، أَيِ: أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا بِشَخْصِيَّةِ صَاحِبِهِمْ مُحَمَّدٍ الَّذِي يَعْرِفُونَهُ قَبْلَ

(١) أَكَّدَ أَنَّ الْعَطْفَ عَلَى مَحْذُوفٍ مَطْوِيٍّ، لَا يَقْتَصِرُ عَلَى الْفَاءِ الْفَصِيحَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا =

النبوة وبعدها، لِيَعْلَمُوا انتفاء أي صورة من صُور الجنون عنه.

جملة: ﴿يَصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ جملة خبرية تنفي على سبيل الاستغراق المؤكّد بِدُخُولِ حَرْفِ الْجَزِّ التَّأَكِيدِيِّ «مِنْ» على المبتدأ وهو لفظ ﴿جِنَّةٍ﴾ بَعْدَ نَفْيٍ فِي صَدْرِ الْجُمْلَةِ بِحَرْفِ النَفْيِ ﴿مَا﴾. وعبارة ﴿يَصَاحِبِهِمْ﴾ خبر مُقَدَّم.

وهذه الجملة أَغْنَتْ عن ذكرِ مَعْمُولِ فِعْلٍ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ لَأَنَّ تَفَكَّرَهُمْ فِي شَخْصِهِ سَيُوصِلُهُمْ حَتْمًا إِلَى الإِقْرَارِ بِمَضْمُونِهَا حَتْمًا، أي: أَلَمْ يَتَفَكَّرُوا بِشَخْصِ صَاحِبِهِمْ مُحَمَّدِ الْمَرْسَلِ مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، ما به من جِنَّة.

● ﴿...إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (١٨٤):

[إِنْ] هنا حرف نفي بمعنى «ما» النافية، أي: ما صَاحِبُهُمْ مُحَمَّدٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ وَإِلَى سَائِرِ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ وَكَذَّبُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِ إِلَّا مُنْذِرٌ لَهُمْ، غَيُورٌ عَلَيْهِمْ، حَرِيصٌ عَلَى نَجَاتِهِمْ، بِمَا يُوجِبُهُ لَهُمْ مِنْ إِنْذَارٍ يُلْحِقُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، بِدَلِيلِ صِيغَةِ «نَذِيرٍ» الَّتِي تَحْمِلُ مَعْنَى تَأَكِيدِ إِنْذَارِهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ مَعَ الشَّدَةِ فِي الْإِنْذَارِ، لَأَنَّهَا مِنْ صِيغَةِ الْمَبَالِغَةِ.

﴿مُبِينٌ﴾: اسم فاعل من فعل «أَبَانَ» بمعنى أَفْصَحَ عَمَّا يَدْعُو إِلَيْهِ، وأظهر وأوضح، فلم يُقَدِّمْ دَعْوَتَهُ لِقَوْمِهِ عَلَى طَرِيقَةِ الرَّمُوزِ وَالْإِشَارَاتِ وَالْإِيمَاءَاتِ وَالْأَحَاجِي وَالْأَمْثَالِ الْبَعِيدَةِ الْمَذْرُوكِ.

الوجه الثالث: أَنَّ آيَاتِ اللَّهِ الْكُونِيَّةَ الْمُنْبِئَةَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ فِي هَذَا الْكَوْنِ الْكَبِيرِ، تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ مُحَمَّدٍ فِيمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، الَّذِي يُلْزَمُ

= النحاة، بل كل حروف العطف قد تفصح عن معطوف عليه مطوي في اللفظ، ويمكن استخراجُه ذهناً، وهو كثير في القرآن.

عنه عقلاً توحيد إلهيته جلّ جلاله لا محالة، فلا شريك له في ربوبيته، ولا شريك له في إلهيته.

وهذا الوجه قد دلت عليه الآية (١٨٥) الآتي تدبرها بعون الله وتوفيقه وتسديده.

قول الله تعالى:

• ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾:

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي﴾: أي: أو لم ينظروا نظر تفكير وتدبر وبحث علمي، وهذه الجملة مغطوفة على جملة: ﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا﴾ في الآية السابقة، وقدم حرف الاستفهام على حرف العطف فيهما لأنّ له الصدارة في الجمل، والمراد: فليَنظُرُوا وليتفكروا.

﴿مَلَكُوتٍ﴾: صيغة مشتقة من «الملك» للتعظيم، والتفخيم، والمراد بالملك كل ما هو خاضع لسلطان الله الخالق الربّ الملك المتصرف على ما يشاء بحكمته، في هذا الكون الكبير الفسيح الذي لا تحيط به مدارك العقول.

فالمعنى: إذا لم يكونوا قد نظروا، فليَنظُرُوا نظر تأمل وتفكير، في هذا الملك العظيم المنضبط بإحكام وإتقان ودقة مُتَنَاهِيَةٍ، في السَّمَاوَاتِ والأرض، وفي كل شيء مخلوق في هذا الكون، ليَعْلَمُوا من آياته أنّ الربّ المتصرف بشؤونه واحد في ربوبيته، لا يُشَارِكُهُ فيها شريك ما، وأنّه هو مالك كل شيء ومليكه، فلا شريك له في ربوبيته، ويلزم عن هذا عقلاً أنّه لا شريك له في إلهيته.

فإذا تحقّقوا من هذا علّموا أنّ صاحبهم محمداً يدعّوهم إلى الحق، وإلى

دين الله الحق، وهذا العلم يهديهم إلى أن يُصَدِّقُوا بآيَاتِ الله الْمُنَزَّلَاتِ عليه.

الوجه الرابع: أن آيات الله الجزائية التي تَضَمَّنَتْ مُعَاقِبَةَ الْمَكْذِبِينَ من أَهْلِ الْقُرُونِ الْأُولَى، بالإهلاك الشامل، ونجاة الرُّسُلِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهُمْ، والتي جاءت في السورة عَرْضُ أُمُثْلَةٍ كَثِيرَةٍ مِنْهَا، مِنَ الْمَهْلَكِينَ الْمَكْذِبِينَ الْأُولِينَ، تدلُّ على سَنَةِ الله في عبادِهِ، أليس في هذه الآيات الجزائية التي كَشَفَتْهَا الْأُمُثْلَةُ التَّارِيخِيَّةُ الْوَاقِعِيَّةُ، مَا يَدُلُّ أَهْلَ النَّظَرِ الْمُتَفَكِّرِينَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ عَنْ رَبِّهِ، فَتَهْدِيهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، وَإِلَى الْإِيمَانِ بِالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَيْهِ، مُسَوِّقِينَ بِالْخَوْفِ مِنَ الْعُقُوبَةِ الرَّبَّانِيَّةِ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ، كَمَا نَزَلَتْ بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

وقد أَلَمَحَتْ إِلَى هَذَا الْوَجْهِ الْعِبَارَةُ التَّالِيَةُ مِنَ الْآيَةِ:

● ﴿...وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ...﴾ (١٨٥):

أي: أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي آيَاتِ اللَّهِ الْجَزَائِيَّةِ، أَوْ لَمْ يَقْنَعْ فِي تَقْدِيرِهِمْ أَنَّ شَأْنَهُمْ صَارَ مُتَوَقَّعًا مَعَهُ أَنَّ مُدَّةَ إِمْنِهِمْ قَدْ اقْتَرَبَتْ مِنَ الْإِنْتِهَاءِ، وَأَنَّ أَجَلَ إِنْزَالِ الْعِقَابِ بِهِمْ قَدْ اقْتَرَبَ.

إِنَّ هَذَا التَّوَقُّعَ كَافٍ لِأَنْ يَرُدَّهُمْ إِلَى الْحَقِّ.

بَعْدَ هَذَا الْحِصَارِ الْبَيِّنَاتِي الْأَسْتِدْلَالِي مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ، صَارَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ تُخْتَمَ الْآيَةُ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

● ﴿...فِي آيِ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٥):

أي: فَإِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ فَلَا يُوجَدُ بَعْدَهُ حَدِيثٌ آخَرُ يَجْعَلُهُمْ يُؤْمِنُونَ، لِأَنَّ كُلَّ حَدِيثٍ آخَرٍ سَيَكُونُ دُونَ هَذَا الْحَدِيثِ الْحَصَارِيِّ، الْمَتِينِ بِالْحُجَجِ الْبَرَهَانِيَّةِ الدَّوَامِغِ.

وَلَا بُدَّ مِنَ التَّنْبِيهِ هُنَا عَلَى أَنَّ عُقْدَةَ الْامْتِحَانِ بِالْإِيمَانِ، هِيَ الْإِيمَانُ

بالغيب، وأن الوسيلة الإقناعية للإيمان بالغيب هي الأدلة الفكرية والعلمية، وأن أفضل وسيلة لتوصيل هذه الأدلة إلى عمق الأفكار، فعمق القلوب، هي وسيلة الحديث المنطقي العقلي الهادي، الذي يشترك فيه المحدث والمتلقي على تحاورٍ سواء بينهما.

فأسلوب الحديث المنطقي العقلي الهادي، يفوق في تأثيره كل بيان آخر، كالخطابة، والدرس، والمحاضرة، والشعر، ولهذا وصف الله عز وجل ما جاء في كتابه بأنه من قبيل الحديث، فقال تبارك وتعالى في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعْرُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ ذَلِكَ هُدًى لِلَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾ :

ومن هذا يتبين لنا أن الحديث هو وسيلة التأثير الفضلى التي يقوم بها الرسل والأنبياء، والدعاة إلى دين الله المتأسون بهم.



قول الله تعالى:

● ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ لَمْ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٨٦)﴾ :

بعد حصار المكذبين بآيات الله البيانية المنزلة على رسوله محمد ﷺ من أربعة وجوه، اقتضت الحكمة البيانية توجيه الأنظار التفكيرية لغاية الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وهي تتمثل بأمرين رئيسين:

الأمر الأول: الحكم على من ضلَّ في رحلة امتحانه، بالضلال الذي لا يحكم فيه إلا الله وخذه لا شريك له.

وبعد الحكم بالضلال في العاجلة، فقد تقتضي حكمة العزيز الجبار

إِنْزَالَ عِقَابٍ مُّعَجَّلٍ فِي الدُّنْيَا، قَبْلَ الْحُكْمِ بِالضَّلَالِ يَوْمَ الدِّينِ وَالْعِقَابِ فِي جَهَنَّمَ دَارِ الظَّالِمِينَ الْمَجْرِمِينَ.

وقد تقتضي حكمته جلّ جلاله إمهال المكذّبين، وتركهم في طغيانهم يغمهون، حتّى تأتي آجالهم المقدّرة لكل واحد منهم، فيموتون فيها، ويتألّون طرفاً من عذابهم بعد موتهم، في مدّة البرزخ بين الموت والبعث، ثمّ يبعثون ويحاسّبون، ويحكمهم العزيز الجبار عليهم بالضلّال في محكمة العدل العظمى، ويساقون إلى دار عذابهم الأبديّ.

والحكم على الضالّين يكون بحسب منازلهم في دركات الضلال وشدة ما ارتكبوا من جرائم.

الأمر الثاني: الحكم لمن اهتدى في رحلة امتحانه بالهداية، وبأنه من المهتدين الذين يستحقّون دخول الجنّة، والخلود فيها.

والحكم للمهتدين بالهداية يكون بحسب درجاتهم في الهداية، ومنهم العصاة الذين يستحقّون عذاباً أقلّ من الخلود في دار العذاب. ثمّ يكون مصيرهم إلى الجنة خالدين فيها بفضل الله، لأنهم ماثوا على إيمان صحيح، مهما كانوا قد أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي والمخالفات، ويكون تغذّيهم بمثابة التطهير لهم ممّا حمّلوا من أزراس الآثام والخطايا.

وقد جاء في الآية بيان أنّ من يحكم الله عليه بالضلال، فلا يوجد أحد يستطيع أن يحكم له بالهداية من دون الله، سواء أكان ذلك في الحياة الدنيا قبل الموت، أم كان في الآخرة، لأنّ الله جلّ جلاله وعظم سلطانه، هو الذي وضع عبادة الممتحنين موضع الامتحان، فهو الذي يحاسبهم، ويحكم عليهم، ويجازيهم وخده لا شريك له.

ويُفهم بالمقابل - ولو لم يُصرّح به في الآية - أنّ من يحكم له بالهداية، فلا يوجد أحد يستطيع أن يحكم عليه بالضلّال من دون الله.

إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ فِي قَضَايَا امْتِحَانِ الْعِبَادِ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،
وَالْجَزَاءِ الَّذِي يَقْضِي اللَّهُ بِهِ، وَيَتَحَقَّقُ بِأَمْرِهِ تَنْفِيزُهُ، هُوَ الْجَزَاءُ الَّذِي يَنَالُهُ
كُلُّ فَرْدٍ مِنَ الْأَفْرَادِ الَّذِينَ مَرُّوا رَحْلَةَ الْامْتِحَانِ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

واقصر النص هنا على الحكم بالضلال، لأن الحديث يتعلق
بالمكذِّبين بآيات الله، بمقتضى السوابق في النص.

● ﴿... وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٨١):

أي: وَمَنْ وَصَلَ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ إِلَى أَنْ يَخْضَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
بِالضَّلَالِ، وَهُمْ مَا زَالُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِعِلْمِ اللَّهِ بِأَحْوَالِ نُفُوسِهِمْ
وَقُلُوبِهِمْ، وَأَنْتَهُمْ صَارُوا قَوْمًا مِثْوَسًا مِنْهُمْ، وَلَمْ تَقْتَضِ حُكْمُهُ أَنْزَالَ الْعُقُوبَةَ
الْعَاجِلَةَ بِهِمْ بِإِهْلَاكِهِمْ إِهْلَاكًا شَامِلًا، لِأَنَّ فَسَادَهُمُ الْعَامَ لَمْ يَصِلْ إِلَى
الْمَسْتَوَى الَّذِي يَقْتَضِي إِهْلَاكَهُمْ إِهْلَاكًا شَامِلًا، فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّتْ حُكْمَتُهُ يَتْرُكُهُمْ
فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ، مُتَّحِينَ مَتَّحِطِينَ.

﴿وَيَذَرُهُمْ﴾: أي: وَيَتْرُكُهُمْ، قَالَ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ: قَدْ أَهْمَلَ الْعَرَبُ
مَاضِيَ هَذَا الْفِعْلِ وَمَضَدَرَهُ، وَبَقِيَ فِي الِاسْتِعْمَالِ الْمَضَارِعُ وَالْأَمْرُ.

والقراءة الأخرى بالجزم: ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ عطفًا على جواب الشرط
باعتباره في موضع فعل مجزوم، أو هو مُسَكَّنٌ تَخْفِيفًا، أَمَا الْقِرَاءَةُ بِالرَّفْعِ
﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ فَهِيَ عَلَى أَنَّ الْجُمْلَةَ مُسْتَأْنَفَةٌ.

﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾: أي: فِي تَجَاوُزِهِمْ عِبْرَ رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ حُدُودَ اللَّهِ
فِيمَا أَوْجَبَهُ مِنْ إِيْمَانٍ وَعَمَلٍ، وَفِيمَا حَرَّمَهُ مِنْ عَقِيدَةٍ وَعَمَلٍ.

﴿يَعْمَهُونَ﴾: الْعَمَةُ: التَّحْيِيرُ، وَالتَّرَدُّدُ، وَانْطِمَاسُ الْبَصِيرَةِ، وَهُوَ فِي
الْبَصِيرَةِ كَالْعَمَى فِي الْبَصَرِ.

فَنَفَّهَهُمْ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أَنْ مِنْ وَصَلَ

إِلَى حَالَةٍ مَيُؤُسٍ مِنْهَا، وَعَلِمَ اللَّهُ مِنْهُ ذَلِكَ، حَكَمَ عَلَيْهِ بِالضَّلَالِ، وَهُوَ مَا زَالَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَنْ وَصَلَ إِلَى حَالَةٍ مَيُؤُسٍ مِنْهَا لَا نَظْمَاسَ بِصِيرَتِهِ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى هِدَايَتِهِ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ إِقْنَاعِيَّةٍ أَوْ تَرْغِيْبِيَّةٍ أَوْ تَرْهِيْبِيَّةٍ، وَلَا يُوجَدُ أَحَدٌ بَعْدَ اللَّهِ يَحْكُمُ لَهُ بِالْهَدَايَةِ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ.

ونفهم أيضاً أَنَّ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ المَيُؤُسِ مِنْهَا، وَلَمْ يَنْلُغْ تَوَاطُؤُهُمْ عَلَى الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ مَبْلَغًا تَقْتَضِي الْحُكْمَةَ الرَّبَّانِيَّةَ مَعَهُ أَنَّ يُهْلِكُهُمْ إِهْلَاكًا جَمَاعِيًّا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَتْرُكُهُمْ حِينَئِذٍ يَتَخَبَّطُونَ مُتَحَيِّرِينَ فِي ظُلُمَاتٍ أَهْوَاتِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَضَلَالَاتِهِمْ، وَيَسِيرُونَ كَالْعُمَيَّانِ لَا يَعْرِفُونَ سَبِيلًا يُوَصِّلُهُمْ إِلَى سَعَادَتِهِمْ الْحَقِيقِيَّةِ.



قول الله عز وجل:

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُنَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْنَةً يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

يخاطبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الرَّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ، فَيُعَلِّمُهُ فِيهِمَا كَيْفَ يَجِيبُ السَّائِلِينَ عَنْ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَعَنْ أُمُورٍ مِنَ الْغَيْبِ لَمْ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ بِهَا، وَعَنْ حُدُودِ قُدْرَتِهِ فِيمَا يَخْصُ ذَاتَهُ فَضْلًا عَمَّا يَتَعَلَّقُ بِغَيْرِهِ.

وقد اشتمل هذا النص على أَوَّلِ بَيَانٍ قُرْآنِيٍّ بِشَأْنِ سُؤَالِ الْمُشْرِكِينَ عَنِ السَّاعَةِ، أَي: عَنْ وَقْتِ حَدُوثِ السَّاعَةِ الْمَوْعُودِ بِهَا.

● ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾: أُطْلِقَ لَفْظُ «السَّاعَةِ» فِي الْقُرْآنِ عَلَى وَقْتِ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَحْدَاثِهَا. وَأُطْلِقَ عَلَى وَقْتِ بَعْثِ النَّاسِ مِنْ

أَجْدَاثِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَى، حَيَاةِ الْحِسَابِ، وَفَضْلَ الْقَضَاءِ وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ. وَأُطْلِقَ عَلَى مُدَّةٍ زَمَنِيَّةٍ قَلِيلَةٍ، وَفَقَّ مَفْهُومَ الْعَرَبِ لِلْفَتْ السَّاعَةِ، إِذْ يُطْلَقُ لَفْظُ «السَّاعَةِ» عِنْدَ الْعَرَبِ، وَيُرَادُ بِهِ جُزْءٌ قَلِيلٌ مِنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، دُونَ تَحْدِيدِ بَأَن يَكُونُ جُزْءاً مِنْ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ جُزْءاً الَّتِي هِيَ مَجْمُوعُ سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، يَقُولُ الْعَرَبِيُّ: جَلَسْتُ سَاعَةً، أَوْ مَرَّ بِي فَلَانٌ فِي سَاعَةٍ، يُرِيدُ بِذَلِكَ وَقْتاً قَلِيلاً، وَيُطْلَقُ لَفْظُ السَّاعَةِ أَيْضاً عِنْدَ الْعَرَبِ، وَيُرَادُ بِهِ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ جُزْءاً مِنْ زَمَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

وَالْمُرَادُ بِسُؤَالِ الْمَشْرِكِينَ عَنِ السَّاعَةِ سُؤْلُهُمْ عَنِ وَقْتِ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَحْدَاثِهَا، بِإِبَادَةِ كُلِّ مَظَاهِرِ الْحَيَاةِ فِيهَا، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَأْتِي وَقْتُ قِيَامِ السَّاعَةِ الَّتِي يَكُونُ عِنْدَهَا الْبُعْثُ إِلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَى بَعْدَ الْمَوْتِ، لِلْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ بِالْعَدْلِ أَوْ بِالْفَضْلِ، عَلَى مَرَادِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ.

● ﴿أَيَّانَ مُرْسِنَهَا﴾: أَيَّانَ: اسْمُ اسْتِفْهَامٍ يُسْأَلُ بِهِ عَنِ الزَّمَانِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَيُسْتَعْمَلُ عَادَةً فِيمَا يُرَادُّ تَعْظِيمُ أَمْرِهِ، وَتَفْخِيمُ شَأْنِهِ، أَوْ فِيمَا يُرَادُّ التَّعْبِيرُ عَنِ اسْتِغْرَابِهِ وَاسْتَبْعَادِهِ.

فَاسْتَعْمَالَ لَفْظِ «أَيَّانَ» فِي السُّؤَالِ عَنِ وَقْتِ حَدُوثِ السَّاعَةِ الْأَوَّلَى، الَّتِي يَكُونُ بَعْدَهَا وَقْتُ حَدُوثِ السَّاعَةِ الْآخِرَى، سَاعَةِ الْبُعْثِ، اسْتَعْمَالٌ فِي غَايَةِ الدَّقَّةِ.

﴿مُرْسِنَهَا﴾: مُصْدَرٌّ مِمِّي، مِنْ فَعَلَ «أَرَسَى» اللَّازِمُ، بِمَعْنَى «رَسَا» تَقُولُ لُغَةً: «رَسَا الشَّيْءُ يَزُوسُ رُسُوءاً» وَتَقُولُ: «أَرَسَى الشَّيْءُ يُرْسِي إِرْسَاءً» أَي: ثَبَّتَ وَاسْتَقَرَّ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ «مُرْسَاهَا» اسْمُ زَمَانٍ رُسُوءَهَا.

وَيَأْتِي فَعَلَ «أَرَسَى» مُتَعَدِّياً، فَتَقُولُ لُغَةً: «أَرَسَاهُ يُرْسِيهِ إِرْسَاءً» أَي: ثَبَّتَهُ.

وشاع استعمالُ الرُّسُو والإِزْسَاءِ للدلالة على وصولِ السُّفُنِ إلى الميناء، وإلقاء مَراسِيها لتَثْبُتْ وتَسْتَقِرَّ.

فَدَلَّ استعمال لفظ: ﴿مُرْسَهَا﴾ على معنيين، هُمَا: أَيَّانَ رُسُوها، وَأَيَّانَ إِزْسَاءِ الله لها.

وفي استعمال الرُّسُو والإِزْسَاءِ، للدلالة على وقتِ انتهاء مَسِيرَةِ هذه الحياة الدنيا، استعارةٌ قائمة على تشبيهها بالسفينة، وتشبيه الزمن بالبحر، وتشبيه انتهاء نظام هذه الحياة الدنيا وأحداثها بالرُّسُو في مَرَفَأِ هذا الْبَحْرِ الزَّمَنِيِّ.

والغرض الفكريُّ من هذه الاستعارة الدلالة على معنى فلسفيٍّ دقيق، هو أَنَّ هذا النظام الكونيَّ بتراتبيه وتصاريفه المتتابعة لحظَةً فلحظَةً، وبالتغيرات المستمرات اللواتي تجري فيه، يُشَبِّهُ سفينةَ جاريةً في الْبَحْرِ، لَهَا في كُلِّ لحظةٍ مَوْقِعٌ وَحَرَكََةٌ جَدِيدَانِ دَوَاماً، وَأَنَّ هذا التجددَ لا ينتهي إلا إذا قَامَتِ السَّاعَةُ، وانتهى بقيامها كُلُّ هذا النظام، كما تَتَوَقَّفُ السَّفِينَةُ في الميناء، وتُلْقِي مَراسِيها، وتَثْبُتُ وتَسْتَقِرُّ عِنْدَهُ.

فلم يكن استخدام هذه الاستعارة لمجرد الإمتاع الفنيِّ بصورةٍ بلاغيَّةٍ جماليَّةٍ، بل اقترن به غرض فكريٌّ اشتمل على بياناتٍ ذواتِ قيمةٍ، مع الإيجاز الشديد، والاقتصاد في العبارة، وهكذا شأنُ التشبيهاتِ والاستعاراتِ، إذ تكفي فيها الكلمة الواحدة للدلالة على معاني جُمَلٍ كثيرة، فهي تُغْنِي في الدلالة على معانيها، مع ما فيها من جَمالٍ يَسُرُّ المتفكرين.

فالعبرة القرآنية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَهَا﴾ بهذا الإيجاز الذي هو غاية في الاقتصاد في العبارة، تَحْمِلُ أبعاداً فكريةً واسعة، مع أَنَّ السؤال فيها مؤلف من لَفْظَتَيْنِ فقط: ﴿أَيَّانَ مُرْسَهَا﴾ لكنهما مُتَقَاتَانِ بدقَّةٍ فائقة.

قول الله تعالى:

● ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ...﴾ (١٨٧) .

في هذا النصّ تعلیم ربّانيّ يُعلّم الله عزّ وجلّ به رسوله، كيف يُجيب السّائلين عن وقت قيام الساعة، وبالتأمّل والتدبّر نلاحظ أنّ فيه إجابة شاملة، عن كلّ التساؤلات المحتمّلات عن الساعة، بأزيع جُمليّ ليسَ بينها حرف عطف، لأنّ بينها كمال اتصال.

الجملة الأولى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ :

أي: ما علّم وقت قيامها إلّا عند ربّي، بحذف كلمتي: «وَقْتُ قِيَامِهَا» للعلم بهما، إذ المسؤول عنه هو وقت قيامها، أمّا ما سوى ذلك من أمرها فقد جاء به الخبر، فالتصريح بوقت قيامها إطناب لا حاجة له.

ودلّ هذا الحضّر على أنّ وقت قيام الساعة أمرٌ من علم المستقبل الذي قدره الله وقضاه في خُطة التكوين، ولم يُعلّم به أحداً من خلقه، ولم يجعل في كونه أسباباً توصّل إلى العلم به، فهو ممّا أخفاه الله على جميع خلقه، لحكمة من حكمه الجليّة، فلا يعلّمه نبيّ مرسل، ولا ملكٌ مقرب.

إذن: فسؤال السّائلين عنه سؤال لا يملك الرسول الإجابة عليه، باعتبار أنّه أمرٌ يجهله، لا باعتبار أنّه يكتّمه وهو يعلّمه.

وهنا قد يتحرّك في نفوس السّائلين سؤال آخر وهو: ألاّ تستطيع يا محمّد وأنت رسول الله كما تقول، أن تسأل ربّك عن وقت قيام الساعة، والإلحاح عليه في المسألة حتّى يُعلّمك به، فتجيبنا على سؤالنا كما يُبين لك؟.

وجواباً على هذا السؤال المطوّي الذي يستدعيه الذهن عَقَبَ الجواب الأول، جاءت الجملة الثانية:

الْجُمْلَةُ الثَّانِيَّةُ: ﴿لَا يُجَلِّيْهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾:

جَلَّى فَلَانَ الشَّيْءَ، أي: كَشَفَهُ وَأَظْهَرَهُ وَأَوْضَحَهُ، فَتَجَلَّى.

والمعنى: لا يكشف ولا يُظهر العِلْمَ بوقتِ قيامِ السَّاعَةِ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَهُ، ولا يكونُ هذا الكَشْفُ والإِظْهَارُ إِلَّا عِنْدَ قِيَامِهَا، بِدَلِيلِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَوْفَهَا﴾ أي: في وقتِها، أو عِنْدَ وقتِها.

وهذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَضَى بِأَنْ لَا يُعْلِمَ بِوَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ، أَوْ بِأَنْ لَا يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ الإِعْلَامَ بِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ لَا يُعْلِمُ بِهِ إِلَّا عِنْدَ وَقْتِ قِيَامِهَا. هَذَا قَضَاءٌ مُبَرَّمٌ لَا تَغْيِيرَ فِيهِ وَلَا تَبْدِيلَ.

وقولُ الرُّسُولِ ﷺ للسَّائِلِينَ هَذِهِ الْعِبَارَةُ يَتَضَمَّنُ مَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُعْلِمُنِي بِهِ وَلَوْ سَأَلْتُهُ وَأَلْحَفْتُ عَلَيْهِ فِي الْمَسْأَلَةِ.

إِذَنْ: فَلَا مَطْمَعٍ فِي الْوَصُولِ إِلَى الْعِلْمِ بِوَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي ذَلِكَ، فَكُفُّوا عَنِ السُّؤَالِ.

وَهُنَا قَدْ يَتَحَرَّكُ فِي نَفُوسِ السَّائِلِينَ سَوْالٌ ثَالِثٌ، وَهُوَ:

إِذَا أَخْفَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْعِلْمَ بِوَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَهَلْ أَخْفَاهُ اللَّهُ أَيْضًا عَنْ مَلَائِكَتِهِ الْمُقَرَّبِينَ فِي السَّمَاءِ، أَوْ هَلْ أَعْلَمَهُمْ بِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ بِإِظْهَارِهِ لِأَحَدٍ؟

وَمَعَ أَنَّ الْجُمْلَةَ الْأُولَى الْحَاصِرَةَ: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ قَدْ تَضَمَّنَتْ بَعْمُومِهَا الْحَاصِرَ الْجَوَابَ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ، لَكِنْ قَدْ يَقَعُ فِي أَذْهَانِ بَعْضِ السَّائِلِينَ أَنَّ الْحَضَرَ خَاصًّا بِالْبَشَرِ، أَوْ بِالْمُكَلَّفِينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، لِأَنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ لِإِنْتِهَاءِ نِظَامِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، الَّتِي رُبَّتْ فِي خُطَّةِ الْوُجُودِ لِابْتِلَائِهِمْ، وَمِنْ مُنْطَلَقِ هَذَا الْإِحْتِمَالِ يَرُدُّ السُّؤَالُ الثَّالِثُ، وَقَدْ جَاءَ الْجَوَابُ عَلَيْهِ فِي الْجُمْلَةِ الثَّالِثَةِ:

الجملة الثالثة: ﴿ثُقُلْتَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ :

أي: لا يستطيع مخلوق في السماوات والأرض، أن يزفع عن وقيتها الغطاء الثقيل فيكشفه ويعلم بوقيتها المخفي المكنون.

ويلاحظ الأديب الذواق للأدب الرفيع أنه استعير في هذه الجملة «الثقل» للدلالة على تعذر وصول المخلوقات المدركة في السماوات والأرض من الملائكة والإنس والجن، إلى العلم بوقت قيام الساعة.

وذلك لأن الثقل هو الذي لا يستطيع المخلوق رفعه وحمله، وهنا تنطلق أذهاننا إلى الأمور المعنوية الثقيلة، فالمشكلة الاجتماعية المعقدة الصعبة الحل ثقيلة، لا يستطيع المعالج حلها، ولا إدراك مفاتيح حلها، والمعضلة الحسابية ثقيلة لا يستطيع الحاسوب حلها، وإدراك التناهي في الكون دون شيء وراءه، وكذلك نقيضه وهو عدم التناهي في الكون من الأمور المعضلة الثقيلة، التي لا يستطيع العقل أن ينهي تساءله عند واحد منهما، مع أنهما نقيضان لا بُد من واحد منهما.

أما ما يستطيعه المخلوق فهو إما خفيف بالنسبة إليه، أو مساو لقوته. وقد يكون الشيء الواحد ثقيلًا بالنسبة إلى بعض المخلوقين، وخفيفًا أو مساويًا بالنسبة إلى قذرات آخرين.

أما أن يتعذر وصول أهل السماوات والأرض إلى فعل أمر ما، أو إلى علم أمر ما، فهو دليل على أنه أثقل من كل قذراتهم، إذ تظل قذراتهم بالنسبة إليه طائشة، ويبقى هو في موضعه ثقيلًا، فلا تستطيع قذراتهم رفعه إلى حيث يسخرونه أو يعلمونه.

وحين يكون الغرض من رفعه كشفه والعلم به، لأنه في المكان الذي هو فيه مخجوب مستور، فإن وضعه بأنه ثقيل يدل على أنهم لا يستطيعون الوصول إلى العلم به.

فجاء التعبير بأن العِلْمَ بوقتِ قيامِ السَّاعَةِ ثَقِيلٌ على أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وأهل الأرض، مفيداً أَنَّهُمْ عاجِزُونَ عن الوصولِ إلى العلم به، فَمِنْ لوازمِ الشَّيْءِ الثَّقِيلِ أن لا يُسْتَطَاعَ رفعُهُ حتى تَكُونَ القُوَّةُ الرَّافِعَةُ لَهُ مساويةً لوزنه، أو أَكْثَرَ مِنْ وزنه.

ولمَّا كان وقتُ قيامِ السَّاعَةِ في مكانٍ عَمِيقٍ مُخْفِيٍّ عن أَهْلِ السَّمَاوَاتِ والأرض، كان الغرضُ من رفعه من مكانه العِلْمَ به، لكنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ رفعه، فَهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ التَّوَصُّلَ إلى العلم به.

إنَّ هذا التعبيرَ لَمِنْ أدقِّ التَّعْبِيرَاتِ وأَبْرَعِهَا، وأَجْمَعِهَا للأفكارِ الَّتِي يُرَادُّ التعبيرُ عنها، مع أدائه للغرضِ الجماليِّ البلاغيِّ الفَنِّيِّ، وقد أدَّتْ كَلِمَةُ [تَقُلَّتْ] الغَرَضَيْنِ معاً.

(١) الغرضُ الفكريُّ.

(٢) والغرضُ البلاغيُّ الجماليُّ الفَنِّيُّ.

وهنا يَقِفُ القَوْمُ السَّائِلُونَ عن طرح تساؤلاتهم الَّتِي يُكَافِيءُ كُلَّ جوابٍ منها السؤال المطروحَ قبله.

فَحَسَنَ في الختامِ حَسَنُ كُلِّ احتمالٍ لسؤالٍ متكَلِّفٍ قد يَطْرَحُونَهُ فجاءتِ الجملةُ الرابعةُ حاسمةً:

الجملةُ الرابعةُ: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَنَّةٌ﴾:

أي: لا تأتيكم الساعةُ قائمةً فِعْلاً إِلَّا فُجَاءَةً، دون عِلْمٍ مِنْكُمْ أو مِنْ أَحَدِكُمْ بِوقتِ قيامِها، وَلَوْ قَبْلَ لحظاتٍ مِنْه.

بهذهِ الجملةِ الرابعةِ تَمَّ حَسَنُ الأمرِ حَوْلَ السُّؤالِ عن وقتِ قيامِ السَّاعَةِ.

ومن أجلِ هذا نلاحظُ أَنَّهُ لَمَّا تَكَرَّرَ مِنَ السَّائِلِينَ أَنْفُسِهِمْ هذا السُّؤالُ

عن وقت قيام الساعة، بَعْدَ مُدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ، أنزل الله عز وجل قوله في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا أَمْرٌ إِلَىٰ رَبِّي مَتَىٰ تَعْلَمُ ۖ وَأَوَّلُ مُنْقَضَةٍ ۖ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا ۖ كَانَتْ يَوْمَ يَرْوُفَهَا لَوْ يَلْبَثُونَ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ۖ﴾ (٤٦)

فأعرض في هذا النص عن تفصيل جواب سؤالهم عن وقت قيام الساعة، اكتفاء بما أنزل قبله في سورة (الأعراف).

واقصر النص في سورة (النازعات) على التوجيه لواجب العمل لما بَعْدَ قيام سَاعَةِ البعث، فخطب الله عز وجل السائلين بأسلوب الخطاب الإفرادي، أو علم الرسول أن يُخاطب السائلين بهذا الأسلوب نفسه، فقال تعالى:

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَهَا ۚ إِنَّمَا أَمْرٌ إِلَىٰ رَبِّي مَتَىٰ تَعْلَمُ ۖ وَأَوَّلُ مُنْقَضَةٍ ۖ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا ۖ﴾ (٤٤)

أي: في أي عمل أنت أيها السائل، من أعمال تذكرك للساعة، ولما بَعْدَ السَّاعَةِ الثانية، التي يكون بها البعث للحساب، وفضل القضاء، وتنفيذ الجزاء؟؟

لَقَدْ كَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَعْمَلَ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ الَّتِي تَجْعَلُكَ مِنْ أَهْلِ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، إِذَا حَانَ حِينُهَا، فَلَا تُكْرِرُ سُؤَالَكَ عَنْ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ، فَالْعِلْمُ بِهَذَا الْوَقْتِ مُتَتَاهٍ إِلَى اللَّهِ، إِذْ لَا أَحَدَ يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ سِوَاهُ.

وَالْتَفَتَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى رَسُولِهِ فَخَاطَبَهُ بِقَوْلِهِ لَهُ:

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا ۖ﴾ (٤٥)

أي: ما أنت يا مُحَمَّدٌ بِالنُّسْبَةِ إِلَى مَوْضُوعِ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ الْأُولَى، وَمَا يَخْدُثُ بَعْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ الثانية، سَاعَةِ البعث، إِلَّا مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا،

وهو الذي يخافُ عذابَ الله، إذ يحاسبُ الخَلَائِقَ على ما قَدَّمُوا وأَخْرُوا في رِخْلَةٍ امتحانهم في ظروف الحياة الدُّنيا وأحداثها، وَيَقْضِي بشأنهم، ويأْمُرُ بأن يُسَاقَ أَهْلُ النعيمِ إلى الجَنَّةِ، وأن يُسَاقَ أَهْلُ الْعَذَابِ إلى النارِ.

ومعنى كونه منذر مَنْ يخشاها، أنْ يُنذِرَها النافع المفيد المؤثر ينحصر فيمن يؤمن بها ويخشها، إذ لا يخشاها إلا مَنْ كان مؤمناً بها، ولو من مستوى أضعف الإيمان.

وحتى لا يَسْتَبْعِدَ السَّائِلُونَ وَفَتْ قِيَامِ سَاعَةِ الْبَعْثِ، للحياة الأخرى، حياة الحساب، وَفَضْلَ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ، فَيَتَهَاوَنُوا بِالْعَمَلِ الَّذِي يُنْجِيهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، ويكون سبباً في نيلهم السَّعَادَةِ الْخَالِدَةِ فِي جَنَّاتِ النعيم، أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، أَنَّ سَاعَةَ الْبَعْثِ لَيَوْمِ الْقِيَامَةِ، سَاعَةٌ قَرِيبَةٌ جَدًّا مِنْ لَحْظَةِ مَوْتِ الْأَخْيَاءِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بِالنَّسْبَةِ إِلَى مَشَاعِرِهِمْ، وَإِذْرَاكِهِمْ لِمُرُورِ الزَّمَنِ، إِذْ يُلْغَى مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْإِذْرَاكِ فِيهِمْ الْإِحْسَاسُ بِمُرُورِ الزَّمَنِ، حَتَّى تَكُونَ اللَّحْظَةُ الزَّمَنِيَّةُ وَمِلْيَارَاتُ السَّنِينَ، بِالنَّسْبَةِ إِلَى مَشَاعِرِهِمْ وَإِحْسَاسَاتِهِمْ سَوَاءً، فَهُمْ عِنْدَ الْبَعْثِ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُمْ نَامُوا نَوْمَةً الْقِيلُولَةِ بَعْدَ الظَّهِيرَةِ، وَاسْتَيْقَظُوا، أَوْ نَامُوا نَوْمَةً فِي الضُّحَى وَاسْتَيْقَظُوا، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَوْ يَلْتَمِسُونَ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ (٤٦)

أي: تكون مَشَاعِرُهُمْ وَإِحْسَاسَاتُهُمْ، حِينَ يُبْعَثُونَ، وَيَرَوْنَ أَحْدَاثَ يَوْمِ الدِّينِ بَعْدَ سَاعَةِ الْقِيَامَةِ، مُشَابِهَةً لِمَشَاعِرِهِمْ حِينَما كانوا يَنَامُونَ نَوْمَةً قَلِيلَةً فِي النَّهَارِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، عَشِيَّةً، أي: فِي نِصْفِ النَّهَارِ الثَّانِي، أَوْ ضُحَاهَا، أي: فِي ضُحَى هَذِهِ الْعَشِيَّةِ، وَهُوَ نِصْفُ النَّهَارِ الْأَوَّلِ.

وهم في مُدَّةِ الْبَرَزَخِ مَهْمَا طَالَ الزَّمَنُ، لَا يُحْسِنُونَ حِينَ يُبْعَثُونَ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا رَاقِدِينَ، وَأَنْ مَا ذَاقُوهُ مِنْ عَذَابٍ أَوْ نَعِيمٍ، قَدْ كَانَ مُشَابِهًا لِأَلَامِ

الأخلام أو لذاتها، دل على هذا قول الله عز وجل في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾
يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدَاتٍ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾: أي: من القبور.

﴿مِنْ مَرْقَدَاتٍ﴾: أي: من مكان نَوْمِنَا، الرُقَادُ: النوم. والمرقد: اسم مكان النوم.

قول الله تعالى في نص (الأعراف):

• ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾:

لفظ ﴿حَفِيٌّ﴾ يأتي في اللغة للدلالة على عِدَّة مَعَانٍ:

(١) فالحفي بالشئ هو المغتني المهم به، والعالم به عِلْم استقصاء.

(٢) - والحفي، هو الملحف في المسألة عن الشئ الذي يسأل عنه بتكرار، والمستقصي في السؤال عنه.

وجاء في أقوال المفسرين، في تفسير قول الله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ ما يلي:

• كَأَنَّكَ اسْتَحْفَيْتَ السُّؤَالَ عَنْهَا حَتَّى عِلِمَتَهَا.

• كَأَنَّكَ عَالِمٌ بِهَا.

• كَأَنَّكَ مَعْنِي وَمُهْتَمٌّ بِالسُّؤَالِ عَنْهَا.

ويمكن أن نفهم من المعاني اللغوية وأقوال المفسرين معنى جامعاً

نقول فيه:

يَسْأَلُكَ قَوْمُكَ يَا مُحَمَّدٌ عَنْ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ، كَأَنَّكَ مُهْتَمٌّ بِأَنْ تَعْلَمَ وَقْتَ قِيَامِهَا، فَتَسْأَلُ رَبَّكَ عَنْهُ، وَكَأَنَّكَ عَالِمٌ بِهِ، وَكَأَنَّكَ مُهْتَمٌّ بِسُؤَالِهِمْ وَرَاغِبٌ فِي إِجَابَتِهِمْ عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّكَ أَغْقَلُ وَأَكْثَرُ بَصِيرَةً مِنْ أَنْ يَشْغَلَ قَلْبُكَ وَفِكَرَكَ مِثْلُ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ.

وهذا من بديع استعمال اللفظ الواحد في المعاني المتعددة، التي يدل عليها، وهو من باب الإيجاز والاقتصاد في العبارة، مَعَ الدَّلَالَةِ عَلَى مَعَانٍ كَثِيرَةٍ.

وجاء تأكيد الجواب في قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ بجعل عبارة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ بَدَلَ عبارة: ﴿عِنْدَ رَبِّي﴾ لبيان أَنَّ رَبَّهُ الَّذِي رَبَّاهُ فيما مضى، وَمُرَبِّيهِ دَوَامًا هُوَ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ.

ولَمَّا كَانَ السُّؤَالُ عَنْ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ مُمَاحَكَةً بَارِدَةً، إِذِ السُّؤَالُ عَنْ وَقْتِ قِيَامِهَا لَا يُهِمُّ السَّائِلِينَ بِشَيْءٍ مِنْ أُمُورِ دُنْيَاهُمْ وَلَا مِنْ أُمُورِ آخِرَاهُمْ، كَانَ السُّؤَالُ عَنْهُ - لَا تَخَازِ عَدَمَ الْإِجَابَةِ عَلَيْهِ ذَرِيعَةً لَجُحُودِ يَوْمِ الدِّينِ - مِنَ الْجَنُوحِ عَمَّا يَنْبَغِي مِنَ الْعِلْمِ، وَمِنْ نَقْصِ الْعَقْلِ وَفَسَادِ التَّصَوُّرِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي آخِرِ الْآيَةِ: ﴿... وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٧).

أي: وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ مَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ، فَيَجْنَحُونَ عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ، وَيَشْغَلُونَ أَنْفُسَهُمْ بِمَا لَا يَفِيدُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ، وَيَتَّخِذُونَ عَدَمَ إِعْلَامِهِمْ بِوَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ ذَرِيعَةً لَجُحُودِهَا، مَعَ أَنَّ الْعِلْمَ بِهَذَا الْوَقْتِ لَا يَزِيدُ فِي إِثْبَاتِهَا أَيْ تَرْجِيحِ فِكْرِي، إِذْ دَلِيلُ الْيَوْمِ الْآخِرِ يَغْتَمِدُ عَلَى بَرَاهِينِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيِّ مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ، وَقَوَاطِعِ الْأَخْبَارِ الدِّينِيَّةِ مِنْ جِهَةِ النَّقْلِ.

ولَمَّا كَانَ جَنُوحُ السَّائِلِينَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ مُمَازِلًا لَجَنُوحِ سَائِرِ الْكَافِرِينَ الْمَكْذِبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَكَانَ الْكَافِرُونَ هُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي

البيان القرآني أن يُدْخِلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ ضِمنَ أُمَمَائِهِم من كُفَّارِ كُلِّ عَصْرِ في قَضِيَّةٍ عَامَّةٍ تُشَمِّلُ الجَمِيعَ، فقال الله تعالى: ﴿... وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٧).

الاستدراك بلفظ: [وَلَكِنْ] دلَّ على أنَّ الإجابات السابقة كافيات لا قناع ذوي الفكر والرأي والعلم، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ بسبب تَعْطِيلِهِمْ أَدَوَاتِ الْمَعْرِفَةِ لَدَيْهِمْ، كَانَ مُشْرِكُو مَكَّةَ مِنَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى جُحُودِ السَّاعَةِ، وَإِنْكَارِ يَوْمِ الدِّينِ، والتكذيب بالبعث للحساب، وفُضِّلَ القضاء، وتَنْفِيذُ الجزاء، واتَّخَذَ السُّؤَالُ عَنْ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ ذَرِيعَةً لِلتَّكْذِيبِ بِهَا، إِذَا لَمْ يُحَدِّدْ لَهُمْ وَقْتُ قِيَامِهَا، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُمْ لَوْ حُدِّدَ لَهُمْ وَقْتُ قِيَامِهَا لاسْتَمَرُّوا مُكْذِبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ، ومُكْذِبِينَ لِلرُّسُولِ الَّذِي يُبَلِّغُ عَنْ اللَّهِ آيَاتِهِ الْمُنْزَلَاتِ عَلَيْهِ، التي يجب على الممتَحِنِينَ المَكْلَفِينَ أَنْ يَتَّبِعُوهَا، إِذْ قَالَ لَهُمْ فِي بَدَايَةِ السُّورَةِ:

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢).

وبهذا الختام وَضِعَ الخَتْمُ عَلَى قُفْلِ مَوْضُوعِ السُّؤَالِ عَنِ السَّاعَةِ.

وانتقل النَّصُّ إِلَى تَعْلِيمِ الرُّسُولِ ﷺ، أَنَّ يَبَيِّنَ لِلسَّائِلِينَ عَنْ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ، أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، فِيمَا تَجْرِي بِهِ الْمَقَادِيرُ الْمُسْتَقْبَلِيَّةُ، لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانُهُ - لَمْ يُعْطِهِ عِلْمَ الْأَحْدَاثِ التَّفْصِيلِيَّةِ الَّتِي تَأْتِي بِهَا الْأَيَّامُ وَسَاعَاتُهَا وَدَقَائِقُهَا وَلِحَظَاتُهَا، مِمَّا قَضَاهُ اللَّهُ وَقَدَّرَهُ، أَوْ أَذِنَ بِهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ ﷺ لَوْ كَانَ يَعْلَمُ الْغَيْبَ كُلَّهُ بِتَفَاصِيلِهِ، لاسْتَكْتَفَرَ مِنَ الْخَيْرِ، بِاخْتِيَارِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَرْتَبُطُ بِهَا مَقَادِيرُ الْخَيْرِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ، وَلِتَحَاشَى أَنْ يَمَسَّهُ السُّوءُ، بِإِتِّعَادِهِ عَنْ كُلِّ أَمَاكِنٍ تَنْزُلُ السُّوءُ، الَّتِي رَسَمَ اللَّهُ بِقَضَائِهِ وَقَدَّرَهُ أَنْزَالَهَا فِي أَمَاكِنَ مَعْلُومَةٍ مُحَدَّدَةٍ، وَأَنْ يُؤَكِّدَ لَهُمْ أَنَّ رِسَالَتَهُ لَا تَعْدُو أَنْ يَكُونَ نَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ

المجرمين، وبَشِيرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، وَمُبَلِّغًا عَنِ اللَّهِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَيُنْزِلُ تِبَاعًا، مِمَّا أَمَرَهُ بِتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي وَسَائِلِ إِقْنَاعِ النَّاسِ بِالْحَقِّ مَا اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَأَنَّهُ لَيْسَ مَكْلَفًا أَنْ يُحَوِّلَ النَّاسَ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ، أَوْ مِنَ الْعِصْيَانِ إِلَى الطَّاعَةِ.

فقال الله عز وجل في الآية التالية في السورة:

● ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرَهْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨١﴾﴾:

● ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴿١٨٢﴾﴾:

أي: قُلْ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ لِلْمُؤْلِحِينَ عَلَيْكَ فِي السُّؤَالِ عَنْ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَلِسَائِرِ النَّاسِ مِنْ آمَنَ بِكَ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ، لَا أَمْلِكُ لِأَجْلِ نَفْسِي قُدْرَاتٍ وَلَا وَسَائِلَ أَجْلُبُ بِهَا لِنَفْسِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا نَفْعًا، أَوْ أَذْفَعُ بِهَا عَنْ نَفْسِي ضَرًّا، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْنَحَنِيهِ مِنْ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِهِ.

وَمِمَّا لَا أَمْلِكُهُ عِلْمُ غَيْبِ مُسْتَقْبَلِ أَيَّامِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، إِلَّا مَا شَاءَ أَوْ يَشَاءُ اللَّهُ إِعْلَامِي بِهِ وَحَيًّا.

مِلْكُ الشَّيْءِ: الْقُدْرَةُ عَلَى التَّصَرُّفِ فِيهِ عَلَى وَفْقِ مَا جَزَمَتْ بِهِ الْإِرَادَةُ. وَمَالِكُ الشَّيْءِ: هُوَ الْقَادِرُ عَلَى التَّصَرُّفِ فِيهِ بِحَسَبِ إِرَادَتِهِ.

وبما أَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ خَاضِعٌ لِسُلْطَانِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ الْحَكِيمَةِ، بِكُلِّ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ فِيهِ، فَإِنَّ أَحَدًا فِي الْوُجُودِ لَا يَمْلِكُ أَنْ يَتَصَرَّفَ بِشَيْءٍ فِيهِ، إِلَّا إِذَا مَنَحَهُ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا الْقُدْرَةَ عَلَى التَّصَرُّفِ، فِي حُدُودِ مَا مَنَحَهُ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى أَكْثَرُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ، لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ جَلْبَ نَفْعٍ، أَوْ دَفْعَ ضَرٍّ، إِلَّا إِذَا شَاءَ اللَّهُ ذَلِكَ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَمْلِكَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لِغَيْرِهِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ.

الضَّرُّ والضَّرُّ: سُوءُ الحالِ في البَدَنِ أو المَالِ أو الأَهْلِ والوَلَدِ، ونحو ذلك. وَضِدُّهُ النَّفْعُ.

● ﴿...وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ...﴾ ﴿١٨١﴾:

هذه العبارة بمثابة الدليل الواقعي على العبارة السابقة لها، أي: والدليل على أنني لا أملك عِلْمَ مُسْتَقْبَلِ أَيَّامِي بتفاصيلها، أنني لو كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ مِمَّا سَيَخْذُكَ مُسْتَقْبَلًا، لَاتَّخَذْتُ التَّرْتِيبَاتِ الملائماتِ لِأَخْذَاتِ الْمُسْتَقْبَلِ، الَّتِي أَسْتَكْثِرُ بِهَا مِنَ الْخَيْرِ لِنَفْسِي وَلِمَنْ أَحِبُّ، وَالَّتِي أَدْفَعُ بِهَا السُّوءَ عَنِ نَفْسِي وَعَمَّنْ أَحِبُّ، لَكِنَّ هَذَا أَمْرٌ غَيْرُ وَاقِعٍ، لِأَنِّي لَا أَمْلِكُهُ.

السُّوءُ: كُلُّ مَا يَعْصِمُ الْإِنْسَانَ، وَكُلُّ مَا يَقْبُحُ، وَاسْمٌ جَامِعٌ لِمُخْتَلَفِ الْآفَاتِ الْمَكْرُوهَةِ لِلنَّفُوسِ.

● ﴿...إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٨٢﴾:

﴿إِن﴾: حرف نفى بمعنى «ما» النافية.

﴿نَذِيرٌ﴾: أي: مُنْذِرٌ بِشِدَّةٍ مِنْ أَقْصَى دَرَجَانِ الْإِنْذَارِ، بِعِقَابِ اللَّهِ الشَّدِيدِ يَوْمَ الدِّينِ لِلْكَافِرِينَ، مَعَ مَا قَدْ يُنْزَلُ اللَّهُ بِهِمْ مِنْ عِقَابٍ مُّعَجَّلٍ فِي الدُّنْيَا. نَذِيرٌ مِنْ صِيغِ الْمَبَالِغَةِ.

﴿وَبَشِيرٌ﴾: أي: وَمُبَشِّرٌ بِشِدَّةٍ بِثَوَابِ اللَّهِ الْعَظِيمِ يَوْمَ الدِّينِ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، مَعَ مَا قَدْ يَمْنَحُهُمُ اللَّهُ مِنْ ثَوَابٍ مُّعَجَّلٍ فِي الدُّنْيَا. بَشِيرٌ: مِنْ صِيغِ الْمَبَالِغَةِ.

والقصر في العبارة هو قَصْرٌ إِضَافِي، والمعنى: وما أنا بالنسبة إلى مَنْ بَلَّغْتُهُمْ، وَاتَّخَذْتُ كُلَّ وَسِيلَةٍ لِإِقْنَاعِهِمْ، وَنَصَحْتُهُمْ وَإِرْشَادِهِمْ، وَلَمْ أَلْ جَهْدًا فِي إِضْلَاحِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَتِهِمْ الْحَرَّةِ، مَا أَنَا بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهِمْ إِلَّا نَذِيرٌ. أَمَّا

الَّذِينَ خَطَوْا بَعْضَ خُطَوَاتِ إِيْمَانِيَّةٍ، أَوْ ظَهَرَتْ لَدَيْهِمْ بَوَادِرُ اسْتِعْدَادٍ مَا لِأَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلًا، أَوْ آمَنُوا إِيْمَانًا صَحِيحًا وَظَهَرَ عَلَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِلِاسْتِمْرَارِ عَلَى صِدْقِ الْإِيْمَانِ مُسْتَقْبَلًا، وَمُتَابَعَةِ مَسِيرَةِ الْإِيْمَانِ بِكُلِّ مَا سَيَأْتِيهِمْ مِنْ بَلَاغَاتٍ عَنْ رَبِّهِمْ، فَأَنَا بِالنُّسْبَةِ إِلَيْهِمْ بِشِيرٍ.



قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَفَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبُّهُمَا لِيُنْزِلَ بَيْنَهُمَا صُلْحًا لِيَتَكُونَا مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهُمَا صُلْحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾:

تمهيد:

هذا النص وتوابعه مُرتَبَطٌ بِأَحَدِ خَطَي السُّورَةِ الْأَعْظَمَيْنِ اللَّذَيْنِ سَارَتْ عَلَيْهِمَا مُعْظَمُ دُرُوسِ السُّورَةِ وَأَيَاتِهَا، وَهُوَ خَطُ عِبَادَةِ اللَّهِ وَخُدَّةِ، بِغَدِ الْإِيْمَانِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ لَهُ جَلَّ جَلَالُهُ.

أَمَّا الْخَطُ الْأَعْظَمُ الْآخَرُ، فَهُوَ الْمَمْتَدُّ مِنَ الْآيَةِ الثَّالِثَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورَةِ، وَهِيَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾﴾:

وَقَدْ سَبَقَ أَنْ لَاحَظْنَا أَنَّهُ ارْتَبَطَ بِهَذَا الْخَطِّ مِنَ الدَّرْسِ الْحَادِي عَشَرَ، الْآيَاتُ مِنْ (١٨١ - ١٨٨).

وَسَبَقَ أَنْ عَرَفْنَا أَنَّ هَذَا الدَّرْسَ يَتَعَلَّقُ بِأَمَّةٍ دَعَا مُحَمَّدٌ ﷺ، مِنْ آمَنَ بِهِ مِنْهُمْ وَاتَّبَعَهُ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ، بَلْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ الْمَنْزَلَاتِ عَلَيْهِ.

وَهَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ (١٨٩ - ١٩٨) تَعَالَجُ قَضِيَّةَ الشَّرْكِ، مُنْذُ بَدْئِهِ فِي

التاريخ البشري حتّى شريك مُشركي الأمم، إِبَّانَ دَعْوَةَ الرُّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وفي مُقَدِّمَةِ المعَالِجِينَ مُشْرِكُو العرب، الَّذِينَ واجَهُوا أَوَّلَ بَيِّنَاتِ الدَّعْوَةِ المَحْمُودِيَّةِ.

ومن الحكمة في معالجة شريك المشركين الَّذِينَ يَغْبُدُونَ من دون الله شُرَكَاءَ لَهُ، الْبَدْءُ بِقَضِيَّةِ الإِيمَانِ بتوحيد الرُّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

أي: ببيان أَنَّ الخالق الممَدَّ بَعَطَاءَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ كُلِّهَا، هُوَ اللَّهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فلا رازقَ غَيْرُهُ، ولا مُخَيِّئَ غَيْرِهِ، ولا مُمِيتَ غَيْرُهُ، ولا راحِمَ غَيْرُهُ، ولا نَافِعَ غَيْرُهُ، ولا ضَارَّ غَيْرُهُ، ولا يَزُقُّ الْأَوْلَادَ غَيْرُهُ، ولا يَهْبُ الْبَنِينَ وَالْبَنَاتَ غَيْرُهُ، فهو الذي يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ بِالْعَمَلِ بِآيَاتِهِ الْمُنْزَلَاتِ عَلَى رُسُولِهِ، وَأَنْ لَا يُشْرَكَ بِعِبَادَتِهِ أَحَدٌ كَائِنًا مَنْ كَانَ، وكائناً ما كان.

التدبر التحليلي:

قوله الله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا...﴾ (١٨٩)

هَذَا النَّصُّ يَدُلُّ بوضوح كامل على أَنَّ السُّلَالَاتِ الْبَشَرِيَّةَ مُشْتَقَّةٌ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، يَسْتَوِي فِي هَذَا ذُكُورُهَا، وَإِنَاثُهَا، فَالْتُّطْفُ الْمُنَوَّيَّةُ الَّتِي يَقْدِفُهَا الذُّكُورُ هِيَ الْحَامِلَةُ لِلْسُّلَالَاتِ الْبَشَرِيَّةِ ذُكُورِهَا، وَإِنَاثُهَا، وَكُلُّهَا تَرْجِعُ إِلَى الذَّكَرِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكُلُّهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، هِيَ النَّفْسُ الْمُتَصَفَّةُ بِالذُّكُورَةِ.

وَمِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ الْخَالِقِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، أَنْ جَعَلَ مِنْ نَوْعِ هَذِهِ النَّفْسِ الْوَاحِدَةِ، زَوْجَهَا، لِيَسْكُنَ الزَّوْجُ الذَّكَرُ إِلَيْهَا، أَي: لِيَسْكُنَ حِينَ الْإِنْدِفَاعِ إِلَى الْقَرِينِ الْمُؤَنَسِ مَائِلًا إِلَيْهَا، فَإِذَا انْضَمَّ إِلَيْهَا سَكَنَ جَسَدُهُ، وَسَكَنَتْ نَفْسُهُ، وَاسْتَسَلَّمَ لِلرَّاحَةِ السَّعِيدَةِ.

التعبير بفعل «جَعَلَ» فِي: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يَدُلُّ عَلَى الْحَالَةِ الدَّائِمَةِ فِي السُّلَالَاتِ الْبَشَرِيَّةِ، وَهِيَ أَنَّ الذَّكَرَ مِنْ هَذَا النُّوعِ يَسْكُنُ لِلزَّوْجِ

الأنثى من هذا النوع، بالجعل الرباني، في نظام الخلق المتتابع.

أما بدء اشتقاق خلق حواء من آدم عليه السلام، فقد جاء التعبير عنه في قول الله عز وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَّوْهُ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...﴾ (١).

فبدء خلق الأنثى الأولى كان اشتقاقاً من الذكر الأول، ثم سارت السلالات على أن الذكور تحمل ذريات الإخصاب ذكورها وإناثها، واقتضى نظام التكوين الرباني جعل الذكور يسكنون إلى الإناث أزواجاً لهم، لتكون الإناث محاضن تنبت فيها يزور الذرية التي يزرعها الذكور فيهن. ففرق الله عز وجل بين أصل الخلق، وبين الجعل بعد الخلق.

قول الله تعالى:

• ﴿... فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ. فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهَا لِنِ ءَاتَيْنَا صَليحاً لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٨٩).

• ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾: يقال لغة: تَغَشَّى الشيء الشيء، أي: غطاه، وعبرة ﴿تَغَشَّاهَا﴾: كناية مهذبة عن الجماع.

وتغشى الزوج الذكر للزوج الأنثى هو العمل الطبيعي الأحسن لكل منهما. أي: فلما اتخذ الأسباب التزاوجية التي جعلها الله جل جلاله في نظام التكوين، أسباباً للتنازل، والتكاثر البشري.

• ﴿حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً﴾: في هذه العبارة وصف لحالة علوق الجنين أول الحمل، إذ يكون حملاً خفيفاً جداً، لا تحس الأنثى به.

• ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾: أي: فمررت بهذا الحمل في أيام حملها وهو يتنامى شيئاً فشيئاً.

● ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ : أي: فَلَمَّا دَخَلَتْ فِي ثِقَلِ الْحَمْلِ، بسبب كِبَرِ الجنينِ فِي بَطْنِهَا. يُقَالُ لُغَةً: أَثْقَلَتِ الْحَامِلُ، أي: اسْتَبَانَ حَمْلُهَا، فَهِيَ مُثْقَلٌ. وَإِنَّمَا يَسْتَبِينُ حَمْلُهَا إِذَا كَبِرَ الْجَنِينُ فِي رَحِمِهَا فَصَارَ ثَقِيلًا.

● ﴿... دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْنَا صَاحِبًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٨٩):

أي: دَعَا الزَّوْجَانِ اللَّهَ بِأَنَّهُ رَبُّهُمَا، مُقْسِمِينَ فِي دُعَائِهِمَا لَهُ قَائِلِينَ: نَفْسُ يَا رَبَّنَا لَئِنْ آتَيْنَا وَلَدًا صَالِحًا سَالِمًا مِنَ الْعُيُوبِ وَالْآفَاتِ، لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ لَكَ، الْعَامِلِينَ بِمَا يُرْضِيكَ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَبِمَا يُرْضِيكَ فِي تَرْبِيَّتِهِ وَتَنْشِئَتِهِ، وَفِي سَائِرِ أُمُورِنَا.

الشُّكْرُ: مقابلة المنعم على إنعامه بما يرضيه من عمل، أو بما يرضيه من اجتناب عمل، وقد يَشْمَلُ الْقَوْلُ الَّذِي فِيهِ مَا يُرْضِي الْمُنْعَمَ، إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الْقَوْلِ يَخْتَصُّ بِعنوان الْحَمْدِ وَالشَّاءِ.

وصيغة هذا الدعاء تدلُّ على أن ما أَقْسَمُوا عَلَيْهِ هُوَ مِنْ قَبْلِ نَذْرِ اللَّجَاجِ، وَهُوَ النَّذْرُ بِشَرْطِ تَحْقِيقِ مَطْلُوبٍ مَا.

● ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٩٥):

نفهم من هذه الآية الإشارة إلى أَنَّ بَدْءَ الشُّرْكَ فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ، بَعْدَ أَنْ خَلَقَ اللَّهُ النَّاسَ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا، قَدْ كَانَ عَنْ طَرِيقِ جِزْصِ الزَّوْجَيْنِ عَلَى إِنْجَابِ الذَّرِّيَّةِ الصَّالِحَةِ السَّالِمَةِ مِنَ الْعُيُوبِ وَالْآفَاتِ، فَاتَّخَذَا الْأَسْبَابَ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ فِي نِظَامِ الْخَلْقِ لِلإِخْصَابِ وَالتَّنَاسُلِ، وَدَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا بِمَا سَبَقَ بَيَانَهُ، فَلَمَّا رَزَقَهُمَا اللَّهُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ وَلَدًا سَلِيمًا مِنَ الْعُيُوبِ وَالْآفَاتِ، جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِي هَذَا الْوَلَدِ الَّذِي آتَاهُمَا إِلَیَّاهُ.

لَسْتُ أَرَى أَنَّ هَذِهِ الْحَادِثَةَ خَاصَّةٌ بِزَوْجَيْنِ مُعَيَّنَيْنِ، بَلْ هِيَ ظَاهِرَةٌ

بَدَأَتْ تَتَكَرَّرُ فِي النَّاسِ مُنْذُ بَدْءِ ظَوَاهِرِ الشُّرْكِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهِمْ.

ومظاهر شرك الناس في موضوع أولادهم كثيرة:

(١) فَمِنْهَا شِرْكُ الْأَسْبَابِ، إِذْ يَقُولُونَ: اتَّخَذْنَا سَبَبَ كَذَا، وَسَبَبَ كَذَا، فَجَاءَ وَلَدُنَا سَلِيمًا صَالِحًا مُعَافًى، لَا عُيُوبَ فِيهِ، وَلَا عَاهَاتٍ، وَلَا آفَاتٍ.

وَيَنْسَوْنَ دُعَاءَهُمْ رَبَّهُمْ، وَنَذَرَهُمْ بِأَنْ يَشْكُرُوهُ بِالْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيهِ، إِذَا آتَاهُمْ وَلَدًا صَالِحًا، سَلِيمًا مِنَ الْعُيُوبِ وَالْعَاهَاتِ وَالْآفَاتِ، وَلَا سَيِّمًا إِذَا كَانَ وَلَدًا ذَكَرًا.

(٢) وَمِنْهَا اللُّجُوءُ إِلَى الَّذِينَ يَتَوَسَّمُونَ فِيهِمُ الصَّلَاحَ مِنَ النَّاسِ، أَوْ إِلَى الْمُشْغُوزِينَ الدَّجَالِينَ، وَالسَّحَرَةَ الْكَذَّابِينَ، لِحِمَايَةِ وَلَدِهِمَا مِنَ الْأَعْرَاضِ وَالْأَمْرَاضِ وَالْآفَاتِ، وَلِتَحْصِيْنِهِ مِنْ شَرِّ حُسَادِ الْإِنْسِ، وَقُرْنَائِهِمْ مِنَ الْجِنِّ.

(٣) وَمِنْهَا التَّمَّاسُ مُسَاعِدَةَ أَرْوَاحِ الْمَوْتَى، وَاللُّجُوءُ إِلَى قُبُورِهِمْ، وَدُعَاؤُهُمْ، وَطَلَبُ أَفْعَالٍ غَيْبِيَّةٍ، مِنْهُمْ وَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهَا شَيْئًا، إِذْ هِيَ خَاضِعَةٌ لِسُلْطَانِ اللَّهِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ.

إلى غير ذلك من شركيات الناس.

وَيَبْدُو أَنَّ حَادِثَةَ هَذَيْنِ الزَّوْجَيْنِ كَمَا ذَكَرَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. تُعَبِّرُ عَنْ حَالَةِ الْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، الَّتِي تَلْجَأُ إِلَى اللَّهِ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ - حِينَمَا تَكُونُ الْأَسْبَابُ خَفِيَّةً مَجْهُولَةً، وَيَكُونُ الْمَطْلُوبُ أَمْرًا مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ.

وحينما يتحقق المطلوب، وَيَصِيرُ أَمْرًا واقِعًا مشهودًا، مملوكًا بالأيدي بفضلِ قَيْضِ جُودِ اللَّهِ وَعَطَائِهِ، عِنْدَئِذٍ تَبْدَأُ الْأَنْفُسُ تَتَعَلَّقُ بِالْأَسْبَابِ، وَتَنْسَى اللَّهَ مُسَبِّبَ الْأَسْبَابِ، وَتَلْجَأُ مِنْ أَجْلِ حِمَايَةِ مَا وَهَبَهُمُ اللَّهُ إِلَى شُرَكَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، مَعَ أَنَّ الْمَانِحَ لَهُ مِنَ الْغَيْبِ، هُوَ الَّذِي يُجِدُّهُ دَوَامًا

بعطاءاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، وهو الذي يحَفَظُهُ، وَيَحْمِيهِ، وَيُبْقِيهِ في الوجود إلى أَجَلِهِ المقَدَّرِ له، وهو الذي يُسَعِدُ به الَّذِينَ وَهَبَهُمْ إِيَّاهُ.

فقد جاء التعبير بهاتين الآيتين (١٨٩ - ١٩٠) عن بدايات ظاهرة الشُّرك بالله ربَّ الناس في تاريخ البشريَّة، توطئة لمعالجة الشُّرك في الناس إِبَانِ نُزُولِ الْقُرْآن، فما يَلِيهِ من العصور.

وقد فَهَمْنَا من هذا العَرَضِ الرَّبَّانِي، أَنَّ بَدَايَاتِ الشُّرك في الناس، قد ظهرت في موضوع رَغْبَةِ بَعْضِ الْأَزْوَاجِ من الناس في الذُّرِّيَّة، وبقائها سليمةً صالحةً معافاةً مُحَفُوظَةً من الْعَوَارِضِ، ويظهر أَنَّ هذا الفريق من الناس قد تعرَّضَ لامتحان الله لهم بضعف الإخْصَابِ، أو بموت أولادهم وَهُمْ ما زالوا أطفالاً، أو بأولادٍ مصابين بعيوب وأمراضٍ مفسدة، أو مُشَوَّهة.

وكانت البيئة ما زالت بيئةً إيمانيَّةً، يُؤْمَنُ فيها الناس باللَّهِ رَبِّهِمْ، خالقهم ورازقهم، وَمُخَيِّبِهِمْ وَمُمِيتِهِمْ، وكان من شأنِهِم المعتقد أن يَدْعُوا اللهَ وَيَسْأَلُوهُ مَا يَرْغَبُونَ فيه، ولا سيما في الأمور الَّتِي لا يملكون التصرُّفَ أو التحكمُ بأسبابها، ويعتبرونها من الْغَيْبِيَّاتِ بالنسبة إليهم، كانعقاد الأَجِنَّةِ في بطون الأمَّهات.

ولكنَّ الوالِدَيْنِ بَعْدَ أن يَسْتَجِيبَ الله دُعَاءَهُمَا يَلْجَأَانِ لِحماية وَلَدِهِمَا الحبيب الغالي، وللمحافظة عليه إلى اتِّخَاذِ أَعْمَالٍ شَرَكِيَّةٍ، فتتلاعبُ بهما أبالِيسَةُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فيلجَأَانِ إلى التماثل والتعاوِذِ الَّتِي ما أنزل الله بها من سلطان، وإلى الاستجارة بالموتى، والتبرُّك بآثارهم، وإلى الاستعاذة بالجنِّ، وبالتماثلِ الَّتِي يتوَهَّمُونَ أَنَّ أَزْوَاجَ الموتى الصالحين تُصاحبُها، وتَنفَعُ مَنْ يَدْعُوها وَيَسْتَجِيرُ بها، من أَجْلِ وَلَدِهِمَا الحبيب الغالي، الذي يخشيان عليه من الموت، أو من العاهات والأمراض.

وأخذت تتكرَّرُ هَذِهِ الظاهرة في تاريخ الناس، وتتَّسِعُ دوائرها، حتَّى

شَمَلَتْ كُلَّ مُطَالِبِ الْمُشْرِكِينَ فِي حَيَاتِهِمْ، وَظَهَرَتْ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ، وَعِبَادَةُ الْمَوْتَى فِي قُبُورِهِمْ، وَعِبَادَةُ الْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ، وَعِبَادَةُ الْمَشْغُودِينَ وَالْدَّجَالِينَ مِنَ النَّاسِ.

وَشُرَكَائَاتِ الْبَشَرِ تَرْجِعُ إِلَى جَعْلِ بَعْضِ مَا خَلَقَ اللَّهُ شُرَكَاءَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، فَإِلَهِيَّتِهِ، فَيَدْعُونَهُمْ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِمْ بِالْقَرَابِينِ مِنَ الذَّبَائِحِ، وَيَعْبُدُونَهُمْ بِذَلِكَ وَغَيْرِهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَهَذِهِ الْمَعْبُودَاتُ الَّتِي يَجْعَلُونَهَا شُرَكَاءَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إِمَّا أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجِنِّ، أَوْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ مِنْ أَرْوَاحِ الْمَوْتَى الصَّالِحِينَ مِنَ الْبَشَرِ، أَوْ مَا يُمَثِّلُ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْجَارِ وَالْأَشْجَارِ، وَيَتَفَنَّنُونَ فِي اتِّخَاذِ التَّمَاثِيلِ لِمَا يَعْبُدُونَ، وَيَتَقَرَّبُونَ بِالْقُرْبَاتِ لِهَذِهِ التَّمَاثِيلِ.

فَاقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ الْبَيَانِيَّةُ وَالتَّرْبُويَّةُ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ مُعَالَجَةَ شُرَكَائِ الْمُشْرِكِينَ، الَّذِي ظَهَرَ فِي تَارِيخِ النَّاسِ قَدِيماً، وَاسْتَمَرَّتْ ظَاهِرَاتُهُ تَبَرُّزُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ، حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَدْ صَارَ مُعْظَمُ الْعَرَبِ، وَمُعْظَمُ شُعُوبِ الْأَرْضِ مُشْرِكِينَ.

● ... فَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٩﴾ :

أَي: فَتَسَامَى وَتَرْفَعُ وَتَنْزَعُ اللَّهُ الرَّبُّ، الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَلَا فِي إِلَهِيَّتِهِ، عَنْ كُلِّ مَا يَجْعَلُهُ الْمُشْرِكُونَ شُرَكَاءَ لَهُ، إِذْ لَا أَحَدَ يُشَارِكُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي شَيْءٍ مِنْ رُبُوبِيَّتِهِ، وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ إِلَهِيَّتِهِ.

لَقَدْ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ غُلُوءاً كَبِيراً أَكْبَرَ وَأَكْثَرَ مِنْ غُلُوءِ الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ، عَنْ الْقَاعِ وَالْقَرَارِ الْأَسْفَلِ فِي الْجَحِيمِ.

بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ تَحَدَّثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الْمُشْرِكِينَ بِأَسْلُوبِ الْحَدِيثِ عَنِ الْغَائِبِ، وَكَأَنَّهُ يُخَاطَبُ أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالْعَقْلِ وَالرُّشْدِ، مُسْفِهاً أَخْلَامَ الْمُشْرِكِينَ السَّابِقِينَ، بَيَاناً أَنَّ شِرْكَهُمْ لَا يَسْتَنْدُ إِلَى قَاعِدَةٍ فِكْرِيَّةٍ صَحِيحَةٍ

تَقْبَلُ بِهَا الْعُقُولُ السَّوِيَّةُ السَّالِمَةُ، وتَوَطُّتْ لِمُوَاجَهَةِ الْمُشْرِكِينَ الْمُعَاصِرِينَ
لِلنَّزِيلِ فَمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ بِالْخِطَابِ الْمُبَاشَرِ، مع ما يتضمَّن الحديث عن
الغائبين من خطابِ المُعَاصِرِينَ بصورةٍ غيرِ مُبَاشِرَةٍ.
فقال الله عزَّ وجلَّ:

● ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ ﴿١٩١﴾؟

صُدِّرَتْ هذه الآية باستفهام يتضمَّن استثارة الْعَجَبِ مِنْ فِعْلِ الْمُشْرِكِينَ
الْأَوَّلِينَ، الَّذِينَ ضَرَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَثَلاً مِنْ أَمْثَلَةِ شُرَكَاهُمْ، فِي الْآيَةِ
السَّابِقَةِ، فَقَدْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الْأَوَّلُونَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شُرَكَاءَ لَا
تَخْلُقُ شَيْئاً، فَهِيَ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ.

● ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾: جاء التعبير باسم الموصول «مَا» الَّذِي
يُسْتَعْمَلُ غَالِباً فِيمَا لَا يَعْلَمُ وَلَا يَعْقِلُ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ صِفَاتِ
الشُّرَكَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ أَنْ تَخْلُقَ شَيْئاً، بِمَعْنَى أَنْ تُبْدِعَ شَيْئاً، أَوْ
تُوجِدَ شَيْئاً بِخِصَائِصِهَا الذَّاتِيَّةِ.

أي: ليس لشركائهم صفات تَسْتَطِيعُ أَنْ تَخْلُقَ حَتَّى يَصِحَّ أَنْ تَكُونَ
شُرَكَاءَ لِلَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَحَتَّى يَصِحَّ أَنْ تُتَّخَذَ آلِهَةً مَعَ اللَّهِ، تُعْبَدُ وَتُدْعَى،
وَيُقَرَّبُ لَهَا بِالْقَرَابِينَ.

● ﴿وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾: أي: وهؤلاء الشركاء من الإنس والجنَّ والملائكة
يُخْلِقُونَ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقِ، مَا دَامُوا فِي الْوُجُودِ، لِأَنَّ إِبْقَاءَ الْمَخْلُوقِ فِي
الْوُجُودِ، إِنَّمَا يَكُونُ بِإِمْسَاكِهِ فِيهِ، وَهَذَا الْإِمْسَاكُ ظَاهِرَةٌ مِنْ ظَوَاهِرِ الْخَلْقِ
الْمُتَّبَاعِ، فَمَنْ أَمْسَكَ شَيْئاً وَحَمَلَهُ، وَاسْتَمَرَّ يُمَسِّكُهُ مَحْمُولاً، فَإِنَّهُ يَحْمِلُهُ مَعَ
اللَّحْظَاتِ لِحِظَةٍ فَلِحِظَةٍ، إِذْ يُمِدُّهُ بِالطَّاقَةِ الَّتِي يَبْقَى بِهَا مَحْمُولاً.

ومن كان أضلهُ العدم، فإنَّ إِبْقَاءَهُ فِي الْوُجُودِ يَحْتَاجُ إِلَى إِمْدَادٍ مُتَّبَاعٍ،
وَإِمْسَاكِ مُتَّبَاعٍ، وَفِي اللَّحْظَةِ الَّتِي يَنْقُطِعُ عَنْهُ فِيهَا الْإِمْدَادُ وَالْإِمْسَاكُ يَرْجِعُ
إِلَى أَضْلِهِ، وَهُوَ الْعَدَمُ.

دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤١).

فإمساكُ الله عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي الوجودِ بالإمْدَادِ المتتابع، هو الَّذِي يجعلهما لَا تَزُولَانِ إِلَى أَضْلِهُمَا الَّذِي هُوَ الْعَدَمُ، وَلَئِنْ رَفَعَ اللَّهُ عَنْهُمَا إِمْسَاكَهُ لَهُمَا لَزَالَتَا، وَلَئِنْ زَالَتَا فَلَا أَحَدٌ بَعْدَ اللَّهِ يُعِيدُهُمَا إِلَى الوجودِ، وَيُمْسِكُهُمَا فِيهِ.

فمَعْبُودَاتُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ بَقِيَتْ فِي الْوُجُودِ، فَإِنَّهَا تُخْلَقُ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ، دَلَّ عَلَى هَذَا اسْتِعْمَالُ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فَهَذِهِ الصِّغَةُ تَدُلُّ عَلَى التَّجَدُّدِ الْمُتَكَرِّرِ.

وَإِذَا تَرَكْنَا قَضِيَّةَ الْخَلْقِ الَّتِي يَعْجِزُ عَنْهَا الشُّرَكَاءُ وَنَظَرْنَا فِيمَا هُوَ أَهْوَنُ مِنَ الْخَلْقِ، كَالنُّضْرِ بِالمُسَاعَدَةِ وَالْمُعَاوَنَةِ ضِدَّ الْأَعْدَاءِ، فَهَلْ تَمْلِكُ الشُّرَكَاءُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لِمَنْ يَغْبُدُهَا وَيَدْعُوهَا، وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهَا بِالْقَرَابِينِ؟

لَقَدْ جَاءَ الْجَوَابُ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ مِنَ الدَّرْسِ، وَهِيَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

● ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (١٩٢).

أَي: فَإِذَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَغْبُدُونَ آلِهَتَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لِيَنْصُرُوهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ فِي حُرُوبِهِمْ، وَصِرَاعَاتِهِمْ، فَالْوَاقِعُ الثَّابِتُ بِالتَّجَرُّبَةِ أَنَّ النَّضْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

وَكُلُّ الْقُوَى الْغَيْبِيَّةِ مِنَ الْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ وَأَزْوَاجِ الْمَوْتَى، لَمْ يُعْطِهَا اللَّهُ شَيْئًا مِنْ إمْكَانَاتِ النَّضْرِ، إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ، أَوْ بِإِذْنِهِ.

قال الله عز وجل في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بشأن المشركين:

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

إنَّ النَّصْرَ الْحَقِيقِيَّ إِنَّمَا يَأْتِي مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، بِعِزَّتِهِ وَعَلَى مَقْتَضَى حِكْمَتِهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿... وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْغَلِيظِ الْحَكِيمِ ﴿١٦٦﴾﴾.

وهؤلاء الشركاء أنفُسُهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ إِذَا اخْتَأَجُوا إِلَى نَصْرِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَهُ.

● ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾: فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ قُدِّمَ الْمَعْمُولُ وَهُوَ الضَّمِيرُ فِي: ﴿لَهُمْ﴾ عَلَى عَامِلِهِ: ﴿نَصْرًا﴾ فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ لَامُ التَّقْوِيَةِ.

وَالْغَرَضُ الْبَلَاغِيُّ مِنْ هَذَا التَّقْدِيمِ تَنْبِيهُ الْمَشْرِكِينَ عَلَى أَنَّ عِبَادَتَهُمْ لَشُرَكَائِهِمْ لَا تَجْلُبُ لَهُمْ مَعُونَةَ النَّصْرِ، إِذْ تَقْدِيمُ الْأَهَمِّ فِي الْبَيَانِ مِنْ وَسَائِلِ التَّنْبِيهِ عَلَيْهِ، وَلَقَدْ الْتَمَّ النَّظَرُ إِلَيْهِ، كَأَن تَقُولَ لِمَنْ يَتَرَقَّبُ نَفْعًا مِنْ مَعُونَتِهِ لظَالِمٍ جَبَّارٍ: إِلَيْكَ لَا يَصِلُ مِنْ عَطَاءَاتِهِ شَيْءٌ، فَهَذِهِ الْعِبَارَةُ أَشَدُّ تَنْبِيْهَا مِنْ أَنْ تَقُولَ لَهُ: لَا يَصِلُكَ مِنْ عَطَاءَاتِهِ شَيْءٌ.

● ﴿وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾: أَي: فَلَوْ أَرَادَ أَحَدٌ بِهِمْ سُوءًا، تَكْسِيرًا وَتَحْطِيمًا، أَوْ شَتِيمَةً أَوْ سَبًّا، لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَنْصُرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَلَا أَنْ يَذْفَعُوا عَنْهَا شَيْئًا.



قول الله عز وجل:

﴿وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَى الْهَدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاهُ عَلَيْكُمْ أَدْعُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَثْنَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ أَمْ لَهُمْ آذُنٌ أَمْ لَهُمْ أَبْصَارٌ أَمْ لَهُمْ بُصُورٌ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٥﴾ :

تمهید :

بَعْدَ الْحَدِيثِ عَنْ مُشْرِكِي الْقُرُونِ الْأُولَى بِأَسْلُوبِ الْحَدِيثِ عَنِ الْغَائِبِينَ، الَّذِي يَتَضَمَّنُ بَصُورَةَ غَيْرِ مُبَاشِرَةِ خُطَابِ الْمُشْرِكِينَ الْمُعَاصِرِينَ لِنَزُولِ الْقُرْآنِ فَمَنْ بَعْدَهُمْ تَغْرِيبًا، تَوَجَّهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَخُطَابِ الْمُشْرِكِينَ الْمُعَاصِرِينَ لِنَزِيلِ الْقُرْآنِ، فَمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ بِأَسْلُوبِ الْخُطَابِ الْمُبَاشِرِ، فَجَاءَ فِي هَذَا الدَّرْسِ الْحَادِي عَشَرَ هَذَا النَّصُّ، كَأَنَّ السَّابِقَ كَانَ لَهُمْ، وَكَأَنَّهُمْ كَانُوا هُمْ الْمَعْنِيِّينَ بِهِ .

وفي هذا الخطاب للمشرّكين خطاباً مباشراً، بيان إقناعي لهم بدعوة فكرية عقلية هادئة رصينة، تستند إلى واقع تجريبي، وقابل للتجربة دوماً، وباستطاعة كل إنسان أن يمارس تجربته فيه.

والموضوع للتَّجَرِبَةِ أوثانُ المشركين وأصنامُهُم التي جَعَلُوهَا رُموماً لمعبوداتهم الغَيْبِيَّةَ، من أرواح الموتى الصالحين، أو الَّذِينَ كان أجدادُهُم يَعْتَقِدُونَ فيهِم الصَّلاحَ، أو رُموماً لمعبوداتهم من الجنِّ، أو ما يَزْعُمُونَ أَنَّهُم ملائكة، أو قُوَى غَيْبِيَّةٌ أُخْرَى.

هذه الأوثان والأصنام تماثيل مَصْنُوعَةٌ من عناصر الأرض، فهي جامِدةٌ جُمُودُ الصَّخْرِ، أو الطِّينِ، أو الحَدِيدِ، لا رُوحَ فيها، ولا حواسَ لها، ولا مَشَاعِرَ لَدَينِها، ولا تَسْتَجِيبُ بشيءٍ لِدَعْوَةِ الدَّاعِي.

أي: فأجروا تجرباتكم فيها إن شئتم.

قول الله تعالى:

• ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ (١٩٣):

أي: وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْقِيَامِ بِعَمَلٍ صَالِحٍ فِيهِ هُدًى لَا يَتَّبِعُوكُمْ، مَهْمَا أَلَحَّخْتُمْ عَلَيْهِمْ فِي الدَّعْوَةِ، لِأَنَّهُمْ جَمَادَاتٌ، وَمَنْ تَزْمُرُونَ بِهَا إِلَيْهِمْ غَيْرُ مُمَكِّنِينَ مِنَ التَّأثيرِ فِيهَا بِشَيْءٍ، سَوَاءٌ أَكَانُوا جُنًّا، أَمْ تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، أَمْ كَانُوا أَزْوَاجَ مَوْتَى، وَلَوْ أَرَادَ بَعْضُهُمُ التَّأثيرَ كَكُفَّارِ الْجَنِّ.

وذكر الله عَزَّ وَجَلَّ دَعْوَتَهُمْ إِلَى الْهُدَى، مَعَ أَنَّ دَعْوَتَهُمْ لِأَيِّ عَمَلٍ آخَرَ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ هُدًى، هُوَ مِثْلُ دَعْوَتِهِمْ إِلَى الْهُدَى فِي أَنَّهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَذْكُرُ مِنْ اخْتِمَالَاتِ الْأَمْثِلَةِ إِلَّا مَا فِيهِ خَيْرٌ وَهُدًى وَعَمَلٌ صَالِحٌ، وَهَذَا مِنْ آدَابِ التَّعْبِيرَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَلَطَائِفِهَا.

• ﴿... سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ (١٩٣):

جاءت هذه العبارة بمثابة جواب سائلٍ يقول: وَلِمَاذَا لَا يَسْتَجِيبُونَ لداعيهم؟

والجواب: أَنَّ هَذِهِ الْمَعْبُودَاتِ الْوُثْنِيَّةَ لَا تُحِسُّ بِدَعْوَةٍ مِنْ يَدْعُوهَا، وَأَمَّا مَنْ يُزْمَرُ إِلَيْهِمْ بِهَا، فَلَوْ كَانُوا شَيَاطِينَ أَخْبَاءًا، يَخْرُصُونَ عَلَى نَشْرِ الشُّرْكِ فِي النَّاسِ، فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُمَكِّنِينَ مِنَ الْاِسْتِجَابَةِ وَالتَّأثيرِ، لِثَلَاثٍ يَكُونُ لِلشُّرْكِ آثَارٌ مَادِيَّةٌ يَخْتَجُّ بِهَا الْمُشْرِكُونَ لِتَأْيِيدِ وَنَشْرِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شُرْكِ.

إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ يَكْفُهُمْ بِسُلْطَانِهِ عَنْ ذَلِكَ، وَمَغْظَمُ الْمَغْبُودِينَ يَتَبَرَّوْنَ مِنْ عَابِدِيهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ.

﴿سَوَاءٌ﴾: خَبَرٌ مُقَدَّمٌ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلقٌ بـ ﴿سَوَاءٌ﴾ والمبتدأ هو المضدرُّ المؤوَّلُ مِنَ الْفِعْلِ بَعْدَ هَمْزَةِ التَّسْوِيَةِ، وَالتَّقْدِيرُ: سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ دَعْوَتُكُمْ لَهُمْ بِالْإِسْتِئْثَانِ وَصَفْتُكُمْ.

والمعنى: اسْتَوَتْ دَعْوَتُكُمْ لَهُمْ وَعَدَمُهَا، وهذا الاستواء من الأمور التكوينية الجبرية عليكم، فلا تَمْلِكُونَ الخلاص منه، لأنَّ قانون الله في الأوثان والجوامد كلها، أن لا تُحَسَّ بِدَعْوَةٍ مَنْ يَدْعُوهَا من عباد الله، وأن لا يَسْتَجِيبَ مَنْ يُزَمَّرُ بها إليهم، إمَّا طاعةً لله كالملائكة، أو عجزاً عن الاستجابة كالشياطين من الجن، أو لا تَمْلِكُ الإحساس بداعيها كالأحجار والأشجار ونحوهما.

قول الله تعالى:

• ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٩﴾﴾:

﴿عِبَادُ﴾: جمع «عبد» وهو المخلوق المملوك، ويجمع على «أعبد»، و«عبيد وعِبَاد».

وقد وصف الله عز وجل الملائكة، والإنس، والجن، على اختلاف دَرَجاتِهِم ومَرَاتِبِهِم، بأنَّهم عِبَادُ، لأنهم مَخْلُوقُونَ بخلقِهِ لهم، ومملوكُونَ لَهُ جَلَّ جلاله.

فالآلهة الذين اتخذهم المشركون معبوداتٍ لهم من دون الله، واتخذوا لها الأوثان رُموزاً، على زعم أن أرواح آلهتهم وقواهم تصاحبها وتحيط بها، هم عِبَادُ الله مثل عابديهم، فهم لا يستحقون أن يُعْبَدُوا، وعبادتُهُمْ ظُلْمٌ لحَقِّ اللَّهِ على عباده جَمِيعاً.

• ﴿... فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٩﴾﴾:

في هذه العبارة تَحَدُّ للمشركين من الله جَلَّ جلاله، بأن يَدْعُوا مَنْ اتَّخَذُوهم شُرَكَاءَ لله، وبأن يُنَبِّتُوا أَنَّهُمْ يَسْتَجِيبُونَ فيما يَدْعُونَهُمْ له، إن كانوا صادقين في ادِّعاء أَنَّهُم شُرَكَاءُ لله حَقًّا، ولهم تأثيرٌ ما في نَفْعٍ أو ضَرٍّ.

● ﴿فَادْعُوهُمْ﴾: أَمُرُ تَحَدُّ خَاطَبَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ الْمُشْرِكِينَ.

● ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾: أَمُرُ تَعْجِيزٍ لَهُمْ وَلِشُرَكَائِهِمْ.

أي: إِنْ شُرَكَاءَكُمْ لَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعَائِكُمْ مَهْمَا دَعَوْتُمُوهُمْ، إِذْ هُمْ غَيْرُ مُمَكِّنِينَ مِنْ ذَلِكَ وَلَوْ رَغِبُوا فِيهِ.

أَمَّا الْأَوْثَانُ وَالْأَصْنَامُ فَأَمْرُهَا ظَاهِرٌ، لِأَنَّهَا قِطْعٌ جَوَامِدُ مِنْ عُنَاصِرِ الْأَرْضِ.

وَأَمَّا الْمَزْمُورُ إِلَيْهِمْ بِالْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ، فَإِنْ كَانُوا مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ، فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعُهُمْ بِالْقَهْرِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ سُلْطَانٌ، إِلَّا عَلَى مَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْغَاوِينَ، فَلَا يَزِيدُونَ عَابِدِيهِمْ إِلَّا تَوْرِيطاً فِي الشَّرِّ وَرَهَقاً فِي الْعَمَلِ، وَلَا يَنْفَعُونَهُمْ فِي نَصْرِ وَلَا تَأْيِيدٍ ضِدَّ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يُغَيِّرُونَ فِيهِمْ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ شَيْئاً، وَلَا يَجْلُبُونَ لَهُمْ نَفْعاً، وَلَا يَدْفَعُونَ عَنْهُمْ ضَرّاً.

وإِنْ كَانُوا مَلَائِكَةً، فَإِنَّهُمْ يَمْقُتُونَ عَابِدِيهِمْ، وَلَا يَغْضُوبُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ مِنْ رَبِّهِمْ.

وإِنْ كَانُوا مَوْتًى فَقَدْ انْقَطَعَتْ كُلُّ أَعْمَالِهِمْ، وَالصَّالِحُونَ مِنْهُمْ يَتَبَرَّؤُونَ مِنْ عَابِدِيهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، وَالكَافِرُونَ مِنْهُمْ يَتَخَلَّوْنَ عَنْ مَسْئُولِيَّةِ إِغْوَائِهِمْ، إِذَا كَانَ لَهُمْ تَسَبُّبٌ مَا فِيهِ.

قول الله تعالى:

● ﴿اللَّهُمَّ أَزْجَلُ يَمْسُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَأْذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا...﴾ (١٩٥):

وَجَهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَذِهِ الْفَقَرَاتِ لِلْمُشْرِكِينَ عِدَّةَ أَسْئَلَةٍ تَفْصِيلِيَّةٍ، بِشَأْنِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ وَالتَّمَاثِيلِ، عَلَى احْتِمَالِ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَغْتَقِدُونَ أَنَّ مَعْبُودَاتِهِمْ هَذِهِ تَمْلِكُ بِذَوَاتِهَا أَنْ تَجْلِبَ لَهُمْ نَفْعاً، أَوْ تَدْفَعَ عَنْهُمْ ضَرّاً، أَوْ تَجْلِبَ لِأَعْدَائِهِمْ ضَرّاً، أَوْ تَمْنَعَ عَنْ أَعْدَائِهِمْ نَفْعاً.

وهذا من التنزّل إلى مُستوى مَدَارِكِ عَامَّتِهِمْ، الَّتِي قَدْ تَتَأَثَّرُ بِالْأَوْهَامِ الَّتِي يُزَخِّرُهَا لَهُمْ سَدَنَةُ أَضْنَامِهِمْ، فَيَسْتَدْرِجُونَهُمْ إِلَى اغْتِقَادِ الْبَاطِلِ عَلَى أَنَّهُ حَقٌّ.

إِنَّ مَنْ يَمْلِكُ جَلْبَ أَوْ مَنَعَ نَفْعٍ أَوْ ضَرٍّ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَتَّصِفًا بِالصِّفَاتِ الَّتِي تُؤْهِلُهُ لِلْقِيَامِ بِذَلِكَ، وَأَوَّلَاهَا بِالْعَنَاءِ وَالِاهْتِمَامِ صِفَاتُ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْحَيَاةِ وَالْإِرَادَةِ، مَعَ أَدَوَاتِ الْحَسِّ وَالْحَرَكَةِ كَالْبَصَرِ وَالسَّمْعِ، وَالْأَيْدِي الَّتِي تَبْطِشُ، وَالْأَرْجُلُ الَّتِي تَمْشِي.

فَالكَائِنُ الَّذِي لَا يَمْلِكُ هَذِهِ الصِّفَاتِ عَاجِزٌ بِطَبِيعَتِهِ عَنْ جَلْبِ نَفْعٍ لِنَفْسِهِ، أَوْ دَفْعِ ضَرٍّ عَنْ نَفْسِهِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَجْلُبَ نَفْعًا لْغَيْرِهِ، أَوْ يَدْفِعَ عَنْهُ ضَرًّا.

وَفِي تَوْجِيهِ الْأَسْئَلَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْوَرَادَةِ فِي هَذِهِ الْفَقَرَاتِ، إِشَارَةٌ إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْبَدْهِيَّةِ.

• ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا...﴾ (١٩٥)

﴿أَمْ﴾ هِيَ الْمُنْقَطَعَةُ الَّتِي بِمَعْنَى «بَل» مَعَ الْاسْتِفْهَامِ.

أَي: أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا لِنُضْرَتِكُمْ؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا لِلدَّفَاعِ عَنْكُمْ؟.

الْبَطْشُ: أَخَذُ الشَّيْءِ بِالْيَدِ بَعْنَفٍ وَقُوَّةٍ، تَقُولُ لَعَنَ: «بَطَشَ يَبْطِشُ وَيَبْطِشُ بَطْشًا» أَي: تَنَاولَ بِشِدَّةٍ عِنْدَ الصُّوْلَةِ - أَخَذَ بِيَدِهِ أَخْذًا عَنِيفًا بِشِدَّةٍ وَقُوَّةٍ - سَطَا بِسُرْعَةٍ وَقُوَّةٍ.

• ﴿...أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ

بِهَا...﴾ (١٩٥)

أَي: أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا، حَتَّى يَغْرِفُوا أَحْوََالَ عَابِدِيهِمْ؟.

إِنَّ الْأَغْنَيْنِ الْمَوْضُوعَةَ لَهُمْ حِجَارَةٌ لَا تَرَى، وليس لهم في رؤوسهم الصَّخْرِيَّةَ مراكزَ إِبْصَارٍ يُذَرِّكُونَ بِهَا الْمَرِثَاتِ.

أم لهم آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا أَصْوَاتَ مَنْ يَدْعُوهُمْ؟. إِنَّ الْآذَانَ الْمَنْحُوتَةَ فِي صَخْرَاتِ أَجْسَادِهِمْ لَيْسَتْ لَدَيْهَا قُدْرَةٌ عَلَى السَّمْعِ، وَلَيْسَ لَهُمْ فِي رُؤُوسِهِمُ الصَّخْرِيَّةَ مَازَكُ يُذَرِّكُونَ بِهَا الْأَصْوَاتِ.

أَسْئَلُهُ لَا جَوَابَ لَهَا أَخْذًا مِنْ وَاقِعِ حَالِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ وَالتَّمَاثِيلِ إِلَّا النِّفْيَ.

إِذَنْ: فَمِنْ السَّفَاهَةِ الْبَالِغَةِ الْغَايَةِ فِي نَقْصِ الْعُقُولِ، وَمِنْ الْحَرَمَانِ مِنَ الْإِدْرَاكَاتِ السَّلِيمَاتِ عِبَادَتُهَا، وَدُعَاؤُهَا.

وَقَدْ ذَكَرَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالتَّعْبِيرَاتِ الَّتِي يُذَكِّرُ بِهَا الْأَحْيَاءُ الْعُقَلَاءَ مُسَايَرَةً لِعِبَادَتِهَا. «يَمْشُونَ - يَبْطِشُونَ - يُبْصِرُونَ - يَسْمَعُونَ» وَلَوْلَا هَذِهِ الْمَسَايِرَةُ لَكَانَ الْحَدِيثُ عَنْهَا كَمَا يَلِي: أَلْهَا أَرْجُلُ تَمْشِي بِهَا، أَمْ لَهَا أَيْدٍ تَبْطِشُ بِهَا، أَمْ لَهَا أُغْنَيْنِ تُبْصِرُ بِهَا، أَمْ لَهَا آذَانٌ تَسْمَعُ بِهَا.



قول الله عز وجل:

﴿... قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ (١٩٥) إِنَّ وَلِيَیَ اللَّهُ الَّذِی نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ بِتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَلِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَهْضَبُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴿

تمهيد:

اشتملت هذه الآيات على تحدٍّ آخرَ للمشرِكين، علَّمَهُ اللَّهُ رُسُولَهُ فَكُلَّ دَاعٍ إِلَى دِينِ اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أَنْ يَقُولَهُ لِلْمَشْرِكِينَ، وَهَذَا التَّحْدِي يَغْتَمِدُ عَلَى

دَعْوَةَ لِلشُّرَكَاءِ الْمَزْعُومِينَ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ اللَّهِ، أَنْ يَكِيدُوا الدَّاعِيَ بِكُلِّ مَا لَدَيْهِمْ
من وسائل كَيْدِيَّةٍ غَيْرِ مَنْظُورَةٍ، دُونَ إِنْظَارٍ وَلَا إِمْهَالٍ.

● ﴿... قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ (١٩٥):

أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ وَيَا كُلَّ دَاعٍ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ لِلْمُشْرِكِينَ: اذْعُوا
شُرَكَاءَكُمْ، ثُمَّ قُولُوا لَهُمْ: حَارِبُوهَ بِمَا لَدَيْكُمْ مِنْ وَاسَائِلَ، دُونَ إِمْهَالٍ، وَلَا
إِبْطَاءٍ وَلَا إِنْظَارٍ نُضْرَةٍ لِعَابِدِيكُمْ.

الْكَيْدُ: الْحَرْبُ، وَكُلُّ تَذْيِيرٍ فِي إِعْدَادِ وَاسَائِلِهِ.

﴿فَلَا تُنْظَرُونَ﴾: أَي: فَلَا تُمְهِلُونِي إِنْ اسْتَطَعْتُمْ، وَاسْتَخْدِمُوا كُلَّ مَا
لَدَيْكُمْ مِنْ حَزَبٍ بِوَسَائِلٍ غَيْبِيَّةٍ يَمْلِكُهَا شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ
شُرَكَاءُ لِلَّهِ فِي رَبُوبِيَّتِهِ، الَّتِي تَسْتَلْزِمُ مُشَارَكَتَهُ لَهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ، إِنْ صَحَّ
ادْعَاؤُكُمْ.

حُذِفَتْ يَاءُ الْمُتَكَلِّمِ إِيجَازًا فِي النَّطْقِ مِنْ «كِيدُونِ - تُنْظَرُونَ» وَتُوجَدُ
قِرَاءَةٌ أُخْرَى بِإِثْبَاتِ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ، كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ فِي الْقِرَاءَاتِ.

وثمرَةُ هَذَا التَّحْدِي أَنْ يَعْجِزُوا، إِذْ لَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ، فَيُثْبِتُ
بِالْوَاقِعِ التَّجْرِبِيِّ أَنَّ شُرَكَاءَهُمْ لَا تَسْتَطِيعُ شَيْئًا، وَأَنْ شِرْكَهُمْ عَمَلٌ بَاطِلٌ لَا
أَسَاسَ لَهُ، وَأَنَّهُ أَوْهَامٌ فِي أَوْهَامٍ.

قول الله تعالى:

● ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١٩٦):

أي: وَقُلْ لَهُمْ هَذَا الْقَوْلُ أَيْضًا.

﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ﴾: أَي: إِنَّ الَّذِي يَنْصُرُنِي وَيَحْمِينِي اللَّهُ الَّذِي بِيَدِهِ
مَقَالِيدُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الرَّبُّ الْخَالِقُ الْمَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ فِي الْوُجُودِ.

﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾: أَيُّ الَّذِي نَزَّلَ الْقُرْآنَ الْمُشْتَمِلَ عَلَى آيَاتِ اللَّهِ
الَّتِي يَجِبُ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَتَّبِعُوهَا.

واختبر هنا من صفات الله تنزيله الكتاب، لربط هذا النص بالخط الأعظم من خطوط موضوع السورة، المبيّن في الآية الثالثة منها، والتي أمر الله فيها الناس بأن يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم.

فالمعنى: وَقُلْ لَهُمْ بَعْدَ التَّحْدِي، إِنَّ نَصِيرِي الَّذِي يَتَوَلَّى نُصْرَتِي عَلَى كُلِّ مَنْ يَكِيدُونِي وَيُرِيدُونَ بِي شَرًّا أَوْ سُوءًا، هُوَ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْقُرْآنَ، وَالَّذِي أَمَرَ فِيهِ النَّاسَ بِأَنْ يَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، وَالَّذِي يَشْهَدُ لِي بِمَا فِيهِ مِنْ إعْجَازٍ أَتَى رَسُولُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَهُوَ جَلُّ جَلَالِهِ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ، الَّذِينَ يَلْتَزِمُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ كُلَّ عَمَلٍ صَالِحٍ عَقِيدَةٍ وَسُلُوكًا، عَلَى مَقَادِيرِ اسْتَطَاعَاتِهِمْ، فَيَمْدُهُمْ بِتَأْيِيدِهِ وَمُعُونَتِهِ وَنُصْرِهِ لِأَنَّهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ.

أما المشركون وسائر الكافرين فلا ولاية لهم من الله الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

قول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَلِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَهْزُونَ ۚ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۚ﴾ (١٩٨)

أي: وقل للمشركين هذا القول أيضاً، وهو قولٌ يَتَضَمَّنُ إقْناعاً للمشركين بأنّ أوثانهم التي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ عاجزة عن نصير عابديها، وعاجزة عن نصير أنفسهم إذا أَرَادَهَا أَحَدٌ بِسُوءٍ. وبأنّها لَا تَسْمَعُ دَعَاءَ مَنْ يَدْعُوهَا، وَلَا تُبْصِرُ مَنْ يَقِفُ مُقَابِلَهَا وَجْهًا لِوَجْهِهِ، لِأَنَّ عُيُونَهَا حَجَرِيَّةٌ لَا تَرَى شَيْئًا، وَرُؤُوسَهَا حَجَرِيَّةٌ لَيْسَ فِيهَا مَرَاكِزُ إِبْصَارٍ.

وتحمّل عبارات الإقناع هذه تَسْفِيهَا ضَمْنِيًّا لِعُقُولِ الْمَشْرِكِينَ، وَلِقُوَى الْقَهْمِ لَدِينِهِمْ.

والمعنى: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَهُمْ وَتَسْأَلُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شُرَكَائِكُمْ،

الَّذِينَ اتَّخَذْتُمُ الْأَوْثَانَ رُؤُوسًا لَهُمْ، لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ، إِذَا دَعَوْتُمُوهُمْ
لِنَصْرِكُمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ، إِذَا أَرَادَ أَحَدٌ تَحْطِيمَ رُؤُوسِهِمْ،
وَأَرَادُوا هُمُ الدِّفَاعَ عَنْهَا، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَهُمْ بِقَانُونِهِ الْجَبْرِيِّ
عَاجِزِينَ، أَوْ بَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ مَمْنُوعِينَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ سُلْطَانٌ مَادِّيٌّ مُؤَثِّرٌ،
يَسْتَطِيعُونَ بِهِ نُصْرَةَ عَابِدِيهِمْ، أَوْ نُصْرَةَ رُؤُوسِهِمْ، إِذَا كَانَتْ لَهُمْ رَغْبَةٌ فِي
ذَلِكَ.

وهؤلاء الشركاء الذين تدعونهم وتسالونهم من دون الله، إن تدعوهم
يَا مَنْ تَعْبُدُونَهُمْ، لِلْقِيَامِ بِعَمَلٍ فِيهِ هُدًى وَخَيْرٌ لَّا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ، لِأَنَّهُمْ
فَاقِدُونَ لِحَاسَةِ الْعَيْنِ النَاقِلَةِ لِلرُّؤْيَةِ. وَفَاقِدُونَ لِمَرْكَزِ الْإِدْرَاكِ الْبَصَرِيِّ فِي
رُؤُوسِهِمُ الْحَجَرِيَّةِ.

والمعني بالشركاء هنا الأوثان والأصنام والتماثيل، لأنها هي التي
يتشبَّثُ بها السَّوَادُ الأعظم من عامَّةِ المشركين، نَاسِبِينَ أَنَّهَا كَانَتْ فِي بَدْءِ
اتِّخَاذِهَا رُؤُوسَ مَنْ يَغْبُدُونَهُمْ مِنْ أَرْوَاحِ الْمَوْتَى، أَوْ الْجِنِّ، أَوْ مَنْ يَزْعُمُونَ
أَنَّهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

وجاء الخطاب بأسلوب الخطاب الإفرادي لكلِّ مُشْرِكٍ، بَعْدَ أَنْ كَانَ
الخطاب لعموم المشركين، في عبارة:

﴿... وَتَرَنَّهُمْ يُنَظَّرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصَرُونَ ۝١٩٨﴾.

لِتَحْمِيلِ كُلِّ فَرْدٍ مَسْئُولِيَّةَ إِدْرَاكِ الْحَقِيقَةِ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ،
فَالْخَطَابُ الْعَامُّ قَدْ يَتَجَاهَلُهُ بَعْضُ الْأَفْرَادِ الدَّاخِلِينَ فِي الْعُمُومِ، فَيَتَعَلَّلُ بِأَنَّهُ
لَمْ يَتَنَبَّهُ لَهُ.

وقد كان صانعو التماثيل يَصْنَعُونَ لَهَا عُيُونًا تُشَبِّهُ عُيُونَ الْكَائِنَاتِ
الْحَيَّةِ، وَكَانَ النَّاطِرُ إِلَيْهَا مِنْ قُرْبٍ يَشْعُرُ بِأَنَّهَا تَنْظُرُ إِلَيْهِ، لَكِنَّهُ مَظْهَرٌ لَا
حَقِيقَةَ لَهُ، وَلَا حَيَاةَ فِيهِ، وَلَا يَمْلِكُ صِفَاتِ إِنْصَارٍ تَنْقُلُ صُورَ الْمَرْتَبَاتِ إِلَى

جهازٍ مُدْرِكٍ دَاخَلَ الْأَوْثَانَ، فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ بِهَذِهِ الْعَيُونَ الَّتِي تَرَاهَا تَنْظُرُ إِلَيْكَ.

وقد صار هذا الفن في عُصُورِنَا أَكْثَرَ دِقَّةً وَمُحَاكَاةً لِلْحَقِيقَةِ الْحَيَّةِ فِي صِنَاعَةِ الْأَوْثَانَ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا يَسْتَطِيعُ صَانِعُو التَّمَاثِيلِ وَالصُّورِ أَنْ يَجْعَلُوا فِيهَا أَذْنَى دَرَجَاتِ الْحَيَاةِ فِي سَلَمِ الْأَحْيَاءِ.

وقد نَزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي التَّغْيِيرِ الْأَوْثَانَ الَّتِي لَا حَيَاةَ لَهَا وَلَا عِلْمَ وَلَا إِدْرَاكَ، مَنَزِلَةَ الْأَحْيَاءِ الْعُقَلَاءِ، مُرَاعَاةً وَمُحَاكَاةً لِمَفْهُومَاتِ الْمُشْرِكِينَ الْبَاطِلَاتِ، لِيُثَبِّتَ لَهُمُ بِالذَّلِيلِ الْبِرْهَانِيَّ أَنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ مَا يُطْلَقُوهَ عَلَيْهَا مِنْ تَغْيِيرَاتٍ. وَيَعُدُّ إِثْبَاتِ أَنَّهَا جَامِدَةٌ لَا حَيَاةَ لَهَا وَلَا عِلْمَ وَلَا إِخْسَاسَاتٍ، يَظْهَرُ تِلْقَائِيًّا فَسَادُ دُعَائِهَا كَدُعَاءِ الْأَحْيَاءِ الْعُقَلَاءِ الْعُلَمَاءِ ذَوِي الْإِخْسَاسِ.

وبهذه الإقناعاتِ يَنْهَارُ شِرْكُ الْمُشْرِكِينَ، إِذْ يَظْهَرُ أَنَّهُ غَيْرُ ذِي أُسَاسٍ تَقْبَلُهُ الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ، وَيَنْكَشِفُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ سَفَهَاءَ لَا عَقُولَ لَهُمْ، وَأَنَّهُمْ يَتَخَبَّطُونَ فِي أَوْحَالِ الْجَهْلِ وَالْعَمَى.



(١٦)

التدبر التحليلي للدرس الثاني عشر من دروس السورة
وهو الآيات من (١٩٩ - ٢٠٦) آخر السورة

قال الله عز وجل:

﴿خُذِ الْعَقْرَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ ۖ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّكَ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُفْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ رِيَازٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا

يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هَذَا بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكَمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴿٢٠٦﴾ :

القراءات:

(٢٠١) • قرأ ابنُ كثير، وأبو عمرو، والكسائي، ويعقوبُ [طَيْفٌ].

وقرأ باقي القراء العشرة [طَائِفٌ].

[طَيْفٌ]: الطَيْفُ: التَّخَيُّلاتُ والرُّؤى النفسية.

[طَائِفٌ]: الطائِف: هو الذي يَحْمِلُ الوسائس، والدسائس، والتسويلات، فَيَطُوفُ وَيَقْذِفُ بها على فريسته.

فبين القراءتين تكاملٌ فكريٌّ.

(٢٠٢) • قرأ نافع، وأبو جعفر: [يَمْدُونَهُمْ] من فعل «أَمَدَهُ يَمْدُهُ».

وقرأ باقي القراء العشرة: [يَمْدُونَهُمْ] من فعل «مَدَّهُ يَمْدُهُ».

أي: أعطاه مَدَدًا، وزاده فيما هو فيه، وأعانه في شأنه، ويكونُ في الماديات وفي المعنويات.

فالقراءتان متكافئتان لغة: يقال: «مَدَّهُ، وَأَمَدَهُ».

(٢٠٣) • قرأ رُوَيْسٌ: [لَمْ تَأْتِيَهُمْ] بضم هاء الضمير.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لَمْ تَأْتِيَهُمْ] بكسر هاء الضمير.

وهما لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَانِ.

(٢٠٤) • قرأ أبو جعفر: [قُرِئَ] بياءٍ مَفْتُوحَةٍ.

وقرأ باقي القراء العشرة: [قُرِئَ]: بِهَمْزَةٍ مَفْتُوحَةٍ.

والقراءتان وجهان عَرَبِيَّانِ لِنُطْقِ الكلمة.

تمهيد:

يشتمل هذا الدرس على تربية من الله عز وجل للرسل محمد ﷺ، ولكل داع إلى دين الله من أمته، وإلى كل أمرٍ بالمعروف ونأهٍ عن المنكر، في مجال قيامهم بوظائف الدعوة إلى الله، والوعظ والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع توجيه لهم ولسائر المؤمنين بشأن القرآن وذكر الله، والخضوع الكامل له.

وجاء الخطاب التوجيهي في هذا الدرس بأسلوب الخطاب الإفرادي، لإشعار كل واحدٍ من المخاطبين به بمسؤوليته الفردية تجاه هذا التوجيه التعليمي.

والتوجيه التعليمي في هذا الدرس اشتمل على عدة وصايا يكشفها البيان التحليلي لآيات هذا الدرس الأخير من دروس السورة.

وهذا الدرس متصل بالدرس الحادي عشر السابق، الذي جاء فيه تعليم الرسول والدعاة إلى الله من أمته، مناظرة جدلية يُناظرون بها المشركين، لإقناعهم بأن ما هم فيه من شرك ظاهر البطلان بدهاة، وبأن توحيد الله في ربوبيته وإلهيته هو الحق الذي يجب على كل ذي فكر ورأي سليم أن يؤمن به ويعمل بمقتضاه.

وبما أن مجادلات ومناظرات المبطلين، لا بد أن تخمل أنصار الباطل المستمسكين به اعتقاداً وعملاً، على أن يُسيثوا لدعاة الحق، كان من الحكمة التربوية الربانية، أن يُتبع الله عز وجل التعليم الجدلي بوصايا للمناظرين المؤمنين، تجعلهم دوماً في المقام الأسمى خلقاً وحكمة وصبراً،

وَيُبْغِدُ عَنْ مَقَابِلَةِ السَّيِّئَةِ بِمَثَلِهَا، لِأَنَّ هَدَفَهُمْ إِنْقَاذُ الْمُبْطِلِينَ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ أَوْحَالٍ ذَاتِ عَوَاقِبٍ وَخِيَمَةٍ، كَشَأْنِ الْأَطْبَاءِ النَّاصِحِينَ، الْحَرِيصِينَ عَلَى شِفَاءِ الْمَرْضَى، وَإِنْ نَالَهُمْ مِنْهُمْ أَذًى أَوْ ضَرٌّ، وَلِأَنَّ هَدَفَهُمُ الْأَسْمَى مَرْضَاةَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا الْإِتِّصَارَ الشَّخْصِيَّ عَلَى الْخُصْمِ فِي الْحَوَارِ الْجَدَلِيِّ الْإِقْنَاعِيِّ.

والدرسان (١١) و(١٢) متصلان بِالْآيَتَيْنِ (٢) و(٣) فِي صَدْرِ السُّورَةِ.

التدبر:

قول الله عز وجل:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩):

اشتملت هذه الآية على ثلاث وَصَايَا للداعي إلى الله، والناصح المرشد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهي على إيجازها البديع تحكي قصة معاناة الداعي إلى الله، المناظر بالمنطق العقلي، والحجج البرهانية العلمية، ما يلقاه من تصلّب على الباطل، وسفاهة وجهلٍ وعنادٍ واستكبارٍ، وسبَابٍ وشتائم، واتهاماتٍ بالباطل، وسخرية واستهزاء، وغير ذلك من ألوان غَمَزٍ وهمزٍ ولمزٍ وإيذاء:

الوصية الأولى: أَخْذُ الْعَفْوِ.

الوصية الثانية: الأَمْرُ بِالْعُرْفِ.

الوصية الثالثة: الإِعْرَاضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ.

وفيما يلي شرح هذه الوصايا الثلاث:

(١) شرح الوصية الأولى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾:

تقول هذه الوصية بمضامينها الفكرية للداعي إلى سبيل ربه، أيها الداعي إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، أيها

الناصح المرشد، أيها الأميرُ بالمعروف الناهي عن المنكر. إِنَّكَ سَتُوجَاهُ مِمَّنْ تُوجُّهُ لَهُمْ بِيَانِكَ وتوجيهك أذى وعداء وكيداً وضراً، وستواجه سبباً وشتائم، وألوانَ همزٍ ولمزٍ وهُزءٍ وسُخرية.

وإِنَّكَ أَمَامَ هذه المواقف الصعبة بين خيارين:

● فإِذَا أَنْ تُوجَّاهَ مِنْ تَعَالِيهِمْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ، فَتُخْرَجَ عَنْ مَنْهَجِ دَعْوَتِكَ، وَتُقَيِّمَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَقَبَاتِ الْخُصُومَاتِ، فَالْعِدَاوَاتِ، وَهِيَ عَقَبَاتُ كَادَاءٍ تُقِيمُهَا فِي طَرِيقِ دَعْوَتِكَ، فَتَمْنَعَكَ مِنْ مُتَابَعَةِ الْمَسِيرِ.

● وَإِذَا أَنْ تَغْفُو عَنْ يُسَىءٍ إِلَيْكَ، وَتَتَغاضَى عَنْهُ، وَتُبْقِيَ جُسُورَ الصَّلَةِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَنْ تَسْعَى لَهْدَايَتِهِمْ وَنَصَحِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ وَمَوْعِظَتِهِمْ قَائِمَةً. وَبِسَبَبِ إِبْقَاءِ هَذِهِ الْجُسُورِ تَسْتَطِيعُ مُتَابَعَةَ مَسِيرَتِكَ، لِتَغْتَنِمَ الثَّوَابَ عِنْدَ اللَّهِ، وَعَسَى أَنْ تَظْفَرَ بِمَنْ يَسْتَجِيبُ لَكَ وَيَهْتَدِي.

وقد جاء التوجيه الرباني لوجوب سلوك سبيل العفو والإغضاء عن إساءات المسيئين.

والبديع في عبارة التوجيه القرآنية، أنها جاءت بأسلوب المطالبة بأخذ العفو: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ دون عبارة: فاغفُ، أو فالزم العفو، أو فالزم سبيل العفو، أو نحو ذلك من عبارات.

إِنَّ جَمَلَةً: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ تُشْعِرُ بِأَنَّ الْعَفْوَ شَيْءٌ ثَمِينٌ يُؤْخَذُ، وَيُغْتَنَمُ، وَيُظْفَرُ بِهِ، وَمَرْتَبَةٌ نَفِيسَةٌ يَخْرِصُ عَلَى الْارْتِقَاءِ إِلَيْهَا أَهْلُ الْبَصِيرَةِ الْإِيمَانِيَّةِ.

ولدى التحليل يلاحظ المتدبر أَنَّ الْعَفْوَ لَهُ حِلَاوَةٌ فِي الْقُلُوبِ وَالنُّفُوسِ، فَمَنْ عَافَا ذَاقَ حِلَاوَةَ الْعَفْوَ، وَالْأَشْيَاءُ ذَوَاتُ الْحَلَاوَاتِ فِي الْمَادِّيَّاتِ تُؤْخَذُ، وَتُسْتَعْمَلُ فِي الْوُجُوهِ الَّتِي تُعْطِي حَلَاوَاتِهَا.

وَلَمَّا كَانَ مُجَرَّدُ أَخْذِ الْعَفْوَ يُسَبِّبُ فِي نَفْسِ الْمُؤْمِنِ وَقْلَهُ مَشَاعِرَ

الحلاوة الإيمانية، قال الله عز وجل لحامل الرسالة الدينية: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ .

ويلاحظ المتدبر أيضاً أن العفو يُثِيبُ الله عليه ثواباً عظيماً جليلاً، وَيَعْلَمُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ شَدِيدَ الْحَرَصِ عَلَى الظفر بهذا الأجر العظيم. ولما كان الحصول على هذا الأجر العظيم الذي يأخذه المؤمن عند ربه، إنما يأخذه بسبب العفو، كَانَ مِنْ فَنِيَةِ الأداء البياني البديع، والأدب الرفيع، إسناد الأخذ إلى السبب الذي يُؤْخَذُ بِهِ الأجر العظيم عند الله.

وجملة: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ تدلُّ بلازمها الذهني على التَّهْيِ عن أخذ التَّشْفِي، أي: ولا تأخذ التَّشْفِي لِنَفْسِكَ بالانتقام، وبمقابلة السيئة بمثلها، ومُعَاقِبَةِ المسيء من الذين تُعَالِجُهُمْ بما يَسْتَحِقُّ من عقاب. فحلاوة العفو ولذته، مع ثواب الله العظيم. خَيْرٌ لَكَ مِنْ لَذَّةِ التَّشْفِي العابرة، التي قد لا تظفر بها، وَقَدْ تَجَلَّبُ لَكَ شَرًّا كبيراً، مع ما تُقِيمُ من عقباتٍ وجُدُرٍ في سبيل قيامك بأداء رسالتك التي تَحْمِلُهَا للإصلاح، وَمَعَ ما تُدْمِرُ من جُسُورٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَنْ تُعَالِجُهُمْ بالدعوة، أو بالتَّضَحُّ والإرشاد، أو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إِنَّ الْعَفْوَ عَنْ إِسَاءَاتِ الْمُعَالَجِينَ وإيذاءاتهم يُعَبِّدُ للمعالج حامل الرسالة السُّبُلَ الْوَعْرَةَ، التي ينبغي أن يسلكها لدى تَأْدِيَةِ رسالته، ابتغاءَ مَرْضَاةِ رَبِّهِ، فهذا أَمْرٌ يُرْضِي اللَّهَ عز وجل، لِأَنَّهُ أَكْثَرُ تَأْثِيرًا فِي هِدَايَةِ النَّاسِ، وَاسْتِجَابَتِهِمْ لِمَا يُخَيِّهِمْ، بما يَمْلِكُ من قلوبهم ونفوسهم وعواطفهم، وبما يُمَهِّدُ الطريق إلى استجابتهم، فَيُثِيبُ اللَّهَ عَلَيْهِ ثَوَابًا عَظِيمًا.

(٢) شَرَحِ الْوَصِيَّةِ الثَّانِيَةِ: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ :

أي: وَلْيَكُنْ هَمُّكَ أَنَّ تَأْمُرَ النَّاسَ بِالْعُرْفِ. والعُرفُ في هذه المرحلة المكيَّة التي نزلت فيها سورة (الأعراف) هو مَا يُسَمِّيهِ الْعَرَبُ عُرْفًا، وَهُوَ الْبَذْلُ وَالْعَطَاءُ وَالْمَسَاعَدَةُ لَذَوِي الْحَاجَاتِ وَالضَّرُورَاتِ.

إِنَّ هَذَا التَّوْجِيهَ لِلْأَمْرِ بِالْعُرْفِ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الدَّاعِيَ إِلَى دِينِ اللَّهِ، إِذَا اهْتَمَّ فِي دَعْوَتِهِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِقَضَايَا ذَوِي الْحَاجَاتِ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالضُّعْفَاءِ، فِدَافَعَ عَنْهُمْ، وَأَمَرَ بِاصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ مَعَهُمْ، وَحَثَّ عَلَى الْعُظْفِ عَلَيْهِمْ وَمُسَاعَدَتِهِمْ، اسْتَمَالَ إِلَى دَعْوَتِهِ قُلُوبَ وَنُفُوسَ الْكَثَرَةِ الْكَائِرَةِ مِنْ جَمَاهِيرِ الشُّعْبِ، إِذِ الْكَثَرَةُ الْكَائِرَةُ مِنَ النَّاسِ فِي كُلِّ عَصْرِ وَفِي كُلِّ أُمَّةٍ هُمْ ذَوُو الْحَاجَاتِ وَالضُّعْفَاءِ.

وَالدَّعْوَةُ إِلَى صُنْعِ الْعُرْفِ مَعَهُمْ تَسْتَعِظِفُهُمْ إِلَى الدَّاعِي، وَتَجْعَلُهُمْ يَلْتَفِتُونَ حَوْلَهُ، وَبِذَلِكَ تَتَوَجَّهُ أَفْكَارُهُمْ بِقُوَّةٍ لِقَاعِدَةِ الْإِيمَانِ الَّتِي يَدْعُوهُمْ إِلَيْهَا، فَيَسْتَقْبِلُونَهَا وَيَتَقَبَّلُونَهَا، وَيَسْتَجِيبُونَ لَهَا.

وَيَدُلُّ هَذَا التَّوْجِيهَ الْوَاردَ عَقِبَ الْوَصِيَّةِ بِأَخْذِ الْعَفْوِ، عَلَى التَّوْجِيهِ الْإِلْمَاحِيِّ لِقَطْعِ لِسَانٍ مِنْ يُسَىءُ لِحَامِلِ الرِّسَالَةِ، بِأَنْ يَأْمُرَ أَصْحَابَهُ وَإِخْوَانَهُ وَأَنْصَارَهُ، وَسَائِرَ مَنْ يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُ بِأَنْ يَضُنُّوا الْعُرْفَ مَعَ الْمَسِيءِ، وَمَعَ ذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْ جَمَاعَتِهِ وَعَصَبَتِهِ وَعَشِيرَتِهِ.

فَإِذَا رَأَى الْمَسِيءُ أَنَّ حَامِلَ الرِّسَالَةِ الَّذِي أَسَاءَ هُوَ إِلَيْهِ قَدْ أَمَرَ أَصْحَابَهُ بِأَنْ يُقَدِّمُوا لَهُ وَلِعَشِيرَتِهِ الْعُرْفَ، بَعْدَ أَنْ ثَارَتْ فِيهِمُ الْحَمِيَّةُ، وَهَمُّوا بِأَنْ يُنْكَلُوا بِهِ، وَيَنْتَصِرُوا لِقَائِدِهِمْ وَرَائِدِهِمْ وَالدَّاعِيَ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَالْجِدَالِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَصَاغَرَ فِي نَفْسِهِ، وَيَتَرَاجَعَ عَنْ مَوْفِقِهِ، وَيُحَاوِلِ التَّكْفِيرَ عَنْ إِسَاءَاتِهِ.

وَتُرْوَى لَنَا قِصَصُ شِمَائِلِ الرُّسُولِ ﷺ شَيْئاً كَثِيراً، مِمَّا يَتَضَمَّنُ تَطْبِيقَ هَذَا التَّوْجِيهِ الرَّبَّانِيِّ.

إِنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ عَلَى اقْتِضَائِهَا تَحْكِي قِصَّةَ الْأَسْلُوبِ الْأَنْجَعِ لِحَامِلِ الرِّسَالَةِ لَدَى تَأْدِيَتِهِ رِسَالَةَ رَبِّهِ، إِذْ يَجْذِبُ بِهِ الْجُمْهُورَ الْأَوْسَعَ لِلْإِيمَانِ بِمَا يَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهِ، وَالْعَمَلُ بِمَا يَنْصَحُهُمْ بِهِ، أَوْ يُرْشِدُهُمْ إِلَيْهِ.

يُذَرِّكَ هَٰذَا أَهْلُ التَّدْبِيرِ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِطَبَائِعِ النَّاسِ، وَوَقَعَ أَحْوَالِ الشُّعُوبِ، وَبِأَسَالِيْبِ اسْتِعْطَافِ وَاسْتِمَالَةِ الْجُمْهُورِ الْأَعْظَمِ مِنْهُمْ.

(٣) شرح الوصية الثالثة: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾:

أي: وقابل الذين يتماذون في الجهالة عليك بغد العفو عن إساءاتهم وأذاهم، ويغد أمرك بصنع العرف لهم، بالإعراض فقط، وهو إعطاء عارضك لهم.

العارض: جانب الوجه والجسم.

ونفهم من هذا أنه من غير المستحسن إدارة الظهر لهم، والتولي عنهم، بل المطلوب الاكتفاء بمجرد الإعراض عنهم إذا تناولوا وتمادوا في السفاهة، وتصرفات الحمقى الجاهلين.

الإعراض: منزلة وسطي بين المواجهة والإدبار.

والمراد بالجاهلين هنا، هم الذين يتساقفون على الفضلاء، فيخاطبونهم بالأقوال النابية القبيحة، أو بالشتائم والسباب، ويؤذونهم بالتحقير والسخرية، والهمز واللمز، وهذا ما عناه الشاعر العربي بقوله:

أَلَا لَا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَتَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِيْنَ



أفلا تلخص هذه الآية الموجزة بفقراتها الثلاث فصولاً ثلاثة، من كتاب «فقه الدعوة إلى الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وتحدد سياسة حامل الرسالة فيمن يؤدي رسالته إليهم.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩):

إن ظاهر هذا النص قد يوهم أنه اشتمل على جمل اقتصر على التوجيه المباشر لثلاث وصايا، وأنها لا تحوي صوراً أدبية.

لَكِنَّ الْمَتَدَبِّرَ الْحَصِيفَ يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَ الْمُقْتَضِبَةَ الْحَامِلَةَ لَهُذِهِ
الْوَصَايَا، إِنَّمَا هِيَ جُمْلٌ مُلْتَقِطَةٌ مِنْ ثَلَاثَةِ فُصُولٍ مِنْ كِتَابٍ كَبِيرٍ، وَهِيَ تَدُلُّ
بِلَوَازِمِهَا الْفِكْرِيَّةِ عَلَى كُلِّ عُنَاوِيٍّ فُصُولِهَا.

وهذا لَوْ أَنَّ مِنَ أَلْوَانِ الْأَدَبِ الرَّفِيعِ الَّذِي يُذَكِّرُهُ كِبَارُ الْبُلْغَاءِ وَيَعْتَمِدُونَ
عَلَيْهِ فِي بَيَانَاتِهِمْ.



قول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَوِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

تمهيد:

بَعْدَ الْوَصَايَا الثَّلَاثِ الَّتِي وَجَّهَهَا اللَّهُ لِحَامِلِ الرِّسَالَةِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ،
جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ لِمُعَالَجَةِ نَفْسِهِ، إِذَا تَحَرَّكَتْ فِيهَا الدَّوَاعِي لِلتَّشْفِي بِمَنْ أَسَاءَ
إِلَيْهِ.

فَأَبَانَ اللَّهُ لَهُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ نَزْغِ الشَّيْطَانِ، أَي: مِنْ تَحْرِيكِهِ وَتَحْرِيزِهِ
وإِثَارَتِهِ لِلغَضَبِ، وَدَفَعَهُ إِلَى فِعْلٍ لَا يَلِيْقُ بِمِثْلِهِ انْتِقَامًا لِنَفْسِهِ.

وَعَلَّمَهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ الدَّوَاءَ الَّذِي يَصْرِفُ اللَّهُ بِهِ عَنْهُ هَذَا النَّزْغَ
الشَّيْطَانِيَّ.

هذا الدَّوَاءُ هُوَ أَنْ يَسْتَعِيذَ بِاللَّهِ مِنْهُ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ سَمِعَ اللَّهُ اسْتِعَاذَتَهُ
الصَّادِقَةَ، الصَّادِرَةَ مِنْ عُمُقِ فَوَادِهِ، وَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا حَدَثَ فِي
نَفْسِهِ مِنْ انْفِعَالٍ يَكَادُ يَسْتَحِفُّهُ لِلانْتِقَامِ، فَيَسْتَجِيبُ لَهُ، فَيَصْرِفُ عَنْهُ نَزْغَ
الشَّيْطَانِ، فَيَعُودُ إِلَى حَالَةِ الْهُدُوءِ وَالسَّكِينَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ.

التدبر:

● ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ :

هذه العبارة معطوفة على جُمْل الوصايا في آية: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ .

ولفظ [إِذَا] مُرَكَّبٌ مِنْ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةِ، و«مَا» الَّتِي قَدْ تُضَافُ لِتَأْكِيدِ
معنى الشَّرْطِ وَتَعْضِيدِهِ، مع ما فيها من تزيين للفظ، إِذَا كَانَ مَا بَعْدَ «إِنْ»
الشرطية يَلِينُ النَّطْقُ بِهِ لَدَى إِضَافَةِ حَرْفِ «مَا» .

النَّزْغُ: فِي الْحَسِّيَّاتِ هُوَ النَّخْسُ، وَالْعَزْزُ بِإِثْرَةٍ أَوْ نَحْوِهَا، لِلإِثَارَةِ
وَالدَّفْعِ لِأَمْرٍ مَا، وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْمَعْنَوِيَّاتِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَا يَشْبَهُ ذَلِكَ، مِنْ
وَسَاوِسٍ مَثِيرَةٍ لِلْغَضَبِ، وَمَهِيْجَةٍ لِلانْتِقَامِ .

ونزغ الشيطان، وساوِسُهُ وَتَسْوِيْلَاتُهُ وتزييناته التي يَحْمِلُ بِهَا الْإِنْسَانُ
عَلَى الْمَعَاصِي .

ويقال: نَزَغَ فُلَانٌ بَيْنَ الْقَوْمِ، أَي: أَفْسَدَ بَيْنَهُمْ وَحَمَلَ بَغْضَهُمْ ضِدَّ
بَعْضٍ، وَيُطْلَقُ النَّزْغُ عَلَى الْكَلَامِ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ الْإِغْرَاءُ وَالْإِفْسَادُ بَيْنَ
النَّاسِ .

وجاء في الآية فِعْلٌ: ﴿يَنْزَغَنَّكَ﴾ مُؤَكِّدًا بِنُونِ التَّوَكِيدِ الثَّقِيلَةِ،
لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ النَّزْغَ قَدْ بَلَغَ مَبْلَغَ حُدُوثِ بَدَايَةِ الْغَضَبِ وَتَحَرُّكِ ثَوَرَتِهِ .

● ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ : أَي: فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يُعِيدَكَ مِنْ نَزْغِ الشَّيْطَانِ،
وَيُضَرِّفُهُ عَنكَ، وَيَحْمِيكَ وَيَحْفَظُكَ مِنْ وَسَاوِسِهِ وَتَسْوِيْلَاتِهِ .

الاستعاذة بالله: هِيَ اللُّجُوءُ إِلَيْهِ بِالْدُّعَاءِ فِي طَلَبِ الْحِمَايَةِ وَالْحِفْظِ،
وَصَرْفِ الشَّرِّ وَالضَّرِّ وَالْأَذَى .

الْعُوْذُ فِي اللَّغَةِ: اللُّجُوءُ وَالْاِغْتِصَامُ، يُقَالُ لُغَةً: عَادَ بِهِ يَعُوْذُ عَوْذًا
وَعِيَاذًا، أَي: التَّجَأَ إِلَيْهِ، وَاعْتَصَمَ بِهِ، لِيَحْفَظَهُ وَيَحْمِيَهُ .

والاستعاذة: هي طلب العوذ.

ولما كان الله - جلّ جلاله وعزّ سلطانه - هو الذي بيده مقاليدُ كُلِّ شيءٍ في الوجود، وهو على ما يشاء قدير، كان مَنْ قام بواجباته كما أمره الله، واستعاذ به صادق النية، متضرّعا له، داخلا في ملجأ الله، وفي دائرة عِصْمَتِهِ وحمايته.

● ﴿إِنَّكُمْ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: أي: إنه ذو سَمْعٍ عظيم يسمَعُ به كل صَوْت، وذو عِلْمٍ شاملٍ واسعٍ يَغْلَمُ به كُلُّ ما يُمكنُ أن يُغْلَمَ، من الواجبات والجائزات والمستحيلات العقلية.

وفي ذكر هذين الاسمين هنا من أسماء الله الحسنی، إشارة إلى مَطْلُوبين:

المطلوب الأول: أن تكون الاستعاذة بكلامٍ مصحوبٍ بصَوْتٍ مهما كان خافتاً، لِيُسمَعَ.

المطلوب الثاني: أن تكون الاستعاذة مقرونةً بِنِيَّةٍ صادقةٍ من عُمقِ الفؤاد، جديرةً بأن تُغْلَمَ بأنها عبادةٌ لِلَّهِ في سلوكِ قَلْبِي.

وبتحقق هذين المطلوبين يَسْتَجِيبُ اللَّهُ جَلَّ جلاله دعاء مَنْ استعاذ به، فيَصْرِفُ عنه نَزَعَاتِ الشيطان.

فما يَدْخُلُ في دائرة الأصوات مشمولٌ بصفة السَّمْعِ، وما تنويه القلوب مشمولٌ بصفة العلم، مع علم الله سبحانه بكل شيء.

وفي ذكر هذين الاسمين أيضاً من أسماء الله الحسنی، دلالةٌ على أنَّ الله - جلّ جلاله - يجيبُ المستعِذ به من نزغ الشيطان، إذا دعاه محققاً المطلوبين السابقين، فيعيّذه، ويصرفُ عنه ما يجدُ في نفسه من ذلك، وما يجدُ في نفسه من أثره.

ثم جاء تأكيد لمضمون هذه الآية، في الثلث الثالث من المرحلة المكية، موجة للدعاة، فأنزل الله عز وجل في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) قوله بأسلوب الخطاب الإفرادي:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا سَتَوَى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

صَدَرَ هذا التعليم الرباني الموجة للدعاة إلى الله باستفهام ترغيبي، يتضمن الحث على القيام بوظيفة الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمقترنة بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون الداعي إلى الله قُدوةً للناس بعمله الصالح، وقد دل عليه قول الله تعالى في النص: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أما من كان عمله مخالفاً لأقواله فلا تأثير له.

الشرط الثاني: أن يُغَلِّبَ الداعي إلى الله أنه قُرْدٌ من أفراد المسلمين، فهو مسئولٌ تُجَاهَ رَبِّهِ كسائر المسلمين، ومُطَالِبٌ بأن يَعْمَلَ بكل ما أَمَرَ الله به المسلمين أن يَعْمَلُوا به، وبأن يَجْتَنِبَ كل ما أَمَرَ الله المسلمين أن يَجْتَنِبُوهُ، وبأن يَنْتَهِيَ عَنْ كل ما نَهَى الله المسلمين عن أن يَفْعَلُوهُ، وبأنه يُطَبِّقُ عَلَيْهِ جَمِيعَ الشَّرَائِعِ والأحكام التي شَرَعَ الله أن تُطَبَّقَ على سائر المسلمين، فلا استثناء له بشيء، ولا إعفاء له عن شيء، وقد دل على هذا الشرط، قول الله تعالى في النص: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

أما قادة المذاهب البشرية فهم في الغالب كذابون لا يلتزمون بما يدعون الناس إليه.

وَذَلَّ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾!؟؟ على أنه لَا يُوجَدُ قَائِلٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُ قَوْلًا فِي غَيْرِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ هُوَ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلٍ مِنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ، وهذا لَا يَمْنَعُ مِنْ تَفَاضُلِ أَقْوَالِ الدَّعَاةِ إِلَى اللَّهِ فِي الْحُسْنِ، فبَعْضُ أَقْوَالِهِمْ أَحْسَنُ مِنْ بَعْضٍ.

ومن هذا نفهم أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ الَّتِي تَكُونُ بِوَسِيلَةِ الْبَيَانِ الْكَلَامِيِّ هِيَ أَحْسَنُ الْقَوْلِ، لِأَنَّ مَضْمُونَهُ أَحْسَنُ الْمَعَانِي الَّتِي يُعْبَرُ عَنْهَا بِالْبَيَانِ الْكَلَامِيِّ.

● ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾:

أي: وَلَا تَسْتَوِي مَفْرَدَاتُ جَنْسِ الْحَسَنَةِ، لِأَنَّ هَذِهِ الْمَفْرَدَاتُ ذَوَاتُ نِسَبٍ مُخْتَلِفَاتٍ فِي الْحُسْنِ، وَدَرَجَاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ، فَمِنْهَا مَا هُوَ ذُو دَرَجَةٍ دُنْيَا فِي الْحُسْنِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ ذُو دَرَجَةٍ عُُلْيَا فِي الْحُسْنِ، وَبَيْنَهُمَا دَرَجَاتُ كَثِيرَاتٌ لَا تَكَادُ تُحْصَى، وَكُلُّ ذِي حُسْنٍ يَخْتَلُ دَرَجَةً مِنْ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ.

وَلَا تَسْتَوِي أَيْضاً مَفْرَدَاتُ جَنْسِ السَّيِّئَةِ، لِأَنَّ هَذِهِ الْمَفْرَدَاتُ ذَوَاتُ نِسَبٍ مُخْتَلِفَاتٍ فِي السَّوْءِ، وَذَوَاتُ دَرَكَاتٍ مُتَفَاوِتَاتٍ مُتَنَازِلَاتٍ، فَمِنْهَا مَا هُوَ ذُو دَرَكَةٍ أُولَى، وَمِنْهَا مَا هُوَ ذُو دَرَكَةٍ سُفْلَى، وَبَيْنَهُمَا دَرَكَاتُ كَثِيرَاتٌ لَا تَكَادُ تُحْصَى، وَكُلُّ ذِي سُوءٍ يَخْتَلُ دَرَكَةً مِنْ هَذِهِ الدَّرَكَاتِ.

وَيُشْعِرُ الْاِقْتِرَانُ فِي الْبَيَانِ بَيْنَ الْآيَةِ الْأُولَى وَالْآيَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ هَذَا النَّصِّ، بِأَنَّ الَّذِينَ يَرْضَوْنَ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ، سَيَقَابِلُونَ دَعْوَتَهُ بِالرَّفْضِ، ثُمَّ بِمَا يَكْرَهُ فِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ، عَلَى تَفَاوُتٍ فِي دَرَكَاتٍ مَا يَسُوُّهُ مِنْهُمْ.

وَالْمَطْلُوبُ مِنَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، أَنْ يَدْفَعَ بِالْخَصْلَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِمَّا سَاءَهُ مِنْ رَافِضِ دَعْوَتِهِ.

فَإِذَا جَادَلَهُ الْمَدْعُوُّ بِالْبَاطِلِ وَالْعُنْفِ، دَفَعَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ بِالْمَجَادَلَةِ بِالْحَقِّ وَبِالرَّفَقِ، مَا اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.

وإذا قابله المدعُو بالسَّبَاب والشتائم والاتِّهَامات الباطلات، دفع الداعي إلى الله بالتّي هي أَحْسَنُ، وهي الإِعْرَاضُ عن شتائمِهِ، والاكتفاء بِنَفْيِ الاتِّهَامات الباطلات، أَسْوَةٌ بِمَا فَعَلَ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

● ﴿... فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤):

أي: إنّ دفع المواقف السيئة من ذي العداوة، بالمعاملة التي هي أَحْسَنُ خُلُقًا وسلوكًا، تجعله يتراجع عن مواقفه السيئة شيئاً فشيئاً، إذ تَبْرُدُ حرارة هجومه، ولا يَزَالُ يَتَرَجَعُ باتِّخَاذِ مواقف لَيِّنَةٍ رَفِيقَةٍ حسنة، لِيُغْطِي موقفه السابق، الذي جعله مُدَانًا في نظر الناس بِقُبْحِ التصرف، وبالعُدْوَانِيَّةِ التي لا مُسَوِّغَ لها، ولا دَاعِيَ لاتِّخَاذِهَا.

ولا يزال يتراجع حتّى يتظاهر بالتَّوَدُّدِ، فيَبْدُو كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، أي: كَأَنَّهُ مُنَاصِرٌ ذُو وِلَاءٍ، وَصَدِيقٌ ذُو وَدٍّ حَقِيقِي.

وَدَلَّ التَّشْبِيهُ بِعِبَارَةِ ﴿كَأَنَّهُ﴾ على أَنَّهُ قد يَتَصَنَّعُ هذه الظواهر الودِّيَّةَ مُدَاهَنَةً وَرِيَاءً، لِيُغْطِي مَا سَبَقَ مِنْهُ من مواقف سَيِّئَةٍ لَا مُسَوِّغَ لها.

غَيْرَ أَنَّهُ زُبَّانٌ تَحَوَّلَ بعد ذَلِكَ إلى ذِي وِلَاءٍ وَوُدٍّ صَادِقِينَ، كما حَصَلَ لكثيرين من الَّذِينَ كانوا أَعْدَاءَ لِلرُّسُولِ ﷺ وَلِدَعْوَتِهِ، إِذْ تَحَوَّلُوا إلى المَلَايِكَةِ والمُدَاهَنَةِ أَوَّلًا، ثُمَّ تَحَوَّلُوا بَعْدَ ذَلِكَ إلى أَتْبَاعِ ذَوِي وِلَاءٍ صَادِقِينَ، وَحُبِّ شَدِيدٍ لَهُ وَلِدَعْوَتِهِ، ثُمَّ قَدَّمُوا حَيَوَاتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِدَاءً لَهُ، وَلِلَّذِينَ الذي جَاءَهُمْ بِهِ، وَالسَّيْرَةُ النَّبَوِيَّةُ فِيهَا أَمْثَلَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ من هذا.

● ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٣٥):

دَلَّتْ هذه الآية على أَنَّ مُقَابَلَةَ السَّيِّئَةِ بِالتّي هي أَحْسَنُ خُلُقًا وسلوكًا، من الأمور الصَّعْبَةِ على النفوس، التي تَتَطَلَّبُ من حَامِلِ الرُّسَالَةِ في دَعْوَتِهِ وَنُضْجِهِ واتِّخَاذِهِ وسائلَ الإِضْلَاحِ والتقويم، صَبْرًا عَظِيمًا، وَحَظًّا وَافِرًا من فضائل الأخلاق.

واقترنت هذه الدلالة بثناء عظيم من الله جلّ جلاله على من يتحلّى بهذه الصفة الرفيعة.

أي: وما يُلقَى هذه الخصلة الحميدة والسلوك السامي، إلا الذين صَبَرُوا، أي: إلا الذين صَبَرُوا على الأذى، ولا يَصْبِرُ عَلَى الأذى إلا مَنْ تَدَرَّبَ عليه، حتّى صَارَتْ لَدَيْهِ قُدْرَةٌ عَلَى الصَّبْرِ، وصار الصَّبْرُ عَلَى الأذى في سبيل قيامه بوظائف رِسالَتِهِ خُلُقاً مُكْتَسَباً له، إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَصْلِ فِطْرَتِهِ وَجِبَلَّتْهُ.

إِنَّ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ خُلُقُ الصَّبْرِ عَلَى الأذى يَتَحَمَّلُونَ صَدَمَاتِ الأذى، ويمتصونها، من الذين يَخْرِصُونَ بِدَعْوَتِهِمْ لَهُمْ عَلَى نَجَاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ الله، وَيَخْرِصُونَ عَلَى أَنْ يَقُوزُوا مَعَهُمْ بِجَنَّاتِ النِّعَمِ قُوزاً عَظِيماً، وَيَزِيدُونَ عَلَى فَضِيلَةِ الصَّبْرِ فَيَدْفَعُونَ بِالْخُصْلَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ الَّتِي أَلَمَتْهُمْ.

وَمَا يُلقَى هَذِهِ الْخُصْلَةُ الْحَمِيدَةُ الْجَلِيلَةُ إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ مِنْ فَضَائِلِ الْأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنِ الشَّيْمِ، وَمِنَ الْبَصِيرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْهَادِيَةِ، وَذُو حِظٍّ عَظِيمٍ مِنَ الْأَجْرِ عِنْدَ رَبِّهِ.

يُقَالُ لُغَةً: لَقِيَ فُلَانٌ فُلَاناً الشَّيْءَ، أَي: جَعَلَهُ يَلْقَاهُ وَيَأْخُذُهُ مِنْهُ، فَالْأَخْذُ لِلشَّيْءِ يُلْقَاهُ مِمَّنْ لَقَاهُ إِيَّاهُ.

وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْخُصْلَةُ الْعَظِيمَةُ إِنَّمَا يَمْنَحُهَا اللَّهُ لِمَنْ آمَنَ وَصَبَرَ وَدَرَّبَ نَفْسَهُ عَلَى فَضَائِلِ الْأَخْلَاقِ، كَانَتْ فَضِيلَةً يُلْقَاهَا مِنْ عَطَاءَاتِ اللَّهِ لَهُ، فَهُوَ يَتَلَقَّاهَا، وَيَتَخَلَّقُ بِهَا، وَيَتَصَرَّفُ فِي دَعْوَتِهِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِمُقْتَضَاهَا.

وهذا سِرُّ التعبير بقول الله تعالى: ﴿وَمَا يُلقَىٰهَا﴾ بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، أَي: وَمَا يُعْطَاهَا عَطَاءً رَبَّانِيًّا فَهُوَ يَتَلَقَّاهَا مِنْ عَطَاءَاتِ رَبِّهِ إِلَّا الَّذِي صَبَرَ، وَمَا يُعْطَاهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ مِنَ الْفَضَائِلِ الْخُلُقِيَّةِ، وَمِنَ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ عِنْدَ رَبِّهِ.

• ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٠٠).

هذا الدواء هو الدواء النَّفْسُ الَّذِي أَوْصَى بِهِ اللَّهُ فِي سُورَةِ (الأعراف) إِلَّا أَنَّ هَذَا النَّصَّ مِنْ سُورَةِ (فُصِّلَتْ) قَدْ زَادَ التَّأْكِيدَ، وَإِفَادَةَ الْحَصَرِ، بِقَوْلِ اللَّهِ فِيهِ: ﴿.. إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٦).

أَمَّا آيَةُ (الأعراف) فَقَدْ جَاءَ فِيهَا: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وبهذه الزيادة في آية (فُصِّلَتْ) بعد نزول (٢١) سورة من نزول سورة (الأعراف) تَنْبِيْهُ مُشَدَّدٌ عَلَى حَامِلِ الرِّسَالَةِ، بِالْوَصِيَّةِ لَهُ بِأَنْ يَسْتَعِذَّ بِاللَّهِ عِنْدَ كُلِّ نَزْغٍ شَيْطَانِيٍّ، لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ وَخَدَهُ فِي الْوُجُودِ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، فَلَا سَمِيعَ فِي الْوُجُودِ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَا عَلِيمَ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

دَلَّ عَلَى الْحَضَرِ تَعْرِيفٌ طَرَفِيَّ الْإِسْنَادِ، وَالتَّأْكِيدَ بِضَمِيرِ الْفَصْلِ [هُوَ].
وَأَدَاةُ التَّعْرِيفِ (ال) فِي [السَّمِيعُ] وَالْعَلِيمُ] هِيَ لِلْكَمَالِ الدَّالَّةُ عَلَى اسْتِغْرَاقِ كُلِّ أَفْرَادِ جَنْسِ السَّمْعِ، وَكُلِّ أَفْرَادِ جَنْسِ الْعِلْمِ، وَكُلِّ مُسْتَوَيَاتِهِمَا.



قول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢٠١):

وَجَاءَ فِي الْقِرَاءَةِ الْآخَرَى: [طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ]:

الطَّائِفُ: هُوَ الَّذِي يَخْمِلُ الْوَسَاوِسَ وَالذَّسَائِسَ وَالتَّسْوِيلَاتِ التَّزِينِيَّةَ، فَيَطُوفُ بِهَا عَلَى النَّفْسِ، وَيَقْدِفُ بِهَا فِي نَفْسِ قَرِيبَتِهِ، وَهَذَا الْحَامِلُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ شَيْطَانًا.

وَالطَّائِفُ: التَّخْيُّلَاتُ وَالرُّؤْيُ النَّفْسِيَّةُ الَّتِي قَدْ يَهَيِّجُهَا الشَّيْطَانُ وَيَسْتَشِيرُهَا.

فَبَيَّنَ القراءتين تكامل في الدلالة على المعنى المراد.

بعد توجيه حامل الرسالة في الآية السابقة (٢٠٠) بشأن قضايا نَزَغِ الشَّيْطَانِ، انتقل النص في الآية (٢٠١) إلى توجيه كل المؤمنين بشأن هذه القضايا نَفْسِهَا، فَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الوصف الذي يتحلَّى به المَثْقُونُ بأسلوب البَيَانِ الخبري، لَا بأسلوب التكليف، وهذا من روائع أدب التوجيه التكليفي.

أي: فالمُؤْمِنُونَ المَثْقُونُونَ لِلَّهِ، الحريصُونَ على حِفْظِ أنفسهم من نزغات الشياطين، إِذَا مَسَّهُمْ بالوساوسِ والدسائسِ والتسويلات التزنيَّة طَائِفٌ من الشيطان، أَوْ طَيْفٌ يُهَيِّجُهُ وَيَسْتَثِيرُهُ الشيطان تَذَكَّرُوا، أي: تَذَكَّرُوا رَبَّهُمْ وَسُلْطَانَهُ على جَمِيعِ خَلْقِهِ، فاستَعَاذُوا به، فأَعَادَهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ الَّتِي رُبَّمَا أَلْقَتْ غِشَاوَةً مَا على بَصَائِرِهِمْ، فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ، قَدْ مُسِحَتْ عَنْهُمْ الْغِشَاوَةُ، الَّتِي غَطَّتْ بَصَائِرَهُمْ، بِبَخَارِ الغضب أَوْ الشهوة أَوْ الهوى، أَوْ بِدُخَانِهَا.

وَأَمَّا إِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ المصاحِبُونَ لَهُمْ في المسالكِ، والمتابعُونَ خُطَوَاتِهِمْ إلى المهالكِ، الَّذِينَ لَا يَتَّقُونَ اللَّهَ في حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ، وَلَا يَخْشَوْنَهُ في أَعْمَالِهِمْ وَنِيَّاتِهِمْ، فهم لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فَرِيسَةً في أَنْيَابِ نَزَغَاتِ الشَّيَاطِينِ، فيَسْتَنْدِرْجُونَهُ في سُبُلِ الغي، وَيَجْرُونَهُ إلى أَوْدِيَةِ الضَّلَالِ وكِبَرِيَّاتِ الجرائمِ، حَتَّى يَقْدِفُوا بِهِ إلى شِقَائِهِ، وَيَطْرَحُوهُ يُعَانِي أَنْوَاعاً كَثِيرَةً مِنَ المصائبِ والنكباتِ، وتتوالى عليه الآلَامُ النفسية، والآلَامُ الجسدية حَتَّى يَكُونَ في العاجلة من الهالكين، وفي الآخرة من الخاسرين.



قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَلِإِخْوَانِهِمْ يَمُدُّهُمْ فِي الْفِتْنَةِ ثُمَّ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢٠٢﴾

وفي القراءة الأخرى ﴿يُمِدُّوْنَهُمْ﴾ والقراءتان متكافئتان لُغَةً كما سَبَقَ بيانه في القراءات.

﴿وإِخْوَانُهُمْ﴾: أي: وإِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ، والمرادُ بالأُخُوَّةِ هنا أُخُوَّةُ المصاحبةِ والمتابعةِ في مسالكِ الضلالِ والغَيِّ.

وجاء الضمير العائد على الشيطان بصيغة ضمير الجمع، للتثنية على أنَّ لفظ «الشيطان» اسمُ جنسٍ يُعمُّ كُلَّ شياطين الإنسِ والجنِّ.

فإخوان الشياطين هم الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُمْ، وَيُصَاحِبُونَهُمْ، وَيَسْتَجِيبُونَ لَوَسَاوِسِهِمْ وَتَسْوِيلَاتِهِمْ وإغواءاتهم.

﴿يُمِدُّوْنَهُمْ﴾ و[يُمِدُّوْنَهُمْ]: أي: يُعْطُونَهُمْ مَدَدًا، وَيَزِيدُونَهُمْ فيما هم فيه من ضلالٍ بَعِيدٍ عن صراطِ الحقِّ والهُدَى، سالكين ماسلكِ الغَيِّ.

﴿فِي الْغَيِّ﴾: أي: في الضلالِ، والابتعادِ عن طريقِ الرِّشَادِ، والخِيبةِ والفسَادِ.

الغَيِّ: مُضَدُّ «غَوَى يَغْوِي غَيًّا» ويُقالُ: «غَوَى يَغْوِي غَوَايَةً» أي: ضلَّ، وخاب، وفَسَدَ، وَتَرَكَ سَبِيلَ الرُّشْدِ عن قَصْدٍ وَتَعَمُّدٍ اتِّبَاعًا لِلْهَوَى، ويُقابله: «الرَّشْد» وهو الالتزام بالحقِّ والهُدَى والخير عن بَصِيرَةٍ وقَصْدٍ.

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾: أي: ثُمَّ لَا يَكْفُ الشَّيَاطِينُ، وَلَا يُنْسِكُونَ عن مُتَابَعَةِ إغْوَانِهِمْ وإضلالِهِمْ، حتَّى إبلاغِهِمْ قَعْرَ شَقَائِهِمْ إن استطاعُوا، وَقَعْرُ شَقَائِهِمْ هو الذُّكُ الْأَسْفَلُ من النارِ يومَ الدينِ.

يُقال لغةً: أَقْصَرَ عن الشيء، أو الأمرِ، أو العملِ، أي: كَفَّ عَنْهُ، مع قُدْرَتِهِ عليه.

فالشياطين لَا يَكْفُونَ عن الإغراء والإغواء والإطماع بالباطل، والاستدراج والاستنزال إلى أسفلِ سافلين.

والمراد: أَنَّ الشياطين مهما عَوَى تَابِعُهُمْ وَأَوْغَلَ فِي ضلاله، فَإِنَّهُمْ لَا يَتَرَكُونَهُ وَشَأْنَهُ يَتَخَبَّطُ بِنَفْسِهِ فِي الضلال، مهما طَالَ الزَّمن، بل هم لَا يَمْسِكُونَ وَلَا يَكْفُونَ عَنْ إِمْدَادِهِ فِي الْغَيِّ، لِأَنَّ دَرَكَاتِ الْغَيِّ ذَاتُ سَحِيقٍ بَعِيدٍ، وَهُمْ يَخْرِصُونَ عَلَى أَنْ يُوصِلُوهُ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ، وَلَا يَكْتَفُونَ بِمَا دُونَ ذَلِكَ مِنْ دَرَكَاتٍ.

ولهذا جاء التعبير بحَرْفِ العطف «ثُمَّ» الدَّالُّ عَلَى تَرَاحِي الْمَدَّة، وتطاول الزَّمن: [ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ].



قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا أَجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَإٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠٢)

هذه الآية من هذا الدرس خاصَّة بالرَّسُول مُحَمَّد ﷺ، وهي مَوْصُولَةٌ بما جاء في صَدْرِ السُّورَةِ، وبِالْخَطِّ الَّذِي يَنْطَلِقُ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ: ﴿كِتَبْتُ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠٢).

لَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ يَنْزِلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُنْجَمًا، عَلَى وَفْقِ مَقْتَضِيَّاتِ الْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، الَّتِي يَدْخُلُ فِيهَا مُرَاعَاةُ أَحْوَالِ الْقَوْمِ الْمَدْعُوعِينَ، وَأَحْوَالِ مَنْ آمَنَ وَاتَّبَعَ، وَيَدْخُلُ فِيهَا مُرَاعَاةُ التَّدْرُجِ فِي التَّعْلِيمِ، وَالتَّرْبِيَةِ، وَالْمُعَالَجَةِ، وَالتَّشْرِيعِ، كَانَ مِنْ شَأْنِ مُرَاعَاةِ مَقْتَضِيَّاتِ هَذِهِ الْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، أَنْ يَنْقَطِعَ أَحْيَانًا نُزُولُ آيَاتٍ جَدِيدَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ مُدَّةً مَا مِنَ الزَّمنِ، انتظاراً لِلْمُنَاسِبَةِ الدَّاعِيَةِ إِلَى تَنْزِيلِ نَجْمٍ جَدِيدٍ مِنْ نُجُومِ الْقُرْآنِ، أَقْلُهُ آيَةٌ وَاحِدَةٌ.

فكَانَ بَعْضُ الْكَفَرَةِ الْمَشْرِكِينَ يَتَّخِذُونَ مِنْ تَأَخُّرِ نُزُولِ نَجْمٍ جَدِيدٍ

دَرِيعَةً لِيُوجِّهُوا لِلرُّسُولِ كَلَامًا فِيهِ تَشْكِيكَ فِي أَنَّ مَا يَثْلُو عَلَيْهِمْ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ، إِنَّمَا يَضْطَنِعُهُ وَيَتَكَلَّفُ تَأْلِيفَهُ، أَوْ يَجْتَبِيهِ جَلَبًا مِنْ كُتُبِ الْأَوَّلِينَ، وَيَنْتَقِيهِ مِنْ مَسْطُورَاتِ السَّابِقِينَ مِنَ الْأُمَمِ، نَظِيرَ مَا يَفْعَلُ الْخُطَبَاءُ حِينَ يُعِدُّونَ خُطْبَهُمْ، وَمَا يَفْعَلُ الْكُتَّابُ حِينَ يُؤَلِّفُونَ أَوْ يَكْتُبُونَ مَقَالَاتِهِمْ، وَمَا يَفْعَلُ الشُّعْرَاءُ حِينَ يَنْظُمُونَ قَصَائِدَهُمْ فِي خُلُواتِهِمْ ثُمَّ يُنْشِدُونَهَا عَلَى قَوْمِهِمْ، وَرُبَّمَا انْتَحَلَ هَؤُلَاءِ لَأَنْفُسِهِمْ أَقْوَالَ غَيْرِهِمْ، وَاجْتَلَبُوهَا مِنْ مَسْطُورَاتِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُهَا.

فَإِذَا تَأَخَّرَ بِحِكْمَةِ اللَّهِ إِنْزَالُ نَجْمٍ جَدِيدٍ، وَلَوْ آيَةً وَاحِدَةً، قَالَ الْكَافِرَةُ الْمُشْرِكُونَ لِلرُّسُولِ، عَلَى سَبِيلِ التَّشْكِيكِ فِي أَنَّهُ يُبْلَغُ آيَاتِ الْقُرْآنِ عَنْ رَبِّهِ ﴿لَوْلَا أَجْتَبَيْتَهَا﴾ ﴿كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا أَجْتَبَيْتَهَا...﴾ ﴿١٢٦﴾:

﴿لَوْلَا﴾: هَذِهِ الْكَلِمَةُ هُنَا بِمَعْنَى «هَلَا» حَرْفُ تَحْضِيضٍ، أَي: هَلَا اجْتَبَيْتَهَا.

﴿اجْتَبَيْتَهَا﴾: فَعْلٌ «اجْتَبَى الشَّيْءَ» يَأْتِي لَعْدَةً مَعَانٍ:

- اجْتَبَى الشَّيْءَ، جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ.
- اجْتَبَى الشَّيْءَ، اخْتَلَقَهُ، وَافْتَعَلَهُ، وَاصْطَنَعَهُ تَكْلُفًا، وَارْتَجَلَهُ وَلَمْ يَكُنْ نَاقِلًا لَهُ، وَلَا رَاوِيًا.
- اجْتَبَى الشَّيْءَ، جَبَاهُ بِتَكْلُفٍ، كَمَا تُجَبَى الْبَضَائِعُ وَالسَّلْعُ مِنْ بُلْدَانٍ مَنَشَأُهَا.
- اجْتَبَى الشَّيْءَ، اصْطَفَاهُ وَاخْتَارَهُ.

الاجْتِبَاءُ فِي اللَّغَةِ: افْتِعَالٌ مِنَ الْجَبَايَةِ، وَهُوَ تَكْلُفُ اسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ مِنْ مِظَانِّهَا.

قال ثعلبٌ في تفسير: ﴿لَوْلَا أَجْتَبَيْتَهَا﴾: لولا جئت بها من عند نفسك.

وقال الفراء: هلاً اختلقتها وافتعلتها من قبل نفسك، وهو في كلام العرب.

أقول: فالكفرة المشركون بدؤوا يقولون على سبيل التشكيك في صدق تبليغ الرسول عن ربه، مُستغلين حالة تأخر نزول نجم جديد عليه، ولو آية واحدة: هلاً اضطنعت آية من عند نفسك، أو انتحلت آية ناقلاً لها من مسطورات الأولين، أو هلاً انتقيتها واضطفتيتها من كتبهم، كما هي عادتك.

كان هذا القول التعريضي موجهاً من المشركين للرسول ﷺ إبان نزول سورة (الأعراف).

ثم وجهوا له أقوالاً صريحة الاتهام بما تضمنه كلامهم التعريضي هذا، وكان توجيهها إبان نزول سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) وفي بيان هذا قال الله عز وجل فيها:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِزُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً﴾ (٢٥) ﴿وَقَالُوا أَأُطِيعُ الْأَوَّلِينَ أَمْ لِي أَكْتَبَهَا فَهِيَ تَمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٥).

إن قولهم للرسول: ﴿لَوْلَا أَجْتَبَيْتَهَا﴾ وفق المعاني التي سبق بيانها، يشبه قول المشككين في تصرفات مدير مكتب الوزير، حين يتصورون أنه يضنع القرارات بغير علم سيده، ويوقعها عنه تزويراً، هلاً صنعت لنا قراراً بموضوع كذا ووقعته، وصدرتة باسم الوزير، يغنون بهذا القول أنه يفعل مثل هذا كثيراً فيما ينسب إلى الوزير من قرارات.

وكان هذا الكلام التعريضي إزهاصاً وتوطئة لما صرخوا به بعد ذلك، إبان نزول سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

ومن هنا نذكر لِمَ قَالَ الله لرسوله في صدر سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن القرآن:

﴿كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢)

إذ من الحَرَج الذي ضاق به صدر الرسول، اتَّهامُهُ بأنه يجتبي اختلاقاً وافتعالاً آيات القرآن التي تنزلُ عَلَيْهِ نُجوماً، دُونَ أن ينزلَ عليه القرآن جُملةً واحدة.

قول الله تعالى:

• ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي...﴾ (١٧٣)

في هذه الجملة تعليم من الله لِرَسُولِهِ الجواب الذي يجيب به الكفرة المشركين، مُجَاراةً لظَاهِرِ قَوْلِهِمْ له.

أي: مَا أَتَّبِعُ فيما أُبَلِّغُ من الْقُرْآنِ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي، فأنا لَا أَتَصَرَّفُ بشيءٍ من عندي.

ولهذه الإجابة تَتَضَمَّنُ بلوازمها الفِكْرِيَّة، أَنَّهُ لَا يَضْطَنِعُ من عنده شيئاً، وَلَا يَفْتَرِي على رَبِّهِ فيما يُبَلِّغُ عَنْهُ كلمةً واحدةً ولا حَرْفاً واحداً، وَأَنَّهُ لَا يَنْقُلُ على سبيل الاجْتِلَابِ والاصْطِفَاءِ من مَكْتُوباتِ الْأَوَّلِينَ شيئاً.

وجاء استعمال الفعل المضارع في فعلِي: ﴿أَتَّبِعُ﴾ و﴿يُوحَى﴾ للدلالة على أَنَّ كُلَّ مَا يُبَلِّغُهُ عن الله تِباعاً بتجددٍ، إِنَّمَا يَتَّبِعُ فيه بِتَجَدُّدٍ مَا يُوحَىٰ إليه به من رَبِّهِ بِتَجَدُّدٍ.

هذا هو عَمَلُهُ بِالنُسْبَةِ إِلَى مَا يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ من القرآن.

قول الله تعالى:

﴿... هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٧٣)

هَذَا تعليم آخر عَلَّمَ اللهُ رَسُوْلَهُ أَنْ يَقُوْلَهُ لَذَوِي التَّعْرِیْضِ بِاتِّهَامِهِ بِافْتِرَاءِ الْقُرْآنِ مِنَ الْكُفْرِ الْمُشْرِكِيْنَ .

المشار إليه باسم الإشارة ﴿هَذَا﴾ هو كتاب الله الذي يُنْزِلُهُ عَلَيْهِ تَبَاعاً تَجْماً فَتَجْماً .

﴿بَصَائِرُ﴾ : جمع «بَصِيْرَة» وهي تُطْلَقُ عَلَى الْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ . وَتُطْلَقُ عَلَى الشَّاهِدِ . وَتُطْلَقُ عَلَى الْعِلْمِ وَالْخَبْرَةِ ، وَعَلَى الْعِبْرَةِ . وَعَلَى كُلِّ مَا بِهِ اتِّضَاحُ الطَّرِيقِ . وَتُطْلَقُ عَلَى الرَّقِيبِ .

والقرآن فيه من كل هذه البصائر على اختلاف أنواعها .

(١) ففي بياناته حجج وبراهين تُلْزِمُ العقول السليمة بالاعتناع بالحق الذي جاء فيه .

(٢) وهو بإعجازه شاهِدٌ على أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُوْلُ اللهِ ، وَصَادَقَ فِيمَا يُبْلَغُ عَنْ رَبِّهِ .

(٣) وفي آياته عِلْمٌ حَقِيقِيٌّ يُقَدِّمُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لعباده .

(٤) وفي آياته بيان لِخَبَرَاتٍ كَثِيرَاتٍ مُكْتَسَبَاتٍ مِنْ وَاقِعِ حَالِ ذَوِي الْإِرَادَاتِ الْحُرَّةِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ .

(٥) وفي بياناته لِقْصَصُ الْأَوَّلِينَ عِبْرٌ يَغْتَبَرُ بِهَا أُولُوا الْأَلْبَابِ .

(٦) وفي بياناته إيضاح جَلِيٌّ لَصِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ ، الَّذِي يَنْتَهِي بِسَالِكِيهِ إِلَى النِّجَاةِ وَالْفَوْزِ بِالنَّعِيمِ الْخَالِدِ ، وَالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ .

(٧) وهو بِمَثَابَةِ الرَّقِيبِ عَلَى الْمَكْتُوبَاتِ عَنِ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ ، إِذْ يُثَبِّتُ مَا جَاءَ فِيهَا مِنْ حَقٍّ مَنْقُولٍ بِصِدْقٍ ، وَيُبْطِلُ مَا دَخَلَ فِيهَا مِنْ تَحْرِيفَاتِ الْمُحَرِّفِينَ وَأَكَاذِيهِمْ عَلَى اللهِ .

فَمَنْ أَذَرَكَ هَذِهِ الْبَصَائِرَ أَوْ بَعْضَهَا فِي الْقُرْآنِ ، لَمْ يَشْكُ فِي صِدْقِ

الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فيما يُبْلَغُ عن ربه من نجوم القرآن، بَلْ أَيْقَنَ أَنَّ الرَّسُولَ لَا يَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ.

• ﴿...وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠٣):

أي: وبالإضافة إلى كون القرآن بَصَائِرَ مُنْزَلَةً مِنْ رَبِّ النَّاسِ، فهو أيضاً هُدًى وَرَحْمَةً.

لِكِنَّ المستفيد المنتفع بهْدَاهُ، وبما فيه من رَحْمَةٍ للناس، هُمُ الْقَوْمُ الَّذِينَ يُتَابِعُونَ بِالْإِيمَانِ ضِمْنَ حَرَكَةٍ مُتَجَدِّدَةٍ، كُلُّ مَا يَنْزِلُ تَبَاعاً مِنْ نُجُومِ الْقُرْآنِ، لَا الْكَافِرُونَ بِهِ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ الرَّسُولَ، وَيَعْتَرِضُونَ عَلَى تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ مُتَّجِماً.

وقد وَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْقُرْآنَ هُنَا في أواخر سورة (الأعراف) بِمِثْلِ مَا وَصَفَ بِهِ عُمُومَ كُتُبِهِ الْمُنْزَلَةِ عَلَى جَمِيعِ رُسُلِهِ فِي الْآيَةِ (٥٢) مِنْهَا، وَهِيَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا.

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢).

﴿وَهْدًى﴾: الْهُدًى يَأْتِي فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى الرَّشَادِ، وَبِمَعْنَى الدَّلَالَةِ عَلَىٰ مَا يُوصِلُ إِلَى الْمَطْلُوبِ، وَبِمَعْنَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ، وَالصِّرَاطُ الَّذِي هُوَ طَرِيقُ الْحَقِّ.

ومعلومٌ أَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْمَعَانِي هِيَ مِنْ صِفَاتِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، فَالْهُدًى عَلَىٰ هَذَا مَصْدَرُ هَدًى يَهْدِي هُدًى، بِمَعْنَى أَرْشَدَ، وَبِمَعْنَى دَلَّ عَلَىٰ مَا يُوصِلُ إِلَى النَّجَاةِ وَالسَّعَادَةِ الْخَالِدَةِ، وَالنَّعِيمِ الْأَبَدِيِّ، وَالْبَيَانُ الَّذِي جَاءَ فِيهِ طَرِيقٌ وَاضِحٌ، وَصِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ.

﴿وَهْدًى﴾ لَفْظُ «هُدًى» مَعْطُوفٌ بِالرَّفْعِ عَلَى ﴿بَصَائِرُ﴾.

﴿وَرَحْمَةً﴾: أي: وَالْقُرْآنُ أَيْضاً هُوَ رَحْمَةٌ، أي: هُوَ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ، وَمُظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ عَطَائِهَا الْجَلِيلَاتِ.

رَحْمَةُ اللَّهِ: صِفَةُ من صفات اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ النَّفْسِيَّةُ، على مَا يَلِيْقُ بِجَلَالِ ذَاتِهِ الْعَلِيَّةِ، الَّتِي لَيْسَ كَمِثْلِهَا شَيْءٌ.

ومن آثارها ومظاهرها الإِنْعَامُ والإِكْرَامُ والإِحْسَانُ.

والمراد بكون القرآن رَحْمَةً، أَنَّ مَا تَتَضَمَّنُهُ آيَاتُهُ من بَيَانِ صِرَاطِ سَعَادَةِ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا، وَصِرَاطِ نَجَاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ، وَظَفَرِهِمْ بِالنَّعِيمِ الْخَالِدِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ، هُوَ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَمُظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ عَطَائِهَا الْجَلِيلَاتِ.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: أَي: إِنَّ الْمُسْتَفِيدِينَ الْمُنْتَفِعِينَ بِكَوْنِ الْقُرْآنِ هَدًى وَرَحْمَةً، هُمُ الْقَوْمُ الَّذِينَ يُتَابِعُونَ بِالْإِيمَانِ ضِمْنَ حَرَكَةٍ مُتَجَدِّدَةٍ، كُلُّ مَا يَنْزِلُ تَبَاعاً مِنْ نَجُومِ الْقُرْآنِ.

ومعلومٌ أَنَّ الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ الصَّادِقَ، يَذْفَعُ إِلَى الْعَمَلِ بِمَضْمُونِ النَّصِّ الَّذِي اتَّعَقَّدَ عَلَيْهِ الْإِيمَانُ، وَإِلَى اتِّبَاعِ مَا أُنْزِلَ إِلَى النَّاسِ مِنْ رَبِّهِمْ فِي كِتَابِهِ الْمَجِيدِ.

وهذا المعنى يَقَعُ على خَطِّ مَوْضُوعِ السُّورَةِ الْأَعْظَمِ، الْمَبِينِ فِي الْآيَةِ (٣) مِنْ أَوَائِلِهَا.



قول الله عَزَّ وَجَلَّ لِعُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ:

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠٦)

هذه الآية موصولةٌ في موضوعها بخطِّ الآية (٢) في صدر السورة وهي قولُ الله فيها خطاباً لرسوله:

﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢)

وإذ كان من المطلوب أن يكون القرآن تذكيرة للمؤمنين، فمن وسائل هذه التذكيرة، أن يستمعوا له وينصتوا إذا قرئ وهم حضور شهود حين قراءته، وفي مكان قراءته.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾: أضل القراءة النطق بما هو مكتوب في كتاب أو صحيفة يتتبع المكتوب حرفاً بحرف، وكلمة بكلمة عن طريق النظر، أو عن طريق حاسة أخرى تذكر رموز المكتوب.

وقد يراد بالقراءة النطق بما هو محفوظ في الذاكرة.

وأضل التلاوة الاتباع في النطق لما هو مسموع يلقى على التالي، أو لما هو مكتوب. تلا النص، أي: نطق به متابعاً.

والمراد بالقرآن ما يقرأ منه ويصل إلى سماع حاضر القراءة.

﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾: الاستماع: توجيه أداة السمع لإبلاغ الكلام المسموع إلى مركز السمع في الدماغ، حيث الإدراك، فالأذان والأغصاب الموصلة إلى مراكز السمع في الدماغ، ما هي إلا منافذ وأدوات لتوصيل الأصوات إلى مراكزها، ثم إن الدماغ بعد ذلك هو الذي يحلل الدلالات بحسب كل صوت، ومعلوم أن الكلام رموز اصطلاحية للمعاني.

﴿وَأَنْصِتُوا﴾: الإنصات هو السكوت وعدم الكلام، وعدم إحداث أي صوت بمعنى أو بغير معنى، والسبب في طلب الإنصات تهيئة الجو للاستماع الجيد.

من الحقائق أن القرآن المجيد له تأثير عظيم على من يستمع له وينصت، إذ يسيطر على أفكارهم، وينفذ إلى قلوبهم، وقد أدرك هذه الحقيقة الذين كفروا من مشركي مكة، فوجهوا جماهيرهم وأتباعهم لعدم الاستماع للقرآن، ولعدم الإنصات، لدى تلاوته وهم شاهدون، وذلك بأن يلبسوا فيه.

وبياناً لهذه الخطة الشيطانية الخبيثة، التي يراؤ بها الصُرفُ عن الحق، والصدُّ عن سبيل الله، قال الله عز وجل في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٢١ :

أي: لا تُعَرِّضُوا أَنْفُسَكُمْ لاسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ مِنْ مُحَمَّدٍ، أَوْ مِنْ أَحَدِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِذَا تَلَّى عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ شُهُودٌ فَالْعَوَا فِيهِ، وَلَا تُنْصِتُوا، تَشْوِيشاً عَلَى التَّالِي، حَتَّى لَا يَتَأَثَّرَ بِهِ الْمُسْتَمِعُونَ لَهُ، فَتَجْلُبُوا إِلَى صُفُوفِكُمْ مِنْ يُمكن أَنْ يَسْتَمِيلَهُ الْقُرْآنَ، فَتَكْثُرَ أَعْدَادُكُمْ، فَتَغْلِبُوا أَتْبَاعَ مُحَمَّدٍ بِكَثْرَتِكُمْ.

فمن الحكمة الربانية أَنْ يَأْمُرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عُمُومَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَسْتَمِعُوا لِلْقُرْآنِ، وبأن يُنْصِتُوا لَدَى تِلَاوَتِهِ، كُلَّمَا تَلَّى فِي آيَةٍ حَالَةٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، دَاخِلَ الصَّلَاةِ وَخَارِجَهَا لِيَكُونَ ذَلِكَ وَسِيلَةً لَتَدْبِيرِ مَعَانِيهِ، وَتَذَكُّرِهَا عِنْدَ الْمُنَاسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ إِلَى تَذَكُّرِهَا، وَقَصْرِ النَّصِّ عَلَى حَالَةِ الصَّلَاةِ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، وَرَبَطَ هَذِهِ الْآيَةَ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صَدْرِ السُّورَةِ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ: ﴿وَذَكِّرْ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وليكون القرآن تذكيراً للمؤمنين يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَمَرَ التَّزْغِيْبِيَّ بِالِاسْتِمَاعِ لِلْقُرْآنِ وَالْإِنْصَاتِ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ عَامٌّ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ.

الذِّكْرَى: اسْمٌ لِلتَّذْكِيرِ، وَاسْمٌ يُطْلَقُ عَلَى مَا يُوضَعُ لِلتَّذْكِيرِ، كَالْبَطَاقَةِ الْمَذْكُورَةِ، وَالرَّيْثِمَةِ الَّتِي تَوْضَعُ فِي الْإِضْبَعِ لِلتَّذْكِيرِ.

● ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ : أي: اسْمَعُوا وَأَنْصِتُوا إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ رَاجِينَ أَنْ تُرْحَمُوا، أَوْ لِأَجْلِ أَنْ تُرْحَمُوا.

إنَّ الْإِسْتِمَاعَ وَالْإِنْصَاتَ لِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَسِيلَةٌ مِنَ الْوَسَائِلِ الدَّاعِيَةِ إِلَى تَدْبِيرِ آيَاتِهِ، وَتَذَكُّرِهَا عِنْدَ مُنَاسَبَاتِهَا، وَالْعَمَلِ بِهَا، فَإِذَا تَحَقَّقَ مِنْكُمْ ذَلِكَ رَحِمَكُمُ اللَّهُ، فَأَدْخَلَكُمُ فِي رَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ فِي الدُّنْيَا، وَأَدْخَلَكُمُ فِي جَنَّتِهِ يَوْمَ الدِّينِ، الَّتِي هِيَ إِخْدَى مَظَاهِرِ وَأَثَارِ رَحْمَتِهِ الْعَظْمَى الْخَالِدَةِ.

ودلت عبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ على أن الأمر بالاستماع والإنصات أمر نذبي مقرون بترغيب عظيم، إذ لو كان الأمر للإيجاب، والتكليف الإلزامي، لكان المناسب أن يقال: لعلكم تتقون، أي: لتتقوا عقوبة المخالفة. أما عبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فمعناها: لتأبوا ثواب الطاعة.

وهذا شأن كل المندوبات.



قول الله تعالى:

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾

جاء في هاتين الآيتين أمر من الله لرسوله ولسائر المؤمنين المسلمين، على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم ووظائفهم الدنيوية والدنيوية، للمواظبة على ذكر الله عز وجل، مع بيان آداب هذا الذكر.

وجاء هذا التكليف بأسلوب الخطاب الإفرادي الموجّه لكل فرد ففرد حتى آخر الأفراد في كل العصور إلى أن تقوم الساعة، ومعلوم أن ذكر الله من أجل أنواع عبادته.

والغرض من هذا الأمر بالمواظبة على ذكر الله، أن يتخلص المؤمن المسلمون، من الصفة الذميمة التي قال الله فيها للناس في أوائل سورة (الأعراف): ﴿فَلَيْلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾.

إذ المواظبة على ذكر الله تجعل الذاكرين يتذكرون ما فرض الله عليهم أن يعملوه، وما حرم عليهم أن يفتروا، وهذا التذكّر يجعلهم أكثر التزاماً باتباع ما أنزل إليهم من ربهم.

وقد سبق لدى تدبر الآية الثالثة من السورة، بيان وظيفة ذكر الله، وتذكر آياته المنزلات إلى الناس ليتبعوها بإسهاب.

فهاتان الآيتان موصولتان بموضوع السورة ذي الخطوط الممتدة من الآيتين (٢) و(٣) من أوائلها.

● ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ...﴾ (٢٠٥).

إن ذكر الله عز وجل يشمل كل حضور فكري وقلبي ونفسي مع الله عز وجل، في اسم من أسمائه، أو صفة من صفاته، أو آية من آياته، أو أمر من أموره، أو نهى من نواهيه، أو وصية من وصاياه، أو بيان من بياناته، أو وعد من مواعيده وبشرياته، أو وعيد من تهديداته وإنذاراته، إلى غير ذلك من صور ومجالات ذكر الله عز وجل الكثيرة التي يصعب استقصاؤها مما يتصل بكمالاته وقديسياته.

إن عبارة: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ تتضمن توجيهاً للذكر الإفرادي بصيغة الأمر، وأن يكون بذوه صادراً من عمق النفس، إذ يكون ذكراً للرب جلّ جلاله في داخل النفس، ولا يكون ذكراً في النفس إلا إذا كان الوضع الداخلي في الإنسان ذا حضور مع الله عز وجل، في واجد أو أكثر مما يذكر الله به، ولو في آية من آياته الكونية بشرط ملاحظة كونها آية من آياته، ولو في حالة الاستمتاع ببغض نعمة على عباده، بشرط ملاحظة أنها نعمة من نعمة.

ويبدأ هذا الذكر الحقيقي بشغل التصور الحاضر استدعاء من الذاكرة، وتكرير ذلك فيه، حتى يكون له أثر في مراكز العاطفة والوجدان، ومواطن الخوف والطمع، والحذر والرجاء، والقلق والخشوع والطمأنينة.

ويثقل هذا الأثر من حواشي النفس متغلغلاً حتى يصل إلى القلب، ثم مع تكرير هذا الحضور الداخلي واعتياده يتغلغل إلى عمق الفؤاد،

وَعِنْدَئِذٍ يَتِمِّكُنْ مِنْ ذَاتِيَّاتِ الْإِنْسَانِ كُلِّهِ، وَيَكُونُ مُوجَّهًا لِأَنْوَاعِ سُلُوكِهِ، مَا كَانَ مِنْهُ دَاخِلِيًّا نَفْسِيًّا، وَمَا كَانَ مِنْهُ خَارِجِيًّا مَزْنِيًّا، وَبِهِ يَكُونُ الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ، وَالْخَشْيَةُ مِنْهُ، ثُمَّ الطَّمَأْنِينَةُ لِجَلَالِ سُلْطَانِهِ، وَبِهِ يَكُونُ الْحُبُّ، وَصِدْقُ التَّوَجُّهِ وَالرَّجَاءِ وَالِدُّعَاءِ، وَالتَّوْبَةُ وَالْإِنَابَةُ، وَالْمِرَاقَبَةُ الدَّائِمَةُ. وَبِهِ يَكُونُ الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ فِي الْعَمَلِ، وَالْبُعْدُ عَنِ الرِّيَاءِ وَمَطَالِبِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ. وَبِهِ يَكُونُ اسْتِدْعَاءُ تَصَوُّرَاتِ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ، وَتَصَوُّرَاتِ النَّارِ وَمَا فِيهَا مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، وَتَصَوُّرَاتِ الْحَشْرِ وَمَوْقِفِ الْحِسَابِ بَيْنَ يَدَيِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ.

هَذَا هُوَ الذِّكْرُ الْحَقِيقِيُّ الْأَسْمَى.

● ﴿...تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ...﴾ (٢٠٥) :

فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ بَيَانُ آدَابِ ذِكْرِ اللَّهِ الثَّلَاثَةِ:

الأدب الأول: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿تَضَرُّعًا﴾ أَي: مِنْ أَدَبِ ذِكْرِ اللَّهِ الْمَمْتَدِّ مِنْ عُمُقِ النَّفْسِ إِلَى نَطْقِ اللِّسَانِ، أَنْ يَكُونَ مَصْحُوبًا بِالتَّضَرُّعِ لِلَّهِ.

التَضَرُّع: هُوَ التَّذَلُّلُ وَالْخُضُوعُ، مَأْخُوذٌ مِنْ خُضُوعٍ وَلَدِ الْبَهِيمَةِ لِيَمْتَنَصَّ حَلِيبَ أُمِّهِ مِنْ ضَرْعِهَا، وَهُوَ تَذْيُهَا.

الأدب الثاني: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَخِيفَةً﴾ أَي: وَمِنْ أَدَبِ ذِكْرِ اللَّهِ الْمَمْتَدِّ مِنْ عُمُقِ النَّفْسِ إِلَى نَطْقِ اللِّسَانِ، أَنْ يَكُونَ مَصْحُوبًا بِالْخَوْفِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ وَنِقْمَتِهِ.

الخيفة: كَالْخَوْفِ، مَصْدَرُ «خَافَ». يُقَالُ لُغَةً: «خَافَ يَخَافُ خَوْفًا وَمَخَافَةً وَخِيفَةً».

وَالْخَوْفُ يَكُونُ مِنْ تَوَقُّعِ حُلُولِ مَكْرُوهٍ، أَوْ قُوَّةِ مَحْبُوبٍ أَوْ مَرْغُوبٍ فِيهِ.

يُقَال: خَافَ مِنْ كَذَا، وَخَافَ عَلَى كَذَا.

الأدب الثالث: دَلَّ عَلَيْهِ قول الله تعالى: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾.

الجهر بالقول: هو رفع الصوت بالكلام حتى يَسْمَعَهُ الآخَرُونَ الحاضرون من حَوْلِ رافع الصوت سماعاً جلياً واضحاً.

يقال لغة: جَهَرَ الرَّجُلُ بكلامه أو دعائه أو صوته أو قراءته «يَجْهَرُ، جَهْرًا، وَجَهَارًا» أي: رفع بذلك صوته، فهو «جَهِير».

ويقال: أَجْهَرَ بكلامه فَهُوَ «مُجْهَرٌ» وَيُعَدُّ مِنْ غير حرف فيقال: أَجْهَرَ الرَّجُلُ كلامه.

فمن آداب ذكر الله باللسان أن يكون دون الجهر، ويدخل فيما دون الجهر الهمس، والذكر الخفي مع تحريك اللسان به.

وفائدة الذكر اللساني أن يكون مُسَاعِداً لمراكز الذكر في النفس، حتَّى تَعْمَلَ هذه المراكز بالذكر الحقيقي المطلوب مُصَاحِبَتُهُ لِتَحْرِيكِ اللِّسَانِ بالأقوال، ذات المعاني المتصلة بعناصر ذكر الله النفسي التي سبقَ بيانها.

وكَلَّمَا كان الذكر اللساني أَكْثَرَ بُغْدَاً عن الجهر بالقول كان أَكْثَرَ مُسَاعِداً على اشتغال النفس والقلب من أَعْمَاقِهِمَا بالذكر الحقيقي لله عز وجل، فِعْبَارَةٌ: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ تُحَدِّدُ السَّقْفَ الأعلى لِأَدَبِ الذِّكْرِ اللِّسَانِيِّ المُسَاعِدِ لِلذِّكْرِ النَّفْسِيِّ وَالْقَلْبِيِّ، وهي في الوقتِ نَفْسُهُ تَوَجُّهُهُ لِلْعَنَايَةِ بِالْأَخْذِ بِالْأَخْفِ فَالْأَخْفِ مِنَ الذِّكْرِ اللِّسَانِيِّ وَالتَّعَوُّدِ عَلَيْهِ، حتَّى يَصِلَ إِلَى قَرِيبٍ مِنَ الذِّكْرِ النَّفْسِيِّ الَّذِي يَعْمَلُ دَاخِلَ غُمْقِ النَّفْسِ.

● ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾: هذه العبارة تُحَدِّدُ وَقْتَيْنِ مُهِمَّيْنِ مُفَضَّلَيْنِ، لِذِكْرِ الرَّبِّ الَّذِي سَبَقَ بَيَانُهُ، وَبَيَانُ آدَابِهِ، هُمَا وَقْتُ «الْغُدُوِّ» وَوَقْتُ «الْآصَالِ» أي: بِكُلِّ غُدْوَةٍ وَبِكُلِّ آصَالٍ مِنْ كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْأَرْضِ، مُدَّةَ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ الْمَمْتَحَنِ الْمَكْلَفِ.

الْغُدُوُّ: جَمَعَ مُفْرَدَهُ «الْغُدْوَةُ» وهي ما بَيْنَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ (وهي صلاة الفجر) وطلوع الشمس، وتُجْمَعُ الْغُدْوَةُ أَيْضاً عَلَى «الْغَدَوَاتِ» و«الْغَدَا». **الْأَصَالُ:** جَمَعَ مُفْرَدَهُ «الْأَصِيلُ» وهو الوقت من حِينَ تَضَفَّرُ الشَّمْسُ حَتَّى تَغْرُبَ.

وهذان الوقتان كان الأنبياء عليهم السلام يحرصون على ذكر الله فيهما، ويتأسى الصالحون من المؤمنين بهم فيذكرون ربهم فيهما. فَمَنْ كَانَ حَرِيصاً عَلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي مَوَاقِبِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُوَظِبَ عَلَى ذِكْرِ رَبِّهِ دَوَاماً، بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ، مع الالتزام بآدابه. ● ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾: بَعْدَ الْأَمْرِ بِالذِّكْرِ نَهَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الْغَفْلَةِ الَّتِي يَفْتَرُونَ بِهَا عَدَمَ الذِّكْرِ، فَجَمَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيْنَ الْأَمْرِ بِالذِّكْرِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْغَفْلَةِ الْمَضَادَّةِ لِلذِّكْرِ.

فإذا لاحظنا أَنَّ الْأَمْرَ بِالشَّيْءِ يَتَضَمَّنُ النَّهْيَ عَنِ ضِدِّهِ، وَأَنَّ النَّهْيَ عَنِ الشَّيْءِ يَتَضَمَّنُ أَمْرًا بِضِدِّهِ، تَحَصَّلَ لَدَيْنَا فِي هَذَا النَّصِّ تَوْجِيهٌ لَذِكْرِ اللَّهِ بِأَسَالِيبٍ بَيَانِيَّةٍ أَرْبَعَةٍ.

وقد يُفْهَمُ مِنْ عِبَارَةِ: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ النَّهْيُ عَنِ الْغَفْلَةِ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ، فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ الَّتِي تَسْتَدْعِي الْمُنَاسَبَةَ فِيهَا ذِكْرَهُ، لِفِعْلِ شَيْءٍ، أَوْ تَرْكِ شَيْءٍ، أَوْ التَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّرِ فِي شَيْءٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، أَوْ شَيْءٍ مِنْ تَصَاريفِهِ فِي كَوْنِهِ، لِرَبْطِ ذَلِكَ بِبَعْضِ صِفَاتِهِ، وَعَظِيمِ حِكْمَتِهِ، وَجَلِيلِ إِنْعَامِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَكَمَالِ عَدْلِهِ وَفَضْلِهِ.

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

● ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿١٩٩﴾:

ختم الله عز وجل الدرس الأخير من السورة بهذه الآية، التي أبان

فيها ما عليه الملائكة الَّذِينَ هُمْ عِنْدَهُ، وفي مُقَدِّمَتِهِمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى كَجِبْرِيلَ وَإِسْرَافِيلَ وَمِيكَائِيلَ.

وفي هذا البيان حثٌّ للمؤمنين بِأَسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ عَلَى أَنْ يَتَأَسَّوْا بِالْمَلَائِكَةِ فِي عِبَادَتِهِمْ لِرَبِّهِمْ بِالطَّاعَةِ وَالْخُضُوعِ التَّامِّ، وَبِالتَّسْبِيحِ الَّذِي هُوَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَبِالسُّجُودِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ الْخُضُوعِ الْمَادِّيِّ لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَالَّذِي هُوَ تَغْيِيرُ جَسَدِيٍّ عَنْ غَايَةِ الْخُضُوعِ النَّفْسِيِّ وَالْقَلْبِيِّ لَهُ، حِينَمَا يَكُونُ سَجُوداً حَقِيقِيّاً كَامِلاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ : هم الملائكة الْمُقَرَّبُونَ، وَأَكْثَرُهُمْ قُرْباً الْمَلَائِكَةُ الْأَعْلَى، أَصْحَابُ الْوُظَائِفِ الْجَلِيلَةِ فِي الْكَوْنِ.

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ : أَي: لَا يُوجَدُ وَاحِدٌ فِيهِمْ يَسْتَكْبِرُ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ، بِالطَّاعَةِ التَّامَّةِ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، إِذْ مِنْ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُونَ دَوَاماً فِي كُلِّ شَيْءٍ يَفْعَلُونَهُ مَا يَأْمُرُهُمُ اللَّهُ رَبُّهُمْ بِفِعْلِهِ، بِالتَّقَايَةِ التَّامَّةِ، وَبِمَقْتَضَى تَكْوِينِهِمُ الَّذِي فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ، مَعَ غَايَةِ الْخُضُوعِ وَغَايَةِ الدُّلِّ لَهُ.

فَالطَّاعَةُ رَأْسُ الْعِبَادَاتِ، وَلَهُمْ عِبَادَاتٌ أُخْرَى يُؤَدُّونَهَا، وَمِنْ أَجْلِهَا التَّسْبِيحُ وَالسُّجُودُ.

﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ : أَي: وَيُرَدِّدُونَ عِبَارَاتِ التَّسْبِيحِ دَوَاماً، مِثْلُ: «سُبْحَانَ اللَّهِ - سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ» مَعَ الْمَوَاطَبَةِ عَلَى هَذَا التَّسْبِيحِ، وَمَعْنَى التَّسْبِيحِ تَنْزِيهِ اللَّهِ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ.

﴿وَلَمْ يَسْجُدُوا﴾ : أَي: وَيَتَابَعُونَ السُّجُودَ أَنَا فَنَاءً، أَوْ يَوَاصِلُونَهُ زَمَناً فَرَمَناً، وَالسَّمَاوَاتِ مَلَأَتْهُنَّ بِالسَّاجِدِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمَكْرُمِينَ.

روى ابن مَرْدَوِيهِ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«أَطَّتِ السَّمَاءُ وَيَحِقُّ لَهَا أَنْ تَنطَطُ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ شِبْرٍ إِلَّا وَفِيهِ جَنَّةُ مَلِكٍ سَاجِدٍ يُسَبِّحُ اللَّهَ بِحَمْدِهِ»^(١).

نظرة عامة حول هذا الدرس الأخير:

بعد التَّدْبِيرِ التحليلي التفصيلي لهذا الدُّرس الأخير من دُرُوس سورة (الأعراف) تَبَيَّنَ أَنَّهُ اشْتَمَلَ عَلَى وَصَايَا تَزْبُوتٍ لِلرُّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ تُسَدِّدُهُ فِي طَرِيقِ دَعْوَتِهِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ.

وهذه الوصايا مُوجَّهَةٌ أَيْضاً لِكُلِّ دَاعٍ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، وَلِكُلِّ حَامِلِ رِسَالَةِ التُّضْحِ وَالْإِزْشَادِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وَبَعْدَ التَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّرِ فِي عُنَاوِرِ هَذَا الدُّرْسِ، وَفِي مَوْضُوعِ السُّورَةِ الْمُنْطَلِقِ مِنَ الْآيَتَيْنِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ مِنْ صَدْرِهَا، ظَهَرَ لِي ارْتِبَاطُ هَذَا الدُّرْسِ ارْتِبَاطاً تَامّاً بِعُنْصُرِ الْقُرْآنِ مِنْ مَوْضُوعِهَا، وَوَجُوبُ تَبْلِيغِهِ كَمَا يُنْزَلُهُ اللَّهُ، دُونَ شَعُورٍ بِأَيِّ حَرَجٍ مِمَّا يَشِيرُهُ الْكُفْرَةُ الْمَشْرُكُونَ حَوْلَ مَا جَاءَ فِيهِ، أَوْ حَوْلَ طَرِيقَةِ تَنْزِيلِهِ مُنْجِماً، وَمَا يَتَطَلَّبُهُ هَذَا التَّبْلِيغُ مِنْ صَبْرٍ وَعَفْوٍ عَنِ الْمَسِيئِينَ مِنْ خُصُومِ الرِّسَالَةِ، وَاتِّخَاذِ لُوسَائِلَ ذَاتِ تَأْثِيرٍ أَنْفَعَ وَأَجْدَى لَاسْتِمَالَةِ النَّاسِ وَاسْتِعْطَافِهِمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ.

وهذا العنصر من عناصر موضوع السورة قد جاء في الآية (٢) وهي قول الله عز وجل خطاباً لرسوله:

﴿كِتَبٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

وتفرَّعَ مِنْ هَذَا الْعُنْصُرِ الْخَطُّ الْأَعْظَمُ الَّذِي سَارَتْ عَلَيْهِ مَعْظَمُ آيَاتِ السُّورَةِ، وَهُوَ خَطُّ:

(١) عَنْ صَحِيحِ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ وَزِيَادَتِهِ، رَقْمُ (١٠٢٠) وَمَعْنَى «أَطَّتْ» صَوَّتَتْ، يُقَالُ لُغَةً: «أَطَّ، يَطُّ، أَطِطاً، أَي: صَوَّتَ».

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ .

وجاء في السُورَة استعراضُ التاريخ البَشَري، تُجاء مطلوب الله من الناس باتباع ما أنزل إليهم من ربهم .

وبهذا تمّ تدبر سورة (الأعراف) على مقدار المنحة الربّانية والحمد لله على فتحه وتوفيقه وعَظِيم مِثَّتِهِ .



ملاحق لتدبر سورة الأعراف

الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من سورة الأعراف .

الملحق الثاني: السؤال في محكمة العدل الربّانية يوم الدين .

الملحق الثالث: الوزن في محكمة العدل الربّانية يوم الدين .

الملحق الرابع: حول اتخاذ الذين لهواً ولعباً وهزواً والاعتزاز بالحياة الدنيا .

الملحق الخامس: دراسة تكاملية للنصوص بشأن لوط وقومه في القرآن المجيد .

الملحق السادس: دراسة تكاملية للنصوص بشأن شعيب وقومه في القرآن المجيد .

الملحق السابع: حول ما جاء في القرآن بشأن سُنَنِ الله في الأمم حتّى استحقاقها الإهلاك الشامل .

الملحق الثامن: حول رغبة الكافر في أن يُسَمَحَ لَهُ باستئناف رَحْلة الابتلاء منذ لحظة موته وحتى خلوده في جهنم .

(١٧)

الملحق الأول

مستخرجات بلاغية من سورة الأعراف

تشتمل سورة (الأعراف) على صُورٍ وأمثلة بلاغية كثيرة، وفي هذا الملحق مستخرجات بلاغية منها، غيرُ مستوفية لكلِّ ما في السورة من بلاغيات، إلا أنها تُساعدُ المتدبِّر على استخراج صُورٍ وأمثلةٍ أُخرى، لم يَجِرِ التنبيهُ عليها في هذا الملحق.

أولاً:

إسناد الفعل إلى غير ما هو له لداعٍ بلاغي، وممَّا جاء منه في السورة قَوْلُ الله عزَّ وجلَّ:

﴿كِتَبٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ، وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢١)

في عبارة: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ توجيهُ النَّهي للْحَرَجِ، وهو ضيقُ الصَّدْرِ، لا للرَّسُولِ ﷺ، إذ لم يَقُلِ اللهُ له: لَا تَكُنْ حَرَجَ الصَّدْرِ.

وفي توجيه النَّهي للْحَرَجِ تَلَطُّفٌ بِالرَّسُولِ، إذ لم يُوَاكِههُ اللهُ بالنهي، بل وَجَّهَ النَّهيَ للْحَرَجِ.

وجاء فيها لَفْظُ النظر إلى الأثر وهو الحرج، لا لمُسَبِّبَاتِهِ، مع أنَّ المقصود مُسَبِّبَاتِهِ، فالْحَرَجُ أَثَرٌ يَخْدُثُ من تصوُّر الرُّسُولِ أَنَّ مَسْئُولِيَّتَهُ تحويلُ النَّاسِ من الكفر إلى الإيمان، وهذا أَمْرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ منه صلوات الله وسلاماته عليه، إذ تَقْتَصِرُ مَسْئُولِيَّتُهُ على التبليغ.

ويحدثُ أيضاً من كراهيته اعتراضُ أئمة الكفر على تنزيل القرآن

منجماً، لا جُمْلَةً واحدة، والداعي إلى الله ينبغي له أن لا يَهْتَمَ لاعتراضات الكافرين على اختياراتِ رَبِّ العالمين الحكيمة.

ثانياً:

الإيجاز بالحذف، ومن أمثلة هذا الإيجاز في السورة ما يلي:

(١) قول الله عز وجل:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

في هذه الآية حَذَفَ من أوائلها دَلَّ عليه ما في أواخرها، وحَذَفَ من أواخرها دَلَّ عليه ما في أوائلها، وهذا ما يُطْلَقُ عليه عند البلاغيين «الاحتباك».

وأصل العبارة: اجعلوا ربكم ولياً لكم، فاتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إليكم منه، ولا تتخذوا من دونه أولياء تَتَّبِعُونَ ما يأمرونكم به وما يَنْهَوْنَكُمْ عنه.

الاحتباك: هو الحذف من الأوائل لدلالة الأواخر، مع الحذف من الأواخر لدلالة الأوائل.

(٢) قول الله عز وجل:

﴿...إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمَعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

في هذه العبارة اكتفاء بذكر العلة عمّا تقتضيه هذه العلة.

أصل العبارة: ولا تَعْتَدُوا لأنَّ الله لا يحبُّ المعتدين.

فذكر العلة أغْنَى عن ذكر النهي عن الاعتداء، وهو مَقْدَرٌ ذهناً، وقد حُذِفَ إيجازاً، وَيَسْهُلُ على المتدبر أن يذكره.

(٣) قول الله عز وجل:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا... ﴿٥٦﴾﴾.

في هذه العبارة الاكتفاء بالتهي عن الشيء عن الأمر بضده .

فالتَّهْيُ عن الإفساد في الأرض بغد إصلاحها يَدُلُّ بمفهومه من وراء منطوق اللَّفْظ، على الأمر بإصلاح الأرض بكل عمل يؤدي إلى إقامة مُنْشآت مَادِّيَّة ومَعْنَوِيَّة، ذوات وظائف إصلاحية نافعة للعباد، في أمور دنياهم وأُمُور آخِرَتهم .

فأَعْنَى النهي عن الإفساد في الأرض عن الأمر بإصلاحها .

(٤) قول الله عز وجل :

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا...﴾ (٥٨) .

في هذه العبارة «الاختيباك» وهو الحذف من الأوائل لدلالة الأواخر مع الحذف من الأواخر لدلالة الأوائل .

أصل العبارة: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ﴾ هَيْنًا سَهْلًا جَيِّدَ الْعَطَاءِ [بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ] الْبَلَدُ الَّذِي ﴿خَبَثَ لَا يَخْرِجُ﴾ نَبَاتُهُ ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: عَسِرًا شَجِيحًا قَلِيلَ الْعَطَاءِ وَالنَّفْعِ .

(٥) قول الله عز وجل حِكَايَةً لمقالة نوح لقومه :

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ...﴾ (١٢) ؟

في هذه العبارة حذفان :

الحذف الأول: دَلَّ عليه وجود حرف العطف، دون وجود معطوف عليه في اللفظ، والتقدير :

أَكْرَهْتُمْ تَرْكَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ شُرْكِ وَفَسْقٍ وَاتِّبَاعَ مَا جِئْتُمْ بِهِ مِنْ حَقٍّ وَخَيْرٍ، وَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ .

الحذف الثاني: دَلَّ على الاقتضاء الفكري، في عبارة: ﴿ذِكْرٌ مِنْ

رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ ﴿ والتقدير: ذَكَرَ مِنْ رَبِّكُمْ مُنْزَلٌ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ .

(٦) قول الله عزَّ وجلَّ في حكاية قول شعيب عليه السلام لقومه:

﴿... فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ...﴾ (٨٥)

في هذه العبارة حذف دلَّ على المحذوف فيها التقابل والتناظر،
والتقدير: فأوفوا الكيلَ والمِيزَانَ والوَزْنَ والميزان.

ويدخل هذا فيما يسمَّى عند البلاغيين «الاحتباك» وقد سبق أنفأ بيانه.

(٧) قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (٩٧)

دلَّ على المحذوف في هذه الآية العطفُ بالفاء الفصيحة بعد هَمْزَةٍ
الاستفهام في أولها، والتقدير:

أَلَدَى أَهْلِ الْقُرَى الْكَافِرِينَ عِلْمٌ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَنْ يُنْزِلَ بِهِمْ عَذَابَهُ
عَلَى مَا يَكْسِبُونَ مِنْ آثَامٍ، فَأَمِنُوا وَاطْمَأَنَّنُوا وَلَمْ يَخَافُوا أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِأَسْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ
فِي اللَّيْلِ وَهُمْ نَائِمُونَ.

(٨) قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (١١٣)
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿ (١١٤)

في هذا النص حذف مطويٌّ بين المثاني يستخرجُه المتدبر بالتأمل،
والتقدير:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ فعرض عليهم المهمة التي حشرهم من
أجلها، وهي إجراء مباراة بينهم وبين ساحرٍ كبيرٍ من بني إسرائيل اسمه
موسى ومعه أخوه هارون (هَكَذَا أَوْهَمَهُمْ) فقبلوا أن يَدْخُلُوا هذه المباراة،

على شَرْطٍ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ فرعون أجراً كبيراً إِنْ كانوا هم الغالبين ﴿قَالُوا إِنَّا لَنَآجِرُونَ﴾ إلى آخر النص.

(٩) قول الله عز وجل حكاية لما جرى بين السحرة وموسى عليه السلام عند المباراة:

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ (١١٥).

في هذا النص حذف يكشفه التدبير، والتقدير:

إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ أَوَّلًا، وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ أَوَّلًا.

(١٠) قول الله عز وجل حكاية لدُعَاءِ مُوسَى رَبَّهُ:

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ...﴾ (١٥٦).

أي: وفي الآخرة حَسَنَةً أو حَسَنَاتٍ، وهذا من المحاذيف الواضحة التقدير.

(١١) قول الله عز وجل:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي...﴾ (١٨٧).

أي: إِنَّمَا عِلْمُ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ عِنْدَ رَبِّي.

وظاهرٌ أَنَّ من السَّهْلِ اكتشاف المحذوف هُنا، فهو مما يقتضيه النَّصُّ لاستكمال دلالاته.



ثالثاً: المجاز المرسل، ومن أمثلته الواردة في السورة ما يلي:

(١) قول الله عز وجل:

﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ (١٩١).

● جاء في هذه العبارة إطلاق لفظ القرية، والمراد أهلها، وهو من إطلاق المحل وإرادة الحال فيه، وهذا من المجاز المرسل ذي الأمثلة الكثيرة.

● وجاء فيها التعبير بـ ﴿أَهْلَكْنَهَا﴾ والمراد أرادنا إهلاكها فَقَدْزَنَاهُ وقضيئناه، وهو من إطلاق المسبب وإرادة السبب، والغرض الإشعار بأن ما قضاه الله وَقْدَرَهُ نَافِذٌ حَتْمًا، فهو بحكم الأمر الذي تَمَّ تنجيذه فعلاً. والداعي البلاغي الإيجاز وإمتاع الأذهان بالاستنباط.

(٢) قول الله عز وجل:

﴿يَبْقَىٰ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ..﴾ (١٧)

في عبارة ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ مجاز مُرْسَل، وهو من إطلاق المسبب، وهو الإخراج من الجنة وإرادة السبب، وهو ما كان يتخذه الشيطان من وسائل إغوائية لفتنتهما، واستجابتهما له.

أي: لا يفتننكم الشيطان كما فتنَ أبويكم إذ استجابا له، فتسبب في معاقبة الله لهما بالإخراج من الجنة.

(٣) قول الله عز وجل:

﴿وَمَا وَدَّعْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَدَّعْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (١٧)

جاء في هذه الآية نفي وجود العهد لدى أكثر أهل القرى الذين تحدّث عنهم النص، والمراد نفي الوفاء به.

وهذا من نفي السبب وإرادة نفي المسبب، فهو من قبيل المجاز المرسل.

والغرض الفكري الدلالة على أن من لا وفاء له فلا عهد له.

(٤) قول الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٢٠).

المراد بالتذكُّر في عبارة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ لازمه الفكري، وهو الاستجابة لمضمون ما تذكُّروه، والعمل بمقتضاه من إيمان وطاعة لله ورسوله.

وهذا مجاز مرسل من إطلاق الملزوم وإرادة لازمه، أو من إطلاق السبب وإرادة المسبب، لأن التذكُّر من البواعث التي تَسْتَحِثُّ المَتَذَكِّرَ على العمل بالمطالب، التي دلت عليها المذكورات المحضرات في ساحة التذكُّر.

(٥) قول الله تعالى خطاباً لبني إسرائيل:

﴿وَإِذْ أَمَرْنَا نِسَاءَ كُومٍ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُنَّكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ (١٤١).

أي: وَيَسْتَبْقُونَ مواليدكم من البنات اللواتي سيكون مصيرهن نساء أحياء، فلا يقتلونهن.

ففي إطلاق كلمة «نساء» على المواليد من البنات مجاز من قبيل المجاز المرسل، وهو من إطلاق اللفظ على الشيء باعتبار ما سيؤول إليه، مثل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٢١) أي: سيؤول أمره إلى الفناء. والغرض فنية الابتعاد عن الأسلوب المباشر في البيان.

(٦) قول الله عز وجل:

﴿وَسَلَّمَهُمْ عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ (١١٣).

في هذا النص أطلق لفظ القرية وأريد أهلها، وهو من نوع المجاز المرسل، أطلق فيه المحل وأريد به الحال فيه، أو هو من قبيل حذف المضاف وإقامة المضاف إليه محله، والغرض الإيجاز.



رابعاً:

الاستعارة، ومن أمثلتها الواردة في السورة ما يلي:

(١) قول الله عز وجل بشأن وسائل إبليس لإغواء آدم وزوجه:

﴿فَدَلَّهُمَا يَبْغُورٌ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا...﴾ (٢٢)

في عبارة ﴿فَدَلَّهُمَا يَبْغُورٌ﴾ استعارة فعل التذلية للدلالة على أساليب الاستنزال إلى ارتكاب كُبريات المعاصي والآثام.

فتذلية الدلو في البئر تكون شيئاً فشيئاً، ولا تكون قذفاً بمرة واحدة، وكذلك الاستدراج والاستنزال إلى ارتكاب المعاصي والآثام.

وفي استعارة التذلية لهذا المعنى إبداع بالغ الغاية، لما فيه من المطابقة التي هي في غاية الإيجاز، بين اللفظ المستعار وبين الفكرة المرادة ذات المرامي والأبعاد الواسعة.

إن تشبيه عملية الإغواء، ذات الخطوات المتتابعات في الانحدار بالتذلية في بئر، أو في مهواة، من أبداع التشبيهات وأبرعها وأدقها، وأكثرها إمتاعاً للأذهان الذوافة للجمال الأدبي.

(٢) قول الله عز وجل:

﴿...وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ...﴾ (٢٣)

في هذه العبارة استعارة لفظ «لباس» مضافاً إلى التقوى للدلالة على العمل الديني الذي يُرضي الله عز وجل، فيقي من عقابه على المعاصي والمخالفات، تشبيهاً له بالدرع، أو باللباس المادي الذي يقي الجسم من عوارض الحر والبرد، بجامع الوقاية من الضر في كل منهما.

وذكر التقوى في العبارة من قبيل التجريد في الاستعارة، لأنها من خصائص المشبه.

(٣) قول الله عز وجل بشأن قوم لوط:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٨٤).

جاء في هذه الآية استعارة الفعل في «أَمْطَرْنَا» والاسم «مَطَرًا» للدلالة على إنزال حجارة من السماء عليهم، إنزالاً يُشَبِّهُ إنزال المطر من السماء، وَوَجْهُ الشَّبْهِ أَنَّ الْحِجَارَةَ مِثْلُ حَبَّاتِ الْمَطَرِ الْكَبِيرِ، وَأَنَّ التَّزُولَ مُتَوَاتِرَ مُتَابِعٍ كَمَا الْمَطَرُ، وَعَامٌّ شَامِلٌ لِكُلِّ أَرْضٍ قَوْمِ لُوطَ، لَكِنَّ هَذَا الْمَطَرَ قَدْ كَانَ لِلتَّعْذِيبِ وَالْإِهْلَاكِ.

(٤) قول الله عز وجل:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾ (٩٦).

في عبارة: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ استعارة، وإيجاز بالحذف.

فالاستعارة قائمة على تشبيه عطاء الله الكثير لعباده، بفتح أبواب السُّدُودِ، التي تندفق منها المياه بغزارة وقوة.

وحذف من اللفظ كلمة «أبواب».

والتقدير: لفتحنا عليهم أبواب بركاتٍ كثيراتٍ من السماء والأرض.

(٥) قول الله عز وجل حكاية لدعاء سحرة فرعون، بعد إيمانهم ووعيدٍ فِرْعَوْنَ لَهُمْ بِتَقْطِيعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ مِنْ خِلَافٍ، وَتَضْلِيلِهِمْ فِي جَذُوعِ النَّخْلِ:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (١٠٦).

في عبارة: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ استعارة تخيلية، قائمة على تشبيه الصَّبْرِ بِمَادَّةٍ تَوْضَعُ فِي إِنَاءٍ، وَتَشْبِيهِ إِمْدَادِ النَّفْسِ بِالصَّبْرِ بِإِفْرَاقٍ مَا فِي الْإِنَاءِ مِنْ صَبْرٍ عَلَيْهَا.

ومعلوم أنّ الإفراغ من لوازم ما يُوضَعُ في الأواني.

والغرض الدلالة على أن يُمدّهم الله بصبرٍ كثير يُشبه إفراغ جميع ما في الإناء دفعةً واحدة.

ويَدُلُّ التنكير في ﴿صَبْرًا﴾ على التكثير.

(٦) قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ...﴾ (١٥٤)

في هذه العبارة استعارةٌ بديعة قائمة على تشبيه حركة الغضب في النفس، بثائرٍ ذي مطالبٍ يُطالبُ بها، ويصبح مُلحًا في طلبها.

ومن آثار هذه المطالب الغضبية توجيه التلويم والتشريب وعبارات التذمر، وتحركُ الجملة العصبية للانتقام.

وتشبيه هدوء الثورة الغضبية في النفس بالسكوت عن المطالب، ولو مؤقتاً.

فكان هدوء الغضب بمثابة سكوته، وهذه من الاستعارات البديعة التي تُصوِّرُ فيها الحركات النفسية الداخلية بأمثلةٍ تُدركُ بالحوس الظاهر.

(٧) قول الله عزّ وجل:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَٰرِثِينَ﴾ (١٧٥)

استُعير في هذا النصّ فعل «اُسْلَخَ» للدلالة على معنى التخلي عن الإيمان، أو العملِ بآيات الله المنزلات.

وهذه الاستعارة قائمة على تشبيه الذين أوتوا آيات الله، فآمنوا، واختَمُوا بالعمل بها، حتّى صارت مثل جلودهم المحيطة بأجسادهم، ثمّ لما

طال عليهم الْعَهْدُ تَخَلَّوْا عَنْهَا، فكان حالهم مثل حالِ الْمُنْسَلِخِ من جِلْدِهِ الذي يَتَعَرَّضُ جَسَدُهُ للفساد فالهلاك.

وهؤلاء المتخلَّونَ عن آيات الله أَتْبَعَهُمُ الشَّيْطَانُ، فكانوا باستجابتهم لوساوس الشيطان وتَسْويلاته من الغاوين.

هذه الاستعارة من أبداع الاستعارات، وأكثرها دِقَّةً ومُطابَقَةً للواقع بكلِّ عناصرِها بين المشبَّه والمشبَّه به.

(٨) قول الله عزَّ وجلَّ خطاباً لرسوله:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا...﴾ (١٨٧)

في عبارة: [أَيَّانَ مُرْسَاهَا] استعارة قائمة على تشبيه الحياة الدنيا بالسفينة، وتشبيه الزَّمنِ بِالْبَحْرِ، وتشبيه انتهاء نظام هذه الحياة الدنيا وأحداثها بالرُّسُوِّ في مرفأ هذا البحرِ الزَّمَنِيِّ.

والغرض من هذه الاستعارة، الدلالة على أنَّ هذا النظام الكوني بتراتبه وتَصَاريفه المتتابعة لحظةً فلحظةً، وتغيُّراته، يُشَبِّه سفينة جارية في الْبَحْرِ، لها في كلِّ لحظةٍ موقعٌ وحركةٌ جَدِيدَانِ دَوَاماً، وأنَّ هذا التجدُّد لا يَنْتَهِي إِلَّا إِذَا قَامَتِ السَّاعَةُ، وانتهى بقيامها كُلُّ هذا النظام، كما تَتَوَقَّفُ السَّفِينَةُ في الميناء، وتُلْقَى مَراسِيها، وتَثْبُتُ وتَسْتَقِرُّ عِنْدَهُ.

(٩) قول الله عزَّ وجلَّ بشأن وقتِ قيام الساعة:

﴿... نَقُلْتُ فِي السَّعَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ...﴾ (١٨٧)

في عبارة ﴿نَقُلْتُ﴾ استعارة قائمة على تشبيه ما يتعذَّرُ مَعْرِفَتُهُ من المعاني، بالشيء الثقيل الذي لا يُسْتَطَاعُ رَفْعُهُ من المكان الذي أُخْفِيَ فِيهِ لِيَرَى وَيُعْلَمَ.

ووقتُ قيام الساعة قَدْ أَخْفَاهُ اللهُ عَنْ كُلِّ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، هو

كشيءٍ ثَقِيلٍ في عالم الغيب، فلا يستطيعُ أَحَدٌ غَيْرُ الله أن يُخْرِجَهُ من عالم الغيب إلى عالم الشهادة لِيَعْلَمَهُ.

(١٠) قول الله عز وجل للرسول ولكل داعٍ إلى الله من أمته:

﴿خُذِ الْعَفْوَ...﴾ (١٩٩) ﴿

استُعيِّر في هذه العبارة فعل: ﴿خُذِ﴾ للدلالة على معنى فعل: «اغف» للإشعار بأنَّ العَفْوَ شيءٌ ثَمِينٌ يُؤْخَذُ وَيُغْتَنَمُ وَيُظْفَرُ به، وأنه مَرْتَبَةٌ نفيسةٌ يَخْرِصُ على الارتقاء إِلَيْهَا أَهْلُ البصيرة الإيمانية.

وهذه الاستعارة قائمة على تشبيه العَفْوَ الذي هو شيءٌ معنويٌّ بشيءٍ ماديٍّ ثَمِينٍ يُمْكِنُ أن يُؤْخَذَ.

والغرض الإشعار بأخذ ثواب العفو عند الله في العاجلة والآجلة، فهو بهذا مجازٌ مُرْسَلٌ أيضاً من إطلاق السَّبَبِ وإرادة المسبَّب.



خامساً:

تأكيد الخبر بالمؤكدات لوجود الداعي إليه من أحوال المخاطبين به، أو المقصودين بالخطاب به.

وفي سورة (الأعراف) أمثلة كثيرة منه، أذكر منها ما يلي:

(١) قول الله عز وجل:

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٥) ﴿

عبارة: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اشتملت على مؤكدتين: «إِنَّ - والجملة الاسمية» والغرض إعلان تأكيدهم اعترافهم بأنهم كانوا ظالمين، لعلَّ الله يرفع عنهم الإهلاك.

(٢) قول الله عز وجل بشأن إغواء إبليس لآدم وزوجه:

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ﴾ (٢١)

أكد إبليس أنه ناصح لهما بأربعة مؤكدات: «القسم - إن - الجملة الاسمية - اللام المزحلقة للخبر» ليستجيبا لنصحه الكاذب فيه، فيأكلا من الشجرة المحرمة.

(٣) قول الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾ (١٥)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ...﴾ (١٦)

جاء في هاتين العبارتين التأكيد بـ «لَقَدْ» لأن الناس منصرفون عن ملاحظة نعم الله عليهم، ولحاجة الشاكين في ربوبية الله إلى تأكيد ما يدل على ربوبيته.

(٤) قول الله عز وجل:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦)

في هذه الآية التأكيد بالقسم مرتين، فاللام في: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ﴾ وفي: ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ﴾ واقعة في جواب قسم منوي، ويتصل بالقسم التوكيد بنون التوكيد الثقيلة.

وجاء هذا التأكيد لأن حال المكذبين يوم الدين يقتضيه.

(٥) قول الله عز وجل:

﴿يَبْقَىٰ آدَمَ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ...﴾ (٧)

جاء في هذه العبارة التأكيد بنون التوكيد الثقيلة، لأن حال بني آدم أمام وسائل الشيطان الإغوائية تقتضيه.

(٦) قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ...﴾ (٤٩).

جاء في هذه الآية التوكيد بـ «إِنَّ» - والجملة الاسمية لأن مقتضى حال المكذبين يستدعي التوكيد.

(٧) قول الله عز وجل:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ...﴾ (٥٩) ونظائره.

جاء التوكيد بعبارة [لَقَدْ] اللام واقعة في جواب قسم منوي، و«قَدْ» حرف تحقيق يؤكد مضمون الجملة.

والداعي إلى هذا التأكيد أن المقصودين الأولين بهذا البيان هم المكذبون للرسول ﷺ، والمكذبون بما جاء به عن ربه.

(٨) قول الله عز وجل حكاية لمقالة قوم نوح عليه السلام له:

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنِكَ فِي صَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٦٠).

كان الملأ من قوم نوح يَعْلَمُونَ أَنَّ نوحاً عليه السلام على هدى، فأرادوا سَتْرَ مُعْتَقِدِهِمْ فيه بتأكيد ادّعاء أَنَّهُ في ضلالٍ مبين.

وجاء توكيدهم لمقالتهم بالمؤكدات: «إِنَّ» - الجملة الاسمية - اللام المزحلقة للخبر - ومضون الرؤية الجماعية.

ونظيرها مقالة قوم هود له التي جاء بيانها في الآية (٦٦).

(٩) قول الله عز وجل حكاية لمقالة لوط عليه السلام لقومه:

﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨١).

«من» في عبارة «من أَحَدٍ» حرف جرّ زيد داخلاً على الفاعل لتأكيد عموم النفي.

ونظيره في عبارة: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غِيْرَةً﴾ داخلًا على المبتدأ في عدة آيات.

(١٠) قول الله عز وجل في حكاية قول ملا قوم شعيب له:
﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

في عبارتي: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ و﴿لَتَعُوْدُنَّ﴾ التأكيد بالقسم المنوي الذي دلت عليه اللام كما قال الخليل، وبنون التوكيد الثقيلة الملازمة له.

(١١) قول الله عز وجل في حكاية قول شعيب عليه السلام لقومه:
﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُوْدَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا... ﴿٨٩﴾﴾.
في عبارة: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا﴾ تأكيد للنفي بأبلغ تعبير، إذ جاء فيها كَوْنٌ مَنفِيٍّ وَبَعْدَهُ لَامُ الْجُحُوْدِ.

ونظيره ما جاء في قول الله عز وجل:
﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ... ﴿٩٠﴾﴾.
(١٢) قول الله عز وجل حكاية لقول قوم شعيب عليه السلام لمن آمن به.

﴿... لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَبًا لِنُكْرِ إِذَا لَخِيرُونَ ﴿٩١﴾﴾.
في هذه العبارة قسم منوي جاءت اللام في ﴿لَئِنْ﴾ في جوابه، وجاء جواب الشرط مؤكداً بـ «إِنَّ» - الجملة الاسمية - اللام المرحلة - إذا أيضاً لأنها زائدة للتأكيد باعتبار أن ما قبلها مفتقر لما بعدها.

(١٣) قول الله عز وجل حكاية لمقالة ملا فرعون بشأن موسى عليه السلام:

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾.

أكدوا مقالتهن عن موسى عليه السلام بـ «إِنَّ» - الجملة الاسمية - اللام المزحلقة للخبر.

(١٤) قول الله عز وجل خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ لِي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا... ﴿١٥٨﴾﴾.

جاء في هذا النص التأكيد بـ «إِنَّ» - الجملة الاسمية - كلمة جميعاً.



سادساً:

تنزيل القريب منزلة البعيد، باستخدام اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، للدلالة على بُعد منزلته ارتقاءً في جهة المنازل الرفيعة، أو هبوطاً في الدركات المنحطّات.

وفي سورة (الأعراف) من هذا أمثلة كثيرة، أذكر منها ما يلي:

(١) قول الله عز وجل بشأن من ثقلت موازينهم يوم الدين:

﴿... فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾.

فجاء في هذه العبارة استعمال اسم الإشارة «أُولَٰئِكَ» الموضوع للمشار إليهم البعيدين، للدلالة على ارتفاع منزلتهم عند ربهم.

(٢) قول الله عز وجل بشأن من خفت موازينهم يوم الدين:

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

فجاء لفظ ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ للدلالة على بُعد منزلتهم هبوطاً في اتجاه الدرك الأسفل، بحسبِ دَرَكَةٍ كُلِّ واحدٍ منهم.

(٣) قول الله عز وجل:

﴿...وَلِيَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۖ﴾ (٢٦)

«ذَلِكَ» اسم إشارة موضوع للمشار إليه البعيد، وجاء استعماله هنا للدلالة على ارتفاع منزلة لباس التقوى.

(٤) قول الله عز وجل بشأن أصحاب النار:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٦)

أي: أولئك البعداء عن رَحْمَةِ الله الهابطون في اتجاه الدرك الأسفل من النار.

(٥) قول الله عز وجل بشأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢)

أي: أولئك ذُوو المنازل الرفيعة جداً بفضل رَبِّهم عليهم، وذُوو الدَّرَجَات الرفيعات في جنات النعيم، بحَسَب مقادير إيمانهم، ومقادير أعمالهم الصالحة.

(٦) قول الله عز وجل بشأن أصحاب الجنة وهم في الجنة:

﴿وَوَدُّوْا أَنْ يُلْقَوْا بِالْجَنَّةِ أَوْرَشُومَهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣)

جاءت الإشارة إلى الجنة في هذه العبارة باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد [تِلْكَمُ] مع أنهم يكونون فيها مُنْعَمِينَ، للدلالة على ارتفاع مَنْزِلَتِها ارتفاعاً عظيماً.



سابعاً:

استقطاع النص من الحدث الماضي أو المستقبل، وتقديمه كأنَّ الحدث يجري في وقت التكلم، أو حكاية ما سوف يحدث بصيغة الماضي كأنه سبق حدوثه، للدلالة على تحقق حدوثه في المستقبل.

وهذا الفن من أبدع أساليب الفنون البيانية، وهو من المبتكرات التي جاءت في القرآن، والتي علمنا الله بها روائع من فنون البيان.

وفي سورة (الأعراف) أمثلة كثيرة من هذا الاستقطاع:

(١) قول الله عز وجل اقتطاعاً مما جرى من حدثٍ ماضٍ ضمن ذكر قصة خلق آدم:

﴿وَبَعَادُمْ أَشْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩).

(٢) ما جاء في الآيتين (٣٨ - ٣٩) اقتطاعاً مما سوف يجري من أحداث يوم الدين للكافرين، بصيغة فعلٍ حدثٍ مضى، للدلالة على أنَّ حدوثه سوف يتحقق حتماً.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا... (٣٨) ... (٣٩)﴾.

ونظيره ما جاء في الآيات من (٤٣ - ٥٠).

(٣) قول الله عز وجل ضمن ذكر أحداث لقاء موسى عليه السلام ربه عند جبل الطور، وفيه استقطاع بعض ما جرى فيما مضى وتقديمه كأنه يجري في وقت التكلم:

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا يَاقُوتَ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا سَاوِيَةً دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٤٥).

فعبارة: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ حَتَّى آخِرِ الْآيَةِ مُسْتَقْطَعَةٌ مِنَ الْحَدِيثِ الْمَاضِي.

(٤) قول الله عز وجل في الحديث عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ:

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١٦٥).

عبارة: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ مُسْتَقْطَعَةٌ مِنَ الْحَدِيثِ إِبَّانَ حَدُوثِهِ فِي الْمَاضِي، وتقديمها كَأَنَّ الْحَدِيثَ يَجْرِي عِنْدَ التَّكَلُّمِ.

(٥) قول الله عز وجل بشأن ما سوف يَحْدُثُ يَوْمَ الدِّينِ بَعْدَ الْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ:

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ...﴾ (٣٠).

أي: فَرِيقًا حَكَمَ اللَّهُ لَهُ بِالْهُدَايَةِ، وَفَرِيقًا حَكَمَ عَلَيْهِ بِالضَّلَالَةِ فَحَقَّتْ عَلَيْهِ وَثُبِتَتْ.

جاء هذا بأسلوب حكاية أمرٍ مَضَى وَانْقَضَى، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَتَحَقَّقَ حَتْمًا فِي الْمُسْتَقْبَلِ.



ثامناً:

التضمين، وهو تضمين فِعْلٍ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ مَعْنَى فِعْلٍ آخَرَ وَتَعْدِيَّتَهُ مِثْلَ تَعْدِيَةِ الْفِعْلِ الَّذِي ضُمِّنَ مَعْنَاهُ، فَتُعْنِي الْعِبَارَةُ عَنْ عِبَارَتَيْنِ، وَالْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْنِ.

وفي سورة الأعراف أمثلة متعددة من هذا التضمين الذي هو من أساليب البلاغة القرآنية، إِيثَاراً لِلإِيجَازِ وَالِاِقْتِصَادِ فِي الْعِبَارَاتِ.

(١) قول الله عز وجل في حكاية مُسَاءَلَتِهِ لِإِبْلِيسَ بعد أن امتنع من السجود لآدم:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ...﴾ (١٧) ﴿؟!﴾

أي: ما مَنَعَكَ من السجود حَامِلاً لَكَ على أَنْ لَا تَسْجُدَ. ضُمِّنَ فعل «مَنَعَ» معنى فعل «حَمَلَ» فَعُدِّي تَعْدِيته، فَأَغْنَتِ الْجُمْلَةُ عن جملتين، إيجازاً وإبداعاً.

(٢) قول الله عز وجل في بَيَانِ وَسْوَسةِ الشَّيْطَانِ، يَتَّبِعِي بِهَا إِغْوَاءَ آدَمَ وزوجه:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَئِهِمَا...﴾ (٢٠) ﴿؟!﴾

فعل «وَسْوَسَ» فَعْلٌ لازم، ضُمِّنَ معْنَى فِعْلِ «سَوَّلَ» فَعُدِّي تَعْدِيته، فَأَغْنَتِ الْعِبَارَةُ الْمُخْتَصِرَةَ عن جُمْلَتَيْنِ.

أي: فوسوسَ الشيطان، مُسَوِّلاً بوسوسَتِهِ لهما.

الْوَسْوَسَةُ: الصوت الخفي، كَصَوْتِ الْحَلِيِّ.

التسويل: التحسين والتزيين والتحبيب بالأمر والإغراء به.

(٣) قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا...﴾ (٤١) ﴿؟!﴾

ضُمِّنَ فَعْلُ «اسْتَكْبَرَ» معنى فعل امتنع فَعُدِّي تَعْدِيته، فَأَغْنَتِ الْجُمْلَةُ عن جملتين.

أي: واستكبروا مَمْتَنِّعِينَ عن اتِّبَاعِ آيَاتِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَاتِ إِلَيْهِمْ مِنْهُ.

(٤) قول الله عز وجل في حكاية قول قوم شعيب عليه السلام لَهُ وَلَمَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ:

﴿... أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا...﴾ (١٨٨)

ضُمِّنَ الفعلُ في [لَتَعُودَنَّ] مَعْنَى الفعل في «لَتَدْخُلَنَّ» فأغنتِ الجملة عن جملتين.

أي: أَوْ لَتَعُودَنَّ عَنْ دِينِكُمْ الجديد وَلَتَدْخُلَنَّ فِي مِلَّتِنَا.

(٥) قول الله عز وجل:

﴿أَوَّلَ يَهْدٍ لِلَّذِينَ يَرْتُوكَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ...﴾ (١١٠)

ضُمِّنَ فعل «يَهْدِي» معنى فعل «يُبَيِّن» فَعُدِّي تَعْدِيته، فحملتِ العبارة دلالتَي الفعلين معاً.

أي: أَوْ مَا هَدَىٰ حَالِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ مَبِينًا لِلْأُمَمِ الْوَارِثَةِ لَهَا، سُنَّةَ اللَّهِ الثَّابِتَةِ الَّتِي تَقْتَضِي إِصَابَةَ الْمَذْنِبِينَ بِذُنُوبِهِمْ.

(٦) قول الله عز وجل:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا...﴾ (١٠٢)

ضُمِّنَ فِعْلُ «ظَلَمُوا» مَعْنَى فعل «كَفَرُوا» فَعُدِّي تَعْدِيته.

أي: فَظَلَمُوا كَافِرِينَ بِهَا، فَأَغْنَتِ الْجُمْلَةُ عَنْ جَمْلَتَيْنِ بِإِيجَازٍ بَدِيعٍ.

(٧) قول الله عز وجل حكاية لقول آل فرعون لموسى عليه السلام:

﴿قَالُوا يَسْأَلُكَ رَبُّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيَلِينَ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لِتُؤْمِنَ لَكَ...﴾ (١٢٢)

ضُمِّنَ فِعْلُ «تُؤْمِنَ» مَعْنَى فعل «تُسَلِّمُ» فَعُدِّي تَعْدِيته، فأغنتِ الجملة عن جملتين إيجازاً وإبداعاً.

أي: لِتُؤْمِنَنَّ بِكَ مُسْلِمِينَ لَكَ.

(٨) قول الله عز وجل في الحديث عن بني إسرائيل :

﴿...وَوَضَعْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمُ الْغَمَامَ...﴾ ﴿١٦٦﴾ .

ضَمَنَ فعل «ظَلَّلَ» معنى فعل «جَعَلَ» فَعُدِّي تَعْدِيته، فأغنت الجملة عن جملتين، إيجازاً وإبداعاً.

أي: وظللناهم بجاعلين عليهم الغمام مظللاً لهم.

(٩) قول الله عز وجل بشأن الذين كانوا يَعدُّونَ في السبت من بني

إسرائيل :

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ﴿١٧١﴾ .

فعلُ «عَتَى» لازم لا يتعدى، فاقتضى المعنى تضمينه معنى فعلٍ آخر، والملائم أن نقدر هنا معنى فعل «استنكف».

أي: فلَمَّا عَتَوْا مُسْتَنكِفِينَ عن طاعة الله بترك ما نهاهم عنه من العدوان على حُرمة يوم السبت، واستمروا متمادين في معصية بارئهم، أضدَرنا أَمَرَ التكوين بمسخهم قِرَدَةً.



تاسعاً:

خروج الاستفهام عن أصل دلالته وهي طَلَبُ الإفهام، إلى معانٍ أخرى، كالإنكار، والتلويح والتوبيخ، والنفي.

وفي سورة الأعراف أمثلة كثيرة من هذا، ومنها ما يلي:

(١) قول الله عز وجل يعلم رسوله كيف يجيب المفتريين على ربهم:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّمَا أَمَرَ اللَّهُ بِأَلْفَحْشَةٍ أَنْقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٧٨﴾ .

الاستفهام في هذه الآية يرادُ به التلويح والتثريب والتوبيخ، لأنهم يقولون على الله ما لا يعلمون.

(٢) قول الله عز وجل بشأن الذين يُحَرِّمُونَ ما لم يحرمه الله من الزينة التي أخرج الله لعباده، والطيبات من الرزق، يعلم رسولُه وكلّ داعٍ إلى الله وإلى سبيله من أمته كيف يعالج المفتريين على ربهم:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ...﴾ (٣٢).

في هذا التعليم استفهام إنكاريّ تلويحيّ، إذ لا يوجدُ مُبلِّغٌ عن الله صادقٌ حرّم هذه الأشياء، بل هو مفتريٌ كذابٌ في دينِ الله، والغرض من هذا الاستفهام النفي.

(٣) قول الله عز وجل:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ...﴾ (٣٧).

الاستفهام في هذا النصّ يُراد به بيانُ شناعةِ وفضاعةِ جُرمٍ من يفترى على الله الكذب، ومثله من يُكذّب بآيات الله المنزلاتِ على رسولِه، مع بيان أنه لا يوجدُ أظلم منه.

(٤) قول الله عز وجل حكاية لما يقوله أصحاب الأعراف يوم الدين لبغضٍ من كانوا يَعْرِفُونَ في الحياة الدنيا، من أهل الغنى والكبر الذين عُوقِبُوا على كفرهم بالخلود في عذاب النار:

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا لَا يَعْرِفُهُمْ سِيمَنُهُمُ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٨) أَهْتُولَاءُ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ!؟.

الاستفهامان في هذا النصّ يراد بهما التوبيخ والتحسير.

(٥) قول الله عز وجل حكاية لردّ نوح عليه السلام على ملاّ قومه:

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ...﴾ (٦٣) .

ونظيره قول الله عز وجل حكاية لرد هود عليه السلام على الملأ الذين كفروا من قومه :

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ...﴾ (٦٩) .

الاستفهامان الواردان في هذين النصين هما من قبيل الاستفهام التعجبي الإنكاري .

أي : إن تعجبكم هو الأمر الذي يستدعي أن يتعجب منه ويستنكر .

(٦) قول الله عز وجل حكاية لقول الملأ الذين كفروا من قوم هود عليه السلام :

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّهُ نَذَرٌ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا...﴾ (٧٠) .

في هذه المقالة استفهام إنكاري فيه معنى الاستهزاء والسخرية .

(٧) قول الله عز وجل :

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (٩٧) ﴿أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٩٨) ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا أَقْوَمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٩٩) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَحْنَاهُمْ يَدْثُوبُهُمْ﴾ .

الاستفهامات الواردة في هذا النص يراد بها التعجيب والتلويح والتأنيب .

(٨) قول الله عز وجل حكاية لقول موسى عليه السلام للذين قالوا له من بني إسرائيل : اجعل لنا إلهًا كما لهم آلِهَةٌ :

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٤٠) .

الاستفهام في هذه الآية استفهام تعجبي إنكاري فيه معنى التشنيع على

الَّذِينَ طَلَبُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ إِلَٰهًا وَثْنًا.

(٩) قول الله عز وجل حكاية لقول موسى لبني إسرائيل الذين اتَّخَذُوا الْعِجْلَ إِلَٰهًا يَعْكُفُونَ عَلَيْهِ عَابِدِينَ:

﴿قَالَ يٰٓإِسْمَآ خَلَقْتُهُنِي مِنْ بَعْدِيٓ أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ...﴾ (١٥٠).

أي: أَسَبَقْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ متجاوزين حدود ما أَمَرَكُم بِهِ مِنْ أَنْ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَةً مِنْ دُونِهِ. وهو من قبيل الاستفهام التوبيخي الإنكاري.

(١٠) قول الله عز وجل بشأن الذين اتَّهَمُوا الرسول محمداً ﷺ بالجنون:

﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (١٨٨).

الاستفهام في هذه الآية فيه معنى التعجيب من أمرهم، مع تلويحهم وتوبيخهم والإنكار عليهم، بأسلوب الحديث عنهم دون مواجهتهم بالخطاب، وفيه حث على التفكير في شخصية الرسول وكمال صفاته البشرية وكمال أخلاقه، وعظيم ما جاء به عن ربه، التي تجعل من يتهمه معها بالجنون من أسفه السفهاء، ومن أكثر الناس جحوداً وظُلماً.



عاشراً:

استخدام الكناية أسلوباً لبيان المراد، وهو لازمها، وفي سورة (الأعراف) عدة أمثلة من هذا الأسلوب البلاغي:

(١) قول الله عز وجل:

﴿وَأَقِمْ وَجْهَكَ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ...﴾ (٢٩).

مع الأمر بإقامة الوجه عند كل صلاة كما سبق في التدبر، ففي هذه

العبارة كِنَايَةً تُوجِّهُ لَلاَهْتِمَامَ والعناية الثَّامَّةَ بعبادة الله عزَّ وجلَّ، استقبالاً للقبلة التي أَمَرَ الله باستقبالها، وتركيزاً للحواس الموجودة في الوجه مُعَدَّلَةً غَيْرَ مُغَوَّجَةٍ وَلَا مَائِلَةٍ، وَلَا شَارِدَةٍ وَلَا مُذْبِرَةٍ أَوْ مُغْرِضَةٍ، ويكونُ هذا بتوجيه السَّمْعِ والبصر واللسان مُعَدَّلَاتٍ في استقامة على عبادة الله جلَّ جلاله وعظم سُلْطَانِهِ، ومن وراء الحواس الظاهرة الفكر والنفس حتَّى غُمَقِ القلب.

(٢) قول الله عزَّ وجلَّ بشأن الذين عَبَدُوا الْعِجْلَ من بني إسرائيل حينما شاهدوا موسى عليه السلام عائداً إليهم يَحْمِلُ الألواح.

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٤٩).

في عبارة: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ كِنَايَةٌ بِدِيْعَةٍ عَنْ نَدَمِهِمْ، وشِدَّةِ خَوْفِهِمْ من سَطْوَةِ موسى عليه السلام.

وأصل هذه العبارة أَنَّ الَّذِي يُسْقَطُ فِي أَيْدِي المجرمين بِسُرْعَةٍ وَعُنفٍ هي الأغلال والأصفاد والقيود التي يُسَاقُونَ بِهَا لمعاقبتهم.

وحين تكون هذه من الحديد الثقيل فإنَّها قَدْ تُسْقِطُهُمْ إِلَى الأرض، فيكونون بذلك نادمين ساكنين، لا يملكون إِلَّا الاعتراف بجرائمهم.

(٣) قول الله عزَّ وجلَّ حكاية لِدُعَاءِ موسى عليه السلام وهو في الميعاد الثاني لمناجاة رَبِّهِ عند جبل الطور:

﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ...﴾ (١٥٦).

جاء التعبير بـ ﴿وَأَكْتُبْ﴾ كِنَايَةً عَنِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ الْمُسْتَبْعَيْنِ بالكتابة والتنفيذ، لأن الكتابة من لوازم قَدَرِ اللَّهِ وقضائه، إذ كُلُّ مَا يُقَدَّرُهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ وَيَقْضِيهِ يَكْتُبُهُ، وَحِينَ يَأْتِي وقت التنفيذ يُنْقِذُهُ.

(٤) قول الله عزَّ وجلَّ بشأن الظالمين مِنْ بني إسرائيل:

﴿... وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ .

في هذه العبارة كناية عما فعل الإسرائيليون في تاريخهم الطويل من فسادٍ عريضٍ .

أي: فأفسدوا وطغوا وبغوا وعصوا بارتئهم، وظلموا ظلماً شنيعاً فاحشاً، وما ظلمونا بذلك ولكن كانوا يظلمون أنفسهم، بتغريضها للعقاب والعذاب الشديد.



حادي عشر:

القصر والحصر، وفي سورة (الأعراف) أمثلة كثيرة من هذا الأسلوب البلاغي لأداء المعنى المراد، ومنها ما يلي:

(١) قول الله عز وجل حكاية لقول شعيب عليه السلام للذين هدّوه والذين آمنوا به بالإخراج من بلادهم:

﴿... عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا... ﴿٨٩﴾﴾ .

في هذه العبارة قُصر دَلّ عليه تقديم المعمول ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ على عامله في: ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ وهو قصر حقيقي من قصر الصفة على الموصوف.

أي: على الله وحده لا شريك له تَوَكَّلْنَا.

(٢) قول الله عز وجل بعد بيان إهلاك كفّار قوم شعيب عليه السلام:

﴿... الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ .

في عبارة: ﴿كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ قُصر دَلّ عليه تعريف طَرَفَيِ الإسناد، مع زيادة التأكيد بضمير الفصل.

والقصر هنا هو من قبيل القصر الإضافي، أي: كانوا هم الخاسرين

لا الذين آمنوا بشعيب عليه السلام، وهو من قصر الصفة على الموصوف، أي: قصر صفة الخسارة على الذين كذبوه من قومه، بالإضافة إلى كل قومه.

(٣) قول الله عز وجل في معرض الحديث عن آل فرعون الذين أطبروا بموسى ومن معه:

﴿... أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

أي: ما قضاء ما ينزل بهم مما يكرهون إلا عند الله، وهذا القضاء الرباني يسببه طائرهم، وهو عملهم الذي إذا عملوه طار عنهم وصار مسجلاً عند الله، فهم مسؤولون عنه، وهم يعاملون من الله عز وجل بمقتضاه.

وإطلاق الطائر على العمل استعارة، وإرادة لازمه الذي هو قضاء الله النافذ فيهم كناية.

والقصر هنا قصر حقيقي من قصر الصفة على الموصوف، أي: قضاء مقاديرهم مما يكرهون ومما يحبون لا يوجد إلا عند الله.

(٤) قول الله عز وجل في معرض الحديث عن الرسول النبي الأمي: ﴿... فَأَلْزِمْتَ بِيَدِهِ وَعَزَّزُوهُ وَنَصَرُوهُ وَأَتَّبَعُوا الْتَوْرَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

في عبارة: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قصر الفلاح على الذين آمنوا به وعززوه ونصروه، وهو من قبيل قصر الصفة على الموصوف.

التعزير: التوقير والتعظيم والتقوية.

والقصر هنا قصر إضافي، أي: بالإضافة إلى الذين لم يؤمنوا به بعد بعثته، وقد بلغتهم رسالته فجحدوها.

(٥) قول الله عز وجل:

﴿سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٧٧).

في عبارة: ﴿وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ قَصْرُ استفيد من تقديم المعمول على العامل. أي: وما كانوا يظلمون إلا أنفسهم، فوضفَ ظلمهم مَقْصُورٌ أثره عليهم، لأنهم هم المعاقبون عليه عند ربهم، وتكذيبُهم بآيات الله لم يَضُرَّ الله شيئاً.

(٦) قول الله عز وجل بشأن وقت قيام الساعة:

﴿... لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ...﴾ (١٨٧).

في هذه العبارة قَصْرُ استفيد من النفي والاستثناء، وهو من قصر الموصوف وهو حالهم عند إتيان الساعة، على البغثة أي: على المفاجأة. وهو قصرٌ إضافي، أي: بالإضافة إلى أحوال العلم والجهل، إذ لهم صفات أخرى كثيرة غير كونهم مُبَاغَتِينَ.

(٧) قول الله عز وجل خطاباً لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرَهْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٨).

في عبارة: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قصر استفيد من النفي والاستثناء، فلفظ «إِنْ» حرف نفي.

وهو من قَصْرِ الموصوف وهو الرُّسُول على صِفَةِ الإنذار والبشارة، وظاهر أنه من قبيل القصر الإضافي، أي: بالإضافة إلى آخر أحواله بعد تأديته كل وظائف رسالته قبل وظيفة الإنذار والتبشير.

(٨) قول الله عز وجل في وصف الذين عنده من الملائكة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (٢٢١).

في عبارة: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ قَصْرُ حقيقي، أي: وله وحده

يَسْجُدُونَ، فلا يَسْجُدُونَ لغير الله عز وجل، وهذا من قَصْرِ صِفَةِ سُجُودِهِمْ
على مَسْجُودٍ له واحد، هو الله جلّ جلاله وعظم سلطانه.

واستفيد هذا القصر من تقديم المعمول على عامله.



ثاني عشر:

التشبيه، ومن التشبيهات البديعة في سورة (الأعراف): قول الله عز وجل فيها في وصف المنسلخ من آيات ربه المنزلات:

﴿مَثَلُ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ...﴾ (١٧٦) *

في هذا المثل تشبيه بديع من نوع تشبيه التمثيل، شبه الله عز وجل فيه المنسلخ من آيات الله بغد أنسلاخه منها واتباعه الشيطان وغوايته، بالكلب اللاهث دوماً، لأن الغاوي باتباعه أهواءه وشهواته يستمر في حالة ظمأ لتناول ما يشتهي، فهو يتابع ذلك بغاية ما يستطيع من قوة وهمّة ومجاهدة، تُخَوِّجُه أن يكون لاهثاً وراءها دوماً، من جزية وراء مطالب نفسه التي تتجدد دوماً، كحالة الكلب اللاهث دوماً، إن تحمّل عليه يلهث أو تتركه يلهث.



ثالث عشر:

استعمال ضمير المتكلم العظيم وهو ضمير جمع المتكلمين، لأن الموضوع يستدعي تربية المهابة، أو التنبيه على عظمة ربوبية الرب جلّ جلاله في آيات خلقه، أو آيات بيانه، أو آيات عقابه، ونحو ذلك.

وفي سورة (الأعراف) أمثلة كثيرة من هذا، ومنها ما يلي:

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا - فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ - فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ يَعْلَمُ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ - وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ - وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ - يَبْنَىٰ آدَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا يُورِي سَوَاءَكُمْ - وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا - وَزَعَمْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَيْبٍ - وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ - وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ غَلِيٍّ - سَفَّهْنَاهُ لِبَلَاغٍ مَّتًى فَآرَزْنَا بِهٍ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ تَخْرُجُ الْمَوَوِّ - كَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ - لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا - فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا - وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا - لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بِرُكْبَةٍ ﴿٨﴾ -

إلى سائر النظائر في السورة.



رابع عشر:

التنكير للتهويل والتعظيم، أو التكبير والتكثير، أو لغير ذلك من أغراض التنكير البلاغية، ومنه:

(١) قول الله عز وجل بشأن أهل جهنم في جهنم:

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ... ﴿١١﴾﴾.

أي: لهم في جهنم مِهَادٌ شديد الإيلام، ولهم من فوقهم غَوَاشٍ، وهي ظلمات دخانية حارة تَعُمُّ سماء جهنم، وتجللهم بالعذاب والكر.

فهم بين مِهَادٍ جهنمي أليم، وغواشٍ عظيمة مهولة شديدة التعذيب لمن تجللهم في دار العذاب يوم الدين.

وفي استعمال لفظي «مهاد» و«غواش» ما لا يخفى من التنكيل والاستهزاء بهم، مقابل استهزائهم في الدنيا بما أنذروا به من عذاب الله يوم الدين.

(٢) قول الله عز وجل حكاية لمقال السحرة لفرعون:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾؟

أي: أَيْنَ لَنَا لَأَجْرًا كبيراً كثيراً إِنَّ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ؟



خامس عشر:

إيراد الجملة الاعتراضية لغرض بلاغي، ومنه في سورة (الأعراف):

قول الله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٤٢﴾﴾.

عبارة: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جملة اعتراضية، والغرض البلاغي المبادرة إلى طمأننة المتقين بأن الله لا يكلف نفساً إلا وُسْعَهَا، قبل أن يبشّرهم بأنهم أصحاب الجنة، حتى لا تعظم في نفوسهم مصاعب الالتزام بمطلوب التقوى منهم، في أحوال كثيرة كأحوال الأعذار والخطأ والنسيان وضعف الإرادة ضعفاً شديداً أمام بعض مطالب النفس، وتسلب الأهواء والشهوات عليها.



سادس عشر:

وضع الاسم الظاهر موضع الضمير لداعٍ بلاغي، ومنه في السورة:

قول الله عز وجل:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴿١٤٣﴾﴾.

كان الظاهر أن يقال: ولَمَّا جاء موسى لميقاتنا وكَلِّمْنَاهُ، باستعمال الضمير، لكن النص جاء: ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ فَوُضِعَ الاسم الظاهر موضع الضمير للدلالة على أن هذا التكليم يتعلّق بخصائص صفات ربوبية الله لعباده، التي تَسْتَدْعِي أن يعبدوه وخَدَهُ إِلَهًا لَا شَرِيكَ لَهُ، في حدود شرائعه وأحكامه وبياناته لهم.



سابع عشر:

اختيار التنوع في البدائل بين المترادفات إثارة لما هو الأعذب في السَّمْع، والأَلْيَن في النطق، ومنه في السورة، قول الله عزَّ وجل حكاية لقول بني إسرائيل لموسى عليه السلام قبل الخروج من مصر:

﴿قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا...﴾ (١٢٩).

جاء في هذا النص من بديع الاختيار في بدائل الكلمات المترادفات، عبارة: ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ بَدَلَ «وَمِنْ بَعْدِ مَا أَتَيْتَنَا» المناظرة لما سبقها.

فمع أن الإتيان والمجيء مترادفان، لكن التنوع هنا في البدائل أعذب في السَّمْع، وألين في النطق، وفيه ابتعاد عن تكرار مادة الكلمة الواحدة.



ثامن عشر:

تنزيل غير العاقل منزلة العاقل والحديث عنه كالحديث عن العقلاء، لداعٍ بلاغي، ومنه في السورة حديثاً عن أوثان المشركين:

قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمْنَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلَيْسَ جِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَزْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا... ﴿١٩٥﴾﴾.

في هذا النص ذكر الله عز وجل أوثان المشركين بالتعبيرات التي يُذكرُ بها الأخيَاءُ العقلاء مُسَايَرَةَ لِعِبَادِهَا، ولولا هذه المسايرة لكان الحديث عنها كما يلي: أَلَهَا أَرْجُلٌ تَمْشِي بِهَا، أَمْ لَهَا أَيْدٍ تَبْطِشُ بِهَا، أَمْ لَهَا أَعْيُنٌ تَبْصُرُ بِهَا، أَمْ لَهَا آذَانٌ تَسْمَعُ بِهَا.



تاسع عشر:

بيان استحالة حدوث الشيء بتعليق حدوثه على حدوث أمرٍ آخر معلوم الاستحالة بدهاءةً بالعقل، أو بحسب نظام الكون، ومنه قولُ الله عز وجل بشأن الَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ، فلم يَتَّبِعُوا مَا جَاءَ فِيهَا:

﴿... وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ... ﴿١٩٦﴾﴾.

وبما أَنَّ الْجَمَلَ الَّذِي هُوَ الْحَيَوَانُ الْمَعْرُوفُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَدْخُلَ مَعَ بَقَائِهِ عَلَى صِفَاتِهِ الْمَعْرُوفَةِ، فِي ثَقْبِ الْإِبْرَةِ الْمَعْرُوفَةِ مَعَ بَقَائِهَا عَلَى وَصْفِهَا وَمِقْدَارِ ثَقْبِهَا، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَدْخُلَ هَؤُلَاءِ الْجَنَّةَ.

وهذا من الكنايات البديعة، المنتزعة من صُورَةٍ مُتَخَيِّلَةٍ مُسْتَحِيلَةٍ الْوُقُوعِ بَيْنَ أَمْرَيْنِ حَسِيِّينَ.

وهذا الأسلوب البياني من قبيل قول القائل لِقَطْعِ آمَالٍ طَامِعٍ فِي أَمْرِ مَا: نَجُومُ السَّمَاءِ أَقْرَبُ لَكَ، أَي: لَنْ يَتَحَقَّقَ مَا تَطْمَعُ فِيهِ.



عشرون:

استخدام «ال» الدالة على الكمال على تقدير أنها تستغرق كل عناصر النوع، ومنه في السورة قول الله عز وجل:

﴿...تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ...﴾ (٤٣).

(ال) في الأنهار للكمال، أي: تجري من تحتهم الأنهار الكاملة، المتسجمة لكل الصفات التي تجعلها أكمل الأنهار وأحسنها وأفضلها.



(١٨)

الملحق الثاني

السؤال في محكمة العدل الربانية يوم الدين

إن محكمة الفضل والعدل الربانية يوم الدين، من عناصرها سؤال المقدم للمحاكمة عما أسلف في الحياة الدنيا في رحلة امتحانه، وسؤال الشهود عليه إذا حاول الجحود والمراوغة، وكان في الحياة الدنيا من الذين بلغتهم دعوة الرسل إلى الإيمان والإسلام فكفروا بها ولم يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم.

وأول سؤال يطرح عليه في محكمة العدل الربانية يتعلق بتبليغه ما أنزل الله لعباده من دين ليتبعوه، فإذا أقر واعترف، أو أدين بشهادة الشهود عليه، طرح عليه السؤال الذي يتعلق بإيمانه بالحق أو كفره وجحوده له.

ثم تطرح عليه الأسئلة حول أعماله الإرادية الظاهرة والباطنة الجسدية والنفسية التي كان قد عملها في الحياة الدنيا مخالفاً فيها أوامر ربه ونواهيه، وعن الأعمال التي كان يجب عليه أن يعملها فلم يعملها، وعصى بتركها ربه.

وفي هذا الملحق استعرض بشيء من التدبير النصوص القرآنية الواردة في السور حول هذا الموضوع:
النص الأول:

قول الله عز وجل في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول):

﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سِيلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾.

فدل هذا النص على أنه يجمع في محكمة العدل الربانية يوم الدين بين الوايد ومؤودته الصغيرة، فيوجه السؤال للمؤودة، فيقال لها: بأي ذنب قُتِلت؟.

ومن البدهي أن تقول المؤودة: لا ذنب لي، فأنا ما زلت صغيرة لم أقترف ذنباً حتى أقتل به، وقد قُتِلت لمجرد أن ربي خلقني أنثى.

وقولها هذا حجة دامغة ضد قاتلها، فمن المعلوم بدهة أن قاتلها ظالم آثم، وأن قاتلها لا يستطيع أن يدعي أن لها ذنباً ما.

وتوجيه السؤال يكون لاستكمال المحاكمة شروطها وعناصرها.

أما معاذيره الأخرى التي كانت الدافع له إلى الوايد الظالم، فهي لا تتعلق بالمؤودة المظلومة، وإنما تُعبر عن الاعتراض على حكمة الله عز وجل في الخلق، أو على سنة الله في المجتمع البشري وسائر الكائنات الحية، وكل اعتراض من هذا النوع يتضمن إدانة له بالكفر بحكمة ربه العليم الحكيم.

ومن الملاحظ أنه قد جاء البدء في نجوم التنزيل القرآني حول هذا الموضوع، ببيان سؤال المؤودة عن الذنب الذي بسببه قتلها وإيدها، نظراً إلى أن أول ما يحاكم عليه يوم الدين ما يتعلق بالمظالم، ومنها الظلم الذي يكون بين البهائم العجماوات، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء التي تطحنها في الدنيا ظلماً.

إِنَّ الظُّلَمَ يُذَرِّكُ بِالْفِطْرَةِ، فَلَا يَزْتَبِطُ الْجَزَاءُ عَلَيْهِ بِإِرْسَالِ رُسُلٍ، وَإِنْزَالِ شَرَائِعَ وَأَحْكَامٍ رَبَّانِيَّةٍ.



النص الثاني:

قول الله عز وجل في سورة (التكاثر/ ١٠٢ مصحف/ ١٦ نزول):

﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ۖ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۖ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۖ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۖ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۖ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۖ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۖ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۖ﴾

في هذه السورة بيان لسؤال الكافرين عن النعيم في الدار الآخرة، لكن ترتيب هذا السؤال بعطفه بحرف العطف «ثم» الذي يدل على الترتيب مع التراخي، يدل على أنه لا يكون في موقف الحساب وفضل القضاء، بل يكون بعد دخولهم الجحيم دار عذابهم.

فأرى أنه ليس من عناصر السؤال في محكمة العدل الربانية، بل هو سؤال لهم عن نعيم الجنة، وهم يُعَذَّبُونَ في الجحيم، وهو في الحقيقة سؤال تخسير وتنديم حول نعيم الجنة الذي حُرِمُوهُ بِكُفْرِهِمْ بِهِ، وبإنكارهم له، إنه النعيم الذي يتقلب فيه المؤمنون.

لَقَدْ ذَاقَ الْكَافِرُونَ الْعَذَابَ الَّذِي كَانُوا يُنْكِرُونَهُ، فَلْيَذُوقُوا عَذَابَ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَمِ، بِسؤالهم عن النعيم الذي كانوا في الدنيا يُنْكِرُونَهُ، وَيَرَوْنَهُ خُرَافَةً مِنَ الْخُرَافَاتِ، وَأَكْذُوبَةً افترها المرسلون.

ويؤكد هذا الفهم أن النعيم لم يذكر في القرآن إلا مراداً به نعيم أهل الجنة في الجنة، أما لذات الحياة الدنيا وطيباتها، فقد جاء في القرآن ذكرها تحت عنوان «متاع» والمتاع هو الذي يُنْتَفَعُ به انتفاعاً مؤقتاً، والفناء يأتي عليه ولا بقاء له.



النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾.

فجاء هذا النص لبيان السؤال في محكمة العدل الربانية يوم الدين.

عما أنزل الله عز وجل للناس من أمور دينهم عقيدة وشريعة ومنهاجاً.

ولما كان ما أنزله الله للناس قد أنزله على رُسُلِهِ لِيَعْمَلُوا بِهِ، وَلِيُبَلِّغُوهُ

لِلنَّاسِ اقْتَضَى الْأَمْرُ أَنْ يُوجَّهَ سُؤَالَانِ، أَحَدُهُمَا لِلْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ، وَالْآخَرُ لِلرُّسُلِ وَيُلْحَقُ بِالرُّسُلِ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِمْ مِنْ أُمَّتِهِمْ.

• أما السؤال الذي يُوجَّهُ لِلْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّاسِ، فَهُوَ سُؤَالٌ عَنْ

تَبْلِيغِهِمْ مَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ وَيُبَلِّغُوهُ لِلنَّاسِ، ثُمَّ يَكُونُ سُؤَالُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ، وَالْعَمَلِ، وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ.

• وأما السؤال الذي يُوجَّهُ لِلرُّسُلِ، فَهُوَ سُؤَالٌ عَنْ تَبْلِيغِهِمْ مَا

كَلَّفَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُبَلِّغُوهُ لِلنَّاسِ. مِمَّا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ.

وقد جاء في هذا النص تأكيد الخبر حول هذين السؤالين، بالقسم

الذي دَلَّتْ عَلَيْهِ لَامُ الْقِسْمِ، وَهِيَ الَّتِي تَقَعُ فِي جَوَابِهِ، وَبُنُوْنُ التَّوَكُّيدِ الثَّقِيلَةِ

الْمَشْدُودَةِ: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ﴾ - ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ﴾.

وهذان السؤالان يَتَّبِعُهُمَا سُؤَالُ النَّاسِ عَنْ إِجَابَتِهِمْ دَعْوَةَ رُسُلِ رَبِّهِمْ،

وَسُؤَالِ الرُّسُلِ عَنْ اسْتِجَابَةِ أُمَّمِهِمْ لَهُمْ.

وقد جاء بَيَانُ سُؤَالِ النَّاسِ عَنْ إِجَابَتِهِمْ دَعْوَةَ رُسُلِ رَبِّهِمْ، فِي سُورَةِ

(القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول) بقول الله عز وجل فيها:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

أي: مَا الَّذِي أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ بِهِ؟ هَلْ آمَنْتُمْ بِهِمْ وَاتَّبَعْتُمُوهُمْ، أَمْ

كَفَرْتُمْ بِهِمْ، وَكَذَّبْتُمُوهُمْ، وَلَمْ تَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِمْ، وَلَمْ تَتَّبِعُوهُمْ؟

وجاء بيان سؤال الرُّسُل عن استجابة أُمَمِهِمْ لهم في قول الله عز وجل في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ (١١٩)﴾ .

أي: مَا الَّذِي أُجِبْتُمْ بِهِ مِنْ قِبَلِ أُمَمِكُمْ؟ هل أُجِبْتُمْ بالإيمان والاتباع، أم أُجِبْتُمْ بالتكذيب ورفض الاتباع؟ .

ولما كانت أُمَمُ الرُّسُلِ أَكْثَرُ مِنَ الَّذِينَ كَانُوا فِي عَصَوْرِهِمْ مُسْتَجِيبِينَ أَوْ مُكَذِّبِينَ، وَكَانَ فِي بَعْضِ الْمُسْتَجِيبِينَ ظَاهِرًا مُنَافِقُونَ بَاطِنًا، كَانَ مِنَ الْحَقِّ أَنْ يَقُولَ الرُّسُلُ لِرَبِّهِمْ:

﴿... لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ (١١٩)﴾ .



النص الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا بِالْكِيلِ إِذَا كَلَّمْتُمْ بِالْقَسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦)﴾ .

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ مَسْئُولًا﴾ : أي: كان مُغْطِي الْعَهْدِ مَسْئُولًا عَنِ الْوَفَاءِ بِهِ، عِنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الدِّينِ .

أُسْنِدَ السُّؤَالِ إِلَى الْعَهْدِ عَلَى طَرِيقَةٍ مَا يُسَمِّيهِ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ «الْمَجَازَ الْعَقْلِيَّ» وَهُوَ إِسْنَادُ الْمَتَكَلَّمِ الْفِعْلِ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ إِلَى غَيْرِ مَا هُوَ لَهُ فِي اعْتِقَادِهِ، لِمَلَابَسَةِ بَيْنَهُمَا مَعَ قَرِينَةٍ صَارِفَةٍ .

والملايسة هنا بين العهد وبين مُعْطِيهِ ظاهرة، إذ هو صاحبُ العهد.

﴿كُلُّ أَوْلِيكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾: أي: كلُّ من السَّمْع والبَصَرِ والفؤاد كَانَ مسؤولاً عن اقتفاء ما ليس له به عِلْم، من دليل عقلي، أو مشاهدة حسيّة، أو خبر صادق يقومُ الدليل العقلي على صدقه.

والمراد صاحب السَّمْع والبَصَرِ والفؤاد، والإنسان في هذه العبارة هو من قبيل المجاز العقلي أيضاً، نظير الإنسان في العبارة السابقة.

وفي مقدمة ما يسأل عنه اقتفاء دين لا يؤيده دليل علمي صحيح.

وقد جاء في هذا النّصّ التصريح بالسؤال عن العهد، والتصريح بالسؤال عن اقتفاء الإنسان ما ليس له به عِلْم، اهتماماً بأمرهما، نظراً إلى احتمال تهاؤن الناس بهما.

أما السؤال عن أكل مال اليتيم بغير حق، والسؤال عن إيفاء الكيل والوزن بالقسط، فهو من باب أولى، ويقاس على كُلِّ ممّا جاء التصريح به، وممّا يُفهمم باللزوم العقلي، أشباههما ونظائرهما في سائر النصوص القرآنية التي لم يأت فيها التصريح بالسؤال عنها.

ويُفهم من هذا أنّ من أجاب الرّسول إلى ما قدّم إليه من عِلْم صحيح مستند إلى خبر صادق، أو مشاهدة حسيّة، أو دليل عقلي آمن به، وأعطاه عهداً بالإسلام والمتابعة كان هذا العهد الإيماني الإسلامي، من العناصر المهمّة التي يُسأل عنها وهو واقف بين يدي الله في موقف الحساب وفضل القضاء يوم الدين.



النص الخامس:

قول الله عز وجل في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿قُرَيْبِكَ لَتَسْتَأْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ .

فأقسم الله عز وجل برُبوبيته، على أنه لا بُدَّ أَنْ يَسْأَلَ يَوْمَ الدِّينِ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، جَمِيعَ الَّذِينَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الْإِمْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِيهَا.

ومعلوم أن السؤال عن الأعمال مقدّمة للمحاسبة عليها، وقد يدخل الله بعض عباده الصالحين الجنة بغير حساب.



النص السادس:

قول الله عز وجل في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

يَعْرِضُ مُشَاهِدًا مِنْ مَّشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ الْخَاصِّ بِالْكَافِرَةِ الْمَكْذِبِينَ:

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ * ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ .

فأبان هذا النص أن المكذبين بيوم الدين، يُخْشَرُونَ وَيُوجَّهُونَ لِسُلُوكِ صِرَاطٍ مَمْتَدٍّ إِلَى جِهَةِ الْجَحِيمِ دَارِ عَذَابِهِمْ، وَيُوقَفُونَ فِي مَكَانٍ قَرِيبٍ مِنْهَا، وَفِي هَذَا الْمَكَانِ تُعْقَدُ مُحَاكَمَاتُهُمْ، وَفِيهِ يُسْأَلُونَ.

ويقال لهم على سبيل التوبيخ: مَا لَكُمْ لَا تَتَنَاصَرُونَ؟ أي: ما هو الشيء الذي ظهر لكم فغَيَّرَ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ ادِّعَاءِ التَّنَاصُرِ فِيمَا بَيْنَكُمْ، إِنَّكُمْ الْيَوْمَ عَاجِزُونَ مُسْتَسْلِمُونَ لَا يَنْصُرُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا.



النص السابع:

قول الله عز وجل في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٢ نزول) بشأن

الذين زَعَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثٌ وَأَنَّهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ:

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ
شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (١٩).

فأبان هذا النص أَنَّ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ
إِنَاثٌ، مَطْلُوبٌ مِنْهُمْ أَنْ يُقَدِّمُوا شَهَادَتَهُمْ بِذَلِكَ، وَهَذِهِ الشَّهَادَةُ يَجِبُ أَنْ
تَكُونَ مُسْتَنَدَةً إِلَى مُشَاهَدَةٍ. لَكِنْ هَذِهِ الْمُشَاهَدَةُ مُتَعَذِّرَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، لِأَنَّ
الْمَلَائِكَةَ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَشْهَدُونَ مِنْهُ شَيْئًا.

فَإِنْ قَالُوا نَشْهَدُ شَهَادَةً مُسْتَنَدَةً إِلَى عِلْمِ شُهُودِيَّ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثٌ،
وَهُمْ كَاذِبُونَ، فَسَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ، فِي صُحُفِ أَعْمَالِهِمْ، وَسَوْفَ يُسْأَلُونَ
عَنْهَا يَوْمَ الدِّينِ لِمَحَاسَبَتِهِمْ عَلَى الْكَذِبِ فِيهَا.

وَيُقَاسُ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ كُلُّ الْقَضَايَا الْغَيْبِيَّةِ، الَّتِي يَدَّعِي الْكَذَّابُونَ فِيهَا
أُمُورًا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهَا، فَإِنَّهَا تُكْتَبُ عَلَيْهِمْ، وَسَوْفَ يُسْأَلُونَ عَنْهَا يَوْمَ الدِّينِ،
وَسَوْفَ يَحَاسِبُونَ عَلَيْهَا فِي مُحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ.

فَلَا يَجُوزُ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَفْتَتِيَ عَلَى عَالَمِ الْغَيْبِ مِنْ عِنْدِهِ، بِتَصَوُّرَاتٍ
يَدَّعِيهَا دُونَ عِلْمٍ مِنْ خَبَرٍ عَنِ الْوَحْيِ صَادِقٍ، أَوْ مُشَاهَدَةٍ حِسِّيَّةٍ، أَوْ دَلِيلٍ
عَقْلِيٍّ.



النص الثامن:

قول الله عز وجل في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) أيضاً،
خطاباً لرسوله محمد ﷺ فَلِقَوْمِهِ مِنَ الْعَرَبِ:

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٣) وَإِنَّكُمْ لَذَكَّرْتُمْ لَكُمْ
وَلِقَوْمَكُمْ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (٤٤).

أي: فَاسْتَمْسِكْ بِالْقُرْآنِ، عَامِلًا بِمَا جَاءَ فِيهِ فِعْلًا أَوْ تَرْكًا، سَالِكًا

صِرَاطَهُ، إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ بِالْعَمَلِ بِمَا جَاءَ فِيهِ، فِي اعْتِقَادِكَ، وَعَمَلِكَ، وَدَعْوَتِكَ.

وإنَّ هذا القرآنَ بما فيه من كمالٍ في معانيه وفي مبانيه، كِتَابٌ مُعْجَزٌ، وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ، أَيُّ: لَشَرَفٍ عَظِيمٍ لَكَ وَلِقَوْمِكَ الْعَرَبِ، إِذْ أُنْزِلَ بَلَّغَتِهِمْ وَلِسَانَهُمْ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَحْفُوظًا، مَذْكُورًا لِلتَّدْبِيرِ وَلِلْعَمَلِ، وَهَذَا الذِّكْرُ لَهُ يَكُونُ فِي الْأَلْسِنَةِ، وَالْأَذْهَانِ، وَالْقُلُوبِ.

وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ يَوْمَ الدِّينِ عَنْهُ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَتَعَلَّقَ هَذَا السُّؤَالُ بِالاستجابة لدعوته، وَالْعَمَلِ بِمَا جَاءَ فِيهِ، وَحِفْظِهِ مِنَ الضِّيَاعِ، وَتَدْبِيرِهِ وَفَهْمِ مَعَانِيهِ.



النَّصُّ التَّاسِعُ:

قول الله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) بشأن المشركين، الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ، فِي أَحْكَامِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ الَّتِي هِيَ مِنْ خَصَائِصِ رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، فَيَجْعَلُونَ لَشُرَكَائِهِمْ مِنَ الْأَصْنَامِ نَصِيبًا مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ، فَيَقُولُونَ: هَذَا لِلَّهِ، وَهَذَا لَشُرَكَائِنَا.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَأْلَاهُ لَشَتْنٌ عَمَّا كُتِبَ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

فأقسم الله تبارك وتعالى باسمه الجليل: ﴿تَأْلَاهُ﴾ على أنهم لا بد أن يسألوا يوم الدين عما كانوا في الحياة الدنيا يفترون على الله من شرك، وما يفترون عليه من أحكام الحلال والحرام، الَّتِي هِيَ مِنْ خَصَائِصِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا.

ويقاس على هذه القضية كُلُّ افتراءٍ في دين الله، بأحكامٍ وتشريعاتٍ دينيةٍ لم يأذن الله بها.



النص العاشر:

قول الله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) أيضاً
خطاباً للناس:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْتَأْذِنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

أي: ولو شاء الله أن يجعلكم أمة واحدة، لسلبكم اختياراتكم الحرّة، فكُنْتُمْ مؤمنين جميعاً، ومطيعين له بالجبر، ولكن تَنْعِدُمْ بذلك حكمة تَكْرِيمِ الإنسان بالإرادة الحرّة، وبجهاز المعرفة وبوسائله للوصول إليها، وتَنْعِدُمْ حِكْمَةً وَضَعَ الإنسان في الحياة الدنيا موضع الامتحان.

لذلك لم يَشَأَ الله ذَلِكَ، بل شَاءَ أَنْ يجعلكم مُخَيَّرِينَ مُتَّحِنِينَ، ومع التخيير والامتحان المستوفي شروطه، لا بُدَّ أَنْ يَضِلَّ مِنْكُمْ ضَالُّونَ باختيارهم الحرّ، وَيَهْتَدِيَ مِنْكُمْ مُهْتَدُونَ باختيارهم الحرّ.

وسوف تُغَرِّضُونَ على محكمة الفضل والعدل الربانية يوم الدين، واللّه رُبُّكُمْ هو الذي يَقْضِي لَكُمْ أَوْ عَلَيْكُمْ، وَيُضِدِّرُ أَحْكَامَهُ الْمُسْتَنْدَةَ إلى فضله، أو المستندة إلى عَدْلِهِ، فَمَنْ كَانَ ضالّاً في الدنيا حَكَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بالضلالة، فأضَلَّهُ، ومن كَانَ مُهْتَدِياً حَكَمَ لَهُ بالهداية، فَهَدَاهُ، وكلُّ ذَلِكَ يَكُونُ بِمَشِيئَتِهِ المطلقة الَّتِي لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَأَنَّ صِفَاتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ متكاملة فيما بينها، لَا تَنَافَرُ فِيهَا وَلَا تَشَاكُسُ، فَلَا تَطْعَى مشيئته المطلقة على حِكْمَتِهِ.

وعند المحاكمة تُغَطُّونَ فُرْصَةَ الدِّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِكُمْ، في محكمة عادلة مستوفية شروط العدل الكامل، ومنها أَنْ تُسْأَلُوا عَنْ أَعْمَالِكُمْ لِإِدَانَتِكُمْ بِهَا، أَوْ الْحُكْمَ لَكُمْ بِالْهَدَايَةِ.

وسؤالكم يَكُونُ مقترناً بكلِّ مقتضيات الإثبات والدفاع:

﴿...وَلْتَسْأَلْ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣):

أي: وأقسم مؤكداً لكم خبري بأنكم لتسألنَّ يومَ الدين، عما كنتم تعملون في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا.



النص الحادي عشر:

قول الله عز وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (٢٣).

أي: بل اتخذ المشركون من دون الله آلهة من الأرض، وهؤلاء الآلهة يُخيون الموتى، فينشرونها من أجدانها؟

إنَّ الإله لا يضلح لأن يكون إلهاً يُعبد ما لم يكن رباً، ولا يكون رباً من لم يكن من قذراته إحياء الموتى.

هذا دليل على نفي الأرباب الآلهة من دون الله.

والدليل الآخر: لو كان يوجد في السماوات والأرض آلهة هي أرباب حقاً، يخلقون ويخيون الموتى، ويتصرفون في أحداث الكون لفسدتا، بمقتضى تعارض إرادات الآلهة الأرباب، حول تصاريف السماوات والأرض.

فسُبْحَانَ رَبِّ الْعَرْشِ الْجَامِعِ لِلْسَمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَمَّا يَصِفُ المشركون، من جعل آلهة أرباب شركاء لله جلَّ جلاله وعظم سلطانه، وهي ليست في الحقيقة أرباباً فلا إلهية لها لزوماً عقلياً، وليس لها مشاركة لله الرب الإله في شيء.

إِنَّ الرَّبَّ إِلَٰهَهُ مِنْ صِفَاتِهِ أَنَّهُ لَا شَيْءَ قَوْفَهُ وَلَا شَيْءَ فِي مَنْزِلَتِهِ، حَتَّى يَسْأَلَهُ عَنْ أَفْعَالِهِ وَيُحَاسِبُهُ عَلَيْهَا.

بِخِلَاف مَنْ هُمْ دُونَ اللَّهِ، فَكُلُّهُمْ مَخْلُوقُونَ لَهُ، وَهُوَ رَبُّهُمْ، وَهُمْ عِبَادُهُ، وَهُمْ مَسْئُولُونَ تَجَاهَهُ عَنْ أَفْعَالِهِمْ، إِذَا كَانَتْ لَهُمْ إِرَادَاتٌ حُرَّةٌ يَخْتَارُونَ بِهَا مَا يَشَاءُونَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ.

فَلَا يَضِلُّ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي يَتَّخِذُهَا الْمُشْرِكُونَ، مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ، وَالصُّلَحَاءِ، وَمَنْ تَرْمِزُ إِلَيْهِمُ الْأَوْثَانُ، كُلُّهُمْ يُسْأَلُونَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَنْ أَفْعَالِهِمْ.

فَعَمَّمَ هَذَا النَّصَّ بَبَيَانِ أَنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ فِعْلٌ اخْتِيَارِيٌّ، هُوَ مُعَرَّضٌ لِلسُّؤَالِ فِي مُحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ، حَتَّى الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ، وَلِهَذَا تَعَرَّضَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلسُّؤَالِ الَّذِي أَبَانَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) بقوله:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾.



النص الثاني عشر:

قول الله عز وجل في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

في هذا النص حكاية طريقة من الإقناع اتَّخَذَهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لِإِضْلالِ

الَّذِينَ آمَنُوا، وَلَجَعَلِهِمْ يَتَّبِعُونَ سَبِيلَهُمْ فِي الشَّرْكِ وَالْوَيْبَةِ وَالْجَاهِلِيَّةِ وَالضَّلَالَةِ الْعَمِيَاءِ، فزعموا لهم أَنَّهُمْ يَلْتَزِمُونَ بِتَحْمِلِ خَطَايَاهُمْ عَنْهُمْ مُلْزِمِينَ أَنْفُسَهُمْ بِذَلِكَ، إِذَا كَانَ اتِّبَاعُهُمْ سَبِيلَهُمْ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحْمَلَهُمْ خَطَايَا عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ بِادِّعَائِهِمْ هَذَا الْإِلْزَامَ لِأَنْفُسِهِمْ.

إِنَّهُمْ يَوْمَ الْحِسَابِ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزُ الْجَزَاءِ، يَتَبَرَّؤُونَ مِنْهُمْ، وَيَتَهَرَّبُونَ مِنْ تَحْمِيلِ شَيْءٍ مِنْ خَطَايَاهُمْ، وَخَطَايَا كُلِّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُمْ عَلَى ضَلَالِهِمْ، وَهَذَا حَالُ كُلِّ الْمَثْبُوعِينَ وَالْقَادَةِ الْمُضْلِينَ.

وقاعدة الجزاء عند الله أَنْ لَا تَزَرَ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى. وَلَكِنَّ الْمُضِلَّ يَحْمِلُ أَثْقَالَ أَوْزَارِهِ الْخَاصَّةِ بِهِ، وَأَثْقَالَ أَوْزَارِ إِضْلَالِهِ لِلآخَرِينَ، وَهَذَا مِنْ كَسْبِهِ، لَكِنَّهُ لَا يَحْمِلُ شَيْئاً مِنْ أَوْزَارِ ضَلَالِ الْآخَرِينَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لَهُ، لِأَنَّ اسْتِجَابَتَهُمْ لَهُ قَدْ كَانَتْ مِنْ كَسْبِهِمْ لَا مِنْ كَسْبِهِ، فَهِيَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ لَا مِنْ وَزَرِهِ.

وقد أقسم الله على هذا بقوله:

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

ولمَّا كَانَتْ عِقَائِدُهُمُ الْكُفْرِيَّةَ، وَأَحْكَامُهُمْ فِي الْعِبَادَاتِ فِي شُؤُونِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، هِيَ مِنْ قَبِيلِ الْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ سَوْفَ يُسْأَلُونَ عَنْهَا، وَسَوْفَ يَحَاسِبُونَ عَلَيْهَا وَيَجَازُونَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُؤَكِّدًا بِالْقَسَمِ وَبِنُونِ التَّوَكِيدِ الثَّقِيلَةِ.

﴿... وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٣).



النص الثالث عشر:

قول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً

لرسوله محمد ﷺ:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ١١٩﴾ .

فأبان الله عز وجل لرسوله أنه ليس مكلفاً تحويل الناس من الكفر إلى الإيمان والإسلام، وأنّ وظيفته قاصرة على التبليغ والنصح، وبيان ما أنزل الله إليهم، والتذكير به، ولهذا فهو لا يُسأل عن أصحاب الجحيم، ولا يُقال له: لِمَ لَمْ تَعْمَلْ على تحويلهم بالإكراه، ليكونوا من أصحاب الجنة.



النص الرابع عشر:

وقال الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً، خطاباً لليهود بشأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأنساب، في موضعين منها:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٢٤﴾ .

والموضع الآخر هو الآية (١٤١).

أي: إنّ مسؤولية كل إنسان هي مسؤولية شخصية بينه وبين ربه، فهو يُسأل عن إيمانه وإسلامه، وعمله، ولا يُسأل عن غيره ولو كان أقرب الأقربين إليه.



النص الخامس عشر:

قول الله عز وجل في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ٧﴾ لَيْسَ لِلصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ٨﴾ .

أبان هذا النص أن الله عز وجل أخذ من النبيين الميثاق، على أن يُبَلِّغُوا أُمَمَهُمْ مَا أَمَرَهُمْ بِتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ، مما أنزل إليهم وشدد الميثاق الغليظ على أولي العزم منهم: محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، عليهم الصلاة والسلام.

ومع أخذ الميثاق على النبيين، ومع كونهم صادقين، فإن الله عز وجل سوف يسألهم يوم الدين، عن تبليغهم ما أمرهم بتبليغهِ للناس، وعن صدقهم في كل صغيرة وكبيرة بلغوها، مُقَدِّمَةً لمحاكمة الَّذِينَ تَبَلَّغُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لِلنَّاسِ، فَكَفَرُوا بِهِ وَكَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ.

ومن أجل هذا جاء في هذا النص قول الله عز وجل مبيناً سؤال الرسل الصادقين عن قيامهم بمهماتهم، وعاقبة الَّذِينَ كَفَرُوا بما جاءهم به بلاغاً عن ربهم، وهذه العاقبة هي العذاب الأليم:

﴿لَيْسَ لَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٨).



النص السادس عشر:

قول الله عز وجل في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) أيضاً، بشأن المنافقين وَنَقَضِهِمْ مَا عَاهَدُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ عَلَيْهِ أَنْ لَا يُؤْلُوا الْأَذْيَارَ عِنْدَ الْقِتَالِ:

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلُونَ إِلَّا نَذَرٌ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ (١٥).

أُسْنِدَتِ المسؤولية للعهد وهي لمن أُعْطِيَ العهد، على طريقة المجاز العقلي، وقد سبق تحليل نظير هذه العبارة في النص الرابع من هذا الملحق.

وقد أبان هذا النص أن من عاهد الله، ولو عن طريق معاهدة الرسول

أو قائد المؤمنين، على أمرٍ من أمور الخير، يصيرُ واجباً عليه، ولو لم يكن واجباً عليه قبل المعاهدة، ولذلك فهو يُسألُ عنه يومَ الدين في محكمة العدل الربانية إذا لم يف به .

إشكالٌ وحلهُ:

أما قولُ الله عز وجل في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿إِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَيَأْتِي السَّائِغَ مَعِينًا ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾﴾

فهو بيانٌ بشأنِ إهلاكِ الناس عند انتهاءِ نظامِ الحياة الدنيا، وقد ثبت أن القيامة تقومُ وليس في الأرض من يقولُ الله، وعند إهلاكهم بأحداثِ يومِ القيامة لا يُسألُ عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌّ.

فَنَفِيُ السُّؤَالِ هُنَا لَا يَتَعَلَّقُ بِالسُّؤَالِ الَّذِي يَكُونُ مُقَدِّمَةً لِلْحِسَابِ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، تَمْهيداً لِتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ.

سؤال الشهود يوم الدين

إنَّ سؤالَ الرُّسُلِ يومَ الدين يكون لتقديمِ شهاداتهم، بأنهم بلَّغُوا رَسَالَاتِ رَبِّهِمْ، وَأَدَّوْا أَمَانَاتِهِمْ، وَنَصَحُوا لَأُمَمِهِمْ، وَبَيَّنُّوا لَهُمْ، وَتَابَعُوا تَذَكِيرَهُمْ، على مقدار استطاعتهم.

وكذلك سؤالُ الشُّهُودِ من حملةِ رَسَالَاتِ الرُّسُلِ وَتَبْلِيغِهَا لِلنَّاسِ فِي عُصُورِهِمْ.

هذه القضية قد جاء بيانها من أطرافها في عدّة نصوص قرآنية، أعرضها بشيء من التدبر فيما يلي:

النص الأول:

قول الله عز وجل في سورة (المزمل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول) خطاباً للناس:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ﴾ (١٥)

فوصف الله جلَّ جلاله رسوله محمداً ﷺ في هذه الآية بأنه شاهد، أي: هو مُبلِّغ دِين رَبِّهِ لِمَنْ لَقِيَهُ مِنَ الْأُمَّةِ الَّتِي بَعَثَهُ اللَّهُ لِتَبْلِيغِهَا دِينَ رَبِّهَا، وهم كُلُّ النَّاسِ بعد بعثته، إذ هُمْ أُمَّةٌ بِلَاغِهِ، فقد أرسله الله للناس كافة، وإذ قد بَلَغَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ رِسَالَةٍ، وأدَّى الْأَمَانَةَ، ونصح الْأُمَّةَ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَاهِدًا عَلَى النَّاسِ بِمَا أَوْصَلَهُ إِلَيْهِمْ مِنْ بَلَاغٍ أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ.

وأبان الله عز وجل في هذه الآية، أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ شَاهِدًا عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَعَلَىٰ آلِهِ وَعَلَىٰ كُلِّ مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَتُهُ فِي زَمَانِهِ، واقتصر النص على فِرْعَوْنَ، لِأَنَّهُ كَانَ كُلَّ قَوْمِهِ فِي مِضْرٍ، لَا رَأْيَ لَهُمْ إِلَّا رَأْيُهُ، وَلَا دِينَ لَهُمْ إِلَّا مَا يَخْتَارُهُ لَهُمْ، وَيَفْرِضُهُ عَلَيْهِمْ.



النص الثاني:

قول الله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩)

فَدَلَّ هَذَا النَّصُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ قَدْ بَعَثَ اللَّهُ فِيهَا رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهَا، فَهُوَ يَشْهَدُ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِأَنَّهُ قَدْ بَلَغَهَا رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ أُمَّتَهُ، وَبَيَّنَّ لَهَا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْهَا.

وخاطب الله عز وجل في هذا النص رسوله محمداً ﷺ بقوله له:

﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ ۖ﴾.

أي: وجئنا بك شهيداً على أمّتك، وهم جميع الناس بعد بعثتك، باعتبارهم أمةً بلاغك، وشهادته تكون على من بلغهم مباشرة في حياته، والدعاة إلى الله من أمته يشهدون على من بلغوهم، فشهاداتهم تابعات لشهادته.

أما أمة الإجابة فهم من آمن بالرسول ﷺ، وأسلم، وأعلن قبوله واتباعه لما أنزل الله إليه ليبلغه للناس.



النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً للذين آمنوا بمحمد ﷺ واتبعوه:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾ (١٤٣).

لما كان أتباع الرسول المؤمنين به مكلفين أن يبلغوا ما تلقوه عن الرسول من بلاغات عن ربه، ليعمّ بلاغ ما أنزل الله للناس جميع الناس، خاطب الله عز وجل أمة محمد الذين أجابوا دعوته بقوله:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ...﴾.

أي: جعلناكم أمةً عدولاً بالنظر إلى مجموعكم، لا إلى جميعكم ولا إلى كل فرد منكم، لتبلغ الدين للناس، محظوظاً كما بلغكم الرسول إياه، ثم لئذعوا يوم القيامة حتى تؤدوا الشهادة على الناس، بأنكم بلغتموهم ما أنزل الله إليهم.

وَقَدْ دَلَّتْ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى عِبَارَةٌ: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ :
 أي: فَلَمَّا أَنَّ الرَّسُولَ يَشْهَدُ عَلَى مَنْ تَبَلَّغَ رِسَالَتَهُ مِنْ أُمَّتِهِ، بَأَنَّهُ بَلَّغَهُمْ
 رِسَالَةَ رَبِّهِ، فَأَمَّةُ الْإِجَابَةِ مَكْلَفَةٌ أَنْ تُبَلَّغَ، وَسَوْفَ يُدْعَى الْمَبْلُغُونَ مِنْ هَذِهِ
 الْأُمَّةِ إِلَى الشَّهَادَةِ يَوْمَ الدِّينِ عَلَى مَنْ بَلَّغُوهُمْ مِنَ النَّاسِ.



النص الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) خطاباً
 لرسوله محمد ﷺ:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٤) ؟
 روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
 «أَقْرَأْ عَلَيَّ».

فقلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْرَأْ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أَنْزِلُ؟!

قال: «نَعَمْ، إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي».

فقرأت سورة (النساء) حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا
 مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٤) ؟
 فقال: «حَسْبُكَ الْآنَ» فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرَفَانِ.



النص الخامس:

قول الله عز وجل في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ

لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٨﴾

فأبان هذا النص أن الله عز وجل قد اجتنبى الأمة الإسلامية، من دون سائر الأمم التي سبقتها، ليبلغوا الناس ما أنزل الله إليهم، وليكونوا شهداء على الناس بهذا التبليغ يوم القيامة، ولا سيما من كان منهم من سلالة إبراهيم عليه السلام، إذ قال الله عز وجل فيه:

[مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ].

ومعلوم أن العرب المستغربة هم من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وكذلك بنو إسرائيل، وشعوب أخرى هم من سلالة إبراهيم عليه السلام في بلاد الشام وغيرها، فمن آمن بمحمد ﷺ منهم وأتبعه، كان مرشحا لأن يكون من الذين اجتباهم الله لحمل رسالة الرسول وتبليغها للناس.



النص السادس:

قول الله عز وجل في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) خطاباً لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴿٤٦﴾

﴿وَسِرَاجًا﴾: أي: كالشمس الممددة بالحرارة والضياء، الذي ينور الكواكب.

﴿مُنِيرًا﴾: مِنْ فعل: «أَنَارَ» المتعدي، والمعنى أَنَّهُ يُمِدُّ مِنْ لَقِيَّهِ مُؤْمِنًا بِهِ مُتَّبِعًا لِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ بِثَوْرٍ مِنْ ضِيَائِهِ، كَمَا تُمِدُّ الشَّمْسُ الْقَمَرَ بالضياء.



النص السابع:

قول الله عز وجل في سورة (الفتح/ ٤٨/ مصحف/ ١١١/ نزول) خطاباً لرسوله وللتاس بعد بَعَثْتِهِ:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾: أي: وَتَعِينُوهُ وَتَقْوُوهُ وَتَنْصُرُوهُ.

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾: أي: وَتُعَظِّمُوهُ وَتُبْجِلُوهُ، وَتَتَّقُوا عَلَيْهِ.

﴿بُكْرَةً﴾: الْبُكْرَةُ، أَوَّلُ النَّهَارِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ.

﴿وَأَصِيلًا﴾: الْأَصِيلُ، هُوَ الْوَقْتُ الَّذِي يَكُونُ مِنْ حِينَ اصْفَرَارِ الشَّمْسِ إِلَى غُرُوبِهَا.

وَتَسْبِيحُ اللَّهِ تَنْزِيهِهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِكَمَالِهِ، وَالْعِبَارَةُ الْمُخْتَارَةُ لِلتَّسْبِيحِ: «سُبْحَانَ اللَّهِ».



مما جاء في السنة حول السؤال يوم الدين

(١) روى مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ، عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَزْبَعٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ

أَفَنَاهُ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَا عَمِلَ فِيهِ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟».

«لَا تَزُولُ قَدَمًا عَبْدٌ»: أي: لا تَنْتَقِلُ قَدَمَاهُ عَنْ مَوْقِفِ السُّؤَالِ والمحاسبة.

(٢) وجاء في خُطْبَةِ خُطْبِهَا الرَّسُول ﷺ في حُجَّةِ الْوَدَاعِ يَوْمَ النُّحْرِ، فيما رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ، أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ فِيهَا: «وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ».

(٣) وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُخْرِزٍ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ ابْنَ عَمَرَ، كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟

قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:

«يُذْنِي الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ^(١)، فَيَقَرُّهُ بِذُنُوبِهِ: تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ يَقُولُ: أَعْرِفُ، يَقُولُ: رَبِّ أَعْرِفُ (مَرَّتَيْنِ). فيقول: «سَتَرْتُهَا فِي الدُّنْيَا، وَأَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» ثُمَّ تُطَوَّى صَحِيفَةُ حَسَنَاتِهِ.

وَأَمَّا الْآخَرُونَ - أَوِ الْكُفَّارُ - فَيَنَادَى عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ».

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُخْرِزٍ أَيْضًا: قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لَابْنِ عَمَرَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟. قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ:

«يُذْنِي الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ، حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيَقَرُّهُ بِذُنُوبِهِ، فيقول: هَلْ تَعْرِفُ؟ فيقول: أَنِّي رَبِّ أَعْرِفُ. - قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى صَحِيفَةُ حَسَنَاتِهِ،

(١) كَنَفُهُ: أي: سِتْرُهُ.

وَأَمَّا الْكَافِرُونَ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَىٰ بِهِمْ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ.

(٤) وروى مسلم عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقَالُ: أَعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَتُخَبَأُ كِبَارُهَا، فَيَقَالُ لَهُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، وَكَذَا وَكَذَا، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. قَالَ: وَهُوَ يَقْرَأُ لَيْسَ يُتَكْرَرُ.

قَالَ: وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنَ الْكِبَائِرِ أَنْ تَجِيءَ.

قال: فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا قَالَ: أَعْطُوهُ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً.

فيقول حِينَ طَمِعَ: يَا رَبِّ إِنَّ لِي ذُنُوبًا مَا رَأَيْتُهَا هَا هُنَا.

قال: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ^(١)، ثُمَّ تَلَا: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾^(٢).

(٥) وذكر القرطبي^(٣) في التذكرة، قال: وَخَرَجَ أَبُو الْقَاسِمِ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْخُثَلِي، فِي كِتَابِ الدِّيْبَاجِ لَهُ: حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَيَّارٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ الْجُونِي، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ:

«يُذْنِي اللَّهُ الْعَبْدَ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيَسْتُرُهُ مِنَ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا، وَيَذْفَعُ إِلَيْهِ كِتَابَهُ فِي ذَلِكَ السَّتْرِ، فَيَقُولُ لَهُ: اقْرَأْ يَا ابْنَ آدَمَ كِتَابَكَ.

قال: فَيَمُرُّ بِالْحَسَنَةِ فَيَبْيَضُ لَهَا وَجْهَهُ، وَيَمُرُّ بِالسَّيِّئَةِ فَيَسْوَدُ لَهَا وَجْهَهُ.

(١) النواجذ: الأضراس، مفردها «ناجد».

(٢) من الآية (٧٠) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

(٣) هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري.

قال: فيقول الله تَعَالَى له: أَتَعْرِفُ يَا عَبْدِي؟

قال: فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبُّ أَعْرِفُ.

قال: فَيَقُولُ: إِنِّي أَعْرِفُ بِهَا مِنْكَ، قَدْ عَفَرْتُهَا لَكَ.

قال: فَلَا تَزَالُ حَسَنَةً تُقْبَلُ فَيَسْجُدُ، وَسَيِّئَةً تُغْفَرُ فَيَسْجُدُ، فَلَا يَرَى الْخَلَائِقُ مِنْهُ إِلَّا ذَلِكَ، حِينَ يُنَادِي الْخَلَائِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا: طُوبَى لِهَذَا الْعَبْدِ الَّذِي لَمْ يَعْصِ قَطُّ، وَلَا يَذْرُونَ مَا قَدْ لَقِيَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى مِمَّا قَدْ وَفَّقَهُ عَلَيْهِ.

(٦) وَيَدْخُلُ فِيمَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْإِنْسَانُ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ يَوْمَ الدِّينِ، رَعِيَّتُهُ الَّتِي كَانَ يَرْعَاهَا فِي الدُّنْيَا، وَكَانَ يُطَالِبُ نَحْوَهَا بِوَاجِبَاتِ حِفْظِ وَرِعَايَةِ، أَوْ تَرْبِيَةِ وَتَوْجِيهِ، أَوْ نُصْحٍ وَمَعُونَةٍ، أَوْ نَفَقَةٍ وَخِدْمَةٍ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

أَي: فَإِنْ قَصُرَ، أَوْ خَانَ الْأَمَانَةَ، أَوْ هَضَمَ الْحَقُوقَ الَّتِي تَحِبُّ عَلَيْهِ نَحْوَ رَعِيَّتِهِ، حُوسِبَ عَلَى ذَلِكَ، وَكَانَ غُرْضُهُ لِلْجَزَاءِ بِالْعَدْلِ عَلَى مِقْدَارِ مَا اكْتَسَبَ مِنْ إِيَّاهُمْ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَكُونُ فِي مُحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الدِّينِ، يَوْمَ الْجَزَاءِ الْأَكْبَرِ.

(٧) وَثَبِتَ فِي الصَّحِيحِ، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُكَلِّمُ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، وَظَاهِرٌ أَنَّ هَذَا يَكُونُ عِنْدَ سُؤَالِهِ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ.

فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكَلِّمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

وَأَكْتَفَى بِهَذَا الْقَدْرِ حَوْلَ السُّؤَالِ فِي مُحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الدِّينِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى فَتْحِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَمَعُونَتِهِ.



(١٩)

الملحق الثالث

الوزن في محكمة العدل الربّانية يوم الدين

من عناصر محكمة الفضل والعدل الربّانية، الَّتِي تُعَقَّدُ لِلْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ يَوْمَ الدِّينِ، الْوِزْنُ بِالْمَوَازِينِ الْكَاشِفَةِ الضَّابِطَةِ لِلْمَقَادِيرِ عَلَى مَا سَبَقَ شَرْحُهُ وَتَفْصِيلُهُ لَدَى تَدَبُّرِ الْآيَتَيْنِ (٨ - ٩) مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ.

وَاسْتِكْمَالًا لِلْبَحْثِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ، أَسْتَعْرِضُ بِشَيْءٍ مِنَ التَّدَبُّرِ فِي هَذَا الْمَلْحَقِ، التَّنُصُّصَ الْقُرْآنِيَّةَ الْوَارِدَةَ فِي سُورَةِ الْقُرْآنِ كُلِّهِ بِشَأْنِ هَذَا الْوِزْنِ.

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (القارعة/ ١٠١ مصحف/ ٣٠ نزول):

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٦) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٧) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٨) ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ (٩) ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ﴾ (١٠) ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ (١١) ﴿.

سبق تدبر هذا النص لدى تدبر سورة (القارعة) فلا حاجة إلى التوسع.

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٦) : أي: فأما ثقلت أعماله الموزونة بموازين الرحمن يوم الدين، إذ كانت إيجابية الضغط، بسبب ما فيها من قيمة ذاتٍ ثقل عند الله عز وجل، في موقف الحساب وفضل القضاء يوم الدين.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٧) : أي: فهو في حياة راضية بما تتقلب فيه من نعيم مقيم، في جنات النعيم.

وصفت في هذه العبارة العيشة بأنها راضية، مع أن الراضي هو صاحب هذه العيشة، على طريقة ما يسميه البيانيون المجاز العقلي.

أو في عيشة ذات رضا، بمعنى أن صاحبها يرضاها رضاء تاماً، فلا يطلب زائداً على ما هو مُنعم به فيها.

أو في عيشة نفس راضية بما تتقلب فيه من نعيم مقيم، على تقدير مضاف محذوف هو لفظ «نفس».

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٨) : أي: وأما من خفت أعماله الموزونة بموازين الرحمن يوم الدين، إذ كانت سالبة الضغط، لكفره وسوء أعماله في الدنيا، فلم تسجل إشارات الموازين له ثقلاً ما، لعملٍ إردائيٍّ صالح، مقبولٍ عند الله.

﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ (٩) :

﴿فَأَمَّهُ﴾: أي: مُسْتَقَرُّهُ الَّذِي سَوْفَ يَصِيرُ إِلَيْهِ يَوْمَ الدِّينِ، وَسَوْفَ يَسْتَقَرُّ فِيهِ. وَالْمَكَانُ الَّذِي يَضُمُّهُ وَيَجْمَعُهُ مَعَ أَمْثَالِهِ.

أُمُّ الشَّيْءِ فِي اللُّغَةِ: أَضْلُهُ. وَأُمُّ رَأْسِ الْإِنْسَانِ دِمَاغُهُ. وَأُمُّ الدِّمَاغِ، الْجِلْدَةُ الَّتِي تَجْمَعُ دِمَاغَهُ.

قَالَ ابْنُ شُمَيْلٍ: الْأُمُّ لِكُلِّ شَيْءٍ الْمَجْمَعُ وَالْمَضْمَنُ.

﴿هَكَوِيَّةٌ﴾: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، سُمِّيَتْ بِهَذَا الْاسْمِ، لِأَنَّهَا ذَاتُ عُمُقٍ سَحِيقٍ يَهْوِي السَّاقِطُ فِيهِ.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ ⑩ نَارٌ حَامِيَةٌ ⑪ ﴿فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ بَيَانٌ شَارِحٌ لِلْمُرَادِ مِنْ كَلِمَةِ ﴿هَكَوِيَّةٌ﴾: أَي: هِيَ ذَاتُ نَارٍ حَامِيَةٍ. وَسَبَقَ فِي مَوَاضِعٍ مُتَعَدِّدَةٍ شَرْحَ أَمْثَالِ عِبَارَةِ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ ⑫.﴾

وَيَكْفِي لِاسْتِحْقَاقِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ مَصِيرُهُ وَمُسْتَقَرُّهُ النَّارُ الْحَامِيَةُ يَوْمَ الدِّينِ، أَنْ تَخَفَّ مَوَازِينُهُ، فَلَا يُوجَدَ فِيهَا مَا يُشِيرُ إِلَى مَقْدَارٍ مَا مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ مَقْبُولٍ عِنْدَ اللَّهِ، فِي قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ، أَوْ آثَارِ عَمَلَيْهِمَا فِي جَسَدِهِ، بَلْ طَاشَتْ كُلُّ مَوَازِينِهِ بِمَا فِيهَا مِنْ قُوَى سَالِبَةٍ شَائِلَةٍ، فَسَجَلَتْ عَلَيْهِ كُفْرًا وَأَعْمَالًا سَيِّئَةً، هِيَ مِنْ آثَارِ الْكُفْرِ وَثَمَرَاتِهِ الْخَبِيثَاتِ.



النص الثاني:

قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَالْوِزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ⑧ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ ⑨.

وقد سبق تدبر هذا النص باستفاضة في موضعه من السورة، ونلاحظ أن الله عز وجل أضاف في هذا النص، بَيَانًا أَنَّ الْوِزْنَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ

وَزُنْ حَقًّا، لَا ظُلْمَ فِيهِ وَلَا جَوْرَ، لَا طُغْيَانَ فِيهِ وَلَا نَقْصَ، بَلْ هُوَ وَزْنٌ مُطَابِقٌ لِلْمُوزُونِ انْطِبَاقًا تَامًا، لَا يَزِيدُ عَلَيْهِ وَلَا يَنْقُصُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، وَهَذَا مَعْنَى كَوْنِهِ حَقًّا.

الحَقُّ مِنَ الْقَوْلِ هُوَ الْقَوْلُ الْمُطَابِقُ لِلْوَاقِعِ، وَالْحَقُّ مِنَ الْوِزْنِ هُوَ الْمُطَابِقُ لِقِيَمَةِ الْمُوزُونِ تَامًا، وَالْحُكْمُ الْحَقُّ هُوَ الْمُطَابِقُ لَوَاقِعِ حَالِ الْمَحْكُومِ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ، وَهَكَذَا.

وَنَفْهَمُ مِنْ تَغْرِيفِ طَرَفِي الْإِسْنَادِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ مَعْنَى الْحَضَرِ، أَي: لَا يَوْجَدُ وَزْنٌ هُوَ حَقٌّ تَامًا لِأَعْمَالِ الْعِبَادِ، إِلَّا وَزْنٌ مُحْكَمَةُ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الدِّينِ.

وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ وَزْنَ الْحُكَّامِ وَالْقَضَاةِ لِأَعْمَالِ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا، مُقَدِّمَةٌ لِإِصْدَارِ أَحْكَامِ الْعَدْلِ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا هُوَ وَزْنٌ تَقْرِيبِيٌّ مَهْمَا تَحَرَّوْا الْحَقِيقَةَ، وَابْتَغَوْا كِمَالَ الْعَدْلِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَخْلُوقِينَ لَا يَمْلِكُونَ الْمَوَازِينَ الَّتِي تُقَدَّرُ قِيَمَ أَعْمَالِ النَّاسِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَيَحْكُمُونَ بِحَسَبِ مَا يَظْهَرُ لَهُمْ وَيَتَرَجَّحُ لَدَيْنِهِمْ.

أَمَّا الْجَزَاءُ بَعْدَ عَمَلِيَّاتِ الْإِحْصَاءِ وَالْوِزْنِ وَالْمَحَاسِبَةِ، فَيَكُونُ طَبَقًا لِمَبْدَأِي الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ.

فَالثَّوَابُ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ أَذْنَاهُ يَصِلُ إِلَى عَشْرَةِ أَضْعَافِ قِيَمَةِ الْحَسَنَاتِ الْوِزْنِيَّةِ، وَيَزِيدُ بِفَضْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى سَبْعِينَ ضِعْفًا، ثُمَّ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، فَأَضْعَافٌ كَثِيرَةٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ جَلَّ جَلَّالُهُ، وَعَظُمَ جُودُهُ وَإِحْسَانُهُ، وَفَضْلُهُ وَامْتِنَانُهُ.

وَالْعِقَابُ عَلَى الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ لَا يَزِيدُ أَعْلَاهُ عَلَى الْمَجَازَاةِ بِالْمِثْلِ دُونَ زِيَادَةِ شَيْءٍ عَلَى مَا يُعَادِلُ السَّيِّئَةَ وَيُسَاوِيهَا، وَقَدْ يَغْفُو اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَا يُظْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَحَدٌ، بِصَغِيرٍ وَلَا كَبِيرٍ.

وَأَضَافَ هَذَا النَّصُّ أَيْضاً بَيَاناً أَنَّ مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ أَفْلَحَ، أَي: ظَفِرَ
بِمَا يُرْضِيهِ مِنْ خَيْرِ الْآخِرَةِ، وَفَازَ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ.

لفظ [مَنْ] فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ اسْمٌ مُوصُولٌ يَضْلُحُ لِأَنَّهُ يُسْتَعْمَلُ فِي الْوَاحِدِ فَأَكْثَرُ مِنَ الْعُقُلَاءِ، وَفِي حَالَةٍ اسْتِعْمَالِهِ مُرَاداً بِهِ الْجَمَاعَةُ، يَجُوزُ إِعَادَةُ الضَّمِيرِ عَلَيْهِ بِالْمُفْرَدِ، مُرَاعَاةً لِلْقِظَةِ، وَيَجُوزُ إِعَادَةُ الضَّمِيرِ عَلَيْهِ بِضَمِيرِ الْجَمْعِ، أَوْ بِإِشَارَةِ الْجَمَاعَةِ، مُرَاعَاةً لِمَعْنَاهُ.

وَقَدْ جَاءَتْ هُنَا مُرَاعَاةُ الْمُفْرَدِ فِي الصَّلَةِ، وَمُرَاعَاةُ الْجَمْعِ فِي الْخَبَرِ، وَالْحِكْمَةُ مِنْ هَذَا الْإِجْرَاءِ أَنَّ الْوِزْنَ وَالْحِسَابَ يَكُونُ لِكُلِّ فَرْدٍ مُسْتَقِلاً عَنْ غَيْرِهِ، أَمَّا الْجِزَاءُ فَيَكُونُ لِلْجَمِيعِ، فَكَانَ مِنَ الْإِيجَازِ الْبَدِيعِ صِيَاغَةُ الْمُبْتَدَأِ بِالْمُفْرَدِ، وَصِيَاغَةُ الْخَبَرِ بِالْجَمْعِ، وَجَاءَتْ الْفَاءُ فِي جُمْلَةِ الْخَبَرِ لِمَا فِي الْمُبْتَدَأِ مِنْ رَائِحَةِ الشَّرْطِ.

وَجَاءَتْ الْإِشَارَةُ إِلَى الْمَفْلُحِينَ بِإِشَارَةِ الْبَعِيدِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى ارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِمْ، وَجَاءَتْ الْإِشَارَةُ إِلَى الْخَاسِرِينَ بِإِشَارَةِ الْبَعِيدِ أَيْضاً، وَلَكِنْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى بُعْدِ تَسْفُلِهِمُ الْمُنْحَطِّ فِي الدَّرَكَاتِ.

وَأَضَافَ هَذَا النَّصُّ أَيْضاً أَنَّ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ خَسِرَ نَفْسَهُ، إِذْ صَارَ أَمْرُهُ إِلَى الْعَذَابِ الدَّائِمِ الْأَبَدِيِّ فِي جَهَنَّمَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ خَسِرَ نَفْسَهُ فَقَدْ خَسِرَ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ حِظٌّ فِي شَيْءٍ.

وَأَضَافَ هَذَا النَّصُّ أَيْضاً أَنَّ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، إِنَّمَا خَسِرُوا بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ بَعْدَ اتِّبَاعِهِمْ آيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ لِلنَّاسِ، لِيَتَّبِعُوهَا، وَيَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاهَا.

فَلَيْسَ بَيْنَ النَّصِّينِ تَكَرُّارٌ تَطَابُقِيٌّ، وَإِنَّمَا هُمَا مُتَكَامِلَانِ.



النص الثالث :

قول الله عز وجل في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول): ضِمنَ حكاية وصايا لقمانَ المؤمن الحكيم الرباني لابنه، ناهياً له عن الشرك، وأمرأ له بإقامة الصلاة، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى غير ذلك من وصايا الدين الحق.

﴿يَبْقَىٰ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾.

إن ذكر الله عز وجل لوصايا لقمان لابنه في كتابه، مع دمج بغض وصاياه سبحانه أثناءها، يتضمن دلالة على أنها هي في الأصل وصايا ربانية، مما أنزله الله في الكتب الأولى، أو أوحى به إلى بعض رُسُله.

وقد دلت هذه الآية على أن لقمان الحكيم قال في وصاياه لابنه: يَا بُنَيَّ متلطفاً به ناصحاً، إنها، أي: الكائنة في الوجود الكوني كله وإن كانت كائنة صغيرة جداً، ومهما كانت صغيرة، ولو مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ، أي: مقدار وزن حبة من خردل، أضغر حبات البزور التي يستثبتها الناس، فتكن في جوف صخرة ما ولو في باطن جبل عظيم، أو تكن في السماوات وأبعادها، أو في الأرض وأعماقها، وأراد الله عز وجل أن يأتي بها ويخضرها فإنه جل جلاله، وعظمت قدرته، وشمل علمه كل شيء، يأت بها ويخضرها، لأن الله عز وجل لطيف بقدرته وعلمه، المحيطين بكل شيء في الوجود، خبير بإحضار ما يشاء متى شاء من أي مكان في الوجود كله.

هذا البيان بمثابة كناية تحذيرية، يحذر بها لقمان ابنه من الوقوع في المعاصي صغارها وكبارها، ويبين له فيها أن الله محيط بكل شيء علماً، وقدير على الإتيان بكل صغير وكبير من أي مكان في السماوات والأرض.

وآثر لقمانُ التفصيل في ذكر الأمثلة، لأنَّ هذا التفصيل أكثر تأثيراً في النفس من ذكرِ الكلياتِ العامة.

فالله سبحانه وتعالى خبير بعباده يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُونَ عن خِبرَةٍ بما يَقْصِدُونَ من أعمالهم التي يُكْرِرُونَهَا، إذ هو سبحانه حاضرٌ غَيْرُ غَائِبٍ، وَعَلِيمٌ بِصِفَاتِ عِبَادِهِ، وَخَبِيرٌ بِذَوَاتِ نفوسهم.



التص الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول): خطاباً لرسوله محمد ﷺ، فلكلِّ دَاعٍ إِلَى الله من حَمَلَةٍ رسالته من أمته:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٢٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٢٤ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فُحِطَتْ لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۝١٢٥ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝١٢٦﴾.

﴿ضَلَّ سَعِيَّهُمْ﴾: أي: ضاع سَعْيُهُم الذي سَعَوْهُ في الحياة الدنيا، فَلَا يَجِدُونَ لَهُ أَثَرًا يَوْمَ الدين، أو ضَلَّ سَعْيُهُم الطَّرِيقَ الموصِلَ إلى ثواب الله يَوْمَ الدين.

أي: قُلْ لَهُمْ: هَلْ نُنَبِّئُكُمْ أَنَا وَرَبِّي بالعاملين أَعْمَالًا حسنة في الدنيا، إِلَّا أَنَّهُمْ أَخْسَرُ الْعَامِلِينَ في محكمة العدلِ الربانية؟
ويأتي الجوابُ لِمَنْ يَطْلُبُهُ أو يَسْمَعُهُ، وهو:

هم الذين ضاع سَعْيُهُم الذي سَعَوْهُ في الحياة الدنيا من أعمال حسنة، فلا يجدون له أَثَرًا عند الله يوم الدين، لأنَّهم لم يَعْمَلُوا أعمالهم الحسنة، إيماناً بالله وابتغاء مرضاته.

لقد كانوا يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً لأنفسهم، لكنَّهُمْ في الحقيقة لَمْ يُوجِّهُوا الرِّجْهَةَ الموصلة إلى ثواب الله، بالإيمان به وابتغاء مرضاته وثوابه، بل قَدَّفُوا بها ضَالَّةً ضائعةً، يَرْجُونَ منها منافع دُنْيَوِيَّةً، أو شهرةً وَذِكْراً حسناً، وهذا أَمْرٌ قد حَصَلُوا عليه في الدنيا، فلا ثوابَ لهم عَلَيْهَا عند الله يَوْمَ الدِّينِ.

والسَّبَبُ الذي جعلهم يقصدون بأعمالِهِم الحَسَنَةَ مَطْلِبَهُم من الحياة الدنيا، أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ الله المنزَلَاتِ على رسوله. وَكَفَرُوا بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، إِذْ لَمْ يُؤْمِنُوا بالبعث.

لذلك حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، أي: بطلَ تأثيرها في استحقاقِ ثواب الله، فلا ثِقَلَ لها في موازينه مُطْلَقاً، وَلَيْسَ لَهَا قُوَى سَالِبَةٌ تجذب كَفَّةَ ميزانه إلى الأَعْلَى طَائِشَةً بها، باعتبارِهَا أَعْمَالاً حَسَنَةً، من أجل هذا تُطْرَحُ جانباً، فَلَا يَقِيمُ اللَّهُ لها وزناً ما.

﴿فَحِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: أي: فَبَطَلَتْ أَعْمَالُهُمْ، وكلُّ عَمَلٍ لا يَحَقُّ الغاية منه فقد حَبِطَ، أي: بطل.

إِنَّ الأعمالَ الحَسَنَةَ الَّتِي يَعْمَلُهَا الكافرون بالله وبرسوله ويَوْمَ الدِّينِ، أَعْمَالٌ لَا تَمْلِكُ قُوَّةً إيجابيةً ذَاتَ ثِقَلٍ بِسَبَبِ الكُفْرِ الذي نَزَعَ منها قُوَّتَهَا، وَلَا تَمْلِكُ قُوَّةً سَالِبَةً، بِسَبَبِ كَوْنِهَا أَعْمَالاً حَسَنَةً، فالأَعْمَالُ ذَاتُ القُوَى السَّالِبَةِ هي الأعمالُ السَّيِّئَةُ، والأَعْمَالُ ذَاتُ القُوَى الإيجابية هي الأعمالُ الحَسَنَةُ المستنْدَةُ إلى الإيمان بالله واليَوْمَ الآخر، وبما أُنْزِلَ الله للناس، والمُتَبَعَى بها رضوانُ الله وثوابه.

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾: إشارة إلى جزاءِ مُبْهِمٍ بَعِيدٍ في الدركات السُّفْلَى، لكن جاء بعد هذه العبارة بيانه بقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ﴾.

والسَّبَبُ في استحقاقهم هذا الجزاء الأليم، أَنَّهُمْ كَفَرُوا بالحقائق الَّتِي

جَاءَتْهُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، وَاتَّخَذُوا آيَاتِ اللَّهِ الْمَثَرَاتِ وَاتَّخَذُوا رُسُلَهُ هُزُؤًا.

﴿بِمَا كَفَرُوا﴾: أي: بسبب ما كفروا.

﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا﴾: أي: اتخذوا آياتي شيئاً يقابل بالهُزء به، واتخذوا رُسُلِي كَرِجَالٍ كَذَّابِينَ أَوْ مَجَانِينَ يُوَاجَهُونَ بِالْهُزءِ وَالسُّخْرِيةِ.

﴿هُزُؤًا﴾: أي: مهزوءاً بالآيات، ومهزوءاً بالرُّسل، وهذا من استعمال المضمر بمعنى اسم المفعول. ﴿هُزُؤًا﴾ قراءة حفص بالواو.

وقرأ جمهور القراء العشرة: [هُزُؤًا] بالهمزة بعد الزاي.



النص الخامس:

قول الله عز وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤٧).

في هذه الآية يبين الله عز وجل مُسْتَخْدِمًا نُونِ المتكلم العظيم، أنه يَضَعُ الموازين الْقِسْطَ، أي: الْمَوَازِينَ العادلة، أَوْ ذَوَاتِ الْعَدْلِ، لَوَازِنِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الْقِسْطُ في اللُّغة: الْعَدْلُ، وجاء وصف موازين يوم القيامة بلفظ «الْقِسْط» وهو مصدر، تنزيلاً له منزلة اسم الفاعل. أو على تقدير مضاف محذوف، والمعنى: ونضع الموازين ذَوَاتِ الْقِسْطِ.

﴿لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾: أي: لأجل وزن أعمال العباد يوم القيامة.

وأبان الله عز وجل في هذا النص أن عَمَلِيَّاتِ وَزْنِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ تَجْرِي بِالْعَدْلِ التام، فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا.

الظلم في الوزن يكون بأن تنقص هذه الموازين من الأعمال الحسنة، أو بأن تزيد في الأعمال السيئة شيئاً.

والظلم بعد الوزن يكون بالحِزْمَانِ من حق ثبت بوعد الله الذي تفضل به على عباده، أو بالمؤاخذه على أعمال سيئة لم يكتسبها العبد.

فمن قواعد المحاسبة والجزاء عند الله عز وجل، أن كل نفس لا تؤاخذ إلا على كسبها أو آثار كسبها، وأن المؤاخذه على السيئة لا يزيد على حدود مثلها.

وأبان هذا النص أن كل مكتسبة إرادية سوف يأتي الله عز وجل بها، ويزننها في موازين أعمال العباد، من الحسنات والسيئات، ولو كانت صغيرات، وكان الواحد منها بمثابة حبة من خردل، باستثناء ما لا يقيم الله له وزناً، مما يخبط من عمل صالح، لا إيمان يدعّمه، أولاً إخلاص لله فيه.

وما جاء في هذا النص يدل على أن ما أوصى لقمان به ابنه هو من الوصايا الربانية المنزلة قبل نزول القرآن.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبَ﴾: أي: وكفى بنا عادين لكل الحسنات والسيئات، وكفى بنا مخصين لها، ومقدرين قيمتها للجزاء عليها بالفضل أو بالعدل.



النص السادس:

قول الله عز وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ ۚ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۚ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ

خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١١٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُم أَلتَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١١٤﴾ .

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ : أي: النفخة الثانية للبعث التي يخرج بها الناس من أجداثهم، ليلأقوا حسابهم وفضل القضاء فيما بينهم، في محكمة الفضل والعدل الربانية، وذلك هو يوم الدين، فإذا قضى الله بين العباد ثم بمقتضى قضائه تحقيق الجزاء.

﴿فَلَا أَسَابَ يَتَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ : أي: فلا يجدون أنسابهم يومئذ نافعة لهم بشيء، بل يفر المرء يومئذ من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، إذ لكل امرئ منهم يومئذ شأن عظيم يغنيه، أي: يضره، ويكفه عن أن يلتفت إلى غيره، كما جاء في الآيات من (٣٤ - ٣٧) من سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول).

﴿وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ : أي: ولا يتساءلون عن أنسابهم ولا بأنسابهم، لطلب النصرة منهم، إذ هم جميعاً يعلمون أنه لا أحد يومئذ يملك النصرة لأحد، ولا أحد يملك الدفاع عن أحد.

والتساؤل المنفي هنا هو التساؤل لطلب النصرة والمعونة.

• ولكن ثبت أنهم يتساءلون تساؤل تلويم وخصام، فقال الله عز وجل في سورة (الصفات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾ .

• وثبت أن بعض أهل الجنة في الجنة يتساءلون عن الذين كانوا قرناءهم في الدنيا، إلا أنهم كانوا كافرين، فقال الله عز وجل في سورة (الصفات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) أيضاً في معرض بيان بعض أحوال أهل الجنة في الجنة:

﴿فَأَجَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَتِنَّكَ لَمِنَ الْمَصْدِقِينَ ﴿٥٢﴾ أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْلًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلَعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطْلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ﴿٥٧﴾ ﴿

• وثبت أيضاً أن بعض أهل الجنة في الجنة يتساءلون عن بعض أحوالهم التي كانوا عليها في الدنيا، فقال الله عز وجل في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) في معرض بيان بعض أحوال أهل الجنة في الجنة:

﴿وَأَجَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السُّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴿

يظهر أن أصحاب هذا التساؤل كانوا في الدنيا من المؤمنين العصاة، وكانوا يخافون أن يُعَذَّبُوا بعذاب السُّمُورِ في دار العذاب، لكنهم كانوا يَدْعُونَ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ، فغفر لهم وعفا عنهم، إنه هو البر الرحيم.

• وثبت أن أهل الجنة في الجنة يتساءلون عن المجرمين، وهو ما جاء بيانه في الآيات من (٣٩ - ٤٧) من سورة (المذثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

أما تدبر بقية الآيات من النص السادس الذي من سورة (المؤمنون) فقد سبق في النص الثاني من هذا الملحق الذي هو من سورة (الأعراف) فهما متماثلان.

لكن أضاف النص الذي من سورة (المؤمنون) بيان أنهم في جهنم خالدون، وأضاف أيضاً ما يلي:

• ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ أَلْتَارُ﴾: أي: تَمَسُّ وُجُوهُهُم النار بإخراق غير مُنْضِجٍ لها.

• ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (١٤٤): أي: فهم فيها عَابِسُونَ قد غَيَّرَ لَفْحُ النار أَلْوَانَ وُجُوهِهم. الوجه الكالح، هو الشاحب العابس والذي قصرت شفته عن أَسْنَانِهِ.

ويظهر أن هؤلاء صِنْفٌ من المعدَّبين في النار لا يصلُ عذابهم فيها إلى الدركة التي وصفها الله عز وجل بقوله في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا فَضَّجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٥٦).

﴿نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾: أي: نُدْخِلُهُمْ نَارًا لإحراقهم بِلَهَبِهَا.

نظرة تكاملية في نصوص سابقة:

(١) من الملاحظ أن عبارة ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ قد جاءت مكررة في سُورِ (القارعة) و(الأعراف) و(المؤمنون) لكن الخبر لم يكن فيها مكرراً، إلا في (الأعراف) و(المؤمنون).

ففي (القارعة) جاء الخبر: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٢١).

وفي (الأعراف) و(المؤمنون) جاء الخبر: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

(٢) ومن الملاحظ أن عبارة: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ قد جاءت مكررة في هذه السُور الثلاث، لكن الخبر لم يكن فيها مكرراً.

ففي (القارعة) جاء الخبر: ﴿فَأُتْمُ هَاوِيَةٍ﴾ (٩).

وفي (الأعراف) جاء الخبر: ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا يَئَاتِيَتَنَا يَظْلِمُونَ﴾ (٩).

وفي (المؤمنون) جاء الخبر: ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (١٤٤).

وبهذا التأمل نلاحظُ أَنَّ عَمَلِيَّةَ بِنَاءِ المعارف في القرآن، يجري وفق البناء التكاملي المتدرج مع مَراحل التنزيل.

ونلاحظُ أَنَّ الموضوع الواحد قد تَمَّتْ تَجْزِئُهُ أَفكاره إِلَى وَحَدَاتٍ، وَوُزَعَتْ بِحِكْمَةٍ فِي السُّورِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَأُنْزِلَتْ فِي السُّورِ وَالآيَاتِ مِنْجَمَةً مع مراحل تنزيل القرآن، مراعى فيها التَّكاملُ والترابط التامُّ فيما بَيْنَها.

وهذا مِنْ عَنَاصِرِ إعجاز القرآن، ولو كان من عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدَ النَّاقدُونَ فيه اختلافاً كثيراً.



النص السابع:

قول الله عز وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَصْنَعِهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٤١).

مِثْقَالُ الشَّيْءِ: هو ما كان مثله في وزنه.

فدَلَّ هذا النصُّ على الوزن باللُّزوم العقلي، ودَلَّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَظْلِمُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ عَمَلِهِ، فَلَا يَنْقُصُ مِنْ حَسَنَاتِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَلَا يَزِيدُ فِي سَيِّئَاتِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

يقال لغة: ظَلَمَ فلانٌ فلاناً حَقَّهُ، إِذَا غَضَبَهُ إِيَّاهُ، أَوْ نَقَصَهُ إِيَّاهُ، أَوْ حَرَمَهُ مِنْهُ.

وَدَلَّ هذا النصُّ على أَنَّ الْحَسَنَةَ يُضَاعِفُهَا اللَّهُ، وَهَذَا فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ، كَفَضْلِهِ فِي تَبْدِيلِ السَّيِّئَاتِ حَسَنَاتٍ لِبَعْضِ عِبَادِهِ، وَمِنْهُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ، الْمُرْسُحُونَ لِأَنَّهُمْ يَكُونُوا أَئِمَّةً لِلْمُتَّقِينَ، أَبْرَاراً أَوْ مُخْسِنِينَ.

وبمضاعفة الحسنات يُضَاعَفُ الأجرُ الموعودُ به عليها، وعندئذٍ تُضْرَبُ
الحسنة بأضعافها، ثم يكون الثوابُ على كلِّ واحدة عشرة أضعاف، إلى
سبعمئة ضِعْفٍ، إلى أضعافٍ كثيرة لا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ.
وفوق كلِّ ذَلِكَ يُؤْتِي اللهُ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا.
فأضاف هذا النَّصَّ على سوابقه القضايا التالية:

القضية الأولى: أَنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَأَبَانَ أَيْضًا أَنَّ لِلذَّرَّةِ
مِثْقَالَ مِنْ أَدْوَاتِ الْوِزْنِ تُوزَنُ بِهِ.

القضية الثانية: أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُضَاعَفُ الحسنات، ولهذا شيءٌ غَيْرُ
مُضَاعَفَةٍ الأجرِ على الحسنة الواحدة.

القضية الثالثة: أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا، فَوْقَ
حِسَابِ المضاعفات التي يُضَاعَفُ بها الأَجُور.



النص الثامن:

قول الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الزلزلة/ ٩٩ مصحف/ ٩٣ نزول):

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ۚ﴾ (٦) ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨).

﴿يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾: أي: يخرجون من قبورهم وينصرفون في
اتجاهات مختلفات حالة كونهم أَشْتَاتًا.

﴿أَشْتَاتًا﴾: أي: متفرقين. لفظ «أَشْتَات» جمع «شَت» بمعنى
«متفرق». يقال: أَمْرٌ شَتٌّ، أي: متفرق. وقومٌ أَشْتَاتٌ، أي: متفرقون.
ويقال: شَتَّتَ الأشياءَ، أي: فَرَّقَهَا، وَشَتَّتَ القَوْمَ، إِذَا تَفَرَّقُوا. ويقال: أَمْرٌ

مَا أَشَتْ الْقَوْمَ، أَي: فَرَّقَهُمْ. وَالشَّتَاتُ: التَّفَرُّقُ. وَيَقَالُ: انْطَلَقَ الْقَوْمُ شَتَاتَ شَتَاتٍ، أَي: مُتَفَرِّقِينَ.

أَبَانَ هَذَا النَّصُّ أَنَّ النَّاسَ حِينَ يَضْدُرُونَ مَبْعُوثِينَ مِنْ أَجْدَائِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يَضْدُرُونَ مُتَفَرِّقِينَ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يُوجَّهُونَ لِمَوَاقِعِ مُحَاكَمَاتِهِمْ، فِي مُحْكَمَةِ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ، الَّتِي تُغَرِّضُ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَعْمَالُهُمُ الَّتِي كَانُوا قَدْ عَمِلُوهَا فِي الدُّنْيَا، فَيَرَوْنَهَا، بِالصُّورَةِ وَالصَّوْتِ وَالنِّيَّاتِ، وَأَحَادِيثِ النُّفُوسِ وَخَوَاطِرِهَا، وَأَعْمَالِ الْقُلُوبِ.

فَمَا مِنْ عَمَلٍ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ كَانُوا قَدْ عَمِلُوهُ فِي الدُّنْيَا، إِلَّا يُغَرِّضُ عَلَيْهِمْ، فَيُشَاهِدُونَهُ عِنْدَ مُحَاكَمَاتِهِمْ طَبَقَ مَا عَمِلُوهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فَيَدْخُلُ ضِمْنَهُ مَا يُشَاهِدُونَهُ الْإِيمَانَ وَالْكَفْرَ وَالنِّفَاقَ، وَالْإِخْلَاصَ وَالرِّيَاءَ، وَالْحُبَّ وَالْبَغْضَ، وَالرِّضَا وَالسَّخَطَ، وَالْحَقْدَ وَالْحَسَدَ وَإِرَادَةَ الشَّرِّ وَالضَّرَّ، وَالْعَوَاطِفَ وَالْإِرَادَاتِ وَالْإِنْفِعَالَاتِ.

لَكِنَّ الْمَحَاسِبَةَ إِنَّمَا تَكُونُ عَلَى الْأَعْمَالِ الْإِرَادِيَّةِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

وَهَذِهِ الرُّؤْيَا الَّتِي يَرَوْنَ بِهَا مَا أَسْلَفُوا مِنْ أَعْمَالٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، تَكُونُ مُقَدِّمَةً لِلْمُحَاسِبَةِ، وَفَصْلَ الْقَضَاءِ، ثُمَّ يَكُونُ تَحْقِيقُ الْجَزَاءِ. بَعْدَ إِصْدَارِ الْأَحْكَامِ الرَّبَّانِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِمُحْكَمَةِ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ.

وَقَدْ أَضَافَ هَذَا النَّصُّ قَضِيَّةَ رُؤْيَا الْأَعْمَالِ، وَقَدْ كَانَ بَيَانُ هَذَا الْأَمْرِ مُسْتَغْرِبًا قَبْلَ الْمَكْتَشَفَاتِ الَّتِي تَوْصَلُ إِلَيْهَا الْإِنْسَانُ، لَكِنْ هَذِهِ الْمَكْتَشَفَاتُ الْحَدِيثَةُ قَدْ سَهَّلَتْ عَلَيْنَا إِذْرَاكَ كَيْفَ تَكُونُ رُؤْيَا الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ يَوْمَ الدِّينِ.

فَمَنْ يَعْمَلُ فِي الدُّنْيَا مَقْدَارَ وَزْنِ ذَرَّةٍ مِنْ عَمَلٍ إِرَادِيٍّ مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ، فَمَا فَوْقَ الذَّرَّةِ يَرَهُ يَوْمَ الدِّينِ، فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، فَيَكُونُ حُجَّةً لَهُ.

ومن يَعْمَلْ في الدنيا مقدارَ وَزْنِ ذَرَّةٍ من عَمَلٍ إِرَادِيٍّ من أعمال الشرِّ،
فما فَوْقَ الذَّرَّةِ يَرَهُ يوم الدين، في موقف الحساب، وفَضْلُ القضاء، فيكونُ
حُجَّةً عليه عِنْدَ رَبِّهِ.

وبالاستناد إلى أَعْمَالِهِ الْمُخَصَّاةِ عليه، تُقَامُ لَهُ مَوَازِينُهُ، ثُمَّ يكون
حسابُهُ، ثُمَّ يكون فَضْلُ القضاء بشأنه ثَوَاباً أو عِقَاباً.



مِمَّا جَاءَ فِي السُّنَّةِ بِشَأْنِ الْوِزْنِ فِي مُحْكَمَةِ يَوْمِ الدِّينِ

(١) روى البخاري عن أنس رضي الله عنه، في حديث طلب
المؤمنين الشفاعة من الرُّسُلِ عليهم السلام يوم القيامة، حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى
رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَشْفَعُ لَهُمْ، وَقَدْ جَاءَ فِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا
يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ
الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ
مَا يَزِنُ مِنَ الْخَيْرِ ذَرَّةً».

(٢) وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّهُ لَيَأْتِي
الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَافْرَوْا إِنْ
سِئْتُمْ: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾».

أقول: إِنَّ قِيَمَةَ الْإِنْسَانِ فِي مِيزَانِ الرَّحْمَنِ إِنَّمَا تَكُونُ بِفَضَائِلِهِ
الْمَكْتَسَبَةِ، الَّتِي هِيَ مِنْ كَسْبِهِ الْإِرَادِيِّ، أَمَّا جَسَدُهُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ فَهُوَ لَيْسَ
مِنَ الْفَضَائِلِ الْمَكْتَسَبَةِ بِإِرَادَةِ الْإِنْسَانِ، وَلِهَذَا لَا يَكُونُ لَهُ وَزْنٌ فِي الْمِيزَانِ
الْخَاصِّ بِوِزْنِ الْفَضَائِلِ الْإِرَادِيَّةِ الَّتِي يَكْتَسِبُهَا الْعَبْدُ الْمَمْتَحَنُ بِإِرَادَتِهِ وَعَمَلِهِ.

(٣) وروى الإمام أحمد، والترمذي، والحاكم، والبيهقي في شعب الإيمان، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصْرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمَكَ كَتَبْتِي الْحَافِظُونَ؟

فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ.

فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟

فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ.

فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ: أَخْضُرْ وَزَنْكَ.

فَيَقُولُ: يَا رَبُّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟!

فَيَقَالُ: فَإِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، فَتُوضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ، وَثَقَلَتِ الْبِطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْءٌ».

حديث صحيح

البطاقة: رُفْعَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ وَرَقٍ أَوْ جِلْدٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، يُكْتَبُ عَلَيْهَا مَكْتُوبٌ مَا.

أقول: إِذَا جَمَعْنَا هَذَا الْحَدِيثَ مَعَ سَائِرِ النُّصُوصِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ حَوْلَ مَوْضُوعِهِ، وَتَدَبَّرْنَاهَا تَدَبُّرًا تَكَامُلِيًّا، يَظْهَرُ لَنَا أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ أَنَّ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، الَّتِي شَهِدَهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَاتَ عَلَيْهَا، كَافِيَةٌ لِأَنَّ تَنْجِيَهُ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ، لِأَنَّ هَذِهِ الشَّهَادَةَ قَدْ رَجَحَتْ كِفَّةَ عَدَمِ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ.

وقد كانت سِجَلَاتُ السَّيِّئَاتِ الكثيرات تُشْعِرُ بِأَنَّهُ من أهل النار المخلَّدِينَ فيها، فجاءت بطاقة الشهادتين دالَّةً على أَنَّهُ قد كان مؤمناً، إِلَّا أَنَّهُ لم يَعمَلْ بشيءٍ من مقتضى إيمانه، فهو يُعاقَبُ على جرائمه وسيئاته، ثُمَّ يكون مَصِيرُهُ بعد ذلك النجاة من الخلود في النار، فَيُخْرَجُ منها وَيُدْخَلُ الجنة.

(٣) وروى البخاري عن ابن عباس، وروى مسلم عن أبي هريرة وعمران بن الحصين، وروى الإمام أحمد عن عمران بن الحصين، أَنَّ رسول الله ﷺ قال:

«يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتُمُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

أقول: إِنَّ دُخُولَ هؤلاء الجنة بِغَيْرِ حِسَابٍ يَدُلُّ على أَنَّ أعمالهم لَا تُوزَنُ حَتَّى يُحَاسَبُوا عَلَيْهَا، ويظهر أَنَّهُمْ مُسْتَثْنَوْنَ من عُموم الَّذِينَ تُوزَنُ أعمالهم، وَأَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ بَرَاءَةً من اللّهِ يَدْخُلُونَ بها الْجَنَّةَ، وَالسَّبَبُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ من إيمانٍ عظيم، وخيرٍ جسيم.

ولا يَدُلُّ هذا الحديث على أَنَّ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الجنة بِغَيْرِ حِسَابٍ مُنْحَصَرُونَ في سَبْعِينَ أَلْفًا، فقد يَدْخُلُ الجنة بغير حساب آخرون كثيرون لَيْسُوا من الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ ولا يَكْتُمُونَ، فالعبارة لَا تَدُلُّ على الحصر، بل تَدُلُّ على أَنَّ من الذين يدخلون الجنة بغير حساب هؤلاء.

وبهذا أختتم هذا الملحق والحمد لله على توفيقه وفتحته.



(٢٠)

الملحق الرابع

حول اتخاذ الدين لهواً ولعباً وهزواً والاعتزاز بالحياة الدنيا

أولاً

مقدمة

جاء في القرآن المجيد التشنيع على الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوَاً وَلَعِباً، مع أن بيان أحكام الدين وشرائعه ووصاياه من خصائص رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وقد اصطفى الله عزَّ وجلَّ بعِلْمِهِ المحيط بكلِّ شيءٍ وبحُكْمَتِهِ العظيمةِ البالِغَةِ الدِّينَ للناسِ، وكَلَّفَهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ وَيَعْمَلُوا بِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَهُوَ مَادَّةُ الْامْتِحَانِ الَّذِي خَلَقَهُمْ اللهُ لَهُ، مُزَوِّدِينَ بِخَصَائِصِهِمُ النَّفْسِيَّةِ وَالْجَسَدِيَّةِ الَّتِي تُؤَهِّلُهُمْ لاجْتِيَازِهِ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِ حَكِيمٍ.

ومن طبيعة امتحان ذوي الإرادات الحرة، أن تتفاوت دَرَجَاتُ مُجْتَازِي مسافته ودَرَكَاتِهِمْ، مِنْ قِمَّةِ الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ، إِلَى الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنْ دَرَكَاتِ الْجَحِيمِ.

ومن الظاهراتِ السُّلُوكِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، أَنْ يَتَّخِذَ الْكَافِرُونَ بِالْدِّينِ، دِينَ اللهِ لِعِبَادِهِ لَهْوَاً وَلَعِباً.

وَلَدَى تَتَبُّعِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي مُخْتَلَفِ السُّورِ، ظَهَرَتْ لِي خَمْسُ صُورٍ لِاتِّخَاذِ الدِّينِ لَهْوَاً وَلَعِباً، وَهِيَ الصُّورُ التَّالِيَةُ:

الصورة الأولى:

الافتراء على الله جلَّ جلالُهُ في مسائل الدين، كأنَّ دِينَ اللهِ لِعِبَادِهِ بِمِثَابَةِ لَعِبَةٍ يَلْعَبُ بِهَا أَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَالْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ بِهِمْ، أَوْ

بمثابة مَلْهَاءَ يُلْهَوْنَ بها، غَيْرَ عَابِثِينَ بِأَنَّ الدِّينَ هو مَادَّةُ امتحان الناس في الحياة الدُّنْيَا، وَغَيْرَ مَكْتَرِثِينَ لِأَنَّ الامتحان ولوازمه وتوابعه، هو الغاية من خَلَقِ الناس بخصائصهم الَّتِي فَطَرَهُمُ اللهُ عَلَيْهَا، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَدَخَّلَ في مَوَادِّ هذا الامتحان، دون إِذْنٍ من صاحب الحقِّ فيه، وهو الرَّبُّ جَلَّ جَلَّالُهُ.

الصورة الثانية:

الاستهزاء بالدين كُلِّهِ أو بَغْضِ الأعمالِ الدِّينِيَّةِ، واعتبارها أَعْمَالاً غَيْرَ ذَاتِ جَدْوَى، فَهِيَ مِنْ أَعْمَالِ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ، ومنها الاستهزاء بِآيَاتِ اللهِ وَإِثَارَاتِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، والاستهزاء ببغض الأحكامِ الدِّينِيَّةِ، واعتبارها غير موافقة للحق، أو لما هو الأحسن والأفضلُ في التنظيم والتشريع الملائم لمصالح الناس.

الصورة الثالثة:

الدخول في الدين على سبيل النفاق، بالتظاهر بالإيمان والإسلام، مع الكُفْرِ، وجعل ذلك لتحقيق مصالح دُنْيَوِيَّةٍ، أو لِطَغْنِ الدِّينِ وَطَغْنِ الْمُؤْمِنِينَ الصَادِقِينَ من داخل صفوفهم.

الصورة الرابعة:

الاستهانة بقضِيَّةِ الدِّينِ، وَعَدَمُ الْاِكْتِرَافِ لَهُ، وَالانْصِرَافُ عَنْهُ وَعَنِ الدَّاعِي إِلَيْهِ، لِأُمُورِ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَهْوِهَا وَلَعِبِهَا.

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ:

الاستهزاء بِالرُّسُولِ وَالاستِهَانَةُ بِهِ، وَيُلْحَقُ بِالرُّسُولِ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ، الَّذِينَ اتَّبَعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ.

وفي هذا الملحق أحاول استقراء النصوص القرآنية المتعلقة بهذا الموضوع، مع معالجتها بشيء من التدبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إنه المعلم الفتاح الوهاب.



ثانياً

نصوص عامة بشأن الذين اتخذوا الدين لهواً ولعباً وهزواً

جاء في القرآن المجيد ثلاثة نصوص قرآنية تتضمن الحديث عن الذين اتخذوا الدين لهواً ولعباً، وهي في السور التالية: (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) و(الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) و(المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

النص الأول:

جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عز وجل في وصف الكافرين أصحاب النار وهم يُعَذَّبُونَ فيها:

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَفْنَا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٥١):

هؤلاء كفارون استحقوا عذاب جهنم خالدين فيها، وكان من صفاتهم في الحياة الدنيا أنهم اتخذوا دينهم لهواً ولعباً، وغرَّتَهُمُ الحياة الدنيا.

﴿اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾: أي: جعلوا دينهم الذي هو مادة امتحانهم في رحلة الابتلاء في الحياة الدنيا شيئاً يلهُونَ به ويلعبون، إذ اعتبروه شيئاً غير ذي أهمية تُقَصَّدُ في الحياة، فتعاملوا معه كعاملهم مع الأشياء التي ليس فيها جد، ممَّا يلهُونَ به ويلعبون من أمور دُنياهم.

اللَّهُوُ: هو الاشتغال بشيء غير ذي أهمية، عمَّا يجب توجيه الجهد والعمل له.

والكافرون يَغْتَقِدُونَ أَنَّ الاشتغالَ بِبَعْضِ العباداتِ الدنيئةِ الرِّبائِيَّةِ هو من اللّهُو، لأنهم لَا يَجِدُونَ لكَثِيرٍ مِنْهَا ثَمَرَةً عَاجِلَةً، وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَمَا فِيهِ مِنْ جَزَاءٍ، فَيَتَصَوَّرُونَ أَنَّ صَرْفَ شَيْءٍ مِنْ طاقَاتِهِمْ فِيهَا هُوَ ضَرْبٌ مِنَ اللّهُوِ الَّذِي يَضُرُّهُمْ وَيَشْغَلُهُمْ عَمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُوجِّهُوا طاقَاتِهِمْ وَأَنْوَاعَ جَهْدِهِمْ لَهُ.

اللَّعِبُ: هو ضِدُّ الجِدِّ، ويقال لكلِّ مَنْ يَغْمَلُ عَمَلًا لَا يَجْلِبُ لَهُ نَفْعًا: إِنَّمَا أَنْتَ تَلْعَبُ.

ومن اللَّعِبِ مَا يُفِيدُ فِي رِيَاضَةِ الْجِسْمِ، أو الترويحِ عن النَّفْسِ، أو اكْتِسَابِ بَعْضِ المعارفِ والمهاراتِ، وعندئذٍ يَكُونُ لَعِبًا ذَا أَغْرَاضٍ جَادَّةٍ.

﴿وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾: في هَذَا الجُمْلَةِ بَيَّانُ السَّبَبِ فِي كَوْنِ الكَافِرِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا، وَهُوَ أَنَّهُمْ عَرَّثَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، فَحَسِبُوا أَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ فِي وُجُودِهِمْ، وَحَسِبُوا أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ حَيَاةٌ أُخْرَى، يَكُونُ فِيهَا الْحِسَابُ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزُ الْجَزَاءِ.

عَرَّثَهُمْ: أَي: خَدَعَتْهُمْ وَأَطْمَعَتْهُمْ بِالْبَاطِلِ.

﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٥١).

أَضَلُّ النَّسْيَانِ فِي اللَّغَةِ التَّرْكَ، أَي: فِي هَذَا الْيَوْمِ الَّذِي هُوَ يَوْمُ الدِّينِ نَتَرَكُهُمْ وَنُهْمِلُهُمْ، وَلَا نُجِيبُ طَلِبَاتِهِمْ، كَمَا تَرَكُوا الْإِسْتِجَابَةَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَهِيَ الدَّعْوَةُ الَّتِي وَجَّهَتْ لَهُمْ مِنْ رُسُلِ رَبِّهِمْ بِلَاغًا عَنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَكَمَا تَرَكُوا الْعَمَلَ لِيَوْمِ الدِّينِ.

﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾: أَي: وَكَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ، كَافِرِينَ بِهَا مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهَا حَقٌّ وَصِدْقٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ.



النص الثاني:

قول الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً لكل حريص على سعادته بأسلوب الخطاب الإفرادي:

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعِدْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُوْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾:

أي: ودع هؤلاء، ولا تكثر لهم، ولا تغبأ بهم، ولا تشغل نفسك بمجاهدتهم، لتحويلهم من الكفر إلى الإيمان، فهم سادرون في غيهم، مستغرقون في متاع الحياة الدنيا التي غرَّتْهم بزينتها، فملكْتَ حواسهم الظاهرة، وملكْتَ نفوسهم وقلوبهم.

﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾: أي: وذكّر بالقرآن من لم يصل إلى دركة مئوس منها.

﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾: أي: محذراً بتذكيرك أن تُبْسَلَ نَفْسٌ بما كَسَبَتْ من مَسَاخِطِ الله في رحلة امتحانها في الحياة الدنيا. ضَمَّنَ فعل [ذَكَّرَ] معنى فعل «حَذَّرَ» أو «أَنْذَرَ».

﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾: أي: أن تُسَلِّمَ نَفْسٌ لِلْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، بِسَبَبِ مَا كَسَبَتْ في الحياة الدنيا من آثام وجرائم، يُعَاقَبُ عَلَيْهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ.

﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾: أي: حالة كَوْنِ النفس الكاسبة للآثام والجرائم، ليس لها من دُونِ الله يَوْمُئِذٍ وَلِيٌّ يَنْصُرُهَا وَيَخِمِّيها

مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلَيْسَ لَهَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ لَهَا عِنْدَهُ، إِذْ لَا يَشْفَعُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَهُوَ لَا يَقْبَلُ شَفَاعَةَ أَحَدٍ لِمَنْ كَانَ كَافِرًا بِهِ فِي رَحَلَةِ امْتِحَانِهِ.

﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدِلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا﴾: وَإِنْ تَقَدَّمَ النَّفْسُ الْمُحَكَّمُ عَلَيْهَا بِالْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، آيَةً فِذِيَّةٍ تَرَاهَا مُعَادَلَةً مُكَافِئَةً لِأَثَامِهَا، لَا تُقْبَلُ مِنْهَا وَلَا تُؤْخَذُ مِنْهَا.

على أَنَّ هَذَا الْاِخْتِمَالَ لَا يُمَكِّنُ تَحْقِيقَهُ، إِذْ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ يَوْمَ الدِّينِ إِلَّا مَا قَدَّمَتْ مِنْ عَمَلٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَقَدْ جِيءَ بِهَذَا الْبَيَانِ لِقَطْعِ تَوَهُمَاتِ بَعْضِ أَهْلِ الْجَرَائِمِ، بِأَنَّهُمْ سَوْفَ يَفْتَدُونَ أَنْفُسَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ بِبَعْضِ مَا كَانُوا يَمْلِكُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، إِنْ صَحَّتْ أَنْبَاءُ الْبَعْثِ وَالْحَيَاةِ الْآخِرَى، وَمَا يَجْرِي فِيهَا بِحَسَبِ زَعْمِهِمْ، عَلَى أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَلَا بِالْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾: أَي: أُولَئِكَ الَّذِينَ ازْتَهَتْوُا فِي دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ بِمَا كَسَبُوا مِنْ جَرَائِمِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

الْإِبْسَالُ فِي اللَّغَةِ: جَعَلَ الشَّيْءَ مَرْهُونًا مَحْبُوسًا. يُقَالُ: أُبْسِلَ فُلَانًا، أَي: رَهْنَهُ. وَأُبْسِلُهُ لِلْهَلَكَةِ، أَي: أَسْلَمْتُهُ لَهَا.

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾: هَذَا يَكُونُ لَهُمْ وَهُمْ فِي جَهَنَّمَ دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، الَّتِي يَخْلُدُ فِيهَا الْكَافِرُونَ.



النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خطاباً للذين آمنوا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا هُزُوعاً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ
اتَّخَذُوا هُزُوعاً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَمَعُقُونَ ﴿٥٨﴾﴾ .

في هذا النص ينهى الله عز وجل الَّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ وَبِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ
رَبِّهِ، عَنْ أَنْ يَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَ الْإِسْلَامِ هُزُوعاً وَلَعِباً، مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَهُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَنَهَايَهُمْ عَنْ أَنْ يَتَّخِذُوا الْكَفَّارَ
جَمِيعاً أَوْلِيَاءَ، وَمِنْهُمْ الْمُشْرِكُونَ عَبَادُ الْأَوْثَانِ.

فَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ دِينَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ هُزُوعاً وَلَعِباً قَدْ أَوْغَلُوا فِي الْكُفْرِ إِيغَالاً
شَنِيعاً، وَأَسْرَفُوا فِي مُعَادَاةِ الْمُؤْمِنِينَ.

أولياء: أي: أنصاراً وأصدقاء ومحبوبين، الولي: يأتي في اللغة بمعانٍ
كثيرة، تَدُورُ حَوْلَ مَنْ يَسْتَحِقُّ النُّصْرَةَ وَالْمَتَابَعَةَ وَالْوُدَّ وَالْحُبَّ وَالْمَخَالَطَةَ
وَالْمَدَاخِلَةَ.

وسَيَأْتِي مَزِيدُ شَرْحِ تَفْصِيلِيٍّ لِهَذَا النَّصِّ لَدَى مُعَالَجَةِ نصوص الصورة
الثانية مِنْ صُورِ اتِّخَاذِ الدِّينِ لَهَواً أَوْ لَعِباً.



ثالثاً

تدبر نصوص الصورة الأولى

وهي الافتراء على الله جلّ جلاله في مسائل الدين، كأن دين الله
لِعِبَادِهِ بِمِثَابَةِ لُغْبَةٍ يَلْعَبُ بِهَا أَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَالْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ
بِهِمْ، أَوْ بِمِثَابَةِ مَلْهَةٍ يُلْهَوْنَ بِهَا - غَيْرَ عَابَثِينَ بِأَنَّ الدِّينَ هُوَ مَادَّةُ امْتِحَانِ
النَّاسِ فِي رَحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَغَيْرَ مَكْتَرَثِينَ لِأَنَّ الْامْتِحَانَ وَلَوَازِمَهُ وَتَوَابِعَهُ،
هُوَ الْغَايَةُ مِنَ خَلْقِ النَّاسِ بِخَصَائِصِهِمُ الَّتِي فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا، وَأَنَّهُ لَيْسَ

لأحد أن يتدخل في مواد هذا الامتحان، دون إذن من صاحب الحق فيه، وهو الخالق الربّ العليم الحكيم جلّ جلاله.

وهذه الصورة متصلة ببعض ما جاء في مضمون الآية الثالثة من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) وهو قول الله عز وجل فيها:

﴿أَتَبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

وقد عَرَفْنَا أَنَّ مضمون هذه الآية يُمَثِّلُ الخُطَّ الأعظم الذي سارَتْ عليه آيات السُّورة، من خُطوط مَوْضوعها.

إِنَّ الافتراء على الله عز وجل في مسائل الدين، وقَبُولُ العَمَلِ بالمفتریات يَدْخُلُ في عموم المنهي عنه بِقَوْلِ الله تعالى في هذه الآية:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾.

وهذه الصُّورة متصلة أيضاً بما جاء في الآية (٢٨) من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) أيضاً، وهو قول الله عز وجل فيها بشأن الَّذِينَ افْتَرَوْا عَلَى الله في دينه:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ومتصلة أيضاً بما جاء بعد هذه الآية من تفصيل لِبَغْضِ مُفْتَرِيَاتِ أَهْلِ الكُفْرِ في دين الله لعباده، حتَّى قول الله عز وجل في الآية (٣٧) من السورة:

﴿فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا... ﴿٣٧﴾﴾.

وقد جاء في عدَّة سورٍ مِنَ القرآن المجيد تفصيل لِبَغْضِ مُفْتَرِيَاتِ أَهْلِ الكُفْرِ والتحريف في دين الله لعباده.

ومن هذه المفتریات الَّتِي تَحْمِلُ حَقِيقَةَ معانِي اللَّهْوِ واللَّعِبِ، البدعُ

في العبادات التي فيها أعمالٌ هي من اللهو واللعب، كالتصفير، والتضفيق، والغناء، والرقص، واستخدام آلات اللهو والموسيقى.

قال الله عز وجل في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول) في وصف بعض الأعمال التي ابتدعتها المشركون في الدين:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿مُكَاءً﴾: أي: صفيراً.

﴿وَتَصْدِيَةً﴾: أي: تضفيقاً.

وظاهر أن هذه الأعمال هي من اللهو واللعب، وابتداعها في الدين هو من اللعب، والعَبَثُ بدين الله لعباده.

وهذه المبتدعات حلت لدى المشركين محل الصلاة المشروعة، ذات القيام والركوع والسجود والتلاوات والأذكار، والخشوع لله فيها، وكانوا يعتبرون ذلك من العبادة لله والصلاة له.

قال ابن عطية ونقله صاحب البحر المحيط عنه: والذي مر بي من أمر العرب في غير ما ديوان، أن المكاء والتصدية كانا من فعل العرب قديماً قبل الإسلام، على جهة التقرب والتشروع اهـ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراً يصفرون ويصفقون.

ومن هذه البدع في الدين، اتخاذ الناس أعيادهم الدينية مناسبة للهو واللعب ونشر المعاصي، مع أنها في الأصل مناسبة لشكر الله بالعبادة التي ترضيه جل جلاله.

حكى المفسرون نقلاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جعل الله

لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا يَعْظُمُونَهُ، وَيُصَلُّونَ فِيهِ، وَيَغْمُرُونَهُ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ اتَّخَذُوا عِيدَهُمْ لَهْوَاً وَلَعِباً، غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُمْ اتَّخَذُوا عِيدَهُمْ كَمَا شَرَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

أما اشتراع أهل الجاهلية الطواف بالبيت عِراً لغير سُكَّانِ الحرم، فقد كانوا يقولون بشأنه: لَا نَعْبُدُ اللَّهَ فِي ثِيَابٍ أَذْنَبْنَا فِيهَا.

وكان اللواتي يَسْتَحْيِينَ مِنْ نِسَاءِ الْعَرَبِ يَطْفَنَ عَارِيَاتٍ فِي اللَّيْلِ.

لكن إذا وَجَدَ الْعَرَبِيُّ مِنْ يُعِيرُهُ ثَوْباً مِنَ الْقَرَشِيِّينَ اسْتَعَارَهُ وَطَافَ فِيهِ، وكذلك النساء.

وقد جاء ذكر هذه البدعة الجاهلية الشنيعة في عدة روايات، منها ما يلي:

(١) روى مسلم والنسائي وابن أبي شعبة وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما، أَنَّ النِّسَاءَ كُنَّ يَطْفَنُ عُرَاءً، إِلَّا أَنَّ تَجَعَلَ الْمَرْأَةُ عَلَيَّ فَرَجَهَا خِرْقَةً وَتَقُولُ:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَغْضُهُ أَوْ كُلهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أَحِلُّهُ
فَنَزَلَتْ: ﴿يَبْنَىءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ...﴾ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

(٢) وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مَرْدَوِيهِ، عن ابن عباس أيضاً في هذه الآية:

«كَانَ الرِّجَالُ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاءً، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالزَّيْنَةِ، وَالزَّيْنَةُ اللَّبَاسُ، وَهُوَ مَا يُوَارِي السَّوْءَةَ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ جَيِّدِ الْبَزِّ وَالْمَتَاعِ».

(٣) وروى ابن جرير عن ابن عباس أيضاً قال:

«كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاءً، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، الرِّجَالُ بِالنَّهَارِ وَالنِّسَاءُ بِاللَّيْلِ».

(٤) وأُخْرِجَ مُسْلِمٌ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ:

«كَانَتِ الْعَرَبُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرَاةَ إِلَّا الْخُمْسَ، وَالْخُمْسُ قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ، فَكَانَ غَيْرُهُمْ يَطُوفُونَ عُرَاةَ، إِلَّا أَنْ يُعْطِيَهُمُ الْخُمْسُ ثِيَابًا، فَيُعْطِي الرُّجَالَ الرُّجَالَ، وَالنِّسَاءَ النِّسَاءَ».

الْخُمْسُ: الْمَتَشَدِّدُونَ فِي الدِّينِ، وَقَدْ أَطْلَقَ الْقُرَشِيُّونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ خُمْسٌ، تَفَاخُرًا بِأَنَّهُمْ مُتَشَدِّدُونَ فِي التَّمَسُّكِ بِالْدِّينِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ مَا ابْتَدَعُوهُ مِنْ تَحْرِيفَاتِ جَاهِلِيَّةٍ فِي دِينِ اللَّهِ الْمُرُوثِ عَنْ إِسْمَاعِيلَ وَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَأَقْبَحُهَا الْوُثْنِيَّةُ.

وَرُوي عَنْ عُرْوَةَ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا وَصَلُوا إِلَى مِنًى، طَرَحُوا ثِيَابَهُمْ، وَأَتَوْا الْمَسْجِدَ عُرَاةَ.

(٥) وَرُوي أَنَّ الْخُمْسَ كَانُوا يَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ الْحَرَمِ، فَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ أَنْ يَطُوفَ إِلَّا فِي ثِيَابِنَا، وَلَا يَأْكُلَ إِذَا دَخَلَ أَرْضَنَا إِلَّا مِنْ طَعَامِنَا، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْعَرَبِ صَدِيقٌ بِمَكَّةَ يُعِيرُهُ ثَوْبًا، وَلَا يَجِدُ مَا يَسْتَأْجِرُ بِهِ ثَوْبًا مِنْ قُرَيْشِيٍّ، كَانَ بَيْنَ أَحَدِ أَمْرَيْنِ.

● إِمَّا أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانًا.

● وَإِمَّا أَنْ يَطُوفَ فِي ثِيَابِهِ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ أَلْقَى ثَوْبَهُ عَنْهُ، فَلَمْ يَمَسَّهُ أَحَدٌ، وَكَانَ ذَلِكَ الثَّوبُ يُسَمَّى «الَلْقَى» قَالَ شَاعِرُهُمْ:

كَفَى حَزَنًا كَرِيًّا عَلَيْهِ كَأَنَّهُ لَقِيَ بَيْنَ أَيْدِي الطَّائِفِينَ حَرَامًا
وَأَمَّا اشْتِرَاعُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي دِينِ اللَّهِ مَفْتَرِيَّاتٍ فِي الْمَطَاعِمِ، فَتَطَالُعُ فِيهِ عِدَّةٌ قَضَايَا، وَعِدَّةٌ رَوَايَاتٍ.

(١) رَوَى الطَّبْرِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ، أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا إِذَا حَجُّوا حَرَّمُوا الشَّاةَ، وَلَبَنَهَا، وَسَمَنَهَا.

(٢) وَرَوِيَ عَنِ السُّدِّيِّ وَابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يُحَرِّمُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمُ الْوَدَّكَ. مَا أَقَامُوا فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ. فَكَانُوا لَا يَأْكُلُونَ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ إِلَّا قُوتًا، وَيَجْتَنِبُونَ الدَّسَمَ. الْوَدَّكَ: هُوَ الدَّسَمُ وَالذَّهْنُ.

فَعَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَكُلَّ دَاعٍ إِلَى دِينِ اللَّهِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، مُنَاطَرَةً مُلتَزِمِي هَذِهِ التَّحْرِيفَاتِ وَالْمُبْتَدَعَاتِ فِي الدِّينِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٢).

فِي هَذِهِ الْآيَةِ يُعَلِّمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ وَكُلَّ دَاعٍ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ مِنْ أُمَّتِهِ، أَسْلُوبَ مُنَاطَرَةٍ جَدَلِيَّةٍ، حَوْلَ التَّحْرِيفَاتِ فِي الدِّينِ، الَّتِي افْتَرَتْهَا الْجَاهِلِيَّاتُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِشَأْنِ زِينَاتِ الْمَلَابِسِ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ، وَبِشَأْنِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ.

أَي: قُلْ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَمَرَ بِأَخْذِ الزَّيْنَةِ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ، وَأَمَرَ بِسِتْرِ السَّوآتِ مُنْذُ عَهْدِ بَنِي آدَمَ الْأَوَّلِينَ.

وَقُلْ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَمَرَ بَنِي آدَمَ بِأَنْ يَأْكُلُوا وَيَشْرَبُوا مِمَّا يَشَاءُونَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، إِلَّا الَّذِي حَرَّمَهُ عَلَيْهِمُ بِالْتَّغْيِينِ أَوْ بِالْوَضْفِ.

فَمَنْ هَذَا الَّذِي افْتَرَى عَلَى اللَّهِ فَوْضَعَ قَوَاعِدَ التَّحْرِيمِ فِي اللَّبَاسِ، وَوَضَعَ أَحْكَامَ التَّحْرِيمِ فِي الْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ، فَقَالَ: هَذَا حَلَالٌ، وَهَذَا حَرَامٌ، مَعَ أَنَّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَلَيْسَتْ مِنَ الْخَبَائِثِ!!؟

أَي: هَلْ هَذَا الْمَحْرَمُ رَسُولٌ صَادَقٌ يُبْلَغُ عَنِ اللَّهِ!!؟ أَمْ هُوَ كَذَّابٌ مُفْتَرٍ يَفْتَرِي عَلَى دِينِ اللَّهِ!!؟

والمعنى من توجيه هذا السؤال الإنكاري الجدلي، أن الله عز وجل لم يُحرّم شيئاً من هذه المفتريات في الجاهليات، بل أوجب بعضها، وندب إلى بعضها، وأباح بعضها، وكلّ حكمٍ مُخالفٍ لحكم الله هو من العُدوان على رُبوبيّة الله عز وجل وعلى إلهيّته.

وفي طرح هذا السؤال الجدليّ مطالبةً لهمّ بدليل التحريم، وهو لا يكون دليلاً عقلياً، لأنّ موضوعه من موضوعات العبادات الدينيّة، فلا بدّ أن يكون دليلاً نقلياً عن نصّ ديني صحيح، في كتابٍ من كُتُب الله، أو خبرٍ صحيحٍ ثابتٍ عن رسولٍ من رُسلِ الله، ولَنْ يَجِدُوا شيئاً من ذلك في نصّ صحيح ثابت.

أما إذا كان المحرّم لهذه الأمور زعيماً أو كاهناً أو نحوهما، فهُمْ طَوَاعِثٌ يَفْتَرُونَ الكَذِبَ في الدّين على الله عز وجل، أو يَجْعَلُونَ أَنْفُسَهُمْ أَرْبَاباً من دُونِ الله، فَهُمْ يُحْلَلُونَ وَيُحَرِّمُونَ عَلَى مَا يَشَاءُونَ بأهوائهم، فأقوالهم سَاقِطَةٌ، وَالْعَمَلُ بها اتِّبَاعاً لهم هو من الشُّرْكِ، ووضع هذه الأحكام وَالْعَمَلُ بها هو من التَّلَاعُبِ والعبث بدين الله لعباده.

وحين لا يَجِدُ المسؤولون الدّليل المثبت لِمَا يُحَرِّمُونَ مِنْ زِينَةِ اللَّبَاسِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، فَإِنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْبِذُوا تقاليدهم الباطلة، وَيَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، على لِسَانِ رُسُولِهِ مُحَمَّدٍ بن عبد الله ﷺ، ولا يَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ.

وإذا استجابوا لِمَا أُلْزِمُوا به في نِهَايَةِ المناظرة، فعَلَيْهِمْ أَنْ يُضْغُوا إلى التّعليم الَّذِي يُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهُ رسولُ الله ﷺ.

وَمِنَ التّصَوُّصِ المُشْتَمِلَةِ على بيان الافتراء على الله عز وجل في الدّين، ممّا افتراه أهل الجاهلية، قولُ الله عز وجل في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) خطاباً لِرُسُولِهِ فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَى دِينِ الله مِنْ أُمَّتِهِ:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ ۖ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

وفي هذا النصّ تعليم جدليّ آخر، حول الموضوع نفسه، وفيه طرُح سؤال على المفتريين الذين يفترون على دين الله الكذب:

﴿... ۖ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أي: أنتم بينَ احتمالين لا ثالثَ لهما، بالنسبةِ إلى ما أنزلَ الله لعبادِهِ من رِزقٍ، فجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا بِابْتِدَاعٍ مِنْكُمْ.

الاحتمال الأول: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ.

الاحتمال الثاني: أَنْ تَكُونُوا تَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ.

لكنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَأْذُنْ لَكُمْ، وَهَذِهِ بَدْهِيَّةٌ مِنْ بَدْهِيَّاتِ الدِّينِ، إِذْ لَا دَلِيلَ لَكُمْ مِنْ نَصِّ صَحِيحٍ عَنِ اللَّهِ يَأْذُنُ لَكُمْ بِوَضْعِ أَحْكَامِ الْحَرَامِ وَالْحَلَالِ فِي قَضَايَا الدِّينِ، فَبَقِيَ الْإِحْتِمَالُ الْآخَرُ، وَهُوَ أَنَّكُمْ تَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

﴿... وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ... ۚ﴾

أي: وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ أَنْ تَكُونَ حَالَتُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟! أَيُظَنُّونَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيُغْفِرُهُمْ مِنَ الْمَسْئُولِيَّةِ، وَلَا يُعَاقِبُهُمْ عِقَاباً شَدِيداً عَلَى افْتِرَائِهِمْ فِي التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ دُونَ إِذْنِ مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ صَحِيحٍ مُقْبُولٍ يَسْتَنْدُونَ إِلَيْهِ، وَهُمْ يُشَارِكُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي خَصَائِصِ رَبُّوبِيَّتِهِ!!

إِنْ كَانُوا يُظَنُّونَ مِثْلَ هَذَا الظَّنِّ فَهُوَ ظَنٌّ سَاقِطٌ لَا يُغْنِيهِمْ مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً.

إذا كان المشركون الذين يُعبدون مع الله إلهاً آخر لا يَغْفِرُ اللهُ لَهُمْ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الَّذِينَ يُشَارِكُونَ اللهَ فِي بَعْضِ خَصَائِصِ رُبُوبِيَّتِهِ؟!

إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيُنْزِلُهُمْ فِي ذَرَكَاتِ الْجَحِيمِ عَلَى مَقَادِيرِ افْتِرَائِهِمْ عَلَى خَصَائِصِ رُبُوبِيَّتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

إِنَّ تَدَخُّلَ النَّاسِ فِي التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ فِي قَضَايَا الدِّينِ، قَدْ أَوْصَلَ مِلَلَ أَهْلِ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ، وَمُتْلَاعِبِي أَهْلِ الْكِتَابِ فِي دِينِ اللهِ، إِلَى ابْتِدَاعِ تَحْرِيمَاتٍ غَلَوُ فِيهَا، وَهِيَ فِي شَرْعِ اللهِ لِعِبَادِهِ حَلَالٌ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ وَخَذَهُ الَّذِي لَهُ التَّحْرِيمُ وَالتَّحْلِيلُ فِي الدِّينِ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُحَرِّمَ أَوْ يُحَلِّلَ فِي دِينِ اللهِ شَيْئاً دُونَ إِذْنِ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَفِي بَيَانِ بَعْضِ الْأَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي حَرَّمَ فِيهَا الْمُشْرِكُونَ وَحَلَّلُوا مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْذَوْهُمْ وَلَيْسُوا عَلَيْهِمْ دِينُهمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءَ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعُمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعُمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِمْ سَجَيرُهمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهمْ وَصْفُهمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

في هذا النص بيان طائفة من استهانة أهل الجاهلية بدين الله الموروث عن إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، بالتلاعب بالدين افتراءً على الله، بتحريم ما لم يحرمه الله، واستباحة ما حرمه الله.

فحرم المشركون أنعاماً، وحرموا حزنأ، وجعلوها لآلهتهم من الأوثان. وحرموا زكوب بغض الأنعام. وكانوا يذبحون باسم أوثانهم أنعاماً، ولا يذكرون اسم الله عليها. وجعلوا بعض ما في بطون الأنعام من أجنة قبل أن تولد حلالاً للذكور وحراماً على الإناث، إلا أن تكون ميتة فهي حلال للذكور والإناث. وحرموا بغض ما رزقهم الله من أنعام افتراءً على الله، واستحلوا قتل أولادهم بالوأد افتراءً على الله في دينه.

وكل ذلك من التلاعب بالدين والاستهانة به.

الفرية الأولى في الدين: دل عليها قول الله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣١﴾﴾:

﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾: أي: ممّا خلق، ومن البديهي أن ما خلقه الله فهو ملكه.

﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾: أي: من نتاج الحرث، الحرث: العمل في الأرض لاستنبات زرعها، أو غرس شجرها، ويُطلق الحرث على الزرع الثابت كما ذكر الزجاج.

﴿وَالْأَنْعَامِ﴾: أي: ومن نتاج الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم.

﴿نَصِيبًا﴾: أي: حظاً وحصّة.

﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ﴾: أي: فرزوا النصيب الذي جعلوه لله

بِزَغْمِهِمْ، أَي: بالافتراء الَّذِي افْتَرَوْهُ فِي الدِّينِ، وَقَالُوا: هَذَا لِلَّهِ. وَلَعَلَّهُمْ يَقْصِدُونَ بِأَنَّهُ يُضَرَفُ فِي الْمَصَارِفِ الَّتِي تُرْضِي اللَّهَ، كُمُسَاعَدَةِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالصَّدَقَاتِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَقَرَى الضَّيْفَ.

﴿وَهَذَا إِشْرَاقٌ﴾: أَي: وَفَرَزُوا النَّصِيبَ الْآخَرَ الَّذِي جَعَلُوهُ لِآلِهَتِهِمْ الَّتِي تَرْمُزُ إِلَيْهَا الْأَوْتَانُ، وَقَالُوا: هَذَا لِآلِهَتِنَا.

وَمَا جَعَلُوهُ لِآلِهَتِهِمْ يَسْتَوِي عَلَيْهِ سَدَنَةُ الْأَوْتَانِ، وَالْقَائِمُونَ بِخِدْمَتِهَا، وَتَضْلِيلِ عَابِدِيهَا، وَمَعَهُمْ مَنْ يُعِينُهُمْ وَيُنَاصِرُهُمْ، وَقَدْ يَكُونُ لِلْكَهَنَةِ النَّصِيبُ الْأَوْفَى.

﴿فَمَا كَانَ إِشْرَاقُهُمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾: أَي: فَلَا يُورَعُ مِنْهُ شَيْءٌ فِي الْمَصَارِفِ الَّتِي تُرْضِي اللَّهَ، بَلْ يَسْتَوِي عَلَيْهِ الْمُتَفَعِّلُونَ بِالْمُفْتَرِيَّاتِ فِي الدِّينِ، مِنَ الْكَهَنَةِ وَالسَّدَنَةِ وَأَعْوَانِهِمُ الضَّالِّينَ الْمَضِلِّينَ.

﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾: أَي: وَمَا فَرَزُوهُ لِلَّهِ بِحَسَبِ افْتِرَائِهِمْ فِي الدِّينِ، فَإِنَّ الْمُتَفَعِّلِينَ مِمَّنْ لَهُمُ الرِّعَايَةُ وَالْوِظَائِفُ الدِّينِيَّةُ الْوُثْنِيَّةُ يَسْتَوِلُونَ عَلَيْهِ أَيْضاً، فَلَا يَصِلُ مِنْهُ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَقَرَى الضَّيْفَ إِلَّا التَّزْرُ الْيَسِيرَ، أَوْ لَا يَصِلُ إِلَى هَؤُلَاءِ مِنْهُ شَيْءٌ.

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾: عِبَارَةٌ دَمَّ لِكُلِّ أَحْكَامِ الْمُشْرِكِينَ الْجَاهِلِيَّةِ، مُصَدَّرَةٌ بِأَذَاةِ الْاسْتِفْتَاكِحِ «أَلَا» الَّتِي فِيهَا تَنْبِيهُ بِشِدَّةٍ، وَتَشْهِيرٌ إِعْلَامِي.

الْفِرْيَةُ الثَّانِيَّةُ فِي الدِّينِ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَكَذَلِكَ رَفَعْنَا لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائُهُمْ لِيُزْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (١٢٧).

أي: وكذلك الذي كان مِنْهُمْ من وضع أحكام افتراضية على الله في الدين، ممّا يتعلّق بالحرث والأنعام، زَيَّنَتْ أَلْهَتُهُمْ لكثير مِنْهُمْ إِبَاحَةً أَنْ يَقْتُلُوا أولادهم الصغار عقب الولادة، أو بَعْدَ ذَلِكَ في سِنِّ التمييز، وهذا مَا عُرِفَ بالوَاد، وأسبابه تَرْجِع إلى واحد أو أكثر مما يلي.

(١) التخلّص من الثّقّة، لوجود الفقر الذي يُعانون مِنْه.

(٢) الخوف من حدوث الفقر مستقبلاً.

(٣) مخافة السّبي، الذي يكون من نتائجه عازٌّ على أولياء المسيّات من الإناث، إِذْ يَسْتَمْتَعُ بِهِنَّ الَّذِينَ سَبَوْهُنَّ مِنَ الْغُرَاةِ.

(٤) بِذَعَةِ النَّذْرِ لِلَّهِ، نظير نَذَرِ عَبْدِ الْمُطَلَبِ أَنْ يَذْبَحَ أَحَدَ أولاده، إِذَا رَزَقَهُ اللَّهُ بِأولَادٍ عَشْرَةَ ذُكُورٍ.

ويظهر أنّ هذا التّزيين الذي وُضِعَتْ له أحكام الإباحة هو من فِعْلِ الْكَهَنَةِ أو سَدَنَةِ الأوثان، زَاعِمِينَ أَنَّهُ مِمَّا أَوْحَتْ بِهِ الْإِلَهَةُ الَّتِي تَرْمُرُ إِلَيْهَا الأوثان.

﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾: أي: لِيُسْقِطُوهُمْ في أَوْدِيَةِ الآثام والجرائم، فينالُوا سَخَطَ اللَّهِ وَعِقَابَهُ الأليم.

﴿وَلِيَكْسِبُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾: أي: وَلِيَخْلِطُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ، فيجعلُوا الباطل الجديد المفترى، ضِمْنَ عناصر الحقّ الرّبّاني الموروث المنزل، وَبَطُولِ الْعَهْدِ وَكَثْرَةِ الْعناصر الدخيلة المفتراة تكونُ الغلبة للباطل، وتضمُر عناصر الحقّ حتّى تتلاشى، فلا يَبْقَى من الحقّ الرّبّاني إِلَّا بعضُ شكلياتٍ وموروثاتٍ، هي مِنَ الدّين بمثابة مَقْعَدٍ خشبيٍّ في ساحةٍ قَصِرَ عَظِيم، أو بمثابة علامةٍ فَارِقَةٍ على باب سُورهِ الخارجي.

الفِرْيَةُ الثالثة في الدّين: دَلَّ عَلَيْهَا قول الله تعالى:

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ رِزْقِهِمْ﴾.

﴿حِجْرٌ﴾: أي: مَحْجُورٌ مَمْنُوعٌ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ المَحْجُورَ من الأنعام مَمْنُوعٌ لِأَلْهَتِهِمْ.

لِكِنَّ المستفيدين من هذه المحجورات في الواقع هم الكَهَنَةُ وَخُدَّامُ الأوثانِ وَسَدَنَتُهَا، فَهُمْ يُغْلِبُونَ حَجْرَهَا بِاسْمِ آلِهَتِهِمِ الوثنِيَّةِ، لتكونَ لمنافعهم ومصلحتهم الخاصَّةِ.

﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ رِزْقِهِمْ﴾: أي: يَزْعُمُونَ أَنَّ هَذِهِ المحجورات لا يَجُوزُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا أَوْ يَذُوقَ طَعْمَهَا إِلَّا مَنْ يَأْذَنُونَ لَهُ بِأَنْ يَطْعَمَهَا.

وهذا يَتَضَمَّنُ أَكْذُوبَةً افْتَرَوْهَا لمصلحةِ أنفسهم، ادَّعَوْا فِيهَا أَنَّ آلِهَتَهُمْ جَعَلَتْ لَهُمُ الْوَلَايَةَ عَلَيْهَا، فَمَنْ يَشَاءُ هَؤُلَاءِ من الكَهَنَةِ وَالسَّدَنَةِ وَخُدَّامِ الأوثانِ أَنْ يُطْعِمُوهُ أَطْعَمُوهُ، وَمَنْ يَشَاءُونَ حَرَمَاتِهِ حَرَمُوهُ.

الفِرْيَةُ الرَّابِعَةُ فِي الدِّينِ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾: أي: وقالوا: هَذِهِ أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا، بِمَعْنَى أَنَّهُ يَحْرُمُ رُكُوبُهَا، وَهِيَ الْبَحِيرَةُ، وَالسَّائِبَةُ، وَالْوَصِيلَةُ، وَالْحَامِي، وَسَيَأْتِي بَيَانُهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَدَى تَدْبِيرِ النَّصِّ الْمُسْتَشْهَدِ بِهِ مِنْ سُورَةِ (المائدة).

الفِرْيَةُ الْخَامِسَةُ فِي الدِّينِ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلِيًّا﴾: وَهِيَ مَا يَذْبَحُونَهُ مِنَ الْأَنْعَامِ بِاسْمِ آلِهَتِهِمْ، فَيَذْكُرُونَ عِنْدَ الذَّبْحِ اسْمَ الْوِثْنِ الَّذِي يَذْبَحُونَهَا لَهُ، وَيَسْتَبْعِدُونَ ذِكْرَ اسْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالذَّبِيحَةَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ حَرَامٌ أَكْلٌ لِحَمِّهَا فِي الْإِسْلَامِ، لَمَّا فِيهَا مِنَ الْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ فِي الدِّينِ.

﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتُرُونَ﴾ : أي: سيجزيهم الله عز وجل عقاباً وعذاباً أليماً، بسبب ما كانوا يفترون في دين الله على الله. ومعلوم أن الذبح لغير الله شرك في الله، والله لا يغفر أن يُشرك به. الفرية السادسة في الدين: دل عليها قول الله تعالى:

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰؤُلَاءِ الْأَنَاقِ إِلَّا ظِلٌّ لَّذِكْوَنا وَنَحْمُكُمْ عَلٰى اَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾

وهذه من أحكام أهل الجاهلية المفتراة على دين الله لعباده، إذ جعلوا ما في بطون البحائر والسوايب من الأجنة للذكور خاصة، وهو مُحَرَّم على الإناث، إلا أن يكون ميتة، إذ تلده أمه ميتاً، فيجوز أن يأكل منه الذكور والإناث.

وسياتي إن شاء الله بيان البحائر والسوايب.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ : أي: سيجزيهم الله عز وجل فيعاقبهم بالعذل على مقدار وصفهم من الإثم والافتراء على الله في دينه، وهو الوصف الذي كانوا عليه في الدنيا ولم يتوبوا إلى الله منه.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٤٠):

هَذَا تَعْقِيبُ رَبَّانِي يَكْشِفُ اللَّهُ بِهِ الْمَصِيرَ الَّذِي سَوْفَ يَصِيرُ إِلَيْهِ الَّذِينَ خَالَفُوا شَرِيعَةَ اللَّهِ، وافتَرَوْا على الله الكذب في قضايا دينه لعباده، إذ قضايا الدين من خصائص ربوبيته جل جلاله.

إنَّه الحُكْمُ عَلَيْهِم بِالْخُسْرَانِ.

فالذين خالفوا شريعة الله باستحلال العدوان على أولادهم بالوَاد، سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ، قَدْ خَسِرُوا بِمَقْتَضَى حُكْمِ اللَّهِ عَلَيْهِم بِالْعُقَابِ الَّذِي يَكُونُونَ فِيهِ خَاسِرِينَ خُسْرَانًا عَظِيمًا يَتَعَلَّقُ بِذَوَاتِهِمْ.

وَالَّذِينَ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ فِي قَضَايَا دِينِهِ لِعِبَادِهِ، وَشَارَكُوا اللَّهَ فِي بَغْضِ خَصَائِصِ رُبُوبِيَّتِهِ، قَدْ خَسِرُوا أَيْضاً بِمَقْتَضَى حُكْمِ اللَّهِ عَلَيْهِم بِالْعِقَابِ الَّذِي يَكُونُونَ فِيهِ خَاسِرِينَ خُسْرَاناً عَظِيماً مِنْ ذَوَاتِهِمْ.

﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ هَذَا حُكْمٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: أَي: وَمَا كَانُوا لِيَهْتَدُوا إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، مَهْمَا أُمِّهَلُوا أَنْتَظَاراً لَصَلَاحِهِمْ وَهِدَايَتِهِمْ، لِأَنَّ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَرَغْبَاتِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا كَانَتْ هِيَ السَّائِدَةَ عَلَيْهِمْ، وَكَانَتْ إِرَادَاتِهِمْ ضَعِيفَةً مُسْتَخْذِيَةً تَجَاهِ مَطَالِبِ نَفْسِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا الَّتِي غَرَّتْهُمْ بِزِينَاتِهَا.

■ وَفِي بَيَانٍ تَفْصِيلِيٍّ لِلْأَنْعَامِ الَّتِي حَرَّمَهَا أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ وَتَلَاُعِباً فِي الدِّينِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْمَائِدَةِ/ ٥ مَصْحَف/ ١١٢ نَزُول):

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَذَّبَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١١٣)

الْبَحِيرَةُ:

الْبَحِيرُ عِنْدَ الْعَرَبِ هُوَ شَقُّ الْأُذُنِ، فَالْبَحِيرَةُ هِيَ مَشْقُوقَةُ الْأُذُنِ مِنَ الْأَنْعَامِ «فَعِيلَةٌ» بِمَعْنَى «مَفْعُولَةٌ». وَفِي الْبَحِيرَةِ الْمَحْرَمَةُ عِنْدَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْعَرَبِ ثَلَاثَةُ أَقْوَال:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ: «كَانَ الْعَرَبُ إِذَا نُتِجَتِ النَّاقَةُ عِنْدَهُمْ خَمْسَةَ أَبْطُنٍ إِنَاثاً، بَحَرَتْ أُذُنَهَا (أَي: شَقَّتْهَا) فَحُرِّمَتْ».

الْقَوْلُ الثَّانِي: كَانُوا إِذَا نُتِجَتِ النَّاقَةُ عِنْدَهُمْ خَمْسَةَ أَبْطُنٍ، فَإِنْ كَانَ الْخَامِسُ ذَكَراً بَحَرُوا أُذُنَهُ، فَأَكَلَهُ الرُّجَالُ وَالنِّسَاءُ، وَإِنْ كَانَ الْخَامِسُ أُنْثَى بَحَرُوا أُذُنَهَا، وَكَانَتْ حَرَاماً عَلَى النِّسَاءِ لَحْمُهَا وَلَبَنُهَا.

القول الثالث: كَانُوا إِذَا نُبِجَتِ النَّاقَةُ عِنْدَهُمْ خَمْسَةَ أَبْطُنٍ شَقُّوا أُذُنَهَا، وَحَرَّمُوا رُكُوبَهَا وَلَبَنَهَا.

ولعل هذه الصور كلها كانت مَوْجُودَةً عِنْدَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْعَرَبِ، وهي من افتراءاتهم على الله، ومن التلاعب بأحكام دينه لعباده.

السائبة:

هي الناقة أو البعير يُسَيَّبُ بِنَذْرٍ يَنْذُرُهُ مَالِكُهُ، فَلَا يُخْبَسُ عَنْ رَغْيٍ وَلَا مَاءٍ، وَلَا يُزَكَّبُهُ أَحَدٌ.

وقيل: هي التي تُسَيَّبُ لِلَّهِ فَلَا قَيْدَ عَلَيْهَا، وَلَا رَاعِيَّ لَهَا.

وقيل: هي التي تَابَعَتْ بَيْنَ عَشْرِ إِنَاثٍ لَيْسَ بَيْنَهُنَّ ذَكَرٌ، فَعِنْدَئِذٍ تُسَيَّبُ فَلَا يُزَكَّبُ ظَهْرُهَا، وَلَا يُجَزُّ وَبَرُّهَا، وَلَا يَشْرَبُ لَبَنُهَا إِلَّا ضَيْفٌ.

الوصيلة:

هي الناقة إِذَا وَلَدَتْ أُثْنَى بَعْدَ أُثْنَى. وقيل: هي الشاة كَانَتْ إِذَا وَلَدَتْ أُثْنَى فَهِيَ لَهُمْ، وَإِنْ وَلَدَتْ ذَكَرًا فَهُوَ لِأَهْلِيَّتِهِمْ، وَإِنْ وَلَدَتْ ذَكَرًا وَأُثْنَى قَالُوا: وَصَلَتْ أَحَاها، فَلَمْ يَذْبَحُوا الذَّكَرَ وَجَعَلُوهُ لِأَهْلِيَّتِهِمْ.

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَالٍ تَتَضَمَّنُ أَحْكَامًا جَاهِلِيَّةً سَاقِطَةً حَوْلَ الْمَرَادِ بِعَنْوَانِ «الوصيلة».

الحامي:

هُوَ الْفَخْلُ إِذَا رَكِبَ وَلَدَ وَلَدِهِ. وَيُقَالُ: هُوَ الَّذِي يُنْتَجُ مِنْ صُلْبِهِ عَشْرَةُ أَبْطُنٍ، فَيَقُولُونَ: قَدْ حَمَى ظَهْرَهُ، فَلَا يُزَكَّبُ وَلَا يُمْنَعُ مِنْ كَلَا.

وَمِنْ أَمْثَلَةِ الْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ فِي مَسَائِلِ الدِّينِ وَقَضَايَاهِ، تَحْرِيمُ الْهُنُودِ الْبَرَّهْمَةِ الْبَقَرِ، وَتَعْظِيمُهَا، وَالتَّبَرُّكُ بِأَبْوَالِهَا، وَتَرْكُهَا سَائِبَةً، تَرَعَى مَا تَشَاءُ، وَتَأْكُلُ مَا تَشَاءُ، وَتَدْخُلُ حَيْثُ تَشَاءُ، تَقْدِيسًا لَهَا وَتَعْظِيمًا، إِلَى حَدِّ شَبِيهِ بِعِبَادَتِهَا.

وهذا من التلاعب بدين الله لعباده.

وَمِنْ أَمْثَلَةٍ اتَّخَذَ الدِّينَ لَهَوًا وَلَعِبًا، مَزَاعِمُ الْيَهُودِ إِذْ قَالُوا: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ، مع أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبِأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ التَّوْرَةَ.

وكذلك تَلَاعَبُهُمْ بِإِخْفَاءِ التَّصَوُّصِ الَّتِي تُخَالِفُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ كُتُبِهِمْ، وَتَحْرِيفُهُمْ فِي كَلَامِ اللَّهِ.

وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ آيَةً مَدْنِيَّةً، مَضْمُومَةً إِلَى سُورَةِ مَكِّيَّةٍ فِي مَعْظَمِهَا، لِلْمُنَاسَبَةِ الْفِكْرِيَّةِ، وَهِيَ سُورَةُ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ أَنْ تَقِيمَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ الدَّامِغَةَ دَعَاهُمْ وَلَا تَغْبَأْ بِهِمْ، وَاتْرُكْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ بِدِينِ اللَّهِ عَلَى مَا يَحُلُّو لَهُمْ.

أصلُ الخوض: الْمَشْيُ فِي الْمَاءِ وَتَحْرِيكُهُ، فَيَخْتَلِطُ تَرَابُ الْأَرْضِ بِهِ وَيُفْسِدُ صَفَاءَهُ.

وَاسْتَعْمَلَ الْخَوْضَ بِمَعْنَى اللَّبْسِ فِي الْأَمْرِ، وَالْخَوْضُ مِنَ الْكَلَامِ مَا فِيهِ الْكَذِبُ وَالْبَاطِلُ.



رابعاً

تدبر نصوص الصورة الثانية

وهي الاستهزاء بالدين كله، أو ببغض الأعمال الدينية، واعتبارها أعمالاً غير ذات جدوى، واعتبارها من أعمال اللهو واللعب، ومن الأمور التي يستهزأ بها، لعدم لياقتها بالعقل وأهل الكمال، وكذلك الاستهزاء ببغض الأحكام الدينية، واعتبارها غير موافقة للحق، أو لما هو الأفضل والأحسن في التنظيم والتشريع الملائم لمصالح الناس، وكذلك الاستهزاء بآيات الله، وإنذاراته بالعقاب المعجل، والاستهزاء بوعده ووعيده بالجزاء المؤجل.

وقد جاء في القرآن المجيد حول هذه الصورة نصوص متعدّدة، استغرِضها مع شيء من التدبر الذي يفتح الله به.

النص الأول:

قول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَكِنَّ أَخْرَانَا عَنْهُمْ آلْعَذَابِ إِلَّ أَنْفِ مَعْدُودَةٍ لِّيَقُولُوا مَا يَجْسِبُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾.

[إلى أمة معدودة]: أي: إلى أوقات معدودة، أو إلى مدة معدودة وحداتها الزمنية، وهي ليست بالطويلة في حساب تاريخ الشعوب. يأتي لفظ «أمة» في اللغة بمعنى الحين، والوقت، والمدة.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾: أي: نزل بهم، وأحاط بهم، ويقال لغة: حاق به الأمر يحيق حيقاً، وحيقاً، وحيقاناً، أي: لزمه، ووجب عليه، وأصابه وأحاط به.

والمراد أنه نزل بهم على وجه الإحاطة والشمول، دون أن يجدوا منه خلاصاً ولا مَحِيصاً ولا مَفْراً.

أَبَانَ هَذَا النَّصُّ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ فِي عَصْرِ الرَّسُولِ ﷺ، كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِنَذْرِ الْإِهْلَاكِ الْمُعْجَلِ، الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا بَعْضُ آيَاتِ اللَّهِ الْمَنْزَلَاتِ عَلَى رَسُولِهِ، وَيَقُولُونَ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتَهْزَاءِ بِهَا: مَا يَخْبِسُ هَذَا الْعَذَابَ الَّذِي يُنْذَرُنَا بِهِ مُحَمَّدٌ، فِيمَا يَقُولُ: إِنَّهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي يُنْزَلُ عَلَيْهِ؟.

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾: ﴿أَلَا﴾ أَذَاهُ اسْتِفْتَا ح فِيهَا تَنْبِيهِ شَدِيدٌ قَارِعٌ لِلْأَسْمَاعِ وَالْقُلُوبِ الْوَاعِيَةِ.

أي: أَلَا يَوْمَ تَقْتَضِي حِكْمَةُ اللَّهِ إِنْزَالَ الْعَذَابِ فِيهِمْ، وَإِهْلَاكَهُمْ، فَلَا صَارِفَ يَصْرِفُ عَنْهُمْ ذَلِكَ، بَلْ يَنْزِلُ بِهِمْ مَا كَانُوا قَدْ أَنْذَرُوا بِهِ، وَعِنْدَئِذٍ يَتَحَقَّقُ فِي الْوَاقِعِ التَّطْيِيقُ أَنَّهُ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ يَوْمَ كَانَ وَعِيدًا وَإِنْذَارًا.



النص الثاني:

قول الله عز وجل في أول سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) خُطَابًا لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيتحدث عن المعاندين المعرضين مِنْ كُفَّار قُرَيْشٍ:

﴿طَسَرَ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ ﴿لَعَلَّكَ بَلِغٌ قَلَمَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٣﴾ إِنْ نَشَأْ نُذِرْهُمْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٤ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخَبَّرٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٦﴾:

﴿لَعَلَّكَ بَلِغٌ قَلَمَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٣﴾:

﴿بَلِغٌ قَلَمَكَ﴾: أي: مُهْلِكُ نَفْسِكَ وَقَاتِلُ لَهَا، مِنْ الْحُزْنِ وَالْهَمِّ وَالنَّعَمِ.

﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾: أي: لأجلِ عَدَمِ إيمانِهِمْ ودُخُولِ جماهيرِهِمْ تِبَاعاً في الإسلام. أو خَشْيَةِ أَنْ لَا يَكُونُوا مُسْتَقْبَلًا مُؤْمِنِينَ، مُسْتَجِيبِينَ لدعوة الحق.

أما ﴿لَمَّا﴾ فالأقربُ حمل «لَعَلَّ» هُنَا على أَنَّهَا للاستفهام، على رأي الكوفيين فقد أثبتوا أَنَّهَا تأتي استفهامية، إذ إِنَّ مَعْنَى التَّوَقُّعِ بالنسبة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ يحتاج تأويلاً، أما الاستفهام فلا يحتاج أي تأويل.

فالمعنى: هل أنت يا مُحَمَّدُ مُهْلِكُ نَفْسِكَ حُزْناً وَهَمًّا وَعَمًّا، خَشْيَةً أَنْ لَا يَكُونَ قَوْمُكَ، وَأَهْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ، مُسْتَقْبَلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَكُونُوا مِنَ الْخَالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ.

﴿إِنْ شَأْنُ نَزْلِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٍ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾:

استعمل حرف الشرط «إِنْ» للإشعار بأنَّ فِعْلَ شَرْطِهَا غَيْرُ مُتَوَقَّعِ الحصول، إذ الحكمة لا تَقْتَضِيهِ، فهذه المشيئة لا تَحْصُلُ، ولو حَصَلَتْ لَأَنْزَلْنَا.

﴿نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ﴾: أي: نُزِّلَ عَلَيْهِمْ آيَةٌ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ آيَاتِنَا المخيفة المرهبة لَهُمْ، لِإِلْجَائِهِمْ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، لَكِنَّ هَذَا الْإِلْجَاءَ يَتَنَاقَى مع غاية الابتلاء.

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾: أي: فَصَارَتْ أَعْنَاقُهُمْ فِي وَضْعِ النَّهَارِ مُطَاطِئَةً مُنْكِسِرَةً مُنْخَفِضَةً لَهَا، حَالَةَ كَوْنِهِمْ خَاضِعِينَ مِنْ دَاخِلِ نَفْسِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ.

خَبَرُ «ظَلَّ» محذوف، دَلَّ على معناه كلمة ﴿خَاضِعِينَ﴾ التي هي حالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي [أَعْنَاقُهُمْ] وَصَحَّ مَجِيءُ الْحَالِ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ لِأَنَّ الْمُضَافَ هُنَا بَعْضُ الْمُضَافِ إِلَيْهِ.

﴿وَمَا يَأْنِيهِمْ مِّنْ ذِكْرِ مَنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ ﴿٥﴾﴾ :

﴿مِنْ ذِكْرِ مَنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ﴾ : أي من نجم قرآني . جيء بحرف (من) الزائد في ﴿مِنْ ذِكْرِ﴾ لتأكيد العموم والتنصيص عليه . وجاء ذكر اسم الله الرَّحْمَنُ دون غيره من الأسماء ، للإشارة إلى رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي رَجِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا عباده ، فَأَنْزَلَ لَهُمُ الْقُرْآنَ معلماً ومُرشداً وهادياً إلى سعادة الدنيا والآخرة . وَوُصِفَ النِّجْمُ الْقُرْآنِيُّ الَّذِي يَنْزِلُ بِأَنَّهُ مُحَدِّثٌ لِأَنَّهُ نُزِّلَ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ قَدْ حَدَّثَ فِي زَمَنٍ مَّعْلُومٍ ، وَكُلُّ نَجْمٍ قُرْآنِيٍّ لَهُ زَمَنٌ يَخْدُثُ نُزُولُهُ فِيهِ ، فَهَذَا الْوَصْفُ لَا يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ النَّصِّ ، بَلْ يَتَعَلَّقُ بِتَنْزِيلِهِ فِي زَمَنٍ .

﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ أي : إِلَّا كَانَ هَؤُلَاءِ الْمَعْنِيُونَ الْمَعَانِدُونَ الْمَصْرِؤُونَ عَلَى شِرْكِهِمْ وَبَاطِلِهِمْ عَنِ الذِّكْرِ الَّذِي يَأْتِيهِمْ مِنَ الرَّحْمَنِ مُعْرِضِينَ .

﴿مُعْرِضِينَ﴾ : أي : يُعْطُونَهُ عَارِضَهُمْ ، فَلَا يَسْتَقْبِلُونَهُ بِالتَّلَقِّي الْمَطْلُوبِ .

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ : فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ بَيَانُ عِلَّةِ إِغْرَاضِهِمْ ، وَهِيَ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا الرَّسُولَ فِي ثُبُوتِهِ وَرِسَالَتِهِ ، وَكَذَّبُوا بِكُلِّ مَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِ .

﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ : أي : لَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَى التَّكْذِيبِ ، بَلْ اتَّبَعُوهُ بِالْإِسْتِهْزَاءِ ، وَلَا سِيَّمَا مُوَاعِيدُ نَضْرِ اللَّهِ رَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، وَالِدَافِعُ لَهُمْ أَنْ يَسْتَهْزِئُوا أَنَّهُمْ كَانُوا يَجِدُونَ مُحَمَّدًا وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ضَعْفَاءَ أَذِلَّاءَ لَا قُوَّةَ لَهُمْ ، فَكَيْفَ يَنْتَصِرُونَ عَلَى أَصْحَابِ الْقُوَّةِ وَالْبَأْسِ وَالْمَالِ وَالزَّعَامَةِ فِي مَكَّةَ!!

فَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ أَنَّهُ سَيَأْتِيهِمْ قَرِيباً أَنْبَاءُ نَضْرِ الرَّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ ، إِذْ يَكُونُ النَّبَأُ الْمَوْعُودُ بِهِ وَاقِعاً مَشْهُوداً ، وَأَنَّ جَمَاهِيرَ النَّاسِ سَتَدْخُلُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً .

وَقَدْ تَحَقَّقَ هَذَا بَعْدَ بَضْعِ سَنِينَ ، فِي غَزْوَةِ بَذْرِ الْكِبَرَى وَمَا تَبِعَهَا مِنْ انتصارات للمسلمين ، وهزائم للمشركين .



النص الثالث :

قول الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول): يتحدث عن المعاندين المعرضين من كفار قريش أيضاً:

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٥١﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥٢﴾﴾ :

جاء في هذا النص بيان المعنيين في: وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ، وهم كبراء مشركي مكة يومئذ والآية تعم آية البيان القرآني، الذي هو ذكر، كما جاء في النص الثاني، وتعم الآية التكوينية الإعجازية كآية انشقاق القمر، إلا كانوا عنها معرضين.

فأضاف هذا النص ذكر الآية التكوينية الإعجازية، مبيناً أن موقفهم معها هو موقف الإغراض أيضاً.

وأضاف هذا النص الإشارة إلى أنهم كانوا يستهزئون أيضاً بالثذر التي سوف تتحقق يوم الدين، إذ يتألون عقابهم في نار جهنم، وأبان الله عز وجل أن سبب استهزائهم أنهم كذبوا بالحق فور مجيء الحق الرباني لهم دون تأن ولا تريث، وأبان أنه سوف يأتيهم ما كانوا به يستهزئون، ويكون ذلك يوم الدين.

في النص الثاني جاء استعمال «السين» من حَرْفِي التَّسْوِيفِ، فدل هذا على استهزائهم الموجه لأبناء انتصار الرسول والمؤمنين، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

وفي النص الثالث جاء استعمال «سوف» من حَرْفِي التَّسْوِيفِ، فدل هذا على استهزائهم الموجه لأبناء الوعيد بالعذاب الأليم الذي سوف يكون يوم الدين.

دلني الاستقراء القرآني على أن حَرْفَ «سوف» يستعمل غالباً في

المستقبل البعيد، ومنه يوم الدين، وأن حرف «السين» يُستعمل غالباً في المستقبل القريب، ومعلوم أن ما يتحقق للإنسان في دُنْيَاهُ مُسْتَقْبَلٌ قَرِيبٌ.



النص الرابع:

قول الله عز وجل خطاباً لرسوله محمد ﷺ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً:

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٠)

أي: وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ يَا مُحَمَّدُ فِيمَا أَنْذَرُوا أَقْوَامَهُمْ بِهِ مِنْ هَلَاكِ مُعْجَلٍ، فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مِنْ أَقْوَامِهِمْ، الْهَلَاكِ وَالْعَذَابُ الَّذِي كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ.

حَاقَ بِهِمْ: أي: نَزَلَ بِهِمْ، وَأَحَاطَ بِهِمْ، فَأَهْلَكَهُمْ اللَّهُ بِهِ.



النص الخامس:

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (لُقْمَانَ/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِمَتَرٍ ظَلِيمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرْفًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٧)

● قَرَأَ جُمُهورُ القراء العشرة: ﴿لِيُضِلَّ﴾ مِنْ فِعْلِ «أَضَلَّ» الْمُتَعَدِّي.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [لِيُضِلَّ] مِنْ فِعْلِ «ضَلَّ» اللَّازِم.

وَيَبَيِّنُ القراءتين تَكَامُلًا فِي أَداءِ المعنى المراد، إِذْ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ

لَهُوَ الْحَدِيثُ لِيُضِلَّ غَيْرَهُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، لِيُضْرِفَ نَفْسَهُ عَنْ دَاعِي الْهَدَى إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ، فَيُضِلَّ عَنْهُ.

في هذا النص بيانٌ لخطئة كَيْدِ اتَّخَذَهَا بَعْضُ مُشْرِكِي مَكَّةَ، لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُ، وَلِيُضِلَّ هُوَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، إِذْ يَشْغَلُ نَفْسَهُ بِلَهْوِ الْحَدِيثِ، فَيُضْرِفُهَا عَنْ الْإِسْتِمَاعِ لآيَاتِ اللَّهِ الَّتِي يُبَلِّغُهَا رَسُولُهُ تَبَاعاً، كَمَا يُنْزِلُ اللَّهُ عَلَيْهِ نُجُومَهَا.

وهذا النصُّ يبيِّن أضلاً من الأصولِ الصَّوَارِفِ عن الحقِّ، وعن سماعِ بياناتِ الحقِّ والخير والهدى، وهو شَغْلُ الْأَسْمَاعِ وَالْأَفْكَارِ بِمَا يُلْهِي مِنَ الْحَدِيثِ عَنْ سَمَاعِهَا، وَهَذَا الْمُلْهِي يَتَنَاوَلُ أُمُوراً كَثِيراً تَدْخُلُ فِيهَا الْأَبَاطِيلُ وَالتَّلْفِيقَاتُ وَالْأَكَاذِيبُ مِنَ الْأَسَاطِيرِ وَالْخُرَافَاتِ، فَهِيَ لَهُوَ مِنَ الْحَدِيثِ. وَتَدْخُلُ فِيهَا الْفَلَسَفَاتُ الْمُتَنَاقِضَاتُ الْمُتَعَارِضَاتُ الَّتِي تَصْنَعُهَا الْأَوْهَامُ، وَلَا أَسَاسَ لَهَا مِنَ الْحَقِّ، وَتَدْخُلُ فِيهَا الْحِكَايَاتُ وَالرَّوَايَاتُ الَّتِي يَصْنَعُهَا الْقَصَاصُونَ لِتَسْلِيَةِ النَّاسِ، وَمَلَأَ أَوْقَاتِهِمْ بِهَا. وَتَدْخُلُ فِيهَا الْمَسَاخِرُ وَالْمُضْحِكَاتُ وَالْهَزْلِيَّاتُ الَّتِي يُتَقَنَّهَا فَرِيقٌ مِنَ الْهَزْلِيِّينَ، لِإِضْحَاكِ الْجُمَاهِيرِ وَتَسْلِيَتِهِمْ وَالْهَائِهِمْ. وَتَدْخُلُ فِيهَا أَغَانِي الْمَغَنِّينَ وَالْمَغَنِّيَّاتِ الَّتِي تَسْتَهْلِكُ أَوْقَاتَ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْهَا بِالطَّرَبِ، وَبِالْإِسْتِمَاعِ إِلَى الْأَصْوَاتِ الْحَسَنَةِ وَالْأَلْحَانِ الْمُطْرِبَةِ، فَتُلْهِيَهُمْ عَمَّا هُوَ خَيْرٌ مِنْ عِلْمٍ يَقْتَبِسُونَهُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ، وَبَيَانَاتِ رَسُولِهِ ﷺ. وَكُلُّ هَذِهِ قَدْ تَضَمَّنَ الْإِسْتِهْزَاءَ بِسَبِيلِ اللَّهِ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْمُلْهِيَّاتِ لَا تَأْتِي فِي الْغَالِبِ مَجَاناً، وَإِنَّمَا تُبَدَّلُ فِيهَا الْأَمْوَالُ الْكَثِيرَةُ، فَالْمُضِلُّونَ يَشْتَرُونَ لَهُوَ الْحَدِيثَ بِالْأَمْوَالِ الطَّائِلَةِ، لِيُضِلُّوا مَنْ يَسْتَجِيبُ لاسْتِمَاعِ لَهُوِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ.

وَأَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ يَشْتَرُونَ بِأَمْوَالِهِمُ الَّتِي يَبْذُلُونَهَا لَهُوَ الْحَدِيثَ، لَتَكُونَ عَاقِبَةُ ذَلِكَ أَنْ يَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، إِذْ يَنْصَرِفُونَ بِلَهْوِ

الحديث عن استماع بيانات الحق والخير والهدى، التي تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا آيَاتُ الله المنزلات، وأقوال الرسول الشارحات الهاديات.

وفي هذا النص بيان أن من يشتري لهو الحديث لِيُضِلَّ أو يَضِلَّ عن سبيل الله، وليَتَّخِذْ سبيل الله هزواً، فَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ مُذِلٌّ. وفيه بيان أن هذا الصنف من الناس إذا تَثَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُ اللَّهِ وَلَّى مُسْتَكْبِراً عن اتباعها، ومُدْبِراً مُبْتَعِداً عَنْهَا، كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهَا، كَأَنَّهُ فِي أُذُنِهِ ثِقَلًا فِي السَّمْعِ قَرِيباً مِنَ الصَّمَمِ.

﴿كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ وَرَقًا﴾: الْوَقْرُ: صَمَمٌ، أَوْ ثِقَلٌ شَدِيدٌ فِي السَّمْعِ قَرِيبٌ مِنَ الصَّمَمِ.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: أَي: فَبَشِّرْهُ أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ بِبَشَارَةِ تَهْكُمِيَّةٍ تُمَاتِلُ اسْتَهْزَاءَهُ بِآيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. هذه البشارة، هي بَشَارَةٌ لَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ الدِّينِ.



النص السادس:

قول الله عز وجل في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

في هذا النص بيان لِقِطَةٍ مِنْ لَقَطَاتِ نَدَمِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِمَا جَاءَ فِي آيَاتِ اللَّهِ مِنْ أَنْبَاءِ يَوْمِ الدِّينِ، حِينَ يَنْزِلُ بِهِمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِحَاطَةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ تَحْقِيقُ مَا كَانُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا يَسْتَهْزِئُونَ، وَهُوَ عِقَابُ اللَّهِ الشَّدِيدُ لَهُمْ، فَلَوْ أَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ يَوْمَئِذٍ كُلَّ مَا فِي الْأَرْضِ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ، لَعَرَضُوا بِذَلِكَ

لِيَفْتَدُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلَكِنْ هِيَاتِ هَيَاتِ، إِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ يَوْمَئِذٍ شَيْئاً. وَلَوْ كَانُوا يَمْلِكُونَ ذَلِكَ وَقَدَّمُوهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُمْ.

لقد انتهت مَرَحَلَةُ الامتحان، وجاءت مَرَحَلَةُ الحساب، وَفَضِلِ القضاء، وتحقيق الجزاء.



النص السابع:

قول الله عز وجل في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) مُوجِّهاً أنظار الكافرين برسالة محمد والمستهزئين بما جاء فيها، للاعتبار بأحوال الكافرين السابقين الذين كذبوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، واستهزؤوا بنذر العذاب المَعَجَّلِ الذي أنذروهم به، فأنزل الله عقابه الشامل فأهلكهم، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً مِنْ مُشْرِكِي قَرِيش:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَعَادُوا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

إِنَّ آثار الكفار المهلكين السابقين موجودة في أماكن مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الأرض، وهي دالَّة على سُنَّةِ اللَّهِ في عباده، لمن شاء أَنْ يَغْتَبِرَ، وَمَا عَلَى الشَّاكِّينَ إِلَّا أَنْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فِي جِهَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، لِيَصِلُوا إِلَى مَوَاطِنِ آثَارِ السَّابِقِينَ، حَتَّى يُشَاهِدُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ اللَّهِ الْمُعَجَّلِ لِأَهْلِ الْكُفْرِ، وَقَدْ كَانُوا فِي مَوَاطِنِهِمْ أَهْلَ قُوَّةٍ وَبَأْسٍ وَمَنْعَةٍ وَذَوَلٍ عَظِيمَةٍ.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بَلَاغاً عَنْ رَبِّهِمْ تُبَيِّنُ لَهُمْ قَضَايَا الدِّينِ، وَتُحَذِّرُهُمْ مِنَ الشَّرِكِ، وَتُنذِرُهُمْ بِعَذَابِ اللَّهِ الْمَعْجَلِ وَالْمُؤْجَلِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا الَّتِي يُحَقِّقُونَ بِهَا مَطَالِبَهُمْ مِنْهَا، وَلَمْ يَسْتَقْبِلُوا مَا جَاءَهُمْ بِهِ رُسُلُ رَبِّهِمْ بِالْإِيمَانِ وَالْإِتِّبَاعِ، بَلْ وَاجَهُوهُ بِالتَّكْذِيبِ وَالْجُحُودِ وَالْهُزْءِ وَالسُّخْرِيَّةِ، وَلَا سِيَّما تُذَرُّ الْعَذَابِ الْمَعْجَلِ الْمَهْلِكِ لَهُمْ.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: أَي: وَنَزَلَ بِهِمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِحَاطَةِ الشَّامِلَةِ الْعَذَابُ وَالْهَلَاكُ الَّذِي كَانُوا يَخْصُونَهُ بِالاسْتِهْزَاءِ، اعْتِدَاداً بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ قُوَّةٍ وَبَأْسٍ.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾: أَي: فَلَمَّا رَأَوْا وَسَائِلَ عَذَابِ اللَّهِ قَدْ بَدَأَتْ تَنْزِلُ فِي أَرْضِهِمْ وَعَلَى مَسَاكِينِهِمْ.

﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾:

لَقَدْ أَعْلَنُوا إِيْمَانَهُمْ حِينَ لَا يَنْفَعُ الْإِيمَانُ، إِذْ هُوَ إِيْمَانٌ بَعْدَ الشُّهُودِ الْحَسِّيِّ، وَانْتِهَاءُ مُدَّةِ الْامْتِحَانِ، وَالْمَطْلُوبُ فِي الْإِبْتِلَاءِ أَنْ يَكُونَ الْإِيمَانُ إِيْمَاناً بِالْغَيْبِ، لَا إِيْمَاناً بِالشَّيْءِ الْمَشْهُودِ بِالْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ.

فَلَمْ يَنْفَعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ حِينَئِذٍ، وَهَذِهِ هِيَ سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ جَمِيعاً، سَابِقِيهِمْ وَلاحِقِيهِمْ.



التص الثامن:

قول الله عز وجل في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول):

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ

يَسْمَعُهَا فَيَنزِعُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ مَوَائِنِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هَزْوَاً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩﴾ مَن وَرَّاهُمُ جَهَنَّمُ وَلَا يَغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ :

﴿أَفَّاكٌ﴾ : أي : كثير الإفك، وهو الكذب، وكثير التافيك، وهو التكذيب بالحق، وكثير الضلال، من قولهم : أفك عنه، أي : ضل. أما كثير الإضلال بالضرف عن الحق، فمن قولهم : أفك فلاناً عن الشيء أفكاً، أي : صرفه عنه، فهو أفاك، مبالغه أفك.

﴿أَثِيرٌ﴾ : أي كثير الإثم، وهو الذنب، ويُطلق الإثم على كبائر الذنوب وصغائرها في القرآن، وعلى الظاهر منها والباطن. والأثيم : هو المسرف الغالي في ارتكاب الذنوب، ويختص بالكافر الفاجر.

﴿يُضِرُّ﴾ : أي : يثبت على ملازمة ارتكاب الإثم بمكابرة وعناد.

أَصْرٌ يُصِرُّ على الأمر، أي : ثبت عليه ولازمه، وأكثر ما يستعمل في الإصرار على الباطل، والإثم، وفعل الشر، واجتناب فعل الخير.

• ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيرٍ ﴿٧﴾﴾ : أي : عذاب شديد في وادي وزل من جهنم لكل كذاب كثير التكذيب بالحق الرباني، ضال مضل، مسرف عال في ارتكاب الذنوب والآثام.

• ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ :

أي : يسمع آيات الله المنزلة في كتابه العزيز تُنَلَّى عليه، ويفهم معانيها، وبعد ذلك يصِرُّ على كفره معانداً مُسْتَكْبِراً عن الإيمان بالرسول، وعن اتباع آيات الله والعمل بها، كأنه لم يسمعها ولم يفهم معانيها.

• ﴿... فَيَنزِعُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ : أي : فبشزه أيها المؤمن الداعي إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، بعذاب أليم مُعَذِّلُهُ عِنْدَ رَبِّهِ يَنَالُهُ يَوْمَ

الدّين، وَقَدْ يَنْزِلُ بِهِ أَيْضاً عَذَابٌ مُّعَجَّلٌ فِي الدُّنْيَا إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ ذَلِكَ.

لِمَ اخْتِيرَ فِعْلُ «بَشَّرَ» الَّذِي يُسْتَعْمَلُ فِي اللُّغَةِ غَالِباً فِي الْإِخْبَارِ بِمَا يَسُرُّ، فِي الْإِنذَارِ بِالْعَذَابِ؟

قال البلاغيون: مثل هذا الاستعمال يأتي على سبيل التهكم بالمصرّ على باطله، الرافض لدعوة الحق.

أقول: يمكن أن يكون توجيهها لحامل الرّسالة، أَنْ يَتَلَطَّفَ بِمَنْ يَدْعُوهُ وَلَوْ وَجَدَ مِنْهُ إِصْرَاراً عَلَى بَاطِلِهِ وَعِنَاداً، بِأَنْ يُعَلِّمَهُ أَنَّ اللَّهَ أَعَدَّ عَذَاباً أَلِيماً لِلْكَافِرِينَ، بِمَثَلِ الْأَسْلُوبِ النَّاعِمِ اللَّيِّنِ الَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ عَادَةً فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ مِنْ بُشْرِيَّاتٍ.

● ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ مَوَاقِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هُزُوًّا﴾: أي: ومن شأن هذا المصرّ على كُفْرِهِ، أَنَّهُ إِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْكُونِيَّةِ الْإِعْجَازِيَّةِ شَيْئًا، كَأَيَّةِ انشِقَاقِ الْقَمَرِ، جَعَلَهَا مَحَلًّا لَهْزُؤِهِ وَسُخْرِيَّتِهِ، لِيَصُدَّ مَنْ يَتَأَثَّرُ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ عَنِ الْإِيمَانِ بِالرُّسُولِ وَاتِّبَاعِهِ، بِأَسْلُوبِ الْهَزْءِ وَالسُّخْرِيَّةِ مِنْ آيَةِ اللَّهِ الْمَعْجِزَةِ.

● ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾: أي: أُولَئِكَ الْبُعْدَاءُ إِلَى جِهَةِ الْحَضِيضِ حَتَّى الدَّرَكِ الْأَسْفَلَ مِنَ النَّارِ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ لَهُمْ، وَوَضِعٌ لَهُمْ فِي أَوْحَالِ الصَّغَارِ وَالْمَذَلَّةِ، عِقَاباً لَهُمْ عَلَى اسْتِكْبَارِهِمُ الَّذِي جَعَلَهُمْ فِي الدُّنْيَا يُصِرُّونَ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَيَجْحَدُونَ دَعْوَةَ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ.

● ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾: أي: مِنْ وَرَاءِ الْمَنْظُورِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، جَهَنَّمُ تَنْتَظِرُهُمْ لِيَكُونُوا أَصْحَابَهَا الْخَالِدِينَ فِيهَا.

● ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾: أي: وَلَا يَضُرُّ عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ مَالٍ وَقُوَّةٍ، شَيْئاً مِنَ الْجِزَاءِ الَّذِي سَوْفَ يُحُلُّ بِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ.

● ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ﴾ : ولا يَصْرِفُ عَنْهُمْ شَيْئاً من الجزء أيضاً ما اتَّخَذُوا في الحياة الدنيا من دون الله أولياء من الإنس أو الجن أو الملائكة، أو الأوثان التي عَبَدُوهَا من دون الله، وجَعَلُوهَا شركاء لله افتراءً عليه.

● ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠) : أي : ولهم في جهنم يوم الدين عذاب عظيم، جزاء كُفْرِهِمْ وعنادهم وإضرارهم على باطلهم، محافظةً على مكانتهم الاجتماعية التي هم فيها مُسْتَكْبِرُونَ.



النص التاسع :

قول الله عز وجل في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول) أيضاً :

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ عَلَيْنَا فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ﴾ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَنْدِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَسْنَأْ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرٍ﴾ (٣٤) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ حُرُوفًا وَغَرَّبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ﴾ (٣٥) :

● ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ عَلَيْنَا فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ﴾ (٣١) :

أي : يقول الله لهم يوم القيامة، أَلَمْ تَأْتِكُمْ رُسُلِي في الحياة الدنيا، فبلغتكم عني، وتلت عليكم آياتي التي أنزلتها لإغلامكم بما يجب عليكم في رحلة امتحانكم، ولهدايتكم إلى صراطي المستقيم الذي يوصل من سلكه إلى جنات النعيم، فاستكبرتم عن الإيمان برُسُلِي، وعن اتباع آياتي المنزلات، وكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ! :

استفهام من الربّ لهم يوم الدين، لانتزاع اغترافهم على أنفسهم بأنهم تَبَلَّغُوا، فَكَفَرُوا، واستكبروا وكانوا قوماً مجرمين.

المجرم: هو المذنب ذنباً كبيراً، وجاء في القرآن لفظ «المجرمين» عنواناً مُقابلاً للمسلمين، ووصفاً للكافرين المهلكين في الدنيا بعذاب شامل، ووصفاً للمعذبين يوم القيامة في النار الخالدين فيها.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِينَ﴾ (٣٢):

أي: ويقول الله عز وجلّ لهم يوم القيامة في موقف الحساب: وكثُمتُ في الحياة الدنيا حياة الامتحان، إِذَا قِيلَ لَكُمْ: إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بالبعث وبما بَعْدَ البعث من حَشَرٍ، وحسابٍ، وَفَضْلٍ قَضَاءٍ، وَتَنْفِيذٍ جزاء للمتقين في جنّات النعيم، وللمجرمين بعذاب أليم في الجحيم، وَإِذَا قِيلَ لَكُمْ: السَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا، كَذَبْتُمْ وَجَادَلْتُمْ بِالْبَاطِلِ، وَقُلْتُمْ: مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ؟ أي: ليس لَدَيْنَا عِلْمٌ بِحَقِيقَتِهَا (والمراد سَاعَةُ الْبَعْثِ إلى الحياة الأخرى) وَقُلْتُمْ: إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا، أي: إِنْ الْأَنْبَاءَ الَّتِي جَاءَتْنا عَنْهَا لَمْ تَتْرُكْ فِي أَذْهَانِنَا عَنْهَا إِلَّا ظَنًّا ضَعِيفًا، لَا يَصِحُّ أَنْ نَتْرُكَ مِنْ أَجْلِهِ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ زِينَاتِ الْحَيَاةِ وَمَتَاعِهَا وَلَذَاتِهَا، وَلَا يَصِحُّ أَنْ نَتْرُكَ مِنْ أَجْلِهِ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ عَقَائِدَ وَعِبَادَاتٍ موروثةٍ عن آبائنا وأجدادنا. وَقُلْتُمْ أَيْضًا: وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِينَ.

أي: وَمَا نَحْنُ بِعَالِمِينَ بِصِدْقِ الْوَعْدِ عِلْمًا يَقِينًا لَا شَكَّ فِيهِ، فَنَحْنُ لَا نَعْبَأُ بِهِ، وقد كانوا يَسْتَهْزِئُونَ بِأَنْبَاءِ الْوَعِيدِ الَّتِي تَوَجَّهَ لَهُمْ مِنَ الرُّسُلِ وَمِنْ حَمَلَةِ رِسَالَتِهِمْ.

لَكِنَّ حُجَّةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ دَامِغَةً، إِذْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ، لِيُذْهِبُوا بِهِ الْحَقَّ، وَكَانَتْ أَهْوَاؤُهُمْ وَشَهَوَاتُهُمْ وَرَغْبَاتُهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا هِيَ الْحَاكِمَةُ عَلَى إِرَادَاتِهِمْ، وَالطَّامِسَةُ لِبَصَائِرِهِمْ، وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ حَقًّا.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾﴾ :

أي: وتُكشَفُ لهم صحائفهم في موقف الحساب الربَّاني، لفضل القضاء بشأنهم، فيشاهدون فيها سيئات ما عملوا في الحياة الدنيا، بالتصوير المطابق لما كانوا عليه في الدنيا، مع الصوت، والنبات، وحركات النفوس، وخَوَاطِرِ الأفكار.

وبَعْدَ الإدانة الربَّانية لهم بِالْعَدْلِ، يُضْدِرُّ اللَّهُ جَلَّ جلالُهُ أَحْكَامَهُ فيهم بالعذاب الذي كانوا به يَسْتَهْزِئُونَ.

عِنْدَئِذٍ يَجِدُونَ أَنَّهُ قَدْ نَزَلَ بِهِمْ عَلَى سَبِيلِ الإِحَاطَةِ التَّامَّةِ، مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ مِنْ وَعِيدِ اللَّهِ لَهُمْ بِالْعَذَابِ.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ :

أي: وَيُقَالُ لَهُمْ بَعْدَ إلقائهم في عذاب النار تنفيذاً لقضاء الله فيهم: الْيَوْمَ نَنسَاكُم، أي: نَنسِفُكُمْ مُهْمَلِينَ فِي عَذَابِكُمْ، لَا يُغْبَأُ بِكُمْ، وَلَا تُسْتَجَابُ مَطَالِبُكُمْ، كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، أي: كَمَا تَرَكْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، الْإِيمَانَ بِلِقَاءِ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَتَرَكْتُمْ الْعَمَلَ بِمَا يُنْجِيكُمْ مِنَ الْعَذَابِ فِيهِ، وَتَرَكْتُمْ الْعَمَلَ بِمَا يَجْعَلُكُمْ فِيهِ مِنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ بِفَضْلِ رَبِّكُمْ.

وَالْيَوْمَ مَأْوَاكُمُ النَّارُ، أي: مَنْزِلُكُمْ وَمَكَانُكُمْ الَّذِي تَسْكُونُونَ فِيهِ دَوَاماً وَتَسْتَقِرُّونَ فِيهِ دَارُ الْعَذَابِ النَّارِ.

وَالْيَوْمَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ يَنْصُرُونَكُمْ، فَيُخْرِجُونَكُمْ مِنَ النَّارِ، أَوْ يُخَفِّقُونَ عَنْكُمْ مِنْ عَذَابِهَا شَيْئاً.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ هُزُواً وَعَرَّتْكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾

أي: ذَلِكَ الْعَذَابُ الَّذِي حَاقَ بِكُمْ، وَذَلِكَ الْإِهْمَالُ الْمُهِينُ الَّذِي نَزَلَ

بِكُمْ وَأَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ تَتَقَلَّبُونَ، قَدْ كَانَ بِسَبَبِ أَنْكُمْ اتَّخَذْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا آيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتِ، وَأَيَّاتِهِ الْكُونِيَّةِ الْإِعْجَازِيَّةِ، هَدَفًا لِيُتَوَجِّهَ هُزْؤُكُمْ وَسُخْرِيَّتُكُمْ.

وَالَّذِي طَمَسَ بِصَائِرِكُمْ، وَصَرَفَكُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَعَمَّا هُوَ سَبِيلُ سَعَادَتِكُمُ الْأَبَدِيَّةِ، هُوَ أَنْكُمْ غَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا بِزِينَاتِهَا وَأَنْوَاعِ مَتَاعِهَا.

﴿... فَأَلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْقَنُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

فِي هَاتَيْنِ الْجَمْلَتَيْنِ الثَّقَاتِ عَنْ مُحَاطَتَيْهِمْ، وَفِيهِمَا إِعْلَامٌ بِقَضِيَّتَيْنِ.

القَضِيَّةُ الْأُولَى: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكَفَرَةَ الْمَجْرِمِينَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْ دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ، بَعْدَ إِقْلَاقِهِمْ وَإِذْخَالِهِمْ فِيهَا لِيَلْقَوْا عَذَابَهُمُ الْأَبَدِيَّ الْمُسْتَمِرَّ.

القَضِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّهُمْ لَا يُزْفَعُ عَنْهُمْ الْعُتْبُ، وَهُوَ اللَّزْمُ عَلَى جَرَائِمِهِمْ مَهْمَا دَعَوْا وَتَضَرَّعُوا، وَصَاحُوا وَأَضْجَعُوا.



النص العاشر:

قول الله عز وجل في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) خطاباً للمشركين إبان التنزيل، في معرض الحديث عن عاد قوم النبي الرسول هود عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: وَلَقَدْ مَكَّنَّا عَادًا فِي شَيْءٍ كَثِيرٍ مِنَ الْمَالِ وَالْقُوَّةِ وَالْبَأْسِ، مَا مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً يُذَرِّكُونَ بِهَا حَقَائِقَ قَضَايَا الدِّينِ، فَلَمْ تَكْفِهِمْ هَذِهِ الْأَدَوَاتُ الَّتِي تُكْسِبُ مِنْ اسْتِعْمَلَهَا فِيمَا خُلِقَتْ لَهَا

علماً صحيحاً بقضايا الدين، لأنهم كانوا يَجْحَدُونَ بآيات الله مع علمهم بأنها حق، ومعلوم أن دوافع جُحودهم تَزِجُ إلى أهوائهم وشهواتهم ورغباتهم من الحياة الدنيا.

وكانوا يَسْتَهْزِئُونَ بِنذر الهلاك المعجل، التي كان هود عليه السلام يُنذِرهم بها، وكانت عاقبتهم أنه نَزَلَ بِهِمْ على سبيل الإحاطة الشاملة الهلاك الشامل الذي كانوا به يَسْتَهْزِئُونَ.

● ﴿فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾: «ما» اسم موصول و«إِنْ» حرف نفى بمعنى «ما» النافية. وقيل «إِنْ» زائدة، والمعنى على هذا القول: فيما قد مكناكم فيه.

لكن المعنى الأول هو المعنى الذي يشهد لصحته قول الله عز وجل في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول) خطاباً للمشركين أنفسهم:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا اللَّهُ لِيُظِلَّيَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا السَّوْءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾.

ونظيره عدة نصوص أخرى في عدة سور. منها (فاطر - وغافر - ومحمد - والتوبة).

● ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾: «مِنْ» حرف جر زائد لتأكيد عموم النفي والتنصيص عليه.

● ﴿يَجْحَدُونَ﴾: الجُحود هو إنكار الشيء مع العلم بأنه حق - يقال لغة: جَحَدَ الأمر، وجَحَدَ به.



النص الحادي عشر:

قول الله عز وجل في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ۝٥٦﴾:

أي: وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ الْمُبَلِّغِينَ عَنَّا الَّذِينَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَاهُ لِعِبَادِنَا، والكَتَابَ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ هُدًى وَرَحْمَةً، لِيُكْرِهُوا النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، بَلْ لِيُبَشِّرُوا مِنْ آمَنَ وَاتَّبَعَ سَبِيلَ الْهُدَى بِالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَلِيُنْذِرُوا مَنْ كَفَرَ وَكَذَّبَ وَعَانَدَ وَأَصْرَّ عَلَى بَاطِلِهِ بِأَنَّ لَهُ عَذَابًا أَلِيمًا يَوْمَ الَّذِينَ، بِحُكْمِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فِي نَارِ جَهَنَّمَ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجْرِمِينَ، وَالْعَصَاةِ الْآثِمِينَ الظَّالِمِينَ.

وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا رُسُلَ اللَّهِ وَحَمَلَةَ رِسَالَتِهِمْ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ، بِالْبَاطِلِ مِنَ الْأَدْلَةِ، وَمِنَ الْأَقْوَالِ الْمَزْخَرَةِ بِزِينَاتٍ وَهَمِيَّةٍ، وَمِنَ الْأَفْكَارِ الْمَزْيِفَةِ، لِيُدْحِضُوا بِجَدْلِهِمُ الْحَقَّ، فَيُزْلِقُوهُ فِي مَزَالِقِ الشُّبُهَاتِ وَالتَّلْبِيسَاتِ، حَتَّى يُزِيلُوهُ عَنْ مَوَاقِعِ ثَبَاتِهِ فِي أَذْهَانِ وَقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ. وَلِإِشْعَارِ جَمَاهِيرِهِمْ بِصِحَّةِ جَدَلِيَّاتِهِمْ، يَسْتَخْدِمُونَ وَسَائِلَ الْهَزْءِ وَالسُّخْرِيَّةِ بِآيَاتِ اللَّهِ الْمُبَيِّنَاتِ لِلْحَقِّ، وَالْهَزْءِ وَالسُّخْرِيَّةِ بِمَا أُنْذِرُوا بِهِ مِنْ قَبْلِ رُسُلِ رَبِّهِمْ، أَوْ أُنْذِرُوا بِهِ فِي كِتَابِهِ الْمَنْزُولِ لِهَدَايَتِهِمْ، وَإِقْنَاعِهِمْ بِالْحَقِّ، وَتَرْغِيبِهِمْ بِشَوَابِهِ، وَتَرْهيبِهِمْ مِنْ عِقَابِهِ الْعَاجِلِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ، وَالْآجِلِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.



النص الثاني عشر:

قول الله عز وجل في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) أيضاً، خطاباً لرسوله، فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١١٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١١٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١١٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١١٦﴾ ﴿١﴾

في هذا النصّ تعلّيمٌ أسلوبٍ من أساليب الدعوة إلى الله وإلى التزام صراطه المستقيم، الذي اشتمل عليه الدين الذي اصطفاه الله لعباده، وجعله الطريق الوحيد للزّيح الأبديّ والسّعادة الخالدة في جنّات النّعيم يوم الدين.

ويبدأ هذا الأسلوب بطرح سؤالٍ على المدعوين، يُشارك في طرحه كلّ من آمن بالله ورسوله وبما أنزل الله على رسوله، والداعي إلى الله يتحدّث عنهم جميعاً، باعتبارهم مؤمنين بما يدعو إليه، فيقول:

• ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١١٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١١٤﴾ ؟؟.

أي: هل تريدون أن نعرض عليكم هذا النّبأ العظيم الذي يهّم كلّ ذي عقلٍ ورشدٍ، حريصٍ على سعادته في الدنيا والآخرة، وهذا النّبأ يتضمّن بياناً أخسر الخاسرين أعمالاً، الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا، إذ لم يسلّكوا طريق نجاتهم ونجاحهم والربح الذي يكون سبب سعادتهم الأبدية، أو انحرّفوا عنه بعد السّير فيه، وهم بجهلهم وغفلتهم وغرورهم واتباعهم أهواءهم وشهواتهم، يحسبون أنهم يحسنون صنْعاً، لحاضرهم ومستقبل وجودهم؟؟.

فعل «حَسِبَ يحسب» لم يستعمل في القرآن إلا في الظنّ التوهميّ الضعيف، الذي لا يصحّ أن يعتمد عليه عاقل رشيد.

فإذا قال المدعوون: نعم، نريد أن نعرف هذا النّبأ العظيم.

قال الداعي: أولئك البُعْداء إلى جهة الحضيض، هم الذين كفّروا

بآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ، مَعَ أَنَّ آيَاتِ رَبِّهِمُ الْمَنْزَلَاتِ تَدْعُو إِلَى الْحَقِّ، وَالْخَيْرِ وَالْهُدَى، وَالصُّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي يُحَقِّقُ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ الْخَالِدَةَ، لِمَنْ التَّزَمَهُ فِي مَسِيرَةِ حَيَاتِهِ، وَمَعَ أَنَّ لِقَاءَ اللَّهِ مِنَ الْقَضَايَا الَّتِي تُثَبِّتُهَا بَرَاهِينُ الْعَقْلِ، وَجَاءَتْ بِهَا أَنْبَاءُ جَمِيعِ رُسُلِ اللَّهِ الصَّادِقِينَ، فَالْبَعْثُ حَقٌّ وَالْحَيَاةُ الْآخِرَى حَقٌّ، وَاللَّهُ الَّذِي خَلَقَنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَبْلُوَنَا، هُوَ الَّذِي سَيَبْعَثُنَا إِلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَى لِيُحَاسِبَنَا عَلَى أَعْمَالِنَا الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ.

وهؤلاء البعداء عن رحمة الله الكافرون بالحق، يَكْدُونُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَذًا مُضْنِيًّا، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّهُمْ سَيُحَقِّقُونَ لَأَنْفُسِهِمْ مُسْتَقْبَلًا سَعِيدًا، بِمَا يَجْمَعُونَ مِنْ أَمْوَالٍ وَقُوَّةٍ وَأَنْصَارٍ، لَكِنَّمَا يَجِدُونَ فِي آخِرِ رِخْلَتِهِمْ أَنَّ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي كَانُوا قَدْ عَمِلُوهَا، لَمْ تَحَقِّقْ لَهُمْ مَا يَضْمَنُ لَهُمْ سَعَادَةً حَقِيقَةً، بَلْ يَجِدُونَهَا قَدْ حَبِطَتْ، أَيْ: بَطَلَتْ، فَلَا قِيَمَةَ لَهَا، وَلَا وَزْنَ لَهَا عِنْدَ رَبِّهِمْ، فَلَا يَقِيُمُ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنَ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا عَمَلًا لآخِرَتِهِمْ لَهُ وَزْنٌ عِنْدَهُ يَوْمَ الدِّينِ.

وَإِذْ لَيْسَ لَهُمْ عَمَلٌ ذُو وَزْنٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ فَقَدْ خَسِرُوا ذَوَاتَهُمْ، فَكَانُوا بِذَلِكَ أَخْسَرَ الْخَاسِرِينَ.

فَمَا هُوَ جَزَاؤُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟!

الجواب: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝﴾.

المشارُ إليه البعيد هو ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ وجملة: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ مبتدأ وخبر. ولفظ ﴿جَهَنَّمُ﴾ عطفٌ بيان.

● ﴿بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾: أي: كان لهم هذا الجزاء الأليم والعاقبةُ التَّعِيسَةُ، بسبب كُفْرِهِمْ وَاتِّخَاذِهِمْ آيَاتِ اللَّهِ وَرُسُلَهُ هَدَفًا لِهَزْنِهِمْ وَسُخْرِيَّتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.



النص الثالث عشر:

جاء في أول سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) قول الله عز وجل خطاباً للمشركين الذين كانوا يستعجلون نُذَرَ الْعَذَابِ، مستهزئين بها.

﴿أَفَأَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعِجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٦)

أي: قَرُبَ تحقيقُ إنذارِ الله لَكُمْ بنَصْرِ رَسُولِهِ والذين آمنوا به واتبعوه، فَلَا تَسْتَعِجِلُوهُ، لِأَنَّهُ قَادِمٌ قَرِيبٌ لَا محالة.

ثم جاء في أثناء السورة، قولُ الله عز وجل مُبَيَّنًا للمستكبرين المستهزئين، اقتراب وقتِ تحقيق الوعيد بمن يستحق ذلك مِنْهُمْ:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) ﴿

أي: هل ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أزواجهم، وإنزال العذاب بهم، مع بدء مُقَارَفَتِهِمْ لظُروف الحياة الدنيا، أو أن يأتي أمرُ ربك بإهلاكهم، كما أهلك أشباههم من أهل القرون الأولى، إذ نزل بهم عقابُ سَيِّئَاتِ مَا عَمِلُوا، وأحاطَ بهم العذاب الذي كانوا بآثابِهِ يَسْتَهْزِئُونَ.



النص الرابع عشر:

الْمَحَ اللَّهُ عز وجل في أوائل سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٥ نزول) إلى اقتراب موعدِ نصرِ الله رَسُولِهِ والذين آمنوا معه على عدوهم أئمة الكُفْرِ والشرك والكبر والعناد في مكة فقال تعالى:

﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٥) وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ ﴿٧﴾ .

وبَعْدَ آيَةِ دَعَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى التَّفَكُّرِ فِي أَنْفُسِهِمْ،
وفي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَحَمَتُهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْيَسَنِتِّ فَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا السُّوْءَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ :

السُّوْءَى: مؤنَّثُ الْأَسْوَى، والمرادُ الْعَاقِبَةُ الْأَكْثَرُ سُوءاً، إِذْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِمُ الْعَذَابَ وَالْهَلَكَ فِي الْعَاجِلَةِ، وَسَوْفَ يُعَذَّبُونَ بِنَارِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ، جَزَاءَ تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَجَزَاءَ أَنَّهُمْ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ.



النص الخامس عشر:

وأخيراً حَذَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَنْ يَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هُزُوًّا وَلَعِبًا أَوْلِيَاءَ، فَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هُزُوًّا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًّا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ :

رُوي في سبب نزول هذا النص عن ابن عباس، قال:

«كَانَ مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا نَادَى بِالصَّلَاةِ فَقَامَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: قَدْ قَامُوا، لَا قَامُوا. فَإِذَا رَأَوْهُمْ رَكَعُوا وَسَجَدُوا اسْتَهْزَؤُوا بِهِمْ، وَضَحِكُوا مِنْهُمْ».

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً قال:

«وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ تَاجِرًا إِذَا سَمِعَ الْمُنَادِيَ يُنَادِي بِالْأَذَانِ قَالَ:
أَخْرَقَ اللَّهُ الْكَاذِبَ».

قال: فبينما هو كذلك، إذ دخلت جاريته بشغلة من نار، فطارت
شرارة منها في البيت فأخرقته».



خامساً

تدبر نصوص الصورة الثالثة

وهي الدخول في الدين على سبيل النفاق، مع الكفر به باطناً، واتخاذ ذلك وسيلة لتحقيق مآرب ومصالح دنيوية خاصة، أو لطمع الدين وإفساد أحوال المسلمين من داخل صفوفهم، كأن دين الله للناس لُعبة أو مَلْهَاءَ يلهو بها المنافقون ويلعبون، مستهزئين بالمؤمنين، الذين يتخذون بهم، ويقبلون منهم ظاهر إسلامهم، جاهلين بحقيقة كفرهم، وهم بذلك يرون أن المسلمين المؤمنين الصادقين سُفهاء ناقضو الذكاء، تنطلي عليهم حيلُ المنافقين والأعيبهم، فيستهزئون بقلّة ذكاء المؤمنين، وبأنهم مخرومون من الفطنة والقدرة الفكرية على اكتشاف حيل من يتافقهم.

وقد جاء في القرآن المجيد حول هذه الصورة عدّة نصوص:

النص الأول:

أنزل الله عز وجل في العهد المكي تحذيراً للمؤمن من مجالسة الذين يطعنون في آيات الله من الكافرين، فقال تبارك وتعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بأسلوب الخطاب الإفرادي:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾

وَأَمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْوَاً وَعَرَتْنَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

● ﴿يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾: أي: يطعنون في آياتنا البيانية أو الإعجازية، ويثيرون عليها ما يعكّر صفاءها، كمن يخوض في النهر فيعكّر صفو الماء، ويتخذونها لعباً ولهواً، ثم يسخرونها، ويستنهضون بها، وعرضهم الصد عن دين الله كُفراً به.

● ﴿وَأَمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾: أي: يوسوسه فيشغلك بسلاسل الأفكار التي يستميلك لمتابعتها، عن الإعراض عنهم.

● ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: أي: فلا تقعد بعد أن تتذكر مع الخائضين في آيات الله الظالمين، لأن مجالستهم دون مجاهدتهم من المشاركة لهم في كفرهم ولو بالسَّماع.

● ﴿وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾: أي: وذكر بالقرآن مستفيداً مما جاء فيه، محذراً مُنذراً من أن تُزتهن نفس بما كسبت من جرائم، حبيسة في عذاب النار، أو لتصير إلى عذاب النار.

● ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا﴾: أي: وإن تُقدّم كل فداء لدفع عذاب الله عنها لا يُقبل منها ولا يُؤخذ منها، هذا إن كانت تملك شيئاً تقدي به، لكنها لا تملك ما تُقدّمه فداء يومئذ.

● ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾: أي: أولئك الذين حُسبوا في جهنم بما كَسَبُوا، وكانت ذواتهم هي الرهائن المحبوسة، إذ يُعذبون بنار جهنم.

• ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠):

أي: لهم في جهنم شراب من ماء حار شديد الحرارة، وعذاب أليم آخر، ينزل بهم في دار عذابهم، بسبب ما كانوا يكفرون بآيات الله مستهزئين بها.

ثم أنزل الله عز وجل في العهد المدني إحالة على هذا النص المكي، فأبان تبارك وتعالى أن من علامات التفاق مشاركة الكافرين في مجالسهم التي يخوضون خلالها في آيات الله طعناً بها واستهزاء، فقال تبارك وتعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿بَشِّرِ الْمُتَفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٢٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُوتَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (١٢٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَن إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ يَأْتِيكُمُ إِذْ يَأْتِيكُمُ الْكُفْرُ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَفِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (١٤٥):

فدل هذا النص على أن المراد بالخوض في آيات الله الذي سبق بيانه في سورة (الأنعام) المكية، هو الكفر بها، والاستهزاء بها.

ودل أيضاً على أن مشاركة الخائضين في آيات الله ولو بالمجالسة والسماع هو من العلامات التي تدفع بالنفاق، أو من السلوك الذي يدل على التفاق.

﴿أَيْبَنُوتَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: أي: أيبستغي الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين الاختيماء بالقوة الغالبة التي عندهم، متأخرين بها، فإن القوة الغالبة لله جميعاً، وهو يصرفها بحكمته على ما يشاء.



النص الثاني:

أبان الله عز وجل في أوائل سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) طائفة من صفات المنافقين، وهي صفات تدور حول تلاعبهم بدين الله، واتخاذهم إياه لهواً ولعباً، فهم بنفاقهم يخادعون الله والذين آمنوا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا لهم: إئتنا بدخولنا في الإسلام ظاهراً والكفر به باطناً نستعزيء بالمسلمين المؤمنين المحرومين من الذكاء والفطنة، ونستطيع أن نحتال عليهم بذكائنا ومخادعتنا لهم، وهذه الطائفة من الصفات جاءت في الآيات من (٨ - ١٥).

ومنها قول الله عز وجل:

﴿وَإِذَا لَعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۚ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥﴾ .



النص الثالث:

قول الله عز وجل بشأن المنافقين في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣

نزول):

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ۝١٢ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنِ يُكَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَبْدَلَهُمُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ۝١٣ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِلَيَّ اللَّهُ يُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ ۝١٤ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ سَاهُونَ ۝١٥ لَا تَعْدِرُوا فَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ۝١٦﴾ .

فأبان هذا النص أن من صفات المنافقين أنهم يتخذون دين الله لعباً، إذ يدخلون فيه نفاقاً، ويستترئون بالكذب، ويخلفون بالله بغية توثيق أكاذيبهم، لإرضاء المؤمنين الصادقين، وهم على حذر دائم من أن ينزل الله على رسوله سورة فاضحة يكشف بها نفاقهم، ويعين فيها أسماءهم.

وأبان هذا النص أن أعمالهم في النفاق هي من صور الاستهزاء ببعض المؤمنين، إذ يرونهم غير قادرين على اكتشاف ألاعيبهم وحيلهم.

وأبان أيضاً أن جوابهم لمن يكشف حقيقة نفاقهم، أن يقولوا: إنما كنا نخوض ونلعب، أي: كنا نلهو ونتسلّى بالمزاح، للترفيه عن أنفسنا، ولتحقيق بعض مصالح لنا، وكنا نستصغر بغض عقول الناس، فنضحك عليهم، ونستهزئ بهم.

فقال الله عز وجل:

• ﴿قُلْ أَيْلَهُ وَعَايُنِي وَرَسُولِي كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٥﴾﴾.

وقال الله لهم:

• ﴿لَا تَمْنَدِرُوا فَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: أي: إن كنتم قبل أن يصدركم منكم ما صدر مؤمنين، فهذا مخرج لكم من الإيمان ومُسْقِط لكم في الكفر ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ إذا تابوا وصحّحوا إيمانهم واستقاموا ﴿نَعَذِّبُ طَائِفَةً﴾ أخرى منكم يصرون على كفرهم ونفاقهم، وتغذيبتنا لهم ﴿يَأْتِيهِمْ كَأَنُورٍ مُّجْرِمِينَ ﴿١٦﴾﴾.



سادساً

تدبر نصوص الصورة الرابعة

وهي الاستهانة بالدين، وعدم الاكتراث له، والانصراف عنه وعن الداعي إليه، لأمر متاع الحياة الدنيا ولهوها ولعبها.

وَيُلْحَقُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ إِهْمَالُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ تَطْبِيقَ أَحْكَامِ الدِّينِ الَّتِي أُنْزِلَهَا اللَّهُ لَهُمْ، لُضْمَانِ حَقُوقِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ.

● وقد دلَّ على صورة الاستهانة بالدين، والاشتغال عنه باللُّعْبِ وَاللَّهْوِ، قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) يَصِفُ حَالَ الْكَافِرِينَ:

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ يُحَدِّثُ إِلَّا أَسْمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٣﴾﴾.

● ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾: أي: وهم مُسْتَغْرِقُونَ فِي غَفْلَةٍ عَنِ قَضَايَا مَصِيرِهِمُ الْآبِدِيِّ، الَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا دِينُ اللَّهِ لَهُمْ.

● ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ يُحَدِّثُ إِلَّا أَسْمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ...﴾:

أي: ما يأتِيهِمْ مِنْ نَجْمٍ قَرَأْتَنِي مُخَدِّثِ التَّنْزِيلِ إِلَّا أَسْمَعُوهُ بِأَذَانِهِمْ فَقَطْ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ بِأَعْضَائِهِمْ، حَالَةً كَوْنِ قُلُوبِهِمْ لَاهِيَةً عَنِ التَّفَكُّرِ بِمَا اسْتَمَعُوهُ بِأَذَانِهِمْ، لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ بِرَسُولِ اللَّهِ الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ، زَاعِمِينَ أَنَّ الْآيَاتِ الْإِعْجَازِيَّةَ الَّتِي يَأْتِي بِهَا نَوْعٌ مِنَ السَّحْرِ، لِيُبْعِدُوا عَنْ تَصَوُّرِهِمْ صِدْقَهُ، وَوَجُوبَ الْإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعَهُ.

إِنَّ حَالَهُمْ لَيْسَ فِيهِ مِنَ الْعَقْلِ وَالرُّشْدِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، كَأَنَّ قَضِيَّةَ الدِّينِ لَا تَغْنِيهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا يُهْمُّهُمْ مِنْ أَمْرِهَا شَيْءٌ.

وَكَأَنَّ مُسْتَقْبَلَهُمُ الْآبِدِيِّ لَيْسَ جِزْءاً مِنْ وُجُودِهِمْ، فَلَا يَكْتَرِثُونَ لِسَعَادَتِهِمْ فِيهِ وَلَا لَشِقَائِهِمْ وَعَذَابِهِمْ.

ولو أزاحوا عن بصائرهم غشاوات زينة الحياة الدنيا، لَعَلِمُوا أَنَّ الدِّينَ فِيهِ أَخْصُ الْأَشْيَاءِ بِهِمْ، وَأَعْظَمُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُهَمَّهُمْ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ.

إِنَّ سَعَادَتَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَسَعَادَتَهُمُ الْآبِدِيَّةَ يَوْمَ الدِّينِ بَعْدَ الْبَعثِ لِلْحَيَاةِ الْآخِرَى، مُرْتَبِطَةٌ بِمَا جَاءَ فِي دِينِ اللَّهِ لَهُمْ، وَإِنْ شَقَاءَهُمُ الْآبِدِيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُرْتَبِطٌ بِعَدَمِ اتِّبَاعِهِمْ لِمَا جَاءَ بِهِ دِينُ اللَّهِ لَهُمْ.

وهل يُغْرَضُ الْإِنْسَانُ الَّذِي لَهُ أَقْلٌ مَقْدَارٍ مِنَ الْعَقْلِ، عَنْ شَيْءٍ يَزْتَبِطُ بِهِ مَصِيرُهُ الْآبِدِيَّ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُ إِلَى اللَّعِبِ بِمَا لَا قِيَمَةَ لَهُ، وَالتَّلَهِّي بِمَا لَا يَنْفَعُهُ فِي مَصِيرِهِ بِشَيْءٍ؟!

إِنَّ مَنْ يُهْمِلُ قَضِيَّةَ الدِّينِ وَلَا يَكْتَرِثُ لَهَا وَلَا يَغْبَأُ بِهَا، كَمَنْ يُهْمِلُ إِنْذَارَ الْمُنْذِرِ بِمَدَاهِمَةِ الْجَيْشِ الْغَازِي الَّذِي لَا قَبْلَ لَهُ بِمَقَاوِمَتِهِ أَوْ دَفْعِهِ، وَلَا يَمْلِكُ فِي لِحْظَتِهِ إِلَّا التُّرُوحَ وَالْفِرَارَ.

● وَذَلَّ عَلَى صُورَةِ إِهْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ تَطْبِيقَ أَحْكَامِ الدِّينِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ لَهُمْ، لُضْمَانُ حَقُوقِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ، قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خُطَاباً لِلْمُؤْمِنِينَ أَثْنَاءَ بَيَانِهِ جُلَّ وَعَلَا أَحْكَاماً كَثِيرَةً تَعْلُقُ بِالْعِبَادَاتِ وَالْمَعَامَلَاتِ وَنِظَامِ الْأُسْرَةِ:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلِيمٌ ۝﴾

إِنَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِ اللَّهِ الْبَيَانَةِ، ثُمَّ يَتْرُكُ الْعَمَلَ بِهَا كُلِّيًا تُشْبِهُ حَالَهُ حَالُ مَنْ يَسْتَهْزِئُ بِهَا، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا...﴾

وَلَكِنْ لَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْوَصْفِ مَنْ يُخَالِفُ مَا جَاءَ فِي آيَاتِ اللَّهِ فِي بَغْضِ أَحْوَالِهِ، بِدَافِعِ الْهَوَى، أَوِ الشَّهْوَةِ، أَوِ الْغَرِيزَةِ، مَعَ شُعُورِهِ بِأَنَّهُ

يَغْصِي، وبأنه واقعٌ تَحْتَ مُؤَثَّرَاتٍ غيرِ سَوِيَّةٍ. فهذا عاصٍ لا راحةَ في نفسه للاستِهْزاءِ بآياتِ اللَّهِ وشرائعِهِ وأحكامِهِ، ودواؤه يكون بالتَّوْبَةِ والنَّدَمِ على ما فات، والاستِغْفارِ، ومحاوَلَةِ الالتزامِ بشرائعِ الله وأحكامِهِ، والسَّيرِ في صراطِهِ المستقيمِ على قَدْرِ الاستِطاعةِ، وكلُّما انخَرَفَ عَنْهُ وَلَوْ بِمِقْدَارٍ يَسِيرٍ عادَ إِلَيْهِ مُسْتَغْفِراً تائباً، إِذْ كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ، الَّذِينَ لَا يُصِرُّونَ مَكَابِرِينَ عَلَى كِبَائِرِهِمْ.



سابعاً

تدبرُ نصوصِ الصورةِ الخامسة

وهي الاستهانة بالرُّسُولِ والاستِهْزاءُ به، وَيُلْحَقُ بِالرُّسُولِ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ، الَّذِينَ اتَّبَعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ.

وقد جاء بشأن هذه الصورة عدَّةُ نصوصٍ في القرآن المجيد، اسْتَغْرَضَهَا بشيءٍ من التدبرِ.

النص الأول:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بشأنِ الْكَفَرَةِ مِنْ كُلِّ الْأُمَمِ مَعَ رُسُلِهِمْ:

﴿يَحْزَنُونَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ٣٠:

أي: يَا عَذَاباً وَعِقَاباً شَدِيداً نَازِلاً عَلَى الْعِبَادِ، يَجْعَلُهُمْ يَتَحَسَّرُونَ عَلَى مَا فَرَّطُوا فِي جَنْبِ اللَّهِ، إِذْ رَفَضُوا دَعْوَةَ رُسُلِ رَبِّهِمْ، وَكَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ.



النص الثاني:

قول الله عز وجل في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) خطاباً لرسوله بشأن استهزاء كبراء مشركي مكة به:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَنْجِدُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۖ﴾ (٤١) !!؟

● ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۖ﴾ !! استفهام على وجه الازدراء والاستهزاء، إذ لم يكن من أغنيائهم وعظمائهم قبل نبوته، ولأن الله عز وجل لم ينصزه بعد على مضطهديه، ومضطهدي الذين آمنوا به واتبعوه، إبان نزول سورة (الفرقان).



النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) خطاباً لرسوله وتسليته له:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَجِ الْآوَلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾﴾ :

أي: هذه طريقة الكافرين التي يفرزها كفرهم من كل الأمم، مع كل رسول يُرسله الله إليهم، مهما كان شأنه.

والمعنى: فلا تحزن لاستهزاء بعض قومك بك، فقد ذاق مثل هذا الاستهزاء الرسل من قبلك.

وجاء في أواخر هذه السورة قول الله.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾ .

أي: إِنَّا كَفَيْنَاكَ شَرَّ أَيْمَةِ الْمُسْتَهْزِئِينَ. وجاء في السيرة كما روى ابن

إسحاق، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَهْلَكَ مِنْ أَجْلِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أُمَّةَ
المستهزئين، وهُمْ: الْأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَعْثُوثَ، وَالْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ وَهُوَ
أَشَدُّهُمْ، وَالْعَاصُ بْنُ وَائِلَ، وَالْحَارِثُ بْنُ الطَّلَاطِلَةَ، أَبُوهُ قَيْسٌ وَأُمُّهُ غَيْطَلَةُ،
كما ذَكَرَ الزُّهْرِيُّ جَمْعاً بَيْنَ الرِّوَايَاتِ.

ولإهلاك كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ قِصَّةٌ ذَكَرَهَا كِتَابُ السَّيَرَةِ.



النص الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (الزُخْرَف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾﴾

وفي هذا النص أيضاً تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وبيان لأحوال الأمم
مع رُسُلِ رَبِّهِمْ.



النص الخامس:

قول الله عز وجل خطاباً لِرَسُولِهِ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣
نزول):

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِتَّخَذُواكَ إِذَا هُزُوا أَهْدَا الَّذِي
يَذْكُرُ ۚ إِلَهُتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

• ﴿أَهْدَا الَّذِي يَذْكُرُ ۚ إِلَهُتَكُمْ﴾؟! أي: يَذْكُرُ مَعْبُودَاتِكُمُ الْوُثْنِيَّةَ
بأنها لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وَأَنَّ عِبَادَتَهَا مِنَ السَّفَاهَةِ وَنَقْصَانِ الْعَقْلِ.

والاستفهام في هذه العبارة يُرَادُ بِهِ الْإِزْدِرَاءُ وَالِاسْتِهْزَاءُ، وبعد آيات
قال الله عز وجل في هذه السورة:

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رِيسٌ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤١):

أي: فأحاط بهم العذاب الذي كانوا بأنبيائه يستهزئون.



النَّصُّ السادس:

قول الله عز وجل في سورة (الرَّغْدِ/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رِيسٌ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (٣٢):

وَيَظْهَرُ أَنَّ هَذَا النَّصَّ قَدْ أُنْزِلَ بِمُنَاسَبَةِ اسْتِهْزَاءِ الْيَهُودِ وَالْمَنَافِقِينَ، وَإِيدَانًا بِقُرْبِ الْإِنْتِصَارِ الْحَاسِمِ عَلَى كُلِّ الْمُسْتَهْزِئِينَ، وَقَطْعِ دَابِرِهِمْ، وَكَذَلِكَ كَانَ.



(٢١)

الملحق الخامس

دراسة تكاملية للنصوص بشأن لوط وقومه في القرآن المجيد

جاء ذكر «لوط» عليه السلام وقومه في خمسة عشر نصاً في القرآن المجيد من خمس عشرة سورة، وجاء في معظمها ذكر لقطاتٍ من قصته مع قومه، متكاملات فيما بينها.

ومن شأن التدبر المتأنّي، دراسة هذه النصوص دراسة واعية بنظرة شمولية تكشف التكامل فيما بينها.

ونأخذ هذه النصوص من المصحف أولاً، مرتبة وفق ترتيب نزول

سُورَهَا، ثُمَّ أَسْرَعَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِتَدَبُّرٍ مَا جَاءَ فِيهَا تَدَبُّراً تَكَامُلِيًّا عَلَى مَا يَفْتَحُ اللَّهُ بِهِ .

النص الأول:

قول الله عز وجل في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيِّنِ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُيُوسُفَ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ .

أي: كَذَّبَتْ قَبْلَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامُ، وَمِنْهُمْ قَوْمُ لُوطٍ، وَسَمَّاهُمُ اللَّهُ بِأَتْنُهُمْ إِخْوَانَهُ، أَي: فِي الْمَوَاطِنَةِ فِي أَرْضِ سَدُومَ .
وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُمْ حَقَّ عَلَيْهِمْ وَعِيدُ اللَّهِ لَهُمُ بِالْإِهْلَاكِ الشَّامِلِ، أَي: تَحَقُّقُ بِالتَّنْفِيزِ وَثَبَتَ .

النص الثاني:

قول الله عز وجل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي إِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا نَالُ لُوطٍ لَّيْسَ لَهُمْ بِسَعْرِ ﴿٣٤﴾ نَفْعَةٍ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذِي ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيفِيهِ فطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٩﴾﴾ .

فذكرهم الله عز وجل في هذا النص بعنوان «قوم لوط» .

النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ .

أي: كَذَّبَتْ قَبْلَ كُفَّارِ مَكَّةَ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ وَمِنْهُمْ قَوْمُ لُوطَ، وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُمْ حَقَّ عَلَيْهِمْ عِقَابُهُ، فالمراد بالوعيد الذي جاء ذكره في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) هو العقابُ والعَذَابُ الذي جَاءَ ذِكْرُهُ هُنَا فِي سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول)، فهو وعيد بعقابٍ على ما كان منهم مما يقتضي ذلك.

النص الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

النص الخامس:

قول الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١١٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١١٦﴾ قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْهَ يَلُوطَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١١٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١١٩﴾ فَجَنَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٢٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٥﴾﴾.

النص السادس:

قول الله عز وجل في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾
 أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْإِنْسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِتَجَاهُلْتُمْ ﴿٥٥﴾ ﴿فَمَا
 كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ
 يَبْطِئُوهُنَّ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا
 عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

النص السابع:

قول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ
 جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيفٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ
 خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ
 فَفُتِّرْنَاهَا بِاسْتِحْقَاقٍ وَمِنْ وَرَاءِ اسْتِحْقَاقٍ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَوْنِلَيْكَ أَلَدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا
 بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا اتَّبِعِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ
 وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ
 الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَعَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتَذَكَّرُ أَعْرَضَ
 عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَكَايِمٌ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ
 رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ يَوْمٍ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ
 يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتَقَوَّمُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ
 لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَعِيفِ الْبَسِّ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ
 عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ
 آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسِرْ
 بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْبِسْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا

أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ .

وقول الله عز وجل فيها أيضاً حكاية لما قاله شعيب عليه السلام لقومه:

﴿وَيَقُولُ لَا يُجْرِمَكُمُ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ ﴿٨٩﴾ .

النص الثامن:

قول الله عز وجل في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَبَشِّرْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٥٣﴾ قَالَ أِبَشَرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَّسَنِي الْكَبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بِشَرِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَاطِئِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَانَهُ فَدَرَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَافِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَنهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لَنَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّا لَنَسِيبِلِ مُقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ .

النص التاسع:

قول الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَذَكَرْنَا وَيْحَ عِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَخَوَانِهِمْ وَأَجْنِبَتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أُوتِيَكَ إِلَهِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْثُهُمْ أَفْتَدَهُ قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

النص العاشر:

قول الله عز وجل في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَإِن لُّوطًا لِّمَن الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ بَعَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّا لَنُمرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَإِنَّا لَنَاقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

النص الحادي عشر:

قول الله عز وجل في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿هَلْ أُنذِرُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّكْرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَىٰ إِلَآ أَهْلَهُ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ

أَمْرَانَهُ فِي صَرْفٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ * قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ تُسَوِّمُهُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَرَفِّينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ .

النص الثاني عشر:

قول الله عز وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) في مفرغ الحديث عن إبراهيم عليه السلام:

﴿وَجَعَلْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْقَرَبِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْسِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ .

النص الثالث عشر:

قول الله عز وجل في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول): في مفرغ الحديث عن إبراهيم عليه السلام:

﴿فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أُجْرًا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوُنَّ أَلْفَاجِسَةً مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيْنَكُمْ لَمَّا تَوُكَّ الرِّجَالُ وَتَقَطَّعُوا السَّبِيلَ وَتَأْتُوكَ فِي كَادِيكُمْ الْمُنْكَرُ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَنْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ قَالَ

رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِن فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَىٰ يَوْمِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ زَكَّيْنَا مِنْهَا آيَةً يَبْتَلُونَ الْقَوْمَ يَقُولُونَ ﴿٣٥﴾ .

النص الرابع عشر:

قول الله عز وجل في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ بشأن الذين كذبوه من قومه:

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾

﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ : أي: فَأَمَلَيْتُهُمْ إِنْهَالًا كَافِيًا لِقَطْعِ أَعْدَارِهِمْ.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ : أي: فَكَيْفَ كَانَ إنْكَارِي، بِمَعْنَى عِقَابِي الَّذِي تَمَّ بِهِ إِهْلَاكُهُمْ إِهْلَاكَاً عَامًّا.

النص الخامس عشر:

قول الله عز وجل في سورة (التحریم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول):

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتٍ نُوحٍ وَأَمْرَاتٍ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ .



وفي الفُصول والفقرات التالية تدبّر ما يتعلّق بلوط عليه السلام وقومه من هذه النصوص تدبّراً تكاملياً، مع ما لإبراهيم عليه السلام من مشاركة له في بعض قصّته.

الفصل الأول

هويّة لوط عليه السلام في القرآن

هو من ذرية نوح عليهما السلام:

دلّ على أنه من ذرية نوح عليهما السلام قول الله عزّ وجلّ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٨٥ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا ۚ كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٨٦﴾.

فدلّ هذا النصّ على أنّ لوطاً من ذرية نوح عليهما السلام.

نشأته في العراق (بين النهرين) وهجرته إلى أرض كنعان (فلسطين):

نشأ «لوط» عليه السلام حيث نشأ عمّه إبراهيم عليه السلام في «أور» (ما بين النهرين - العراق) وأمنَ بعمّه «إبراهيم» نبياً ورسولاً، وأسلمَ له، وهاجر معه إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، وهي فلسطين من بلاد الشام.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) في معرض الحديث عن إبراهيم عليه السلام:

﴿فَأَمَّنَ لَهُمْ لُوطٌ... ۝٢١﴾.

أي: فأمنَ لوطٌ بعمّه إبراهيم نبياً ورسولاً، وأسلمَ له متبعاً مطيعاً.

يقال لُغَةً: آمَنَ به، وأُسْلِمَ له، فجاء في العبارة تَضْمِينُ فعل «آمَنَ» معنى فعل «أُسْلِمَ» فَعُدِّي تَعْدِيَّتُهُ، فَأَغْنَتْ الجملة عن جُمْلَتَيْنِ، وهذا من الإيجاز البديع في القرآن.

وقال الله عز وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) في معرض الحديث عن إبراهيم عليه السلام:

﴿وَبَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

فدلَّت هذه الآية على أن لوطاً هاجرَ مع عمِّه عليهما السلام نَاجِيَيْنِ من طُغَاةِ حكام العراق (ما بين النهرين) وكانت فلسطين مُهاجِرَهُمَا. والمعنى: ونَجَّيْنَاهُمَا بالهِجْرَةِ من أرض نَشَأْتُهُمَا، وأَوْصَلْنَاهُمَا إِلَى الأرض الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ.

فجاء في الآية تَضْمِينُ فعل «نَجَّيَ» معنى فعل «أوصل» أو فعل «أبلغ» فَعُدِّي تَعْدِيَّتُهُ، فَأَغْنَتْ الجملة عن جُمْلَتَيْنِ، هما: ونَجَّيْنَاهُمَا، وأَوْصَلْنَاهُمَا.

نبوة لوط عليه السلام ورسالته وما آتاه الله من حُكْمٍ وَعِلْمٍ:

لقد اجتبى الله عز وجل لوطاً فجعله نبياً، ثم بَعَثَهُ رَسُولاً إِلَى قَوْمِهِ أهل «سَدُومَ» فهو نبيٌّ من أنبياء الله ورُسُلٍ من رُسُلِهِ، وَمِنْ إِبْطَاتِ أَنَّهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، نَفَهُمْ لَزُومًا أَنَّهُ مِنَ النَّبِيِّينَ، لِأَنَّ كُلَّ رَسُولٍ بَشَرٌ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ لِلنَّاسِ، هُوَ نَبِيٌّ قَبْلَ بَعَثِهِ رَسُولاً.

● ذَكَرَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لوطاً عليه السلام ضِمْنَ الَّذِينَ اجْتَبَاهُمْ، وَهَدَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَآتَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالثُّبُوتَ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ (الْأَنْعَامِ/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بعد ذكر طائفة من المرسلين وَمِنْهُمْ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿...وَأَنبَيَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ

مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ عَائْتَهُمْ أَلْكَتَبَ وَالْهَكَرَ وَالنُّبُوَّةُ... ﴿٨٩﴾.

● وقول الله عز وجل في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَلَوْ لُوطًا لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾﴾:

أي: هو من النبيين والمرسلين لأن كل رسول نبي.

وقد جاء تأكيد كونه رسولا في هذه العبارة بالمؤكدات التالية: (إنَّ - الجملة الاسمية - اللام المرحقة للخبر) لدفع توهم أنه مبعوث من قبل عمه إبراهيم إلى أهل سدوم، فهو ينطق باسمه.

● يُضاف إلى هذين النصين أن كل التُصوص التي جاء فيها بيان لقطاتٍ من قصته مع قومه، تدلُّ على أنه كان رسولا من رسل الله لقومه.

● وجاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بيان أن الله عز وجل أتى لوطا حُكما وعِلما، فقال تبارك وتعالى فيها:

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا... ﴿٧٤﴾﴾.



الفصل الثاني

دعوة لوط عليه السلام لقومه أهل سدوم

لقد كانت دَعْوَةُ لوطٍ عليه السلام لقومه مثل دعوة سائر المرسلين لأقوامهم، إلا أنه شدّد عليه السلام، في تأنيبهم بالنسبة إلى القبائح الشنيعة المنتشرة في مجتمعاتهم، والتي يمارسونها بوقاحة ومجاهرة وعدم مبالاة.

● قال الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٧﴾﴾

لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٧﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٨﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٩﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٧٠﴾ .

● وقال الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ .

● وقال الله عز وجل في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُوا الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ... ﴿٧٩﴾﴾ .

● وقال الله عز وجل في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْغِضُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُوا الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجَاهِلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ .

التدبر التكاملي:

ففي المرحلة الأولى قال لوط لقومه ما جاء بيانه في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

● من سورة (الشعراء): ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ : ظاهر هذه الآية يدل على أن الله عز وجل قد أرسل إلى هؤلاء القوم قبل إرسال لوط عليه السلام إليهم، رسولا أو أكثر، لينطبق عليهم لفظ «المرسلين» فأقل الجمع اثنان، والأضل حمل اللفظ على ظاهره ما لم يأت دليل صحيح يدل على خلاف الظاهر.

وقوم لوط قد كذبوا من جاءهم من الرُّسل قبلَ لوط، دون أن ينتهي الأمرُ بإهلاكهم، وربما كان من الذين مرَّ بهم وبلغَهُم رسالةُ ربِّه إبراهيمَ عليه السلام، قبلَ أن يبعثَ الله إليهم لوطاً رسولاً خاصاً بهم. وأصروا على تكذيبِ لوطِ مُدَّةٍ إقامتهِ بينهم، حتَّى أَهْلَكَهُمُ الله إهلاكاً شاملاً مقترناً بِتَغْذِيبِ أَلِيمٍ لهم، وَمَسْبُوقاً بعذابٍ شديد.

● من سورة (الشعراء): ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّهُمُ آلَ لُوطٍ آلَا تَتَّقُونَ﴾؟؟

أي: قال لهم بأسلوب العرض عن طريق الاستفهام: أَلَا تَتَّقُونَ عَذَابَ رَبِّكُمْ، وهذا يستلزم أن يكون لوطٌ عليه السلام قد أبان لهم قبلَ هذا العرض الرفيق الحكيم، أركانَ الإيمان، فأعلمهم أنه لا إِلَهَ يُعْبَدُ بِحَقِّ إِلَّا اللهُ جلَّ جلاله، وأمرهم بعبادته وخدّه لا شريك له، بدليل قول اللّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

﴿إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ﴾: أي: إِلَّا كُنَّا نُكَرِّرُ الْوَحْيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ إِلَّا أَنَا مع كُلِّ أمرٍ أو نهْيٍ أو إرشادٍ نُوجِّهُهُ لعبادنا.

﴿فَاعْبُدُونِ﴾: أي: فاعْبُدُونِي بالإيمان، والدعاء، والعمل بما أمَرَ به وَتَرَكْ مَا أَنْهَى عَنْهُ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيَّ بِفَعْلٍ مَا أَحَبَّ فِعْلُهُ، وَتَرْكِ مَا أَحَبَّ تَرْكُهُ. فكلُّ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إِلَى قَوْمٍ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ بَلَغَ قَوْمَهُ وَحْيَ اللَّهِ هَذَا، وَمِنْهُمْ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي خَاتَمَةِ دَعْوَتِهِ إِلَيْهِمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَخَدِّهِ، كَانَ يُنْذِرُهُمْ بِعَذَابِ اللَّهِ، وَيَعْرِضُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّقُوهُ، فَإِذَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ، وَتَعَجَّبَ مِنْ حِمَاqَتِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْعِنَادِ بِالْبَاطِلِ، بِأَسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ التَّوْبِيخِيِّ قَائِلاً لَهُمْ، أَلَا تَتَّقُونَ عَذَابَ اللهِ وَعِقَابَهُ، وَهُوَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْمُنْذِرُ لَكُمْ بِالْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ إِذَا أَضْرَزْتُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ كُفْرٍ وَفُجُورٍ.

﴿أَنفُوهُمْ لُوطٌ﴾ وصف الله عز وجل لوطاً عليه السلام بأنه أخو قَوْمِهِ أهل «سَدُومَ» مع أنه لم يكن من سلالة جَدِّهِمْ أَوْ أَجْدَادِهِمْ، نظراً إلى أنه اِكْتَسَبَ حَقَّ المِوَاطَنَةِ في أرضهم، مُنْذُ قَدِيمٍ إِلَيْهِمْ وعاش بَيْنَهُمْ ومعه مواشيه الكثيرة، وَقَبِلُوا أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ.

● من سورة (الشعراء): ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٧﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٨﴾﴾:

في هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ تلخيصٌ لثلاث مقالاتٍ مفضلاتٍ قالها لوطٌ عليه السَّلام لقومه، وقالها من قبله نوحٌ وهودٌ وصالح عليهم السَّلام لأقوامهم.

ففي المقالة الأولى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٦﴾﴾ أبان لهم أنه نَبِيٌّ من أنبياء الله، وَرَسُولٌ من رُسُلِهِ، بَعَثَهُ اللهُ لَهُمْ خَاصَّةً، دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْخُصُوصِيَّةِ تَقْدِيمُ ﴿لَكُمْ﴾ وهو معمول، على عامله ﴿رَسُولٌ﴾.

وَأَبَانَ لَهُمْ فِيهَا أَنَّهُ أَمِينٌ، أَي: فِي تَبْلِيغِ رِسَالَاتِ رَبِّهِ، فَلَا يَنْقُصُ شَيْئاً مِمَّا أَمَرَهُ اللهُ بِتَبْلِيغِهِ لِقَوْمِهِ، وَلَا يَزِيدُ عَلَيْهِ شَيْئاً.

وفي المقالة الثانية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٦﴾﴾ أَمَرَهُمْ بِأَمْرَيْنِ:

الأمر الأول: أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ، وجعله مُرْتَباً بِدلالة حرف (الفاء) على أنه رَسُولٌ أَمِينٌ، أَي: بِأَنْ يَتَّقُوا عِقَابَ اللَّهِ وعذابه بالإيمان بالحق الذي جاءهم من عند ربهم، وبالإسلام له قولاً وعملاً، يَغْبُدُونَهُ لَا يُشْرِكُونَ بعبادته أحداً، وبطاعته بفعل ما يأمرهم به، وَتَرْكِ مَا يَنْهَاهُمْ عَنْهُ.

الأمر الثاني: أَنْ يُطِيعُوهُ بِاعتباره رَسُولَ رَبِّهِمْ، يُبَلِّغُهُمْ عَنْهُ مَا يَأْمُرُهُ رَبُّهُ بِتَبْلِيغِهِ لَهُمْ، وَنظراً إِلَى أَنَّهُمْ مَكَلَّفُونَ مِنْ رَبِّهِمْ أَنْ يَطِيعُوا رَسُولَهُ إِلَيْهِمْ، فَطَاعَةُ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ.

وقد جاء هذا الأمرُ الثاني مُرتَّباً بـ (الفاء) أيضاً على أنه رَسُولٌ أمين.

وفي المقالة الثالثة: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٥).

فأبان لقومه بهذه المقالة أنه غَيْرُ ذي مَصْلَحَةٍ شَخْصِيَّةٍ عِنْدَهُمْ من دعوته ومجاهدته لهم، وهذه المصلحة تكون بمثابة الأجرِ الذي يأخذه أو يستحقُّه من يقومُ بخدمةٍ لغيره، إنما يَرْجُو أجره عند الله الَّذِي أَرْسَلَهُ وَكَلَّفَهُ أن يقوم بوظائف رِسَالَتِهِ في قومه.

● من سورة (الشعراء): ﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (١٦٦).

اشتملت هاتان الآيتان على بيان المقالة الرابعة التي قالها لوط لقومه في أوائل دَعْوَتِهِ لقومه.

كلمة «الذكران» أخفُّ من كلمة «الرجال» لأنها قَدْ تُخْمَلُ على الغِلْمَانِ، وفيها دلالةٌ على أن هذا التأييب الذي جاء في هاتين الآيتين، قَدْ كان في المرحلة الأولى من تلويمة لهم على هذه الشنيعة، من أفعالهم الشائعة في مجتمعهم.

والاستفهام في: ﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٥) استفهامٌ خرج عن أصل دلالته التي هي طلب الفهم، إلى معنى الإنكار عليهم وتلويمة لهم وتأييبهم على ممارسة هذه الفاحشة بِوَقَاحَةٍ.

والمعنى: أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ النَّاسِ فِي أَذْبَارِهِمْ حَيْثُ الْقَذَارَاتُ، وَتَذَرُونَ مَكَانَ الطَّهَارَةِ وَالنِّقَاءِ الَّذِي خَلَقَهُ لَكُمْ رَبُّكُمْ فِي فُرُوجِ أَزْوَاجِكُمْ مِنَ النِّسَاءِ.

وتدلُّ عبارة: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (١٦٦) على أَنَّهُمْ رَدُّوا عليه قائلين:

لَسْنَا الْوَحِيدِينَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مُمَارَسَةِ هَذِهِ الْعَادَةِ لِتَحْقِيقِ لَذَاتِ الْفُرُوجِ، فِي كُلِّ الْأُمَمِ أَنْاسٌ يَمَارِسُونَهَا، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أَي: بَلْ أَنْتُمْ انْفَرَدْتُمْ فِي مِمَارَسَةِ هَذِهِ الْقَبِيحَةِ الشَّاذَّةِ بِجُرْأَةٍ وَوَقَاحَةٍ، فِي تَجَاوُزِ كُلِّ الْحُدُودِ النَّسَبِيَّةِ الَّتِي تُوجَدُ عِنْدَ غَيْرِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْفُجُورِ مِنَ الْأُمَمِ كَمَا وَكَيْفًا.

يُقَالُ لُغَةً: عَدَا، يَغْدُو، عَدُوًّا، فَهُوَ عَادٍ، وَالْجَمْعُ: «عَادُونَ» أَي: تَجَاوَزَ الْحَدَّ الْمَحْتَمَلِ، وَالْمَعْنَى تَجَاوَزْتُمْ فِي انْحِرَافِكُمْ وَشُدُوزِكُمْ مَا عَلَيْهِ غَيْرُكُمْ بِنِسْبَةِ عِدَدِ الْأَفْرَادِ الْمُنْحَرِفِينَ الشَّاذِينَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ، وَفِي كَيْفِيَةِ مُمَارَسَةِ هَذَا الشُّذُوزِ مُجَاهِرَةً وَوَقَاحَةً وَعُدْوَانًا عَلَى غَيْرِ الْمُنْحَرِفِينَ الَّذِينَ يَسُوؤُهُمْ أَنْ تُمَارَسَ مَعَهُمْ هَذِهِ الْفَاحِشَةُ.

وَالْمَعْنَى: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ ظَالِمُونَ مُتَجَاوِزُونَ حُدُودَ الْفَوَاحِشِ الَّتِي يَعْصِي بِهَا عُصَاةُ النَّاسِ رَبَّهُمْ.



■ وَفِي مَرَحَلَةٍ لَاحِقَةٍ قَالَ لُوطٌ لِقَوْمِهِ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَلَوْطًا﴾: أَي: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا لُوطًا إِلَى قَوْمِهِ، عَطْفًا عَلَى مَا جَاءَ فِي السُّورَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمِنْ عَطْفٍ عَلَيْهِ قَبْلَ «لُوطٍ» عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾: أَي: اذْكُرْ، بِمَعْنَى (ضَعَّ فِي ذَاكِرَتِكَ) أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي الصَّالِحُ لِلخُطَابِ أَيَا كُنْتُ، وَفِي أَيِّ عَضْرِ وُجِدْتُ وَمِنْ أَيِّ أُمَّةٍ.

﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ : أي: فاحشة إتيان الرجال شهوة من دون النساء. والفاحشة لغة: كل ما جاوز الحد المحتمل في الانحراف والقبح.

﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠). أي: ما تفوق عليكم فيها أحد من الناس.

السَّبَقُ: يستعمل بمعنى السبق الزماني، وبمعنى السبق بمقدار كمية العمل، أو كميته، وما أظن أن ممارسة فاحشة إتيان الذكور لم تكن مغروفة في تاريخ البشرية قبل قوم لوط، لكن لم تصل أمة غابرة، أو معاصرة لقوم لوط، من الأمم الفاجرة إلى مثل ما وصل إليه قوم لوط.

والمراد بنفي سبق غيرهم لهم إثبات أنهم هم الأكثر سبقاً في هذا الانحراف والشذوذ من سائر الناس الغابرين والمعاصرين لهم.

وتبادر لأذهان المفسرين معنى السبق الزماني، ولست أراه المعنى المراد والله أعلم، إذ الإنسان هو الإنسان، والبشر منذ نشأتهم فيهم المستقيمون، وفيهم المنحرفون الشاذون.

﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ : أي: من الناس، فالمراد بالعالمين هنا الناس، أخذاً من طبيعة الحدث، ودلالة القرائن.

«من» في ﴿مِنَ أَحَدٍ﴾ أضيفت للتنقيص على العموم وتأكيد، ويسمى النحاة حرف جر زائد، وقد دخل هنا على فاعل «سبق» وهو «أحد» فهو مجرور لفظاً مرفوع محلاً.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ...﴾ (٨١).

أبان لهم لوط عليه السلام بهذه العبارة أنه يعلم من أمر قواحيشهم التي سبقوا بها غيرهم من العالمين، أنهم يأتون الرجال، وكان في المرحلة السابقة أبان لهم أنهم يأتون الذكور، إذ لفظ «الذكور» قد يُحمل على

الْغُلَمَانُ دُونَ الرِّجَالِ، فَازْتَقَى فِي التَّشْنِيعِ عَلَيْهِمْ بَيَانُ أَنَّهُمْ يَأْتُونَ الرِّجَالَ،
لِقَضَاءِ شَهَوَاتِ مَذَاكِيرِهِمْ.

وَيُشْعِرُ هَذَا الْإِنْتِقَالَ مِنَ الذُّكْرَانِ إِلَى الرِّجَالِ أَنَّ الرِّجَالَ الْكِبَارَ لَا
يُرْغَبُونَ فِي أَنْ يُفَحَّشَ فِيهِمْ، مَا لَمْ تَتَرَكَّزْ لَدَيْهِمْ الْعَادَةُ مِنْذُ كَانُوا غُلَمَانًا
يَعْبَثُ بِهِمُ الْفَاجِحُونَ.

﴿شَهْوَةٌ﴾ منصوبٌ على أنه نائب مفعول مطلق لبيان نوع الإتيان، أو
على أنه مفعول لأجله. الشهوة: الرغبة في الشيء لما فيه للنفس من لذة
جَسَدِيَّةٍ أَوْ نَفْسِيَّةٍ.

﴿مِنْ دُونِ الْإِنْسَاءِ﴾: أي: حالة كون إتيان الرجال لقضاء شهوة
الفرج، هو دون إتيان النساء لتحقيق هذه الرغبة، إذ فروج النساء أظهرُ،
وهي المخلوقة للحرث والبذر، أما الأدبارُ فبؤرةٌ جزئوميةٌ قَدِرةٌ، جالبةٌ
للأمراض والأوجاع.

وجاء في القراءة الأخرى: [إِنَّكُمْ] بأسلوب الاستفهام الإنكاري
التوبيخي. فدلَّ هذا على أَنَّ لوطاً عليه السلام خاطبهم أولاً مبيناً قبيحتهم،
ثم خاطبهم مستنكراً وموبخاً.

.. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (٨١): تفصح هذه العبارة عن مطويٍّ
لم يُصْرِّحْ به في اللفظ، ولكن يمكن استخراجه بالتدبر.

إِنَّ لوطاً لما شدد الإنكار عليهم بشأن قبيحة إتيانهم الرجال، لا بُدَّ أَنْ
يكونوا قد قالوا له: لَسْنَا الْوَحِيدِينَ الَّذِينَ يَمَارِسُونَ إِيَّانَ الرِّجَالِ دُونَ سَائِرِ
النَّاسِ.

فقال لهم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (٨١): أي: متجاوزون الحدَّ
المحتمل في ارتكاب الفواحش الشاذة، فالإسراف في اللغة: هو تجاوز
الحدَّ المحتمل.

في المرحلة السابقة قال لهم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ كما جاء في النص الذي في سورة (الشعراء).

وفي هذه المرحلة التي دَلَّ عليها النص الذي في سورة (الأعراف) قال لهم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

ويظهر أَنَّ الْمُسْرِفَ أَشَدُّ تَوَعُّلاً فِي الْإِثْمِ مِنَ الْعَادِي، إِذِ الْعَادِي هُوَ الْمُتَجَاوِزُ لِأَوَّلِ حُدُودِ الْحَدِّ، أَمَّا الْمُسْرِفُ فَهُوَ الْمُتَوَعِّلُ بَعْدَ حُدُودِ الْحَدِّ الْمُحْتَمَلِ فِي ارْتِكَابِ الْقَبَائِحِ وَالْآثَامِ، الضَّالُّ ضَلَالاً بَعِيداً.



وفي مرحلة ثالثة قال لوط عليه السَّلام لقومه ما جاء بيَّانه في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) وهو قول الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتُنَّ أَلْفَاحِشَةٌ مَّا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيْنَكُمْ لَأَنْتُنَّ الرِّجَالُ وَتَقَطَّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونُ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ... ﴿٢٩﴾﴾.

فأعاد لوط عليه السَّلام تَأْنِيهِهُمْ وَتَوْبِيخَهُمْ عَلَى إِتْيَانِهِمُ الْفَاحِشَةَ الَّتِي مَا سَبَقَهُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، عَلَى مَا سَبَقَ شَرُّهُ، لِأَنَّهُمْ اسْتَمَرُّوا عَلَى تَمَادِيهِمْ فِي غَيِّهِمْ.

وأضاف إليها تَأْنِيهِهُمْ عَلَى رَذِيلَتَيْنِ أُخْرَيْنِ مِنْ رذَائِلِهِمْ، هُمَا: قَطْعُ السَّبِيلِ، وَإِتْيَانُهُمُ الْمُنْكَرَ فِي نَادِيهِمْ.

● أَمَّا قَطْعُهُمُ السَّبِيلَ فَهُوَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَرَصَّدُونَ الْمُسَافِرِينَ الْمُجْتَازِينَ الطَّرِيقَاتِ الَّتِي تَمُرُّ بِمَرَائِزِ قُوَاهِمَ، فَيَقْطَعُونَ عَلَيْهِمْ سَبِيلَهُمْ، لِلْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ.

● وَأَمَّا إِتْيَانُهُمُ الْمُنْكَرَ فِي نَادِيهِمْ، فَمِنْهُ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا مَرَّ بِهِمْ أَحَدٌ مِنْ

النَّاسِ حَدِّقُوهُ بِالْحَصَى، وَسَخِرُوا مِنْهُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، كما جاء في حديث عن أم هانئ بنت أبي طالب، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، رواه أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم^(١)، وحسنه الترمذي وصححه الحاكم.

وعبارة: ﴿وَتَأْتُونَكَ فِي نَكَائِكُمُ الْمُنْكَرُ﴾ صَالِحَةٌ لِأَنَّ تَحْمَلَ عَلَى مُنْكَرَاتٍ أُخْرَى كَانُوا يَأْتُونَهَا فِي نَادِيهِمْ.



وفي مرحلة رابعة قال لوط عليه السلام لقومه ما جاء بيانه في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) وهو قول الله عز وجل فيها:

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَكَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْتُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

فدل هذا النص على أن لوطاً عليه السلام، تابع توبيخهم وشدد في تلويهم وتأييهم بشأن قبيحة إتيانهم الرجال، وأضاف تأنيبه لهم على مجائتهم وقحتهم، إذ كانوا يجتمعون على ممارستها، وهم يبصرون بأعينهم الفاعل والمفعول فيه، غير مباليين بأنه من المنكرات الكبرى، ولا مكترئين لذلك، وقد يجدون في شهوهم هذه الممارسات من غيرهم، لذة أو إثارة لشهواتهم، وهذا من أقبح الإسراف والفضلال البعيد.

الاستفهام في: ﴿أَتَأْتُونَكَ﴾ وفي ﴿أَيْتُكُمْ﴾ استفهام إنكاري تنديدي تغنيفي، وهو مستعمل في غير ما وُضِعَ له من طلب الفهم، وقد اتخذهُ لوط عليه السلام أسلوباً للتنديد بهم، وتغنيفهم، كأن المستفهم عنه من الأمور المستغربة التي لا يتصور العقلاء الأسوياء أن تكون ظاهرة من ظواهر مجتمع بشري.

(١) انظر الشوكاني في «فتح القدير» في أواخر تفسيره للنص.

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِتَجَاهُلُوكُمْ﴾ ﴿٥٥﴾ تَذُلْ هذه العبارة على مطوِّي يَكْشِفُهُ حُسْنُ التَّدْبِيرِ.

إِنَّ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا شَدَّذَ النِّكَيرَ عَلَى قَوْمِهِ، وَلَا سَيِّمًا إِنْكَارُهُ قَبِيحَةَ حُضُورِهِمْ وَمُشَاهَدَتِهِمْ بِأَبْصَارِهِمْ مِمَّا رَسَاتِ بَغْضِهِمْ إِيَّائِهِ الرُّجَالِ مِنْهُمْ، رَدُّوا عَلَيْهِ بِقَوْلِهِمْ مِثْلًا: لَسْنَا شَاذِينَ فِي أَعْمَالِنَا هَذِهِ عَنْ سَائِرِ الْأَقْوَامِ، فَكُلُّ الْأَقْوَامِ يَفْعَلُونَ مِثْلَ مَا نَفْعَلُ، فَقَالَ لَهُمْ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِتَجَاهُلُوكُمْ﴾ ﴿٥٥﴾:

أَضْلُ الْجَهْلِ مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: جَهَلْتُ الْقِدْرُ تَجْهَلُ جَهْلًا، أَيِ: اشْتَدَّ غَلِيَانُهَا، وَهُوَ ضِدُّ تَحَلَّمْتُ.

وَيُقَالُ لُغَةً: جَهَلُ فُلَانٌ عَلَى غَيْرِهِ، أَيِ: جَفَا وَتَسَافَهَ.

وَيُطْلَقُ الْجَهْلُ بِمَعْنَى عَدَمِ الْعِلْمِ بِالشَّيْءِ.

فَدَلَّ الْفِعْلُ الْمَضَارِعُ ﴿بِتَجَاهُلُوكُمْ﴾ الَّذِي يُفِيدُ مَعْنَى التَّكَرُّارِ وَالتَّجَدُّدِ، عَلَى أَنَّهُمْ يَضِيفُونَ إِلَى مِمَّا رَسَاتِهِمْ قَبِيحَتَهُمْ الشَّاذَّةَ غَلِيَانًا غَضِيًّا ضِدًّا مِنْ يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ، وَيَضِيفُونَ أَيْضًا جَفَاءً وَتَسَافَهًا وَشَتَائِمَ يُوْجِّهُونَهَا لَهُ، أَوْ يُوْجِّهُونَهَا لِمَنْ يُحِبُّونَ أَنْ يَمَارِسُوا فَاحِشَتَهُمْ مَعَهُ، وَهُوَ يَأْبَى لِأَنَّهُ لَمْ يَغْتَذَرْهَا وَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا، فَيَغْتَصِبُونَهُ بِالْقُوَّةِ اغْتِصَابًا جَمَاعِيًّا، فَهُمْ بِهَذَا يَجْهَلُونَ بِتَكَرُّارِ أَنَا فَاتْنَا، وَتَتَفَاقَمُ الْجَهَالَاتُ الصَّادِرَاتُ عَنْهُمْ شِدَّةً وَعُنفًا.

وعلى هذا المعنى قال الشاعر العربي:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَتَجْهَلُ قَوْقُ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ
وبهذا ظهر لنا أَنَّ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِقَوْمِهِ فِي الْمَرَحَلَةِ الْأُولَى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ ﴿١٦٦﴾ وهو ما جاء في سورة (الشعراء).

وقال لهم في المرحلة الثانية: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ ﴿١٦٧﴾ كما جاء في سورة (الأعراف).

وقال لهم في المرحلة الأخيرة: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِتَجَاهُلُوكُمْ﴾ ﴿٥٥﴾ كما جاء في سورة (النمل).

عَادُونَ: متجاوزُونَ الحدَّ المحتمل، وَقَدْ يكون دون إسراف وتوغل في الضلال.

مُسْرِفُونَ: متجاوزُونَ الحدَّ المحتمل مع توغُلٍ في الضلال البعيد.

تَجَاهَلُونَ: تضيفون إلى إسرافِكُمْ في التَّوْغُلِ في الضلال البعيد جَهَالَاتٍ غَضَبِيَّةٍ فيها جفاء وتسافُه وشتائم، ومحاولات اغْتِصَابٍ جماعيٍّ لِلَّذِينَ لَا يستجيبون لَكُمْ استجابةً طَوْعِيَّةً.

وبهذا التدبُّر تكاملتْ لَدَيْنَا دلالاتُ النصوص الموزَّعة في سُور القرآن المجيد.



الفصل الثالث

**اقتراحات قوم لوط بإخراجه وإخراج أهله من أرضهم
ثم إنذار لوط لهم بالإهلاك الشامل وتحذيرهم نذره**

تصاعد استياء قوم لوط من شدة تأنيباته لهم، ضمن أربعة مراحل، فكانت كل مَرَحَلَةٍ أشدَّ من سابقتها.

المرحلة الأولى: لَمَّا سَاءَ لَهُمْ تَأْنِيْبُهُ لَهُمْ بِخُصُوصِ فَاحِشَةِ إِيْتَانِ الذُّكُورِ، وهي من القبائح التي صارت متأصلةً في مُمارَسَاتِهِمْ قِبَائِحِهِمْ، في ممارستِهِمْ، وليس لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَادٌ لِلتَّخَلُّصِ مِنْهَا، وَجَّهَ كِبَرَاؤُهُمْ اقتراحاً بإخراج آلِ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِهِمْ، لَأَنَّهُمْ أَنَاسٌ لَا يَتْرُكُونَ طَرِيقَتَهُمْ فِي التَّمَسُّكِ بِالتَّطَهُّرِ مِنَ الْفَوَاحِشِ أَنَا فَأَنَّا، فوجودهم بَيْنَهُمْ يُنْغِصُ عَلَيْهِمْ فِي مُمَارَسَةِ قِبَائِحِهِمْ، وإخراج آلِ لُوطٍ يَتَضَمَّنُ إِخْرَاجَهُ أَوَّلًا، لَأَنَّهُ هُوَ حَامِلُ رِسَالَةِ التَّلْوِيمِ وَالتَّأْنِيْبِ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (النَّمْلِ/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظَاهَرُونَ﴾ (٥١).

وَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذَا كَانَ فِي أَوَّلِ مَرَاكِلِ التَّفَكِيرِ بِتَقْدِيمِ اقْتِرَاحِ بِإِخْرَاجِ لُوطٍ وَآلِهِ مِنْ أَرْضِهِمْ دَلَالَتَانِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:

الدلالة الأولى: استعمال «الفاء» التي تدلُّ على الترتيب مع التعقيب، في أول الآية: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ أي: فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ قَوْمِهِ رَدٌّ عَلَى نَصَائِحِهِ وَتَأْيِيدَاتِهِ ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا...﴾.

الدلالة الثانية: استعمالهم عبارة ﴿آلَ لُوطٍ﴾ الدالة على التكريم، وَعَلَى اعْتِرَافِ قَوْمِهِ بِأَنَّ لُوطًا وَأَهْلَهُ مِنْ عِلْيَةِ النَّاسِ فِي أَرْضِهِمْ، وَمِنْ ذَوِي الْمَكَانَةِ يَبْتَنِهِمُ الَّذِينَ يُقَالُ لَهُمْ بِحَسَبِ الْعُرْفِ السَّائِدِ بَيْنَهُمْ: آلُ فُلَانٍ.

﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾: أي: قَالَ بَغْضُ كِبَرَاتِهِمْ فِي نَادِيهِمْ هَذَا الْقَوْلَ عَلَى سَبِيلِ إِيدَاءِ الرَّأْيِ، وَسَكَتِ الْبَاقُونَ، وَلَكِنْ لَمْ يَتَّخِذُوا قَرَارًا بِإِخْرَاجِهِ، إِذْ لَيْسَ فِي النُّصُوصِ أَنَّهُمْ أَخْرَجُوهُ فَعَلًا، وَلَا اتَّخَذُوا وَسَائِلَ لِإِخْرَاجِهِ بِالْقُوَّةِ.

﴿مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾: أي: مِنْ مُّجْمَعِهِمُ السَّكْنِيِّ، وَهُوَ يَشْمَلُ الْمَرْكَزَ الرَّئِيسَ وَتَوَابِعَهُ.

القرية: تُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى كُلِّ أَرْضٍ فِيهَا بَيْوتٌ وَمَسَاكِنُ مُجْتَمِعَةٌ، قُلْتُ أَمْ كَثُرَتْ، وَلَوْ بَلَّغَتْ مَدِينَةً عَظِيمَةً جَدًّا، وَقَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْقَرْيَةُ، الْمَضْرُ الْجَامِعُ.

﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظَاهَرُونَ﴾: أي: إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَنَزَّهُونَ دَوَامًا عَنْ

الفواحش، وَيَنْتَقِدُونَهَا، وَيُسَدِّدُونَ فِي التَّلْوِيمِ عَلَيْهَا، فطريقَتُهُمْ مُخَالِفَةٌ لَطَرِيقَتِكُمْ، وَوُجُودُهُمْ بَيْنَكُمْ يُنْغِصُ عَلَيْكُمْ أَمْرَكُمْ فِي مُمَارَسَةِ مَا تَرْغَبُونَ فِيهِ، وَمَا تَشْتَهُونَ.

وَقَضَّاهُمْ مِنْ آلِ لُوطٍ، لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَابْنَتَاهُ، أَوْ بَنَاتُهُ الثَّلَاثُ، وَزَوْجَتُهُ إِذَا كَانَتْ حَرِيصَةً عَلَى مُلَازِمَةِ زَوْجِهَا وَبَنَاتِهَا، فَقَدْ كَانَتْ كَافِرَةً وَعَلَى هَوَى قَوْمِهَا، وَخَائِنَةً لَزَوْجِهَا بِتَبْلِيغِ قَوْمِهَا الْأَخْبَارَ الَّتِي تُهْمُّهُمْ مِمَّا يَجْرِي مَعَ لُوطٍ زَوْجِهَا.



المرحلة الثانية: وَلَمَّا تَابَعَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَأْنِيْبَهُ لِقَوْمِهِ بِخُصُوصِ فَاحِشَةِ إِيْتَانِ الرِّجَالِ فِي أَذْبَارِهِمْ، أَعَادُوا اقْتِرَاحَ إِخْرَاجِهِ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْ قَرْيَتِهِمْ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظْهَرُونَ﴾ (٨٢).

وَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذَا كَانَ فِي مَرَحَلَةٍ ثَانِيَةٍ دَلَالَتَانِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:

الدَّلَالَةُ الْأُولَى: اسْتِعْمَالُ «الْوَاوِ» الْعَاطِفَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى مُطْلَقِ الْجَمْعِ، فَلَا تَفِيدُ تَرْتِيباً وَلَا تَعْقِيباً، فِي أَوَّلِ الْآيَةِ: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾: أَي: وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ قَوْمِهِ رَدٌّ عَلَى نَصَائِحِهِ وَتَأْنِيْبَاتِهِ ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا...﴾.

الدَّلَالَةُ الثَّانِيَّةُ: عَدَمُ ذِكْرِهُمْ لُوطاً وَأَهْلَهُ بِعِبَارَةٍ صَرِيحَةٍ، بَلْ كُنُوا عَنْهُمْ بِالضَّمِيرِ الدَّالِّ عَلَيْهِمْ، فِي قَوْلِهِمْ: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾. فَهَذَا التَّعْبِيرُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةِ غَضَبٍ وَكَرَاهِيَةٍ وَخُصُومَةٍ لِللُّوطِ وَبَنَاتِهِ.



المرحلة الثالثة: لم ينته لوط عليه السلام عن متابعة قومه بالتضح والتأنيب وتقيح كبائرهم ومنكراتهم.

فواجهه قومه بالتهديد بالإخراج والنفي من أرضهم، باستعمال القوة الإكراهية.

دل على هذا قول الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالُوا لَيْنَ لَّكَ تَنَهٍ يَلُوطَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ (١١٧)

أي: نُقْسِمُ: لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ عَنْ تَأْنِيئِنَا وَالتَّشْنِيعِ عَلَيْنَا لَنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا أَنْتَ وَمَنْ هُوَ عَلَى دِينِكَ وَطَرِيقَتِكَ.

وأذكركَ لوط عليه السلام أنه إذا تابع رسالته في قومه فإنهم مُخْرِجُوهُ بالقوة لا محالة.

وفي هذه المرحلة أصدر قومه قرار عزله عزلاً اجتماعياً، إذ نهوه عن أن يلتقي أحداً من الناس، سواء أكان من قومه، أم من خارج قومه.

دل على هذا قول الله عز وجل في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) في حكاية قولهم له، حين علموا أن عنده شباباً مُزداً حسناً، فأقبلوا إلى داره يريدون ممارسة الفاحشة معهم، وكانوا في الحقيقة رسلاً من الملائكة، أرسلهم الله عز وجل لتغذيتهم وإهلاكهم.

﴿أَوَلَمْ نَنهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٧)؟؟: حين لم يسمح لهم بأن يصلوا إلى ضيوفه، حتى لا تلصق به فضيحة منكّرة.

أي: ألم ننهك عن أن تلتقي أحداً من الناس ولو كانوا من غير قومنا؟؟



المرحلة الرابعة: لما وصل قوم لوط إلى تهديده تهديداً صريحاً بالإخراج، وعزله عزلاً اجتماعياً عَنْ أَنْ يَلْتَقِيَ أحداً من الناس، أُنذَرَهُم بعذاب الله، وبإهلاكٍ شاملٍ وكرَّرَ إنذارَهُ لهم.

فَكَذَّبُوهُ بِالْثُؤْر، وَأَغْرَاهُمْ إِمْهَالُ اللَّهِ لَهُمْ فَتَحَدَّوْهُ بِأَنْ يَأْتِيَهُمْ بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّهُ غَيْرُ صَادِقٍ، وَأَنَّ اللَّهَ لَنْ يُنْزِلَ بِهِمُ الْعَذَابَ وَالْهَلَاكَ.

دلَّ على هذا قولُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي (٣٣)﴾ - ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ (٣٦)﴾ .
أي: فشكُّوا فيها وكذبوه بها.

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):
﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩)﴾ .

تَدُلُّ «الفاء» في عبارة: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا...﴾ على أَنَّ هذا كَانَ عَقِبَ توجيهِ «لوط» عليه السلام إنذاراته لهم، وهي أيضاً تُفَصِّحُ عن مَطْوِيٍّ في النصِّ تقديره: فكان آخِرُ أَمْرِ لوط مع قومه أَنَّ أَنْذَرَهُمْ بِعَذَابِ اللَّهِ عَذَّةَ مَرَاتٍ، وَأَنْذَرَهُمْ بِإِهْلَاكِ اللَّهِ لَهُمْ إِذَا اسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَقَبَائِحِهِمْ وَمُنْكَرَاتِهِمْ الشَّيْعَاتِ، فَقَالُوا بِإِنْفَعَالٍ وَغَضَبٍ: ﴿... أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩)﴾ .

وجاء اسْتِغْمَالُ حَرْفِ الشَّرْطِ «إِنْ» بعبارتهم، لأنَّهم لم يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ صِدْقَهُ، ولو كانوا يَعْتَقِدُونَ صِدْقَهُ ولو بِظَنٍّ رَاجِحٍ لَمَا تَحَدَّوْهُ هَذَا التَّحْدِي. والسَّبَبُ فِي عَدَمِ اعتقادهم صِدْقَهُ، طُولُ إِمْهَالِ اللَّهِ لَهُمْ، واستغراقهم

فِي مُمَارَسَاتِهِمْ شَهَوَاتِهِمُ الْجَانَحَاتِ الشَّاذَّاتِ، وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي مَدَّ الْغِشَاوَةَ الْكَثِيفَةَ عَلَى بَصَائِرِهِمْ، فَأَعْمَاهَا عَنْ رُؤْيَا أَدْلَةِ الْحَقِّ، وَعَنْ رُؤْيَا صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ.

عندئذٍ لَمْ يَجِدْ «لُوطٌ» عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ مُهَدَّدٌ بِالْإِخْرَاجِ الْقَسْرِيِّ، مِنْ أَرْضِ قَوْمِهِ، وَمَغْرُولٌ عَزْلاًاجْتِمَاعِيًّا عَنْ أَنْ يَلْتَقِيَ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُ مَمْنُوعٌ مِنْ آدَاءِ رِسَالَتِهِ فِي قَوْمِهِ مَنَعًا جَبْرِيًّا، إِلَّا أَنْ يَقُولَ لِقَوْمِهِ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْفَالِينَ، مُغْلِنًا سَخَطَهُ وَعَدَمَ رِضَاهُ عَنْ أَعْمَالِهِمُ الْمُنْكَرَةِ الْقَبِيحَةِ الشَّيْئَةِ.

دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْفَالِينَ﴾ (١٦٨):

أي: إِنِّي لِعَمَلِكُمْ الَّذِي أَنْكَرْتُهُ عَلَيْكُمْ مُبَلِّغًا رِسَالَاتِ رَبِّي مِنَ الْكَارِهِينَ، الْمُبْغِضِينَ، الْمُسْتَكْرِهِينَ الْهَاجِرِينَ.

وَإِذْ أَوْفَقَهُ قَوْمُهُ عَنْ مُتَابَعَةِ رِسَالَتِهِ فِيهِمْ بِالْجَبْرِ، وَرَأَى أَنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةٍ مَيُؤُوسٍ مِنْ صَلَاحِهِمْ مَعَهَا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ، وَرَأَى أَيْضًا أَنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا إِلَى دَرَكَةٍ مِنَ الْغِيظِ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ يُذَبِّرُوا ضِدَّهُ وَضِدَّ أَهْلِهِ شَرًّا، بَعْدَ أَنْ تَحَدَّوْهُ بِأَنْ يَأْتِيَهُمْ بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ، دَعَا رَبَّهُ أَنْ يَنْصُرَهُ عَلَيْهِمْ بِاعْتِبَارِهِمْ قَوْمًا مُفْسِدِينَ.

دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٣٥):

وَحِينَ أَذْرَكَ أَنْ تُذَرَّ اللَّهُ الَّتِي بَلَغَهُمْ إِيَّاهَا قَدْ صَارَ وَقُوعُهَا وَشَيْكَأً لَا

محالة، توجّه لربّه داعياً أن يُنَجِّيه وأَهْلَهُ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي سَيُنْزِلُهُ بِقَوْمِهِ جَزَاءَ مَنكَرَاتِهِمْ وَقَبَائِحِهِمْ.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) يَخْشَى دُعَاءَهُ.

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦٩):

أي: نَجِّنِي وَأَهْلِي مِنَ الْعِقَابِ وَالْعَذَابِ الَّذِي سَيُنْزِلُ بِقَوْمِي جَزَاءَ مَا يَعْمَلُونَ مِنْ قَبَائِحٍ وَمَنكَرَاتٍ.

ويظهر أنّه أدخل زَوْجَتَهُ فِي عُمُومِ دُعَائِهِ، لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ وَالْمَنكَرَاتِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُفْرِهَا، وَكَوْنِهَا مَعَ قَوْمِهَا، إِلَّا أَنَّ قَضَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شَمَلَهَا بِأَنْ تَكُونَ مَعَ الْهَالِكِينَ مِنْ أَجْلِ كُفْرِهَا، وَخِيَانَتِهَا لَزَوْجِهَا بِإِبْلَاغِ قَوْمِهَا بَعْضُ مَا يَجْرِي فِي دَارِهِ، وَبَعْضُ تَصَرُّفَاتِهِ.



الفصل الرابع

مرور الرسل من الملائكة المأمورين بتعذيب قوم لوط
وأهلاكم بإبراهيم عليه السلام للبشرى والإعلام

مقدمة:

وصل قوم «لوط» إلى حالة ميؤوسٍ معها من استجابتهم استجابةً طوعيةً لدَعْوَةِ رُسُلِهِمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فَقَضَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ وَيُهْلِكَهُمْ إِهْلَاكًا عَامًّا شَامِلًا، وَأَنْ يَتَّخِذَ مَعَ تَعَذِّبِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ طَرِيقَةً يَقْلِبُ بِهَا بِلَادَهُمْ، فَيَجْعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا، مُعَامِلَةً لَهُمْ بِالْمَثَلِ، إِذْ قَلَّبُوا الْأَوْضَاعَ الطَّبِيعِيَّةَ لَدَى مُمَارَسَاتِهِمْ قَضَاءَ شَهَوَاتِ فُرُوجِهِمْ.

وقد بَلَّغُوا مَبْلَغًا مِنَ الْوَقَاحَةِ وَالْمَجَانَّةِ وَالْإِصْرَارِ عَلَى الْفُحْشِ الْعَلَنِيِّ الشَّاذِّ، وَالْعُدْوَانِ عَلَى النَّاسِ فِي أَعْرَاضِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، كَانُوا فِيهِ هُمُ السَّابِقِينَ لِكُلِّ نَظَائِرِهِمْ، مِنْ فُسَاقٍ مُعَاصِرِيهِمْ، وَفُسَاقٍ غَابِرِينَ.

إِرْسَالُ الرُّسُلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِإِهْلَاكِهِمْ وَتَعْذِيبِهِمْ:

لَمَّا كَانَتْ رِسَالَةُ لُوطَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ أَهْلِ سَدُومَ، بِمِثَابَةِ فِرْعَ لِرِسَالَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذْ كَانَ مُؤْمِنًا بِهِ، وَمُسْلِمًا لَهُ، وَتَابِعًا مِنْ أَتْبَاعِهِ، وَقَدْ ارْتَحَلَ إِلَى أَرْضِ سَدُومَ بِإِذْنِهِ وَمَشُورَتِهِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْبِلَادُ مَعَ سَائِرِ الْبِلَادِ الَّتِي كَانَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَطُوفُ بِهَا فِي أَسْفَارِهِ وَتَنَقُّلَاتِهِ مَجَالَاتٍ دَعَوْتِهِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ إِبْلَاجُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا سَيَحُلُّ بِقَوْمِ لُوطَ مِنْ عَذَابٍ وَإِهْلَاكِ شَامِلَيْنِ.

وَرَافَقَ هَذَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَضَى بِحُكْمَتِهِ أَنْ يَهَبَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ زَوْجَتِهِ «سَارَةَ» الْعَجُوزَ الْعَقِيمَ بَعْدَ أَنْ يُضْلِحَهَا لَتَكُونَ ذَاتَ وَلَدٍ، وَلَدًا يُسَمُّوهُ «إِسْحَاقَ» وَأَنْ يَكُونَ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَقَضَى أَنْ يَهَبَ إِسْحَاقَ إِذَا كَبُرَ وَتَزَوَّجَ وَلَدًا يُسَمَّى «يَعْقُوبَ» وَأَنْ يَكُونَ نَبِيًّا وَرَسُولًا أَيْضًا.

وَقَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ أَنْ يُبَشِّرَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَزَوْجَتَهُ «سَارَةَ» بِإِسْحَاقَ وَلَدًا لهما، وَيُعْقِبَ حَفِيدًا لهما، قَبْلَ أَنْ يُعْلِمَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَبَأِ مَا قَضَاهُ بِشَأْنِ قَوْمِ لُوطَ مِنْ تَعْذِيبٍ وَإِهْلَاكِ.

فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رُسُلًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَى صُورِ شَبَابٍ مُزْدِ حَسَنِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلًا، قَبْلَ أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى لُوطَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَدْ جَاءَ بَيَانُ مَجِيئِ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي عِدَّةِ نصوصٍ مِنْ عِدَّةِ سُورٍ، وَهِيَ مُتَكَامِلَةٌ الدَّلَالَاتِ فِيمَا بَيْنَهَا.

(١) فِي سُورَةِ (الذَّارِيَاتِ/ ٥١ مِصْحَف/ ٦٧ نَزُول) قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيْفٍ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٤):

﴿ضَيْفٍ﴾: يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْأَثْنَيْنِ فَأَكْثَرِ، والمراد عَدَدٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ، وَوَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُكْرَمُونَ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِبَشَرًا بَلْ هُمْ مَلَائِكَةٌ، فَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَلَائِكَةَ بِأَنَّهُمْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ، فَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ (٢٦) لَا يَسْـَٔفُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧).

يُضَافُ إِلَى هَذَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَكْرَمَهُمْ كَعَادَتِهِ مَعَ كُلِّ ضَيْفٍ يَأْتِيهِ، وَأَنَّهُمْ تَبَدُّوْا عَلَيْهِمْ دَلَائِلُ أَهْلِ النُّعْمَةِ وَالْمَجْدِ وَالشَّرَفِ.

• ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ (٢٥):

[إِذَا] بِمَعْنَى «حِينَ» أَي: حِينَ دَخَلُوا عَلَيْهِ.

وَقَدْ بَدَّوْهُ بِالتَّحِيَّةِ قَائِلِينَ لَهُ «سَلَامًا» أَي: نُسَلِّمُ عَلَيْكَ سَلَامًا، فَلَفِظَ «سَلَامًا» مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفِعْلِ مَحذُوفٍ.

﴿قَالَ سَلَامٌ﴾: أَي: تَحِيَّتِي لَكُمْ: سَلَامٌ.

قَالَ الْبَلَاغِيُونَ: «سَلَامٌ» جُمْلَةٌ اِسْمِيَّةٌ مَعَ الْمَبْتَدَأِ الْمَحذُوفِ، وَ«سَلَامًا» جُمْلَةٌ فِعْلِيَّةٌ مَعَ الْعَامِلِ الْمَحذُوفِ، وَالْجُمْلَةُ الْأَسْمِيَّةُ أَقْوَى وَآكَدُ مِنَ الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ،

وَعَلَى هَذَا فَقَدْ رَدَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنِ مِنْهَا.

﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾: أَي: أَنْتُمْ قَوْمٌ لَا أَعْرِفُ أَشْخَاصَكُمْ، وَلَا أَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ، وَلَكِنْ لَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ ضِيَافَتِكُمْ.

• ﴿فَرَاغَ إِلَيْكَ أَهْلُهُ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ (٢٦):

﴿فَرَّاغٌ﴾: أي: فَذَهَبَ بِخِفَةٍ وَسُرْعَةٍ لضيافتهم وإكرامهم، دُونَ أَنْ يُظْهِرَ عَلَامَاتِ إِرَادَةِ إِكْرَامِهِمْ، مِنْ شِدَّةِ مَا لَدَيْهِ مِنْ جُودٍ وَسَخَاءِ نَفْسٍ.

دلت «الفاء» في: ﴿فَرَّاغٌ﴾ على سُرْعَةِ ذَهَابِهِ إِلَى أَهْلِهِ عَقِبَ قُدُومِ الضيف إليه وهو يجهل مَنْ هُمْ.

﴿فَجَاءَ يَعِجِلُ سَمِينٌ﴾: كَانَتْ قُطْعَانُ الْأَبْقَارِ هِيَ الْمَفْضَلَةُ فِي مُوَاشِيهِمْ، وَكَانَتْ ثَرْوَةُ إِبْرَاهِيمَ وَلُوطَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنَ الْمَوَاشِيِّ، وَهِيَ تَزَعَى مِنْ الْكَلَاءِ الْمَبَاحِ.

ومعلومٌ أَنَّ لَحْمَ الْعِجْلِ السَّمِينِ أَطْيَبُ وَأَلَذُّ مِنْ لَحُومِ الْأَبْقَارِ الْكَبِيرَةِ. ودلت «الفاء» في: [فَجَاءَ] عَلَى سُرْعَةِ عَوْدَتِهِ بِالْعِجْلِ السَّمِينِ لَضُيُوفِهِ. ويظهر أَنَّ مُطَبَّخَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ أَهْلِهِ قَدْ كَانَ مُسْتَعِدًّا دَوَامًا لِتَقْدِيمِ الطَّعَامِ الْمُطَهَّوِّ النَّاضِجِ لِلضُّيُوفِ الَّذِينَ يَأْتُونَهُ نَهَارًا أَوْ لَيْلًا.

(٢) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (هُود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لِيكَ أَنْ جَاءَ يَعِجِلُ حَنِيزٌ ﴿٦٩﴾﴾.

وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو: [رُسُلُنَا] بِإِسْكَانِ السَّيْنِ. «رُسُلٌ» وَ «رُسُلٌ» بضم السَّيْنِ وَإِسْكَانِهَا لَغَتَانِ عَرَبِيَّتَانِ.

﴿فَمَا لِيكَ أَنْ جَاءَ يَعِجِلُ﴾: أَيُّ: فَمَا أَبْطَأَ عَنْ مَجِيئِهِ بِعِجَلٍ. «أَنَّ» هُنَا مُضْذَرِيَّةٌ. دَاخِلَةٌ عَلَى الْفِعْلِ الْمَاضِيِّ، وَيُقَدَّرُ قَبْلُهَا حَرْفُ جَرٍ مَحْذُوفٌ، هُوَ هُنَا «عَنْ» وَالْمُرَادُ بِنَفْيِ اللَّبْثِ عَدَمُ الْإِبْطَاءِ، حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ مُطْلَقًا، مِنْ شِدَّةِ سُرْعَةِ إِحْضَارِهِ ضِيَافَتِهِ.

﴿حَنِيزٌ﴾: أَيُّ: مَشْوِيٌّ بِالْدَّسِّ فِي النَّارِ، أَوْ فِي حِجَارَةٍ مُحَمَّاةٍ بِالنَّارِ.

فأضاف هذا النصّ على النصّ الذي جاء في سورة (الذاريات) ما يلي .

أولاً: أَنَّ الشَّابَّابَ الذِّينَ ظَنُّهُمْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ضُيُوفًا بِحَسَبِ ظَاهِرِ حَالِهِمْ، هُمْ فِي الْحَقِيقَةِ رُسُلٌ مُرْسَلُونَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَهُمْ مَلَائِكَةٌ.

ثانياً: أَنَّهُمْ جَاءُوهُ بِالْبُشْرَى، «الْبُشْرَى» اسْمٌ مِنَ التَّبَشِيرِ، وَهُوَ الْإِخْبَارُ بِمَا يَسُرُّ الْمُبَشِّرَ، وَجَاءَ بَيَانُ هَذِهِ الْبُشْرَى الَّتِي جَاءُوا بِهَا بَعْدَ هَذَا فِي هَذَا النَّصِّ وَفِي غَيْرِهِ.

ثالثاً: أَنَّ الْعَجَلَ السَّمِينِ الَّذِي جَاءَ بِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَدْ كَانَ حَنِيدًا، أَي: مَشُوبًا مَطْهُرًا.

رابعاً: أَنَّ السُّزْعَةَ الَّتِي أَخْضَرَ بِهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الضِّيَافَةَ لَضُيُوفِهِ، قَدْ كَانَتْ فَائِقَةً جَدًّا، حَتَّى كَانَتْ لَمْ يَلْبَثْ فِي دَاخِلِ بَيْتِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ زَمَنًا مَّا، وَهَذَا يُشْعِرُ بِأَنَّ الضِّيَافَةَ عِنْدَهُ مِنَ اللَّحُومِ الْمَشْوِيَّةِ جَاهِزَةً فِي مَطْبَخِهِ دَوَامًا.

(٣) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الذَّارِيَّاتِ/ ٥١ مَصْحَف/ ٦٧ نَزُول):

﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ...﴾ (٧) . دَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ مِنْ فُضَائِلِ الْمُضَيِّفِ وَكَرَمِهِ فِي الضِّيَافَةِ، أَنَّ يُقَرَّبَ إِلَى ضُيُوفِهِ مَا يَأْكُلُونَهُ وَمَا يَشْرَبُونَهُ، وَقَدْ كَانَ هَذَا مِنْ عَادَاتِ الْكُرَمَاءِ، قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَ النَّاسُ الْخِوَانَ الْكَبِيرَ الَّذِي تَوَضَّعُ حَوْلَهُ الْكَرَاسِي، وَيَضَعُبُ تَقْرِيبَهُ لِلضُّيُوفِ.

(٤) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (هُود/ ١١ مَصْحَف/ ٥٢ نَزُول):

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ...﴾ (٧٠) .

أَي: فَلَمَّا رَأَاهُمْ لَا يَأْكُلُونَ مِنَ الْعَجَلِ السَّمِينِ الْحَنِيدِ الَّذِي قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ، إِذْ رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَمْتَدُّ إِلَى الطَّعَامِ، اسْتَنَكَّرَ تَصَرُّفُهُمْ الَّذِي هُوَ عَلَى غَيْرِ

عَادَةِ الضُّيُوفِ، بَلْ هُوَ عَادَةُ الَّذِينَ يَأْتُونَ بِشَرٍّ، وَلَمْ يَخْطُرْ فِي بَالِهِ أَنَّهُمْ
مَلَائِكَةٌ لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، إِذْ كَانَ مَظْهَرُهُمْ لَا يُشْعِرُ بِذَلِكَ.

[نَكِرَهُمْ]: أي: اسْتَكْرَرَ تَصَرُّفَهُمْ.

(٥) عِنْدِيذٍ قَالَ لَهُمْ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (الذَّارِيَّاتِ/ ٥١ مصحف/

٦٧ نزول):

﴿... قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾﴾ بِأَسْلُوبِ الْعَرْضِ الْمَهْذَبِ الرَّفِيقِ.

فَلَمَّا وَجَمُوا عَنِ الْأَكْلِ أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ مِنْهُمْ خِيفَةً، دَلَّ عَلَى هَذَا
قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ السُّورَةِ:

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً... ﴿٧٨﴾﴾:

أي: فَاحْسَسَ فِي نَفْسِهِ خَوْفًا مِنْ غَرَضِهِمْ الَّذِي جَاءُوا بِهِ، لِأَنَّهُمْ بَشَرٌ
بِحَسَبِ الظَّاهِرِ، وَلَمْ يَأْكُلُوا مِنْ طَعَامِهِ، مَعَ أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: [أَلَا تَأْكُلُونَ؟]
بِأَسْلُوبِ الْعَرْضِ التَّكْرِيمِيِّ الرَّفِيعِ.

وَرَبِمَا حَرَّكُوا أَيْدِيَهُمْ حَرَكَاتٍ تُوهِمُ أَنَّهُمْ فِي حَالَةِ شُرُوعٍ فِي الْأَكْلِ،
إِلَّا أَنَّهُ رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَى لَحْمِ الْعِجْلِ وَلَا يَأْكُلُونَ، عِنْدِيذٍ قَالَ لَهُمْ:
«إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ» يَقْصِدُ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ.

(٦) دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْحَجَرِ/ ١٥

مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ
وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

﴿وَجِلُونَ﴾: أي: خَائِفُونَ. يُقَالُ لُغَةً: «وَجِلَ يُوَجِّلُ وَجَلًا وَمَوْجَلًا،
أي: خَافَ وَفَزَعَ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ بَيِّنَ: [سَلَامًا] فِي هَذَا النَّصِّ وَبَيْنَ: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾
فَرَاغًا تَمْلُؤُهُ عِبَارَاتُ جَاءَتْ فِي النُّصُوصِ الْأُخْرَى، كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ.

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (٥٣): أي: قالوا: لَا تَخَفْ، إِنَّا رُسُلٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ.

(٧) وجاء في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (٢٨): أي: لَا تَخَفْ إِنَّا رُسُلٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَبَعْدَ أَنْ طَمَأْنُونَهُ بِبَشْرِهِ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ.

وعلى ما جاء في هذا النص، يُحْمَلُ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الحجر) الَّذِي جَاءَ بَيَانُهُ أَنْفَاءً، أي: لَا تَوْجَلْ إِنَّا رُسُلٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَبَعْدَ أَنْ طَمَأْنُونَهُ قَالُوا لَهُ: إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ.

(٨) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿قَالَ أَبَشِّرْنَاهُ بِمَا نَبَأَ أَنْ مَسَّى الْكَبِيرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ﴾ (٥٤) قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) ﴿.

• قرأ حمزة: [إِنَّا نُبَشِّرُكَ] مِنْ فِعْلٍ: «بَشَّرَهُ يَبَشِّرُهُ» أي: أخبره بما يَسْرُهُ.

وقرأ باقي القراء العشرة: [إِنَّا نُبَشِّرُكَ] مِنْ فِعْلٍ: «بَشَّرَهُ يَبَشِّرُهُ» المضعف.

• قرأ نافع: [فَبِمَ تَبَشِّرُونَ؟] بِكَسْرِ التَّوْنِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ المحذوفة.

وقرأ ابن كثير: [فَبِمَ تَبَشِّرُونَ؟] بِتَشْدِيدِ النُّونِ الْمَكْسُورَةِ، أَضْلَاهَا تَبَشِّرُونَنِي، فَحَذَفَتْ يَاءَ الْمُتَكَلِّمِ، وَأَذْغَمَتِ النُّونَ بِالنُّونِ، فَصَارَتْ تُونًا مُشَدَّدَةً مَكْسُورَةً.

وقرأ باقي القراء العشرة: [فَبِمَ تَبَشِّرُونَ؟] بِفَتْحِ التَّوْنِ، دُونَ مِلْحَظَةِ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ مُحذُوفَةٍ.

وهذه وُجُوهٌ مُتَشَابِهَةٌ، وفيها تَفْتَنُ في البيان.

• وقرأ أبو عمرو، والكسائي، ويعقوب، وخلف: [يَقْنِطُ] بكسرِ الثون.

وقرأ باقي القراء العشرة [يَقْنِطُ] بفتح النون.

«يَقْنِطُ» و«يَقْنِطُ» لغتان عَرَبِيَّتَانِ.

• ﴿قَالَ أَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابِي أَفَ يَسْمَعُونَ﴾ ٥٤

﴿عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾: أي: صَارَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْكِبَرِ الْمُوهِنِ المضعِفِ تَمَاسًّا، وَلَمْ يَقُلْ: أَصَابَنِيَ الْكِبَرُ، أَوْ نَزَلَ بِي الْكِبَرُ، لِيَكُونَ صَادِقًا في عبارته، إِذْ مَا زَالَتْ لَدَيْهِ قُوَّةٌ وَقُدْرَةٌ عَلَى الْإِنْجَابِ.

﴿فَيَسْمَعُ تَبَشِيرُونَ﴾: أي: فَيَأْتِي سَبَبٌ لَدَيَّ أَمْلِكُهُ يَكُونُ مِنْ آثَارِهِ أَنْ يَأْتِيَنِي وَلَدٌ تَبَشِّرُونَنِي بِهِ؟.

• ﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ٥٥

أي: بَشِّرْنَاكَ بِخَبَرٍ عَنْ اللَّهِ حَقًّا، فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ.

﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾: أي: مِنَ الْيَائِسِينَ. الْقُنُوطُ فِي اللُّغَةِ: الْيَأْسُ.

لَمْ يُجِيبُوهُ عَنِ السَّبَبِ، وَإِنَّمَا أَجَابُوهُ عَلَى ظَاهِرِ عِبَارَتِهِ، لَا عَلَى مُرَادِهِ بها.

• ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنِطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ ٥٦

أي: لَا أَحَدٌ يَقْنِطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ الْجَاهِلُونَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى مَا يَشَاءُ.

فَالْقُنُوطُ لَمْ أَشْعُرْ بِهِ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِي حَتَّى تَنْهَوْنِي عَنْهُ، وَأَشْعَرَهُمْ بِهَذَا أَنَّهُ يَسْأَلُهُمْ عَنِ السَّبَبِ فَقَطْ.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَجْرَحَ مَشَاعِرَ زَوْجَتِهِ «سَارَةَ» الْوَاقِفَةَ مِنْ وَرَاءَ حِجَابٍ تَتَسَمَّعُ الْحَوَارِ، بِأَنَّ السَّبَبَ فِي عَدَمِ الْإِنْجَابِ هُوَ مِنْهَا لَا مِنْهُ، فَهُوَ مَا زَالَ قَادِرًا عَلَى الْإِنْجَابِ ضَمَّنَ نِظَامَ الْأَسْبَابِ الرَّبَّانِيَّةَ الْمَعْرُوفَةَ. فَقَالَ: ﴿أَشْرَثُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ وَسَكَتَ عَنِ الْعِلَّةِ الْمَوْجُودَةِ لَدَى زَوْجَتِهِ الْعَجُوزِ الْعَقِيمِ، إِنَّهَا قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ عَجُوزًا كَانَتْ طَوَالَ مَا قَبْلَ سِنِّ الْيَأْسِ عَقِيمًا، فَكَيْفَ وَقَدْ دَخَلَتْ سِنِّ الْيَأْسِ وَصَارَتْ عَجُوزًا. وَرُبَّمَا وَقَعَ فِي ظَنِّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَأْمُرُهُ بِأَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً ذَاتَ اسْتِعْدَادٍ لِلْإِنْجَابِ.

ومثل هذا الظنَّ وَقَعَ فِي نَفْسِ زَوْجَتِهِ «سَارَةَ» الْوَاقِفَةِ مِنْ وَرَاءَ حِجَابٍ تَتَسَمَّعُ الْحَوَارِ.

لَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُلْتَزِمًا بِأَنْظِمَةِ اللَّهِ السَّبَبِيَّةِ فِي كُلِّ مَا يَخُصُّهُ، وَمَتَادِبًا مَعَ رَبِّهِ بِشَأْنِهَا، غَيْرَ حَرِيصٍ عَلَى أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَزَقَهَا مِنْ أَجْلِ وَلَدٍ يَأْتِيهِ مِنْ «سَارَةَ» زَوْجَتِهِ.

فَأَبَانَ لِلرُّسُلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِإِشَارَةٍ خَفِيَّةٍ، أَنَّ النِّظَامَ السَّبَبِيَّ الْمَعْتَادَ، يُسْتَبَعَدُ مَعَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ وَلَدٌ مِنْ زَوْجَتِهِ «سَارَةَ» الْعَجُوزِ الْعَقِيمِ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ لَا يَجْرَحَهَا بِذِكْرِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، فَذَكَرَ شَيْخُوحَتَهُ فَقَطْ، وَسَكَتَ عَنِ السَّبَبِ الْحَقِيقِيِّ.

(٩) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (هُود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿... قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ﴾ (٧٦):

أَكْذَبُوا لَهُ الْخَبَرَ ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾ لِيُذْهِبُوا عَنْهُ الْخَوْفَ.

أي: وامرأته قائمةٌ مِنْ وَرَاءَ حِجَابٍ تَتَسَمَّعُ الْحَوَارِ فَضَحَكَتْ لِمَا عَلِمَتْ انْتِهَاءَ الْحَدِيثِ عَنِ الْبَشَرِ:

لقد كان ضحكها ذا عَوَامِلَ مختلفة، منها التعجبُ من النبأ، ومنها سُروُّها بأن إبراهيم عليه السلام ذَكَرَ شَيْخُوحَتَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ السَّبَبَ من رُوجَتِهِ الْعَجُوزَ الْعَقِيمَ، ومنها تَصَوُّرُهَا أَنَّ إبراهيمَ رُوجَهَا سَيَتَزَوَّجُ امْرَأَةً أُخْرَى مُسْتَعِدَّةً لِلْإِنْجَابِ، وَأَنَّ اللهَ سَيَرْزُقُهُ مِنْهَا بِالْوَلَدِ الْمُبَشِّرِ بِهِ، لَكِنْ هَوْنٌ من غَيْرَتِهَا أَنَّ رُوجَهَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ كَبِيرُ السِّنِّ، فَمِنَ الْمُسْتَبْعَدِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِامْرَأَةٍ وَلَوْ.

وبحوارها مع نفسها الذي أثار ضحكها، رَجَعَ ذَهْنُهَا مِنْ سُروِّهِ فَأَذْرَكَتْ أَنَّ الْمُبَشِّرِينَ مَلَائِكَةً، وَأَنَّهُمْ يُبَشِّرُونَ بُشْرَى بَنِيَّ حَقٍّ.

عندئذٍ لَمْ تَضْبِرْ عَلَى تَلْقَى هَذَا النِّبَأِ، فَأَقْبَلَتْ دَاخِلَةً عَلَيْهِمْ تَضِجُ وَتَصِيحُ، إِذْ أَثَارَتْهَا دَوَافِعُ مُخْتَلِفَةٍ مُتَعَارِضَةٍ، وَصَكَّتْ وَجْهَهَا بِكَفِّينِهَا، وَقَطَعَتْ عَلَيْهِمُ الْحَدِيثَ عَنْ قَوْمِ لُوطَ.

(١٠) فجاء في سورة (الذَّارِيَاتِ/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرَرٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا...﴾ (٢٩)

﴿فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ﴾: أي: فَأَقْبَلَتْ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ وَدَخَلَتْ عَلَيْهِمْ.

﴿فِي صَرَرٍ﴾: أي: فِي ضَجَّةٍ وَصَنِحَةٍ وَأَصْوَاتٍ وَكَلِمَاتٍ مُخْتَلِطَاتٍ، كَعَادَةِ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي فِي طِبَاعِهِنَّ حِدَّةٌ، إِذَا أَثَارَهُنَّ أَمْرٌ جَلَلٌ يَمْسُهُنَّ.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾: أي: فَضْرَبَتْ وَجْهَهَا بِكَفِّينِهَا، عَلَى عَادَةِ النِّسَاءِ، وَلَوْ كَانَ الضَّرْبُ بِكَفٍّ وَاحِدَةٍ لَكَانَ التَّعْبِيرُ فَضْرَبَتْ حَدَّهَا، أَوْ عَارِضَهَا، أَوْ نَحْوَ هَذَا.

حَرَكَاتٌ دَلَّتْ عَلَى غَلِيَانٍ فِي نَفْسِهَا، وَهَيْجَانٍ فِي دَاخِلِهَا، بِدَافِعٍ مِنْ غَيْرَتِهَا أَنْ يَتَزَوَّجَ رُوجَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، رُوجَةً ضَرَّةً لَهَا، صَالِحَةً لِأَنَّ تَحْمِيلَ وَتَلِدَ، وَمَعْلُومٌ فِي النِّسَاءِ الذَّكِّيَّاتِ الْغِيُورَاتِ سَيَطْرَةُ الْاِخْتِمَالِ الْمَكْرُوهِ

على نفوسهنَّ، وابتعادُ الاحتمالِ المحبُوب ولو كان هو الأرجى في الموقف.

(١١) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (هُود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿...فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (٧١).

● قرأ حفص، وحمزة، وابنُ عامر: [يَعْقُوبَ] بفتح الباء نضباً.

وقرأ باقي القراء العشرة: [يَعْقُوبُ] بضم الباء رفعاً.

أما الرفع فهو على أَنَّ [يَعْقُوبُ] مبتدأ، و[مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ] خبر

متقدم.

وأما النضبُ فهو على أَنَّ [يَعْقُوبَ] مفعولٌ لفعلٍ ضُمِّنَ في فعل:

[فَبَشَّرْنَاهَا] والتقدير: فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ مضيفينَ لِبَشَارَتِهَا يَعْقُوبَ من وراء إِسْحَاقَ.

لقد كانت البشارة لإبراهيم عليه السَّلام بِغُلامٍ عليم، في النص الذي

جاء في سورة (الحجر) وفي النص الذي جاء في سورة (الذاريات).

فلما ثارتِ امرأته، وأقبلتْ في صرَّةٍ وصكَّتْ وَجْهَهَا بِشَرِّهَا الرُّسُلَ من

الملائكة ببشارتَيْن:

الأولى: أَنَّ الْغُلامَ العليم الذي بُشِّرَ بِهِ إبراهيم عليه السلام هو ولدٌ

لَهُمَا، (واسمه «إِسْحَاق»).

الثانية: أَنَّ هذا الغلام العليم سيبلغ مبلغ الرجال وسيهبهُ اللَّهُ وَلَدًا

اسمُهُ «يَعْقُوبُ».

[فَبَشَّرْنَاهَا]: هذا كلامٌ صَادِرٌ عَنِ اللَّهِ، اسْتُعْمِلَ فِيهِ ضَمِيرُ المتكلمِ

العظيم، الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَخْلُقُ مَا يُرِيدُ، للإشعار بأنَّ بِشَارَةَ الملائكة

لَهَا إِنَّمَا كَانَتْ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فهي بشارَةٌ مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، إذ القضاء

قضاؤه والأمرُ أمرُهُ.

(١٢) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الذَّارِيَاتِ/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿...وَقَالَتْ مَجْرُؤٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: فهذات ثورثها وَقَالَتْ: «عَجُوزٌ عَقِيمٌ» في هذه العبارة معنًى الاستفهام التعجبي، ولعل هذا كان حديثاً في نفسها.

(١٣) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (هُود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالَتْ يَنْوِلْنِيْٓ ءَالِدٌ وَّأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَنْتَجِيبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكَ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ مُّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾:

(١٤) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الذَّارِيَاتِ/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّنَا إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾:

قولان قالهما الرُّسُلُ من الملائكة لزوجة إبراهيم عليه السلام «سارة» بعد أن قالت مقالتهما.

﴿يَنْوِلْنِيْٓ﴾: أضلها: يَا وَيْلَتِي، قُلِبَتْ كَسْرَةُ التَّاءِ فَتَحَةً، وَقُلِبَتْ الْيَاءُ أَلْفًا، وهذا أحد وجوه غَرَبِيَّةٍ في المنادى المضاف لياء المتكلم.

الويل: كلمة عذاب، وَتُسْتَعْمَلُ في التفجع، والنذبة، والتحذير، والتهديد، والإخبار بالعقاب المقرر.

وقد تَصَدَّرُ عبارة: [يَا وَيْلَتِي] أَوْ ﴿يَنْوِلْنِيْٓ﴾ عن أفواه النساء إذا طرأ عليهنَّ مَا يَعْجَبْنَ مِنْهُ أَشَدَّ الْعَجَبِ، وَلَا يَقْصِدْنَ وقوع العذاب، وَلَا الخوف منه، وَلَا شيئاً مما تستعمل له العبارة، وعلى هذا قالت «سارة» في تعجبها: [يَا وَيْلَتَا]: أي: يَا عَجَباً عظيماً.

﴿ءَالِدٌ وَّأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾!! الاستفهام في هذه العبارة استفهام تعجبي.

﴿عَجُوزٌ﴾: أي كَبِيرَةُ السِّنِّ هَرِمَةٌ، يُقَالُ: رَجُلٌ عَجُوزٌ، وامرأة عَجُوزٌ. فَهُمْ عَجُزٌ، وَهُنَّ عَجُزٌ وَعَجَائِزٌ.

وجملة: [وَأَنَا عَجُوزٌ] خَالِيَةٌ فِي مَحَلِّ نَضْبٍ عَلَى الْحَالِ.

﴿بَعْلِي﴾: أي: زوجي. وكلمة «بَعْلٌ» تُقَالُ: لِلزَّوْجِ وَلِلزَّوْجَةِ.

﴿شَيْخًا﴾: مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ، وَالْعَامِلُ فِيهِ مَا فِي لَفْظِ اسْمِ الْإِشَارَةِ [هَذَا] مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ، عَلَى مَا يَقُولُ النَحْوِيُّونَ.

الشَّيْخُ لُغَةً: مَنْ بَلَغَ سِنُّ الشَّيْخُوخَةِ، وَهُوَ فَوْقَ الْكَهْلِ وَدُونَ الْهَرَمِ، وَالْهَرَمُ هُوَ الشَّيْخُ الَّذِي يَبْلُغُ أَقْصَى الْكِبَرِ.

﴿إِنِّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾: إِنَّ حَدُوثَ مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي لَمْ يُشَاهَدْ لَهُ نَظِيرٌ فِي النَّاسِ لَشَيْءٌ عَجِيبٌ.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَذْكُرْ عَنْ زَوْجَتِهِ أَنَّهَا عَجُوزٌ عَقِيمٌ، إِنَّمَا ذَكَرَ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ مَسَّهُ الْكِبَرُ مَسًّا، دُونَ أَنْ يَتَوَغَّلَ فِيهِ، وَمِثْلُ هَذَا يَصْدُرُ عَنْ فَضْلَاءِ الرِّجَالِ.

أَمَّا زَوْجَتُهُ «سَارَةُ» فَذَكَرَتْ فِي نَفْسِهَا أَنَّهَا عَجُوزٌ عَقِيمٌ، ثُمَّ قَالَتْ: أَلِدْتُ وَأَنَا عَجُوزٌ، وَذَكَرَتْ شَيْخُوخَةَ زَوْجِهَا، مَعَ أَنَّ الشَّيْخُوخَةَ لَيْسَتْ بِحَدِّ ذَاتِهَا مَانِعَةً مِنَ الْإِنْجَابِ، وَمِثْلُ هَذَا مَعْرُوفٌ فِي طَبَائِعِ النِّسَاءِ، وَلَوْ كَانَتْ إِحْدَاهُنَّ ذَاتَ فَضْلٍ وَدِينٍ.

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّكُمْ حِمْدٌ مَجِيدٌ﴾ (٧٣) ﴿كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (هُود).﴾

﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٠) ﴿كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الذَّارِيَات):﴾

هَذَانِ قَوْلَانِ قَالَهُمَا الرُّسُلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَزَوْجَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ «سَارَةَ».

القول الأول: اشتمل على ثلاث قضايا:

القضية الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ استفهام فيه معنى العتاب، أي: أنتِ امرأة فاضلة، وزوجة نبي ورسول، وعِشْتَ في بَيْتِ نُبُوَّةٍ زَمَنًا مَدِيدًا، وتَلَقَّيْتِ مَفَاهِيمَ الإِيْمَانِ طَوَالَ هذه المدة، فَكَيْفَ تَعْجِبِينَ مِنْ حَدُوثِ شَيْءٍ قَدَرَهُ اللَّهُ وَقَضَاهُ وَأُضْدرَ بِهِ أَمْرُهُ، عَلَى أَنْ يُنْفَذَ فِي حِينِهِ، وَأَنْتِ تُوَمِّنينَ بَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ، فَهُوَ يَكُونُ عَلَى وَفْقِ أَمْرِ اللَّهِ التَّكْوِينِيِّ.

إِنَّ مَنْ كَانَ مِثْلَكَ لَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَعْجَبَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، بَعْدَ أَنْ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ، وَعَظُمَتْ قُدْرَتُهُ، يُبَشِّرُكَ بِوَلَدٍ لَكَ مِنْ زَوْجِكَ إِبْرَاهِيمَ، اسْمُهُ إِسْحَاقَ.

القضية الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿رَحِمَتْهُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾:

في هذه العبارة بيانٌ للحكمة مِنْ خَرَقِ اللَّهِ سُنَّتَهُ لِسَارَةِ الْعَجُوزِ الْعَقِيمِ زَوْجَةِ شَيْخِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ مِنْ بَعْدِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَهِيَ أَنْتُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ إِبْرَاهِيمَ قَدْ خَصَّكُمْ اللَّهُ فَأَفَاضَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَبَرَكَاتِهِ إِكْرَامًا لَهُ، وَلِجِهَادِهِ وَصَبْرِهِ، وَمَكَارِمِ أَخْلَاقِهِ.

﴿رَحِمَتْهُ اللَّهُ﴾: صِفَةٌ مِنْ صفات الله الجليلة، مِنْ آثَارِهَا الْعَطَاءُ، وَالْمَعُونَةُ، وَالتَّوْفِيقُ، وَإِزَالَةُ الْبُؤْسِ، وَالْإِمْدَادُ بِمَا يَسْرُ، وَيُسْكُنُ النَّفْسَ، وَيُطْمِئِنُّ الْقَلْبُ، وَيُمْتَعِ ذَا الْحَيَاةِ بِمَا يَطِيبُ لَذِيهِ، وَيَهْبُهُ مَا يُلْبِي حَاجَتَهُ، وَيَكْفِي عَنْهُ الشَّرَّ وَالضَّرَّ وَالْأَذَى، وَيَهْدِيهِ إِلَى مَا فِيهِ خَيْرُهُ وَسَعَادَتُهُ فِي عَاجِلِ أَمْرِهِ وَآجِلِهِ، وَيُبْنِي لَهُ مَا فِيهِ شَرٌّ لَهُ وَضَرٌّ وَأَذَى، وَنَحْوُ كُلِّ ذَلِكَ.

﴿وَبَرَكَتُهُ﴾: الْبَرَكََةُ: هِيَ الْكَثْرَةُ فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَجُمِعَتِ الْبَرَكََةُ عَلَى بَرَكَاتٍ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَنْوَاعِ وَالْأَصْنَافِ.

﴿عَلَيْكُمْ﴾: أي: هَاطِلَةٌ عَلَيْكُمْ، وَمُظَلَّلَةٌ لَكُمْ مِنْ فَوْفِكُمْ، فَأَنْتُمْ مَغْمُورُونَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ.

﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾: أي: يَا أَهْلَ بَيْتِ إِبْرَاهِيمَ، بحذف أداة النداء «يا».

القضية الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ (٧٣):

جاء في هذه القضية وَضْفُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِصِفَتَيْنِ ملائمَتَيْنِ لفيوض عطاءات رَحْمَتِهِ، وَمَا يَمُنُّهُ لِبَعْضِ عِبَادِهِ من زيادات الخير.

﴿حَمِيدٌ﴾: صيغة مبالغة لاسم «الفاعل» أي: كَثِيرُ الْحَمْدِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِمَحَابَّتِهِ، أو لاسم «المفعول» أي: هو المحمود بصفاتِ ذَاتِهِ وبصفاتِ أفعاله في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَمْدًا كَثِيرًا، إِذِ الْحَمْدُ كُلُّهُ لَهُ جَلَّ جلاله.

وقد كان إِبْرَاهِيمَ عليه السلام كثير الحمد لله، فإله يُكَافِئُهُ بِالْحَمْدِ الكثير، وَيَزِيدُهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ مِنْ فُيُوضِ رَحْمَتِهِ.

﴿مَجِيدٌ﴾: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «ماجد» المجيد في اللغة: الرَّفِيعُ العَالِي الشَّرِيفُ الْعَظِيمُ الْكَرِيمُ ذُو الْخَيْرِ الْكَثِيرِ. وَالْمَجْدُ: الْكَرَمُ وَالشَّرَفُ وَالْعُلُوُّ وَالرَّفْعَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ السَّامِيَةُ.

القول الثاني: اشتمل على قضيتين:

القضية الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾:

أي: كَذَلِكَ الَّذِي بَشَّرْنَاكَ بِهِ قَالَ رَبُّكَ، فَالْبِشَارَةُ لَيْسَتْ مِنْ عِنْدِنَا، وَلَيْسَتْ مِنْ أَمْرِنَا، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ رَبِّكَ وَمِنْ أَمْرِهِ، فَلَا تَعْجَبِي مِنْ أَمْرِ اللَّهِ.

القضية الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٠):

أي: إِنَّ رَبَّكَ الَّذِي هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ وَخَدَهُ الَّذِي لَهُ الْحِكْمَةُ

الكاملة، فهو الحكيم، وله العلم الشامل الكامل المحيط بكل شيء، فهو العليم.

استفيد الحصر والقصر من تعريف طرقي الإسناد مع التأكيد بـ «إن» - وضمير الفضل - واستعمال الجملة الاسمية - واستخدام (ال) التي للكمال في صفتي الحكيم والعليم.

﴿الْحَكِيمُ﴾: الكامل الحكمة، وهو الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتقنها وأحسنها في الأمور المختلفة لما يعطي أحسن النتائج.

﴿الْعَلِيمُ﴾: الكامل العلم، المحيط بكل شيء علماً، ويسبب كمال علمه وشموله، فهو يختار أحكم الأشياء.

وفي هذا الشناء على الله من الملائكة الذين بشرُوا امرأة إبراهيم عليه السلام العجوزَ العقيم، تذكير لها بعنصرين من عناصر القاعدة الإيمانية، إذ حضورهما في ساحة تصوورها يجعلها لا تقول مقالتها: ﴿يَوَلَّيْنِي ۖ وَاللَّهُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٧٢).

بل تقول: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

(١٥) وجاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) حكاية لمقالة إبراهيم عليه السلام للملائكة، بعد أن انتهت مقاطعة زوجته لحوارهم:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٧) ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ (٥٨).

ونظيره تماماً جاء في الآيتين (٣١) و(٣٢) من سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول).

وكل من هذين النصين قد جاء توطئة لما جاء بعده، على أسلوب القرآن في توزيع أجزاء الموضوع في النصوص.

﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾: أي: فَمَا أَمْرُكُمْ وَمَا شَأْنُكُمْ. الْخَطْبُ فِي اللُّغَةِ: الْأَمْرُ وَالشَّأْنُ الَّذِي تَقَعُ فِيهِ الْمُخَاطَبَةُ.

يُشِيرُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ﴾ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (هُود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) وَهُوَ الَّذِي تَوَقَّفَ عِنْدَهُ الْحَوَارِ بِمَقَاطَعَةِ رُوحَتِهِ، وَدَخُولِهَا فِي ضَجَّةٍ وَصَنِحَةٍ، إِلَى آخِرِ مَا سَبَقَ بَيَانَهُ.

● ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثُجَيْيْمٍ﴾ (٥٨)

أي: فَهُمْ بِسَبَبِ كَوْنِهِمْ مُجْرِمِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْإِهْلَاقَ، وَلَمْ يَحْتَجْ هَذَا النَّصُّ إِلَى زِيَادَةِ تَأْكِيدٍ إِذْ سَبَقَ الْعِلْمُ بِهِ. وَصَرَّحُوا لَهُ بِأَنَّهُمْ مُرْسَلُونَ لِإِهْلَاقِهِمْ، دَلٌّ عَلَى هَذَا:

(١٦) مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُمْ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِ (٣٢) ﴿.

● وَقَرَأَ حَمَزَةً، وَالْكَسَائِي، وَيَغُثُّوبُ: [لَنُنَجِّيَنَّهُ] مِنْ فِعْلِ «أَنْجَى». وَقِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ [لَنُنَجِّيَنَّهُ] مِنْ فِعْلِ «نَجَّى».

الهمز أخو التضعيف فالقراءتان متكافئتان في اللسان العربي.

وَسَكَنَ «السَّيْنُ» مِنْ [رُسُلُنَا] أَبُو عَمْرٍو. التَّسْكِينُ وَالضَّمُّ لَغْتَانِ.

● ﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُمْ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِ﴾: أي: كَانَتْ بِقَدَرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ مِنَ الْمَاضِينَ الْهَالِكِينَ، وَمِنَ الْبَاقِينَ فِي أَرْضِ الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ.

الغابر في اللغة: الماكث الذي لا يتحوّل، والذاهب الماضي الذي لم يَبْقَ لَهُ وُجُودٌ، فَهُوَ مِنَ الْأَضْدَادِ. وَالْمَعْنَيَانِ يَنْطَبِقَانِ عَلَى امْرَأَةِ لُوطٍ.

(١٧) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿إِلَّا مَالٌ لَّوْطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَاتُهُم قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَّ الْفَرِيقِ ﴿٦٠﴾﴾:

هذا بيان من الله عز وجل وليس تابعا للقول الذي قاله الرسل، وهو: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ فليس هو تكريراً لما جاء في سورة (العنكبوت) الذي هو من قول الملائكة.

وقد دل على أن هاتين الآيتين من سورة (الحجر) بيان مباشر من الله عز وجل، عبارة: ﴿قَدَرْنَا﴾ إذ التقدير لا يكون من الرسل من الملائكة، بل هم أدوات تنفيذ لإقدار الله وقضائه.

● قرأ جمهور القراء العشرة: [لَمُنْجُوهُمْ] من فعل «نَجَّى» المضعف.
وقرأ حمزة والكسائي وخلف: [لَمُنْجُوهُمْ] من فعل «أَنَجَّى» المهموز.

● وقرأ جمهور القراء العشرة: [قَدَرْنَا] من فعل «قَدَّرَ» المضعف.
وقرأ شُعْبَةُ: [قَدَرْنَا] من فِعْلٍ «قَدَّرَ» المجرد.

تقدير مقادير الأشياء سابق لقضاء الله بها، ثم يكون التنفيذ على وفق القضاء والقدر.

(١٨) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) قول الله عز وجل تنمة لحكاية قول الملائكة لإبراهيم بشأن إهلاك قوم لوط:

﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

فجاء في هاتين الآيتين بعض تفصيل، يتعلق ببيان بغض الأدوات المعدّة لتعذيب قوم لوط وإهلاكهم.

فالرُّسُل من الملائكة مكلَّفونَ أَنْ يُزِيلُوا على قوم لُوطٍ من فوق رؤوسهم حِجَارَةً مِنْ طِينٍ .

﴿حِجَارَةٌ مِنْ طِينٍ﴾ : أي: حجارةٌ كانَ أضلُّها طيناً فتجحر، ولعلَّ تَحَجَّرَهَا كان بسبب إخمائها بالنَّار، فهي متحجرةٌ حارَّةٌ مُحَمَّاةٌ .

﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ : أي: معلَّمةٌ بعلاماتٍ تَخُصُّ المهلكينَ بها .

وَجَاءَ في هذا النص وصفُ قوم لوط بأنَّهم «مُسْرِفُونَ» أي: غلاةٌ متوغَّلون في الضَّلال وفعل الجرائم والآثام وكبائر الفواحش والمنكرات .

فهم بحسب ما جاء وصفهم في النصوص: ظالمون، ومُجرِّمون، ومُسْرِفون في كبائر الإثم .

(١٩) وجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قول الله عز وجل:

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ ابْتِغَاءَ مَرْضَىٰهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٧٤) ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ لِلْبَيْتِ وَإِذْ يَحْمِلُ إِسْحَاقُ وَيَسْحَبُ يُسُوبِقُ إِبْرَاهِيمَ الْأَوَّلَ﴾ (٧٥) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ الْأَوَّلُ الْحُلُمَ قَالَ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ (٧٦) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ الْأَوَّلُ الْحُلُمَ قَالَ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ (٧٦) .

سمى الله عز وجل حوار إبراهيم عليه السلام مع الرُّسل من الملائكة المرسلين لإهلاك قوم لوط مجادلةً له سبحانه، لأنَّه هو جلُّ جلاله وعظَم سلطانه الذي أَرْسَلَهُمْ وكَلَّفَهُمُ الْقِيَامَ بإهلاكِ قَوْمِ لُوطٍ، وهم ملائكةٌ كِرَامٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُونَ، مَا يُؤْمَرُونَ، وَلَا تَعْلَمُ عن المعصوم كيف كانت مجادلةُ إبراهيم عليه السلام للرُّسل من الملائكة، وزوي عن قتادة تفصيلٌ لمُجَمِّلِ هذه المجادلة، ولكنها غير مرفوعة إلى الرسول ﷺ .

لقد رجا إبراهيم عليه السلام بحواره الذي سمَّاه الله مُجَادَلَةً لَهُ، أَنْ يَضْرِبَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ الشَّامِلَ الْمُهِلِكَ لَهُمْ جميعاً، أو يُؤَخِّرَهُ إلى أَجَلٍ

آخر، لعلَّ فَرِيقاً منهم يَتُوبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ، وَيُقْلِعُونَ عن فواحِشِهِمْ، وكبائرِ مُنْكَرَاتِهِمْ.

فَأُثْنِيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى حِلْمِهِ، وَرَقَّةِ قَلْبِهِ، وَإِنَابَتِهِ إِلَى رَبِّهِ، إِذْ كَانَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ فِيهِ هِيَ الَّتِي جَعَلَتْهُ يَدْعُو رَبَّهُ بِشَأْنِ قَوْمِ لُوطٍ، وَيَطْرَحُ احْتِمَالَاتِ اسْتِجَابَتِهِمْ، أَوْ اسْتِجَابَةِ فَرِيقٍ مِنْهُمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَأَكَّدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا الثَّنَاءَ بِثَلَاثِ أَدَوَاتٍ توكيد: «إِنَّ - والجملة الاسمية - واللام المزملة للخبر».

وَأَمَرَ الرُّسُلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِبْرَاهِيمَ بِأَنْ يُعْرِضَ عَنْ طَلِبِهِ بِشَأْنِ قَوْمِ لُوطٍ، فَقَدْ صَدَرَ بِتَعْذِيبِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ أَمْرُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، فَسَيَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ وَالْهَلَاكُ فِي الْوَقْتِ الْمَقْدَّرِ الْمَقْضَى، وَلَا رَادَّ لِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ.

● ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُ فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (٧٤):

﴿الرَّوْعُ﴾: الْفَزَعُ، وَهُوَ الْخَوْفُ الَّذِي تَظْهَرُ لَهُ آثَارُ نَفُورٍ فِي حَرَكَاتِ الْجِسْمِ، وَاسْتِعْدَادٌ لِدَفْعِ الْمَفْزُوعِ مِنْهُ.

أي: فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْفَزَعُ الَّذِي أَثَارَهُ أَنَّ ضِيُوفَهُ لَمْ يَأْكُلُوا مِنْ طَعَامِهِ، وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى هُوَ وَرُوحَتُهُ بِإِسْحَاقَ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ، وَتَلَقَّى نَبَأَ إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ وَتَعْذِيبِهِمْ شَرَعَ يُجَادِلُ رُسُلَنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ، لِرَفْعِ الْعَذَابِ وَالْإِهْلَاكِ عَنْهُمْ وَلَوْ إِلَى حِينٍ، وَالَّذِي دَعَا إِلَى تَقْدِيرِ فِعْلِ «شَرَعَ» أَوْ نَحْوِهِ أَنَّ جَوَابَ لَمَّا يَكُونُ فِعْلاً مَاضِياً لَا مُضَارِعاً، وَالْمُتَدَبِّرُ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَلَاحِظُ كَثْرَةَ حَذْفِ مَا يُعْلَمُ وَيُسَهَّلُ تَقْدِيرُهُ، وَمِنْهُ فِي هَذَا النَّصِّ أَيْضاً، وَتَلَقَّى نَبَأَ إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ وَتَعْذِيبِهِمْ.

وَقَبْلَ أَنْ يُعْلِمَنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ أَوْحَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ أَمْرَهُ لَهُ بِأَنْ يُعْرِضَ عَنْ هَذَا الَّذِي شَرَعَ يُجَادِلُ فِيهِ، أَثْنَى عَلَيْهِ بِثَلَاثِ صِفَاتٍ جَلِيلَاتٍ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (٧٥):

﴿كَلِيمٌ﴾: الْحَلِيم: ذو الأنّة، القادرُ على ضَبْطِ نَفْسِهِ عندَ الغضب، أو عندَ حُلُولِ مَكْرُوه، وَالَّذِي يَغْقِلُ بِإِرَادَةِ قُوَّةٍ نَوَازِعَ نَفْسِهِ، وَالَّذِي يَغْفُو وَيُصْفَحُ.

﴿أَوَّهٌ﴾: الْأَوَّه: الرَّحِيمُ الرَّقِيقُ الْقَلْبُ، الْكَثِيرُ الْحُزْنِ، الَّذِي يَتَأَوَّهُ كَثِيراً مِنَ الشَّفَقَةِ، أو عندَ الْفَرْقِ، وَيَلْزَمُ هَذِهِ الصِّفَاتِ كَثْرَةُ التَّضَرُّعِ لِلَّهِ، وَالْمَحَافَظَةُ عَلَى طَاعَتِهِ.

﴿تُنِيبٌ﴾: أَي: ذُو رُجُوعٍ إِلَى اللَّهِ دَوَاماً بِقَلْبِهِ وَنَفْسِهِ وَفِكْرِهِ، وَهُوَ اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ فِعْلٍ «أَنَابَ».

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمَنِهْمٌ عَذَابُ عَذَابٍ غَيْرِ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

يُظْهِرُ أَنَّ هَذَا قَوْلُ الرُّسُلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ مُسْتَقْطَعٌ مِنَ الْحَدِيثِ الْمَاضِي، وَمُقَدَّمٌ بِنَصِّهِ دُونَ حِكَايَةِ، وَهَذَا مِنَ الْإِبْدَاعَاتِ الْجَمِيلَةِ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾: أَي: أَعْطِ لِهَذَا الْأَمْرِ الَّذِي تَوَجَّهْتَ نَفْسُكَ لَهُ شَفَقَةً عَلَى قَوْمٍ لُوطٍ عَارِضُكَ «جَانِبٌ وَجْهِكَ» فَشَفَاعَتُكَ فِيهِمْ غَيْرُ مُسْتَجَابَةٍ.

﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾: أَي: قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ لَنَا بِتَنْفِيذِ التَّعْذِيبِ وَالْإِهْلَاكِ، فَتَحْنُ لَا نَمْلِكُ إِلَّا تَنْفِيذَ أَمْرِ رَبِّكَ، فَدَعِ مُجَادَلَتَكَ لَنَا، وَأَعْرِضْ عَنِ الْأَمْرِ إِعْرَاضاً كَامِلاً.

﴿وَإِنَّهُمْ لَمَنِهْمٌ عَذَابُ عَذَابٍ غَيْرِ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾: أَي: وَإِنَّهُمْ سَيَأْتِيهِمْ فِي الْأَجْلِ الْمُعَيَّنِ الْمَبِينِ لَنَا بِالْأَمْرِ الرَّبَّانِيِّ، عَذَابٌ قَدَرَهُ اللَّهُ وَقَضَاهُ، وَهَذَا الْعَذَابُ نَازِلٌ بِهِمْ حَتْمًا، وَهُوَ غَيْرُ مَرْدُودٍ، إِذْ لَا رَادَّ لِقَضَاءِ اللَّهِ.

﴿آتِ﴾ اسم فاعل كالفعل المضارع يصلح للحال والاستقبال، وهو هنا محمول على الاستقبال.

﴿غَيْرَ مَرْدُورٍ﴾: أي: غَيْرُ مَمْنُوعٍ وَلَا مَضْرُوفٍ وَلَا مُزْجَعٍ، أضلُ معنى الرَّد الإزْجَاعُ والإِعَادَةُ، ولا يكون صَرْفُ الْعَذَابِ إِلَّا إِذَا رُدَّ الْأَمْرُ بِهِ إِلَى الْأَمْرِ، وَهَذَا لَنْ يَكُونَ.

إِنَّ أَمَرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بتعذيب قوم لوط وإهلاكهم قَدْ كَانَ أَمْرًا مُبَرَّمًا وَحَكِيمًا، وَقَضَاءً مُسْتَبَدًّا إِلَى عِلْمِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِحَقِيقَةِ أحوالهم، وما في قُلُوبِهِمْ وَنَفُوسِهِمْ، وَإِلَى عِلْمِهِ بِأَنَّ صَلَاحَهُمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةِ قَدْ صَارَ مَيُؤُوسًا مِنْهُ، فَمُتَابَعَةُ الْاِشْتِغَالِ بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِمْ مِنَ الْعَبَثِ الَّذِي لَا جَدْوَى مِنْهُ، وَبِقَاؤُهُمْ فِي الْأَرْضِ هُوَ بِمِثَابَةِ بَقَاءِ بُورَةِ وَيَائِيَةِ نَنْشُرُ الْفَسَادَ فِي النَّاسِ، فَمِنْ الْحُكْمَةِ إِبَادَتُهُمْ كَمَا أَبَادَ اللَّهُ قَوْمَ نُوحٍ، وَقَوْمَ هُودٍ، وَقَوْمَ صَالِحٍ.



الفصل الخامس

مُجَرَّيَاتُ أَحْدَاثِ تَغْذِيبِ قَوْمِ لُوطٍ وَإِهْلَاكِهِمْ

لَمَّا انْتَهَتْ مُهِمَّةُ الرُّسُلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمَأْمُورِينَ بِتَعْذِيبِ قَوْمِ لُوطٍ وَإِهْلَاكِهِمْ، عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، انْصَرَفُوا مُتَوَجِّهِينَ لِأَرْضِ سَدُومَ حَيْثُ يُقِيمُ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَرْكَزِ مَدِينَتِهِمُ الْأَمِّ.

(١) ففي سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

ذَلَّتِ الْآيَةُ (٦١) عَلَى أَنَّ الرُّسُلَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ جَاءُوا عَلَى صُورِ شَبَابٍ مُزْدِ حَسَانٍ، مَرُّوا بِآلِ لُوطٍ قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْهِ، وَعَنْ طَرِيقِهِمْ طَلَبُوا

مُوجَّهَتُهُ، فَأَذِنَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ يَدْخُلُوا إِلَيْهِ، وَعَصَى بِذَلِكَ أَوَامِرَ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ، إِذْ سَبَقَ أَنْ عَزَلُوهُ عِزْلًا اجْتِمَاعِيًّا، وَنَهَوْهُ عَنِ أَنْ يَلْقَى أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ.

لَقَدْ عَزَّ عَلَيْهِ أَنْ يَرْفُضَ اسْتِقْبَالَ ضُيُوفٍ مِنْ غَيْرِ قَوْمِهِ نَزَلُوا بِسَاحَتِهِ، وَطَلَبُوا الْاجْتِمَاعَ بِهِ.

فلما دَخَلُوا إِلَيْهِ وَتَفَحَّصَ وُجُوهَهُمْ وَالْبَسَّتَهُمْ لَمْ يَعْرِفْ مِنْ أَيِّ قَوْمٍ هُمْ، فَقَالَ لَهُمْ كَمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ (٦٢): ﴿... إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۖ﴾: أَي: إِنَّكُمْ مَجْهُولُونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ، لَا أَعْرِفُ أَشْخَاصَكُمْ وَلَا أَعْرِفُ مِنْ أَيِّ قَوْمٍ أَنْتُمْ.

وَرَأَى أَنَّهُمْ شَبَابٌ مُزْدٌ حَسَنٌ، وَأَذَرَ أَنْ قَوْمَهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا قَدْ عَلِمُوا بِمَقْدَمِهِمْ إِلَيْهِ، فَتَعَاظَمَ لَدَيْهِ تَصَوُّرُ مَا سَيَحْدُثُ لَهُ مِنْ مُصِيبَةٍ مِنْ قِبَلِ قَوْمِهِ الَّذِينَ سَيَأْتُونَ إِلَيْهِ طَالِبِينَ مِنْهُ أَنْ يُمَكِّنَهُمْ مِنْ مِمَارَسَةِ الْفَاجِشَةِ فِي هَؤُلَاءِ الشَّبَابِ، كَعَادَتِهِمْ مَعَ كُلِّ غَرِيبٍ شَابٍّ ذِي وَسَامَةٍ فَسَاءَهُ مَقْدَمُهُمْ إِلَيْهِ، وَنَزَلُوهُمْ ضُيُوفًا عِنْدَهُ.

وسكتوا عن التعريف بأنفسهم وبأنهم ملائكة مرسلون من الله في بداية الأمر.

(٢) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ يَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۖ وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُمْ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ...﴾ (٧٨)

﴿سِئَاءَ يَوْمِهِمْ﴾: أَي: سَاءَهُ مَجِيئُهُمْ إِلَيْهِ، يُقَالُ لُغَةً: سَاءَهُ الْأَمْرُ يَسُوُّهُ، أَي: أَنْزَلَ بِهِ مَا يَكْرَهُ، وَأَخَذَتْ لَدَيْهِ مَسَاءَةً.

«سِئَاءَ» فِعْلٌ مَاضٍ مَبْنِيٌّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، أَضْلُهُ «سُوءٌ» قُلِبَتْ

الواو يَاءَ وَكُسِرَتِ السِّينُ لتنسجم مع الياء. ﴿يِهِمْ﴾ نائب فاعل «سِيءٌ». ﴿وَضَاقَ يِهِمْ ذَرْعًا﴾: أي: اشتدَّ عليه الأمر وثقل بسببهم، وهو على سبيل الكناية، والأصل في هذه العبارة أَنَّ البعير إِذَا حُمِّلَ أَكْثَرَ مِنْ طَاقَتِهِ ضَاقَ ذَرْعُهُ، أي: ضَاقَتْ مَسَافَةُ مَدَّةِ لِدْرَاعِهِ، لأنَّ أَرْجَلَهُ الثَّلَاثَةَ لَا تَسْتَطِيعُ الثَّبَاتَ طَوِيلًا إِذَا رَفَعَ الرَّابِعَةَ فِي الْخَطْوِ.

وَيُقَالُ أَيضًا: ضَاقَ بِالْأَمْرِ ذَرْعًا، أي: لَمْ يُطْفِئْهُ وَلَمْ يَقْوِ عَلَى تَحْمِلِهِ، وَأَضْلُ الذَّرْعِ بَسْطُ الْيَدِ، فَمَنْ لَمْ يَنْلِ الشَّيْءَ مَعَ بَسْطِ يَدِهِ إِلَيْهِ يَكُونُ قَدْ ضَاقَ ذَرْعُهُ عَنْهُ، أي عَجَزَ عَنْ تَنَاوُلِهِ وَتَحْمِلِهِ.

ومهما يكن أصل العبارة فقد صارت عبارة يُكْنَى بِهَا عَنْ الْعَجْزِ عَنْ تَحْمِلِ الْأَمْرِ الثَّقِيلِ، أَوِ الشَّدِيدِ الصَّغْبِ.

واتنشر الخبرُ في المدينة بأنَّ لوطاً استضافَ في مَنْزِلِهِ شَبَاباً مُزْدَ حَسَاناً غُرَبَاءَ.

وجاء كُبراءُ قَوْمِهِ الْفَاسِقُونَ يُهَرَّغُونَ إِلَيْهِ، رَغْبَةً فِي فِعْلِ الْفَاحِشَةِ الشَّاذَّةِ فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ جُمْهُورٌ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ وَأَنْصَارِهِمْ.

﴿وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ يُهَرَّغُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ...﴾ (٧٨)

لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ كُبراءُ قَوْمِهِ فَهُمْ أَصْحَابُ الْكَلِمَةِ الْمَطَاعَةِ فِيهِمْ، أَمَّا كُلُّ رِجَالٍ قَوْمِهِ فِي الْمَدِينَةِ فَهَذَا غَيْرُ مُرَادٍ حَثْمًا، لَكِنْ قَدْ يَكُونُ مَعَهُمْ أَتْبَاعُهُمْ وَأَنْصَارُهُمْ.

﴿يُهَرَّغُونَ إِلَيْهِ﴾: أي: يَمْشُونَ أَوْ يَغْدُونَ فِي سُرْعَةٍ وَاضْطِرَابٍ، يَقَالُ لُغَةً: هُرْعَ الرَّجُلُ: أي: مَشَى أَوْ عَدَا فِي اضْطِرَابٍ وَسُرْعَةٍ، وَرَبَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الْحَرَكَةُ بَيْنَ الْمَشْيِ وَالْعَدْوِ.

لَقَدْ أَسْرَعُوا بِاضْطِرَابٍ تَتَحَلَّبُ أَشْدَّاهُمْ يَبْتَغُونَ الْفُجُورَ بِالْمُزْدِ الْحَسَانِ.

• ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ...﴾ (٧٨) : أي: ومن قَبْلِ مجيئهم هذا إلى دارِ لوط، كانوا في نَادِيهِمْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، فلَمَّا بَلَغَهُمْ نَبَأُ ضُيُوفِ لُوطِ الحَسَانِ، تَرَكُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنْ سَيِّئَاتٍ كَانُوا يَعْمَلُونَهَا عَلَى عَادَاتِهِمْ، سَعْيًا لِلْحَصُولِ عَلَى لَذَّةِ مِمَارَسَةِ الْفَاحِشَةِ فِي شَبَابٍ مُزْدٍ حَسَانٍ، هِيَ أَحَبُّ لَهُمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَهَا.

أَمَّا حَمْلُ هَذِهِ الْعِبَارَةِ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ، فَهُوَ مُسْتَبْعَدٌ جَدًّا، إِذْ سَبَقَ فِي نَجْمِ التَّنْزِيلِ بَيَانُ هَذِهِ الشَّيْئَةِ مِنْ قِبَاعِهِمْ، وَلَفْظُ «السَّيِّئَاتِ» يُطْلَقُ غَالِبًا عَلَى مَا دُونَ الْكِبَائِرِ.

(٣) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾
وَأَقْرَأُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي
إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴿٧١﴾.

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٦٧):

المرادُ بأهل المدينة كُبرَاؤُهَا وَأَصْحَابُ الْأَمْرِ الْمَطَاعِ فِيهَا، وَمَعَهُمْ أَتْبَاعُهُمْ وَأَنْصَارُهُمْ.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ : أي: يَتَجَدَّدُ لَدَيْهِمُ الْفَرَحُ وَالسُّرُورُ وَالِابْتِهَاجُ بِوُجُودِ شَبَابِ مُزْدٍ حَسَانٍ غُرَبَاءَ فِي دَارِ لُوط، وَيُبَشِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهَذِهِ الْغَنِيمَةِ السَّهْلَةِ، سَعْيًا لِلذَّائِدَةِ الْفَاجِرَةِ، وَلَعَلَّ الْحَادِثَةَ تَكُونُ سَبَبًا لِلتَّخْلُصِ مِنْ لُوطٍ وَأَهْلِهِ، إِذْ كَانُوا قَدْ نَهَوهُ عَنْ أَنْ يَلْتَقِيَ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ.

يُقَالُ لُغَةً: «اسْتَبْشَرَ» أَي: فَرِحَ وَسُرَّ. وَيُقَالُ: اسْتَبْشَرَ فُلَانًا، أَي: بَشَّرَهُ بِمَا يُفْرِحُهُ وَيُسُرُّهُ.

• ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ (٦٨) وَأَقْرَأُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾.

أي: وَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى دَارِهِ وَاجْتَمَعُوا حَوْلَهَا، وَالْحُوا عَلَيْهِ أَنْ يُمْكِنَهُمْ مِنْ ضُيُوفِهِ، وَأَخَذُوا يُرَاوِدُونَهُ عَنْ ضُيُوفِهِ، دَلَّ عَلَى هَذَا بعبارة صَرِيحَةٍ قول الله عز وجل في سورة (القَمَر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ...﴾ (٣٧) ﴿

لفظ «ضَيْف» يُطْلَقُ عَلَى الْمَفْرَدِ وَالْجَمْعِ وَالْمَذْكَرِ وَالْمُؤَنَّثِ، وَيَجْمَعُ أَيْضاً عَلَى أَضْيَافٍ، وَضُيُوفٍ، وَضَيْفَانٍ، وَيُقَالُ لِلْأُنْثَى أَيْضاً ضَيْفَةً.

﴿رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾: أي: طَلَبُوا مِنْهُ فَعَلَ الْفَاحِشَةَ فِي ضُيُوفِهِ.

يُقَالُ لُغَةً: رَاوَدَ الْمَرْأَةَ عَنْ نَفْسِهَا، أي: طَلَبَ مِنْهَا أَنْ يَفْجَرَ بِهَا.

وَرَاوَدَهُ عَنِ الْأَمْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ، أي: طَلَبَ مِنْهُ فَعَلَهُ.

فاسْتَعَصَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَبَى أَنْ يُمْكِنَهُمْ مِنْ ضُيُوفِهِ.

فَقَالَ لَهُمْ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضُيُوفِي فَلَا تَفْضَحُونِي بَيْنَ النَّاسِ، إِذْ يُشَاعُ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْحَوَاضِرِ وَالْبُوَادِي أَنَّ «لُوطاً» مَكَنَّ كُتُبَاءَ فَسَاقٍ سُدُومَ مِنْ فِعْلِ الْفَاحِشَةِ فِي ضُيُوفِهِ الْمُرْدِ الْحَسَانِ.

وَقَالَ لَهُمْ: اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي، أي: اتَّقُوا عِقَابَ اللَّهِ عَلَى كِبَائِرِكُمْ وَفَوَاحِشِكُمْ، وَلَا تُخْزُونِي بَيْنَ النَّاسِ، أي: وَلَا تُوقِعُونِي فِي الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ شَرَفِي وَطَهَارَتِي وَمَكَائِنِي فِي نَفُوسِ كُلِّ الْأَقْوَامِ مِنْ حَوْلِكُمْ.

● ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنهَكَ عَنِ الْعَلَمِينَ﴾ (٧٠) ﴿: أي: أَلَمْ نَنْهَكَ عَنْ أَنْ تَلْتَقِيَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، مِنْ قَوْمِنَا أَمْ مِنَ الْغُرَبَاءِ؟ فَكَيْفَ تَسْتَقْبِلُ فِي دَارِكَ ضُيُوفًا غُرَبَاءَ؟.

اتَّخَذُوا هَذَا ذَرِيعَةً لِإِخْرَاجِهِ، أَوْ تَوَظُّتَهُ لِإِخْرَاجِهِ مِنْ أَرْضِهِمْ، بِسَبَبِ مَعْصِيَتِهِ لِأَوَامِرِهِمْ وَنَوَاهِيهِمْ، بَعْدَ أَنْ عَزَلُوهُ عَزْلاً اجْتِمَاعِيًّا.

● ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ :

لَمَّا وَجَدَ نَفْسَهُ مُخْرَجًا، وعاجزاً عن مُقَاوَمَتِهِمْ، وَغَيْرَ مُسْتَعِدٍّ لِأَنَّهُمْ لَا يَمْكُنُهُمْ مِنْ ضِيُوفِهِ، وَكَانَ يَعْلَمُ مِنْ عَادَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ، أَنَّهُمْ لَا يَغْتَدُونَ عَلَى نِسَاءٍ لَا حَقَّ لَهُمْ بِمَعَاشَرَتِهِنَّ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الزَّوْاجِ حِفَاطًا عَلَى أَنْسَابِهِمْ، أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَهُمْ بَعَرَضٍ بَنَاتِهِ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَنْ يَقْبَلُوا بِذَلِكَ، وَلَوْ فَعَلُوا لَافْتَضَحُوا وَسَقَطُوا مِنْ أَعْيُنِ قَوْمِهِمْ وَنِسَائِهِمْ، وَلَفَجَرَتْ نِسَاؤُهُمْ نِكَايَةً بِهِمْ.

لَكِنَّ عَادَةَ إِيْتَانِ الذُّكُورِ لَمْ تَكُنْ تُثِيرُ غَيْرَةَ نِسَائِهِمْ إِثَارَةً كَبِيرَةً، وَكَانَتْ فِي نَظَرِهِمْ جَمِيعًا بِمِثَابَةِ الْأُمُورِ الْعَادِيَّةِ، كَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَاللَّهْوِ وَاللَّعِبِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَدَلَّتْ عِبَارَةٌ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ بِاسْتِخْدَامِ حَرْفِ الشَّرْطِ «إِنْ» عَلَى أَنَّ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ عَلَى عِلْمٍ بِأَنَّهُمْ لَنْ يَقْبَلُوا عَرَضَهُ، لِأَنَّ حَرْفَ الشَّرْطِ «إِنْ» يُقْصَدُ اسْتِغْمَالُهُ فِي الْأَمْرِ الْمَشْكُوكِ فِيهِ، أَوْ فِيمَا لَا يُنْتَظَرُ وَقُوعُهُ، بِاسْتِثْنَاءِ حَالَاتِ الشَّرْطِ الْعَامِّ.

فَأَعْرَضُوا عَنْ عَرَضِهِ، وَتَابَعُوا مَطَالَبَتَهُ بِتَمِيكِنِهِمْ مِنْ ضِيُوفِهِ، فَكَرَّرَ عَرَضَهُ بِعِبَارَةٍ فِيهَا تَوَجُّهُ، وَتَحْذِيرٌ، وَاسْتِغْطَافٌ، وَتَأْنِيبٌ.
دَلَّ عَلَى هَذَا:

(٤) مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (هُود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالَ يَبْقَوِرَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ :

● ﴿قَالَ يَبْقَوِرَ﴾ أَي: يَا قَوْمِي، وَفِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ اسْتِغْطَافٌ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ

قَوْمُهُ، وَمَنْ حَقَّ الْإِنْسَانُ عَلَى قَوْمِهِ أَنْ لَا يَفْضَحُوهُ وَلَا يُخْزُوهُ بَيْنَ النَّاسِ.

● ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: أضاف في هذه العبارة على ما جاء في النص السابق الذي من سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) بيان أَنَّ النساءَ أطهر، ففروجهنَّ خُلِقَتْ لِمَا يَطْلُبُونَ.

وسبقَ بيانُ أَنَّهُ على عِلْمٍ بأنَّهم لَا يَقْبَلُونَ عَرْضَهُ، لِأَنَّ قبولهم لعرضه يُسْقِطُهُمْ فِي قَوْمِهِمْ بِحَسَبِ عَادَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ، وَيُوقِعُهُمْ هُمْ فِي الْفُضِيحَةِ وَالْخِزْيِ وَالْعَارِ، إِذْ لَيْسَ لَهُمْ حَقٌّ فِي بَنَاتِهِ بِزَوَاجٍ مُتَعَارِفٍ عَلَيْهِ بَيْنَهُمْ، وَهَذَا كَمَنْ يَقُولُ لِمَنْ يُرِيدُ قَتْلَ مَنْ هُوَ فِي حِمَايَتِهِ وَجَوَارِهِ: اقْتُلْنِي أَوْ اقْتُلْ وَلَدِي بِدَلَّةٍ وَلَا تَقْتُلْهُ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يَقْتُلَهُ وَلَنْ يَقْتُلَ وَلَدَهُ.

● ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أَي: فَاتَّقُوا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ بِكُمْ عِقَابَهُ، إِذَا أَصْرَزْتُمْ عَلَى دُخُولِ دَارِي عَنَوَةٍ، وَفَعَلَ مَا تَطْلُبُونَ فِي ضِيُوفِي.

● ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾: كَرَّرَ لَهُمُ الْاسْتِغْطَافَ بِأَنْ لَا يُخْزُوهُ، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ اسْتَغْطَفَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ: ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ كَمَا جَاءَ فِي النَّصِّ السَّابِقِ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) إِلَّا أَنَّهُ أَضَافَ هُنَا عِبَارَةَ ﴿فِي ضَيْفِي﴾ إِشْعَاراً بِأَنَّ الضَّيْفَ لَهُ حُزْمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَقَدْ كَانَتْ أَقْوَامُ عَصَرِهِمْ يَزُونُ لِلضَّيْفِ هَذِهِ الْحُزْمَةَ، فَمَنْ تَعَرَّضَ ضَيْفُهُ لِسُوءٍ وَهُوَ عِنْدَهُ، نَالَهُ مِنَ النَّاسِ خِزْيٌ عَظِيمٌ، وَنَزَلَ بِهِ دُلٌّ وَهَوَانٌ.

● ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾: أَي: أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ فِيهِ رُشْدٌ وَعَقْلٌ، يَمْنَعُكُمْ عَمَّا تَجْمَعُنَّ عَلَيَّ مِنْ أَجْلِهِ.

استفهام يتضمَّنُ وَضْفَهُمْ بِالسَّفَاهَةِ وَخِفَّةِ الْعَقْلِ وَانْعِدَامِ الرُّشْدِ، بِأَسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ.

● ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَلْعَاكِ مَا نُرِيدُ﴾ (٧٩):

أي: قالوا له: إِنَّكَ تَعْرِضُ عَلَيْنَا أَمْرًا تَعْلَمُ أَنَّنَا لَا نَقْبَلُهُ فِي أَعْرَافِنَا وَتَقَالِيدِنَا، لَأَنَّنَا لَا نَأْتِي نِسَاءَنَا إِلَّا بِحَقِّ الزَّوْجِ، لَكُنَّا نَأْتِي الذَّكَورَ عَلَى سَبِيلِ الشُّيُوعِ دُونَ عُقُودٍ وَلَا ضَوَابِطٍ.

(٥) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿لَعَنَرَكْ إِنَّمْ لَي سَكْرَنِهِمْ يَمَهُونَ﴾ (٧٧):

يُقْسِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِحَيَاةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، عَلَى أَنَّ سَبَبَ إِضْرَارِهِمْ عَلَى مَوْفِقِهِمُ الْخَسِيسِ الشَّنِيعِ، أَنَّهُمْ فِي سَكْرَةِ شَهَوَاتِهِمْ مُنْظَمِسُوا الْبَصَائِرَ، فَهُمْ لَا يَرَوْنَ وَلَا يَسْمَعُونَ فَلَا يَعْقِلُونَ.

﴿يَمَهُونَ﴾ أي: يَتَّبَعُ عَلَى بَصِيرَتِهِمُ الْعَمَةُ أَنَا فَآنَا، وَهَذَا يُؤَلَّدُ تَرَكَمًا يَخْجُبُ عَنِ الْبَصِيرَةِ كُلِّ مَعْرِفَةٍ.

الْعَمَةُ: هُوَ فِي الْبَصِيرَةِ الْقَلْبِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ كَالْعَمَى فِي الْبَصَرِ، وَمِنْ أَثَارِهِ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُهُ أَعْمَى عَنْ رُؤْيَا الْحَقِّ، أَصَمَّ عَنْ سَمَاعِ كَلِمَةِ الْحَقِّ، أَبْكَمَّ عَنْ نُطْقِ كَلِمَةِ الْحَقِّ، فَهُوَ لَا يَعْقِلُ شَيْئًا.

هَذَا هُوَ الْبَيَانُ الرَّبَّانِيُّ عَنْهُمْ وَعَنْ كُلِّ مَنْ كَانَ مِثْلَهُمْ، فِي سَكْرَةِ مِنَ الشَّهَوَاتِ الْجَانِهَاتِ الْجَامِحَاتِ، وَالْمَفْهُومَاتِ الْبَاطِلَاتِ، وَالْعَادَاتِ الْقَبِيحَاتِ الشَّنِيعَاتِ.

(٦) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ﴾ (٨١) قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًاكَ إِنَّهُمْ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٨١).

وَيُظْهِرُ أَنَّ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرَادَ أَنْ يَسْتَوْتِقَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ الَّذِي قَالَهُ

ضُيُوفُهُ، فَقَالَ لَهُمْ مُتْلِفًا: أَتَسْخَرُونَ مِنِّي، أَمْ أَنتُمْ صَادِقُونَ فِي أَنَّكُمْ رُسُلُ رَبِّي، وَفِي أَنَّكُمْ جِئْتُمْ لِإِهْلَاكِ قَوْمِي وَتَغْذِيهِمْ؟
فَقَالُوا لَهُ:

(٧) ما جاء بيانه في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِبَيِّنَاتٍ وَمَا كُنَّا نَسْمَعُ بِهِ يُسْمَعُ بَدِيعَةِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَئِنْ كُنَّا لَنَظُنُّوكُمْ فَجُورًا ۖ فَأَنذَرْتُمُوهُمْ بِآيَاتِنَا وَلَئِنْ كُنَّا لَنَنصُرُ بَنِيكَ أَهْلَكَ بِقُطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَآتَيْنَاكَ بَنَاتٍ ذُنُوبُهُنَّ وَلَا يُلْفِتُ مِنْهُ أَحَدٌ ۖ وَأَمْنُوتُوا هِجْرًا ۖ وَتُؤْمَرُونَ ۖ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۖ﴾ (٦٦)

هَذَانِ النَّصَّانِ (٦ و ٧) متكاملان في التعبير عن أحداثٍ مُتتالية، مع أنَّهما من سورتين.

لَقَدْ تَأَزَّمِ الموقف بين لوطٍ عليه السَّلام وَكِبَرَاءِ قومه، فَلَمْ يُؤْثِرْ فيهم الاستعطاف، ولا إشعارُهُمْ بأنه يُضْحِي بِبَنَاتِهِ لِيُخِمِّي نَفْسَهُ مِنَ الْفُضِيحَةِ وَالْخِزْيِ وَالْعَارِ بَيْنَ النَّاسِ، ولا التحذيرُ من عقابِ اللَّهِ وَنَقْمَتِهِ، وَلَا وَخْزُهُمْ بِالسَّفَاهَةِ وَخِفَةِ الْعَقْلِ وَبَأَائِهِمْ لَا يُوجَدُ مِنْهُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ رَّشِيدٌ، فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ بَعْدَ كُلِّ هَذَا إِلَّا أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ، أَنَّهُ لَوْ كَانَ يَمْلِكُ قُوَّةَ لِقَاتِهِمْ، وَلَصَدَّهُمْ بِالْقُوَّةِ عَمَّا يُرِيدُونَ، وهذا مِنْهُ على سبيل التَّمَنِّي، أَوْ لَوْ كَانَ لَهُ فِي أَرْضِهِمْ رُكْنٌ شَدِيدٌ مِنْ عَشِيرَةٍ وَأَنْصَارٍ، لَأَوَى إِلَيْهِمْ، وَمَنَعَ ضُيُوفَهُ مِنْهُمْ. إِنَّهُ بَيَّنَّاهُ أُمْنِيَّتَهُ يُشْعِرُهُمْ بأنه سَيَتَّخِذُ كُلَّ مَا لَدَيْهِ مِنْ اسْتِطَاعَةٍ لِّصَدِّهِمْ عَنْ ضُيُوفِهِ، وَلَنْ يُمْكِنَهُمْ مِنْهُمْ طَوْعًا.

• ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (٨١)

﴿لَوْ﴾: فيها مَعْنَى الشَّرْطِ وَالتَّمَنِّي، أي: أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّ لِي بِصَدِّكُمْ وَدَفْعِكُمْ عَنْ ضُيُوفِي قُوَّةَ لَصَدَدْتُكُمْ وَدَفَعْتُكُمْ وَلَقَاتِلْتُكُمْ حِمَايَةَ لَضِيْفِي وَشَرَفِي، أَوْ لَوْ كَانَ لَدَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ مِنْ عَشِيرَتِي وَأَنْصَارِي يَخِمِينِي وَيُخِمِي

صَيِّفِي وَأَهْلِي لَا رَيْبَ إِلَيْهِ، وَاعْتَصَمْتُ بِهِ، إِنَّهُ بِهِذَا يُغْلِبُ لَهُمْ عَزْمُهُ الشَّدِيدُ عَلَى جِمَايَةِ ضِيُوفِهِ مِنْهُمْ.

وَحَتَّى هَذَا الْمَوْقِفِ لَمْ يَعْلَمْ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ ضِيُوفَهُ رُسُلٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَيَظْهَرُ أَنَّهُ عِنْدَئِذٍ دَخَلَ إِلَى ضِيُوفِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: لَقَدْ جِئْتُمُونِي بِمُصِيبَةٍ وَبَلَاءٍ عَظِيمٍ.

﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ ﴿٨١﴾:

أي: إِنَّا مَلَائِكَةٌ، وَإِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ، وَإِنَّا سَنَحْمِيكَ مِنْ غَدَوَانِهِمْ، وَيَظْهَرُ أَنَّ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَغْلَقَ بَابَ دَارِهِ وَأَوْصَدَهُ وَأَحْكَمَ تَثْبِيتهُ، وَصَارَ التَّخَاطُبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ كِبَرَاءِ قَوْمِهِ مِنْ وَرَائِهِ، ذَلِكَ عَلَى هَذَا عِبَارَةً ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ أي: فَبَيَّنَهُمْ وَبَيَّنَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ حِجَابٌ، وَهُوَ سُورُ الدَّارِ، وَالْبَابُ الْمَوْصُودُ.

هنا لَا بُدَّ أَنْ يَغْضَبَ قَوْمُهُ وَيَعْمَلُوا عَلَى اتِّخَاذِ وَسِيلَةٍ لِكَسْرِ بَابِ دَارِهِ، وَاقْتِحَامِهَا عَنْوَةً.

وَفِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ تَابَعَ الرُّسُلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بَيَانَ مُهِمَّتِهِمُ الَّتِي جَاءُوا لِيَتَنَفَّذُوهَا بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَبَيَانَ خُطَّةِ إِنْقَاذِ لُوطٍ وَأَهْلِهِ إِلَّا أَمْرَاتِهِ، مِنْ أَرْضِ سَدُومَ الَّتِي سَيَنْزِلُ عَلَيْهَا الْعَذَابُ الشَّامِلُ الْمَدْمَرُ، وَقَالُوا لَهُ:

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًاكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ﴿٨٢﴾:

● وَقَرَأْ نَافِعَ، وَابْنُ كَثِيرَ، وَأَبُو جَعْفَرٍ: [فَأَسْرِ] بِهَمْزَةٍ وَصَلٍ مِنْ فَعَلَ فَعَلَ «سَرَى».

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾: أي: سِرْ بِهِمْ لَيْلاً مُبْتَعِداً بِهِمْ عَنْ أَرْضِ سَدُومَ.

يُقَالُ لُغَةً: سَرَى اللَّيْلَ، وَسَرَى بِهِ، أي: قَطَعَهُ بِالسَّيْرِ. وَيُقَالُ: سَرَى

بِفُلَانٍ لَيْلًا، وَأَسْرَى بِهِ: أي: جَعَلَهُ يسير فيه.

﴿يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾: أي: بطائفة من اللَّيْلِ تَكْفِي لاجتيازكم الأرض التي سَيَنْزِلُ عليها العذاب. الْقِطْعُ من اللَّيْلِ: الطَّائِفَةُ مِنْهُ.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾: أي: وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ لِيَنْظُرَ مَا سَيَحُلُّ بِأَرْضِ سَدُومَ.

[إِلَّا أَمْرَاتُكَ]: قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [إِلَّا أَمْرَاتُكَ] بِالرَّفْعِ. وقرأ باقي القراء العشرة [إِلَّا أَمْرَاتُكَ] بِالنَّضْبِ.

فقراءة: [إِلَّا أَمْرَاتُكَ] بِالنَّضْبِ دَلَّتْ عَلَى اسْتِثْنَائِهَا مِنْ أَمْرِ السَّرِيَانِ بِأَهْلِهَا، أي: دَعَا فِي أَرْضِ قَوْمِهَا، وَلَا تَسْرِبُهَا.

وقراءة: [إِلَّا أَمْرَاتُكَ] بِالرَّفْعِ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ أَمْرَاتُكَ إِذَا لَحِقْتُكُمْ دُونَ أَنْ تَدْعُوَهَا لِتَسْرِبِي بِهَا، فَسَلَّتْكُمْ وَسَيَصِيبُهَا مَا أَصَابَ قَوْمَهَا مِنْ قَبْلِهَا فِي أَرْضِهِمْ.

وجاء عند الإسرائيليين في سفر التكوين - الإصحاح التاسع عشر، أَنَّ امرأة لوط خَرَجَتْ مَعَ مَنْ خَرَجَ، وَأَنَّهَا التَّفَتَتْ وَنَظَرَتْ مَا وَرَاءَهَا، فَنَزَلَ عَلَيْهَا مَا جَعَلَهَا عَمُودَ مِلْحٍ.

﴿إِنَّهُمْ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾: أي: إِنَّ الشَّأْنَ مُصِيبُهَا (أي: سَيُصِيبُهَا) إِذَا التَّفَتَتْ مَا أَصَابَ قَوْمَهَا قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ رِجْزٍ وَعَذَابٍ وَهَلَاكٍ.

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾: أي: إِنَّ مَوْعِدَ إِنْزَالِ وَسَائِلِ التَّغْذِيبِ عَلَيْهِمْ هُوَ وَقْتُ الصُّبْحِ.

﴿الَّذِينَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾: فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ حَتْ لُهُ عَلَى أَنْ يُهْتَىءَ نَفْسَهُ وَأَهْلُهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ لِلرَّحِيلِ، بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ، قَبْلَ: الصُّبْحِ.

وَمَا زَالَ الْمُحِيطُونَ بِدَارِ لُوطٍ مِنْ قَوْمِهِ يُعَالِجُونَ كَسْرَ بَابِ دَارِهِ

لِدُخُولِهَا عَنوةً وَبِالْقُوَّةِ .

وَيَبْدُو أَنَّ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فِي حَالَةِ اضْطِرَابٍ نَفْسِيٍّ شَدِيدٍ، فَقَالَ لَضُيُوفِهِ كَلَاماً أَجَابُوهُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِمْ:

﴿بَلْ جِئْتَنَا بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (١٣) : أي: يَشْكُونَ وَلَا يُصَدِّقُونَ، وَهُوَ إِذْ أَرَاتَكَ لِقَوْمِكَ بِعَذَابِ اللَّهِ، وإهلاك شامل.

وبقولهم:

﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (١٤) : أي: وَأَتَيْنَاكَ بِالْبَيِّنَاتِ الْحَقِّ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فِي كُلِّ مَا نَقُولُ لَكَ، وَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ مُؤَكَّدَةً، لِحَاجَةِ نَفْسِهِ إِلَى التَّكْيِيدِ.

عندئذٍ هَدَأَتْ نَفْسُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاطْمَأَنَّ، وَأَذْرَكَ الرُّسُلَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُ فِي حَالَةِ اضْطِرَابِهِ لَمْ يَسْتَوْعِبْ مَا بَيَّنَّوهُ لَهُ مِنْ خُطَةِ الرَّحِيلِ مِنْ أَرْضِ سَدُومَ، فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَقَالَتهم السَّابِقَةَ مَعَ إِضَافَاتٍ تَفْصِيلِيَّةٍ عَلَيْهَا، قَائِلِينَ لَهُ:

﴿فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ الْآلِ﴾ : سَبَقَ شَرْحَ نَظِيرِهَا.

﴿وَأَتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ : أي: وَامْشِ أُنْتِ وَرَاءَ أَهْلِكَ لِتَسُوقَهُمْ، وَلَا تَمْسِرِ أَمَامَهُمْ.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ : سَبَقَ شَرْحَ نَظِيرِهَا.

وَلَمْ يَأْتِ فِي هَذَا النَّصِّ اسْتِثْنَاءُ امْرَأَتِهِ اكْتِفَاءً بِمَا جَاءَ فِي النَّصِّ السَّابِقِ.

﴿وَأَمَضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ : تَدُلُّ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ خَصَّصَ لَهُمْ دَلِيلًا يَدُلُّهُمْ فَيَأْمُرُهُمْ بِأَنْ يَسِيرُوا فِي الطَّرِيقَاتِ وَإِلَى الْجِهَاتِ الَّتِي يُعَيِّنُهَا لَهُمْ. فِعْلُ «تُؤْمَرُونَ» يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَمِيراً سَيُوجِّهُ لَهُمُ الْأَمْرَ بِالسَّيْرِ فِي الطَّرِيقَاتِ وَإِلَى الْجِهَاتِ أَنَا فَأَنَا.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْحِحِينَ ﴿١٦﴾﴾:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾: أي: وأمضينا وأنهيينا إلى لوط عن طريق الوحي إليه، وهذا بيان من الله عز وجل.

﴿ذَلِكَ الْأَمْرُ﴾: أي: ذلك الأمر الجليل العظيم المَهُولُ الْخَطِيرُ، ﴿ذَلِكَ﴾ مفعول به لفعل [قضينا]. ﴿الْأَمْرُ﴾ بدل من ذلك أو عطف بيان.

جاء في هذه العبارة استعمال اسم الإشارة الموضوع للبعيد، للإشارة إلى أن الأمر العظيم الْقَطِيعَ الذي كان مستبعداً جداً، قد تم به القضاء وصار حقيقة وشيكة الوقوع.

﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْحِحِينَ﴾: هذه العبارة بدل من: ﴿ذَلِكَ الْأَمْرُ﴾ لتفسيره، وبيان إبهامه الذي جاء بأسلوب فيه تهويل وتعظيم. وهو بدل كل من كل.

دَابِرُ الشَّيْءِ: أي: تابعه وآخره.

والمراد بـ ﴿هَؤُلَاءِ﴾ قَوْمُ لُوطٍ وَكُلُّ مَا يَتَّبِعُهُم مِّنْ أَحْيَاءٍ وَأَشْيَاءٍ.

﴿مَقْطُوعٌ﴾: أي: مَقْطُوعٌ بِإِهْلَاكِهِ وَتَنْبِيرِهِ وَتَفْتِيَتِهِ، عَنِ الْبَقَاءِ فِي الوجود بأوصافه وأشكاله وهَيَاتِهِ. جاء الاكتفاء بالتعبير بِالْقَطْعِ، والمراد الْقَطْعُ عَنِ الوجود. وَأَضْلُ الْقَطْعِ الْبَثْرُ لِفَضْلِ الشَّيْءِ عَمَّا هُوَ مَوْصُولٌ بِهِ، فَقَطْعُ الْحَيِّ عَنِ الْحَيَاةِ يَكُونُ بِإِهْلَاكِهِ وَإِمَاتَتِهِ، وَقَطْعُ الْأَبْنِيَّةِ وَالْقُرَى يَكُونُ بِتَذْمِيرِهَا وَإِزَالَةِ كُلِّ أَثَرٍ لَهَا، وَقَطْعُ الشَّيْءِ عَنِ الوجود يكون بإعدامه، وَهَكَذَا.

﴿مُصْحِحِينَ﴾: أي: حَالَةَ كَوْنِهِمْ دَاخِلِينَ فِي الصَّبَاحِ. يقال لغة: أَصْبَحَ، أي: دَخَلَ فِي وَقْتِ الصَّبَاحِ، وَهُوَ أَوَّلُ النَّهَارِ عِنْدَ الصُّبْحِ.

والمعنى: وَأَنْهَيْنَا إِلَى لُوطٍ وَخِيَاءَ، أَنَّ قَوْمَكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِكَ وَنُصْحِكَ، وَتَفَاقَمَتْ قَبَاحَاتُهُمْ وَمُنْكَرَاتُهُمْ وَجَهَالَاتُهُمْ، وَوَصَلُوا إِلَى حَالَةٍ مَيُوسٍ مِنْهَا، مَعْدُبُونَ، ثُمَّ مُهْلَكُونَ، وَمُبَادُونَ بِدَعَا مِنْ دُخُولِهِمْ فِي الصَّبَاحِ عَقِبَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ.

(٨) وجاء في سُورَةِ (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) قول الله عزَّ

وَجَلَّ:

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَى يَوْمِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًاكَ كَانَتْ مِنَ الْغَيْبِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

جاء في هذا النص إضافات على ما سبق أن قال الرُّسُلُ من الملائكة لِلُّوطِ مُعْرِفِينَ بِأَنْفُسِهِمْ، وَمَبِينِينَ مُهِمَّتَهُمْ، وَمُطْمَئِنِّينَ لُوطًا وَأَهْلَهُ.

﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾: في هذا القول إضافة لم تُذَكِّرْ في النصوص الأخرى.

﴿لَا تَخَفْ﴾: أي لَا تَخَفْ مِنْ أَجْلِ نَفْسِكَ وَأَهْلِكَ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾: أي: وَلَا تَحْزَنْ عَلَى مُمْتَلَكَاتِكَ وَمَوَاشِيكَ فِي أَرْضِ سَدُومَ، فَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يُعَوِّضُكَ عَنْهَا.

﴿إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًاكَ كَانَتْ مِنَ الْغَيْبِ ﴿٣٣﴾﴾:

أضافت هذه العبارة على ما سَبَقَ، بَيَانٌ أَنَّ الرُّسُلَ سَيُنْجُوهُ هُوَ وَأَهْلُهُ، وَاقْتَضَى الْبَيَانُ اسْتِثْنَاءَ أَمْرَاتِهِ مِنْ هَذَا الْوَعْدِ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي النُّصُوصِ السَّابِقَةِ بَيَانُ اسْتِثْنَائِهَا، دَفْعًا لِتَوَهْمِ إِعْفَائِهَا مِنَ الْهَلَاكِ.

﴿كَانَتْ مِنَ الْغَيْبِ﴾: أي: كَانَتْ بِقَدَرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ مِنَ الْهَالِكِينَ

الْمَاضِينَ إِلَى الْفَنَاءِ.

﴿إِنَّا مُنَزِّلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٣٤).

هذا البيان كُلُّهُ مِنَ الإِضَافَاتِ فِي هَذَا النَّصِّ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (العنكبوت).

أي: فَسَيُنَزِّلُونَ عَلَيْهِمْ وَسَائِلَ تَغْذِيبٍ خَاصَّةً مِنْ جِهَةِ السَّمَاءِ، غَيْرَ وَسَائِلِ الإِهْلَاكِ الْعَامِّ، بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَفْسُقُونَ مُكَرَّرِينَ جَرَائِمَ فَسَقِهِمْ أَنَا فَأَنَّا.

الرَّجْزُ: الْعَذَابُ، وَالْمَرَادُ وَسَائِلُهُ.

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ عَنْ أَسَامَةِ بْنِ زَيْدٍ، وَسَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، وَخُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ، قَالُوا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ هَٰذَا الطَّاعُونَ رِجْزٌ، وَبَقِيَّةُ عَذَابٍ عُذِّبَ بِهِ أَنَاسٌ مِنْ قَبْلِكُمْ».

﴿يَفْسُقُونَ﴾: أي: يُكَرِّرُونَ فِي أَعْمَالِهِمُ الْخُرُوجَ عَنِ الْحَقِّ وَالْوَاجِبِ وَأَوَامِرِ اللَّهِ نَوَاهِيهِ.

(٩) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الْقَمَرِ/ ٥٤ مِصْحَف/ ٣٧ نَزُول) قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَشَأْنِ قَوْمِهِ:

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ (٣٦) ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُودُوا عَلَيَّ وَنَذِرِ﴾ (٣٧).

يَدُلُّ هَذَا النَّصُّ عَلَى أَنَّ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أُنْذِرَهُمْ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، بِأَنَّ اللَّهَ عَظُمَتْ قُدْرَتُهُ وَجَلَّتْ حِكْمَتُهُ، سَيَبْطِشُ بِهِمْ بَطْشَةً تَغْذِيبُ شَدِيدٍ، إِذَا تَمَادَوْا فِي إِصْرَارِهِمْ عَلَى أَنْ يَفْتَحِمُوا دَارَهُ اقْتِحَامًا، لِيَصِلُوا عَنُودَ إِلَى مَا يُرِيدُونَ، فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ.

﴿أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا﴾: أي: أَعْلَمَهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ سَيَبْطِشُ بِهِمْ، وَخَوْفُهُمْ مِنْ ذَلِكَ. يُقَالُ لُغَةً: أُنْذِرُهُ الْعَذَابَ، أي: أَعْلَمُهُ بِهِ، وَخَوْفُهُ مِنْهُ.

الْبَطْشَةُ: وَاحِدَةُ الْبَطْشِ، وَهُوَ التَّنَاوُلُ بِشِدَّةٍ عِنْدَ الصَّوْلَةِ، وَالْأَخْذُ الْقَوِيُّ الشَّدِيدِ، وَالسَّطْوُ فِي سُرْعَةٍ.

﴿فَتَنَارُوا بِالْأَنْدَرِ﴾: أَي: فَجَادَلُوا بِأَنْدَارَاتِهِ وَشَكَّكَلُوا فِيهَا.

﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾: أَي: أَعْمَيْنَاهُمْ، وَذُكِرَ أَنَّ الرُّسُلَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رَمَوْا عَلَى وُجُوهِ الْمُحِيطِينَ بِدَارِهِ مِنْ قَوْمِهِ مَادَّةً مُخْرِقَةً، فَأَعْمَتَ عُيُونَهُمْ، وَجَعَلَتْهَا مُنْطَمِسَةً فَلَا أَثَرَ لِعُيُونٍ فِي وُجُوهِهِمْ.

الطَّمَسُ: يَأْتِي فِي اللَّغَةِ بِمَعَانِي: التَّشْوِيهِ، وَالْإِزَالَةَ، وَالْمَحْو. يُقَالُ لُغَةً: طَمَسَتِ الرِّيحُ الْأَثَرَ، أَي: أَزَالَتْهُ وَمَحَنَهُ. وَيُقَالُ: طَمَسَ عَلَى عَيْنِهِ، أَي: أَعْمَاهَا.

فَانْصَرَفَ الْمُحِيطُونَ بِدَارِهِ يَضْرُخُونَ مِنْ آلَامِ الطَّمَسِ الْحَارِقِ، لَا يَغْرِفُونَ طَرَفَهُمْ.

(١٠) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ لُوطٍ وَأَهْلِهِ:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (٨٢): أَي: مَنْ هَالِكِينَ.

(١١) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بَعْدَ بَيَانِ إِزْسَالِ الْحَاصِبِ عَلَى قَوْمِ لُوطٍ:

﴿إِلَّا آءَالَ لُوطٌ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ (٣٥).

لَمْ يَأْتِ فِي هَذَا النَّصِّ اسْتِثْنَاءُ امْرَأَةِ لُوطٍ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَغْتَبِزْهَا مِنْ آلِهِ، فَالْرَّجُلُ مَنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِهِ أَنْصَاراً لَهُ وَأَوْفِيَاءً، أَمَّا امْرَأَةُ لُوطٍ فَقَدْ خَانَتْهُ، لِأَنَّهَا كَانَتْ كَافِرَةً وَعَلَى هَوَى قَوْمِهَا، وَلَيْسَ الْمُرَادُ خِيَانَتَهَا فِي شَرَفِهَا وَعِزِّهَا، بَلْ كَانَتْ تَقُومُ بِإِعْلَامِ قَوْمِهَا بِمَا يَجْرِي مَعَ زَوْجِهَا لُوطٍ.

وأبان هذا النص أن نَجَاةَ لوط وآله بخروجهم من أرض سدُوم قد كان في وقت السَّحر.

السَّحَرُ: آخِرُ اللَّيْلِ قُبَيْلَ الْفَجْرِ.

﴿نِعْمَةٌ مِّنْ عِندِنَا﴾: النِّعْمَةُ: اسْمٌ لِلْإِنْعَامِ، وهو ما يَتَفَضَّلُ به صاحب الفضل ممَّا هو مَحْبُوبٌ لَدَى الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ، ومن الإِنْعَامِ الْعَظِيمِ تَخْلِيصُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ مِنْ شُرُورِ قَوْمِهِ، أَوْ مِنَ الْعَذَابِ الْمَقْدَرِ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ، وَمِنْ الْهَلَاكِ الْمَقْضَى أَنْ يَغْمُهمُ.

﴿مِّنْ عِندِنَا﴾: أي: ممَّا هو عِندُنَا وَمَوْجُودٌ فِي مِلْكِنَا مِنْ أَشْيَاءِ ووسائل.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾: أي: كَذَلِكَ الْجَزَاءُ الَّذِي جَازَيْنَا بِهِ لُوطًا وَآلَهُ نَجْزِي كُلَّ مَنْ شَكَرَ مِنْ عِبَادِنَا، وفي هذه العبارة بيانٌ عَنْ فِقْرَةٍ مِنْ فِقَرَاتِ سُئِنِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ.

(١١) وجاء في سورة (الشُّعَرَاءُ/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) عَقَبَ بيان دُعاء لُوطِ رَبِّهِ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦٩): أي: نَجِّنَا مِنْ عِقَابٍ وَعَذَابٍ مَا يَعْمَلُ قَوْمِي، قول الله عز وجل:

﴿فَنَجِّنُهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ (١٧١):

أي: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ دُعاءهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عَجُوزًا هِيَ امْرَأَتُهُ مَضَتْ مَعَ الْهَالِكِينَ، لِأَنَّهَا كَانَتْ كَافِرَةً وَمَعَ هَوَى قَوْمِهَا، فَهِيَ لَا تَسْتَحِقُّ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ دُعاءهُ فِيهَا، إِذْ كَانَتْ عَلَى غَيْرِ دِينِهِ وَعَلَى غَيْرِ طَرِيقَتِهِ.

(١٢) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) قَوْلُ اللَّهِ عز وجل في معرض الحديث عن لوطٍ وقومه:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنَ الْغَدِيرِ﴾ (٥٧):

﴿قَدَرْنَاهَا مِنْ الْغَدِيرِ﴾: أي: جَعَلْنَاهَا لَدَى تَحْدِيدِ المقادير المتعلقة بلوط وأهلِهِ وَقَوْمِهِ مِنَ الْمَاضِينَ مِنْ قَوْمِهِ بِالْتَّغْذِيبِ وَالْإِهْلَاكِ.

فأضاف هذا النَّصَّ بَيَّانَ أَنَّ الْأَحْدَاثَ الَّتِي جَرَتْ فِي قِصَّةِ لُوطٍ وَقَوْمِهِ قَدْ كَانَتْ مَسْبُوقَةً بِقَدَرِ رَبَّانِيٍّ، يَشْمَلُ صِغَارَهَا وَكِبَارَهَا.

(١٣) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الصَّافَاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) قول الله عزَّ

وجل:

﴿وَلَوْلَا لُوطًا لِمَنِ الْمَرْسَلِينَ ﴿١٣٦﴾ إِذْ بَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٧﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٣٨﴾﴾.

فأضاف هذا النَّصَّ عَلَى النَّصِّ الَّذِي فِي سُورَةِ (الشُّعَرَاءِ) التَّوْجِيهَ لِوَضْعِ هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ أَخْدَاثِ سُنَنِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ الْمَمْتَحِنِينَ، فِي الذَّاكِرَةِ دَوَامًا، لِيَكُونَ دَافِعًا لِلِاسْتِقَامَةِ خَوْفًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَنِقْمَتِهِ.

﴿إِذْ بَجَّيْنَاهُ﴾: أي: ضَعَّ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمَتَلَقِّي هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ أَحْدَاثِ سُنَنِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ.

(١٤) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الذَّارِيَاتِ/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) فِي مَغْرِضِ

الْحَدِيثِ عَنْ قِصَّةِ لُوطٍ وَقَوْمِهِ، قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

فَأَبَانَ هَذَا النَّصُّ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَصْدَرَ أَمْرَهُ لِلرُّسُلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمَكْلُوفِينَ أَنْ يُعَذِّبُوا قَوْمَ لُوطٍ وَيُهْلِكُوهُمْ، بِأَنْ يُخْرِجُوا مِنْ مَوَاطِنِ تَنْزُلِ الْعَذَابِ وَالْإِهْلَاكِ كُلِّ مُؤْمِنٍ صَادِقِ الْإِيمَانِ.

وَلَكِنْ بِالْبَحْثِ وَالتَّنْقِيبِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَبِالِاسْتِنَادِ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ الشَّامِلِ، لَمْ يُوجَدْ فِيهِمْ غَيْرُ بَيْتٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَي: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، هُوَ بَيْتُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالُوا: هُوَ وَابْنَتَاهُ، أَوْ بَنَاتُهُ الثَّلَاثُ.

(١٥) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) فِي مَعْرِضِ الْحَدِيثِ عَنْ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْفَرِيقِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْكَثِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوُءٍ فَسِيقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾:

فَأَضَافَ هَذَا النَّصُّ بَيَانَاتٍ لَمْ يَأْتِ ذِكْرُهَا فِي النَّصُّوَصِ الْآخَرَى.

نصوص أحداثٍ وَقُوعِ التعذيب والإهلاك بقوم لوط

(١) جَاءَ فِي سُورَةِ (القَمَر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا... ﴿٣٤﴾﴾.

وقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِ ﴿٣٩﴾﴾:

﴿حَاصِبًا﴾: الحاصبُ، الريح التي تَحْمِلُ الترابَ وَالْحَصْبَاءَ، فَتَضْرِبُ بِهَا الْأَشْيَاءَ، فَيُصِيبُ اللَّهُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً﴾: أي: وَلَقَدْ جَاءَهُمْ فِي وَقْتِ الصَّبَاحِ، وَهُوَ أَوَّلُ النَّهَارِ عِنْدَ الصُّبْحِ بِدَءِ نَزُولِ الْعَذَابِ، وَاسْتَمَرَّ طَوَالَ الْبُكْرَةِ، وَهِيَ أَوَّلُ النَّهَارِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ.

﴿عَذَابٌ﴾: الْعَذَابُ: اسْمٌ لِلْعِقَابِ وَالنَّكَالِ، فَهُوَ اسْمٌ لِمَصْدَرٍ «عَذَبَ، يُعَذِّبُ، تَغْذِيبًا»: أي: عَاقِبَ وَنَكَّلَ، وَأَضْلَ الْعَذَابُ كُلُّ مَا يَشَقُّ عَلَى النَّفْسِ وَيُؤْلِمُهَا.

﴿مُسْتَقِرٌّ﴾: أي: ثَابِتٌ مُتَمَكِّنٌ فِي مَكَانٍ حُلُولِهِ، حَتَّى انْتِهَاءِ الْبُكْرَةِ.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٩﴾﴾: عبارة صَدَرَ بِهَا أَمْرُ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيِّ بِأَنْ يَذُوقُوا عَذَابَ رَبِّهِمْ الَّذِي لَمْ يَكُونُوا يُصَدِّقُونَ رَسُولَ رَبِّهِمْ بِهِ، وبَأَنْ يَذُوقُوا تَطْبِيقَ نُذْرِي الَّتِي كَانَ يُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهَا.

(٢) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عز وجل:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَنَقِبُهُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾:

فَأُضَافَ هَذَا النَّصُّ أَنَّهُ قَدْ جَاءَهُمْ مِنْ جِهَةِ السَّمَاءِ أَشْيَاءٌ نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ مُعَذِّبَةٌ وَمُهْلِكَةٌ كَمَا يَنْزِلُ الْمَطَرُ الْغَزِيرُ.

وَجَاءَ فِيهِ وَصْفُ قَوْمِ لُوطٍ بِأَنَّهُمْ مُجْرِمُونَ، أَي: مُرْتَكِبُونَ مِنَ الْجَرَائِمِ مَا يَجْعَلُهُمْ خَالِدِينَ فِي النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ.

(٣) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بعد بيان نجاة لوط وأهله باستثناء امرأته العجوز:

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧١﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٤﴾﴾:

فَأُضَافَ هَذَا النَّصُّ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ دَمَّرَ كُلَّ مَنْ لَمْ يَكُونُوا نَاجِينَ مَعَ لُوطٍ مِنْ قَوْمِهِ، وَأُضَافَ أَنَّ الْمَطَرَ الَّذِي أَمْطَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَذْمُومٌ بعبارة: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾:

أَي: الَّذِينَ سَبَقَ أَنْ تُنْذِرُوا بِالْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ.

التدمير: هو الإهلاك باستئصال، ومخو المباني وآثارها حتى لا يُرَى مِنْهَا شَيْءٌ، وأصل التدمير تحطيم الشيء المُدْمَرُ عَلَى وَجْهِهِ لَا يُرْجَى بَعْدَهُ إِصْلَاحُهُ.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أَي: إِنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي أَجْرَاهُ اللَّهُ لِقَوْمِ لُوطٍ

وبلادهم وأشيائهم، لَعَلَّامَةٌ تَدُلُّ ذَوِي الْأَلْبَابِ عَلَى سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ
الجزائية الَّتِي يُعَاقَبُ بِهَا الْمَجْرِمِينَ.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: أي: وما كان أَكْثَرُهُمْ مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ يُؤْمِنُوا
مُسْتَقْبَلًا مِنْهُمَا أُمَهُلُوا، فاقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ إِهْلَاكَهُمْ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ يُجَازِي اللَّهُ
كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَوْمَ الدِّينِ بِحَسَبِ مَا فِي نَفْسِهِ، أَشَارَ إِلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ
تَعَالَى فِي آخِرِ النَّصِّ: ﴿وَلَنْ رُبَّكَ لَكُوْا الْعَرِيزُ الرَّجِيمُ﴾ (١٧٥) أي: فَالَّذِي
يَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ يُعَاقِبُهُ اللَّهُ بِعِزَّتِهِ، أي: بِقُوَّتِهِ الْعَالِيَةِ.

والذي يُلائم ما في داخل نفسه أَنْ يَرْحُمَهُ فَإِنَّهُ يَرْحُمُهُ بِحِكْمَتِهِ.

(٤) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٥٨):

هذه العبارة تَكَرَّرَ لَمَّا جَاءَ فِي سُورَةِ (الشُّعَرَاءِ) وَمَقْتَضِي التَّكْرِيرِ كَوْنُهَا
بِمِثَابَةِ الْعِلَاجِ الدَّوَائِي الَّذِي تَحْتَاجُ طِبَائِعُ النُّفُوسِ إِلَى تَكَرِيرِهِ.

(٥) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰ نَفْسِهِمَا سَافِلًا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ
مَنْضُودٍ﴾ (٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣).

فَأُضَافَ هَذَا النَّصُّ أَنَّ تَذْمِيرَ قَوْمِ لُوطٍ كَانَ بِرَفْعِهَا فِي الْجَوِّ
وَقَلْبِهَا حَتَّى صَارَ أَعْلَاهَا أَسْفَلَهَا، وَأَسْفَلُهَا أَعْلَاهَا.

وَأُضَافَ أَنَّ الْمَطَرَ الَّذِي نَزَلَ عَلَى قَوْمِ لُوطٍ قَدْ كَانَ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ
مَنْضُودٍ.

﴿حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾: أي: حِجَارَةً أَصْلُهَا طِينٌ تَحْجَرُ، وَرُبَّمَا كَانَ
لِلنَّارِ أَثَرٌ فِي جَعْلِهِ مُتَحَجَّرًا.

﴿مَنْضُورٌ﴾: أي: قَدْ انْضَمَّ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ بِاتِّسَاقٍ وَتَرَاضٍ مُنْتَظِمٍ، ونزل عليهم كطَلقات رِصَاصِ المَدْفَعِ الرَّشَاشِ.

﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾: أي: مُعَلِّمَةٌ عِنْدَهُ بَعْلَامَاتٍ تُخَصُّ مُجْرِمِي قَوْمِ لُوطٍ، وَتَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا مُرْسَلَةٌ بِقَصْدٍ لِإِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ.

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾: أي: وَمَا هِيَ مِنْ ظَالِمِي قَوْمِ لُوطٍ بِمَكَانٍ بَعِيدٍ عَنْهُمْ. وَمَا هَذِهِ الْحِجَارَةُ الْمَسَوَّمَةُ مِنْ كُلِّ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْإِهْلَاكَ بِهَا بِمَكَانٍ بَعِيدٍ عَنْهُمْ فِي كُلِّ أُمَّةٍ وَفِي كُلِّ عَصْرٍ.

(٦) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الْحَجَرِ/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿فَاخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّا لَلسَّيِّلِ مُتَعِيرٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

فَأَصَافَ هَذَا النَّصَّ أَنَّ صَيْحَةَ إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ قَدْ كَانَتْ بَعْدَ إِشْرَاقِ الشَّمْسِ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الرُّجْزَ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِمْ عِنْدَ الصُّبْحِ، قَدْ كَانَ رِجْزَ تَغْذِيبٍ لَهُمْ قَبْلَ إِمَاتَتِهِمْ، وَأَنَّهُ اسْتَقَرَّ فِيهِمْ حَتَّى جَاءَتْهُمْ الصَّيْحَةُ الْمَهْلِكَةُ الْأُمِّيَّةُ بَعْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ.

﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾: مَا جَاءَ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ مُكَرَّرًا لِأَنَّهُ عِلَاجٌ تَرْهِيْبِيٌّ لِلنَّفُوسِ، تَقْتَضِي طِبَاقُ النَّفُوسِ تَكَرُّرَهُ.

لَكِنْ جَاءَ فِي هَذَا النَّصِّ إِضَافَةٌ مَا يَلِي:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾: أي: إِنَّ فِي مَوَاطِنِ إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ وَتَذْمِيرِ قُرَاهِمِ لآيَاتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ لِلْمُتَفَكِّرِينَ بِتَعَمُّقٍ اسْتِدْلَالًا بِسِمَاتِ الْأَشْيَاءِ.

التَّوَسُّمُ: النَّظَرُ الْفِكْرِيُّ بِتَعَمُّقٍ فِي سِمَاتِ الْأَشْيَاءِ وَصِفَاتِهَا، لِمَعْرِفَةِ دَلَالَاتِهَا، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: ﴿لَا يَنْبَغُ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: أَي: لِلْمُتَبَصِّرِينَ. وَقَالَ ثَعْلَبُ: الْوَاسِمُ: النَّازِلُ إِلَيْكَ مِنْ قَرْنِكَ إِلَى قَدَمِكَ.

﴿وَأَنهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ (٧٦): أَي: وَإِنَّ قُرَى قَوْمِ لُوطٍ الَّتِي عَمَرَهَا الْبَحْرُ الْمَيِّتَ لِبَطْرِيقٍ وَاضِحٍ مُقِيمٍ ثَابِتٍ غَيْرٍ مُتَغَيِّرٍ، يُشَاهِدُ مَوَاقِعَهَا مَنْ يَزُور أَرْضَ سَدُومَ أَوْ مَا حَوْلَهَا.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٧): أَي: إِنَّ فِي ذَلِكَ الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ الَّذِي جَرَى لِقَوْمِ لُوطٍ وَقَرَاهُمْ لَآيَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَلَى سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي عِبَادَةِ الْمَجْرِمِينَ، وَهَذِهِ الْآيَةُ يَنْتَفِعُ بِهَا الَّذِينَ لَدَيْهِمُ الْاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا.

اسم الفاعل «المؤمنون» بِقُوَّةِ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ يَضْلُحُ لِأَنْ يَقَعَ عَلَى الْحَالِ وَعَلَى الْاسْتِقْبَالِ^(١) بِحَسَبِ الْوَضْعِ اللَّغَوِيِّ.

(٧) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الصَّافَّاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) عَقِبَ بَيَانِ نَجَاةِ لُوطٍ وَأَهْلِهِ بِاسْتِنَاءِ أَمْرَاتِهِ الْعَجُوزِ:

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ (١٣٦) ﴿وَلَكُمْ لِنِمْرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْهِجِينَ﴾ (١٣٧) ﴿وَبِالْأَيْلِ أَفْلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٣٨):

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ (١٣٦): هَذِهِ الْعِبَارَةُ مُكَرَّرَةٌ افْتِضَاهَا التَّمْهِيدُ لِمَا بَعْدَهَا.

﴿وَلَكُمْ لِنِمْرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْهِجِينَ﴾ (١٣٧) ﴿وَبِالْأَيْلِ أَفْلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٣٨):

الخطابُ مُوجَّهٌ لِكِبْرَاءِ مُشْرِكِي قَرِيشَ وَمَنْ كَانَ مِثْلَهُمْ، مِنَ الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ رِحَالَاتُ تِجَارِيَّةٍ إِلَى الشَّامِ، إِذْ كَانَتْ قَوَائِلُهُمْ تَمُرُّ بِجَوَارِ أَرْضِ سَدُومَ، وَيُشَاهِدُونَ آثَارَ إِهْلَاكِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِقَوْمِ لُوطٍ، وَمَا أَنْزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ.

(١) هذا ما تأكد لدي خلال تدبري للنصوص القرآنية.

وَكَانَ مِنْ عَادَةٍ قَوَّافِلِهِمْ أَنْ تَمُرَّ بِهِذِهِ الْمَوَاطِنُ فِي أَسْفَارِهَا وَقَدْ دَخَلُوا فِي الصَّبَاحِ، أَوْ فِي اللَّيْلِ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحُوا.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟: اسْتَفْهَامٌ عَنْ عَدَمِ تَعَقُّلِهِمْ، وَالْمَرَادُ حَثُّهُمْ عَلَى التَّعْقُلِ، وَالْإِنْكَارُ عَلَيْهِمْ إِذْ لَمْ يَعْقِلُوا. وَالْعَقْلُ هُنَا يَتَنَاوَلُ الْعَقْلَ الْعِلْمِيَّ الْفِكْرِيَّ، وَالْعَقْلَ الْإِرَادِيَّ الَّذِي يَعْقِلُونَ بِهِ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ عَنِ الشُّرُودِ إِلَى مَوَاطِنِ هَلَاكِهِمْ.

فأضاف هذا النص أن المخاطبين يَمُرُّونَ في أسفارهم بمواطين إهلاك قوم لوط، ويشاهدون آثار تدمير بلادهم وإهلاكهم، وأنه كان عليهم أن يَعْقِلُوا وَيَتَعَطَّوْا.

(٨) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الذَّارِيَّاتِ/ ٥١ مِصْحَف/ ٦٧ نَزُول) بِشَأْنِ أَرْضِ قَوْمِ لُوطٍ بَعْدَ الْإِهْلَاكِ وَالتَّدْمِيرِ:

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٣٧):

أي: وَتَرَكْنَا فِي أَرْضِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَعْيشُونَ عَلَيْهَا عَلَامَةً بَاقِيَةً دَلَّاهُ عَلَى مَا أَنْزَلْنَا بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ وَتَدْمِيرٍ وَإِهْلَاكِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَنْتَفِعُ بِهَا الَّذِينَ يَخَافُونَ عَذَابَ اللَّهِ الْأَلِيمِ.

(٩) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الْعَنْكَبُوتِ/ ٢٩ مِصْحَف/ ٨٥ نَزُول):

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٣٥):

يَبَيِّنُ هَذَا النَّصُّ وَالنَّصُّ الَّذِي قَبْلَهُ تَكَامُلٌ وَاضِحٌ.

● فَالنَّصُّ الَّذِي فِي (الذَّارِيَّاتِ): ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾.

● وَالنَّصُّ الَّذِي فِي (الْعَنْكَبُوتِ): ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً﴾.

عِبَارَةٌ: ﴿فِيهَا﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَرَكَ فِي أَرْضِ قَوْمِ لُوطٍ آيَةً لَيْسَتْ مِنْهَا، وَلَكِنْ أَنْزَلَتْ عَلَيْهَا وَبَقِيَتْ فِيهَا.

وعبارة: ﴿مِنْهَا﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَرَكَ فِي أَرْضِ قَوْمِ لُوطِ آيَةً هِيَ مِنْهَا، وَالْمَنْقُوبُونَ الْآثَارِيُّونَ يَكْتَشِفُونَ فِي كُلِّ حِينٍ قِسْماً مِنْهَا. والتكامل بين: ﴿آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وبين: ﴿آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تَكَامُلٌ وَاضِحٌ.

والحمد لله على فتحه ومعونته وتوفيقه



(٢٢)

الملحق السادس

دراسة تكاملية للنصوص بشأن شعيب عليه السلام وقومه في القرآن المجيد

جاء في القرآن المجيد ذُكْرُ شعيب عليه السَّلام وذُكْرُ قومه في تسعة نصوص من تسع سور، ففي أربعة منها جاء التصريح باسم شعيب عليه السلام، وفي ثلاثة منها جاء ذكر قومه بعنوان: «مَدِين» وفي اثنين منها جاء ذكرهم بعنوان: «أَصْحَابَ مَدِين» وفي أربعة منها جاء ذكرهم بعنوان: «أَصْحَابُ الْاَيْكَةِ» واشتمل كلُّ نصٍّ منها على لقطات موجزات من مجمل قصة شعيب عليه السلام وقومه.

«مَدِين» هم «أَصْحَابُ مَدِين» وَهُمْ أَنْفُسُهُمْ «أَصْحَابُ الْاَيْكَةِ».

أُطْلِقَ عَلَيْهِمْ عِنْدَ: «مَدِين» بِاعْتِبَارِ أَنَّ اسْمَ جَدِّهِمْ «مَدِين» قَدْ أُطْلِقَ عَلَيْهِمْ، فَصَارَ عَلَماً لَهُمْ. وَأُطْلِقَ عَلَيْهِمْ عِنْدَ: «أَصْحَابَ مَدِين» بِاعْتِبَارِ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْأَرْضِ الَّتِي يُطْلَقُ عَلَيْهَا عِنْدَ: «مَدِين». وَأُطْلِقَ عَلَيْهِمْ عِنْدَ: «أَصْحَابُ الْاَيْكَةِ» إِذْ كَانَتْ لَهُمْ اَيْكَةٌ (أَي: غِيضَةٌ) نَفِيسَةٌ تُقَصَّدُ فِيهَا نَاعِمُ الشَّجَرِ. هَذَا مَا تَرَجَّحَ لَدَيَّ مِنْ أَنَّ أَصْحَابَ الْاَيْكَةِ هُمْ مِنْ «مَدِين» وَلَيْسُوا أُمَّةً أُخْرَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الأيكة: ويخفف اللَّفْظُ فيقال فيه: «لَيْكَة» الشجر الكثيف الكثير الملتفّ الناعم. وكانَ لأَصْحَابِ مَدِينِ غِيْضَةً نَفِيسَةً تَقْصِدُ، فيها شجر كثيف كثير ناعم.

وهل «الأيكة» اسم «غِيْضَتِهِمْ» أو اسم «قَرْنَتِهِمُ الْكُبْرَى» احتمالان مذكوران، وقد يبدو رجحانُ أَنَّهُ اسم غِيْضَتِهِمْ، واللَّهُ أَعْلَمُ.

وأذكرُ هذه النصوص التسعة أولاً مُرتَّبَةً على وَفْقِ تَرْتِيبِ نُزُولِ سورها، وبعد ذكرها أُسْرِعُ في دراستها دراسةً تَدْبِيرِيَّةً تَكَامِلِيَّةً على ما يفتح اللّهُ به وَفْقَ مشيئته.

النص الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) في معرض الحديث عن مكذّبي الرّسول محمد ﷺ من قومه إِيَّانَ التّنزِيلِ:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ وَشَمُودٌ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْآيِكَةِ وَقَوْمُ تُيُوعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾: أي: فَتَبَّتْ وَعِيدِي فِي الْوَاقِعِ التَّطْبِيقِي، بعد كان إنذاراً خبرياً.

النص الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) في مَعْرِضِ الحديث عن مُشَاقِّي الرّسول محمد ﷺ من كُفَّارِ قَرِيشٍ، تلوِيحاً بِإِنْذَارِهِمْ بِإِهْلَاكِ عَامٍ، كما حصل لمكذّبي أهل القرون السّابقة:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَارِ ﴿١٢﴾ وَشَمُودٌ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾: أي: ثَبَتَ عِقَابِي فِي الْوَاقِعِ التَّطْبِيقِي، بَعْدَ أَنْ كَانَ
إِنْذَاراً خَبَرِيّاً، بَلَّغَهُمْ إِيَّاهُ رُسُلِي.

أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ: هُمُ «مَذِين» وَأَصْحَابُ مَذِين، قَوْمُ النَّبِيِّ الرَّسُولِ
شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، هَذَا مَا تَرَجَّحَ لَدَيْ مِنْ أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ.

﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾: أي: أُولَئِكَ أَحْزَابُ الْكُفْرِ الْكِبَارِ فِي التَّارِيخِ
الَّذِينَ اسْتَحَقُّوا الْإِهْلَاكَ الْعَامَّ الشَّامِلَ.

النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) وقد
سبق تدبره في موضعه من السورة:

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
غَيْرِهِ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا
فَكَذَّبْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ
مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ
بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ
يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنًا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَفَرِينَ ﴿٨٨﴾
قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَعَثْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا
أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا
أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
قَوْمِهِ لَبِنَ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
جُثَمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَنْفَوُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا

هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَنَوَىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَبي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ .

النص الرابع :

قول الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمِرَاسِيِّ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَعْبُدُ إِلَٰهَ رَبِّكُمْ رَسُولُ آمِينَ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا مِّنْ أَمْرِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَتُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَخْشَوْنَ الْآنَسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتَوْنَ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ .

النص الخامس :

قول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَتَقَوْمِ اتَّقُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتَوْنَ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبَغٍ مِّنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا

وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَيْتُكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا بِشُعَيْبٍ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا وَمِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَنْقُورُ آرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَنْقُورُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَنِدٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْعَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِينَ ﴿٩٤﴾ كَانُوا يَنْقُورُوا فِيهَا أَلَا بَعْدًا لِلَّذِينَ كَمَا بَعْدَتْ شُعُودُ ﴿٩٥﴾ .

النص السادس:

قول الله عز وجل في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ .

﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ : أي: وإن الأيكة التي كان أصحابها قوم شعيب عليه السلام، وإن أصحابها المهلكين، لتوجد آثارهم في طريق واضح.

لفظ «إمام» يُطلق على الطريق لأنه يؤتم به للوصول إلى الغاية المقصودة.

النص السابع:

قول الله عز وجل في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُورُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ

وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْمَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٣٧﴾ .

النص الثامن:

قول الله عز وجل في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿وَلِإِنْ يَكْذِبُواكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ .

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾!؟: أي: فكيف كان إنكاري عليهم، بمعنى عقابي المهلك لهم إهلاك استتصال؟!

النص التاسع:

قول الله عز وجل في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول)، بشأن المنافقين وعموم الكافرين:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنَّهُمْ رُسِلَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ .

أولاً:

مقدمة

من الملاحظ أن إيراد كل نص من هذه النصوص التسعة في موضعه من السورة التي هو منها، قد استدعته مناسبة داعية لإيراده في السورة، وعسى أن نكتشف بعد تدبرها أنها متكاملة فيما بينها، ولم يكرز فيها إلا ما يقتضيه إيراد القصة، وحلقات الربط، وفقرات الإنذار وتوجيه العظة، وما

كَانَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُكْرِزُهُ عَلَى قَوْمِهِ، كَنَهِيهِمْ عَنْ رَذَائِلِهِمُ الَّتِي كَانُوا مُصْرِئِينَ عَلَى مِمَارَسَتِهَا، مِنْهَا أَكْلُ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَالْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ، وَقَطْعُ السَّبْلِ عَلَى النَّاسِ لِلْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ.

المناسبة التي استدعت كل نص في السورة التي هو منها:

(١) فالنص الذي جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) استدعته حكمة إنذار المكذبين بنبأ يوم الدين، المنكرين لليوم الآخر، لإعلامهم بأنهم إذا أصرّوا على موقفهم هذا فإنهم يُعرّضون أنفسهم للإهلاك، كما حصل للمكذبين بيوم الدين من أهل القرون الأولى.

(٢) والنص الذي جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) استدعته حكمة إنذار مُقاومي الرسول محمد ﷺ ومقاومي دعوته، الذين وصلوا إلى مَزْجَلَةِ المشاقَّةِ والعِداءِ، والتفكير بإعداد القُوَّةِ المسلَّحةِ لِلْقَمْعِ وإيقاف حركة الدَّغْوَةِ، وقَطْعِ دَابِرِ أَنْصَارِهَا.

ويتضمَّن هذا الإنذارُ إعلامهم بأنهم إذا أصرّوا على مَوْقِفِهِمْ هَذَا فإنهم يُعرّضون أنفسهم للإهلاك الشامل، كما حصلَ لِلَّذِينَ وقفوا مِنْ رُسُلِ رَبِّهِمْ ومن الذين آمنوا بهم واتَّبَعُوهُمْ مِثْلَ مَوْقِفِهِمْ هَذَا من أهلِ القُرُونِ الأولى.

(٣) والنص الذي جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) استدعته حِكْمَةُ إنذار المكذِّبين بآياتِ اللَّهِ المنزلاتِ على رسوله محمد ﷺ، واستكبروا عن اتِّباع ما جاء فيها من شرائعٍ وأحكامٍ ووصايا.

ويتضمن هذا الإنذارُ إعلامَهُمْ بأنهم إذا أصرّوا على موقفهم من التكذيب بآياتِ اللَّهِ المنزلاتِ في كتابه، والاستكبار مُغرِضين عن اتِّباعها، فإنهم يُعرّضون أنفسهم للإهلاك الشامل، كما حَصَلَ لِلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ المنزلاتِ على رُسُلِهِ السَّابِقِينَ، واستكبرُوا مُغرِضِينَ عن اتِّباعها من أهلِ القرون الأولى.

(٤) والنص الذي جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) استدعته حكمة إنذار الذين كذبوا رسول ربهم محمد بن عبد الله ﷺ، خاتم أنبياء الله ورسله.

ويتضمن هذا الإنذار إعلامهم بأنهم إذا أصرّوا على موقفهم هذا، فإن الله سينصر رسوله على مكذبيه، كما نصر رسله السابقين على الذين كذبوهم من أممهم، واستكبروا عليهم، وأعرضوا عن اتباعهم، وتمردوا على طاعتهم، من أهل القرون الأولى.

(٥) والنص الذي جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) مع ما ذكر في هذه السورة من أمثلة إهلاك بعض أهل القرون الأولى، استدعتها حكمة تثبيت فؤاد الرسول محمد ﷺ، تجاه ما تعرض له من هزات نفسية بمقتضى بشريته، بسبب شاتم الذين كفروا به من قومه، وعدم استجابة الله لمقترحاتهم التعنّية التي اقترحوها، وبسبب ضيق صدره ببعض ما يوحي إليه، مما يثير له مشكلات جدلية مع كفار قومه، أو مشكلات عداية. دل على هذه الحكمة قول الله عز وجل في أوائل هذه السورة خطاباً

لرسوله محمد ﷺ:

﴿فَلَمَّا كُنَا نَارُكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاقِيْ بِهٖ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۖ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٧﴾﴾.

وقول الله عز وجل في أواخرها:

﴿وَلَا تَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ۚ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

(٦) والنص الذي جاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) استدعته حكمة معالجة أثر استهزاء المستهزين في نفس الرسول ﷺ، بأن الله عز وجل سينتقم منهم، كما انتقم من المستهزين بالرسل السابقين، وحكمة معالجة شتمهم له بأنه لمجنون.

دَلَّ عَلَى هَاتَيْنِ الْحَكْمَتَيْنِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوَائِلِ هَذِهِ السُّورَةِ
بِشَأْنِ كَفَّارِ قَرِيشٍ:

﴿وَقَالُوا يَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا
بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾﴾.

وقول الله عز وجل فيها أيضاً:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَجِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾﴾.

وقول الله عز وجل في آخر هذه السورة:

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾
الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ تَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ
صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى
يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

(٧) والنص الذي جاء في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول)

مع ما ذكر في السورة من أمثلة إهلاك كفّار القرون السالفة، قد استدعته
حِكْمَةُ تَثْبِيتِ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، بِمُنَاسَبَةٍ مَا تَعَرَّضُوا لَهُ مِنْ فِتْنَةٍ مِنْ أَجْلِ دِينِهِمْ
وَاتِّبَاعِهِمْ رَسُولَ رَبِّهِمْ، وَمَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ بَلَاءٍ وَتَغْذِيبٍ، مِنْ قِبَلِ الْكَافِرِينَ
الْمُكَذِّبِينَ، الَّذِينَ اسْتَشْرَوْا فِيهِمْ اضْطِهَادَ الْمُؤْمِنِينَ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْحَكْمَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَتَى بِنَاصٍ أَنْ يَتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾
وَلَقَدْ فُتِنَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾.

وقول الله عز وجل فيها:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ (١١).

(٨) والنص الذي جاء في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) استدعته حكمة معالجة ما تعرّضت له نفوس المؤمنين من مشاعر استبطاء إنزال العذاب بالذين كذبوا الرسول، وكذبوا بما جاء به، وحكمة معالجة حالة الكافرين الذين رأوا في تأخير إنزال الهلاك الشامل بهم ذريعة لإصرارهم على مواقفهم.

وأبان الله عز وجل فيه أن سنته في الأمم كلها أن يُملِي لها، ولا يُعجل لها العقاب، حتى ينتهي كل رجاء مطمئع فيه من قبل الناس باستجابة فريق منهم تقضي الحكمة بإضافة إمهال أخير من أجلهم.

(٩) والنص الذي جاء في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) استدعته حكمة إنذار المنافقين والمنافقات بأنهم عرضة أيضاً لأن يُنزل الله بهم عقوباته المعجلات في الدنيا، كما أنزل عقوباته المعجلات بكفار أهل القرون الأولى، لأن المنافقين يدخلون في الحقيقة ضمن عموم الكافرين.

فهذا النص قد جاء في معرض الحديث عن المنافقين والمنافقات.

وهكذا ظهر لنا أن كل نص من هذه النصوص التسعة، التي اشتملت على لقطات من قصة شعيب عليه السلام وقومه، قد كان لمناسبة خاصة استدعت إيرادها، مع أننا حينما ندرس هذه النصوص دراسة تدبرية تكاملية، فإننا نجدُها متكاملة فيما بينها، لا مكررة.



ثانياً:

التدبر التكاملي

وفيه عشرة فصول:

الفصل الأول: مجريات دَعْوَة شعيب عليه السلام لقومه .

الفصل الثاني: مرحلة الجدليات بين قوم شعيب عليه السلام وبينه .

الفصل الثالث: مرحلة اضطهادٍ وتهديدٍ من قوم شعيب له وللذين آمنوا به وجدالٍ منطقي من شعيب دفاعاً عنهم .

الفصل الرابع: مرحلة تهديد قوم شعيب له باستحقاقه الرّجم لولا رهطه فيهم .

الفصل الخامس: مرحلة تحدّي قوم شعيب له بأن يأتيهم بما يتوّعدُهُم به من عذاب الله .

الفصل السادس: مرحلة توجيه كبراء كفار قوم شعيب إنذارهم الأخير للذين آمنوا به وأتبعوه .

الفصل السابع: مرحلة إنزال العذاب الشامل المهلك الذي استأصل الله به كُفَّار قوم شعيب عليه السلام .

الفصل الثامن: التعقيبُ الربّاني على إهلاك قوم شعيب عليه السلام .

الفصل التاسع: ماذا فعل شعيبٌ عليه السلام بعد أن أهلك الله قومه ونجّاه والَّذِينَ آمنوا معه .

الفصل العاشر: العظة بنبأ إهلاك قوم شعيب عليه السلام .



الفصل الأول

مجريات دعوة شعيب عليه السلام لقومه

أولاً:

أول دعوة شعيب عليه السلام لقومه كانت مقتصرة على ثلاث قضايا، دل عليها قول الله عز وجل في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَالِإِن مَّدِينٌ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٣٦).

دل على هذه الأولوية وجود الفاء في: ﴿فَقَالَ يَنْقُورِ﴾ الدالة على الترتيب مع التعقيب، عَقِبَ بيان إرساليه إلى مَدِينٍ مُبَاشَرَةً.

● ﴿وَالِإِن مَّدِينٌ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: أي: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى الْقَوْمِ المعروفين بِاسْمِ «مَدِينٍ» إِذْ أُطْلِقَ عَلَيْهِمْ اسْمُ جَدِّهِمْ. أَرْسَلْنَا النَّبِيَّ الرَّسُولَ أَخَاهُمْ نَسَبًا وَلُغَةً وَمَوْطِنًا «شُعَيْبًا». ووصفه الله عز وجل بأنه أَخُوهُمْ مُرَاعَاةً لِأَخُوْتِهِ لَهُمْ فِي النِّسْبِ وَاللُّغَةِ وَالْمَوْطِنِ.

● ﴿فَقَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: أي: فَقَالَ لَهُمْ عَقِبَ إِرْسَالِهِ إِلَيْهِمْ مُبَاشَرَةً: ﴿يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: بِحَذْفِ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ مِنْ كَلِمَةِ «قَوْمٍ» وَإِبْقَاءِ الْكُسْرَةِ دَلِيلًا عَلَيْهَا.

لَقَدْ بَدَأَهُمْ بِالْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، لِأَنَّ هَذِهِ الْعِبَادَةُ هِيَ الْوَاجِبُ الْأَوَّلُ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِهِ، وَإِعْلَانِ الْإِسْلَامِ لَهُ، وَإِعْلَانِ الْخُرُصِ عَلَى طَاعَتِهِ.

وَأَوَّلُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ تَكُونُ بِطَاعَتِهِ فِي فِعْلٍ مَا أَمَرَ بِفِعْلِهِ، وَتَرْكِ مَا نَهَى عَنْهُ، وَتَكُونُ بِدُعَائِهِ لِتَحْقِيقِ الْمَطَالِبِ، ثُمَّ بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِمَحَابَّتِهِ فَعَلًا أَوْ تَرْكًا.

● ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾: أي: وَآمِنُوا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ الْمَوْضُوعِ فِي

خُطَّةُ التَّكْوِينِ لِلْحِسَابِ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقُ الْجَزَاءِ، وَتَوَقُّعُوا قُدُومَ هَذَا الْيَوْمِ دَوَامًا، وَحُصُولَ مَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ بِقَدَرِهِ وَقَضَائِهِ مِنْ ثَوَابٍ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ، وَعِقَابٍ لِلْكَافِرِينَ وَلِلْعَصَاةِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ.

الرَّجَاءُ: يَأْتِي فِي اللَّغَةِ بِمَعْنَى تَوَقُّعِ الْمَرْغُوبِ فِيهِ، وَتَوَقُّعِ الْمَخُوفِ مِنْهُ.

فعبارة: ﴿وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ تَنْحَلُّ إِلَى جَمَلَتَيْنِ:

الأولى: وَتَوَقُّعُوا مَجِيءَ الْيَوْمِ الْآخِرِ طَامِعِينَ بِثَوَابِ اللَّهِ فِيهِ.

الثانية: وَتَوَقُّعُوا مَجِيءَ الْيَوْمِ الْآخِرِ خَائِفِينَ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ فِيهِ.

وَيُؤَكِّدُ أَنَّ هَذِهِ الْمَقُولَةَ الَّتِي وَجَّهَهَا شَعِيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ هِيَ الْمَقُولَةُ الثَّانِيَّةُ، أَنَّ النُّصُوصَ الْقُرْآنِيَّةَ قَدْ كَثُرَ فِيهَا افْتِرَانُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ بِالْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْيَوْمَ الْآخِرَ هُوَ الْيَوْمُ الْمَعْدُ فِي خُطَّةِ التَّكْوِينِ لِلْجَزَاءِ الَّذِي هُوَ أَثَرُ صِفَتِي الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بَعْدَ رَحَلَةِ الْإِبْتِلَاءِ فِي يَوْمِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

إِنَّ رُكْنَ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ هُوَ الرُّكْنُ الْأَعْظَمُ، بَعْدَ رُكْنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ، وَبِحُكْمَتِهِ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ، فَهُوَ الْمَقُولَةُ الثَّانِيَّةُ بِحَسَبِ التَّرْتِيبِ الْمُنْطَقِيِّ، بَعْدَ مَقُولَةِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَفُرُوعِ هَذَا الْإِيمَانِ.

● ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٣٦).

﴿وَلَا تَعْتَوْا﴾: الْعَتَا: أَشَدُّ الْفَسَادِ، يُقَالُ لُعَّةٌ: عَثِي يَعْتِي عَثْوًا، أَيِ: أَفْسَدَ إِفْسَادًا شَدِيدًا جَدًّا.

لَقَدْ كَانَ قَوْمُ شَعِيبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أَشَدَّ الْفَسَادِ بِأَعْمَالِهِمُ الْإِجْرَامِيَّةَ الظَّالِمَةَ الْجَائِرَةَ، وَلِهَذَا رَأَى شَعِيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ

من الحكمة أن يجعل مقولته الثالثة لقومه، نَهَيْهُمْ عن العُثُوِّ في الأرض مُفْسِدِينَ، من مقولاته الدَّعَوِيَّة لهم.

﴿مُفْسِدِينَ﴾: حَالٌ مُؤَكَّدَةٌ لِعَامِلِهَا.

الفساد في اللِّغَةِ: التَّلَفُ وَالْعَطَبُ، وتحوُّلُ الشيء من كونه صالحاً نافعاً إلى كونه غير صالح وَلَا نافع، بل رُبَمَا يصير ضارّاً كَرِيهاً مُفْسِداً للأشياء الصالحة.

والإفساد: الإِتْلَافُ وَتَخْوِيلُ الشيء عن صلاحه، وقد يَصِلُ إلى جَعْلِ الشيء ضارّاً كَرِيهاً مُفْسِداً للأشياء الصالحة.

ويشمل النهي عن الإفساد في الأرض بعمومه، النَّهْيَ عن كلِّ الممارسات الظَّالِمَاتِ الجائرات، ذوات العدوان على عباد الله، الَّتِي كان قوم شَعِيب يمارسونها بانتشار عامٍّ فيهم، ومنها أَنَّهُمْ كَانُوا من المطففين، إِذَا كَالُوا لِلنَّاسِ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ يُخْسِرُونَ، فيَنقُصُونَ المكيال والميزان، وَيَنقُصُونَ في الكَيْلِ والوزن، وكانوا يَنخُسُونَ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، أَي: يَنقُصُونَ قِيَمَتَهَا، فلا يُعْطُونَهُمْ حقوقهم بالعدل.

لَقَدْ جعل شعيب عليه السَّلام هذه المقولة هي المقولة الثالثة من مقولاته لهم، وصار يُكرِّرها في بياناته وخُطْبِهِ لهم، بعباراتٍ مُتَمَثِّلَاتٍ، وبعباراتٍ مختلفات، رجاء أن يُقْلِعُوا عنها، إِذ هي من كُبْرِيَّاتِ الْقَبَائِحِ والمنكرات والرذائل الاجتماعية الَّتِي كانوا يمارسونها ممارساتٍ عَادِيَّةٍ، دون أن يَشْعُرُوا بِحَرَجٍ أَوْ وَخْزٍ ضمير.



ثانياً:

ثمَّ إِنَّ شَعِيباً عليه السَّلام زاد في مقولاته الدَّعَوِيَّة لِقَوْمِهِ، مع تكرير نَهْيِهِمْ عن القبائح والمنكرات والرذائل الاجتماعية المنتشرة فيهم، محتفظاً

بأسلوب البيان الإقناعي القائم على الزفق واللين في الخطاب، فقال لقومه ما جاء بيانه في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بقول الله عز وجل:

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْقُو ﴿١٧٧﴾ إِلَيْكُمْ رَسُولٌ آمِينَ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْنُتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾

• قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر وأبو جعفر: [أَصْحَابُ لَيْكَةِ].

وقرأ باقي القراء العشرة: [أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ]. لَيْكَةِ: تخفيف للأيكَةِ.

• قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [بِالْقِسْطَاسِ] بِكسر القاف.

وقرأ باقي القراء العشرة: [بِالْقِسْطَاسِ] بضم القاف.

وهما وجهان عريتان لنطق الكلمة.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾:

﴿أَصْحَابُ لَيْكَةِ﴾: هُم أصحاب أرض مدين. الأيكة: غيضة كثيفة الأشجار، كانت لهم، ومن صفاتها أنها كانت مُلْتَفَّة تُثْبِتُ نَاعِمَ الشجر، ولتمييزها كان يُقال لهم: أصحاب الأيكة.

وَيَدُلُّ لفظ ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ على أَنَّهُمْ قد جاءهم قبل شعيب عليه السلام رسولٌ أو أكثر، فلمَ يَسْتَجِيبُوا لهم، فأرسل الله لهم شُعَيْباً عليه السَّلام، حَظِيْباً فَصِيْحاً يُعَالِجُ الموضوع الواحد بأساليب مختلفة إقناعاً وجدالاً وترغيباً وترهيباً.

وجيء بهذه الجملة توطئة للحديث عن قوم شعيب، وربطاً بما جاء قبل هذا النص في سورة (الشعراء).

● ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٧٧)؟؟.

أي: ضَعُ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِتَتَذَكَّرَ أَنَا ثُمَّ أَنَا قِصَّةُ شُعَيْبٍ وَقَوْمِهِ لِلاتِّعَازِ بِهَذَا التَّذَكُّرِ، إِذْ قَالَ شُعَيْبٌ لَهُمْ: أَلَا تَتَّقُونَ عِقَابَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ عَلَى شِرْكِيَاتِكُمْ وَعَلَى ظُلْمِكُمْ لِعِبَادِ اللَّهِ، وَرَدَّائِلُكُمْ الاجْتِمَاعِيَّةَ الشَّنِيعَةَ.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؟؟ استفهام يُرَادُ بِهِ هُنَا الْعَرَضُ بِرَفْقٍ، لَيْسَ فِيهِ أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ وَلَا تَلْوِيمٌ.

وقد دَعَانِي أَن أَفْهَمَ هَذَا الْفَهْمَ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ أَقْوَالِ شُعَيْبٍ لِقَوْمِهِ، قَدْ كَانَ فِي بَدَايَاتِ دَعْوَتِهِ لَهُمْ، وَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي أَوَائِلِ الدَّعْوَةِ الْإِنْكَارُ أَوْ التَّلْوِيمُ أَوْ التَّوْبِيخُ، حَتَّى أَعْتَبَرَ الْإِسْتِفْهَامَ فِي عِبَارَةِ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ استفهاماً تَوْبِيخِيّاً أَوْ تَلْوِيمِيّاً، أَوْ إِنْكَارِيّاً.

● ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٧٨):

هذه الجملة موجز كلام وَجَّهَهُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ، أَبَانَ لَهُمْ فِيهِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اصْطَفَاهُ بِالنُّبُوَّةِ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ كَمَا أَوْحَى إِلَى النَّبِيِّينَ مِنْ قَبْلِهِ، وَاخْتَارَهُ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ رَسُولاً لِقَوْمِهِ الَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ نَسَباً وَلِسَاناً وَمَوْطِئاً.

وقد اشتملت هذه الجملة على التأكيد بمؤكَّدَيْنِ: «إِنَّ - والجملة الاسمية» مراعاة لمقتضى حال قومه الَّذِينَ ظَهَرَتْ عَلَيْهِمْ أُمَارَاتُ عَدَمِ التَّصَدِيقِ.

وجاء فيها تقديم المعمول ﴿لَكُمْ﴾ عَلَى عَامِلِهِ ﴿رَسُولٌ﴾ لإفادة التخصيص فهو رَسُولٌ لَهُمْ خَاصَّةً، عَلَى مَعْنَى أَنَّ مَهْمَةَ رِسَالَتِهِ وَوُظُفَتَهُ أَنْ يَبْلُغَ قَوْمَهُ خَاصَّةً.

أما مضمون رسالته فهو مثل المضمون الذي جاء به سائر رُسُلِ الله لأقوامهم، وعلى كل من بَلَغَتْهُ دَعْوَتُهُ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ.

كلمة «رَسُول» مصطلح ديني يُطلق على كل نبي بعثه الله رسولا لقومه خاصّة، أو للناس جميعاً.

وبدهي أن لا يختار الله عز وجل للنُبوّة والرّسالة إلا مَنْ كان أهلاً لهم، وأهلاً للقيام بوظائف رسالته، وتأدية ما يجب عليه فيها، وأميناً في تبليغ كل كَلِمَةٍ، وكلّ حَزَفٍ، وكلّ فِكْرَةٍ، وكلّ معْنَى ممّا أمّره الله عز وجل بتبليغه، ولهذا وصّف شعيب لقومه بأنّه أمين، أي: فهو لا يزيّد على ما أمّره الله بتبليغه عن ربّه، ولا ينقص منه شيئاً.

● ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٧٩):

رَتَّب شعيب عليه السلام على أنّه رَسُولُ أمين مبعوث لقومه خاصة، كلاماً جاء إيجازُه بهذه العبارة.

أي: فاتَّقُوا عَذَابَ اللَّهِ الَّذِي جَعَلَهُ جزاءً من كَفَرَ بالله وبرسالته وبرسوله، واتَّقُوا عَذَابَهُ الَّذِي جَعَلَهُ جزاءً لمن عصَى أوامرَه ونواهيه.

ولمّا كان اتِّقاء عذاب الله إنّما يَتِمُّ بِمَعْرِفَةِ مَطْلُوبِ اللَّهِ عز وجل من عباده، وهذا المطلوب إنّما يُعْرَفُ عن طريقِ رُسُلِهِ، كانت طاعةُ الرُّسُولِ جزءاً من عُموم طاعة الله، يضاف إلى هذا أنّ الله عز وجل قد أمرَ بطاعة رُسُلِهِ، بِنُصوصٍ صريحة، ولهذا طالب شعيب قومه بأن يُطِيعُوا.

● ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨٠):

هذه العبارة أو نظيرُها جاءت في بيانات كل الرُّسُل الذين عرض الله عز وجل لقطات من قصصهم مع أقوامهم.

أي: ليست لي مصلحةٌ شخصيّةٌ لدينكم من دعوتي لكم، ومن صَبْرِي

على القيام بوظائف رسالتي فيكم، وتحملي أعباءها ومشقاتها، لكني أطلبُ أجري من ربي الذي أرسلني إليكم، وكلفني القيام بمهمات رسالتي ووظائفها، وتحمل مشقات أدائها لكم.

• ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ (٨١):

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾: أي: اجعلوا الكيل تامة كاملاً وافياً غير منقوص.

الكيل: مضدُّ «كَالَ» يقال لغة: كَالَ الحَبُّ أو نحوه من جامدٍ أو سائل كَيْلاً وَمَكَالاً، أي: قَدَّرَ كميَّته بالمكيال، وهو كلُّ وعاءٍ تعارفَ الناسُ على مقدار ما يستوعب، فتكَّالُ به الأشياء لمعرفة مقدار حَجْمها.

وقد كان أهل مدين يتلاعبون بالكيل وبالمكاييل، فينقصون الناس حقهم إذا كالوا لهم، أما إذا كالوا لأنفسهم من الناس، فإنهم يوفون أو يزيدون على الوفاء بالاحتياال، فيأكلون أموال الناس بالباطل.

﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾: أي: ولا تكونوا من الذين ينقصون الناس حقوقهم.

يُقال: أَخْسَرَ فلانٌ، الشيء، أي: نَقَصَهُ.

أمرهم شعيب عليه السلام بالوفاء، ونهاهم عن ضده الذي هو الإخسار، وهو النقص، مع العلم به من الأمر بالوفاء، لأن الأمر بالشيء نهى عن ضده بدهاءة، إلا أن النص تضمن الدلالة على أن شعيباً عليه السلام قد كان خطيباً بارعاً، ومن براعته في خطابته أنه كان يأمر بالشيء، وينهى عن ضده، لإيضاح مقولاته إيضاحاً لا يحتمل التأويل.

• ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ (٨٢): أي: وزنوا بأضبط الموازين، وأعدلها.

القِسْطاس: بضم القاف وكسرها، أضبطُ الموازين وأقومها وأعدلها.

المستقيم: المعتدل المستوي، الذي تُوزَنُ به الأشياء فلا يزيد على مقاديرها الحقيقية، ولا ينقص منها.

والمراد بإضافة هذا الوصف التنبيه على وجوب عدم التلاعب بما يُسمَّى في أعرافهم قسطاساً.

وقد كان أهل مدين يتلاعبون بالوزن وبالموازين، ليأكلوا بتلاعبهم أموال الناس بالباطل، فأمرهم رسولهم شعيب عليه السلام بأن يزنوا بالقسطاس المستقيم، وفي هذا نهى لهم عن التحايل بالوزن وبالموازين، ليأكلوا أموال الناس بالباطل.

● ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾: أي: وَلَا تَنْقُصُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، سواء أكان ذلك عن طريق الكيل أم المكيال، أم عن طريق الوزن أم الميزان، أم عن طريق آخر، ففي هذه العبارة تعميمٌ بعد تخصيص.

هذه العبارة مع الأمر بالوفاء في الكيل والوزن، وعَدَم الإخسار فيهما، من المكررات في النصوص، للدلالة على أن شعيباً عليه السلام كان يكررها في دعوته ونصائحه ووصاياه لقومه، إذ لَمْ يَكُنْ يَجِدُ لديهم استجابة لما يذعوهم إليه.

البَخْسُ: النقص، وفعل «بَخَسَ» مثل فعل «نقص» يتعدى إلى مفعولين. يقال لغة: بَخَسَ فُلَانٌ فُلَانًا حَقَّهُ، أي: نَقَصَهُ حَقَّهُ.

والنقص عن الحق مع العلم لا يكون إلا بظلم، وقد تُستخدَم فيه وسائل الاحتيال والكذب والمخادعة.

إن أقوال شعيب عليه السلام لقومه، التي تدل عليها عبارات:

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.. تُفيد أن شعيباً عليه السلام كان يلجأ في

خطاباته ومواعظه لقومه إلى أسلوب الإطناب، لأن أحوالهم كانت تقتضي ذلك، ولأنهم كانوا يفعلون بالتفصيل كل هذه الرذائل والعدوانات على عباد الله من قومهم ومن غير قومهم.

إن بعض هذه العبارات كانت تكفي، للدلالة على أنه يخرم عليهم ديناً وبمقتضى العقول السليمة العدوان على الناس في حقوقهم، لكن أحوالهم النفسية والسلوكية والفكرية، كانت تقتضي الإطناب بتفصيل.

وقد كان من فصاحته عليه السلام، أنه يتنوع في الكلمات وفي الأساليب، ويأتي للدلالة على المعنى الواحد من وجوه مختلفة، فمرة من جهة الإيجاب ومرة من جهة السلب، ومرة بتعيين القضية، وأخرى بإدخالها ضمن قضية عامة.

وهكذا تكون براعة الخطباء.

والله عز وجل يعرض علينا بحكمته نماذج من طرائق شعيب عليه السلام في دعوته لقومه، ونضجه لهم، ليعلّم الدعاة إلى دين الله، وخطباء الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كيف يكون تصرف الكلام وتنويعه حول قضية واحدة يهتمون بمعالجتها، إذ ليس من المستحسن في نفوس الناس تكرير الجمال والألفاظ تكريراً متطابقاً، ما لم تكن من الكليات العامة، التي يراود تثبيتها وترسيخها، وتفرغ الفروع الكثيرة عليها، مثل عبارات التوحيد، والأمر بعبادة الله، ومثل كلية: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ التي جاءت مكررة في مقولات شعيب لقومه بصيغتها دون تنويع، في مختلف المواقف الداعية إلى التنبيه على مضمونها، أو التذكير به.

ومن المعلوم أن التحايل والتلاعب في الكيل والمكايل، وفي الوزن والموازن، هو من أكل أموال الناس بالباطل، وهذا يدخل في عموم «بخس

النَّاسِ أَشْيَاءَهُمْ» وَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الظُّلْمِ الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَجَعَلَهُ بَيْنَ عِبَادِهِ مُحَرَّمًا.

● ﴿وَلَا تَقْتُولُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (١٨٣):

سَبَقَ تَدْبِيرُ نَظِيرِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ فِي النَّصِّ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (العنكبوت) وَأُضِيفَ هُنَا بَيَانُ أَنَّ الْإِفْسَادَ يَشْمَلُ إِفْسَادَ أَخْلَاقِ النَّاسِ، وَإِفْسَادَ سُلُوكِهِمْ، وَإِفْسَادَ أَفْكَارِهِمْ وَمَفْهُومَاتِهِمْ، وَيَشْمَلُ إِفْسَادَ الْأَشْيَاءِ وَالْأَحْيَاءِ، وَمِنْهُ إِفْسَادُ الْعِمْرَانِ الْحَضَارِيِّ، وَإِفْسَادُ الْمَدُنِ وَالْقُرَى، وَإِفْسَادُ النَّبَاتِ وَالْجَوِّ، وَالْإِفْسَادُ فِي الْجِينَاتِ الْوَرَاثِيَةِ.

وَنُلاحِظُ فِي زَمَانِنَا الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ، أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَالْجَوِّ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ظُهُورًا شَنِيعًا فَاجِشًا.

وَمِنْ مَظَاهِرِ هَذَا الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ انْتِشَارُ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ، وَانْتِشَارُ الْأَوْجَاعِ وَالْأَمْرَاضِ وَالْأَسْقَامِ، الَّتِي هِيَ نَتَائِجُ مَعَاصِي النَّاسِ لِرَبِّهِمْ، كَمَرَضِ «الْإِيدِز».

وَمِنْ مَظَاهِرِ إِفْسَادِ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ نَقْصُ طَبَقَةِ الْأَوْزُونِ فِي الْجَوِّ، مِنْ جَرَاءِ سُوءِ اسْتِخْدَامِ النَّاسِ لِلْمَوَادِّ الْكِيمَائِيَّةِ، وَالْغَازَاتِ الْقَوَاتِلِ لِلْأَحْيَاءِ.

فَالْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ مِنْ أخطرِ أَنْوَاعِ السُّلُوكِ الْإِنْسَانِيِّ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ نَهَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ فِي كُلِّ الرِّسَالَاتِ الَّتِي كَلَّفَ رُسُلُهُ أَنْ يُبَلِّغُوهَا لِلنَّاسِ، قَالَهُ لَا يُحِبُّ الْمَفْسِدِينَ، بَلْ يَنْتَقِمُ مِنْهُمْ وَيُهْلِكُهُمْ.

● ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٨٤):

الْجِيلَةُ: الْأُمَّةُ مِنَ الْخَلْقِ، وَالْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ.

أَي: وَاتَّقُوا عِقَابَ وَعَذَابَ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ، وَخَلَقَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ، بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَبِالْإِسْلَامِ لَهُ، وَبِطَاعَتِهِ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ.

فَمَنْ كَانَ لَدَيْهِ عَقْلٌ وَبَصِيرَةٌ، وَعَلِمَ بِأَحْوَالِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِالْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ وَهَلَاكِ شَامِلٍ، اقْتَنَعَ وَاتَّعَظَ، فَلَمْ يُعَرِّضْ نَفْسَهُ لِسَخَطِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِمَعْصِيَتِهِ مِنَ الْكِبَائِرِ، حَتَّى لَا يَكُونَ عُزُضَةً لِعِقَابِهِ الْعَادِلِ الَّذِي لَا مَحِيصَ عَنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ الصَّحِيحَةِ الصَّادِقَةِ، فَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ.



ثالثاً:

ثُمَّ وَسَّعَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَقُولَاتِهِ فِي دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ، مَعَ مَحَافَظَتِهِ عَلَى أَسْلُوبِ الرَّفْقِ وَاللِّينِ فِي الْقَوْلِ.

فَقَالَ لِقَوْمِهِ مَا جَاءَ بَيَانُهُ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (هُود/ ١١) مصحف/ ٥٢ (نزول):

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَعْبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ ۝٨٤﴾ وَيَقُولُوا أَتَوْا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٨٥ يَقِئْتُ اللَّهَ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ۝٨٦﴾.

● قرأ الكِسَائِيُّ وأبو جعفر: [مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ] بِكَسْرِ الرَّاءِ.

وقرأ باقي القراء العشرة: [مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ] بِضَمِّ الرَّاءِ.

الكَسْرُ رُوعِي فِيهِ لَفْظُ «إِلَه» الْمَجْرُورُ بِحَرْفِ الْجَرِّ الزَّائِدِ. وَالضَّمُّ رُوعِي فِيهِ مَحَلُّ لَفْظِ «إِلَه» وَهُوَ الرِّفْعُ.

● قرأ نافع، والْبَزْزِيُّ، وأبو عَرُو، وأبو جعفر: [إِنِّي أَرَاكُمْ] بِفَتْحِ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ، وقرأ باقي القراء العشرة: [إِنِّي أَرَاكُمْ] بِإِسْكَانِ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ.

القراءتان وجهان عربيان لنطق ياء المتكلم.

- قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [وَأِنِّي أَخَافُ] بفتح ياء المتكلم. وقرأ باقي القراء العشرة: [وَأِنِّي أَخَافُ] بإسكان ياء المتكلم.



- ﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا﴾: هذه الجملة بدايةً للرّبط بما قبلها في السورة، وهي توطئة لازمة للحديث عن شعيب وقومه، فتكريرها في بعض النصوص تستدعيه الحاجة في النصّ للرّبط والتوطئة. وقد سبق تدبّر نظيرها.

• ﴿قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾:

- هذه العبارة وجّهها كلُّ رُسُلِ اللَّهِ لأقوامهم، لأنّها الفرع الأول من فروع القاعدة الإيمانية، الّتي هي جذرُ شجرة الدين.
- وقد سبق تدبّر عبارة: ﴿يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ في النصّ الذي من سورة (العنكبوت).

- لكنّ جاء في هذه العبارة إضافة: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ على ما جاء في النصّ الذي من سورة (العنكبوت).

لقد كرّر شعيب عليه السلام لقومه الأمر بعبادة الله، لأنّهم استمروا مُصرين على الاستغراق في أمور دنياهم، مُبتعدين عن عبادة ربّهم وعن طاعته، واستمروا على التخبّط في أحوال كباتر الإثم والجرائم الّتي تُذكّر العقول بالبدية قباحتها وشناعتها. وأنّها من الظلم الفاحش لعباد الله.

ودلّت عبارة: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ على أنّهم كانوا مُشركين لهم عباداتٍ شريكيةً لغير الله عزّ وجلّ، فأبان لهم عليه السلام أنّه ليس لهم في الوجود كلّ من معبود يستحقّ أن يُعبَد إلاّ الله وخدّه لا شريك له، أي: لأنّه لا ربّ في الوجود كلّ غير الله جلّ جلاله وعظم سلطانه، فلا

إِلَّهِ يُعْبَدُ بِحَقِّ سِوَاهُ، وَكُلُّ إِلَهٍ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ لَّا حَقِيقَةً لِلَّهِتِهِ، وَمَا الْآلِهَةُ الَّتِي يَعْبُدُهَا الْمُشْرِكُونَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّوْهَا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، وَلَيْسَ لَهَا مِنَ الْإِلَهِيَّةِ شَيْءٌ مُطْلَقًا، إِذَا كَانَ لَهَا وَجُودٌ فِي الْوَاقِعِ، كَالْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَأَزْوَاجِ الْمَوْتَى مِنَ الصَّالِحِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَشْيَاءٍ أَوْ أَحْيَاءٍ، وَإِلَّا فَهِيَ أَوْهَامٌ وَتَخِيلَاتٌ بَاطِلَاتٌ.

وهذه العبارة تدلُّ عَنْ طَرِيقِ اللَّزُومِ الذَّهْنِيَّ عَلَى مَطْوِيٍّ فِي اللَّفْظِ مُلَاحَظٍ فِي الذَّهْنِ بَعْدَ عِبَارَةِ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أَي: اْعْبُدُوا اللَّهَ وَوَحْدُوهُ فِي الْعِبَادَةِ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، لِأَنَّهُ: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

● ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾:

﴿الْمِكْيَالُ﴾: وَيَجْمَعُ عَلَى «مَكَايِلٍ» وَعَاءٌ خَاصٌّ يَتَعَارَفُ النَّاسُ عَلَى مَقْدَارٍ مَعَ يَسْتَوْعِبُ فِي فِرَاغِهِ، تَكَالٌ بِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَوْضَعُ فِيهِ لِمَعْرِفَةِ مَقَادِيرِ حُجُومِهَا، جَامِدَةٌ كَانَتْ أَمْ سَائِلَةٌ. وَقَدْ يُرَادُ بِالْمِكْيَالِ الْكَثِيلُ.

﴿وَالْمِيزَانُ﴾: وَيَجْمَعُ عَلَى «مَوَازِينٍ» آلَةٌ تُوزَنُ بِهَا الْأَشْيَاءُ لِمَعْرِفَةِ مَقَادِيرِ ثِقَلِهَا. وَقَدْ يُرَادُ بِالْمِيزَانِ الْوَزَنُ.

وَيُطْلَقُ لَفْظُ «الْمِيزَانِ» أَيْضًا عَلَى الْوَاحِدِ مِنَ السَّنَجِ الَّتِي تُوضَعُ بِإِخْدَى كِفْتَيْهِ، لِيُوزَنَ عَلَى مَقْدَارِهَا فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى.

وَقَدْ دَلَّ نَهْيُ شَعِيبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهُ عَنْ نَقْصِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ، عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْقُصُونَ فِي مَعَايِيرِ مَكَايِلِهِمْ وَمَوَازِينِهِمْ، فَيَجْعَلُونَ مِكْيَالًا نَاقِصًا يَكِيلُونَ بِهِ لِلنَّاسِ، وَهُوَ مُشَابِهٌ فِي الصُّورَةِ لِلْمِكْيَالِ الصَّحِيحِ، الَّذِي يَكِيلُونَ بِهِ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ، وَقَدْ يَكِيلُونَ لِأَنْفُسِهِمْ بِمَكَايِلَ زَائِدَةٍ عَلَى الْمَكَايِلِ الصَّحِيحَةِ الْمَتَعَارَفِ عَلَيْهَا. وَيَجْعَلُونَ مَوَازِينَ تَنْقُصُ مِنْ مَقْدَارِ الْحَقِّ الَّذِي لِلنَّاسِ، فَيَزِنُونَ لَهُمْ بِهَا، وَمَوَازِينَ أُخْرَى وَافِيَةٌ أَوْ زَائِدَةٌ يَزِنُونَ بِهَا لِأَنْفُسِهِمْ، هِيَ مُشَابِهَةٌ فِي الصُّورَةِ لِلْمَوَازِينِ الصَّحِيحَةِ.

ولمّا كانت أعمالهم هذه من أَكْثَلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، كان من عناصر نُضْجِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دَعْوَتِهِ لَهُمْ، أَنْ يَنْهَاهُمْ عَنِ النِّقْصِ فِي الْمِكْيَالِ، وَعَنِ النِّقْصِ فِي الْمِيزَانِ.

وَسَبَقَ فِي النَّصِّ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (الشعراء) بَيَانُ أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ:

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْمَسْتَقِيمِ ﴿٨٢﴾﴾.

وَمُؤَدَّى الْعِبَارَاتِ وَاحِدٌ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِبَرَاعَتِهِ الْبَيَانِيَّةِ يُنَوِّغُ لَهُمْ فِي الْعِبَارَاتِ، ابْتِعَاداً عَنِ التَّكْرِيرِ الْمُتَطَابِقِ.

وَعَلَى كُلِّ الْأَحْوَالِ فَإِنَّ الْبَيَانَ الْقِرَائِيَّ لَا تَكْرِيرَ فِيهِ، لِأَنَّهُ يُعْبَرُ عَنِ الْوَاقِعِ الْمُتَكَرِّرِ الَّذِي كَانَ فِي خُطْبِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَحَادِيثِهِ وَنَصَائِحِهِ لِقَوْمِهِ.

● ﴿إِنِّي أَرْزُقُكُمْ بِخَيْرٍ﴾: أَي: إِنِّي أَرَاكُمْ بِسَعَةٍ وَنِعْمَةٍ وَوَفْرَةٍ مِنَ الرِّزْقِ، فَلَا دَافِعَ لَكُمْ لِتَأْكُلُوا أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ إِلَّا الطَّمَعُ فِي الشَّرَاءِ الْوَاسِعِ مِنْ أَمْوَالِ الضُّعَفَاءِ، وَأَهْلِ السَّدَاجَةِ الَّذِينَ لَا يَكْتَشِفُونَ حِيلَ الْمُتَحَايِلِينَ، وَتَلَاعِبَاتِ الْمُتَلَاعِبِينَ.

وهؤلاء المتحايلون المطففون يستهيئون بظلم عباد الله والعُدوانِ على حقوقهم.

● ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾:

عَذَابُ هَذَا الْيَوْمِ الْمَحِيطِ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَذَابُ يَوْمٍ مِنَ أَيَّامِ الدُّنْيَا، كَالْأَيَّامِ الَّتِي أَهْلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا وَعَذَّبَ مُجْرِمِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ عَذَابُ يَوْمِ الدِّينِ، بَعْدَ الْبَغْثِ لِلْحِسَابِ وَقَضَلِ الْقَضَاءِ وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ.

وَلَا مَانِعَ مِنْ خَلِّ الْعِبَارَةِ عَلَى هَذَيْنِ الْمَعْنَيْنِ مَعاً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقد جاء في هذه العبارة وُضِفَ هذا اليوم بالإحاطة، لإغلامهم بأنه يومٌ لا بُدَّ أَنْ يُذْرِكَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بالعذاب، إِذْ أَزْمَانَ ذَلِكَ الْيَوْمِ المحيط بهم مَمْلُوءَةٌ بأحداثٍ تَغْذِيهِمْ، وبوسائل تَغْذِيهِمْ، وَزَمَانُهُ جَارٍ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لا مَحَالَةَ.

بخلاف ما لو كانت الإحاطة وَضْفًا للعذاب، فقد يُتَوَهَّمُ معها أَنَّ الْعَذَابَ الَّذِي يُحِيطُ بِالْقَوْمِ قَدْ لَا يُصِيبُ بَعْضَ أَفْرَادِهِمِ الْمُتَخَلِّلِينَ فِي الْوَسْطِ.

فَوُضِفَ يَوْمِ الْعَذَابِ بِالْإِحَاطَةِ بِهِمْ أُبْلِغُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْجُو مِنْهُمْ أَحَدٌ.

● ﴿وَيَقَوْمِ أَتُوفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٨٥).

﴿بِالْقِسْطِ﴾: أي بِالْعَدْلِ، وهو التَّسَاوِي بين حَقِّ صَاحِبِ الْحَقِّ، وَبَيْنَ مَا يُؤَدَّى إِلَيْهِ. الْعَدْلُ: هو إعطاء كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

دَلَّتْ هذه الْفَقْرَةُ عَلَى أَنَّ شُعْبِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَدْ كَانَ يُكَرِّرُ عَلَى قَوْمِهِ النَّهْيَ عَنْ رَذِيلَةِ النِّقْصِ فِي الْمِكَايِلِ وَالْمَوَازِينِ بِعِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وَأَضَافَ هَذَا النَّصَّ عِبَارَةً: ﴿بِالْقِسْطِ﴾: أي: أَتُوفُوا الْكَئِيلَ وَالْمِكْيَالَ وَالْوَزْنَ وَالْمِيزَانَ وَفَاءً مُتَّصِفًا بِالْقِسْطِ.

وَكُرِّرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى قَوْمِهِ عِبَارَتَيْنِ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ و﴿وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لِأَنَّهُمَا مِنَ الْكَلِمَاتِ اللَّاتِي يَخْسُنُ تَكَرُّرُهَا لِتَرْسِخِهَا، وَبَنَاءِ الْفُرُوعِ عَلَيْهَا.

فَالْعِبَارَةُ الْأُولَى قَدْ جَاءَتْ فِي النَّصِّ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (هُود).

وَالْعِبَارَةُ الثَّانِيَّةُ قَدْ جَاءَتْ فِي النَّصِّ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (الْعَنْبُكُوتِ) وَالنَّصُّ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (هُود).

وقد سَبَقَ تَدَبُّرُ هَاتَيْنِ الْعِبَارَتَيْنِ .

● ﴿يَقِيْتُ اللَّهَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ :

[الْبَقِيَّةُ]: مَا يَبْقَى مِنَ الشَّيْءِ، وَبَقِيَّةُ اللَّهِ هِيَ مَا يُبْقِيهِ اللَّهُ لِعَبْدِهِ مِنْ خَيْرٍ عاجِلٍ أَوْ آجِلٍ، فالعاجِلُ من الرِّزْقِ، مَا يَنْتَفِعُ بِهِ الْإِنْسَانُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالْآجِلُ مِنْهُ لِيَوْمِ الدِّينِ، مَا ادَّخَرَهُ اللَّهُ وَأَبْقَاهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، يَتَّالُونَهُ فِي جَنَاتِ النَّعِيمِ رِزْقًا خَالِدًا، غَيْرَ مَقْطُوعٍ وَلَا مَمْنُوعٍ .

دَلُّ هَذَا الْمَوْجِزُ الْقِرَائِيُّ عَلَى أَنَّ شُعَيْبًا عَلَى السَّلَامِ قَدَّمَ بَيَانًا إِقْنَاعِيًّا لِقَوْمِهِ، بِأَنَّ مَا يُبْقِيهِ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ رِيحٍ أَذِنَ لَهُمْ بِهِ فِي تِجَارَاتِهِمْ، وَبِيعِهِمْ وَشِرَائِهِمْ وَسَائِرِ مَجَالَاتِ كَسْبِ الرِّزْقِ، وَمَا يُبْقِيهِ لَهُمْ مِنْ ثَوَابٍ جَزِيلٍ عَلَى طَاعَتِهِمْ لِزَبَّاهُمْ، وَاسْتِقَامَتِهِمْ عَلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، خَيْرٌ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

أَمَّا مَا يَأْكُلُونَهُ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ بوسائلِ التَّطْفِيفِ فِي الْمَكَائِلِ وَالْمَوَازِينِ، وَبَخْسِ النَّاسِ أَشْيَاءَهُمْ، وَالْعُثُوفِ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، فَسَيَمَحُقُهُ اللَّهُ، وَيَمَحُقَ مَعَهُ بَعْضَ حَلَالِ أَمْوَالِهِمْ، مَعَ مَا يُلَاقُونَهُ مِنْ عَذَابٍ بِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ مِنْ عَذَابٍ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ فِيهِ بِالْعَذْلِ يَوْمَ الدِّينِ .

﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ : أَي: إِن كُنْتُمْ سَتُؤْمِنُونَ بِمَا أَذْعُوكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، وَتَعْمَلُونَ بِمَا يُوجِبُهُ عَلَيْكُمْ إِيْمَانُكُمْ .

فَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا فَإِنَّ نُصْحِي لَنْ يَنْفَعَكُمْ شَيْئًا، وَتَسْتَسْمِرُونَ عَلَى ظُلْمِكُمْ وَعُدْوَانِكُمْ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ، وَعَلَى قَبَائِحِكُمْ وَمُنْكَرَاتِكُمْ .

● ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (٨٤) :

الحَفِظُ: الْقَائِمُ بِعَنَاءٍ عَلَى حِرَاسَةِ وَصِيَانَةِ مَا هُوَ مَسْئُولٌ عَنْ حِفْظِهِ، وَالْقَائِمُ بِإِدَاءِ حُقُوقِهِ بِأَمَانَةٍ، دُونَ خِيَانَةٍ مَا، وَالْمَوَاطِبُ عَلَى الْقِيَامِ بِرِعَايَتِهِ،

وَفِعْلٍ مَا يَجِبُ فِعْلُهُ، وَاجْتِنَابٍ مَا يَجِبُ تَرْكُهُ، مِنْ كُلِّ مَا يَقْتَضِي حِفْظَهُ سَالِماً، لَا يَتَعَرَّضُ لَضَرٍّ أَوْ أَذًى، مِمَّا يَمْلِكُ رَدُّهُ أَوْ دَفْعُهُ أَوْ تَحْوِيلُهُ.

كَحَارِسِ قَطِيعِ الْأَغْنَامِ أَوْ الْأَبْقَارِ الْقَائِمِ بِصِيَانَتِهَا، وَعَمَلِ كُلِّ مَا يَقْتَضِي سَلَامَتَهَا، وَلَوْ بِإِكْرَاهِهَا، وَسَوْفَهَا بِشِدَّةٍ إِلَى مُوَاطِنِ سَلَامَتِهَا وَحِفْظِهَا مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ.

فَالْحَفِيزُ مُكْرَهُ مُجْبَرٌ سَائِقٌ أَوْ قَائِدٌ، يَصُونُ وَيَحْمِي وَيُؤَدِّي وَظَائِفَ حِفْظِ مَا يَرَعَاهُ بِكُلِّ أَمَانَةٍ، وَعَلَى مِقْدَارِ مَا يَسْتَطِيعُ.

فَقَوْلُ شَعِيبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيزٍ﴾ * معناه: وَمَا أَنَا مُرْسَلٌ إِلَيْكُمْ لِأَكُونُ مُسَيِّطِراً عَلَيْكُمْ، أَخْفَظُكُمْ بِسُلْطَانِ الْجَبْرِ وَالْإِكْرَاهِ، مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، إِنَّمَا أَنَا مُبَلِّغٌ فَقَطْ رِسَالَةَ رَبِّي إِلَيْكُمْ.

وهذا الذي أَبَانَهُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ، قَدْ أَبَانَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي عِدَّةٍ نُصُوصٍ:

● فَقَالَ لَهُ فِي سُورَةِ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيزًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٧٧).

● وَجَاءَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ أَيْضاً أَنَّ الرَّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ قَالَ لِقَوْمِهِ: وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيزٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا مُبَيِّنًا بَعْضَ مَقَالَاتِهِ لِقَوْمِهِ:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيزٍ﴾ (١٠٤).

● وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِشَأْنِ إِعْرَاضِ قَوْمِهِ عَنْ دَعْوَتِهِ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيزًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ...﴾ (٤٨).

● وجاء في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) قول الله عز وجل
لرسوله محمد ﷺ بشأن مَنْ يَتَوَلَّى مُذْبِرًا عَنْ دَعْوَتِهِ:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ (٨٩).

ومع أداء هذا المعنى الذي هو الأساس في عبارة شعيب لقومه:
﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ فَإِنَّ هذه العبارة تَحْمِلُ دَلَالَةً أُخْرَى، وَهِيَ أَنَّ
شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامَ أَلْمَحَ إِلَى قَوْمِهِ ضِمْنًا، أَنَّهُ مَهْمَا كَانَ رَجِيمًا بِهِمْ، حَرِيسًا
عَلَى دَفْعِ الضَّرِّ عَنْهُمْ، لِأَنَّهُمْ قَوْمُهُ وَفِيهِمْ عَشِيرَتُهُ وَرَجِمُهُ، وَهُوَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ
نَسَبًا وَلُغَةً وَمَوْطِنًا، وَمَهْمَا كَانَتْ لَهُمْ فِي قَلْبِهِ مَكَائِدٌ، وَمَهْمَا كَانَتْ لَهُ دَالَّةٌ
عَلَى رَبِّهِ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ حَفِظًا عَلَيْهِمْ، يَقِيهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، إِذَا
أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِحُكْمَتِهِ وَعَذْلِهِ أَنْ يُعَاقِبَهُمْ، وَيُنْزِلَ بِهِمْ نِقْمَتَهُ وَعَذَابَهُ.

إِنَّمَا يَقِيهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِيْمَانُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ لِرَبِّهِمْ، وَاتِّبَاعُهُمْ مَا أُنْزِلَ
إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ.



رابعاً:

ثُمَّ إِنَّ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ شَدَّدَ وَأكَّدَ وَزَادَ فِي مَقُولَاتِهِ لِقَوْمِهِ، فَقَالَ
لَهُمْ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بقول الله عز
وجل فيها:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَعْبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا
الْإِنْسَانَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا
نَكَرَكُمُ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٦).

● قرأ الكِسائي وأبو جعفر: [مِنْ إِلَهِ غَيْرِهِ] بِكَسْرِ الرَّاءِ.

وقرأ باقي القراء العشرة: [مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ] بِضَمِّ الرَّاءِ.

وقد سبق أكثر من مرّة توجيه هاتين القراءتين.

● قرأ قُنبُل، ورؤيس، وقرأ بالإشمام خَلَفَ عَنْ حَمْزَةِ [سِرَاطِ]

بالسين. وقرأ باقي القراء العشرة: [صِرَاطِ] بالصاد.

سِرَاط وِصِرَاط، لغتان عَرَبِيَّتان في نطق هذه الكلمة.

● ﴿وَلِإِنَّ مَدِيْنَتَهُمْ شَعِيْبًا﴾: هذه الجملة بدايةً للرّبط بما قبلها

في السّورة، وتوطئة لازمة للحديث عن شعيب وقومه، فتكريرها تَسْتَدْعِيهِ الحاجةُ في التّصُّ للرّبط والتوطئة.

وقد سبقَ تَدْبُرُ نظيرها.

● ﴿قَالَ يَنْفَقِرُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾:

هذه العبارة قد سبق نظيرها، وتكريرها ممّا تَدْعُو حاجةُ الدّعوة الرّشيّدةِ إليه، لأنّها من أوّليات فروع عناصرِ القاعدةِ الإيمانية، الّتي استمرَّ قَوْمُ شعيب على الكفر بها حتّى إهلاكهم، فكان من الحكمة أن يُكْرَرْها عليهم في دَعْوَتِهِ.

وقد سبقَ تَدْبُرُها في بعض النصوص السابقة في هذا الملحق، فلا حاجة إلى إعادة البيان التفصيلي حولها.

● ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾:

﴿بَيِّنَةٌ﴾: صفةٌ لموصوف محذوف لفظاً مُرَادٍ في المعنى. والبيّنةُ

في اللّغة هي الواضحة الظاهرة، الّتي لا شكّ فيها، ولا غموض، ولا غَبْشَ عليها، من «بَانَ الشَّيْءُ يَبِينُ بَيَانًا» أي: اتّضَحَ، فهو «بَيِّنٌ» وهي «بَيِّنَةٌ».

وَقَدْ أُطْلِقَتِ الْبَيِّنَةُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْوَاضِحَةِ، وَعَلَى الرِّسُولِ، وَعَلَى الصُّحُفِ الْمُنَزَّلَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَلَى الْآيَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ الْوَاضِحَاتِ الْجَلِيَّاتِ الشَّاهِدَاتِ عَلَى أَنَّ مِنْ أَجْرَاهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ صَادِقٌ فِي ثُبُوتِهِ وَرِسَالَتِهِ وَفِيمَا يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ.

وَالْمَرَادُ بِالْبَيِّنَةِ هُنَا عَلَى مَا يَظْهَرُ، مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ آيَاتِ الصُّحُفِ أَوْ الْكِتَابِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى رِسَالَاتِ اللَّهِ الَّتِي كَانَ يَتْلُوهَا عَلَى قَوْمِهِ، مُبَلِّغًا إِيَّاهَا عَنْ رَبِّهِ كُلَّمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا. وَمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ آيَاتٍ مُعْجَزَاتٍ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ رَسُولٌ لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ، مُؤَيَّدٌ مِنْهُ بِمَا يُثَبِّتُ ثُبُوتَهُ وَرِسَالَتَهُ.

● ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ :

هَاتَانِ الْقَضِيَّتَانِ اللَّتَانِ جَاءَتَا فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ، هُمَا مِنْ مَقُولَاتِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَكْرَرَاتِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الْبَيِّنَاتِ السَّابِقَاتِ الْمَعْبَرَاتِ عَنْ مَقُولَاتِهِ لِقَوْمِهِ.

وَالدَّاعِي إِلَى تَكْرِيرِهَا فِي الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ، الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ كَانَ يُكَرِّرُهَا فِي بَيِّنَاتِهِ لِقَوْمِهِ، فِي خُطْبِهِ وَأَحَادِيثِهِ وَنَصَائِحِهِ وَجَدَلِيَّاتِهِ وَتَحْذِيرَاتِهِ وَإِنْدَارَتِهِ، لِأَنَّهُمْ قَدْ اسْتَمَرُّوا عَلَى مِمَارَسَاتِهِمْ فِي ظُلْمِ النَّاسِ وَالْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ، بِإِخْسَارِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ، وَبِخَسِ النَّاسِ أَشْيَاءَهُمْ.

وَقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرَ نَظِيرِ هَذَا الْبَيَانِ، فَلَا حَاجَةَ لِلإِعَادَةِ، إِلَّا أَنَّ وَجُودَ «الْفَاءِ» هُنَا فِي [فَأَوْفُوا] قَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ رَتَّبَ هَذَا الْبَيَانَ تَرْتِيبًا عَقْلِيًّا مَنْطِقِيًّا عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ جَاءَتْهُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ذَاتُ بُرْهَانٍ دَامِغٍ عَلَى أَنَّهُ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ مَبْعُوثٌ لَهُمْ لِهَدَايَتِهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، وَهَذِهِ الْبَيِّنَةُ الدَّامِغَةُ تَقْطَعُ كُلَّ عُذْرٍ يُمَكِّنُ أَنْ يَغْتَذِرُوا بِهِ لَدَى رَبِّهِمْ، فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ يَوْمَ الدِّينِ، أَوْ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عُذْرًا يَمْنَعُ إِنْزَالَ الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ عَلَيْهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

فَهَذِهِ الْفِكْرَةُ مِنَ الْإِضَافَاتِ الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا هَذَا الْبَيَانُ ، وَلَا يُوجَدُ نَظِيرٌ لَهَا فِي سَائِرِ النُّصُوصِ .

● ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ :

لَقَدْ تَكَرَّرَتْ فِي النُّصُوصِ السَّابِقَةِ عِبَارَةُ: ﴿وَلَا نَعْتَوُا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ باعتبار أنها من الكُلِّيَّاتِ الْكُبْرَى الَّتِي يَخْسُنُ تَكَرُّيْرُهَا لِتَرْسِيخِهَا، إِذْ تَتَفَرَّغُ عَنْهَا فُرُوعٌ كَثِيرَةٌ.

أَمَّا هَذِهِ الْعِبَارَةُ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ فَإِنَّهَا لَمْ تَرِدْ فِي سَائِرِ النُّصُوصِ الْخَاصَّةِ بِشُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ، إِلَّا أَنَّهَا تَدْخُلُ فِي عُمُومِ ﴿وَلَا نَعْتَوُا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

وَلَعَلَّ الدَّاعِيَ إِلَى ذِكْرِهَا هُنَا فِي النَّصِّ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (الأعراف) التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ قَوْمَ شُعَيْبٍ قَدْ كَانَ مِنْ مُنْكَرَاتِهِمْ وَشَنَاعَاتِهِمْ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا، كَحَرْقِ مَزَارِعِ خُصُومِهِمْ، وَإِتْلَافِ مَحَاصِلِهِمُ الزَّرَاعِيَّةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَاحْتَاجَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى تَخْصِيصِ هَذَا الْإِفْسَادِ بِالذِّكْرِ فِي بَيَانَاتِهِ الْمَتَأَخِّرَةِ الَّتِي نَهَاهُمْ فِيهَا عَنْ جَرَائِمِ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ.

الفساد في اللغة: التَّلَفُّ وَالْعَطْبُ، وَتَحَوُّلُ الشَّيْءِ مِنْ كَوْنِهِ صَالِحاً نَافِعاً، إِلَى كَوْنِهِ غَيْرَ صَالِحٍ وَلَا نَافِعٍ، بَلْ رُبَّمَا يَصِيرُ ضَارّاً كَرِيهاً مُفْسِداً لِلْأَشْيَاءِ الصَّالِحَةِ.

والإفساد: الْإِتْلَافُ، وَتَخْوِيلُ الشَّيْءِ عَنْ صَلَاحِهِ، وَقَدْ يَصِلُ إِلَى جَعْلِ الشَّيْءِ ضَارّاً كَرِيهاً مُفْسِداً لِلْأَشْيَاءِ الصَّالِحَةِ.

وَقَدْ سَبَقَ تَفْصِيلُ أَنْوَاعِ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ.

● ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨٥) :

المشارُ إليه باسم الإشارة ﴿ذَلِكَكُمْ﴾ الأوامِرُ والنَّوَاهِي الَّتِي جَاءَتْ فِي سَوَاقِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ فِي النَّصِّ.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: أَي: أَغْظَمُ وَأَكْبَرُ فِي جَلْبِ الْخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ لَكُمْ، وَتَحْقِيقَ مَا تُحِبُّونَ فِي عَاجِلِ أَمْرِكُمْ وَآجِلِهِ، إِنْ كُنْتُمْ سَتُؤْمِنُونَ بِبَيِّئَاتٍ وَرُسُلًا، وَتُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، فَتَعْمَلُونَ بِهِ، وَتَطَبِّقُونَهُ بِالْعَمَلِ بِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ، وَبِاجْتِنَابِ مَا يَنْهَاكُمْ عَنْهُ.

أَمَّا مَا تَتَصَوَّرُونَ أَنَّكُمْ تَخْضَلُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ، كَزِيَادَةِ أَرْبَاحٍ وَمَكَاسِبٍ عَاجِلَةٍ، وَاسْتِمْتَاعَاتٍ تَسْتَمْتِعُونَ بِهَا، بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَهِيَ قَلِيلَةٌ ضَائِلَةٌ فِي عَاجِلِ حَيَاتِكُمْ، وَتَجْلُبُ لَكُمْ شَرًّا عَظِيمًا، وَعَذَابًا أَلِيمًا فِي آخِرَتِكُمْ، وَرُبَّمَا فِي دُنْيَاكُمْ أَيْضًا، إِذَا اقْتَضَتْ حُكْمَةُ اللَّهِ ذَلِكَ.

● ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾:

مَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْعِبَارَةُ، هُوَ مِنَ الْقَضَايَا الَّتِي أَضَافَهَا شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي بَيَانَاتِهِ الدَّعَوِيَّةِ اللَّاحِقَاتِ، وَمَوَاعِظِهِ وَنَصَائِحِهِ لِقَوْمِهِ، عَلَى مَا كَانَ قَدْ اِهْتَمَّ بِتَوْجِيهِهِ لَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ.

وَفِي هَذَا النَّهْيِ مِنْ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ، دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ مِنْ قَبَائِحِهِمُ الْعَدَوَانِيَّةِ الظَّالِمَةِ الْأَثِمَةَ، أَنَّهُمْ كَانُوا يُرَابِطُونَ فِي الطَّرِيقَاتِ الْعَامَّاتِ الْوَاسِعَاتِ، الَّتِي يَجْتَازُهَا السَّابِلَةُ، وَيَمُرُّ مِنْهَا الْمَسَافِرُونَ، وَيَخْتَارُونَهَا لِمَا فِيهَا مِنْ أَمْنٍ بِحَسَبِ عَادَةِ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ فِي بُلْدَانِهِمْ وَطَرِيقَاتِ أَرْضِيهِمْ، فَيَقْطَعُ أَصْحَابُ مَذِينٍ أَوْ جُنُودُهُمْ وَزَبَانِيَّتُهُمْ عَلَيْهِمُ الصَّرَاطَ، وَيُكَلِّفُونَهُمْ دَفْعَ إِتَاوَاتٍ وَمُكُوسٍ ظَالِمَةٍ، لَا تَخْضَعُ لِلْأَنْظِمَةِ الْمُتَعَارَفِ عَلَيْهَا بَيْنَ الشُّعُوبِ، حَتَّى يَأْذَنُوا لَهُمْ بِالْاجْتِيَازِ وَالْمُرُورِ، وَإِلَّا كَانُوا غُرُضَةً لِمَا يَكْرَهُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ، أَوْ مَمْتَلَكَاتِهِمْ، مِنْ ضَرٍّ أَوْ أَدَى، وَسَلْبٍ وَنَهْبٍ وَمَصَادِرَاتٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَيَتَهَدَّدُونَهُمْ وَيَتَوَعَّدُونَهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾: المراد بالقعود الذي نهاهم عنه رسولهم شعيب عليه السلام، المرابطة والتربص لقطع الصراط على المازين من المجتازين والمسافرين، من غير قومهم، وربما كانوا من ضعفاء قومهم أيضاً. الصراط والسرّاط: الطريق الواضح، الذي يسلكه في العادة من يريد أن يكون آمناً.

﴿تَوَعَّدُونَ﴾: أي: تنهّدون وتوعدّون باستخدام القوة المسلّحة، للإكراه وإنزال المصائب القبيحة.

● ﴿وَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾:

﴿وَصُدُّونَ﴾: أي: وتمنعون وتضرفون.

﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾: سبيل الله هو دين الله الذي اصطفاه لعباده.

والمعنى: وتمنعون وتضرفون عن دين الله عز وجل من آمن بهذا الدين الذي بلغتكم آياته عن ربي.

أما من لم يؤمن بعد في هذه المرحلة من مراحل دعوة شعيب عليه السلام لقومه، فهو على طريقتهم وميلتهم، وصار فيما يظهر ميؤوساً من إيمانه، باستثناء القلة الذين لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا مستقبلاً.

● ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: أي: وتبغون السبيل التي تسلكونها سبيلاً عوجاً، على وفق أهوائكم وشهواتكم ورغباتكم التي لا تتحقّق إلا بالظلم والعُدوان، والفسق والفجور والعُصيان، للرّب الملك الدّيان.

إنّ سالك السبيل العوج لا بد أن ينحرف إلى متعرجات السبيل الهابطة إلى حضيض الفساد والظلم الاجتماعي، وسخط الله وغضبه ونقمته وعذابه.

العوج: بكسر العين، عدم الاستقامة في الأشياء المعنوية، وقد يُطلق على عدم الاستواء في الأرض.

● ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا نَّكَرْتُمْ﴾: نَصَحَ شُعَيْبٌ قَوْمَهُ بِهَذِهِ العبارة، أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِتَكْثِيرِ أَعْدَادِهِمْ فِي مُدَّةٍ وَجِيزَةٍ، حَتَّى صَارُوا ذَوِي قُوَّةٍ وَبَأْسٍ يَتَسَلَّطُونَ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، وَقَدْ كَانُوا قَلَّةً ضَعَفَاءَ بَيْنَ الْمَضْرِيِّينَ، وَالْفَلَسْطِينِيِّينَ، وَعَرَبِ الْحِجَازِ. وَأَبَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ أَنَّ هَذِهِ النُّعْمَةَ تَسْتَدْعِي مِنْهُمْ أَنْ يُؤَدُّوا وَاجِبَ الشُّكْرِ عَلَيْهَا لِرَبِّهِمْ، بِالْإِيمَانِ بِهِ إِيْمَانًا صَحِيحًا صَادِقًا، وَبِعِبَادَتِهِ وَخَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِطَاعَتِهِ جَلًّا جَلَالُهُ فِي أَوَامِرِهِ، وَفِي نَوَاهِيهِ.

● ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾:

أي: وَانْظُرُوا نَظَرَ تَفَكُّرٍ وَاتِّعَاطٍ، بِأَحْوَالِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الَّتِي طَعَتْ وَبَغَتْ وَافْسَدَتْ فِي الْأَرْضِ، وَكَذَّبَتْ رَسُولَ رَبِّهَا، كَيْفَ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَذْلِهِ عَاقِبَتَهَا هَلَاكًا لِأَخْيَانِهَا، وَدَمَارًا لِمَسَاكِينِهَا وَمُمْتَلَكَاتِهَا، وَفِي هَذَا الْعِقَابِ الْعَاجِلِ دَلَالَةٌ عَلَى مَا سَتَلْقَاهُ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الدِّينِ.

وَيُظْهِرُ أَنَّ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَشَارَ ضَمْنًا فِي عِبَارَتِهِ الْعَامَّةِ هَذِهِ إِلَى مَا حَصَلَ لِقَوْمٍ لُوِطَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ، لِقُرْبِ زَمَانِهِمْ وَأَرْضِهِمْ مِنْ زَمَانِ مَدْيَنَ وَأَرْضِهِمْ.



الفصل الثاني

مرحلة الجدليات بين قوم شعيب عليه السلام وبينه

جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قول الله عز وجل:

﴿قَالُوا يَشْعَبُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٨٧) قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْكُمْ

عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَتَقْوِمُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴿٩١﴾

● قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [أَصْلَاتُكَ] بالإفراد.

وقرأ باقي القراء العشرة: [أَصْلَوَاتُكَ] بالجمع.

والمؤدّي في القراءتين واحد، فلفظ «صلاة» بالإفراد اسم جنس، وهو مضاف لضمير المخاطب، فهو يعمّ كلّ صلواته.

● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [شِقَاقِي أَنْ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القراء العشرة [شَاقِي أَنْ] بإسكان ياء المتكلم مع المد في الوصل.

والقراءتان وجهان لثُطِّي ياء المتكلم.

دلّ هذا النص من سورة (هود) على أنّ قَوْمَ شُعَيْبٍ عليه السّلام لَجَّؤُوا أَوَّلَ الْأَمْرِ، إلى استخدام مجادلته حَوْلَ مَا يَدْعُوهم إليه من تَوْحِيدِ اللَّهِ فِي عِبَادَتِهِ، وَتَرْكِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ شِرْكَائَاتٍ مُورُوثَةٍ، وَحَوْلَ مَا كَانَ يَأْمُرهم بِهِ مِنْ إِيفَاءِ الْكَئِيلِ وَالْوَزْنِ، وَالْوَزْنِ بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَعَدَمِ ظُلْمِ النَّاسِ بِالنَّقْصِ فِي الْكِيلِ وَالْمِكْيَالِ، وَالْوَزْنِ وَالْمِيزَانِ، لِيَأْكُلُوا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَمَا كَانَ يَنْهَاهم عَنْهُ مِنْ بَخْسِ النَّاسِ أَمْوَالَهُمْ.

وقد كان شعيب عليه السّلام يُصَلِّي لِلَّهِ عَلَى وَفْقِ الصَّلَاةِ الْمورُوثَةِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السّلام فِي قَوْمِهِ، وَالتّي أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهَا، وَكَانَ قَوْمُهُ يَرَوْنَ مِنْهُ هَذِهِ الْمُحَافِظَةَ عَلَى الصَّلَاةِ التّي بَقِيَتْ لَدَى بَعْضِهِمْ

مظاهرها، مع شِزَكِيَّاتٍ أَخَذَتْهَا فِي عِبَادَاتِهِمْ، كَمَا كَانَ حَالُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ الْغَرَبِيَّةِ، قَبْلَ بَغْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا.

وَكَانَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعْرُوفًا فِي قَوْمِهِ، قَبْلَ أَنْ يَنْعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى قَوْمِهِ رَسُولًا، بِالْتَّمِيزِ مِنْ دُونِ سَائِرِ أَفْرَادِ قَوْمِهِ بِأَنَّهُ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ.

الْحَلِيمُ: ذُو الْأُنَاةِ، الْقَادِرُ عَلَى ضَبْطِ نَفْسِهِ عِنْدَ الْغَضَبِ، أَوْ عِنْدَ حُلُولِ مَكْرُوهِ بِهِ، وَالَّذِي يَغْقِلُ بِإِرَادَةِ قُوَّةِ نَوَازِعِ نَفْسِهِ، عَنْ أَنْ تَذْفَعَهُ إِلَى مَا لَا يُحْمَدُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَالَّذِي يَغْفُو وَيَصْفَحُ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ.

الرَّشِيدُ: ذُو السُّلُوكِ الْفَكْرِيِّ وَالنَّفْسِيِّ وَالْخُلُقِيِّ الْمَوْافِقِ لِلْحَقِّ وَالصُّوَابِ، أَوْ لَمَّا هُوَ الْأَفْضَلُ وَالْأَخْسَنُ، وَالْأَكْثَرُ نَفْعًا، وَالْأَبْعَدُ عَنِ الضَّرَرِ.

قالوا له ست مقولات، ثلاث منها مُصَرَّحٌ بها في النص، وثلاث منها مطويات في مثنائه:

المقولات المصرح بها في النص:

﴿قَالُوا يَنْشُعِبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٨٧):

في هذه الآية تلخيصٌ لِثَلَاثِ مَقُولَاتٍ جَدَلِيَّةٍ قَالَهَا قَوْمُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ.

المقولة الأولى: ذَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾!؟

لفظ الصلاة مستعملٌ هُنَا فيما هو معروفٌ في كُلِّ الرِّسَالَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ وَالشُّعُوبِ الَّتِي فِيهَا بَقَايَا مِنْ دِينِ رَبَّانِيٍّ، وَهِيَ الصَّلَاةُ ذَاتِ الْقِيَامِ وَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالتَّلَاوَاتِ وَالْأَذْكَارِ وَالْأَدْعِيَةِ، فَهِيَ عِبَادَةٌ مَحْمُودَةٌ عِنْدَ كُلِّ

الشعوب حتى الشعوب الوثنيّة، فليست عبارة قوم شعيب هذه له عبارة استهزاء به، وليست بمعنى مطلق القراءة، وليست بمعنى الدّين، ولا غير ذلك من تأويلات مذكوراتٍ في كتب التفسير.

والاستفهام في هذه العبارة استفهام تعجّبي إنكاريّ منهم، أنّ يكون من أهل المُحافظة على عبادة ربّه بالصلاة، وأنّ ينهَى مع ذلك قومه عن عباداتٍ هي من الموروثات لديهم التي يرون أنّها حقّ ونافعة لهم، فأباؤهم كبار السنّ الهرمون يغبدون آلهة من دون الله، وهم قد ورثوا هذه العبادات عن الذين ماتوا من آبائهم، أفيعقل أن تكون هذه العبادات الموروثات عبادات باطلات، وأباؤهم الهرمون يغبدونها، وكان آباؤهم من قبلهم كذلك، وهم ورثوا الدّين عن جدّهم الأعلى إبراهيم عليه السّلام.

هذا الأسلوب التعجّبي الإنكاريّ نجده لدى كثير من الناس، حين يتصدّى مثلاً داع من الدّعاة، أو ناصح من الناصحين، ذو التزام بمقتضيات التقوى، فينهاهم عمّا هو مألوف لهم معتاد لديهم من المحرّمات، كشرّب الخمر، وممارسة الزّنا، أو غير ذلك من الفواحش، فيقولون له: أتقواك تأمرُك بأنّ تنهانا عمّا هو موزون لدينا، يمارسه كبار آبائنا، وقد ورثوه عن الذين ماتوا من آبائهم؟!.

لقد اعتبروا عبادة آبائهم لآلهة من دون الله حجة يصح أن يحتج بها العقلاء، مع أنّ هذه الحجة باطلة ساقطة، لأنّ أفعال النّاس وتقاليدهم مهمّا تواطؤوا عليها، ليست في الواقع البشري حجة على الحقيقة التي تُثبتها البراهين العقلية.

فقد يكون الناس قد تأثروا بضلالات المضلّين، الذين زيّنوا لهم الباطل فراؤوه حقّاً، أو تأثروا بأوهام لا أساس لها من الحقيقة، لقلّة علمهم وانتشار الجهل بينهم، فهم بذلك لا يهتدون إلى الحق والصواب، فيقعون

في ضَلَالَاتٍ فِكْرِيَّةٍ أَوْ سُلُوكِيَّةٍ، ثُمَّ تَكُونُ مَوَارِيثَ فِي قَوْمِهِمْ، أَوْ دَعَتْهُمْ إِلَى مِمَارَسَاتِهِمُ الْبَاطِلَةَ أَهْوَاؤُهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَرَغْبَاتُهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ كَانَتْ مَوَارِيثَ فِي قَوْمِهِمْ.

المقولة الثانية: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾.

أي: أَوْ صَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَنْهَانَا عَنْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ؟!

مُرَادُهُمْ يُمْكِنُ التَّغْيِيرُ عَنْهُ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى: إِنَّا حِينَمَا نَبَادِلُ النَّاسَ فِي مَعَامِلَاتِنَا، فَإِنَّا نَأْخُذُ مِنْهُمْ وَنُعْطِيهِمْ بِحَسَبِ مَا لَدَى كُلِّ مِثْلٍ مِنْ مَهَارَاتٍ وَاخْتِيَالَاتٍ، فَتَحْنُ نَتَصَرَّفُ مَعَهُمْ بِحَسَبِ قُدْرَاتِنَا وَمَهَارَاتِنَا وَاخْتِيَالَاتِنَا، وَهُمْ يَتَصَرَّفُونَ مَعَنَا فِي تَعَامُلِهِمْ بِحَسَبِ قُدْرَاتِهِمْ وَمَهَارَاتِهِمْ وَاخْتِيَالَاتِهِمْ.

إِنَّهُمْ يَفْعَلُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ مَا يَشَاءُونَ، وَنَحْنُ نَفْعَلُ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ.

فَكَيْفَ تَنْهَانَا عَنْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ؟!!

إِنَّ هَذَا لَأَمْرٌ عَجِيبٌ يَتَنَافَى مَعَ مُقْتَضِيَّاتِ صَلَوَاتِكَ الَّتِي تُصَلِّيُهَا عِبَادَةٌ لِرَبِّكَ.

المقولة الثالثة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾:

أَرَى أَنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى الْإِسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِي، بِحَذْفِ أَدَاةِ الْإِسْتِفْهَامِ، أَيْ: أَلَيْسَ الْمَعْرُوفُ فِينَا قَبْلَ أَنْ تَدَّعِيَنَّ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَنَا بِأَنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ فِي قَوْمِنَا؟! فَكَيْفَ تُشَدِّدُ عَلَيْنَا فِي النَّهْيِ عَنْ عِبَادَةِ مَا يَغْبُدُ آبَاؤُنَا الْوَارِثُونَ لِهَذِهِ الْعِبَادَاتِ عَنْ آبَائِهِمْ وَتُشَدِّدُ عَلَيْنَا فِي الْإِنْكَارِ، وَتَكْثُرُ نَهْيُنَا عَنْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ؟!

إِنَّ هَذَا يَتَنَاقَضُ مَعَ مَا عُرِفَ عَنْكَ فِي قَوْمِنَا بِأَنَّكَ الْمَتَفَرِّدُ مِنْ بَيْنِنَا بِصِفَةِ الْحِلْمِ مِنْ أَعْلَى الدَّرَجَاتِ، وَبِالرَّشْدِ مِنْ أَعْلَى الدَّرَجَاتِ، حَتَّى صَارَ يُقَالُ لَكَ: إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ الْمَتَمِّيزُ الْأَوْحَدُ بِغَايَةِ صِفَتَيْ الْحِلْمِ وَالرَّشْدِ.

فما الذي جرى لَكَ حتَّى صِرْتَ تَتَصَرَّفُ تَصَرُّفَاتٍ لَيْسَ فِيهَا حِلْمٌ وَلَا رُشْدٌ؟! . ما بَالُ شَخْصِيَّتِكَ النَّفْسِيَّةِ قَدْ تَبَدَّلَتْ وَتَغَيَّرَتْ، حتَّى صِرْتَ غَيْرَ حَلِيمٍ وَلَا شِيدٍ، وَانْفَرَدْتَ بِمَفْهُومَاتٍ وَأَقْوَالٍ خَاصَّةٍ، مُنَاقِضَةٍ لِمَفْهُومَاتٍ عُقْلَاءَ قَوْمِكَ، وَأَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ؟! .

لَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْمَقُولَةَ مِنْهُمْ تَدُلُّ عَلَى أَحَدِ اِحْتِمَالَيْنِ:
الاحتمال الأول: أَنَّهُمْ يَقُولُونَهَا عَلَى سَبِيلِ الْمَغَالِطَةِ وَالْمُخَادَعَةِ لَجَمَاهِيرِهِمْ، حتَّى يَتَأَثَّرُوا بِأَقْوَالِهِمُ الْجَدَلِيَّةِ.

الاحتمال الثاني: أَنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا إِلَى غَايَةِ انْطِمَاسِ الْبَصِيرَةِ، بِتَأْثِيرِ اتِّبَاعِهِمْ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَشَرَّهِمْ لِلْإِثْرَاءِ وَلَوْ بِالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ، وَبِتَأْثِيرِ الْمَحَافِظَةِ الْعَصْبِيَّةِ عَلَى تَقْلِيدِهِمُ الْأَعْمَى لِآبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ.

وهذا الانطِمَاسُ فِي بَصَائِرِهِمْ جَعَلَهُمْ يَغْمُونَ عَنْ إِذْرَاكِ الْبَدَهِيَّاتِ، حتَّى صَارُوا يَرَوْنَ الْبَاطِلَ حَقًّا وَالْحَقَّ بَاطِلًا.

المقولات المطويات في مثنائي النص:

وقالوا له مقولاتٌ أُخْرَى طَوَّاهَا النَّصُّ فِي مِثْلَانِيهِ، وَلَكِنْ يُمْكِنُ كَشْفُهَا وَاسْتِخْرَاجُهَا بِالنَّظَرِ التَّأْمُّلِيِّ فِي إِجَابَاتِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ، الْمَصْرُوحِ بِهَا فِي النَّصِّ.

فالمقولة الرابعة: وَهِيَ مِنَ الْمَطْوِيَّاتِ فِي الْمِثْلَانِيِّ: إِنَّكَ يَا شُعَيْبُ ذُو مَالٍ كَثِيرٍ، فَكَيْفَ جَمَعْتَهُ؟ . لَا بُدَّ أَنَّكَ مِنَ الَّذِينَ يَجْمَعُونَ أَمْوَالَهُمُ الْكَثِيرَةَ سِرًّا بِالْوَسَالِ الَّتِي تَنْهَانَا عَنْهَا.

والمقولة الخامسة: وَهِيَ أَيْضًا مِنَ الْمَطْوِيَّاتِ فِي الْمِثْلَانِيِّ: إِنَّكَ تُرِيدُ بَدْعَوَتِكَ الَّتِي جِئْتَنَابَهَا، أَنْ تَكُونَ سَيِّدًا ذَا سُلْطَانٍ عَلَيْنَا، تُلْزِمُنَا بِمَا تَشَاءُ بِأَوْامِرِكَ وَنَوَاهِيكَ، وَتُكْرِهُنَا عَلَى طَاعَتِكَ.

والمقولة السادسة، وهي أيضاً من المطويات في المثاني: هَلْ أَنْتَ ضَامِنٌ أَنْ تُحَقِّقَ مَا تُرِيدُ بِخَطَابَاتِكَ، وَأَحَادِيثِكَ، وَجَدَلِيَّاتِكَ، وَأَنْتَ فِينَا ضَعِيفٌ لَا تَمْلِكُ قُوَّةَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُلْزِمُنَا بِهَا بِمَا تُرِيدُ مِنَّا، وَنَحْنُ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ بِكَ وَلَا بِمَا جِئْتَنَا بِهِ؟.

فأجابهم شعيب عليه السلام على مقولاتهم الست بإجاباتٍ محكمات.

الإجابة الأولى: وَقَدْ اكْتَفَى بِهَا لِلرَّدِّ عَلَى مقولاتهم الثلاث المصرِّح بها في النص:

● ﴿قَالَ يَفْقَهُوْا أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّي ۖ﴾!؟:

أي: قَالَ لَهُمْ: يَا قَوْمِ أَفَكَّرْتُمْ وَتَدَبَّرْتُمْ وَوَضَعْتُمْ فِي رُؤْيَيْكُمْ الْفِكْرِيَّةَ اخْتِمَالَ أَنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي، مُعْتَصِمٌ بِهَا، وَمُسْتَمْسِكٌ بِالْاِعْتِمَادِ عَلَيْهَا؟.

فإذا ثبت لديكم هذا الاحتمال الذي تنكروونه الآن، أَوْ تَشْكُونَ فِيهِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيٍّ فِيمَا أَمْرُكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدِّهِ، لَا تُشْرِكُونَ بِهِ مَعْبُوداً آخَرَ؟. أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيٍّ فِيمَا أَنَّهَُاكُمْ عَنْهُ مِنَ التَّطْفِيفِ فِي الْكِيلِ وَالْوَزْنِ، وَمِنْ بَخْسِ النَّاسِ أَشْيَاءَهُمْ، وَاتِّخَاذِكُمْ الْحِيلَ لِتَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَفِيمَا أَنَّهَُاكُمْ عَنْهُ مِنَ الْعُدْوَانِ عَلَى النَّاسِ، إِذْ تَقْعُدُونَ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ، وَفِيمَا أَنَّهَُاكُمْ عَنْهُ مِنَ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ؟؟.

أخبروني ما هُوَ مَوْفَقُكُمْ مِنْ هَذَا الاحتمال، أليس هُوَ اخْتِمَالاً مُمَكِّناً أَنْ يَكُونَ؟؟.

صَعُوبَةُ هَذَا الْاِخْتِمَالِ فِي أَذْهَانِكُمْ وَفَكَّرُوا فِيمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ بِمَنْطِقِ الْعَقْلِ، لَا بِمَنْطِقِ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى، وَالْمَصْلَحَةِ الْخَاصَّةِ، دُونَ بَصِيرَةِ فِكْرِيَّةٍ.

فإذا قَبِلْتُمْ بِرُؤْيَيْكُمْ الْفِكْرِيَّةَ إِمْكَانَ وَجُودِ هَذَا الْاِخْتِمَالِ، فَاسْأَلُونِي عَنِ الْبَيِّنَةِ الَّتِي أَنَا مُعْتَمِدٌ عَلَيْهَا، وَمُتَمَكِّنٌ مِنْهَا أَجْبِكُمْ، حَتَّى أَثْبِتَ لَكُمْ بِالْبَرَاهِينِ

القاطعة أَنَّ ما أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، وَمَا آمُرُكُمْ بِهِ هو الحقُّ من ربكم، وهو الْخَيْرُ لَكُمْ، وهو ما يقتضيه العقل السليم، والمصلحة الاجتماعية للجميع.

وإن شئتم معجزةً خارقةً تُشْهَدُ لِي بِأَنِّي نَبِيٌّ وَرَسُولٌ صَادِقٌ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّي وَرَبِّكُمْ إِلَيْكُمْ، فَإِنِّي أَسْأَلُ رَبِّي أَنْ يَشْهَدَ لِي بِأَنِّي رَسُولُهُ حَقًّا وَصِدْقًا، بِإِجْرَاءِ مُعْجِزَةٍ خَارِقَةٍ كَمَا أَجْرَى لِعِيزِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ.

البَيِّنَةُ: هي هنا البراهين الواضحة، أو الآيَةُ والمعجزةُ الباهرة.

لقد عرض شعيبٌ عليه السلام على قومه احتمال أن يكون على بَيِّنَةٍ واضحة من رَبِّهِ، واستعداده التَّام لأن يُقَدَّمَ لَهُمْ هَذِهِ الْبَيِّنَةُ، إِذَا كَانَ لَدَيْهِمُ الاستعداد لقبولها، على الرُّغْمِ مِنْ أَنَّ ما يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ هو من الأمور الَّتِي تُدْرِكُ الْعُقُولُ صِحَّتَهَا، وَأَنَّهَا حَقٌّ وَخَيْرٌ بِالْبُدَاهَةِ، أو مع تفكير قليل ليس فيه إِجْهَادٌ لِلْأَذْهَانِ.

الإجابة الثانية: من شعيب عليه السَّلام على مقولة قومه الرابعة المطوية في مَثَانِي النَّصِّ: إِنَّكَ ذُو مَالٍ كَثِيرٍ فَكَيْفَ جَمَعْتَهُ؟ لَا بُدَّ أَنَّكَ مِنَ الَّذِينَ يَجْمَعُونَ أَمْوَالَهُمُ الْكَثِيرَةَ سِرًّا بِالْوَسَائِلِ الَّتِي تَنْهَانَا عَنْهَا.

فكان جوابُهُ عليه السلام:

● ﴿وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَّا مَا أَنْتَهُكُمْ عَنْهُ﴾:

أي: لَمْ أَتَجَاوَزْ فِي كَسْبِ مَا لَدَيَّ مِنْ أَمْوَالٍ حُدُودَ مَا أَذِنَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي اِكْتِسَابِهَا. فَمَا رَزَقْنِي مِنْهُ كُلُّهُ رِزْقٌ حَسَنٌ لَا مَعْصِيَةَ لِلَّهِ فِيهِ، وَلَا عُذْوَانٌ فِيهِ عَلَى أَحَدٍ، وَكُلُّهُ حَلَالٌ طَيِّبٌ قَدْ بَارَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ، فَلَمْ أَعْمَلْ فِيهَا سَبَقَ عَمَلًا نَهَيْتُكُمْ وَأَنْهَاكُمُ عَنْهُ.

وَمَا أُرِيدُ الْآنَ وَلَا مُسْتَقْبَلًا أَنْ أَقْصِدَ الشَّيْءَ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَى اجْتِنَابِهِ وَالانْصِرَافِ عَنْهُ.

يقال لغة: خَالَفَكَ فَلَانَ إِلَى كَذَا، أَي: قَصَدَهُ وَأَنْتَ مُنْصَرَفٌ وَمُتَوَلٍّ عَنْهُ، وَيُقَالُ: خَالَفَ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ إِلَى مَكَانٍ كَذَا، إِذَا قَصَدَ هَذَا الْمَكَانَ بَعْدَ أَنْ انْصَرَفَ صَاحِبُهُ عَنْهُ.

قال الزمخشري: يَلْقَاكَ الرَّجُلُ صَادِرًا عَنِ الْمَاءِ، فَتَسْأَلُهُ عَنْ صَاحِبِهِ، فَيَقُولُ: خَالَفَنِي إِلَى الْمَاءِ، يُرِيدُ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ إِلَيْهِ وَارِدًا، وَأَنَا ذَاهِبٌ عَنْهُ صَادِرًا.

أقول: إِذَا كَانَتْ وَفَرَةُ الْمَالِ الَّتِي عِنْدَ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْإِنْعَامِ، فَإِنَّ تَرْبِيَةَ الْإِنْعَامِ الَّتِي تَأْكُلُ مِنَ الْكَلَاءِ الْمَبَاحِ، قَابِلَةٌ لِأَنْ تَجْعَلَ مَالَكُمَا ذَا ثَرَاءٍ وَاسِعٍ جَدًّا بَنَحُو عَقْدٍ فَأَكْثَرَ مِنَ السِّنِينَ، إِذَا بَارَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَوَالِيدِهَا وَأَصَوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَشُعُورِهَا.

وَإِذَا كَانَتْ وَفَرَةُ الْمَالِ الَّتِي عِنْدَهُ مِنَ الزَّرَاعَةِ، فَمِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي عَطَائِهِ لِبَعْضِ عِبَادِهِ، أَنْ يُبَارِكَ لَهُمْ بِهَا، حَتَّى يُنْبِتَ مِنَ الْحَبَّةِ الْوَاحِدَةِ سَبْعَ سَنَابِلٍ، وَيَجْعَلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِثْلَ حَبَّةٍ، وَبَسَوَاتٍ مَعْدُودَاتٍ يَكُونُ الَّذِي بَارَكَ اللَّهُ لَهُ بِزَارَعَتِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ مَالًا، دُونَ أَنْ يَلْجَأَ إِلَى أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ.

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وَجْهِهِ يَبَارِكُ اللَّهُ بِهَا عَلَى عَبْدِهِ فِي الرِّزْقِ.

الإجابة الثالثة: مِنْ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى مَقُولَةِ قَوْمِهِ الْخَامِسَةِ الْمَطْوِيَّةِ فِي مِثَانِي النَّصِّ، وَهِيَ: إِنَّكَ يَا شُعَيْبُ تُرِيدُ بِدَعْوَتِكَ الَّتِي جِئْنَا بِهَا أَنْ نَكُونَ سَيِّدًا ذَا سُلْطَانٍ عَلَيْنَا، تُلْزِمُنَا بِمَا نَشَاءُ بِأَمْرِكَ وَنَوَاهِيكَ، وَتُكْرِهُنَا عَلَى طَاعَتِكَ.

فَكَانَ جَوَابُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى مَقُولَتِهِمْ هَذِهِ:

• ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾:

أي: مَا أُرِيدُ بِمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، وَأُكْرِرُ عَلَيْكُمْ بِهِ نَصَائِحِي سِيَادَةَ عَلَيْكُمْ وَلَا سُلْطَانًا، إِنَّمَا أُرِيدُ لَكُمْ الْإِصْلَاحَ، وَالْخَلَاصَ مِنَ الْفَسَادِ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ غَارِقُونَ، مَا اسْتَطَعْتُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا عَنْ طَرِيقِ الْإِقْنَاعِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَالْمَجَادَلَةِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، مِنْ غَيْرِ جَبْرِ وَلَا إِكْرَاهٍ.

الإجابة الرابعة: من شعيب عليه السلام على مقولة قومه السادسة المطوية في مَثَانِي النَّصِّ، وهي: هَلْ أَنْتَ طَامِعٌ أَنْ تَبْلُغَ مَا تُرِيدُ بِخَطَابَاتِكَ وَأَحَادِيثِكَ وَمَوَاعِظِكَ، وَجَدَلِيَّاتِكَ، وَأَنْتَ فِينَا ضَعِيفٌ لَا تَمْلِكُ قُوَّةَ تَسْتَطِيعُ بِهَا أَنْ تَبْلُغَ مَا تُرِيدُ، وَنَحْنُ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ بِكَ وَلَا بِمَا جِئْنَا بِهِ، فَدَعُ دَعْوَتَكَ هَذِهِ، إِذْ لَنْ نَسْتَجِيبَ لَكَ.

فكان جوابه عليه السلام على مقولتهم هذه وذيلوها:

● ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾:

التوفيق من الله لعبده: يكون بإلهامه الصواب، وبإعانتة، وتيسير سبيله، للعمل بما يحقق له النتيجة التي ترضيه مما يسعى له مما هو له خير، مع تسديده في خطوات سعيه.

أي: وما إصابتي الرُّشْدَ في قَوْلِي وفي عَمَلِي إِلَّا بِمَعُونَةِ اللَّهِ وَعَطَائِهِ وَتَسْدِيدِهِ.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: أي: عَلَيْهِ وَخَذَهُ تَوَكَّلْتُ، اسْتَفِيدَ الْقَضْرُ مِنْ تَقْدِيمِ الْمَعْمُولِ [عَلَيْهِ] عَلَى عَامِلِهِ [تَوَكَّلْتُ].

التوكل على الله: هو الاستسلام إليه، والاعتماد عليه، وتفويض تدبير الأمور إليه، لتحقيق ما يَرْجُو المتوكل، مع قيامه بالأسباب المستطاعة له المادية والمعنوية طاعةً لأوامره ونواهيه.

[وَالِإِلَيْهِ أُنِيبُ]: أي: وَإِلَيْهِ أَرْجِعُ فِي أُمُورِي كُلِّهَا. يقال لغة: أُنَابَ،

إِذَا رَجَعَ. وَالْمَنِيبُ إِلَى اللَّهِ، هُوَ ذُو الرُّجُوعِ إِلَيْهِ دَوَامًا بِقَلْبِهِ وَنَفْسِهِ وَفِكْرِهِ.

والمعنى: وما تَسْدِيدِي فِي خُطُواتِ سَعْيِي لتبليغِ رسالاتِ رَبِّي إِلَّا بِمَعُونَةِ اللَّهِ وإلهامه وقضائه وَقَدَرِهِ، فإذا قَدَّرَ ذَلِكَ لي وقضاه حَقَّقَ لي ما عَزَمْتُ عليه إرادتي، وحَقَّقَ لي الغاية الَّتِي أَرَجُوها، وإِلَّا فَلَهُ الأَمْرُ كُلُّهُ، وهو العليم الحكيم.

وإِنِّي فِي قِيامي بوظائف رسالتي الَّتِي كَلَفَنيها رَبِّي مُسْتَسْلِمٌ وَمَفَوَّضٌ تَذْبِيرِ أُمُوري إِلَيْهِ، مع قِيامي بالأسباب المادية والمعنوية الَّتِي أَسْتَطِيعُها. وإِنِّي أَرْجِعُ إِلَيْهِ دَوَامًا فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُوري مَهْمَا جَدَّ فِيها جَدِيدٌ، على توالي الأَزمان المتتالية.



ثُمَّ رَأَى شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهُ يُصْعَدُونَ مِنْ مَوَاقِفَ عِدَائِهِمْ لَهُ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، فَوَجَّهَ لَهُمُ التَّحذِيرَ مِنْ أَنْ تَحْمِلَهُمْ مَعَادَاتُهُمْ وَمُشَاقَّتُهُمْ لَهُ، على الإصرار على شِرْكِياتِهِمْ، وازتكاب جرائمِهِمُ الاجتماعيَّةِ العدوانيَّةِ الظَّالِمَةِ، الَّتِي تَجْعَلُهُمْ يَسْتَحِقُّونَ بِسَبَبِها الإِهْلَاكَ الشَّامِلَ الَّذِي أَصَابَ الْأَقْوامَ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِمْ، فقال لَهُمُ:

﴿وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ ثُوْجٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٩):

﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: أي: لَا يَحْمِلَنَّكُمْ، وفي اختيار هذا الفعل رائحةُ اكْتِسَابِ جُزْمٍ، فاختِيرَ في العبارة اختياراً ملائماً، وجاء تأكيد الفعل بنون التوكيد الثقيلة.

﴿شِقَاقٍ﴾: الشَّقَاقُ: الخِلَافُ، والعِدَاءُ الَّذِي يَكُونُ مَعَهُ المَعَادِي فِي شِقِّ مُضَادٍّ لِشِقِّ عَدُوِّهِ، وفي جِهَةٍ وَناحِيَةٍ مُبَايِنَةٍ لِجِهَتِهِ وَناحِيَتِهِ.

أي: لَا يَحْمِلَنَّكُمْ مَا فِي نفوسِكُمْ مِنْ مخالفَتِي ومُعَادَاتِي حتَّى ظهر في أعمالكم الاستعداد والتهيؤ للانتقام مِنِّي ومن الذين آمنوا بي واتَّبَعُونِي، على الإصرار على الباطل الذي تُؤْمِنُونَ به، والإضرار على الجرائم التي ترتكبونها والقيام بأعمال إجرامية ضِدَّنَا، فهذا الإصرار سَيَسَبِّبُ لكم استحقاق الإهلاك الشامل الذي استحقَّه المهلكون السابقون من قبلكم، وفصلَ لهم عليه السلام بإطْطَابِ الأقوام الذين أَهْلَكُوا مِن قبلهم فقال لهم:

﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ وَخَصَّ ذَكَرَ قَوْمٍ لُوطٍ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِّنْكُمْ يَبْعِدُ﴾ أي: وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ يَبْعِدِينَ عَنْكُمْ زَمَانًا فِي الماضي، ولا مكانًا فِي الأرض.

بَعِيد: على وزن «فَعِيلٌ بِمعْنَى فاعِلٍ» عومل معاملة مَا يَسْتَوِي فِيهِ المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، إذا كان بِمعْنَى «مَفْعُولٍ» مثل «جَرِيحٍ». وَقَدْ جاءَ فِي القرآنَ نظيرَ هذا الاستعمال فِي: «كثير - قليل - ظهير - رَفِيق» ونحوها مع أنها بِمعْنَى اسمِ الفاعل، لا بِمعْنَى اسمِ المفعول.

والمعنى: فاخْذَرُوا أَنَّ يُصِيبَكُم مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ من إغراقٍ شامل أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ به، أو أَنَّ يُصِيبَكُم مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ هُودٍ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، أو أَنَّ يُصِيبَكُم مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ صَالِحٍ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِالصُّيْحَةِ الَّتِي رَافَقَتْهَا زَلْزَلَةٌ وَصَاعِقَةٌ، أو أَنَّ يُصِيبَكُم مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ لُوطٍ الْقَرِيبِينَ مِنْكُمْ زَمَانًا وَمَكَانًا، الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِجَحَارَةٍ من سِجِّيلٍ وَبِصُيْحَةٍ وَبِرَّكَانٍ قَلَبَ بِهِ اللَّهُ أَرْضَهُمْ فَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا.

وتابع شعيب عليه السلام نُصَحَهُ لِقَوْمِهِ، رَحْمَةً بِهِمْ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ، فقال لهم:

• ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ﴿٩٦﴾:

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾: أي: وادعوا رَبَّكُمْ طَالِبِينَ مِنْهُ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ مَا سَبَقَ أَنْ أَزْتَكِبْتُمْ مِنْ شُرُكِيَّاتٍ وَجَرَائِمٍ وَأَثَامٍ.

﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ الاستغفار الصادق الَّذِي تَطَمَّيْنُ إِلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، جَاهِدُوا أَنْفُسَكُمْ جِهَادًا شَاقًّا فِي زَمَنٍ طَوِيلٍ، حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى رَبِّكُمْ، بِالْقِيَامِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَبِتَرْكِ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الْمُتَأَصِّلَةِ فِي عَادَاتِكُمْ، شَيْئًا فَشَيْئًا، مُتَحَمِّلِينَ مَشَقَّاتٍ مُخَالَفَةٍ عَادَاتِكُمْ، وَمُصَارَعَةً أَهْوَائِكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ، وَالتَّغَلُّبَ عَلَى عَقَبَاتِ نَفْسِكُمْ وَاقْتِحَامَهَا.

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾: فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ الْمُتَضَمِّنَةِ الثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ بِأَنَّهُ رَحِيمٌ وَدُودٌ، إِطْمَاعٌ لَهُمْ بِأَنْ لَا يَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ مَهْمَا أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا وَيَتُوبُوا، وَبِأَنْ لَا يَقْنَطُوا مِنْ أَنْ يُحِيطَهُمُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بِوُدِّهِ، إِذَا اسْتَغْفَرُوا ثُمَّ تَابُوا إِلَيْهِ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْإِسْقَامَةِ عَلَى صِرَاطِهِ الَّذِي أَبَانَهُ لِعِبَادِهِ، فِيمَا أَنْزَلَ عَلَى رُسُلِهِ.

[رَحِيمٌ]: صِيغَةُ تَكْثِيرٍ لِاسْمِ الْفَاعِلِ «رَاحِمٌ» أَي: ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ بِالْعَةِ الْغَايَةِ. وَالرَّحْمَةُ: صِفَةُ نَفْسِيَّةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، تُثَبِّتُهَا لَهُ عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَمِنْ آثَارِهَا الْغُفْرَانُ وَالْعَفْوُ، وَالْعَطَاءُ وَالْمَعُونَةُ، وَالتَّوْفِيقُ فِي الْأُمُورِ، وَإِزَالَةُ الْبُؤْسِ وَالْمَكَارِهِ، وَالْإِمْدَادُ بِمَا يَسْرُ، وَبِمَا تَسْكُنُ بِهِ النَّفْسُ، وَيُطَمِّئُنْ بِهِ الْقَلْبُ، وَيُمْتَعُ ذَا الْحَيَاةِ بِمَا يَطِيبُ لَدَيْهِ، وَيَهْبُهُ مَا يُلَبِّي حَاجَاتِهِ، وَيَكْفُ عَنْهُ الشَّرَّ وَالضَّرَّ وَالسُّوءَ وَالْأَذَى، وَيَهْدِيهِ إِلَى مَا فِيهِ خَيْرُهُ وَسَعَادَتُهُ فِي عَاجِلِ أَمْرِهِ وَآجِلِهِ، وَيُبَيِّنُ لَهُ مَا فِيهِ شَرٌّ لَهُ وَضَرٌّ وَأَذَى لِيَجْتَنِبَهُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

[وَدُودٌ]: صَبْغَةُ تَكْثِيرٍ لِاسْمِ الْفَاعِلِ مِنْ فِعْلِ «وَدَّ». الْوُدُّ نَوْعٌ مِنَ الْحَبِّ الْهَادِيءِ الثَّابِتِ النَّافِعِ. وَالْوُدُّ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنَى، فَمَنْ وَدَّهُ اللَّهُ أَفَاضَ عَلَيْهِ مِنْ نِعَمِهِ بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ، وَادَّخَرَ لَهُ السَّعَادَةَ الْعَظِيمَى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.



الفصل الثالث

مَرَحَلَةُ اضْطِهَادٍ وَتَهْدِيدٍ مِنْ قَوْمِ شَعِيبَ لَهُ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَجَدَالٍ مُنْطَقِي مِنْ شَعِيبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ دِفَاعاً عَنْهُمْ

جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عز وجل:

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَعِيبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَافِرِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَعْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شَعِيبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَيْرُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

دلّ هذا النص على لجوء ذوي السلطان من كفار قوم شعيب، إلى اضطهاد الذين آمنوا به واتبعوه، بذريعة الدفاع عن موروثاتهم الدينية، انتصاراً لدين الله الموروث عن جدّهم إبراهيم عليه السلام، فتصدّى شعيب عليه السلام للدفاع عن المؤمنين بأسلوبه القائم على مُجَرَّد رفع الصّوت بالإقناع الفكريّ والمجادلة بالتي هي أحسن، فقال عليه السّلام لذوي السلطان من كفار قومه:

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

الطائفة: تُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ فَأَكْثَرُ مِنَ الْجَمَاعَةِ، أَوِ الْقَوْمِ، أَوِ الْأُمَّةِ، وَتُطْلَقُ أَيْضاً عَلَى الْجَمَاعَةِ، وَعَلَى الْفِرْقَةِ.

عبارة شعيب عليه السلام هذه، تدلّ على أن أهل مدين قد وصلوا بَعْدَ أطوارٍ متصاعدة في الشدّة، إلى طورٍ إيقاف انتشار دعوة رسولهم بالقوّة، ومواجهة الذين آمنوا به واتبعوه بالقمع والاضطهاد.

ويظهر أنهم تَدَرَّعُوا للقيام بأعمالِ القمع بذرائعٍ تَعْتَمِدُ على خِدَاعٍ دينيٍّ، زاعمينَ أنَّ من حَقَّهم لحماية دينهم الموروث عن آبائهم، إلى جَدِّهم إبراهيم عليه السلام، أن يَمْنَعُوا بالقُوَّةِ الَّذِينَ آمَنُوا بِشُعَيْبٍ عن اتِّباعه والدَّعْوَةِ إلى دينه، متجاهلين الشريكيات والتحريفات الضَّالَّات الباطلات، في المفهومات الاعتقاديَّة وفي الأحكام الشرعيَّة التي دَخَلَتْ إلى دينهم.

فقال لهم شُعَيْبٌ عليه السَّلامُ: إِنَّ كُنْتُمْ كَمَا تَزْعُمُونَ حَرِيصِينَ عَلَى حِمَايَةِ دِينِ اللَّهِ، فَاتْرُكُوا أَمْرَ نُضْرَةِ الدِّينِ لِلَّهِ، وَلَا تَجْعَلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْصِيَاءَ عَلَيْهِ، حَتَّى تَضْطَّهِدُوا مُخَالَفِيَكُمْ، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْتَصِرَ لِدِينِهِ الْحَقِّ.

فإنَّ كان الدِّينُ الْحَقُّ هُوَ نَدْعُو نَحْنُ إِلَيْهِ، أَوْ مَا تَتَمَسَّكُونَ أَنْتُمْ بِهِ، فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا، وَيُنْفِذَ حُكْمَهُ الْقَضَائِيَّ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا، لَكُمْ أَوْ عَلَيْكُمْ، وَلَا تَتَعْجَلُوا مَنَعَ دَعْوَتِنَا مِنَ الْإِنْتِشَارِ بِالْقُوَّةِ، وَلَا تَقْمَعُوا الَّذِينَ آمَنُوا بِهَا وَهُمْ مِنْكُمْ نَسَباً وَلُغَةً وَمَوْطَنًا، وَاللَّهُ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ. إِنَّ كُنَّا نَحْنُ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي يَرْضَاهُ حَكَمٌ لَنَا فَتَنْصَرْنَا فِي دَعْوَتِنَا وَأَيَّدْنَا، وَإِنْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ هُمْ عَلَى الْحَقِّ نَصَرَكُمْ وَأَيَّدَكُمْ، وَخَذَلْنَا فِي دَعْوَتِنَا.

إذا تَفَكَّرْنَا فِي قَوْلِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلامُ لِذَوِي السُّلْطَانِ مِنْ كِبَرَاءِ قَوْمِهِ: ﴿فَاصْبِرُوا﴾. وَحَلَّلْنَا مَقْتَضِيَّاتِ مَوْقِفِ الْمَوَاجَهَةِ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ: طَائِفَةِ مُؤْمِنَةٍ قَلِيلَةٍ ضَعِيفَةٍ، لَا تَسْتَطِيعُ الدِّفَاعَ عَنْ نَفْسِهَا بِقَوَاهَا الْمَادِّيَّةِ، وَطَائِفَةِ غَيْرِ مُؤْمِنَةٍ كَثِيرَةٍ، وَتَمْلِكُ مِنْ أَدَوَاتِ الْقُوَّةِ مَا تَسْتَطِيعُ بِهِ مُعَاقَبَةَ الطَّائِفَةِ الْمُؤْمِنَةِ مِنْ أَجْلِ إِيْمَانِهَا.

وإذا تَفَكَّرْنَا فِي الذَّرَائِعِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يَتَّخِذَهَا ذَوُو السُّلْطَانِ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا، وَالَّتِي يُلَايِمُهَا أَنْ يَقُولَ لَهُمُ الرُّسُولُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلامُ: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ وَجَدْنَا أَنَّ الْقَوْمَ أَرَادُوا

أَنْ يُعَاقِبُوا الْمُؤْمِنِينَ بِذَرِيَعَةِ الْإِنتِقَارِ لَدِينِ اللَّهِ الْمُرُوثِ، وَهُوَ دِينٌ مُحَرَّفٌ دَخَلَتْ فِيهِ شَرَكِيَّاتٌ، وَأَحْكَامٌ سُلُوكِيَّةٌ بَاطِلَةٌ، فَاسِدَةٌ وَمُفْسِدَةٌ مَنُشُوبَةٌ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْمُرُوثِ زُورًا وَافْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ.

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُهُمْ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنْ كَانَ أَمْرُكُمْ كَمَا تَدْعُونَ فَاتْرُكُوا أَمْرَ الدِّينِ اللَّهِ، فَهُوَ الَّذِي يَخُكُّمُ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَلَسْتُمْ أَنْتُمْ أَوْصِيَاءَ عَلَى دِينِهِ. أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَاتَّبَعُونِي فَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ رِسَالَةَ دَعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ، وَلَا يُؤْذُونَكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ، وَلَا يَقْفُونَ فِي طَرِيقِ مَصَالِحِكُمْ بِالْقُوَّةِ، إِنَّمَا يُقَدِّمُونَ لِمَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِمُ التَّضَحُّعَ فَقَطْ.

إِنَّ هَذَا الْحِوَارَ الْاِخْتِجَاجِيَّ الْجَدَلِيَّ حِوَارٌ بَارِعٌ جَدًّا مِنْ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ حِوَارٌ فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ وَالْإِلْزَامِ بِالْحُجَّةِ الدَّامِغَةِ.

وَتَأْزِمُ الْمَوْقِفَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ: فَرِيقِ شُعَيْبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَفَرِيقِ ذَوِي السُّلْطَانِ مِنْ قَوْمِهِ، الَّذِينَ عَجَزُوا عَنْ مُقَارَعَةِ الْحُجَّةِ بِمِثْلِهَا، فَوَصَلَ هَذَا الْفَرِيقُ الْأَكْثَرُ وَالْأَقْوَى مَادِيًا بِالرِّجَالِ وَالسَّلَاحِ، إِلَى طَوْرِ تَهْدِيدِ الْفَرِيقِ الْأَوَّلِ بِالْإِخْرَاجِ مِنْ أَرْضِهِمْ، أَوْ الْعَوْدَةِ عَنْ دِينِهِمْ الَّذِي آمَنُوا بِهِ، وَالْدُخُولِ فِي مِلَّةِ قَوْمِهِمْ:

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا...﴾ (٨٨) ﴿

﴿الْمَلَأُ﴾: كُبْرَاءُ الْقَوْمِ وَسَرَائِهِمُ الَّذِينَ يَمْلَأُونَ عُيُونَ الْعَامَّةِ.

﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾: هَذِهِ الْعِبَارَةُ كُنَايَةٌ عَنِ الَّذِينَ اخْتَلَوْا فِي قَوْمِهِمْ مَرَاكِزَ السُّلْطَةِ الْإِدَارِيَّةِ، فَهُمْ الَّذِينَ يُضْطَرُّونَ قَرَارَاتِ الطَّرْدِ وَالْإِنْعَادِ وَالْحِزْمَانِ مِنَ الْإِقَامَةِ فِي الْبَلَادِ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ مِنَ الْمَلَأِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِشُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ﴾: أَيُّ: لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَلَنُخْرِجَنَّ مَعَكَ الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ.

﴿مِنْ قَرِينَتَا﴾: أي: من مُجْمَعَاتِنَا السَّكْنِيَّةِ، تُطْلَقُ الْقَرْيَةُ فِي اللَّغَةِ عَلَى كُلِّ أَرْضٍ فِيهَا بُيُوتٌ وَمَسَاكِينُ مُجْتَمِعَةٌ قَلَّتْ أَمْ كَثُرَتْ، وَلَوْ بَلَعَتْ مَدِينَةً عَظِيمَةً جَدًّا.

لَقَدْ أَضْدَرَ أَصْحَابُ السَّلْطَةِ فِي مَدِينٍ قَرَارًا بِإِكْرَاهِ شُعَيْبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِدِينِهِ مَعَهُ عَلَى الْخُرُوجِ وَالْإِبْتِعَادِ عَنْ قُرَاهِمُ، وَعَنْ كُلِّ أَرْضِهِمْ وَكُلِّ شُعْبِهِمْ، أَوْ إِكْرَاهِهِمْ عَلَى الْعُودَةِ عَنْ دِينِهِمْ وَالْدُخُولِ فِي مِلَّةِ قَوْمِهِمْ، حَتَّى يَكُونُوا مُشَارِكِينَ لَهُمْ فِي مِلَّتِهِمْ عَقِيدَةً وَسُلُوكًا.

وَالْإِخْرَاجُ هُوَ مَا يُعْرَفُ فِي أَنْظِمَةِ الدُّوَلِ بِالنَّفْيِ وَالْإِبْعَادِ، وَالطَّرْدُ مِنَ الْبِلَادِ.

الْلَامُ فِي [لَتُخْرِجَنَّكَ] وَفِي [لَتَعُودُنَّ] وَاقِعَةٌ فِي جَوَابِ قَسَمِ مَنْوِيٍّ مَلَاخِظٍ ذَهْنًا، كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ فِي مِثْلِ هَذَا الْاسْتِعْمَالِ، فَالْفِعْلُ فِي كُلِّ مِنَ الْعِبَارَتَيْنِ مُؤَكَّدٌ بِقَسَمٍ مُقَدَّرٍ، وَبُنُوْنُ التَّوَكِيدِ الثَّقِيلَةِ.

لَقَدْ انْهَزَمَ كِبَرَاءُ قَوْمِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَصْحَابُ السُّلْطَةِ الْإِدَارِيَّةِ فِي مَدِينٍ، ثُجَاءَ مُنَازَرَاتِهِ وَبَيَانَاتِهِ وَجَدَلِيَّاتِهِ هَزَائِمَ فِكْرِيَّةٍ مُنْكَرَةٍ مُخْزِيَّةٍ، فَلَجَّؤُوا إِلَى قَرَارِ اسْتِعْمَالِ الْقُوَّةِ الْمَادِّيَّةِ الْمَسْلُحَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، لِلتَّخْيِيرِ بَيْنَ تَرْكِ دِينِهِمْ، وَالْدُخُولِ فِي مِلَّةِ قَوْمِهِمْ، وَبَيْنَ الطَّرْدِ وَالْإِبْعَادِ مِنَ الْبِلَادِ.

لَقَدْ وَجَّهُوا قَرَارَهُمْ بِصِيغَةٍ مُؤَكَّدَةٍ بِالْقَسَمِ وَبُنُوْنِ التَّوَكِيدِ الثَّقِيلَةِ الْلازِمَةِ لَهُ، فَهُوَ قَرَارٌ لَا رَجْعَةَ فِيهِ بِحَسَبِ تَصَوُّرِهِمْ.

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾: أي: أَوْ لَتَعُودُنَّ عَنْ دِينِكُمُ الْجَدِيدِ، الَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ، وَتَتَّبِعُونَ تَعْلِيمَاتِهِ وَلَتَدْخُلُنَّ فِي مِلَّتِنَا.

وَلَا بُدَّ أَنْ يَضْطَنِعُوا لِهَذَا نَعْلَاتٍ مِنْ فِكْرَةٍ وَجُوبِ اتِّبَاعِ الدِّينِ الْمَوْرُوثِ، وَمِنْ فِكْرَةِ الْوَحْدَةِ الْقَوْمِيَّةِ.

• ﴿قَالَ أُولَٰؤُ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهَ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ :

لَقَدْ اسْتَفَادَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنْ إِضْدَارِ ذَوِي السُّلْطَةِ الْإِدَارِيَّةِ فِي قَوْمِهِ، قَرَارَهُمْ التَّخْيِيرِيَّ بَيْنَ الْإِخْرَاجِ بِالْقُوَّةِ مِنْ أَرْضِ مَدِينٍ، وَبَيْنَ الْعَوْدَةِ عَنْ دِينِهِمُ الْجَدِيدِ، وَالْدُخُولِ فِي مِلَّةِ قَوْمِهِمْ، فَأَخَذَ جَانِبَ الْإِكْرَاهِ فِي قَضِيَّةِ الدِّينِ، لِيُتَظَاهَرَهُمْ بِشَأْنِهِ، وَلِيُقِيمَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ، بِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ فِي الْعَقْلِ، وَلَا فِي الْوَجْدَانِ، وَلَا فِي أَغْرَافِ الْحَرِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ، إِكْرَاهُ الْإِنْسَانِ عَلَى اغْتِنَاقِ دِينٍ لَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَهُوَ مُقْتَنِعٌ فِكْرِيًّا بِالْبُزْهَانِ الْقَاطِعِ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَبِسَبَبِ بُطْلَانِهِ يَكْرَهُ أَنْ يَغْتَنِّقَهُ وَيَلْتَزِمَ لَوَازِمَهُ.

فَنَظَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كُبْرَاءَ قَوْمِهِ مُنَاطِرَةً جَدَلِيَّةً مُفْجِمَةً حَوْلَ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، وَاشْتَمَلَتْ مُنَاطِرَتُهُ عَلَى ثَلَاثِ مَقُولَاتٍ جَدَلِيَّةٍ، وَأَعَقَبَهَا بِبَيَانِ ثَبَاتِهِ عَلَى مَوْقِفِهِ مِنْ دِينِهِ، مُتَوَكِّلًا عَلَى اللَّهِ، مَهْمَا كَانَتِ النَّتَائِجُ وَالتَّذْيِيرَاتُ الَّتِي يُدَبِّرُونَهَا ضِدَّهُ، وَضَدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، ثُمَّ بِدُعَاءِ سَأَلَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ أَنْ يَفْتَحَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ بِالْحَقِّ، مُثْنِيًا عَلَيْهِ بِأَنَّهُ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ.

المقولة الجدلية الأولى: دَلَّتْ عَلَيْهَا بِإِيجَازِ عِبَارَةٍ: ﴿أُولَٰؤُ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ :

أي: أَتُكْرَهُونَنَا عَلَى الْعَوْدَةِ عَنْ دِينِنَا وَالْدُخُولِ فِي مِلَّتِكُمْ، وَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ تَرَكْنَا دِينَنَا وَالْدُخُولَ فِي مِلَّتِكُمْ؟!.

إِنَّ الْكَارَةَ لِتَرْكِ الْإِيمَانِ بِقَضِيَّةٍ يُؤْمِنُ بِهَا بِقَلْبِهِ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتْرُكَهَ، إِذِ الْإِيمَانُ إِرَادَةٌ دَاخِلِيَّةٌ لَا يَغْرِفُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا صَاحِبُهَا، وَإِنَّ الْإِكْرَاهَ عَلَى الْإِيمَانِ بِقَضِيَّةٍ يَغْلُمُ الْمُكْرَهُ عَلَيْهَا أَنَّهَا قَضِيَّةٌ بَاطِلَةٌ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجِدَ إِيمَانًا بِهَا، إِذِ الْإِيمَانُ إِرَادَةٌ دَاخِلِيَّةٌ لَا يَغْرِفُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا صَاحِبُهَا.

لَكِنْ قَدْ يُكْرَهُ الْإِنْسَانُ عَلَى إِغْلَانِ الْكُفْرِ بِمَا هُوَ مُؤْمِنٌ بِهِ فِي قَلْبِهِ،
فَيُغْلِنُ ذَلِكَ وَهُوَ كَاذِبٌ، وَقَدْ يُكْرَهُ عَلَى إِغْلَانِ الْإِيمَانِ بِمَا هُوَ كَافِرٌ بِهِ،
فَيُغْلِنُ ذَلِكَ وَهُوَ كَاذِبٌ.

فعبارة: ﴿أَوَّلَوْ كُنَّا كَافِرِينَ﴾ مع ما فيها من إيجاز بالغ تدلُّ على
حقيقة من حقائق السلوك الإنساني الداخلي، وهي استحالة إكراه ذي الإرادة
الحرّة على أَنْ يَكْفُرَ بِقَضِيَّةٍ فِكْرِيَّةٍ يَرَى أَنَّهَا حَقٌّ، وهو يُؤْمِنُ بِأَنَّهَا حَقٌّ، أو
على أَنْ يُؤْمِنَ بِفِكْرَةٍ لَمْ يَقْتَنِعْ بِهَا، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يُؤْمِنَ بِهَا.

إِنَّ من الحقائق الثابتة التي لَا تَتَغَيَّرُ مَا دَامَ الْإِنْسَانُ عَلَى مَا فَطَرَهُ اللَّهُ
عليه ذا إِرَادَةَ حُرَّةً، أَنَّهُ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، إِذْ قَاعِدَةُ الدِّينِ الْحَقُّ جَوْهَرُهَا
الْإِيمَانُ الْقَلْبِيُّ بِمَبَادِئِهِ، وَالْإِيمَانُ إِرَادَةُ دَاخِلِيَّةٌ، لَا يُمَكِّنُ إِكْرَاهَ الْإِنْسَانَ عَلَى
إِيجَادِهِ أَوْ نَسْخِهِ، مَا دَامَ ذَا فِكْرٍ خَاصٍّ بِهِ، وَذَا إِرَادَةَ حُرَّةً.

بهذا المنطق العقليّ ذي الْحُجَّةِ الدَّامِغَةِ نَاقَشَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ
قَوْمَهُ.

قَدْ يُكْرَهُ الْإِنْسَانُ عَلَى الْعَمَلِ بِسُلُوكٍ ظَاهِرِيٍّ مُعَيَّنٍ، وَهُوَ لَا يُؤْمِنُ
بِصِحَّتِهِ وَلَا بِجَذْوَاهُ، فَيَنَاقِضُ فِي سُلُوكِهِ الَّذِي أُكْرِهَ عَلَيْهِ، لَكِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ
يُكْرَهَ عَلَى الْإِيمَانِ بِفِكْرَةٍ يَرَاهَا بَاطِلًا. أَوْ لَا يُرِيدُ الْإِيمَانُ بِهَا لثَلَا يُلْتَزِمَ
مَقْتَضِيَّاتُهَا فِي السُّلُوكِ.

إِنَّ الْإِيمَانُ إِرَادَةُ قَلْبِيَّةٌ تَتَضَمَّنُ اعْتِرَافًا بِفِكْرَةٍ مَا، وَينتج عنه استسلام
نَفْسِيٍّ لَهَا، ثُمَّ تَحَرُّكٌ لِلْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا.

كَذَلِكَ سَائرُ العواطف القلبية والنفسية.

وَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ لَمْ يَكُنْ رُسُلُ اللَّهِ يُكْرِهُونَ النَّاسَ عَلَى الْإِيمَانِ
بِالدِّينِ الرَّبَّانِيِّ الْحَقِّ، الَّذِي يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى تَفْهَمِ مَبَادِئِهِ الْاِعْتِقَادِيَّةِ
وَالْإِيمَانِ بِهَا بِاخْتِيَارِهِمُ الْحَرَ، وَلَيْسَ فِي آيَةِ رِسَالَةِ رَبَّانِيَّةٍ صَحِيحَةِ النِّسْبَةِ
إِلَى اللَّهِ مَا يَقْتَضِي إِكْرَاهَ النَّاسِ عَلَى الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ فِيهَا.

إنَّ الإكراه على الإيمان أو على الكفر بقضية من القضايا الفكرية من الأمور المرفوضة عقلاً وواقعاً، وكلُّ فهم على خلاف هذا فهم غير صحيح.

وإنَّ تاريخ البشرية لم يُسجَّل على أمة مؤمنة برسالة ربَّانية حقٍّ، فاهمة لمضمون دين ربِّها وحقيقته، أنَّها كانت تُكره المخالفين لها في الدين، على الإيمان بالدين الذي آمنَتْ به، إنَّما كانت تدعو إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، للإقناع الفكري، والترغيب والترهيب النفسي.

لكنَّ تاريخَ البشريَّة ملىءٌ بالشواهد الدالة على أنَّ أصحاب المذاهب والأديان التي هي من أوضاع البشر، أو من تحريفات المحرِّفين لدين ربَّانيٍّ صحيح الأصل، وكذلك سائر قادة ملل الكُفر، كانوا هم الذين يُكرهون مُخالفِيهم على ترك أديانهم، ومبادئهم ومذاهبهم، والإيمان والعمل بدين المكرهين، أو بمذاهبهم، وإلاَّ كان العذاب الشديد حتَّى الموت مصيرهم.

إنَّ من مبادئ الرِّسالاتِ الرِّبَّانيَّة كُلِّها أنَّ الدينَ لله، وأنَّه لا إكراه في الدين، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ، وَلَكِنْ مَنْ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ الْكُفْرَ فَعَلَيْهِ أَنْ يَحْمِلَ ثُجَاهَ رَبِّهِ مَسْئُولِيَّةَ اخْتِيَارِهِ الْحَرَّ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَرَقَّبَ عَذَابَ اللَّهِ الْمُعْجَلِ فِي الدُّنْيَا، إِذَا اقْتَضَتْ حُكْمَتُهُ جُلَّ جَلَالُهُ أَنْ يُذِيقَهُ شَيْئاً مِنَ الْعَذَابِ الْمُعْجَلِ. وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَرَقَّبَ عَذَابَ اللَّهِ الْمُؤَجَّلِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَهَذَا الْعَذَابُ سَوْفَ يَلْقَاهُ حَتْمًا فِي جَهَنَّمَ دَارَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ، خَالِدًا فِيهَا مُخْلَدًا، وَقَدْ أَغْدَرَ مَنْ أَنْذَرَ.

المقولة الجدلية الثانية: دلَّت عليها بإيجاز عبارة: ﴿قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلِّكُمْ بِدَ إِذْ بَخْنَا اللَّهُ مِنْهَا﴾:

لما كانت مِلَّةُ قومه أهلِ مَدينٍ فيها شركيات، وفيها استباحة ما

حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ مَا أُنْزِلَ مِنْ دِينٍ عَلَى رُسُلِهِ، كَقَطْعِ طُرُقِ النَّاسِ، وظلمهم والعدوان عليهم، وأكل أموالهم بالباطل، مع ادِّعَاءٍ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الدِّينِ الَّذِي وَرَثُوهُ عَنْ جَدِّهِمْ «مَدْيَنَ» عَنْ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّ عَوْدَةَ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ عَنْ دِينِهِمْ، وَدُخُولِهِمْ فِي مِلَّةِ قَوْمِهِمْ، يَجْعَلُهُمْ مِثْلَ قَوْمِهِمْ مُفْتَرِينَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا.

الإفتراء: اختلاق الكذب عمداً مع العلم بأنه كذب.

الملة: الدين، والشريعة، صحيحة كانت أم باطلة.

﴿بَعْدَ إِذْ يَخْتَصِمَنَّ اللَّهُ مِنْهَا﴾: «إِذْ» ظرف للزمان الماضي، وهو مضاف إلى جملة ﴿يَخْتَصِمَنَّ اللَّهُ مِنْهَا﴾: أي: بَعْدَ حِينَ تَنْجِيَةِ اللَّهِ لَنَا مِنْهَا. والمراد تنجيتهم من العقاب على اعتناقها، وهو الخلود في عذاب جهنم المقرَّرِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمَنْ كَفَرَ بِالَّذِينَ الْحَقُّ، وافترى على اللَّهِ كَذِبًا.

﴿كَذِبًا﴾ مفعول مطلق مؤكَّد لعامله: ﴿أَفْتَرَيْنَا﴾ إذ هو مرادف

للمصدر الذي هو «افتراء».

المقولة الجدلية الثالثة: دَلَّتْ عَلَيْهَا بِإِيجَازِ عِبَارَةٍ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ

نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾:

صيغة: «وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَفْعَلَ كَذَا» وأشباهاها يُؤْتَى بِهَا لِتَأْكِيدِ النَفْيِ

بأبلغ تعبير، إِذْ جَاءَ فِيهَا كَوْنٌ مَنْفِيٍّ وَيَعْدُهُ لَأَمْ الْجَحُودِ، كَمَا يَقُولُ النَحْوِيُّونَ.

والمعنى: أَنَّ عَوْدَنَا عَنْ دِينِ رَبِّنَا وَدُخُولَنَا فِي مِلَّتِكُمْ أَمْرٌ نَرْفُضُهُ رَفْضًا

قَطْعِيًّا، وَلَشِدَّةِ إِضْرَارِنَا عَلَى رَفْضِهِ نُخْبِرُكُمْ مِنَ الْآنَ بِأَنَّهُ مَا يَكُونُ لَنَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِثْلُ هَذَا الَّذِي تَطْلُبُونَهُ مِنَّا، فَهُوَ لَنْ يُوْجَدَ إِلَّا إِذَا أَرَدْنَا إِيجَادَهُ، مَا دَامَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ يُمِدُّنَا بِإِرَادَةِ حُرَّةٍ غَيْرِ مَجْبُورَةٍ، إِذْ إِنَّنَا نَخْشَى عِقَابَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ، وَهُوَ الْخُلُودُ فِي جَهَنَّمَ دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ.

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ : أي : إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا أَنْ نُظْهِرَ لَكُمْ
بِالسِّتِنَا وَبِبَعْضِ تَصَرُّفَاتِنَا مَا يُزْضِيكُمْ، لِحِكْمَةِ حِمَايَتِنَا مِنْكُمْ مُوقَّتًا بِوَقْتٍ غَيْرِ
مَدِيدٍ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، أَمَّا قُلُوبُنَا وَنَفْسُنَا فَسَتَبْقَى مُطْمَئِنَّةً
بِالْإِيمَانِ، وَأَمَّا أَعْمَالُنَا فِي السَّرِّ فَسَتَبْقَى عَلَى وَفْقِ دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ.

هذا ما فتح الله به علي في فهم هذا الاستثناء من كلام شعيب
عليه السلام، وهذا الفهم مطابق لما جاء في الإسلام بشأن مَنْ أُنْكَرَ عَلَى
أَعْلَانِ الْكُفْرِ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ.

قال الله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ
بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ﴾ (١٦).

وَقَدْ أَشْكَلَتْ عِبَارَةَ الْاسْتِثْنَاءِ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ فِي كَلَامِ شُعَيْبٍ
عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْمَفْسَرِينَ:

● فقال بعضهم: ذَكَرَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا تَأْدِيبًا مَعَ رَبِّهِ، إِذْ لِلَّهِ
الْمَشِيئَةُ الْمَطْلُوقَةُ، وَعَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يُغْلِنَ خُضُوعَهُ لَهَا دَائِمًا، وَإِنْ كَانَ مُتَيَقِّنًا
مِنْ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ لَنْ يَشَاءَ لِعِبَادِهِ أَنْ يَعُودُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِالْحَقِّ،
وَالدُّخُولِ فِي مِلَّةِ الْكَافِرِينَ.

● وفهم الجبريون من هذا الاستثناء: إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَنَا
مَجْبُورِينَ عَلَى أَنْ نَعُودَ عَنِ الْإِيمَانِ بِالْحَقِّ، وَالدُّخُولِ فِي مِلَّةِ الْكَافِرِينَ،
وَهَذَا الْفَهْمُ مَرْفُوضٌ حَتْمًا.

وما فتح الله به علي في فهم هذه العبارة، هو الحق المطابق لقواعد
الإيمان، فاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، فَلَا يُجْبِرُهُمْ عَلَيْهِ حَتْمًا،
وَلَا يَأْذُنُ لَهُمْ بِهِ حَتْمًا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ تَقِيَّةً لِسَانِيَّةً، وَبِبَعْضِ التَّصَرُّفَاتِ
الظَاهِرَاتِ، لِدَفْعِ شُرُورِ الْمَكْرِهِينَ.

مقولة ثبات شعيب على موقفه متوكلاً على الله: دلت عليها بإيجاز عبارة: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾:

﴿عِلْماً﴾ تمييز مُحَوَّل عن الفاعل، والتقدير: وَسِعَ عِلْمُ اللَّهِ فَاسْتَوْعَبَ كُلَّ شَيْءٍ، سواء أكان موجوداً أم مَعْدُوماً، ففي جُمْلَةٍ ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ ثناء على الله عز وجل بعلمه الشاملِ كُلِّ شَيْءٍ، والمحيط بِكُلِّ شَيْءٍ، والغرض من إيرادهِ التوطئة لجُمْلَةٍ: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

أي: يَا قَوْمِ إِذَا قَرَرْتُمْ إخراجي من أَرْضِكُمْ وإخراج الَّذِينَ آمَنُوا مَعِي، إِذَا لَمْ نَعُدْ عَنْ دِينِنَا وَنَدْخُلَ فِي مِلَّتِكُمْ، فَإِنَّا نُعْلِنُ لَكُمْ ثَبَاتَنَا على دِينِنَا، وَبَيِّنَاتِنَا بَيْنَكُمْ اللَّهُ الَّذِي وَسِعَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَحَاطَتْ قُدْرَتُهُ الْعَظِيمَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ بَيْنَنَا، فَإِنْ مَكَّنْكُمْ مِنْ إخراجنا وهو العليم بِنَا وَبِكُمْ، فَلِحِكْمَةٍ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يَمَكِّنْكُمْ فَهُوَ لَنَا مِنْهُ نَصْرٌ عَلَيْكُمْ، فَدَبِّرُوا مَا شِئْتُمْ، وافْعَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَإِنَّا عَلَيْهِ وَخَدَهُ تَوَكَّلْنَا.

التوكلُ على الله: الاستسلامُ إِلَيْهِ، وتَفْوِيضُ تدبيرِ الأمرِ وتحقيقِ ما يَرْجُو المتوكلُ إِلَيْهِ، مع قيامه بالأسباب المستطاعة المادية والمعنوية طاعةً لِأَمْرِهِ.

أفاد تقديم المعمول: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ على عامِلِهِ: ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ في الجملة الْقَضَرَ والحَضَرَ، أي: على الله وَخَدَهُ تَوَكَّلْنَا، فهو القادر على حمايتنا ونَصْرِنَا، وتَدْبِيرِ أُمُورِ نجاتنا وتَنفِيذِهَا بِحِكْمَتِهِ.

مقولة دُعَاءِ شعيب أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَيَبَيِّنَ قَوْمَهُ: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة:

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (٨٩):

﴿رَبَّنَا﴾: أي: يَا رَبَّنَا، حُذِفَتْ أداة النداء بالدُعَاءِ، وهو الأكثرُ استعمالاً في دُعَاءِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وفي حَذْفِهَا مَعْنَى عَدَمِ الحاجة إلى ذِكْرِهَا في اللفظ، لأنَّ الله تعالى قريبٌ من عبادِهِ، يُجِيبُ دعوة الداعي إِذَا دَعَاهُ.

﴿أَفْتَحْ﴾: الْفَتْحُ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ هُوَ الْقَضَاءُ وَالْحَكْمُ، وَيُلْزَمُ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ نَضْرُ أَوْلِيَائِهِ عَلَى خُصُومِهِمْ وَأَعْدَائِهِمْ، وَقَدْ يُرَادُ بِالْفَتْحِ النَّضْرُ وَالتَّأْيِيدُ الْعَمَلِيَّانِ.

﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾: أَي: اقض رَبَّنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا الَّذِينَ هَدَدُونَا بِالْإِخْرَاجِ، قَضَاءً بِالْحَقِّ.

إِنَّ شُعَيْباً عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَغْلُمُ عِلْمَ الْيَقِينِ، أَنَّ الْحَقَّ هُوَ مَا عَلَيْهِ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَأَنَّ قَضَاءَ اللَّهِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بِنَجَاتِهِمْ وَنَضْرِهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، لِأَنَّ الْحَقَّ بِجَانِبِهِمْ، لَكِنَّ الْأَدَبَ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الدُّعَاءِ بِالْفَتْحِ يَقْتَضِي تَقْيِيدَهُ بِالْحَقِّ، مَعَ مَا فِي هَذَا التَّقْيِيدِ مِنْ إِشْعَارٍ لِلْخُصْمِ بِأَنَّ الدَّاعِيَ لَا يَدْعُو رَبَّهُ بِأَنْ يَنْضَرَ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ، بَلْ يَدْعُوهُ بِأَنْ يَنْضَرَ الْحَقَّ عَلَى الْبَاطِلِ، وَلَوْ كَانَ الْحَقُّ بِجَانِبِ خَصْمِهِ.

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَلَّاحِينَ﴾: أَي: وَأَنْتَ يَا رَبَّنَا خَيْرَ الْحَاكِمِينَ وَالنَّاصِرِينَ، وَفِي هَذَا ثَنَاءٌ عَلَى اللَّهِ فِيهِ مَعْنَى الْاسْتِعْطَافِ لِمُجَابَةِ الدُّعَاءِ.

وَيُظْهِرُ أَنَّ شُعَيْباً عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْمَعَ قَوْمَهُ دُعَاءَهُ فَأَلْقَى الرُّغْبَ فِي قُلُوبِهِمْ.

● ﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا لِنُكَرَنَّ إِذَا لَخَيْرُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

لَقَدْ أَلْقَى دُعَاءَ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ الرُّغْبَ فِي قُلُوبِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ، وَخَافُوا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ مِثْلَ الَّذِي أَنْزَلَهُ بِالْمُهْلَكِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، قَوْمَ نُوحٍ، وَعَادٍ، وَثَمُودَ، وَقَوْمَ لُوطَ، وَكَانَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ حَذَّرَهُمْ مِنْ ذَلِكَ، فَصَرَّفُوا النَّظَرَ عَنْ تَنْفِيزِ قَرَارِ إِخْرَاجِهِ. وَتَوَجَّهُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ مُهْدِّدِينَ وَمُتَوَعِّدِينَ بِالْإِضْطِهَادِ وَالتَّعْذِيبِ حَتَّى الْمَوْتِ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾: أي: وقال الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَلَأ قومه، وهم الكبراء والأعيان الَّذِينَ يَمْلَأُونَ عُيُونَ العامة، سواء أكانوا ذوي سلطة إدارية، أم من مستشاريهم وأهل الحل والعقد فيهم، وأما أصحاب السلطة الإدارية، فقد سبق وصفهم بأنهم الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا.

ويظهر أن: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَصِفَ تقييدي. يُشْعِرُ بِأَنْ بَغَضَ مَلَأ قَوْمِهِ هم من الَّذِينَ آمَنُوا به واتبَعُوهُ.

وطَوَى النَّصَّ المواجهين بهذا الخطاب، للعلم بهم من مضمون ما خوطبوا به، فَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِشُعَيْبٍ عليه السَّلام واتبَعُوهُ.

﴿لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَيْرُونَ﴾: أي: تُقْسِمُ: لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا في إضراره عَلَى مَوْقِفِهِ الَّذِي أَغْلَنَهُ، إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ، أي: إِنَّكُمْ إِذَا لتكوُنُونَ خاسرين، إِذْ سَنَسَلُطُ عليكم من رِجَالِنَا مَنْ يُعَذِّبُكُمْ وَيَضْطَهُدُكُمْ، وَيَسْلُبُكُمْ ممتلكاتهم، حَتَّى تَصِيرُوا خاسرين كُلَّ شيءٍ، وقد تُقْتَلُونَ فَتَخْسَرُونَ الحياة، وَقَدْ تَخْسَرُونَ أَهْلِيكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ بِالتَّغْذِيبِ والتشريد والقتل.

أَكْذُوا تَهْدِيدهم بالقَسَم، فاللَّامُ في [لَئِنْ] موطئةٌ لِلْقَسَمِ المنوي ذهنًا، وَجُمْلَةٌ: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا لَخَيْرُونَ﴾ الواقعة في جواب الْقَسَمِ مُؤَكِّدَةٌ أَيْضاً بالمؤكدات: «إِنْ - والجملة الاسمية - واللَّامُ المرحلة لِلْخَبَرِ - وأعتبر (إذا) هنا من المؤكدات أَيْضاً، لأنَّ ما قَبْلَهَا مفتقرٌ لما بَعْدَهَا، فهي زائدةٌ للتأكيد».



الفصل الرابع

مرحلة تهديد قوم شعيب له باستحقاقه الرّجم لولا رَهْطُهُ فيهم

جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ مصحف/ ٥٢ نزول) قولُ الله

عز وجل:

﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَنْتَقِمُ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَنْتَقِمُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَائِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَن هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾

● قرأ نافع، وأبو عمرو، وابنُ كثير، وأبو جعفر، وابنُ ذَكْوَانَ: [أَرْهَطِي أَعَزُّ] بِفَتْحِ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ.

وقرأ باقي القُرَاءِ العشرة: [أَرْهَطِي أَعَزُّ] بِإِسْكَانِ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ مع المَدِّ في الوصل.

والقراءتان وجهان عَرَبِيَّانِ لِنَطْقِ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ.

● قرأ شعبة: [عَلَى مَكَائِكُمْ] بِالْجَمْعِ. وقرأ باقي القراء العشرة [على مَكَائِكُمْ] بِالْإِفْرَادِ. ومؤدَّى القراءتَيْنِ واحدٌ، لأنَّ اسمَ الجنس إذا أُضِيفَ إلى معرفةٍ كان بقوة الجمع.

دَلَّ هذا النَّصُّ على أَنَّ قومَ شعيب عليه السَّلام، قَدْ أَحْسَوْا بِالْعَجْزِ الْكَامِلِ عَنِ مُقَابَلَةِ حُجَجِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلامِ الْقَوِيَّةِ، بِمَا يَقِفُ مَعَهَا مَوْقِفُ النَّدِّ وَلَوْ فِي جَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ جَوْلَاتِ الصَّرَاعِ الْفِكْرِيِّ، فَلَجَّؤُوا إِلَى تَهْدِيدِهِ بِالْقَتْلِ رَجْمًا بِالْحِجَارَةِ، لَكِنَّ لَهُ رَهْطًا مِنْ عَشِيرَتِهِ لَا يُرِيدُونَ إِسْخَاطَهُمْ، وَهُمْ عَلَى مِلَّتِهِمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ بِحَسَبِ عَادَاتِهِمُ الْعَشَائِرِيَّةِ يَنْصُرُونَ شُعَيْبًا نُصْرَةً عَصِيَّةً جَاهِلِيَّةً، فَهُمْ يَحْفَظُونَ لِعَشِيرَتِهِ كَرَامَتَهُمْ.

• ﴿قَالُوا يَسْتَعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا وَمَا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾.

لَقَدْ أَوْقَفُوا المناظرة القائمة على الفكر بينهم وبينه، متهمين إيَّاهُ بأنه يقول كلاماً لا يَفْقَهُونَ كثيراً منه، فلا فائدة من مُتَابَعَةِ المناظرات الفكرية بينهم وبينه.

وفي هذه الآية إيجازٌ لِأَرْبَعِ مَقُولَاتٍ وَجَّهوها له.

المقولة الأولى: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا وَمَا نَقُولُ﴾:

أي: ما نفهم كثيراً من أقوالِكَ الَّتِي تَقُولُهَا لَنَا، فلا فائدة من متابعة الحديث الجدالي مَعَكَ، فاقطعْ كَلَامَكَ مَعَنَا. ﴿نَفَقَهُ﴾ هنا بمعنى نَفَهُمُ.

هذا القول يَدُلُّ دلالةً صَرِيحَةً على هُزُوبِهِمْ من المعركة الفكرية، بادِعَاءِ أَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ كثيراً مِمَّا يَقُولُ في مُنَازَرَاتِهِ لَهُمْ.

إِنَّهُمْ في الحقيقة مُنْهَزِمُونَ في معاركِ الفكر والمناظرة والبيان، ولهذا تَحَوَّلُوا إلى مَعْرَكَةِ الْقُوَى المَادِّيَةِ الَّتِي يَمْلِكُونَ مِنْهَا مَا لَا يَمْلِكُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ.

المقولة الثانية: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾: هذه

الجملة فيها تأكيد بثلاثة مؤكدات: «إِنَّ - الجملة الاسمية - اللَّامُ المَرْخَلَةُ إلى الخبر».

أي: نُوَكِّدُ لَكَ أَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّكَ ضَعِيفٌ فِينَا، فلا قُوَّةَ لَكَ تَسْتَطِيعُ بِهَا مُوَاجَهَةَ قُوَانَا إِذَا أَرَدْنَا قَتْلَكَ رَجْماً بالحجارة، لتَخْلَصَ مِنْكَ وَمِنْ دَعْوَتِكَ، فَقَدْ وَصَلَ أَمْرُكَ مَعَنَا إلى أَقْصَى مَا نَحْتَمِلُ مِنْكَ، وَلَمْ يَبْقَ لَنَا إِلَّا أَنْ نَخْلَصَ مِنْكَ بِوَسِيلَةٍ مَا.

وفي هذا القول تَهْدِيدٌ قَوِيٌّ لَهُ بأنهم قَدْ بَدَؤُوا يَفْكُرُونَ تَفْكِيراً جَدِّياً بِاسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ لِإِقْيَافِ دَعْوَتِهِ، خوفاً من انتشارها بين جماهيرهم.

المقولة الثالثة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾: ﴿رَهْطُكَ﴾: رَهْطُ الرَّجُلِ عَشِيرَتُهُ الْأَقْرَبُونَ فِي قَوْمِهِ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ هُنَا، وَقَدْ يَرَادُ بِرَهْطِ الرَّجُلِ قَبِيلَتُهُ، وَقَدْ يَرَادُ بِهِمْ قَوْمُهُ. ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾: أَي: لَقَتَلْنَاكَ رَجْمًا بِالْحِجَارَةِ، وَهَذِهِ عَادَةُ الشُّعُوبِ قَدِيمًا إِذَا خَرَجَ خَارِجٌ عَلَى قَوْمِهِ رَجْمُوهُ حَتَّى الْمَوْتِ.

فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ إِعْلَانُ غَايَةِ الْعَدَاءِ، إِذْ فِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ قَدْ وَصَلَ إِلَى حَالَةٍ يَسْتَحِقُّ فِيهَا أَنْ يُقْتَلَ رَجْمًا بِالْحِجَارَةِ، تَنْكِيلًا بِهِ، وَعِقَابًا لَهُ، لَوْلَا أَنَّ لَهُ عَشِيرَةً عَزِيزَةً عَلَى نَفْسِهِمْ، وَهُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يُسَخِّطُوهُمْ مُثِيرِينَ فِيهِمْ عَصَبِيَّتَهُمُ الْقَبِيلِيَّةَ، وَلَوْ كَانُوا غَيْرَ مُؤْمِنِينَ بِرِسَالَتِهِ، وَلَا بِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، إِذْ مِنْ عَادَةِ الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ أَنْ تَحْمِي الرَّجُلَ مِنْهَا بِدَافِعِ الْعَصَبِيَّةِ، وَلَوْ خَرَجَ عَلَى مِلَّتِهَا وَلَمْ يَلْتَزِمِ طَرِيقَتَهَا.

المقولة الرابعة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾: أَي: وَمَا أَنْتَ بِذِي كَرَامَةٍ عَلَيْنَا نُكْرِمُكَ عَنِ الرَّجْمِ مِنْ أَجْلِهَا، بَعْدَ الَّذِي كَانَ مِنْكَ مِنْ خُرُوجٍ عَلَى مِلَّتِنَا، وَمُخَالَفَةٍ لَطَرِيقَتِنَا، وَاتِّخَاذِ دِينٍ يُعَارِضُ دِينَنَا، وَتَجَمُّعٍ عَلَيْهِ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَكَ مِنْ قَوْمِنَا. لَكِنَّ رَهْطَكَ وَهُمْ عَشِيرَتُكَ الْأَقْرَبُونَ أَعْرَاءُ عَلَيْنَا، ذُوو كَرَامَةٍ بَيْنَنَا، وَنَحْنُ حَرِيصُونَ عَلَى أَنْ لَا نَجْرَحَ كَرَامَتَهُمْ بَيْنَنَا، وَلَا نُؤْذِيَ مَشَاعِرَهُمْ، وَلَا نُهَيِّئَهُمْ بِقَتْلِكَ.

العزیز: یأتی فی اللّغة بمعنَین:

المعنى الأول: القويُّ الغالبُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ. يقولون: مَنْ عَزِيزٌ، أَي: مَنْ غَلَبَ سَلَبَ.

المعنى الثاني: ذو الكرامة الذي لَا يَصِحُّ أَنْ تُهَانَ كَرَامَتُهُ، وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمُرَدُّ هُنَا.

• ﴿قَالَ يَنْقَوْمِ أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا
إِنَّ رَبِّيْ يَمَّا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَنْقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَنِِلٌ سَوَفَ
تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ
رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾:

لَمْ يَكْتَرِثْ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِتَهْدِيدَاتِ كُفَرَاءِ قَوْمِهِ وَوَعِيدِهِمْ،
وَاسْتَمَرَّ يُوَاجِهُهُمْ بِمَقُولَاتِهِ الْإِفْنَاعِيَّةِ، لِكَيْتَهُ ارْتَقَى بِهَا إِلَى أَسْلُوبِ التَّشْرِيبِ
وَالْتَلُومِ وَالتَّغْنِيفِ، وَاتَّخَذَ مَعَهُمْ مَوْقِفَ الْمُتَحَدِّي الْمُنْذِرِ، الْمُتَرْقِبِ الصَّامِدِ
الْمُتَوَكِّلِ عَلَى رَبِّهِ.

لقد وَجَّهَ لَهُمْ ثَمَانِيَّ مَقُولَاتٍ جَاءَ إِيجَارُهَا فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ، بِاخْتِرَالٍ
شَدِيدٍ:

المقولة الأولى: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿يَنْقَوْمِ أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ
اللَّهِ﴾:

أَي: أَرْهَطِي (عَشِيرَتِي الْأَقْرَبُونَ) الَّذِينَ هُمْ عَبِيدٌ مِثْلُكُمْ، وَخَلَقَ مِنْ
خَلْقِ اللَّهِ، أَكْرَمُ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ رَبِّكُمْ، الَّذِي يُمِدُّكُمْ دَوَامًا بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ،
وَالَّذِي أَرْسَلَنِي رَسُولًا إِلَيْكُمْ، فَهُوَ يَخْمِينِي وَيَصُونُنِي وَيُنْجِينِي مِنْ
شُرُورِكُمْ!!؟

إِنَّ هَذَا مِنْكُمْ لِأَمَرٍ يَسْتَدْعِي أَشَدَّ الْعَجَبِ، لَقَدْ كَانَ مِنَ الْمَفْرُوضِ
فِيكُمْ وَأَنْتُمْ تَدْعُونَ الْعَقْلَ وَالرُّشْدَ وَالْحِكْمَةَ، وَتَزْعُمُونَ أَنْكُمْ تَنْصُرُونَ
مُؤَرَّوْثَاتِكُمُ الدِّينِيَّةَ الْبَاقِيَّةَ فِيكُمْ مِنْ مِلَّةِ جَدِّكُمْ مَدْيَنَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ
عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ أَعَزُّ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَنُفُوسِكُمْ مِنْ كُلِّ
عَزِيزٍ، وَأَكْرَمَ عِنْدَكُمْ مِنْ كُلِّ ذِي كِرَامَةٍ، فَمَا أَنَا إِلَّا رَسُولٌ مِنْكُمْ أَذْعُوكُمْ
إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ رَبِّكُمْ وَخَدَهُ لَا تُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِهِ شَيْئًا، وَأَذْعُوكُمْ إِلَى طَاعَتِهِ،
وَاجْتِنَابِ ظُلْمِ الْعِبَادِ، فَمَا هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي يَصِحُّ فِي الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ أَنْ
تُنْكِرُوهُ عَلَيَّ فِي دَعْوَتِي.

المقولة الثانية: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا﴾: أي: وَاتَّخَذْتُمْ دِينَ الله وَأَوَامِرَهُ وَشَرَائِعَهُ وَمَطَالِبَهُ مِنْكُمْ وَرَاءَكُمْ، فَجَعَلْتُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ظَهْرًا، أي: مَنبُودًا مَنْسِيًا مَتْرُوكًا وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ.

الظَهْرِي: هو في اللُّغَةِ المَنبُودُ وَرَاءَ الظَّهْرِ، المَتْرُوكُ المَنْسِيُّ المَسْتَهَانُ

به .

والياء في كلمة «ظَهْرِي» هي ياء النسب، فالظَهْرِيُّ هو المنسوبُ إِلَى الظَّهْرِ، وَكَسْرُ الظَّاءِ جَاءَ مِنْ تَغْيِيرَاتِ النَّسَبِ الَّتِي يَرِدُ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ، كَمَا قَالُوا فِي النِّسْبَةِ إِلَى «دَهْرٍ» دَهْرِيٌّ بِضَمِّ الدَّالِ، وَفِي النَّسْبَةِ إِلَى «أَمْسٍ» إِمْسِيٌّ بِكَسْرِ الهمزة.

المقولة الثالثة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿إِنَّكَ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾:

أي: إِنَّ مَا تَعْمَلُونَهُ مِمَّا يُسَخِّطُ رَبَّكُمْ عَلَيْكُمْ، وَمَا تَعْمَلُونَهُ مِنْ تَذْبِيرَاتٍ لِقَمْعِ رَسُولِهِ، وَلِقَمْعِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ وَنَصَرُوهُ، وَلِلتَّنْكِيلِ بِهِمْ، وَمَا تَعْمَلُونَهُ لِإِيقَافِ امْتِدَادِ الِاسْتِجَابَةِ لِدِينِهِ، أَعْمَالٌ يُحِيطُ بِهَا اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ إِحَاطَةً تَامَةً، بِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَسَائِرِ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

إِنَّ الدِّينَ دِينُهُ، وَإِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لَهُ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ بِي مِنْ أَوْلِيَائِهِ، وَنَحْنُ جَمِيعًا نَفُوضُ أُمُورَنَا إِلَيْهِ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

المقولة الرابعة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿وَيَقُولُوا أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ﴾:

﴿عَلَى مَكَانِكُمْ﴾: أي: عَلَى مَوَاضِعِكُمْ وَجِهَتِكُمْ وَنَاحِيَّتِكُمْ الَّتِي اخْتَرْتُمُوهَا لِأَنْفُسِكُمْ، الْمَشَاقَّةَ وَالْمَعَادِيَةَ لِي وَلِدِينِي وَلِلَّذِينَ آمَنُوا بِي.

المكانة: مَوْثُ الْمَكَانِ، تُطْلَقُ عَلَى الْمَوْضِعِ الْمَادِّيِّ أَوِ الْمَعْنَوِيِّ.

وَتُطْلَقُ عَلَى الْمَنْزِلَةِ. وَالْمَرَادُ هُنَا الْمَوْضِعُ.

والمعنى: **وَيَا قَوْمِ اَعْمَلُوا وَاَنْتُمْ عَلَىٰ مَوَاضِعِكُمْ وَجِهَتِكُمْ وَنَاحِيَتُكُمْ** المشاقفة لي، والثائية عن مَوْضِعِ الحق، وهي المكانة التي اخترتموها لأنفسكم.

اَعْمَلُوا مَا تَسْتَطِيعُونَ عَمَلُهُ ضِدِّي، وَضِدُّ الَّذِينَ آمَنُوا بِي، وَضِدُّ رِسَالَةِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ.

وظاهر ما في هذه المقولة من تحدُّ لهم أن يفعلوا ما يشاءون غير عابىء بتدبيراتهم وأعمالهم.

المقولة الخامسة: **دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿إِنِّي عَمِلْتُ﴾** : أي: إني متابع القيام بعملِي، على وفق ما أَمَرَنِي بِهِ رَبِّي، وعلى وفق ما تقتضيه مني رسالتي، فلا أتوقف، مع ملازمة مكائتي المضادة والمشاقفة لمكانتكم، حتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ.

وظاهر في هذه المقولة أيضاً، أنَّ شعيباً عليه السلام يتحدَّى كُبراء كُفَّارِ قَوْمِهِ، بأنه لَنْ يَتَوَقَّفَ عَنْ دَعْوَتِهِ، على الرُّغْمِ من كلِّ تَهْدِيدَاتِهِمْ وَتَدْبِيرَاتِهِمْ الكَيْدِيَّةِ.

المقولة السادسة: **دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿سَوْفَ نَعْلَمُكَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾**:

من الظاهر في هذه المقولة أنَّ شعيباً عليه السلام يُنذِرُ كُفَّارِ قَوْمِهِ بأسلوب التلويح لا التَّضْرِيحِ، بأنَّهم هم الَّذِينَ سَيَنْزِلُ بِهِمُ الْعَذَابُ الَّذِي يُخْزِيهِمْ.

الْخِزْيُ: الذُّلُّ وَالْهَوَانُ، والافتضاح بالقبائح والآثام المخجلة التي تجلبُّ العقوبات المُمِهِنَاتِ المَذِلَّاتِ.

وَيُطْلَقُ الْخِزْيُ عَلَى الْوُقُوعِ فِي الشَّرِّ وَالْعَذَابِ، وَالْبَلَايَا وَالتَّكْبَاتِ المصحوبة بذلُّ وهوان.

استعمال شعيب عليه السلام حرف «سَوْفَ» دون حرف «السَّيْنِ» احتياط ذكيٍّ منه، إذ لم يكن لديه عِلْمٌ بِقُرْبِ وَقْتِ وَقُوعِ العذاب المخزي بقومه، الذي سيأتيهم من ربهم.

أكثر ما يستعمل حرف «سوف» في القرآن المجيد للدلالة على ما سوف يكون يوم الدين، أو في المستقبل البعيد.

المقولة السابعة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾: أي: وسوف تعلمون حينما ينزل عذاب الله المخزي من هو كاذبٌ في ادعاء أنه على حقٍّ، وأنه يَنْصُرُ دين الله بِحَقٍّ وَصِدْقٍ.

هذا البيان يَدُلُّ على أنهم كانوا يَزْعُمُونَ أنهم على الحقِّ، وأنهم يَنْصُرُونَ دين الله الموروثَ عن آبائهم إلى جدهم مَذِينِ بن إبراهيم عليه السلام.

وفي هذا البيان تلويحٌ بأنهم هم الكاذبون، كما في العبارة السابقة لها.

المقولة الثامنة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾:

أي: وانتظروا انتظار المراقب بكلِّ حواسِّه، لكلِّ ما تأتي به أحداث المستقبل، إني معكم رقيب لهذه الأحداث.

إنه لا يتحدَّى مثلَ هذا التحدي إلا مَنْ كان على ثقةٍ من رَبِّه بأنَّه سيَنْصُرُهُ، وسيَخْذُلُ ويُخْزِي عَدُوَّه بالعذاب الأليم المُهِينِ.

ولَقَدْ وَجَّهَ شعيبُ عليه السَّلامُ مقولاته هذه لِلْكَبَرَاءِ كُفَّارِ قومه، وذوي السُّلْطَةِ الإداريَّةِ فيهم، بِقَلْبٍ ثابتٍ شُجاع، ونفسٍ مطمئنةٍ واثقةٍ بِنَصْرِ الله العَلِيِّ الأَعْلَى، الحكيم القدير، المُنْتَقِمِ الجبار.



الفصل الخامس

مرحلة تحدي قوم شعيب له بأن يأتيهم بما يتوعدهم به من عذاب الله

جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قول الله عز وجل بشأن شعيب عليه السلام وقومه:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾:

هذا النص يكشف التحدي الأخير الذي وجهه كبار كفار قوم شعيب عليه السلام له، ومن ورائهم جماهيرهم، بعد أن أمهلهم الله عز وجل إمهالاً كافياً قاطعاً لكل أعذارهم.

وقد اشتمل هذا النص على بيان موجز ثلاث مقولات وجهوها له:

المقولة الأولى: دلّت عليها عبارة: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾: أي: ما أنت إلا من الذين سُحِرُوا سِحْراً قوياً، حتّى أثر فيك هذا السحر الشديد، فأفسدك وغيّرَكَ عما كُنَّا نَعْهَدُ فيكَ من عقلٍ راجح، وفضائل تُحْمَدُ عليها، وسلبكَ ما كُنْتَ تتحلّى به من حلمٍ ورشدٍ عظيمين انفرذت بهما دون سائر قومك.

أقول: لو أنّهم نظروا إلى مضمون دعوته بعقلٍ وبصيرة، وأبعدوا عنهم مؤثرات الأهواء والشهوات والمطامع، والتقاليد والتبعيات العمياء، لرأوا أنّه قد زاد حِلْماً وحكمةً، وعقلاً ورشداً، وأنّه ناصح لهم أمين.

إنّ انطِماس البصيرة بغشاوات الأهواء والشهوات والتقاليد العمياء، يُفسد على أهل العقول عقولهم ومفهوماتهم، وقد يجعلهم كالبُلْه، أو كالأنعام، أو أضلّ سبيلاً.

المقولة الثانية: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾: هذه تَعْلَةُ كُلِّ الَّذِينَ كَذَبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، وَكَفَرُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْهُ، إِذْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْبَشَرِيَّةَ لَا تَصْلُحُ لِلْإِصْطِفَاءِ بِالنَّبُوءَةِ وَبِالرَّسَالَةِ، مَعَ أَنَّ الْحِكْمَةَ الرَّفِيعَةَ السَّامِيَّةَ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ إِلَى الْبَشَرِ وَاحِدًا مِنْهُمْ، يَضْطَفِيهِ اللَّهُ بِالْوَحْيِ إِلَيْهِ، وَيَكْلَفُهُ حَمْلَ رِسَالَتِهِ وَتَبْلِيغَهَا لِقَوْمِهِ.

إِنَّ الْإِعْتِرَاضَ عَلَى بَشَرِيَّةِ الرَّسُولِ لَا يَسْتَنِدُ إِلَّا إِلَى مُجَرَّدِ إِعْلَانِ الْإِسْتِنْعَادِ وَالِاسْتِغْرَابِ وَالتَّعَجُّبِ، وَهَذَا لَيْسَ بِدَلِيلٍ مُطْلَقًا، إِذْ لَا يَوْجَدُ مَا يَنْعِي عَقْلِيٍّ مِنْ أَنْ يُوحِيَ إِلَهُ الرَّبِّ الْخَالِقُ إِلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَهُوَ جَلُّ جَلَالِهِ الْقَدِيرُ عَلَى أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ، وَأَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ.

بَلِ الْحِكْمَةُ تَقْتَضِي أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ الرَّسُولَ إِلَى الْبَشَرِ، مِنَ الْبَشَرِ أَنْفُسَهُمْ، لِيَكُونَ فِي سُلُوكِهِ حُجَّةً عَلَيْهِمْ.

المقولة الثالثة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لِمَنِ الْكَذِبِينَ﴾: أَي: وَنُؤَكِّدُ لَكَ أَنَّ نَظْنُكَ كَاذِبًا مِنَ الْكَاذِبِينَ، الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى رَبِّهِمْ، بِادِّعَاءِ النُّبُوءَةِ وَالرَّسَالَةِ.

[إِنْ] هي المخففة من الثقلية، وَيُؤَاذِرُهَا فِي التَّأَكِيدِ اللَّامُ فِي [لِمَنِ].

وَنَظَرًا إِلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ مَعْرُوفًا لَدَى عَامَّةِ قَوْمِهِ وَخَاصَّتِهِمْ بِأَنَّهُ صَادِقٌ لَا يَقُولُ إِلَّا حَقًّا، مَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَقُولُوا لَهُ عِبَارَةً يَجْزِمُونَ فِيهَا بِأَنَّهُ كَاذِبٌ فِي دَعْوَاهُ النَّبُوءَةِ وَالرَّسَالَةِ، أَوْ بِأَنَّهُ وَاحِدٌ مِنَ الْمُتَنَبِّئِينَ الْكَاذِبِينَ، بَلِ اكْتَفَوْا بَبَيَانِ أَنَّ مَا يَتَصَوَّرُونَهُ فِيهِ هُوَ مِنْ قَبِيلِ الظَّنِّ، لَا مِنْ قَبِيلِ الْيَقِينِ الْمُسْتَنَدِ إِلَى عِلْمٍ وَخَبَرَةٍ بِأَحْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ.

وَصَبَرَ شَعِيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى شَتَائِمِ الْكِبَرَاءِ مِنْ كُفَّارِ قَوْمِهِ لَهُ، كَمَا صَبَرَ سَائِرُ رُسُلِ اللَّهِ عَلَى شَتَائِمِ أَقْوَامِهِمْ لَهُمْ، فَلَمْ يُقَابِلُوا شَتَائِمَ أَقْوَامِهِمْ بِأَمْثَالِهَا.

وبعد هذه المَقُولات الثلاث وجَّهوا له عبارة التحدي الأخمق، فقالوا له :

● ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٨٧) :

﴿كِسْفًا﴾ : الكِسْفُ والكِسْفُ، بفتح السين وإسكانها، القِطْعُ من أي شيء، وهو جمع واحدته : «كِسْفَةٌ» وهي القطعة من أي شيء.

والمعنى : فأسقط علينا ما تستطيع إسقاطه من قِطْع من السماء تُعَذِّبُنَا وتُهْلِكُنَا بها، إِنَّ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِي أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ أَرْسَلَكَ اللَّهُ إِلَيْنَا.

استعملوا حرف الشرط «إِنْ» للإشعار بأنهم لا يؤمنون بنبوته ولا برسالته، فهم يطلبون منه هذا الطلب على سبيل التعجيز.

لَقَدْ غَرَّهم طولُ إمهالِ الله لهم، مع وجودِ رُسُولِهِ بينهم يُعَالِجُهُمْ بكلِّ وسائل الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، ويَرَوْنَ أَنَّهُمْ مُمَكِّنُونَ فِي أَرْضِهِمْ.

● ﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨٨) : أي : لَسْتُ أَنَا الَّذِي أُسْقِطُ الْكِسْفَ مِنَ السَّمَاءِ، إِنَّمَا الَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ هُوَ رَبِّي، وَرَبِّي إِنَّمَا يَفْعَلُهُ أَوْ يَفْعَلُ شَيْئًا آخَرَ يُهْلِكُكُمْ بِهِ، إِذَا عَلِمَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ أَنَّكُمْ صِرْتُمْ تَسْتَحِقُّونَ إِنْزَالَ الْعِقَابِ الشَّامِلِ فِيكُمْ، وَاقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِكَ.

إنه جلَّ جلاله وعظم سلطانه أَعْلَمُ بما تَعْمَلُونَ.

في بيا المتكلم من ﴿رَبِّيَ أَعْلَمُ﴾ قراءتان الإسكان والفتح، ففتحها نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأسكنها مع المد باقي القراء العشرة.



الفصل السادس

مرحلة توجيه كبراء كفار قوم شعيب إنذارهم الأخير للذين آمنوا به واتبعوه

جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عز وجل:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِتَّكُرُوا إِذَا لَخِيسِرُونَ﴾ (٩١):

وصل كبراء كفار قوم شعيب إلى حالة الحذر من أن ينزل الله بهم العذاب والإهلاك الشامل، لما رأوا أن شعيباً غير عابىء بتهديداتهم، وغير مكترث لأنه صار من وجهة نظرهم مستحقاً لأن يقتل رجماً بالحجارة، ولولا الكرامة التي رعوها لعشيرته الأقربين لرجموه.

فوجهوا إنذارهم للذين آمنوا به واتبعوه منهم، وأقسموا لهم قائلين:

﴿لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِتَّكُرُوا إِذَا لَخِيسِرُونَ﴾:

أي: نفسم لكم: لئن اتبعتم شعيباً في إضراره على موقفه الذي أغلته، إنكم إذا تكونون خاسرين، إذ سئسلط عليكم بأوامرنا من رجالنا من يسومونكم سوء العذاب، ويضطهدونكم، ويسلبونكم ممتلكاتكم، حتى تكونوا خاسرين كل شيء، وقد تخسروا أهلبيكم وأولادكم بالتغذيب والتشريد والقتل.

أكدوا تهديدهم ووعيدهم بالقسم، فاللام في [لئن] موطئة للقسم المنوي الملاحظ ذهنياً، وجملة: ﴿إتَّكُرُوا إِذَا لَخِيسِرُونَ﴾ الواقعة في جواب القسم مؤكدة بالمؤكدات: «إن» - والجملة الاسمية - واللام المرحلة للخبر - وأغثير [إذا] هنا من المؤكدات أيضاً، لأن ما قبلها مفتقر لما بعدها فهي زائدة للتأكيد.

وقد تضمن هذا القول قراراً بتنفيذ العقاب المادي بالذين آمنوا بشعيب واتبعوه.

وبهذا اجتمعت الأسباب التي تقتضي إهلاك القوم الكافرين وهي:
(١) تكذيب الرُّسُول.

(٢) التكذيب بما جاء به عن رَبِّه.

(٣) تَحَدِّي الرُّسُولِ بِأَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ الَّذِي كَانَ يُنْذِرُهُمْ بِهِ، متوهمين أَنَّهُ لَيْسَ رُسُولاً، فَلَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لِدُعَائِهِ.

(٤) إنذار الذين آمنوا به وَاتَّبَعُوهُ، بِأَنْ يُنْزِلُوا بِهِمُ الْعِقَابَ الْقَامِعَ لَهُمْ جَمِيعاً، إِذَا اتَّبَعُوا شُعَيْباً فِي مَوَاقِفِهِ الْمَخَالَفَةِ لِمَطَالِبِهِمْ مِنْهُ.
فَقَضَى اللَّهُ بِتَعْذِيبِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ.



الفصل السابع

مرحلة إنزال العذاب الشامل المهلك الذي استأصل الله به كُفَّار قَوْمِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَام

جاء في القرآن المجيد أَرْبَعَةُ نصوص من أربع سُور، وفيها بيانُ إهلاك كُفَّارِ قَوْمِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَام، بعد أَنْ وَصَلَ مُعْظَمُهُمْ إِلَى حَالَةٍ مَيُؤَسَّسٍ مَعَهَا مِنْ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ رَسُولِ رَبِّهِمْ، مَهْمَا مَدَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِمْنِهِمْ.

(١) فجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢) نزول قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْعَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمًا ۝٩٤﴾ كَانُوا يَنْتَوُونَ فِيهَا إِلَّا بَعْدًا لِمَدِينَةٍ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ۝٩٥﴾ .

(٢) وجاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قول الله عز وجل بشأن شعيب وقومه:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

(٣) وجاء في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) قول الله عز وجل بشأن شعيب وقومه أيضاً:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

(٤) وجاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانَ لَمْ يَفْتَنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

هذه النصوص الأربعة أجتهد في تدبرها تدبراً تكاملياً، بمعونة الله وتوفيقه وتسدیده.

● ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾: أي: ولما جاء وقت تنفيذ أمرنا السابق، بأن نُنَجِّي شُعْبِيًّا وَنُنَجِّي الَّذِينَ آمَنُوا به معه بِرَحْمَةٍ مِنَّا، وبأن نُهْلِكَ كُفَّارَ قَوْمِهِ بِعَذَابٍ عَلَى وَفْقِ حِكْمَتِنَا وَعَذْلِنَا نَقْذَنَا مَا يَلِي:

أولاً: (بِالنَّسْبَةِ إِلَى الَّذِينَ نَجَّاهُمْ اللهُ): ﴿نَجَّيْنَا شُعْبِيًّا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا... ﴿٩٤﴾﴾ «هود».

أي: نَجَّيْنَا شُعْبِيًّا وَنَجَّيْنَا مَعَهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وبما جاء به عن رَبِّهِ، بِإِعَادِهِمْ عَنْ أَمَاكِنَ تَنْزُلِ وَسَائِلِ التَّعْذِيبِ وَالْإِهْلَاكِ، وكان هذا بِقَدْرِ وَقْضَاءٍ، وَأَمْرِ صَادِرَاتٍ مِنْ رَحْمَتِنَا.

الرَّحْمَةُ: صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ، مِنْ آثَارِهَا الْإِنْعَامُ، وَالْإِكْرَامُ، وَالنَّجَاةُ وَالنُّصْرُ، إِلَى أُمُورَ كَثِيرَةٍ.

ثانياً: (بالنسبة إلى الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ الله):

(١) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٨٩)

(الشعراء):

(٢) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ (٣٧)

(العنكبوت):

(٣) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا

كَانَ لَمْ يَفْتَنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ (الأعراف):

(٤) ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَجَيْنًا شُعْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ

الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ (٩٤) كَانَ لَمْ يَفْتَنُوا فِيهَا إِلَّا بَعْدًا

لِمَنِينَ كَمَا بَدَتْ نَمُودُ ﴿٩٥﴾ (هود):

هذه النصوص متكاملة فيما بينها.

● فَقَدْ ذَلَّ النَّصُّ الَّذِي جَاءَ فِي سورة (الشعراء) على أن الله عز وجل

قَدْ شِمِلَهُمْ بِعَذَابٍ قَبْضَ عَلَيْهِمْ فِي يَوْمِ الظُّلَّةِ.

وكانت الظُّلَّةُ عَمَامَةً حَارَّةً ذَاتَ سُمُومٍ يَنْدَفِعُ مِنْهَا إِلَى أَرْضٍ مَدِينٍ،

فَيُعَذَّبُ مَنْ قَضَى اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْعَذَابِ بَحْرَهَا وَسُمُومِهَا، وَمَا تُخْذِلُهُ مِنْ

اِخْتِنَاقَاتٍ، وَاسْتَمَرَّتْ هَذِهِ الْعَمَامَةُ الْعَذَابِيَّةُ، طَوَالَ يَوْمٍ تُغْذِيهِمْ.

الظُّلَّةُ: هي في اللُّغَةِ كُلُّ شَيْءٍ أَظْلَّ وَسَتَرَ وَأَطْبَقَ مِنْ فَوْقِ.

ووصف الله عز وجل عَذَابَ يَوْمِ الظُّلَّةِ بِأَنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ،

وَمَعْلُومٌ أَنَّ عَذَابَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَذَابًا عَظِيمًا مَصَاحِبًا كُلَّ

أَجْزَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ.

● وَذَلَّ النَّصُّ الَّذِي فِي سُورَةِ (العنكبوت) على أَنَّ اللَّهَ عز وجل قَدْ

زَلَزَلَ الْأَرْضَ مِنْ تَحْتِ كُفَّارِ قَوْمٍ شُعْبٍ زَلْزَالًا عَظِيمًا مُدْمِرًا مَا عَلَيْهَا،

وَمُعَذِّبًا الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَسْكُنُونَهَا.

وَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ حِينَما دَخَلُوا فِي صُبْحِ الْيَوْمِ التَّالِي لِیَوْمِ الظُّلَّةِ كَانُوا هَالِكِينَ جَائِعِينَ .

﴿جَحِشِيتَ﴾ : أي : لَاصِقِينَ بِالْأَرْضِ عَلَى رُكَبِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ ، وَمُلَازِمِينَ أَمَكَّتَهُمْ هَلَكَى .

● وَأَصَافَ النَّصُّ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (الأعراف) عَلَى النَّصِّ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (العنكبوت) بَعْدَ ذِكْرِ الْعِبَارَةِ الْمِمَّاثِلَةِ لِلَّتِي فِي (العنكبوت) قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٩٢) .

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ : أي : كَأَن لَّمْ يَسْبِقْ لَهُمْ أَنْ أَقَامُوا فِي أَرْضِهِمْ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى طَرِيقِ الْكِنَايَةِ وَلَوَازِمِ الْأَفْكَارِ عَلَى اسْتِثْصَالِهِمْ ، وَطَمَسِ كُلِّ آثَارِهِمْ .

يُقَالُ لُغَةً : غَنِيَ بِالْمَكَانِ يَغْنَى ، أَي : أَقَامَ فِيهِ ، أَوْ طَالَ مُقَامُهُ فِيهِ .

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٩٢) : جَاءَ هَذَا الْبَيَانُ التَّعْقِيبِيُّ الرَّبَّانِيُّ ، فِي مُقَابِلِ تَهْدِيدٍ وَوَعِيدٍ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِشُعْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، إِذْ قَالُوا لَهُمْ : ﴿لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعْبًا لَّتَكُنَّ إِذَا لَخَيْرُونَ﴾ (٩٠) .

﴿كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ : فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ قَصْرٌ إِضَافِيٌّ ، دَلَّ عَلَيْهِ تَعْرِيفُ طَرَفِي الْإِسْنَادِ .

لَقَدْ خَسِرَ الْمَكْذِبُونَ دُنْيَاهُمْ فَكَانُوا جَمِيعًا هَلَكَى ، وَخَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ ، إِذْ عَرَّضُوهَا لِعَذَابِ اللَّهِ ، وَسَوْفَ يَكُونُ مَصِيرُهُمْ إِلَى الْخُلُودِ فِي عَذَابِ الْحَرِيقِ بِجَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ خَالِدِينَ فِيهَا مُخَلَّدِينَ .

● وَدَلَّ النَّصُّ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (هود) عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَ

عَلَيْهِمْ صَنِيعَةٌ قَدْ تَكُونُ مَصَاحِبَةً لِلزَّلْزَلَةِ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِمِينَ، كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا.

ويلاحظ أنّه جاء في (العنكبوت) وفي (الأعراف): ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ﴾ بصيغة الإفراد لكلمة «دار».

وجاء في سورة (هود): ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَائِمِينَ﴾ بصيغة الجمع: «دِيَار».

فيحتملُ أن تكونَ [في دَارِهِمْ] بصيغة الإفراد، تُشيرُ إلى حاضرة أهل مَدين الكُبرى، الَّتِي يَسْكُنُهَا كُتُبَاءُ كُفَّارِ الْقَوْمِ، وَأَن تَكُونَ ﴿فِي دِيَرِهِمْ﴾ بصيغة الجمع تُشيرُ إلى جميع أَرْضِ قَوْمِ مَدين في قراهم وبواديهم، وَأَنَّ هَلَاكَ البعيدين عن الحاضرة الكُبرى لبلادهم قد كان بالصَّيْنَةِ الَّتِي جَاءَ ذَكَرُهَا فِي سورة (هود) والله أعلم.



الفصل الثامن

التعقيب الربّاني على إهلاك قوم شعيب عليه السلام

(١) جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قول الله عز وجلّ

عقب بيان إهلاك كُفَّارِ قوم شعيب عليه السلام:

● ﴿... أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِثْتُ نَمُودَ ۝٩٥﴾:

﴿أَلَا﴾ أداة تنبيه، وفيها معنى التوكيد.

﴿بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾: أي: طرداً لكُفَّارِ مَدْيَنَ الَّذِينَ أَهْلَكُوا، مِنْ مَدَى رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ فِي الوجود شيئاً يناله قَدْرٌ ما من رحمة الله.

بُعْدًا: مَفْعُولٌ مطلقٌ لِلفعلِ محذوفٍ وجوباً، وهو على تقدير: أُبْعِدْهُمْ بُعْدًا، أي: أَطْرُدْهُمْ طَرْدًا.

[كَمَا بَعَدَتْ ثُمُودُ]: تُشْعِرُ هذه العبارة بأن كُفَّارَ قَوْمِ شَعِيب عليه السَّلام، كانوا يُشْبِهُونَ في تَكْذِيبِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ وَكَثِيرٍ مِنْ تَصَرُّفَاتِهِمْ ثُمُوداً قَوْمَ النَّبِيِّ الرَّسُولِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلام.

يُقَالُ لُغَةً: «بَعْدَ يَبْعُدُ بُعْدًا» و«بَعْدَ يَبْعُدُ بُعْدًا» ضِدُّ قَرُبٍ. وَاسْتُعْمِلَ بِمَعْنَى «هَلَكَ». وَيَقُولُونَ فِي الدُّعَاءِ عَلَى مَنْ يُرِيدُونَ هَلَاكَهُ: «بُعْدًا لَهُ».

وقد جاء في القرآن استعمال نظير هذه العبارة تعقيباً على إهلاك قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وأقوام مُتَعَدِّينَ أَهْلِكُوا لَمْ تُذَكَّرْ أَسْمَاؤُهُمْ وَلَا أَسْمَاءُ رُسُلِهِمْ.

(٢) وَجاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) عَقِبَ بَيَانِ إهلاكهم أيضاً:

• ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾: أي: إِنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي جَرَى لَكُفَّارِ قَوْمِ شَعِيبِ مِنَ الْإِهْلَاكِ الشَّامِلِ، لَآيَةً وَعَلَامَةً عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، فِي مَجَارِي حُكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ.

﴿... وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾: أي: أَهْلَكْنَاهُمْ إِهْلَاكاً عَامًّا شَامِلاً، لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَعِدِّينَ لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلًا، مَهْمَا أَمْهَلْنَاهُمْ.

﴿مُؤْمِنِينَ﴾: جمع اسم الفاعل «مُؤْمِنٌ» وَهُوَ يَسْتَعْمَلُ لِلْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ كَالْمُضَارِعِ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾:

[الْعَزِيزُ]: اسم من أسماء الله الحسنى، والعزیز في اللُّغة: القويُّ

الغالبُ. ومعناه بالنسبة إلى الله جلّ جلاله: الَّذِي لَا يَعْجِزُهُ مِمَكِنٌ مِنَ الْمَمَكَنَاتِ الْعَقْلِيَّةِ، وذكر هذا الاسم من أسماء الله الحسنى يُشِيرُ هنا إلى أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ أَهْلَكَ قَوْمَ شُعَيْبٍ بِعِزَّتِهِ، وَسَوْفَ يَجَازِيهِمْ يَوْمَ الدِّينِ بِعِزَّتِهِ عَلَى جَرَائِمِهِمْ فِي جَهَنَّمَ دَارَ تَعْذِيبِ الْمَجْرِمِينَ.

وصيغة «عزيز» من صيغِ المبالغة والتكثير.

[الرَّحِيم]: اسم من أسماء الله الحسنى، أي: ذُو الرَّحْمَةِ البالغة مداها الأَقْصَى، صيغة «رحيم» من صيغِ المبالغة والتكثير.

وذكر هذا الاسم من أسماء الله الحسنى هنا، يُشِيرُ إلى أَنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَوْفَ يَزَحِمُ يَوْمَ الدِّينِ، مَنْ كَانَ لَدَيْهِ اسْتِعْدَادٌ مِنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ لِأَنَّهُ يُؤْمِنُ فِيْمَا لَوْ أَنَّهُلَ زَمَانًا آخَرَ، وَلَكِنْ اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ إِهْلَاكَهُ مَعَ الْمَهْلِكِينَ مِنْ قَوْمِهِ، إِذْ بَلَغَ الْفَسَادُ فِي مَجْمُوعِهِمُ الْأَعْظَمِ أَقْصَاهُ، وَبَعْدَ الْبُعْثِ يُحَاسِبُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ كُلَّ فَرْدٍ مِنْهُمْ عَلَى مَقْدَارِ مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ شَرٍّ أَوْ خَيْرٍ وَإِنْ قَلَّ.

(٣) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣) بِشَأْنِ جُمْلَةٍ مِنَ الْمَهْلِكِينَ السَّابِقِينَ، وَمِنْهُمْ «أَصْحَابُ مَدْيَنَ» قَوْلُ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ:

﴿الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمٌ مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكِينَ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

أي: إِنَّ الْمَهْلِكِينَ هُمْ الَّذِينَ جَنَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَأَصْرَوْا عَلَى الْكُفْرِ، وَعَلَى أَنْ يَغْمَلُوا مَا يَنْتَهِي بِهِمْ إِلَى الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ، ثُمَّ إِلَى الْعَذَابِ فِي دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ الْبَيِّنَاتِ الْكَافِيَاتِ، وَالتَّخْذِيرَاتِ الشَّدِيدَاتِ لَهُمْ.

وَلَمْ يُجْرِ اللَّهُ فِيهِمْ إِلَّا مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ وَالْعَدْلِ، كَمَنْ أَوْقَدَ نَارًا،

وَرَمَى نَفْسَهُ فِيهَا مَعَانِدًا، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ سُنَنِهِ التَّكْوِينِيَّةِ أَنْ يُحْرِقَ الْأَجْسَادَ الْحَيَّةَ الَّتِي تَدْخُلُ فِيهَا، فَإِنَّ اللَّهَ عَظُمَتْ قُدْرَتُهُ، وَجَلَّتْ حِكْمَتُهُ يُحْرِقُهُ بِنَارِهِ الَّتِي أَوْقَدَهَا وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِيهَا.

فَالْمُهْلِكُونَ وَالْمُعَذِّبُونَ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لِيُظْلِمَهُمْ شَيْئًا، وَلَكِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ.



الفصل التاسع

**مَاذَا فَعَلَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَنْ أَهْلَكَ اللَّهُ قَوْمَهُ
وَنَجَّاهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**

جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عز وجل:

﴿فَنَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾:

أي: فأنصرف شعيب عليه السلام مُذْبِرًا عن ديارِ إهلاكِ الَّذِينَ كَفَرُوا من قومه، وربما كان معه في الانصراف الَّذِينَ آمَنُوا به واتبَعُوهُ، ونادى كَفَّار قَوْمِهِ وَهُمْ هَالِكُونَ قَائِلًا لَهُمْ:

﴿يَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾: أي: يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا كَانَ يَنْزِلُ عَلَيَّ مِنْ صُحُفٍ أَوْ كِتَابٍ تَنْزِيلًا مُنْجِمًا، وَمَا كَانَ يُوحَى بِهِ إِلَيَّ لِأَبْلَغُكُمْ إِلَاهَ مِنْ مَعَانٍ وَبَيِّنَاتٍ، ذَلِكَ صِبْغَةُ الْجَمْعِ ﴿رِسَالَاتِ﴾ عَلَى التَّنْزِيلِ الْمُنْجِمِ. واختار أَنْ يُشْعِرَهُمْ بعبارة: ﴿يَقَوْمِ﴾ أَنَّهُ كَانَ يَغِطُّ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ قومه.

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾: أي: قَدَّمْتُ لَكُمْ مَا فِيهِ خَيْرُكُمْ خَالِصًا مِنَ الشَّوَائِبِ، فَلَمْ أَلْ جَهْدًا فِي نُصْحِي لَكُمْ، لِكَيْتُمْ لَمْ تَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِي، مع

شِدَّةٍ حِرْصِي عَلَى نَجَاتِكُمْ، وَلَمْ تَعْبَوْا بِبُضْجِي، بَلْ كَذَّبْتُمُونِي، وَكَذَّبْتُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ عَنْ رَبِّي، وَكَفَرْتُمْ مَعَ عِلْمِكُمْ أَنَّ مَا جِئْتُكُمْ بِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ.

﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (١٣) : أي: فَكَيْفَ أَخْزَنُ عَلَى هَلاكَ قَوْمٍ كَافِرِينَ، وَكَيْفَ أَخْزَنُ مِنْ أَجْلِهِمْ، إِذَا نَزَلَ بِهِمْ عَذَابُ رَبِّهِمُ الْمَعْجَلُ، وَسَوْفَ يُعَذَّبُونَ عَذَابًا خَالِدًا فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ بِمَقْتَضَى حِكْمَةِ اللَّهِ وَعَدْلِهِ.

يُقَالُ لُغَةً: أَسَى عَلَيْهِ، وَأَسَى لَهُ يَأْسَى أَسَى، أَي: حَزَنَ، فَهُوَ «آسٍ، وَآسِيٍّ، وَأَسْوَانٌ، وَأَسْيَانٌ». أَضْلُ: «آسَى» أَلْسَى.

والمراء بالاستفهام عَنِ الْكَيْفِيَّةِ، بَيَانُ أَنَّهُ لَا تُوجَدُ كَيْفِيَّةٌ يَصِحُّ مَعَهَا أَنْ أَخْزَنَ عَلَيْهِمْ، فَقَدْ اخْتَارُوا لَأَنْفُسِهِمْ بِإِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ أَنْ يَكْفُرُوا بِالْحَقِّ، مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّ مَا جِئْتُهُمْ بِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، وَلَكِنْ غَلَبَتْ شَهَوَاتُ نَفُوسِهِمْ، وَأَهْوَاؤُهُمْ عُقُولَهُمْ، وَإِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ، فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى، وَأَثَرُوا الْمَتَاعَ الزَّائِلَ الْفَانِي، عَلَى النِّعَمِ الْخَالِدِ الْبَاقِي، وَجَعَلُوا أَعْيُنَهُمْ بِأَيْدِي الشَّيَاطِينِ، فَمَا نَزَلَ بِهِمْ هُوَ نَتِيجَةُ اخْتِيَارِهِمْ وَهُمْ عَالِمُونَ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ أَخْزَنَ عَلَيْهِمْ فِي كَيْفِيَّةٍ مِنَ الْكَيْفِيَّاتِ.



الفصل العاشر

العظة بنبا إهلاك قوم شعيب عليه السلام

إِنَّ الْعِظَةَ الَّتِي تُقَدِّمُهَا أَحْدَاثُ قِصَّةِ قَوْمِ شَعِيبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ وَإِهْلَاكَ شَامِلٍ، قَدْ جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ فِي مُنَاسَبَاتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ سَبَقَ بَيَانُهَا فِي مُقَدِّمَةِ هَذَا الْمُلْحَقِ، فَلَا حَاجَةَ لِلْإِعَادَةِ.

والحمد لله على توفيقه وفتحته ومعاونته

(٢٣)

الملحق السابع

حول ما جاء في القرآن بشأن سُنَنِ اللَّهِ
في الأمم حتى استحقاقها الإهلاك الشامل

أولاً:

مقدمة

أبان الله عز وجل في القرآن المجيد سُنَّتَهُ في عبادِهِ قبل أن يُنْزَلَ عَذَابُهُ الَّذِي
يَكُونُ بِهِ إِهْلَاكُ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ الْمَجْرِمَةِ الَّتِي كَذَّبَتْ رُسُلَ رَبِّهَا، وَكَذَّبَتْ بِمَا جَاءَهُمْ
بِهِ مِنْ عِنْدِهِ، وَظَلَمَتْ وَطَعَتْ وَبَغَتْ، وَنَشَرَتْ الْفَسَادَ وَالْإِفْسَادَ فِي الْأَرْضِ.

وَبِالْتَّبَعِ الْإِخْصَائِي مَعَ التَّأَمُّلِ اكْتَسَفَتْ سُنَنًا عَشْرًا، فَرَأَيْتُ أَنَّ مِنْ
الْخَيْرِ ذِكْرَهَا فِي هَذَا الْمَلْحَقِ، وَعَرَضُ الْتُصُوصِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا، مَضْحُوبَةً
بِبَعْضِ التَّدْبِيرِ لآيَاتِهَا وَفَقَرَاتِهَا.

وَنَظَرْتُ فِي التُّصُوصِ الْقُرْآنِيَةِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى تَطْبِيقَاتِ هَذِهِ السُّنَنِ،
فَرَأَيْتُ أَنَّ أُسْتَعْرِضَهَا مُفَصَّلَةً فِي خَمْسَةِ فُصُولٍ، بِحَسَبِ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ
دَلَالَاتٍ يَتَلَاءَمُ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ.

ثانياً:

ذكر السنين بصورة مُجْمَلَةٍ

السُّنَّةُ الْأُولَى: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنَّ لَا يَدَعُ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ
دُونَ أَنْ يَبْعَثَ لَهَا رَسُولًا نَبِيًّا، يُبَيِّنُ لَهَا الْغَايَةَ مِنْ وُجُودِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،
وَدِينِهَا الَّذِي اضْطَفَّاهُ لَهَا عَقِيدَةً وَشَرِيعَةً وَمِنْهَاجَ سُلُوكٍ، وَيُبَشِّرُ مَنْ آمَنَ
وَأَطَاعَ بِالنَّعِيمِ الْخَالِدِ فِي الْجَنَّةِ، وَيُنْذِرُ مَنْ كَفَرَ وَعَصَى بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ
الَّذِينَ، فِي جَهَنَّمَ دَارَ عَذَابٍ مُجْرِمِينَ.

السُّنَّةُ الثَّانِيَّةُ: أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ الرَّسُولَ فِي الْمَجْمَعِ السَّكْنِيِّ الْأُمَمَ، لِكُلِّ أُمَّةٍ يُرْسِلُ إِلَيْهَا رَسُولًا، وَيُلْحَقَ بِهِ سَائِرُ الْقُرَى وَالْبَوَادِي التَّابِعَةُ لَهُ، وَالَّتِي يَسْكُنُهَا الْمُتَمَتُّونَ إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ.

السُّنَّةُ الثَّالِثَةُ: أَنْ لَا يُهْلِكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أُمَّةً كَافِرَةً مُجْرِمَةً إِهْلَاكَ شَامِلًا مُقْتَرَنًا بِتَغْذِيبِهَا، إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُقِيمَ عَلَيْهَا الْحُجَّةَ، بِذُعَاءِ كِبَرَائِثِهَا وَالثَّرَفَيْنِ فِيهَا، وَبَعْدَ أَنْ يُوَجِّهَ لَهُمُ الْأَوَامِرَ وَالنَّوَاحِيَ فَيَتَمَرَّدُوا عَلَيْهَا، وَيَفْسُقُوا خَارِجِينَ خُرُوجًا كَامِلًا عَنِ الطَّاعَةِ.

السُّنَّةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُهْلِكَ أَهْلَ الْقُرَى وَمُلْحَقَاتِهَا إِهْلَاكَ عَامًّا شَامِلًا، إِلَّا فِي حَالَةِ كُوزِهِمْ ظَالِمِينَ، عَالِمِينَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ تُجَاةَ رَبِّهِمْ.

السُّنَّةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُهْلِكَ أَهْلَ الْقُرَى وَمُلْحَقَاتِهَا، مَا دَامَ فِيهَا مَنْ يَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَةِ الرُّسُلِ تِبَاعًا، وَيُضِلُّحُونَ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَإِنْ قَلُّوا، فَلَا يَنْزِلُ اللَّهُ بِهِمُ الْعَذَابَ الْمَهْلِكَ لَهُمْ إِهْلَاكَ شَامِلًا، حَتَّى يَصِلُوا إِلَى حَالَةٍ مَيُؤَسِّرِ مِنْهَا بَوَاجِهُ عَامًّا.

السُّنَّةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْهَلُ عِبَادَهُ الظَّالِمِينَ وَيُمْلِي لَهُمْ، وَلَا يَعْجَلُ بِإِنْزَالِ الْعِقَابِ الشَّامِلِ وَالْإِهْلَاكِ الْعَامِّ فِيهِمْ.

السُّنَّةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْدَأُ مُعَالَجَةَ الْأُمَمِ قَبْلَ إِهْلَاكِهَا الشَّامِلِ، بِابْتِلَائِهَا بِالْبَاسِ وَالضَّرَاءِ، وَالْمَصَائِبِ وَالْمَكَارِهِ الْجَزِئِيَّةِ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَضَرَّعُوا لَهُ مُسْتَغْفِرِينَ وَتَائِبِينَ، وَمُتَزَمِّينَ بِالتَّذْرِيعِ الْعَمَلِ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، وَالْإِبْتِعَادَ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ.

السُّنَّةُ الثَّامِنَةُ: أَنْ لَا يُحَقِّقَ اللَّهُ إِهْلَاكَ أُمَّةٍ إِهْلَاكَ شَامِلًا، إِلَّا بَعْدَ قَدَرٍ وَقَضَاءٍ يُحَدِّدُ فِيهِمَا زَمَنُ إِهْلَاكِهَا، وَبَعْدَ كِتَابَةِ ذَلِكَ، وَإِعْلَامِ ذَوِي الْعِلَاقَةِ بِتَنْفِيزِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَيَكُونُ هَذَا الزَّمَنُ أَجَلَ بَقَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَكُونُ التَّنْفِيزُ فِيهِ تَمَامًا دُونَ سَبْقٍ وَدُونَ تَأْخِيرٍ.

السُّنة التاسعة: غالباً ما يَكُونُ إهلاكُ الأُمَمِ الَّتِي قَضَى اللَّهُ بِإِهْلَاكِهَا، عِنْدَ الصُّبْحِ، وَقَدْ يَسْتَمِرُّ حَتَّى الْإِشْرَاقِ، أَوْ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ، أَوْ يَكُونُ بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ، أَوْ فِي وَسْطِ النَّهَارِ وَهُمْ قَائِلُونَ، أَوْ فِي الضُّحَى وَهُمْ يَلْعَبُونَ.

السُّنة العاشرة: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَنْزَلَ بِأَسْأَةِ فَيَمَنْ اسْتَحَقُّوا الْإِهْلَاكَ، وَصَدَرَ الْأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ بِإِهْلَاكِهِمْ، فَإِنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانُهُ يَأْخُذُهُمْ أَخْذاً أَلِيماً شَدِيداً بِسُلْطَانِ الْقَهْرِ وَالْجَبَرُوتِ.



ثالثاً:

ذكر عناوانات الفصول التي اشتملت على بيانات تطبيقات السُّنة السابقة

الفصل الأول: كَيْفَ قَابَلَتِ الْأُمَمُ الْمَهْلَكَةُ دَعَوَاتِ رُسُلِ رَبِّهَا.

الفصل الثاني: حَوْلَ تَطْبِيقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سُنَّتَهُ فِي الْعَذَابِ التَّأْدِيبِيِّ التَّخْوِيفِيِّ قَبْلَ الْإِهْلَاكِ الشَّامِلِ.

الفصل الثالث: حَوْلَ بَيَانِ حَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالرُّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَهُوَ فِيهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ.

الفصل الرابع: حَوْلَ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ بِشَأْنِ مُسْتَقْبَلِ النَّاسِ فِي مُجْمَعَاتِهِمُ السَّكِينَةِ وَتَوَابِعِهَا.

الفصل الخامس: حَوْلَ تَطْبِيقِ سُنَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِهْلَاكِ الْأُمَمِ إِهْلَاكاً شَامِلاً مَقْرُوناً بِتَعْذِيبِهِمْ، لِأَنَّهُمْ صَارُوا بِؤْرَةَ فسادٍ وإِفسادٍ، وَأُمَّةً مَيُوسِئَةً مِنْ صَلَاحِهَا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِ أَفْرَادِهَا الْحَرَّةِ.



رابعاً:

شرح سنن الله في الأمم

شرح السُّنَّة الأولى:

وهي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ لَا يَدَعَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ دُونَ أَنْ يَبْعَثَ لَهَا رَسُولاً نَبِيًّا، يُبَيِّنُ لَهَا الْعَايَةَ مِنْ وَجُودِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَدِينِهَا الَّذِي اضْطَفَاهُ لَهَا عَقِيدَةً وَشَرِيعَةً وَمِنْهَاجَ سُلُوكٍ، وَيُبَشِّرُ مَنْ آمَنَ وَأَطَاعَ بِالتَّعِيمِ الْخَالِدِ فِي الْجَنَّةِ، وَيُنذِرُ مَنْ كَفَرَ وَعَصَى بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ الدِّينِ، فِي جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِ الْمَجْرِمِينَ.

فَمَا مِنْ أُمَّةٍ سَلَفَتْ فِي تَارِيخِ النَّاسِ، قَبْلَ بَعْثِ خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ، إِلَّا بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا نَبِيًّا رَسُولاً، فَأَمَرَهَا بِإِيمَانِ رَبِّهِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدِّهِ، وَاجْتِنَابِ الطَّاغُوتِ.

وَبَدَّهِيَ أَنَّ الْأَمْرَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدِّهِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَسْبُوقاً بِالإِيمَانِ بِهِ رَبًّا وَاحِداً لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَبِالإِيمَانِ بِكَمَالِ صِفَاتِهِ، وَمِنْهَا حِكْمَتُهُ فِي الْخَلْقِ، وَمِنْهَا عَذْلُهُ.

وَهَذَا الْإِيمَانُ يَسْتَلْزِمُ عَقْلاً التَّعْرِيفَ بِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ، قَدْ خَلَقَ النَّاسَ لِيَبْلُوَهُمْ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، سَرَائِهَا وَضُرَائِهَا، مَحْبُوبَاتِهَا وَمَكْرُوهَاتِهَا. وَيَسْتَلْزِمُ إِعْلَامَهُمْ بِالْمَطْلُوبِ مِنْهُمْ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَإِعْلَامَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُحَاسَبُونَ وَمَدْيُونُونَ وَمُجَازَوْنَ يَوْمَ الدِّينِ.

أَمَّا الْأَمْرُ بِاجْتِنَابِ الطَّاغُوتِ فَهُوَ يَتَضَمَّنُ التَّهْيِيَّ عَنْ فِعْلِ كُلِّ شَرٍّ، وَعَنْ فِعْلِ كُلِّ مَا يُفْضِي إِلَى شَرٍّ، وَيَتَضَمَّنُ التَّهْيِيَّ عَنْ اتِّبَاعِ وَسَاوِسِ الْمُضِلِّينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ الَّذِينَ يُحَاوِلُونَ أَنْ يُطْغُوا عِبَادَ اللَّهِ بِوَسَائِلِهِمُ الْمُضِلَّةِ.

الطَّاغُوتُ: هو كثير الطغيان والشیطانُ. وكلُّ رأسٍ في الضلال. وكلُّ ما عبَدَ من دُونِ الله من الأوثانِ (يَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وَغَيْرُهُ، وَالْمَذْكُورُ وَالْمُؤَنَّثُ) ويجمع على «طواغيت» و«طواغٍ».

هذه السُّنَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ قد دَلَّتْ عليها عدَّةُ نصوصٍ في القرآن المجيد.

النص الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) خطاباً لرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) ﴿

● قرأ جمهور القراء العشرة: ﴿نَكِيرِ﴾ بحذف ياء المتكلم.

وقرأ وَزَشْ [نَكِيرِي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل فقط، وكذلك يعقوب في الوصل وفي الوقف.

والقراءتان وجهان عريان مستعملان.

﴿نَكِيرِ﴾: أي نكيري. النَكِيرُ: يأتي بمعنى الإنكار، ويأتي بمعنى العقاب، وإنكار القادر على المعاقبة والانتقام، يَدُلُّ على عقابه وانتقامه، إذا كانت الحكمة تقتضي ذلك.

أي: ﴿إِنَّا﴾: «بضمير المتكلم العظيم» أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِالْحَقِّ الثَّابِتِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، بَشِيرًا لِمَنْ آمَنَ بِكَ وَبِمَا أَرْسَلْنَاكَ بِهِ وَاتَّبَعَكَ، بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا الَّتِي يُلَاحِظُ مِنْهَا طُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ، وَرَاحَةُ النَّفْسِ، وَالْأَنْسُ بِاللَّهِ، وَبِسَعَادَةِ الْآخِرَةِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ بِأَنْ يَكُونُوا يَوْمَ الَّذِينَ خَالِدِينَ فِيهَا مُنْعَمِينَ بِغَايَةِ مَا يَتَمَنُّونَ. وَنَذِيرًا لِمَنْ كَفَرَ وَعَصَى بِعَذَابٍ يُذَرِّكُ الْكَافِرُونَ الْجَاثِدُونَ مِنْهُ فَلَقَ

الْقَلْبِ، وَظَمًا النَّفْسِ، وَمَتَاعِبَ الْحَيَاةِ فِي الدُّنْيَا، وَبِعَذَابٍ فِي الْآخِرَةِ فِي جَهَنَّمَ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانُهُ، لِلْكَافِرِينَ الْجَا حِدِينَ الْمَجْرَمِينَ.

● ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾: أي: وَمَا مِنْ أُمَّةٍ سَلَفَتْ فِي الْأَزْمَانِ الْغَوَابِرِ قَبْلَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا جَاءَهَا رَسُولٌ مِنْ رَبِّهَا إِلَيْهَا، بَشَرَهَا إِذَا هِيَ آمَنَتْ وَأَطَاعَتْ، فَلَمَّا كَفَرَتْ وَعَصَتْ كَانَ آخِرُ أَمْرِهَا مَعَهَا أَنَّهُ كَانَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا نَذِيرًا بِعَذَابِ اللَّهِ.

﴿خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾: أي: مَضَى وَذَهَبَ مَعَ ذَهَابِهَا نَذِيرٌ كَانَ قَدْ دَعَاها إِلَى دِينِ رَبِّهَا، وَانْتَهَى أَمْرُهُ مَعَهَا إِلَى أَنَّهُ كَانَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا نَذِيرًا.

● ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: أي: وَإِنْ يُكَذِّبُكَ يَا مُحَمَّدٌ مَنْ كَذَّبَكَ مِنْ أُمَّةٍ دَعَوْتِكَ، فَلَسْتَ الْفَرِيدَ مِنْ بَيْنِ الرُّسُلِ بِهَذَا الْأَمْرِ، فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ، كَمَا كَذَّبَكَ مِنْ كَذَّبَكَ مِنْ أُمَّةٍ دَعَوْتِكَ، وَالْمَعْنِيُّونَ الْأَوَّلُونَ كَفَّارُ مَكَّةَ وَمَنْ حَوْلَهَا.

● ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾: أي: إِنَّ الْأُمَمَ الَّذِينَ مَضَوْا قَدْ جَاءَتْهُمْ أَيْضًا رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، وَهِيَ الْوَاضِحَاتُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ، وَكَذَلِكَ الْعَلَامَاتُ وَالْآيَاتُ الدَّالَّاتُ عَلَى صِدْقِ رِسَالَتِهِمْ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ، وَجَاءَتْهُمْ بِالزُّبُرِ وَهِيَ الصُّحُفُ الرَّبَّائِيَّةُ الَّتِي فِيهَا شَرَائِعُ اللَّهِ وَتَعْلِيمَاتُهُ لِعِبَادِهِ، وَجَاءَتْهُمْ بِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ، كَالْكِتَابِ الْعَظِيمِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ وَخِي رَبِّهِ بَعْضُ رُسُلِ اللَّهِ، مِثْلَ التَّوْرَةِ الَّتِي جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْإِنْجِيلِ الَّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وظاهرٌ أَنَّ الْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرَ وَالْكِتَابَ الْمُنِيرَ هِيَ عَلَى التَّوْزِيعِ بَيْنَ الرُّسُلِ، فَبَعْضُهُمْ جَاءَ مِنْ رَبِّهِ بِالْبَيِّنَاتِ، وَبَعْضُهُمْ جَاءَ بِالزُّبُرِ، وَبَعْضُهُمْ جَاءَ بِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (٢٦): أي: ثم عاقبتُ الذين كفروا برُسُلِي، وبما جاءوهم به عني عِقَابٌ إهلاكٍ شامل. فانظر كيف كان إنكاري (أي: عقابي) لِلْكَفَرَةِ المَكْذُوبِينَ المشَاقِينَ لِرُسُلِي المقاومين لدعواتهم.

إنه كان عقاباً أليماً مُستأصِلاً يَجْعَلُ في قُلُوبِ أوليائي المضطَّهدين الطُمَأْنِينَةَ بِأَنِّي سَأَنْصُرُهُمْ كما نَصَرْتُ رُسُلِي والذين آمنوا بهم من قبلهم، وَيَجْعَلُ في قُلُوبِ ذَوِي الْعَقْلِ والرُّشْدِ مِنَ الْكَافِرِينَ الدُّعْرَ مِنَ الْهَلَاكِ والعذاب الذي يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لَهُ، إِذَا أَصْرُوا عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ وَعِنَادٍ، وَفَسَادٍ وَإِفْسَادٍ فِي الْأَرْضِ.



النص الثاني: قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٧):

أي: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ فِي قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ وَتَدَابِيرِهِ لاختِيارِ النَّاسِ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، رَسُولٌ نَبِيٌّ يَبْلُغُهُمْ عَنِّي الْغَايَةَ مِنْ خَلْقِ بَنِي آدَمَ فِي الْأَرْضِ، وَهِيَ الْإِبْتِلَاءُ الَّذِي يَسْتَلْزِمُ الْمَحَاسِبَةَ وَفَضْلَ الْقَضَاءِ وَتَحْقِيقَ الْجَزَاءِ يَوْمَ الدِّينِ، وَيُبَلِّغُهُمْ مَطْلُوبَ رَبِّهِمْ مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَمَا سَوْفَ يُلَاقُونَهُ مِنْ جَزَاءٍ يَوْمَ الدِّينِ بِالثَّوَابِ أَوْ بِالْعِقَابِ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ مَا قَدْ يَنْزِلُ بِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ عَذَابٍ وَإِهْلَاكِ شَامِلٍ، إِذَا أَصْرُوا عَلَى الْكُفْرِ وَعَلَى تَكْذِيبِ رُسُلِ رَبِّهِمْ وَشَاقُوهُمْ وَعَانَدُوا الْحَقَّ، وَنَشَرُوا الْفَسَادَ وَالْإِفْسَادَ فِي الْأَرْضِ.

فإذا جاءهم رُسُلُهُمْ، وَأَدَّى وَظَائِفُهُ فِيهِمْ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ رَبُّهُ وَرَبُّهُمْ وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، فَأَمَّنَ بِهِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَسَعَى يَسْلُكُ سَبِيلَ الْمُتَّقِينَ، وَكَفَرَ

به مَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ، وَاَنْطَلَقَ يَسْأَلُ الْفَجَّارِ الْمُجْرِمِينَ، وَأَصْرٌ هَؤُلَاءِ عَلَى عِندِهِمْ وَمُشَاقَّةَ رَسُولِ رَبِّهِمْ، واضطهاد المؤمنين.

عِنْدَئِذٍ يُجْرِي اللَّهُ فِيهِمْ سُنَّتَهُ، فيَقْضِي بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ بِالْعَدْلِ، فَيُنْجِي الَّذِينَ آمَنُوا، وَيُعَذِّبُ وَيُهْلِكُ الْمَكْذِبِينَ.

وَالَّذِينَ يُهْلِكُهُمْ وَيُعَذِّبُهُمْ رَبُّهُمْ، لَا يُظْلَمُونَ حِينَ إِهْلَاكِهِمْ بِالْعَذَابِ شَيْئاً.

﴿بِالْقِسْطِ﴾: أي: بِالْعَدْلِ. وَالْقِسْطُ: من المصادر التي يوصف بها «يوصف به الواحد فأكثر، والمذكر والمؤنث».



النص الثالث: قول الله عز وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمَكْذِبِينَ ﴿١٦﴾﴾:

دل هذا النص على أنه ما من أمة سلفت في تاريخ البشرية قبل أمة دعوة مُحَمَّدٍ ﷺ، وهُم النَّاسُ أَجْمَعُونَ بَعْدَ بَعَثِهِ، إِلَّا بَعَثَ اللَّهُ بَعْظَمَةَ رُبُوبِيَّتِهِ فِيهَا رَسُولًا:

- فَأَمَرَ أُمَّتَهُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَمَرَهُمْ بِكُلِّ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ لِتَحْقِيقِ عِبَادَةِ اللَّهِ عَلَى مُرَادِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانَهُ فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ وَاضْطَفَى مِنَ الدِّينِ.
- وَأَمَرَهُمْ بِاجْتِنَابِ الطَّاغُوتِ، وَبِكُلِّ مَا يَلْزَمُ لِتَحْقِيقِ هَذَا الاجْتِنَابِ.

الطَّاغُوتُ: هو الشيطان من الجن والإنس، وكُلُّ رَأْسٍ فِي الضَّلَالِ، وَكُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْأَوْثَانِ، وَكُلُّ مَنْ يُطْغِي وَيُبْعِدُ عَنِ

صراط الله، وكلُّ ما يُطغى من مُحَسٍّ وَغَيْرِ مُحَسٍّ، حتَّى الأفكارُ والأهواء والشهوات والأوهام والخُرَافَات.

«أَنْ» في عبارة: ﴿أَبْأَعْبُدُوا﴾ مُضَدِّرِيَّة، والتقدير: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا بِأَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ، أو تَفْسِيرِيَّة، لَأَنَّ فِي العبارة قَبْلَهَا مَعْنَى التَّكْلِيفِ أَنَّ يَقُولُ لِقَوْمِهِ، دون حُرُوفِ القول.

فماذا كان واقع حَالِ الْأُمَمِ تُجَاةَ دَعَوَاتِ رُسُلِ رَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ؟: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾: أي: فَمِنْهُمْ مَنْ حَكَمَ اللَّهُ لَهُمْ بِالْهُدَايَةِ، إِذِ اسْتَجَابُوا لَدَعَوَاتِ رُسُلِ رَبِّهِمْ باختيارهم الحرَّ، فآمَنُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ إِلَيْهِمْ وبسائر رُسُلِهِ، كُلٌّ عَلَى قَدَرِهِ، وَعَبَدُوا اللَّهَ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا، كُلٌّ عَلَى الْقَدْرِ الَّذِي اتَّجَهَتْ لَهُ إِرَادَتُهُ الْحَرَّةُ وَعَزِيْمَتُهُ.

وهؤلاء هُمُ الْعَدَدُ الْقَلِيلُ بِحَسَبِ واقع أحوال الناس. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾: أي: وَمِنْهُمْ مَنْ ثَبَتَتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ، إِذِ سَلَكَ سَبِيلَ الضَّلَالَةِ باختياره الحرَّ، فَحَكَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالضَّلَالَةِ. وَإِذِ قَاوَمَ هَؤُلَاءِ رُسُلَ رَبِّهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ، وَوَقَفُوا مِنْهُمْ مَوَاقِفَ الْعَدَاءِ وَالشَّقَاقِ وَاسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ لِلْقَمْعِ، فَقَدْ اسْتَحَقُّوا أَنْ يُعَاقِبَهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ وَالْإِهْلَاكِ الشَّامِلِ، انتصاراً لِرُسُلِهِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهُمْ، فَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ عَقُوبَاتُ ضَلَالَتِهِمْ، فَعَذَّبَهُمْ وَأَهْلَكَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَبْقَى بَعْضَ آثَارِهِمْ فِي الْأَرْضِ آيَاتٍ عَلَى مَا جَرَى لَهُمْ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَعَظَّ بِهَا مَنْ شَاءَ مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي تَكُونُ خَلَائِفَ مِنْ بَعْدِهِمْ.

﴿...فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣١):

هذا أَمْرٌ لِكُلِّ الَّذِينَ يَزْعُبُونَ فِي مَعْرِفَةِ عَاقِبَةِ مُكَذِّبِي رُسُلِ رَبِّهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ، وَمَعْرِفَةِ كَيْفَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ إِهْلَاكًا شَامِلًا مَفْرُوعًا بِتَعَذِيبٍ، فَذَمَّرَ عَلَيْهِمْ دِيَارَهُمْ، وَاسْتَأْصَلَ شَاقَتَهُمْ، وَقَطَعَ دَابِرَهُمْ.



شرح السُّنة الثانية:

وهي أن يَبْعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الرَّسُولَ فِي الْمَجْمَعِ السَّكْنِيِّ الْأُمِّ، لِكُلِّ أُمَّةٍ يُرْسِلُ إِلَيْهَا رَسُولًا، وَيُلْحَقُ بِهِ سَائِرُ الْقُرَى وَالْبَوَادِي التَّابِعَةُ لَهُ، وَالَّتِي يَسْكُنُهَا الْمُتَتَمُونَ إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ.

وقد أطلق الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَى كُلِّ مَجْمَعٍ سَكْنِيٍّ اسْمَ قَرْيَةٍ، وَلَوْ كَانَتْ مَدِينَةً عَظْمَى، لِأَنَّ مَعْنَى الْقَرْيَةِ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ كَذَلِكَ.

قال ابنُ سَيِّدَةَ: الْقَرْيَةُ وَالْقَرْيَةُ، الْمِضْرُ الْجَامِعُ.

أقول: أَمَّا تَخْصِيصُ الْقَرْيَةِ بِالْمَجْمَعَاتِ السَّكْنِيَةِ الصَّغْرَى، بِخِلَافِ الْكُبْرَى، إِذْ يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدَةِ مِنْهَا اسْمُ مَدِينَةٍ، فَهُوَ عُرْفٌ اصْطِلَاحِيٌّ مُتَأَخِّرٌ.

وَأَمُّ الْقُرَى: هِيَ مَكَّةُ الْمَكْرَمَةِ، إِمَّا لِأَنَّهَا أَوَّلُ مَا بُنِيَ فِي الْأَرْضِ مِنْ أُنْبِيَاءٍ، إِذْ فِيهَا أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ. وَإِمَّا لِأَنَّ أَهْلَ الْقُرَى يَحْجُونَ إِلَيْهَا فَيُؤْمِنُونَهَا.

دَلٌّ عَلَى هَذِهِ السُّنَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْقَصَصِ/ ٢٨) مَصْحَف/ ٤٩ نزول):

﴿وَمَا كَانَ رِئَاكُ مَهْلِكِ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمِهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا...﴾ (٥٩):

● قَرَأَ حَمَزَةً وَالْكَسَائِي فِي الْوَصْلِ ﴿إِمَمَهَا﴾ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ، وَهِيَ لُغَةٌ عَرَبِيَّةٌ.

وقرأ باقي القراء العشرة [أُمَمَهَا] بِضَمِّ الْهَمْزَةِ.

﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمِهَا رَسُولًا﴾: أَي: حَتَّى يَبْعَثَ رَسُولًا فِي الْقَرْيَةِ الَّتِي هِيَ بِمِثَابَةِ الْأُمِّ، لِسَائِرِ قُرَى الْأُمَّةِ وَمُلْحَقَاتِهَا، وَتَكُونُ هَذِهِ فِي الْعَادَةِ مِنْ

كُبراهها، ومَرْكَزَ سلطاتها الإدارية، وكثيرٌ من أفرادِ هذه الأُمَّةِ يُؤْمِنُونَهَا لقضاء كثيرٍ من مصالحهم الحياتية، وتَجْتَمِعُ فيها غالباً معظمُ المصالحِ الاقتصادية وغيرها، وتُسَمَّى في لغة عَصُورِنَا «العاصمة».

وهذا الرُّسُولُ النَّبِيُّ يُبَلِّغُ الأُمَّةَ مَا أَمَرَهُ اللهُ بتبليغهم إِيَّاه، وهي قضايا دينهم، وواجباتهم تُجاه ربهم.

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾: هَذِهِ الْعِبَارَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مَا مِنْ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ، إِلَّا كَانَ قَدْ تَلَقَّى مِنْ رَبِّهِ آيَاتٍ مِنَ الْبَيَانِ مُنْزَلَاتٍ عَلَيْهِ، وَهُوَ مُكَلِّفٌ أَنْ يَتْلُوَهَا عَلَيْهِمْ، وَيُبَلِّغَهُمْ إِيَّاهَا، سَوَاءً أَكَانَتْ بِمَقْدَارِ صُحُفٍ ذَوَاتٍ عَدَدٍ غَيْرِ كَثِيرٍ، أَوْ زُبْراً ذَاتَ شَأْنٍ، أَوْ كُتُباً عَظُمَى، كَالْتَوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ.



شرح السُّنَّةِ الثالثة:

وهي أَنْ لَا يُهْلِكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أُمَّةَ كَافِرَةٍ مُجْرِمَةٍ إِهْلَاكاً شَامِلاً مُقْتَرِناً بِتَعْذِيبِهَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُقِيمَ عَلَيْهَا الْحُجَّةَ، بَدْءاً بِكِبَرَائِهَا وَالثَّرَفَيْنِ فِيهَا، وَبَعْدَ أَنْ يُوْجِهَ لَهُمُ الْأَوَامِرَ وَالنَّوَاهِي، فَيَتَمَرَّدُوا عَلَيْهَا، وَيَفْسُقُوا خَارِجِينَ خُرُوجاً كَامِلاً عَنِ الطَّاعَةِ.

دَلٌّ عَلَى إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهَا قَبْلَ إِهْلَاكِهَا بَيِّنَاتُ الرُّسُلِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَمَّا مُنْذِرُونَهَا ﴿٢٧﴾ ذِكْرًا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾:

(مِنْ) فِي ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ حَرْفُ جَرٍّ زَيْدٌ لِلتَّنْصِصِ عَلَى الْعُمُومِ، وَ«قَرْيَةٍ» مَفْعُولٌ بِهِ مَنْصُوبٌ مُحَلًّا.

أَي: وَمَا سَبَقَ أَنْ أَهْلَكْنَا مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ مِنَ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ، إِلَّا فِي

حَالَةً كَوْنَهَا لَهَا مُنْذِرُونَ أَنْذَرُوهُمْ عَذَابَ رَبِّهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ
وإفسادهم في الأرض.

وهؤلاء المنذرون هم رسل، أو أنبياء متبعون رسالات رسل، أو دعاة
مبلعون دعوات الرسل الذين آمنوا بهم واتبعوهم.

وهذا الإهلاك الذي يُجره الله هو ذكرى، أي: يَجْعَلُهُ لِلْأُمَّمِ اللَّاحِقَةِ،
حقيقة يَضْعُونَهَا في ذكراتهم، لِيَتَّعِظُوا بِهَا إِنْ شَاءُوا.

وهذا الإهلاك لا يكون بحكمة الله إلا تحقيقاً للعذل، فلا ظلم فيه
﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

الذكرى: اسمٌ للتذكير، ويكون بمعنى التذكر، ويأتي اسماً للتذكيرة،
وهي الوسيلة التي تُذكر، كالبطاقة.

ودل على إقامة الحجّة عليها قبل تعذيبها قول الله عز وجل في
(سورة الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥)

يتحدث ربنا جلّ جلاله بِضَمِيرِ المتكلم العظيم إشارة إلى كمال صفاته
ومنها حكمته.

أي: وَمَا مِنْ شَأْنٍ دَوَامًا أَنْ نَكُونَ مُعَذِّبِينَ الْأُمَّمِ الْكَافِرَةَ الْمُسْتَحِقَّةَ
لِلتَّعْذِيبِ الشَّامِلِ، عَذَابًا مُعْجَلًا فِي الدُّنْيَا مَقْرُونًا بِإِهْلَاكِ شَامِلٍ، حَتَّى نَبْعَثَ
فِيهِمْ رَسُولًا يُبَلِّغُهُمْ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ تَجَاهَ رَبِّهِمْ مِنْ إِيْمَانٍ وَعَمَلٍ، فِي رِحْلَةٍ
امْتِحَانِهِمْ، وَنَقِيمَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ.

وَيَكْفِي أَنْ تَبْلُغَهُمْ دَعْوَةُ الرَّسُولِ عَلَى أَلْسِنَةِ الدَّعَاةِ مِنْ أُمَّتِهِ، أَوْ تَبْلُغَهُمْ
قَضَايَا الدِّينِ عَنْ طَرِيقِ قِرَاءَةِ كِتَابِ اللَّهِ الصَّحِيحِ الثَّابِتِ الْمُنَزَّلِ لِعِبَادِهِ، أَوْ

معرفة ما جاء فيه بأية وسيلة، وهم مسؤولون عن البحث لمعرفة دين الله الحق الذي يطالب الله به عباده الممتحنين.

ودل على البدء بكبراء الأمة والمترفين فيها، قول الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ لِيَمْلِكُوا فِيهَا وَمَا يَمْلِكُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١١٤﴾﴾ :

تمهيد:

خلق الله الناس متفاضلين في هباتهم الفكرية والنفسية والجسدية، لتتوزع بين أفرادهم مهمات المجتمع البشري، فيكون منهم عمال، وصناع، وزراة، وأصحاب مهن وحرف، وتجار، ومفكرون، ومتعلمون، ولينرز فيهم قادة يديرون كبريات شؤون المجتمع.

والقادة يكونون في سنن الاجتماع البشري هم الكبراء في أقوامهم ومجتمعاتهم، ويكونون هم الذين تستند إليهم الرياسات، ويرجع إليهم في الشؤون العامة، وتكون الجماهير تبعاً لهم، يبذلون لهم الولاء والطاعة والانقياد.

وهؤلاء القادة تتكون لهم في مجتمعاتهم مصالح نفسية ومادية يحرصون على أن لا يتنازعهم عليها متنازع، ولا يشاركهم فيها مشارك.

فإذا كانت للمجتمع مبادئ وعقائد وتقاليد وعادات ترتبط بها مصالح كبراء القوم وقادتهم، فإنهم يكونون في العادة هم الأعداء الطبيعيين لمن يريدون تغييرها، إذ يرون أن من يحاول تغييرها يريد أن ينتزع منهم مناصبهم الاجتماعية، ويسلبهم سلطانهم ومصالحهم المادية.

وَتَبَرَّزُ فِي كُلِّ مَجْتَمَعٍ مُعْتَقِدَاتٍ وَمَفْهُومَاتٍ بَاطِلَاتٍ، وَأَنْوَاعٍ مِنَ التَّقَالِيدِ الَّتِي لَا خَيْرَ فِيهَا، وَأَنْوَاعٍ مِنَ السُّلُوكِ الْفَاسِدِ، الَّتِي تَرْتَبِطُ بِهَا مَصَالِحُ كُبَرَاءِ الْقَوْمِ الْقِيَادِيَّةِ، وَالسُّلْطَانِيَّةِ، وَالنَّفْعِيَّةِ، وَهِيَ فِي الْغَالِبِ تُرْضِي الْأَهْوَاءَ وَالشَّهَوَاتِ وَالْأَنَانِيَّاتِ الْفَرْدِيَّةَ، وَتَقُومُ عَلَى الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ.

فَيَبْعَثُ اللَّهُ الرُّسُلَ لِإِعْلَامِ النَّاسِ بِالْغَايَةِ مِنْ خَلْقِهِمْ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَإِعْلَامِهِمْ بِمَطْلُوبِ اللَّهِ مِنْهُمْ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَبِالْغَايَةِ الْمَعْدَّةِ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، بَعْدَ الْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ.

وهؤلاء الرُّسُلُ يَأْمُرُونَ أَقْوَامَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِالْحَقِّ الَّذِي قَامَتْ عَلَيْهِ الرُّسَالَاتُ الرَّبَّانِيَّةُ كُلُّهَا، وَبِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيَنْهَوْنَهُمْ عَنْ ارتكاب ما يُسَخِّطُ اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ، مِنْ فِسْقٍ وَظُلْمٍ وَإِفْسَادٍ فِي الْأَرْضِ، وَعُدْوَانٍ وَطُغْيَانٍ.

فَيَقِفُ كُبَرَاءُ الْقَوْمِ فِي وُجُوهِهِمْ مُعَارِضِينَ وَمُنْكَرِينَ لَمَّا جَاءُوا بِهِ عَنْ رَبِّهِمْ، ثُمَّ يَكُونُونَ مُعَادِينَ لَهُمْ، ثُمَّ يَعِدُّونَ مَا يَلْزَمُ لِإِقَافِ دَعْوَتِهِمْ بِالْقُوَّةِ، وَقَمْعِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهُمْ.

وَيُسَانِدُ هَؤُلَاءِ الْقَادَةَ الْكِبْرَاءَ الْجُمْهُورُ الْأَعْظَمُ مِنْ قَوْمِهِمْ، لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مَصَالِحَهُمْ وَمَا اغْتَادُوهُ فِي حَيَاتِهِمْ، مِمَّا يُرْضِي أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَأَنَانِيَّاتِهِمْ، مُرْتَبِطَةٌ بِمُنَاصَرَةِ قَادَتِهِمُ التَّقْلِيدِيِّينَ مِنْ قَوْمِهِمْ.

وَيَكُونُ لِلْقَادَةِ فِي أَقْوَامِهِمْ بِحَسَبِ مَا أُوتُوا مِنْ ذِكَاٍ وَحِيلَةٍ، وَقُدْرَاتٍ سُلْطَانِيَّةٍ، أَنْوَاعٌ مِنَ الْمَكْرِ الْكَبِيرِ بِجَمَاهِيرِ اتِّبَاعِهِمْ، لِإِخْكَامِ رِبْطِهِمْ بِهِمْ، وَأَنْوَاعٌ أُخْرَى كَثِيرَةٌ مِنَ الْمَكْرِ الشَّدِيدِ ضِدَّ الرُّسُلِ وَضِدَّ مَا جَاءُوا بِهِ عَنْ رَبِّهِمْ، وَضِدَّ كُلِّ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ دَعْوَتُهُمْ، وَضِدَّ اتِّبَاعِهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَاتَّبَعُوهُمْ.

التدبر :

• ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ :

دلّت سوابق هذا النص من سورة (الأنعام) على أوضاع تكوينية تم بها نظام الخلق العام، وما جاء في هذا النص معطوف عليها.

أي: وكذلك الوضع التكويني الذي تم به نظام الخلق العام، والذي يتبع فيه المؤمنون ما يرون من حق وخير وفضيلة بإراداتهم الحرة، ويتبع فيه الذين كفروا أهواءهم وشهواتهم وما يزين لهم الطاغوت من جرائم في الحياة الدنيا، مع أن كلا الفريقين يتعرّضان للمرغبات في سبيل الهدى، وللبهارج والزينات في سبيل الضلال بنسبة سواء.

كذلك الوضع التكويني جعلنا أيضاً في نظام الخلق العام أن يوجد في كل مجتمع بشري فريق هم القياديون، بما يوهبون من خصائص فكرية ونفسية، تؤهلهم لأن يكونوا أكابر في أقوامهم، وقادة تنهياً لهم بسبب قيادتهم مصالح نفسية سلطانية، ومصالح أخرى ترضي أهواءهم وشهواتهم، ومصالح مادية مختلفة.

وهم في الغالب لا يستطيعون تحقيق مطامعهم الشرهية، إلا بوسائل إجرامية ظاهرة أو خفية.

إذا بعث الله رسلاً، وبدؤوا بتبليغ أوامر الله ونواهيه أكابر أقوامهم، كان من أمر هؤلاء الكبراء أن يَمْكُرُوا بِرُسُلِ اللَّهِ مَكْرًا كُبَارًا، ليمنعوا رسالاتهم من أن يكون لها انتشار في أقوامهم، بغية المحافظة على مصالحهم ومنافعهم ومطامعهم الواسعة الإجرامية في أقوامهم، وبغية المحافظة على زعاماتهم لهم، وربطهم بهم تابعين مُنفّذين.

اللام في ﴿لِيَمْكُرُوا﴾ ليست لام التعليل، إنما هي لام العاقبة كما يقول النحاة. المكر: تدير أمر في خفاء، ويكون في الخير ويكون في الشر.

إِنَّ الْحِكْمَةَ التَّكْوِينِيَّةَ قَضَتْ تَنْظِيمَ حَالِ الْمُجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ، وَامْتِحَانَ النَّاسِ بِحَسَبِ مَوَاهِبِهِمْ وَخَصَائِصِهِمْ، وَبِحَسَبِ مَكَانَاتِهِمْ فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ، فَاسْتَغْلَ الْقَادَةَ مِنْ أَكْبَرِ الْأَقْوَامِ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ هِبَاتٍ فِي الْإِجْرَامِ، فِي مَعَادَاتِ دَعَوَاتِ رُسُلِ رَبِّهِمْ، كَمَا يَسْتَغْلُ صَاحِبُ الْمَالِ الْوَاسِعِ مَالَهُ فِي الْفُجُورِ وَالْإِثْمِ وَمَعْصِيَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَكَمَا يَسْتَغْلُ أَصْحَابُ الْقُوَى الْجَسَدِيَّةِ أَجْسَادَهُمْ فِي السَّطْوِ عَلَى بَعْضِ عِبَادِ اللَّهِ الضَّعَفَاءِ، وَكَمَا يَسْتَغْلُ أَصْحَابُ الْحِيلَةِ قُدْرَاتِهِمْ فِي الْحِيلَةِ، لِتَحْقِيقِ مَصَالِحَ لَهُمْ قَائِمَةٍ عَلَى الْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ، وَهَكَذَا إِلَى سَائِرِ الْخَصَائِصِ الْفِطْرِيَّةِ.

مَعَ أَنَّ أَصْحَابَ الْفِطْرِ الْمُمْتِزَةِ قَدْ مُنِحُوا فِطْرَهُمْ لِيَبْلُوَهُمُ اللَّهُ بِهَا، وَبِاسْتِطَاعَتِهِمْ أَنْ يَفْعَلُوا فِيهَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَالصَّلَاحَ وَالْفَسَادَ، وَالطَّاعَةَ وَالْمَعْصِيَةَ، وَأَنْ تَكُونَ وَسِيلَتُهُمْ لِلْمَرَاتِبِ الْعُلْيَا فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ، وَأَنْ تَكُونَ وَسِيلَتُهُمْ لِلْإِنْحِطَاطِ إِلَى الدَّرَكَاتِ السُّفْلَى مِنْ دَرَكَاتِ الْجَحِيمِ.

﴿وَمَا يَتَكُفِّرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١١٣):

أَي: إِنَّهُمْ حِينَمَا يَسْتَغْمِلُونَ هِبَاتِهِمُ الَّتِي مَيَّزَهُمُ اللَّهُ بِهَا، فِيمَا يَسْتَطِيعُونَ مِنْ مَكْرِ بُغْيَةٍ قَمَعَ دَعَوَاتِ رُسُلِ اللَّهِ، وَمُعَادَاتِ رِسَالَاتِهِمْ، وَاضْطِهَادِ أَتْبَاعِهِمْ، فَإِنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ يَمْكُرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ، لِأَنَّهُمْ بِمِثَابَةِ مَنْ يَنْقُبُ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ الْجِدَارَ، لِيَسْرِقَ مَا فِي الدَّارِ، حَتَّى إِذَا كَادَ أَنْ يَدْخُلَ وَيَظْفَرَ بِمَا يُرِيدُ أَسْقَطَ عَلَيْهِ الْجِدَارَ الَّذِي نَقَبَهُ أَوْ صَخْرَةً عَظِيمَةً مِنْهُ فَقَتَلَتْهُ، أَوْ أَطْبَقَ عَلَيْهِ الْفَخَّ الْمَوْضُوعَ وَرَاءَ الثَّقْبِ الَّذِي يَنْقُبُهُ، فَتَشَبَّهَ بِهِ مَخَالِبُهُ.

إِنَّهُمْ يَمْكُرُونَ مُتَرَقِّبِينَ الظَّفَرَ، وَتُسَهِّلُ لَهُمُ الْمَقْدَمَاتِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِمَا يَتَرَصَّدُهُمْ مِنْ ضَرْبَةٍ، أَوْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، وَبَيْنَمَا هُمْ مُنْتَهِجُونَ بِقُرْبِ الظَّفَرِ، إِذَا بِهِمْ يُفَاجِئُونَ بِمَا لَمْ يَكُونُوا يَتَوَقَّعُونَ، فَيَنْزِلُ بِهِمْ عِقَابُ اللَّهِ وَعَذَابُهُ.

• ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾:

دَلَّتْ هَذِهِ الْفِقْرَةُ عَلَى أَنَّ وَضَعَ هَؤُلَاءِ الْكِبَرَاءِ الْقِيَادِيَّ فِي مَجْتَمَعِهِمْ، قَدْ نَفَخَ فِي نَفْسِهِمْ وَصُدُورِهِمُ الْكِبَرِ، فَجَعَلَهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ عَنِ اتِّبَاعِ رُسُلِ اللَّهِ، مَعَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِآيَةِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْمَعْجَزَاتِ الْمُفْنِعَاتِ بِأَنَّ الرُّسُولَ الَّذِي يُبَلِّغُهُمْ عَنْ رَبِّهِ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا.

وَيَرَى هَؤُلَاءِ الْكِبَرَاءُ أَنَّهُمْ مُؤَهَّلُونَ لِأَنْ يُوجِي اللَّهَ إِلَيْهِمْ، كَمَا أُوحِيَ إِلَى رُسُلِهِ، وَأَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ بِالْوَحْيِ كَمَا أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ، وَغَرَضُهُمْ أَنْ يُحَافِظُوا عَلَى مَنَاصِبِهِمُ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي أَقْوَامِهِمْ.

فِيكَابِرُونَ بِالْبَاطِلِ، وَيُعَانِدُونَ الْحَقَّ، وَيَقُولُونَ: لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ، مَعَ أَنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لَيَسُوا مُؤَهَّلِينَ لِلِاصْطِفَاءِ بِالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، فَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، إِنَّمَا يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ حَيْثُ يَجِدُ فِي عَبْدِهِ الْأَهْلِيَّةَ الثَّامَّةَ لِحَمْلِهَا، وَالْقِيَامَ بِوُظَائِفِهَا وَأَعْبَائِهَا.

● ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ :

أَي: إِنَّ الْإِصْطِفَاءَ بِالْوَحْيِ وَالنُّبُوَّةِ، وَالِإِصْطِفَاءَ بِالرِّسَالَةِ، لَا يَكُونُ عَلَى وَفْقِ تَشَهِّيَاتِ النَّاسِ، وَمَا يَتَصَوَّرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَوْ يَتَمَنُّونَهُ، إِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ مَبْنِيًّا عَلَى عِلْمِ اللَّهِ بِعَبْدِهِ، هَلْ هُوَ مُؤَهَّلٌ أَمْ لَا؟ هَلْ يَصْلُحُ لِلنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ أَمْ لَا يَصْلُحُ؟.

وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مُؤَهَّلًا لِلنُّبُوَّةِ يَضْطَفِيهِ اللَّهُ بِهَا، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مُؤَهَّلًا لِلرِّسَالَةِ يَضْطَفِيهِ اللَّهُ بِهَا. إِنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

● ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا

يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ :

أَبَانَتْ هَذِهِ الْفَقْرَةُ عُقُوبَةَ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَكْبِرِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، جَزَاءَ مَكْرِهِمْ بِرُسُلِ اللَّهِ وَبِرِسَالَاتِهِ، وَإِذْ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ مُؤَهَّلُونَ لِلِاصْطِفَاءِ بِالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ،

مُغْتَرِبِينَ بَأْتُهُمْ أَكْبَرُ أَقْوَامِهِمْ، فَيَفْرِضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ أَنْ يُؤْتِيَهُمْ مِثْلَ مَا آتَى رُسُلَهُ، حَتَّى يُؤْمِنُوا بِمَا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَجَزَاءُ مَا يَفْتَرُونَهُ مِنْ جَرَائِمٍ لِيَحَافِظُوا عَلَى مَنَاصِبِهِمُ الْاجْتِمَاعِيَّةَ، وَمَصَالِحِهِمُ النَّفْسِيَّةَ وَالْمَادِيَّةَ. أَمَّا الصَّغَارُ الَّذِي سَيُصِيبُهُمْ فَهُوَ الْعُقُوبَةُ الْمُنَاسِبَةُ لِحَالَةِ اسْتِكْبَارِهِمْ عَلَى آيَاتِ اللَّهِ وَعَلَى رُسُلِهِ.

وَأَمَّا الْعَذَابُ الشَّدِيدُ فَهُوَ الْعُقُوبَةُ الْمَلَائِمَةُ لَجُحُودِهِمُ الْحَقَّ، وَلِكُفْرِهِمْ، وَلَجَرَائِمِهِمُ الْكَثِيرَةِ الَّتِي كَانُوا يُمَارِسُونَهَا.

وَدَلٌّ عَلَى الْبَدْءِ بِكِبَرَاءِ الْأُمَّةِ وَالْمُتَرَفِينَ فِيهَا مَعَ التَّنْبِيهِ عَلَى كَوْنِهِمْ مُتَرَفِينَ، إِذْ يُلْحَقُ بِكِبَرَاءِ الْقَوْمِ الْمُتَرَفُونَ فِيهِمْ، وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا أَصْحَابَ سُلْطَةٍ إِدَارِيَّةٍ، قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْإِسْرَاءِ/ ١٧) مَصْحَف/ ٧٠ (نزول):

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيَّهَا الْقَوْلُ فَمَدَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۖ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ۖ وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (١٦) ﴿١٧﴾ :

أي: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ تَسْتَحِقُّ الْإِهْلَاكَ لِعُلُوقِهَا فِي كُفْرِهَا، وَإِسْرَافِهَا فِي الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ، وَالْإِثْمِ وَالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ، وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ.

أُطْلِقَ لَفْظُ قَرْيَةٍ وَالْمَرَادُ أَهْلُهَا، وَهَذَا مِنَ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْبَلَاغَةِ، وَنَظَائِرُ هَذَا الْإِطْلَاقِ كَثِيرَةٌ جَدًّا فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي: أَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رَسُولًا أَوْ أَكْثَرَ، وَمَعَهُ مَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، وَحَمَلَ مَعَهُ رِسَالَةَ الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ، فَبَدَّوْا بِتَبْلِيغِ مُتْرَفِيهَا دِينَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ، وَأَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ، وَسَائِرَ وَصَايَاهُ، وَأَمْرُ اللَّهِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْخَيْرِ، فَلَا يَكُونُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ وَالشَّرِّ.

المُتْرَفُونَ: هم الَّذِينَ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِم فِي الرِّزْقِ والمال، فكانوا من ذوي الاستِمتاع الزائدِ بِلَذَّتِ الحياة الدنيا، وبمطالبِ نفوسهم من زيناتها، وربما جعلَهُم ذَلِكَ مِنَ المستَكْبِرِينَ البَطِرِينَ.

وهؤلاء يَكُونُونَ في مُعْتَادِ الشُّعُوبِ الخارجَةِ عن العمل بِمُتَهاجِ رَبِّها، هُمُ الكُبراءُ أَصْحَابُ السُّلْطَةِ الإدارِيةِ، أو الهَالَةُ الاجْتِمَاعِيَّةِ المحيطة بِهَم، ولو لم يَكُونُوا ذَوِي سُلْطَةٍ إدارِيةٍ مُباشِرةٍ.

يُقَالُ لُغَةً: أَتْرَفَ فُلَانٌ، أَي: وَسَّعَ عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ والمال، فكان بِذَلِكَ مِنَ المُنْعَمِينَ. وَيُقَالُ: أَتْرَفَتِ التَّغْمَةُ فُلَانًا، أَي: أَبْطَرَتْهُ فجعلته من المستَكْبِرِينَ.

ويَكُونُ بَدْءُ تَوَجُّهِهِ أَوَامِرِ اللَّهِ لِلْمُتْرَفِينَ، وَهُمُ الكُبراءُ والهِالَةُ الاجْتِمَاعِيَّةُ المحيطة بِهَم، باعتبارهم وَجُوهُ الْقَوْمِ وَقَادَتُهُمْ، وَمِنْ ورائِهِم أَتباعُهُمُ الموالُونَ لَهُم من قومِهِم، وَهم السَّوادُ الأعظم.

فالمَقْصُودُ تَبْلِيغُ أَمْرِ اللَّهِ لِجَمِيعِ الْأُمَّةِ مُتَّبِعِينَ وَأَتباعاً.

﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾: أَي: فَخَرَجُوا عَنِ طَاعَةِ أَمْرِ اللَّهِ فِي قَرَّتِهِمْ، مُتَّبِعِينَ مُتْرَفِينَ، وَجماهيرَ تَابِعِينَ لَهُمْ غَيْرَ مُتْرَفِينَ.

الْفِسْقُ: هُوَ الْعِضْيَانُ والخُرُوجُ عَنِ طَاعَةِ أَمْرِ مَنْ تَجِبُ طَاعَتُهُ. يُقَالُ لُغَةً: فَسَقَ يَفْسُقُ وَيَفْسِقُ فِسْقًا وَفُسُوقًا.

وَهُوَ مُصْطَلَحٌ إِسْلَامِيٌّ مأخُودٌ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ، إِذَا خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتِها، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الرُّطْبَةَ مَتَى خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتِها تَعَرَّضَتْ لِلْفَسَادِ السَّرِيعِ.

وَدَرَكَةُ الْفِسْقِ المَرادِ في هَذَا النِّصْرِ هِيَ دَرَكَةُ الْكُفْرِ وَمَا يَجْتَمِعُ مَعَهُ وَيَنْتُجُ عَنْهُ، مِنْ فُجُورٍ وَبَغْيٍ وَجَرَائِمَ كَثِيرَةٍ.

﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾: أي: فثبتَ عليها القولُ بإهلاكها وتغذيبها، وإصدارِ الأمرِ الربَّانيِّ بذلك على وفق قضاء الله وقدره، وهذا يكونُ قبل التنفيذ.

﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾: أي: فدَمَرْنَا القَرْيَةَ على أهلِها الفَاسِقِينَ، هذه الجملة تُعبِّرُ عن مَرَحَلَةِ التَّنْفِيذِ الفِعْلِيِّ.

التدمير: الإهلاكُ باستِئصال، ومحوُ المباني وآثارها حتَّى لا يُرى منها شيء، وهذا يكون بالنسبة إلى بغضِ الأمم لا كُلِّهم.

أصلُ التدميرِ تَخْطِيطُ الشيءِ على وَجْهِه لا يُزَجَّى بَعْدَهُ إِضْلَاحُهُ، وتدميرُ كُلِّ شيءٍ يكونُ بحَسَبِ ما يلائمه.

﴿تَدْمِيرًا﴾: مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ مُؤَكَّدٌ لِفِعْلِهِ، ومُشْعِرٌ بأنَّ التدميرَ كانَ شَدِيدًا عَنِيفًا مُسْتَأْصِلًا، مَاحِيًا لِكُلِّ أثر.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾: أي: عَدَدًا كَثِيرًا أَهْلَكْنَا مِنَ القرونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ عليه السلام.

﴿كَمْ﴾: اسم ثنائي مَبْنِيٌّ على السُّكُونِ. وكَلِمَةُ «كَمْ» هنا خَبَرِيَّةٌ تَدُلُّ على عَدَدٍ كَثِيرٍ، ويُعبَّرُ بها عن مُبْهَمٍ يَخْتِاجُ تَمْيِيزًا.

﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾: تَمْيِيزُ «كَمْ» مَجْرُورٌ بحرف «مِنْ».

﴿الْقُرُونِ﴾: جَمْعُ «قَرْنٍ» والمُرَادُ هُنَا أَهْلُ زَمَانٍ وَاحِدٍ، وَسُمُّوا قَرْنًا في اللُّغَةِ، لِأَنَّهُمْ افْتَرَضُوا مَعًا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ:

﴿وَكَفَىٰ رَبِّكَ يُدُوتٍ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾: أي: وَكَفَىٰ رَبُّكَ مُسْتَغْنِيًا بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، حَالَةً كَوْنِهِ خَيْرٌ بِصِيرًا بِذُنُوبِ عِبَادِهِ، فَهُوَ يُعَذِّبُهُمْ وَيُهْلِكُهُمْ وَيَقْطَعُ رِخْلَةَ امْتِحَانِ أَفْرَادِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِعِلْمِهِ التَّامِّ بِهِمِ الْقَائِمِ عَلَى خُبْرَةٍ دَقِيقَةٍ بِأَحْوَالِهِمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَبَصِيرٍ مُحِيطٍ مُذْرِكٍ لِكُلِّ كَبِيرَةٍ وَصَغِيرَةٍ مِمَّا يُرَى بِالْأَبْصَارِ مِنْ أَعْمَالِهِمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، الْجَسَدِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ.

الباء في ﴿بِرِّكَ﴾ حَرْفُ جَرٍ زَيْدٌ لَتَأْكِيدِ اسْتِغْنَائِهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ .

﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِ﴾ مَعْمُولٌ مُتَقَدِّمٌ عَلَى عَامِلِهِ ﴿خَيْرًا﴾ لِمُرَاعَاةِ الْجَمَالِ التَّنَاسُقِيِّ بَيْنَ رُؤُوسِ الْآيَاتِ .

الْخَبِيرُ: هُوَ ذُو الْعِلْمِ الدَّقِيقِ الْقَائِمِ عَلَى الشُّهُودِ وَالْحُضُورِ دَوَامًا مَعَ الْمَعْلُومِ .

الْبَصِيرُ: هُوَ ذُو الْبَصَرِ الْمَحِيطِ بِالْذَفَائِقِ .



شرح السُّنَّةِ الرَّابِعَةِ:

وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُهْلِكُ أَهْلَ الْقُرَى وَمُلْحَقَاتِهَا إِهْلَاكًا عَامًّا شَامِلًا، إِلَّا فِي حَالَةٍ كَوْنِهِمْ ظَالِمِينَ، عَالِمِينَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ تُجَاةَ رَبِّهِمْ .

دَلَّ عَلَى هَذِهِ السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْقَصَصِ/ ٢٨ مَصْحَف/ ٤٩ نَزُول):

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (٥٩):

وقول الله عز وجل في سُورَةِ (الْأَنْعَامِ/ ٦ مَصْحَف/ ٥٥ نَزُول):

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (١٣١):

أُطْلِقَ لَفْظُ الْقُرَى وَالْمَرَادُ أَهْلُهَا عَلَى طَرِيقَةِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ، وَالْعِلَاقَةُ الْحَالِيَّةُ وَالْمَحَلِّيَّةُ .

أَي: وَمَا كَانَ مِنْ شَأْنِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وَسَمَتْ حُكْمَتُهُ، أَنَّ يُهْلِكَ أَهْلَ الْقُرَى بِسَبَبِ ظُلْمٍ هُمْ فِيهِ، أَفْتَرَفُوهُ وَيَمَارِسُونَهُ دَوَامًا

دون استغفار ولا توبة، إلا في حالة كونهم عالمين بما هو مطلوب منهم
تجاة ربهم من إيمان وعمل، عن طريق المبلّغين عن الله، وغير غافلين
بسبب جهلهم.

وهذا العلم يشمل الإنذار بعذاب الله وبالهلاك الشامل، إذا أصرّوا
على ما هم فيه من ظلم.



شرح السنة الخامسة:

وهي أنّ الله عزّ وجلّ لا يهلك أهل القرى وملحقاتها، ما دام فيها
من يستجيبون لدعوة الرّسل تبعاً، ويضليحون من أمرهم وإنّ قلّوا، فلا
ينزل الله بهم العذاب المهلك لهم إهلاكاً شاملاً، حتّى يصلّوا إلى حالة
ميؤوس منها بوجه عام.

● دلّ على هذه السّنة الرّبّانية قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١)
مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١١٧)

اللام الجارّة في ﴿لِيُهْلِكَ﴾ هي لام الجحود لوقوعها بعد كون
منفي، وهذه الصيغة من أبلغ صيغ النفي في العربية، والمجرور باللام
المضدّ المؤوّل من «أن» المصدرية الناصبة للفعل المضارع والمقدرة بعد
اللام ومن الفعل المضارع.

والمراد بالقرى أهلها، على طريقة المجاز المرسل.

أي: ليس من سنّة ربّك، ولا من أفعاله ولو على سبيل النذرة، في
معاملة أهل القرى الظالمين ومن يلحق بهم، أن يهلكهم إهلاكاً عاماً شاملاً
مستأصلاً لهم في حالة كون أفراد منهم سائرين في طريق الإصلاح إيماناً

وَعَمَلًا، فَلَا تَحِقُّ كَلِمَةُ الْإِهْلَاكِ الشَّامِلِ عَلَيْهِمْ، حَتَّى يَصِيرَ تَدْرُجُهُمْ فِي طَرِيقِ الْإِضْلَاحِ بِإِرَادَتِهِمْ الْحَرَّةَ أَمْرًا مَيُوسَّرًا مِنْهُ بِوَجْهِ عَامٍ.

الإصلاح: الإتيان بما هو صالح. وإضْلَاحُ الشيء، إِزَالَةُ فَسَادِهِ.

● ودَلَّ عَلَيْهَا أَيْضًا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (يُونُسَ/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾:

أي: إِنَّ الَّذِينَ ثَبَّتَتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ بَأْنَ يُعَذَّبُوا وَيُهْلَكُوا، لَمْ تَقْتَضِ الْحِكْمَةَ ذَلِكَ فِيهِمْ إِلَّا بِسَبَبِ أَنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا إِلَى دَرَكَةٍ مَيُوسَّرَةٍ مَعَهَا مِنْ أَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلًا بِإِرَادَتِهِمْ الْحَرَّةَ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيَانِيَّةِ، وَالْإِعْجَازِيَّةِ الْكَافِيَةِ لِإِقْنَاعِ ذِي فِكْرٍ رَاغِبٍ فِي أَنْ يَفْتَنَعَ بِالْحَقِّ.

﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾: أي: حَتَّى يَرَوْا بَدْءَ نُزُولِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ بِهِمْ، عِقَابًا لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَعِنْدَئِذٍ يُغْلِنُونَ إِيمَانَهُمْ، لَكِنْ أَيْمَانُهُمْ سَاعَتِيذٍ لَا يَنْفَعُهُمْ، إِذْ تَكُونُ مُدَّةُ امْتِحَانِهِمْ قَدْ انْتَهَتْ، وَجَاءَتْ مَرْحَلَةُ الْجَزَاءِ، وَيَكُونُ حَالُهُمْ كَحَالِ فِرْعَوْنَ حِينَما أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ، قَالَ: آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَلَمْ يَنْفَعْهُ إِيمَانُهُ سَاعَتِيذٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (يُونُسَ/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَالَتْنِ وَقَدْ عصيتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

● ودَلَّ عَلَيْهَا أَيْضًا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ كُفَّارِ أَهْلِ مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ فِي سُورَةِ (الْأَنْبِيَاءِ/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) ؟.

أي: لَمْ يَحْصُلْ إِيْمَانٌ مَا مِنْ أَهْلِ قَرِيَةٍ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ إِهْلَاكاً عَامّاً شاملاً، فيما سَبَقَ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ، مع إِنْهَالِهِمُ الطَّوِيلَ، وبذلك اسْتَحَقُّوا التَّعْذِيبَ وَالْإِهْلَاكَ الشَّامِلَ، وَلَوْ أَنَّ أَفْرَاداً مِنْهُمْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ تَبَاعاً غَيْرَ الَّذِينَ سَبَقَ أَنْ آمَنُوا مِنْهُمْ، وَاتَّبَعُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ، لَمَا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ إِهْلَاكاً عَامّاً شاملاً.

أَفْكَفَّارُ أَهْلِ مَكَّةَ يُؤْمِنُونَ مُسْتَقْبَلاً بِالتَّدْرُجِ، حَتَّى لَا يَسْتَحِقُّوا الْإِهْلَاكَ الشَّامِلَ؟.

جوابُ هذا السؤال قَدْ كَشَفَهُ الْوَاقِعُ فيما بَعْدُ، وَهُوَ أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ كَانَ كَافِراً مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ قَدْ آمَنَ فيما بَعْدُ، وَلَا سِيَّما بَعْدَ أَنْ فَتَحَهَا اللَّهُ لِلرَّسُولِ ﷺ وَلِلْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ، وَلِهَذَا لَمْ يُنْزَلِ اللَّهُ بِهِمُ الْإِهْلَاكَ الشَّامِلَ.

● ودَلَّ عَلَيْهَا أَيْضاً قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْأَنْبِيَاءِ/ ٢١) مَصْحَفٍ/ ٧٣ نَزُولٍ):

﴿وَحَرَّمَ عَلَى قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٥) :

أي: وَحَرَّمَ عَلَى أَهْلِ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهُمْ بِظُلْمِهِمُ الْبَقَاءَ فِي حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ مُتَمَتِّعِينَ، بِسَبَبِ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إِلَى فِطْرَةِ الْإِيْمَانِ وَالطَّاعَةِ مَهْمَا أَمْهَلْنَاهُمْ، بَلْ هَذَا الرَّجُوعُ مَيْئُوسٌ مِنْهُ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةَ.

ولِهَذَا اسْتَحَقُّوا الْإِهْلَاكَ الشَّامِلَ، وَاللَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ بَعْبَادِهِ، الْحَكِيمُ فِي تَصَارِيفِ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَتَنْفِذِ أَفْعَالِهِ.



شرح السُّنَّةِ السَّادِسَةِ:

وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْهَلُ عِبَادَهُ الظَّالِمِينَ وَيُمْلِي لَهُمْ، وَلَا يَعْجَلُ بِإِنْزَالِ الْعِقَابِ الشَّامِلِ وَالْإِهْلَاكَ الْعَامَ فِيهِمْ.

لقد قَضَتْ حَكْمَةُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، أَنْ يَمْنَحَ الظَّالِمِينَ مِنْ عِبَادِهِ أَقْصَى إِمْهَالٍ، وَأَطْوَلَ زَمَنٍ ضِمْنِ ظُرُوفِ رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَافٍ لاسْتِبْصَارِ الْحَقِّ، وَالتَّرَاجُعِ عَنِ الْبَاطِلِ، وَمُحَاسِبَةِ الْأَنْفُسِ، وَالْكَفِّ عَنِ ارْتِكَابِ الْجَرَائِمِ.

وَالْجَهْلَةُ مِنَ النَّاسِ بِسُنَّةِ اللَّهِ هَذِهِ قَدْ يَسْتَبْطِثُونَ نُزُولَ الْعَذَابِ بِالظَّالِمِينَ مِنَ الْأُمَمِ، فَتَتَوَارَدُ عَلَى نَفُوسِهِمُ الشُّكُوكُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعَامِلُ عِبَادَهُ بِمَقْتَضَى سُنَّتِهِ الْحَكِيمَةِ، لَا بِمَقْتَضَى أَهْوَاءِ النَّاسِ وَتَشَهِّيَاتِهِمْ، وَمَا يُرِيدُونَ أَنْ يَشْفُوَابِهِ غِيظَ صُدُورِهِمْ، مِنْ أَعْدَائِهِمُ الْكَافِرِينَ.

دَلٌّ عَلَى هَذِهِ السُّنَّةِ عِدَّةُ نُصُوصٍ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ:

النَّصُّ الْأَوَّلُ: قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (آلِ عِمْرَانَ/ ٣ مِصْحَفٍ/ ٨٩ نَزُولٍ):

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطْلِيَ لَهُمْ خَيْرٌ لِنَفْسِهِمْ إِنََّّمَا نُطْلِيَ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾:

﴿نُطْلِيَ لَهُمْ﴾: أَي: نَمْهِلُهُمْ وَنُطَوِّلُ مَدَّةَ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

فَالْمَعْنَى: وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْحَقِّ الَّذِي بَلَّغَهُمْ إِيَّاهُ رُسُلُنَا، مَقْرُونًا بِالْبَرَاهِينِ الَّتِي تُثَبِّتُ أَنَّهُ حَقٌّ، وَتَقُومُ بِهَا الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ حَقٌّ، أَنَّ إِمْهَالَنَا لَهُمْ وَهُمْ مُصِرُّونَ عَلَى الْكُفْرِ عَالِمُونَ أَنَّهُمْ عَلَى بَاطِلٍ وَشَرٍّ، وَأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ، هُوَ خَيْرٌ لِنَفْسِهِمْ، إِذْ تَطَوَّلَ مُدَّةُ اسْتِمْتَاعِهِمْ بِمَا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ، دُونَ أَنْ نُعَاقِبَهُمْ وَنُعَذِّبَهُمْ وَنَتَّبِعَ ذَلِكَ بِإِهْلَاكِهِمْ إِهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ.

وَنَفْهَمُ عَقْلًا أَنَّ الْغَايَةَ مِنَ الْإِمْهَالِ إِتَاحَةُ أَوْسَعِ مُدَّةٍ لَهُمْ يُمَكِّنُ أَنْ يَتَخَلَّصُوا فِيهَا مِنْ سُلْطَانِ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَيُؤْمِنُوا وَيَتَوَبَّوْا، وَذَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا فِي مُدَّةِ الْإِمْهَالِ فَإِنَّهُمْ سَيَزْدَادُونَ إِثْمًا، وَسَيَحْمِلُونَ أَوْزَارًا مِضَافَةً إِلَى أَوْزَارِهِمُ السَّابِقَاتِ، وَيَسْتَحَقُّونَ عَلَيْهَا عَذَابًا

مضافاً إلى ما كانوا قَدْ اسْتَحَقُّوه قَبْلَ الإمهال، ولهم إذا اسْتَمَرُّوا على باطلهم وكُفِّرهم وأثامهم عَذَابٌ مُهِينٌ مُذِلٌّ لهم، على مقادير ما جَنَى كُلُّ واحدٍ مِنْهُمْ من إثم، إضافةً إلى الكُفْرِ الذي استحقوا به الخلود في عَذَابِ النار، أخذاً من دلالات نُصوصِ قرآنيَّةٍ أُخْرَى، إذ النُّصوصُ القرآنيَّةُ مُتكاملة فيما بينها.

النص الثاني: قول الله عزَّ وجل في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول) خطاباً لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ طَمَآنَةً له بعاقبة النصر، وتَسْلِيَةً له بشأن ما يُلاقيه من بعض كُفَّارِ قومه من استهزاء به:

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَامَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۖ﴾ (٣٢):

أي: فأمهلْتُ المستهزئين بِرُسُلِي من قَبْلِكَ إمهالاً كافياً لِقَطْعِ كُلِّ اغْتِدَارِهِم، وعلى الرُّغم من الإمهالِ الطويل الكافي لم يَتُوبُوا، ولم يَسْتَغْفِرُوا، ولم يَرْجِعُوا إلى فِطْرِهِم الإيمانيَّة بإراداتهم الحرَّة، فأخذتهم أخذَ عِقَابٍ وعذابٍ وإهلاكٍ.

فانظُرْ كَيْفَ كان عقابي الشديدُ لهم، وكيفَ كانت نُصرتي لِرُسُلِي، فَكُنْ مُطْمَئِناً إلى آتي سَأُنْصِرُكَ كما نُصرتُ رُسُلِي السَّابِقِينَ، ضِمْنَ تَطَبِيقَاتِ سُنَّتِي.

النص الثالث: قول الله عزَّ وجل في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) خطاباً لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٤٧) ﴿وَكَايُنَ مِنْ قَرِينَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ (٤٨):

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾: أي: وَيَسْتَغْجِلُكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بك وبما جِئْتَ

بِهِ عَنْ رَبِّكَ، بِالْعَذَابِ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ بِهِ فِيمَا بَلَّغْتَهُمْ عَنِّي، تَوَهُمًا مِنْهُمْ أَنَّكَ غَيْرُ صَادِقٍ فِيمَا تُبَلِّغُهُمْ عَنِّي.

﴿وَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ وَعْدُهُ﴾: أي: وَلَنْ أُخْلِفَ وَعْدِي، لِأَنِّي أَنَا اللَّهُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ الْقَدِيرُ عَلَى فِعْلِ مَا أُرِيدُ، فَإِذَا وَعَدْتُ بِأَمْرٍ فَلَا بُدَّ أَنْ أَحَقِّقَ تَنْفِيزَهُ، لَكِنَّ أَيَّامِي فِي مُعَامَلَةِ عِبَادِي لَيْسَتْ كَأَيَّامِكُمْ.

﴿وَلَا تَكُ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾: أي: إِنَّ تَقْدِيرَ الزَّمَنِ الَّذِي أُعَامِلُ بِهِ عِبَادِي فِي امْتِحَانِهِمْ، وَإِنْهَالِهِمْ، وَإِنْزَالِ الْعِقَابِ بِهِمْ، مُخْتَلِفٌ عَنْ تَقْدِيرَاتِكُمْ.

فالיום الواحد عندي يُشَبِّهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ بِحَسَبِ أَيَّامِكُمْ، وَعَلَى هَذَا فَالسَّاعَةُ الْوَاحِدَةُ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ تَعَادِلُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَةً بِحَسَابِ أَيَّامِنَا نَحْنُ.

أي: فَمَا الدَّاعِي لِاسْتِبْطَاءِ تَحْقِيقِ الْوَعْدِ؟!

﴿وَكَايْنٍ﴾: اسْمٌ مُرَكَّبٌ مِنْ كَافِ التَّشْبِيهِ، وَ«أَيُّ» الْمُنُونَةُ، وَهُوَ يُفِيدُ تَكْثِيرَ الْعَدَدِ بِمَعْنَى «كَمْ» الْخَبَرِيَّةِ.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرِيْبَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾: أي: وَأَهْلُ قَرْيٍ كَثِيرَةٌ ظَالِمُونَ، طَوَّلْتُ لَهُمْ مُدَّةَ امْتِحَانِهِمْ بِحَسَبِ مُقْتَضَى حِكْمَتِي.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُمَا﴾: أي: ثُمَّ أَخَذْتُ أَهْلَهَا الظَّالِمِينَ، أَخَذْتُ تَغْذِيْبَ وَإِهْلَاكِ شَامِلٍ.

﴿وَالِئِنَّ الْمَصِيْرُ﴾: أي: وَإِلَى الْمَصِيْرُ بَعْدَ الْبَعْثِ لِيَوْمِ الدِّينِ، لِمَحَاسِبَتِهِمْ وَمَجَازَاتِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ الْكَثِيرَةِ.



شرح السُّنَّة السابعة :

وهي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْدَأُ مُعَالَجَةَ الْأُمَمِ قَبْلَ إِهْلَاكِهَا إِهْلَاكًا شَامِلًا، بِابْتِلَالِهَا بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ، والمصائب والمكاره الجزئية، رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَضَرَّعُوا مُسْتَغْفِرِينَ وَتَائِبِينَ، وَمُلْتَزِمِينَ بالتدريج العمل بما أَمَرَهُمْ بِهِ، وَالِابْتِعَادَ عَمَّا نَهَاَهُمْ عَنْهُ.

ويابتلائها بالبأساء والضَّرَّاءِ والمصائب الجزئية، تنبيهً لَهَا، وتذكير، وإنذار، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ وَأَضْلَحُوا رَفَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَا أَنْزَلَ بِهِمْ، وَلَمْ يُنْزِلْ بِهِمْ الْعَذَابَ وَالْإِهْلَاكَ الشَّامِلِينَ.

وَالْأَرْفَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَا أَنْزَلَ بِهِمْ مِنْ مَصَائِبَ جَزِئِيَّةٍ، وَأَمْهَلَهُمْ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، ثُمَّ بَاغَتْهُمْ بِالْعَذَابِ وَالْإِهْلَاكِ الشَّامِلِينَ.

● دَلَّ عَلَى هَذِهِ السُّنَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴿

أي: وما أَرْسَلْنَا فِي أَهْلِ قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ رَسُولًا لَهُمْ، لِأَنَّهُمْ صَارُوا بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَظُلْمِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ، بِحَاجَةٍ إِلَى رَسُولٍ يُعَلِّمُهُمْ أُمُورَ دِينِهِمْ وَيُشِيرُهُمْ وَيُنْذِرُهُمْ، فَعَانَدُوهُ وَأَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعَوَايَتِهِمْ، إِلَّا أَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ تَأْدِيبٍ وَتَنْبِيهِ وَإِنْذَارٍ بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ.

البأساء: الجوع، والمشقة، والفقر، وضنك العيش، والحرب.

الضَّرَّاء: الشدة، وَكُلُّ حَالَةٍ تَضُرُّ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ.

والغرض من هذا الْأَخْذِ تَذْكِيرُهُمْ بِرَبِّهِمْ، لِيَدْعُوهُ مَتَضَرِّعِينَ إِلَيْهِ، سَائِلِينَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِمَّا يَكْرَهُونَ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾: أي: رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَذَكَّرُوا رَبَّهُمْ، فَيَتَضَرَّعُوا لَهُ، مُعْتَرِفِينَ بِذُنُوبِهِمْ، سَائِلِينَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ.

التَضَرُّعُ: التَذَلُّلُ والخضوع، مأخوذٌ من خَضُوعٍ وَلَدِ الْبَهِيمَةِ الرُّضِيعِ، لِيَمْتَصَّ حَلِيبَ أُمِّهِ مِنْ ضَرَعِهَا.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾: أي: وَبَعْدَ مُدَّةٍ مُتَرَاخِيَةٍ اسْتَمَرَّتْ خِلَالَهَا الْبَاسَاءُ وَالضَّرَاءُ، بَدَّلْنَا مَوَازِ الْأَبْتِلَاءِ، فَجَعَلْنَا الْحَسَنَةَ فِي مَكَانِ السَّيِّئَةِ، فَتَحَوَّلُوا إِلَى النِّعَةِ وَالرِّخَاءِ وَالْأَمْنِ.

﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾: أي: حَتَّىٰ كَثُرَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ بِأَنْسَالِهِمْ، وَعَادُوا إِلَى بَغْيِهِمْ وَعُدْوَانِهِمْ وَعَوَائِيَتِهِمْ، فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ مَرَّةً أُخْرَىٰ.

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ﴾: أي: ثُمَّ ذَهَبَتْ عَنْهُمْ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَاءُ، وَقَالُوا: هِيَ ظَوَاهِرٌ طَبِيعِيَّةٌ مُتَكَرِّرَةٌ فِي الدَّهْرِ، وَلَيْسَ مِنْ وَرَائِهَا قَضْدٌ تَأْدِيبٍ، أَوْ تَذْكِيرٍ، أَوْ تَرْبِيَةٍ.

﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤٥): أي: فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ تَغْذِيبٍ وَاهْلَاكِ شَامِلِينَ مُبَاغِتِينَ، دُونَ إِشْعَارٍ لَهُمْ بِمَقْدَمَاتٍ فِيهَا إِنْذَارٌ، لِأَنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا إِلَى الْحَضِيضِ كُفْرًا، وَفَجُورًا، وَاسْتِغْرَاقًا فِي الْآثَامِ، مَعَ تَفْسِيرِهِمْ ظَوَاهِرَ حِكْمَةِ اللَّهِ بِأَنَّهَا ظَوَاهِرٌ طَبِيعِيَّةٌ مُتَكَرِّرَةٌ، وَلَيْسَ مِنْ وَرَائِهَا قَضْدٌ رَبَّانِي.

● ودلَّ على هذه السُّنَّةِ أَيْضًا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأنعام/ ٦٠ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَاسِ وَالضَّرِّ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥):

﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾: أي: رَغْبَةً في أن يتَضَرَّعُوا، أو لنَجْعَلَهُمْ في مَوْقِفٍ من شأنه أن يَذْفَعَهُمْ - إِذَا كَانَ لَدَيْهِمْ رُشْدٌ ما - إلى أن يَتَذَلَّلُوا لربِّهم، ويخَضَّعُوا ويتوبوا له، كي يرفعَ عنهم ما أنزلَ بهم، فإذا رَفَعَ ما أنزلَ بهم كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أن يَكُونَ مُذَكِّرًا لَهُمْ دَوَامًا بِرَبِّهِمْ، ومُنْذِرًا لَهُمْ بِنزولِ العذاب والإهلاكِ الشاملين، فإذا لَمْ يَنْتَفِعُوا بَعْدَ ذَلِكَ من هَذِهِ المَقْدَمَاتِ، اسْتَحَقُّوا التَّعْذِيبَ والإهلاكَ الشاملين.

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾: أي: فَهَلَّا تَضَرَّعُوا إِذْ جَاءَهُمْ عَذَابُنَا التَّأْدِيبِيُّ الْجَزَائِي، المُنْذِرُ بالعذابِ والإهلاكِ الشاملينِ المُسْتَأْصِلِينَ.

«لَوْلَا» هُنَا أَدَاءُ تَحْضِيضٍ مِثْلَ «هَلَّا».

﴿وَلَكِنْ فَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: ﴿٤٣﴾

أي: وَلَكِنْ لَمْ يَتَضَرَّعُوا وَلَمْ يَتُوبُوا وَلَمْ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ، إِذْ فَسَتْ قُلُوبُهُمْ فَلَمْ تَلِنْ لِمَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ تَأْدِيبِيٍّ إِنْذَارِيٍّ، وَجَعَلَ الشَّيْطَانُ يُزَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَيْسَ هُوَ الَّذِي اقْتَضَى أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ المَصَائِبُ وَأَنْوَاعًا مِنَ البَاسِءِ والضَّرَاءِ، وَيُزَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ مَا نَزَلَ بِهِمْ هُوَ مِنْ تَقْلِبَاتِ الدَّهْرِ، الَّتِي تَخْدُثُ بِصُورَةٍ طَبِيعِيَّةٍ خَالِيَةٍ مِنْ قُضْدِ رَبَّانِيٍّ لِلتَّرْبِيَةِ والجزاء.

﴿فَلَمَّا دُكِّرُوا بِهِ﴾: أي: فَلَمَّا تَرَكُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ مِنْ البَاسِءِ والضَّرَاءِ، وَمَا ذُكِّرُوا بِهِ مِنْ قِبَلِ رُسُلِ رَبِّهِمْ، أَوِ الدُّعَاةِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهُمْ، تَذْكِيرًا بَيَانِيًّا، بِالنُّصْحِ والإِرشَادِ، وَلَمْ يَكْتَرِثُوا لِكُلِّ ذَلِكَ وَلَمْ يَغْبُوا بِهِ.

﴿فَمَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾: أَيُّ: وَسَعْنَا لَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا الْأَرْزَاقَ، وَيسَّرْنَا لَهُمُ الْمَسَالِكَ لِنَبْلَ مَا يَشْتَهُونَ مِنْ مَتَاعِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ تَتَعَلَّقُ نَفُوسُهُمْ بِهِ.

شُبّهَ تيسيرُ المسالكِ للوصول إلى ما يَشْتَهُونَ بفتح الأبواب، فاستُعيِرتْ عبارة «فتح الأبواب» للدلالة على ذلك.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُوحًا بِمَا أُوْتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿فُوحًا﴾ هُنَا، بمعنى بَطَرُوا واستَكْبَرُوا، وَتَفَاخَرُوا وَتَعَالَوْا عَلَى النَّاسِ، فَطَعَنُوا وَبَغَوْا.

﴿بَغْتَةً﴾: أي: أَخَذَ بَغْتَةً، أَوْ مُبَاغِتِينَ. الْبَغْتَةُ: المفاجأة.

﴿مُبْلِسُونَ﴾: أي: سَاكِتُونَ، يَائِسُونَ، نَادِمُونَ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ.

يقال لغة: أَبْلَسَ الرَّجُلُ، أي: قُطِعَ بِهِ، وَسَكَتَ، وَنَدِمَ.

وَأَبْلَسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، أي: يَيْسَ.

والمعنى: حَتَّىٰ إِذَا بَطَرُوا واستَكْبَرُوا وَطَعَنُوا وَبَغَوْا بِمَا فُتِحَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ وَالْإِهْلَاكِ الشَّامِلِينَ، بِصُورَةٍ مَفَاجِئَةٍ غَيْرِ مُرْتَقِبَةٍ، فَإِذَا هُمْ سَاكِتُونَ، يَائِسُونَ، نَادِمُونَ، لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْعَلُوا شَيْئًا يَقِيهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَنَوَازِلِ الْإِهْلَاكِ الشَّامِلِ.

﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: أي: فَأَهْلِكُوا جَمِيعًا، حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ تَابِعٌ يَتَّبِعُهُمْ.

الدَّابِرُ: التَّابِعُ، وَهُوَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ آخِرُهُ، وَقُطِعَ الدَّابِرُ كِنَايَةً عَنِ الْإِسْتِصَالِ التَّامِ.

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أي: وَكُلُّ الثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي خَلَصَ الْمَجْتَمَعَ الْبَشَرِيَّ مِنْ قَوْمِ ظَالِمِينَ، بَلَّغُوا دَرَكَةَ الْيَأْسِ مِنْ أَنْ يَصْلُحُوا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحُرَّةِ، فِي حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِحْتِبَارِ فِي ظُرُوفِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

إِنَّ إِهْلَاكَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ أَمْسَوْا بُؤْرَةً فَسَادٍ وَإِفْسَادٍ فِي

الأرض، وطُغْيَانٍ وَبَغْيٍ وَعُذْوَانٍ، نِعْمَةً عَظِيمَةً تَنْتَزِعُ مِنْ قُلُوبِ أُولِي الْأَلْبَابِ الْحَمْدَ وَالشَّاءَ مِنْ دَرَجَةٍ قُضُوئِي، عَلَى رَبِّ الْعِبَادِ الَّذِي رَحِمَهُمْ فَخَلَّصَهُمْ مِنْ وَبَاءٍ لَا سَبِيلَ إِلَى الْخَلَاصِ مِنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِصْصَالِ التَّامِّ، حَتَّى لَا تَبْقَى مِنْهُمْ جُزْئُومَةٌ تَنْشُرُ شَرًّا فِي دُنْيَا النَّاسِ.



شرح السُّنَّةِ الثَّامِنَةِ:

وهي أَنْ لَا يَحَقِّقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِهْلَاكَ أُمَّةٍ إِهْلَاكاً شَامِلاً، إِلَّا بَعْدَ قَدَرٍ وَقَضَاءٍ يُحَدِّدُ فِيهِمَا زَمَنَ إِهْلَاكِهَا، وَبَعْدَ كِتَابَةِ ذَلِكَ، وَإِعْلَامِ ذَوِي الْعِلَاقَةِ بِتَنْفِيذِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

وَيَكُونُ زَمَنُ الْإِهْلَاكِ هُوَ أَجَلُ بَقَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَكُونُ التَّنْفِيزُ فِي هَذَا الْأَجَلِ بِالتَّخْدِيدِ، دُونَ سَبْقٍ وَدُونَ تَأْخِيرٍ.

● دَلَّ عَلَى هَذِهِ السُّنَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْحَجَرِ/ ١٥)

مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ مَا نَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

● وقول الله عز وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول)

في معرض الحديث عن أقوامٍ أَهْلِكُوا، وعن أقوامٍ بَعْدَهُمْ أَهْلِكُوا أَيْضاً:

﴿مَا نَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤٤﴾﴾: أي: وَمَا أَهْلَكْنَا

مِنْ أَهْلِ قَرْنٍ اسْتَحَقُّوا الْإِهْلَاكَ الشَّامِلَ بِحُكْمَةِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، إِلَّا فِي حَالٍ كَوْنٍ إِهْلَاكِهِمْ مُسَجَّلاً فِي كِتَابٍ مَعْلُومٍ لِلَّهِ، وَمَعْلُومٍ لَدَى الْمَلَائِكَةِ الْمَأْمُورِينَ بِالتَّنْفِيزِ، وَهَذَا الْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى بَيَانِ زَمَنِ الْإِهْلَاكِ وَكُلِّ جُزْئِيَّةٍ مِنْ جُزْئِيَّاتِ التَّنْفِيزِ.

﴿مَا تَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ (٥): أي: مَا يَكُونُ إِهْلَاكُهَا سَابِقاً لِأَجْلِهَا الْمَقْدَرِ لَهَا فِي كِتَابِهَا، إِذْ لَوْ حَصَلَ مِثْلُ هَذَا التَّعْجِيلِ فِي أَجْلِ الْإِهْلَاكِ، لَكَانَ هَلَاكُهَا سَابِقاً أَجَلُهَا الْمَقْدَرُ لَهَا. وما يَسْتَطِيعُونَ أَيْضاً أَنْ يُؤَخِّرُوا هَذَا الْأَجَلَ الْمَقَرَّرَ لِإِهْلَاكِهَا بِوَسِيلَةٍ مِنَ الْوَسَائِلِ.

الأجل: يأتي في اللغة:

- (١) بمعنى غاية الوقت المحدد لشيء ما، أو المأذون به.
- (٢) وبمعنى الوقت المحدد أو المناسب لحصول الشيء، وابتداء زمانه.

- (٣) وبمعنى المدة المحددة للشيء والمحصورة بين أول وآخر.



شرح السُّنَّة التاسعة:

وهي أنه غالباً ما يكون إهلاك الأمم التي قضى الله بإهلاكها، عند الصُّبْح، وَقَدْ يَسْتَمِرُّ التَّغْذِيبُ وَالْإِهْلَاكُ حَتَّى الْإِشْرَاقِ. أو يكون عند شُرُوق الشمس، أو يكون بَيَاتاً وهم نائمون، أو في وَسْطِ النَّهَارِ وَهُمْ قَائِلُونَ، أو في الضُّحَى وَهُمْ يَلْعَبُونَ.

- دلَّ على هذه السُّنَّة قول الله عز وجل في سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ (٤):

أي: وَعَدَدًا كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْقَرْيِ وَتَوَابِعِهَا قَدَرْنَا وَقَضَيْنَا إِهْلَاكَهُمْ، وعند التنفيذ جَاءَهُمْ عَذَابُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ نَائِمُونَ، أو في وَسْطِ النَّهَارِ وَهُمْ نَائِمُونَ فِي وَقْتِ الْقَيْلُولَةِ، أو مستريحون فيه.

﴿قَالُوا لَا تَنْفِرْ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: أي: مُسْتَرِيحُونَ في وقتِ القِيَامَةِ، وهي الاستراحة في نصفِ النهار عند اشتداد الحرِّ، وفي الغالب ينأى المستريحون في هذا الوقت.

• ودلَّ عليها أيضاً قولُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) بشأن لوطٍ عليه السلام، في حكاية خطاب الملائكة له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْقَاكَ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْحِفِينَ (٦٦).

• وقال الله عزَّ وجلَّ فيها أيضاً بشأنهم:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ (٧٣).

أي: نزل العذاب بهم في وقت الصُّبح، وتمَّ إهلاكهم بالصَّيْحَةِ في وقتِ إشراق الشمس.

• وقول الله عزَّ وجلَّ بشأنهم أيضاً في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول): ضِمْنَ حكايةِ قِصَّتِهِمْ وَقَوْلِ الْمَلَائِكَةِ لِلُّوطِ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٨١).

وكان حديثهم هذا مع لوط بعد مُتَنَصِّفِ اللَّيْلِ.

• ودلَّ عَلَيْهَا أيضاً قولُ الله عزَّ وجلَّ بشأن ثمود قومِ النبيِّ الرسولِ صالح عليه السلام في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْحِفِينَ﴾ (٨٣).

• وَقَدْ أُنْذِرَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ أَهْلَ الْقُرَى الظَّالِمِينَ بِاخْتِمَالِ أَنْ يُنْزَلَ بِأَسْهُ

بِهِمْ فِي وَقْتِ الضُّحَى وَهُمْ يَلْعَبُونَ، فقال تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿أَوِ امْنِ أَهْلَ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٩٨).



شرح السُّنة العاشرة:

وهي أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَنْزَلَ بِأَسْهٍ فِيمَنْ اسْتَحَقُّوا الْإِهْلَاكَ وَالتَّغْذِيبَ بوسائله، وَصَدَرَ الْأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ بِذَلِكَ، فَإِنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانُهُ يَأْخُذُهُمْ أَخْذًا أَلِيمًا شَدِيدًا بِسُلْطَانِ الْقَهْرِ وَالْجَبَرُوتِ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (هود/ ١١) مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١١٧)
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ... ﴿١١٧﴾

المشار إليه بعبارة: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ مَا سَبَقَ هَذَا النِّصَّ مِنْ بَيَانِ إِهْلَاكِ طَائِفَةٍ مِنَ الْأَقْوَامِ السَّابِقَةِ الْغَابِرَةِ.

وقد جعل الله عَزَّ وَجَلَّ إِهْلَاكَ الْأُمَمِ الْمُسْتَحِقَّةِ لِلتَّغْذِيبِ وَالْإِهْلَاكِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ الشَّدِيدَةِ الْعَنِيفَةِ الْمُؤَلِّمَةِ، لِيَتَّعِظَ مَنْ يَخَافُ عَذَابَ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ، لِأَنَّهُ سَوْفَ يَكُونُ أَكْثَرَ إِيْلَامًا وَشِدَّةً وَدَوَامًا.



خامساً:

فصولٌ خَمْسَةٌ تَشْتَمِلُ عَلَى بَيَانَاتِ تَطْبِيقَاتِ السُّنَنِ الْعَشْرِ السَّابِقَةِ

الفصل الأول

**كَيْفَ قَابَلَتْ الْأُمَمُ الْمُهْلَكَةَ دَعَوَاتِ رُسُلِ رَبِّهَا
قَبْلَ أَنْزَالِ الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ فِيهَا**

(١) جاء في سُورَةِ (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) قولُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣٤)

أي: وما أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ رَسُولٍ كَانَ آخِرُ أَمْرِهِ مَعَ أَهْلِهَا، أَنْ أَنْذَرَهُمْ بِعَذَابِ اللَّهِ، إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا وَهُمْ أَصْحَابُ السُّلْطَةِ الْإِدَارِيَّةِ وَالْهَالَةِ مِنْ أَصْحَابِ الثَّرَاءِ فِي الْقَوْمِ حَوْلَهُمْ: إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. قَدَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى أَنَّ مُتْرَفِي الْأُمَمِ وَهُمْ أَكْبَرُ الْقَوْمِ وَأَصْحَابُ الْمَالِ وَالثَّرَاءِ مِنْ حَوْلِهِمْ، كَانُوا يُوَاجِهُونَ رُسُلَ اللَّهِ بِالتَّكْذِيبِ وَالْجُحُودِ، وَالْكُفْرِ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِمْ.

وَيَتَّبِعُ هَؤُلَاءِ فِي الْعَادَةِ مَعْظَمُ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِمْ، لِأَنَّهُمْ لَهُمْ أَتْبَاعٌ، وَيَتَأَثَّرُونَ بِوَسَائِلِ مَكْرِهِمْ وَتَزِينَاتِهِمْ، وَبِسُلْطَانِهِمْ عَلَيْهِمْ.

(٢) وجاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) قول الله عز وجل خطاباً لرسوله محمد ﷺ، مبيناً لكفار أهل مكة قِصَّةً مِنْ قِصَصِ الْكَافِرِينَ الْغَابِرِينَ:

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ وَحَتَّى الْآيَةِ (٣٠) مِنَ السُّورَةِ، وَقَدْ انْتَهَى أَمْرُهُمْ بِالْإِهْلَاكِ بِالصَّيْحَةِ، فَكَانُوا بِهَا خَامِدِينَ مَيِّتِينَ، كَالرَّمَادِ الَّذِي خَمَدَتْ نَارُهُ.

(٣) وجاء في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) قول الله عز وجل خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿١٣﴾﴾:

﴿عَلَى أُمَّةٍ﴾: أي: على طَرِيقَةٍ مِنَ الْمَبَادِئِ وَالْمَفْهُومَاتِ وَالسُّلُوكِ.

﴿وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾: أي: وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ سَائِرُونَ، وَنَحْنُ بِهِمْ مُقْتَدُونَ.

وكانَ كُلُّ رَسُولٍ يُجِيبُ قَوْمَهُ بما أْبَانَهُ اللهُ عَزَّ وجل في الآية التالية من السورة:

﴿قُلْ أُولُو عِثْمِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاؤُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ .

فكانت النهاية أن استحقَّ القوم أن يَنْتَقِمَ اللهُ منهم، فَيُعَذِّبُهُمْ وَيُهْلِكَهُمْ، وفي بيان هذه النهاية قال اللهُ عَزَّ وجل في الآية التالية من السورة:

﴿فَأَنقَضْنَا مِنْهُمْ فَاظْطَرَّ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ .

(٤) وجاء في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) قول الله عَزَّ وجل خطاباً لرسوله محمد ﷺ بشأن اليهود والنصارى وأمثالهم من أهل الميل المحرَّفة عن أصولها الربَّانية الصحيحة .

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِئَنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَلِيُّهُمْ آلِيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ :

أي: فَرِئَنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمُ التحريفية والتبديلية، التي حَرَّفُوا فيها دينَ الله وبَدَّلُوهُ، فلَمَّا أَذْخَلُوا تَحْرِيفَاتِهِمْ وَتَبْدِيلَاتِهِمُ الاعتقادية والسلوكية على دين الله، صار الشَّيْطَانُ هو وَلِيُّهُمْ اليوم في الحياة الدنيا، يتولَّى إغواءهم فيسُوِّقُهُم أو يقودُهُم مَّوْغِلِينَ في أودية الضلال والغواية .

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَوْمَ الدِّينِ، أي: لَأَنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولِي الَّذِي خَتَمْتُ بِبِغْيَتِهِ النَّبَوَاتِ وَالرَّسَالَاتِ، وَكَذَّبُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنِّي، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، وَتَقَالَيْدَهُمُ الْعَمِيَاءَ .

(٥) وجاء في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) في معرض الَّذِينَ كَذَّبُوا رَسُولَ اللهِ مُحَمَّدًا ﷺ، وَكَذَّبُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِ:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ :

﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ : هُمْ أَحْزَابُ الْكُفْرِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ اللَّهِ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، مَبْعُوثِينَ لَأَقْوَامِهِمْ.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ : أَي: لِيَأْخُذُوهُ أَخَذَ عَذَابٍ وَإِهْلَاكِ، وَلَكِنْ كَانَ هَمُّهُمْ دُونَ مُسْتَوَى الْإِرَادَةِ الْمَقْرُونَةِ بِالتَّنْفِيزِ.

﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ : أَي: وَجَادَلُوا بِالْكَلَامِ الْبَاطِلِ فِي حَقِيقَتِهِ، الْمَزْخَرَفِ فِي ظَاهِرِهِ، لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ، أَي: لِيُزْلِقُوا بِهِ الْحَقَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ رَسُولُهُمْ، فِي مَزَالِقِ الشُّبُهَاتِ وَالتَّلْبِيسَاتِ، فَيُزِيلُوهُ عَنْ مَوَاقِعِ ثَبَاتِهِ فِي أَذْهَانِ وَقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ.

الإِدْحَاضُ: الْإِزْلَاقُ فِي الْمَزَالِقِ لِلْإِسْقَاطِ.

﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ : أَي: فَأَخَذْتُهُمْ أَخَذَ تَعْذِيبٍ وَإِهْلَاكِ عُقُوبَةً مَعْجَلَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيَا.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ : أَي: فَانْظُرْ أَيُّهَا الْمُتَفَكِّرُ بِسُنَنِ فِي عِبَادِي، كَيْفَ كَانَ عِقَابِي الشَّدِيدُ الْإِلِيمُ الْمَخِيفُ.

(٦) وجاء في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بعد الحديث عن إهلاك قوم نوح وقوم هود عليهما السلام:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا مَآخَرِينَ ﴿٤٦﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْرِضُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا نُوحًا نَذِيرًا كُلَّ مَا جَاءَهُ أُمَّةٌ رُسُلُنَا كَذَّبُوهُ فَأَتَيْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ آيَاتٍ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٩﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٥٠﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ بِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدَدُونَ ﴿٥١﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٥٢﴾﴾ :

﴿قُرُونًا آخَرِينَ﴾ الْقُرُنُ، أهل زمانٍ واحد، وجمعه قرون.

● ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَجِرُّونَ﴾ (٤٣): أي: وأهلكنا الأمم الكافرة من هذه القرون، في آجالها المحددة بقضائنا وقدرنا، والمعلومة والمكتوبة، أخذاً مما جاء في نصوص أخرى.

وحين إهلاكها ما يَحْصُلُ سَبْقٌ، وَلَا تَأْخِيرٌ لِأُمَّةٍ عَنْ أَجْلِهَا الْمَقَرَّرِ الْمَحْدَدِ لإهلاكها، فالمرادُ نَفْيُ وُجُودِ وَحُصُولِ السَّبْقِ أو التَّأْخِرِ، لَا نَفْيَ أَنَّ الأُمَّةَ تَحَاوُلُ أَوْ تَطْلُبُ تَعْجِيلَ أَجَلِ إهلاكها، أو تَأْجِيلَهُ، فهذا غَيْرُ وَارِدٍ، لِأَنَّ إهلاكها يَأْتِي بَعْتَهُ.

ومثل هذا الاستعمال يُعَبِّرُ به عن حصول الشيء وُجُودِهِ إِبْتِائاً أو نَفياً، نظير استعمال «كان» تامة لا تحتاج إلى خبر.

● ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ أي: ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا مُتَتَابِعِينَ، مع فاصلٍ زَمَنِيٍّ بَيْنَ الرُّسُولِ وَبَيْنَ الَّذِي يَأْتِي بَعْدَهُ، ولهذا معنى «تتراً».

● ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رُسُلُهُمْ كَذَّبُوهُ﴾: أي: كَذَّبُوهُ فِي أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ وَرُسُولُهُ، وكَذَّبُوهُ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِ.

● ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾: أي: فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمُ الْمَتَأَخِّرُ بَعْضَهُمُ الْمُتَقَدِّمُ بِالتَّغْذِيبِ وَالْإِهْلَاكِ الشَّامِلِينَ.

● ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾: أي: وَاسْتَأْصَلْنَاهُمْ فَلَمْ يَبْقَ فِي الْحَيَاةِ شَيْءٌ يَتَّصِلُ بِهِمْ إِلَّا الْأَحَادِيثُ الَّتِي تُرَوِّى عَنْهُمْ، وَعَنْ كُفْرِهِمْ، وَعَنْ إِهْلَاكِ اللَّهِ لَهُمْ وَهَذَا قَدْ حَصَلَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الَّذِينَ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ آثَارٌ.

● ﴿فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: أي: فَطَرَدْنَا وَلَعْنًا وَإِهْلَاكًا لِقَوْمٍ لَيْسَ لَدَيْهِمُ الْاسْتِعْدَادُ لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ مَهْمَا أَمَهَلْنَاهُمْ فِي رِحْلَةِ الْإِبْتِلَاءِ.

● ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٤٥):

أي: ثُمَّ أَرْسَلْنَاهُمَا رَسُولَيْنِ يُبَلِّغَانِ عَنَّا الدِّينَ، الَّذِي اصْطَفَيْنَاهُ لِعِبَادِنَا إِيمَانًا وَعَمَلًا، مَضْحُوبَيْنِ بِآيَاتِنَا الْبَيِّنَاتِ الَّتِي تُثَلِّى، لِيَتَّخِذَهَا النَّاسُ ذِكْرًا، وَمَضْحُوبَيْنِ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ، والمرادُ به الْمُعْجَزَاتُ الَّتِي آتَاهَا اللهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام.

● ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ (٤٦):

مَلَأَ فِرْعَوْنُ: حَاشِيَتُهُ وَكِبَارُ قَوْمِهِ الَّذِينَ يَدْعُمُونَ مُلْكَهُ وَجَبَرُوتَهُ فِي الْأَرْضِ.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عَنِ اتِّبَاعِ مُوسَى وَأَخِيهِ، الْمُرْسَلَيْنِ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾: أي: شَاعِرِينَ بِأَنَّهُمْ فِي مَكَانِ الْعُلُوِّ فَوْقَ سَائِرِ النَّاسِ، فَكَيْفَ يَتَّبِعُونَ إِنْسَانَيْنِ بَشَرَيْنِ مِنْ قَوْمٍ مُسْتَعْبِدِينَ لَهُمْ.

● ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدْوُونَ﴾ (٤٧): أي: إِنَّ هَذَا أَمْرٌ لَا نَفْعَ لَهُ لِأَنَّهُ يَحْطُ مِنْ مَكَائِنِنَا الْعَالِيَةِ فِي جَمَاهِيرِ شُعْبِ مِصْرَ، إِذْ يَجْعَلُنَا أَتْبَاعًا، بَيْنَمَا نَحْنُ سَادَةٌ مُطَاعُونَ طَاعَةً تُشَبِّهُ الْعِبَادَةَ.

● ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ (٤٨): أي: فَكَانَ آخِرُ أَمْرِهِمْ بَعْدَ إِمْهَالِ طَوِيلٍ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ، أَنْ أَصْرُوا عَلَى تَكْذِيبِهِمَا وَرَفْضِ اتِّبَاعِهِمَا، فَعَلِمَ اللَّهُ مِنْ حَقَائِقِ مَا فِي نَفُوسِهِمْ أَنَّهُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلًا مِمَّا أُمِّلَى وَطَوَّلَ لَهُمْ، وَأَمَهَا لَهُمْ، فَقَدَّرَ وَقَضَى أَنْ يُهْلِكَهُمْ، فَكَانُوا مِنْ فَرِيقِ الْمُهْلَكِينَ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمْ اللهُ مِنْ أُمَّمِ الْكُفْرِ.

وَلَقَدْ ذَلَّتْ هَذِهِ التَّنُصُوصُ عَلَى تَشَابُهِ الْأَقْوَامِ وَالْأُمَمِ فِي مُوَاجَهَاتِهِمْ لِرُسُلِ رَبِّهِمْ، وَمُعَامَلَتِهِمْ لَهُمْ.



الفصل الثاني

حول تطبيق الله سنته في العذاب التخويفي التأديبي قبل الإهلاك الشامل

(١) جاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً لِرَسُولِهِ

مُحَمَّدٍ ﷺ :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ
يَضُرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ
شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ :

سبق تدبر هذا النص تدبراً كشف ما دل عليه من تطبيقات العذاب
الجزئي التأديبي التخويفي، من توطئات وتمهيدات ربانية مذكّرة ومنبّهة
وواظمة لمن لديه استعداد لأن يتعظ.

ولكن لم تنتفع بها الأمم التي قضى الله بغد ذلك بإهلاكها.

(٢) قول الله عز وجل في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول)

بشأن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَقَوْمِهِ :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا
هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيَ السَّاحِرُ
أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ
يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ :

• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ : الآيات تنطبق على الآيات البيانية

التي تتضمّن أوامر الله ونواهيه، كالنهى عن الشرك، وقتل النفس التي
حرّم الله إلا بالحق، والسّرقه، والزّنا، والسّحر، ونحوها.

وتَنْطَبِقُ أَيْضاً عَلَى الْآيَاتِ الدَّلَالَةِ عَلَى صِدْقِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَنَّهُ رَسُولٌ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مِثْلَ آيَةِ الْعَصَا، وَآيَةِ الْيَدِ.

ولكن عبارة: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ (٤٧) تدلُّ على أَنَّ المراد الآياتُ الَّتِي تَتَضَمَّنُ أوامر الله ونواهيه، لِأَنَّهَا هِيَ الْآيَاتُ الَّتِي تُثَبِّرُ ضَحِكَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، إِذْ هُمْ فِي وَاقِعِهِمُ الْعَمَلِيَّ يُخَالِفُونَهَا وَيُعْتَبِرُونَ مَا يَمَارِسُونَهُ مِنَ الْعَادَاتِ الْمُسْتَحْبَّاتِ الَّتِي لَا يَصِحُّ لِأَحَدٍ أَنْ يُعَارِضَهُمْ فِيهَا.

أَمَّا الْآيَاتُ الْإِعْجَازِيَّةُ فَلَا تُثَبِّرُ الضَّحِكَ، فَآيَةُ الْعَصَا الَّتِي تَنْقَلِبُ ثُعْبَانًا مُبِينًا، آيَةُ مُخِيفَةٍ تُثَبِّرُ فِي الْقُلُوبِ الْحَذَرَ وَالرَّهْبَةَ، وَالْإِنْهَارَ وَالذُّهْشَةَ. وَآيَةُ إِدْخَالِ الْيَدِ فِي الْجَيْبِ وَإِخْرَاجِهَا بَيْنَاءً مُتَلَاثِمَةً كَالْمُضْبَاحِ الدُّرِّيِّ، آيَةُ مُدْهِشَةٍ تُثَبِّرُ الْإِعْجَابَ. وَآيَاتُ الْعَذَابِ الْعَامِّ كَالطُّوفَانِ وَالْجَرَادِ وَالْقُمَّلِ وَالضَّفَادِعِ وَالْدَّمَ، آيَاتُ تُثَبِّرُ الْأَلَمَ وَاسْتِجْدَاءَ رَفْعِ الْبَلَاءِ.

● ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾: الْمُرَادُ مِنَ الْآيَاتِ هُنَا آيَاتُ الْعَذَابِ، إِذْ هِيَ الَّتِي تُوصَفُ بِأَنَّ بَعْضَهَا أَكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ، وَهِيَ الَّتِي يَلَايِمُهَا قَوْلُ اللَّهِ عَقِبَهَا: ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. أَي: وَقَبْضُنَا عَلَيْهِمْ، وَأَنْزَلْنَا بِهِمْ آيَاتِ الْعَذَابِ آيَةً فَآيَةً بِالتَّتَابُعِ مَعَ فَوَاصِلَ زَمَانِيَّةٍ بَيْنَ كُلِّ آيَةٍ وَالْآيَةِ التَّالِيَةِ لَهَا، رَغْبَةً فِي أَنْ يَرْجِعُوا عَنْ غِيهِمْ فَيُؤْمِنُوا وَيُسَلِّمُوا، وَكَانَتِ الْغَايَةُ مِنْهَا التَّخْوِيفُ، وَالتَّأْدِيبُ وَالْإِنْذَارُ بِالْإِهْلَاكِ الشَّامِلِ.

● ﴿وَقَالُوا يَتَّيُّهُ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يَمَا عَهْدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ (٤٩).

طَلَبُوا مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَدْعُو رَبَّهُ لِيَرْفَعَ عَنْهُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ، وَوَعَدُوهُ بِأَنْ يُؤْمِنُوا وَيُسَلِّمُوا لَهُ إِذَا رَفَعَ رَبُّهُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ.

وَمَعَ هَذَا الطَّلَبِ لَمْ يَسْمَحُوا لَأَنْفُسِهِمْ بِأَنْ يَقُولُوا لَهُ: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ، بَلْ أَصْرُوا عَلَى اعْتِبَارِهِ سَاحِرًا، فَقَالُوا لَهُ: ﴿يَتَّيُّهُ السَّاحِرُ﴾ وَقَدْ تَجَاوَزَ عَنْهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَغْبَةً فِي أَنْ يُؤْمِنُوا وَيُسَلِّمُوا.

﴿يَمَّا عَهْدَ عِنْدَكَ﴾ : أي: بما جعلَ عندَكَ مِنْ عَهْدٍ فِي أَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاكَ إِذَا دَعَوْتَهُ.

﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ : أي: لَئِنْ رَفَعَ رَبُّكَ عَنَّا الْعَذَابَ بِدُعَائِكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ إِلَى مَا هَدَيْتَنَا إِلَيْهِ مِنْ إِيْمَانٍ، وَإِسْلَامٍ، وَعَمَلٍ بِأَوَامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ.

كانت هذه العبارة وعداً مُؤَكَّدَ بِعِدَّةٍ مُؤَكَّدَاتٍ، وفيها استعطاف لموسى عليه السلام ليدعوه ربه، باعتبار أن ما يدعوههم إليه هو من قبيل الهداية، وما كانوا ليفعلوا ذلك لولا مُعَانَتُهُمُ الشَّدِيدَةُ مِنَ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ الَّتِي نَزَلَتْ بِهِمْ تَأْدِيئاً وَإِنْذَاراً.

● ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ (٥٦) : أي: فَدَعَا مُوسَى رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ مَا أَنْزَلَ بِهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ عَذَابٍ جُزْئِيٍّ تَأْدِيئِيٍّ وَإِنْذَارِيٍّ:

﴿إِذَا﴾ فُجَائِيَّةٌ ﴿هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ : أي: يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمُ الَّذِي عَاهَدُوا عَلَيْهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، جَاءَ التَّعْبِيرُ بِالْمُفَاجَأَةِ إِذْ كَانَ مِنَ الْمَرْتَقِبِ مِنْهُمْ أَنْ يَقُوا بِعَهْدِهِمْ فَيَهْتَدُوا، لَا أَنْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ، فَيَصِرُوا عَلَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ كُفْرٍ.

(٣) وقول الله عز وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول): بشأن كفار مكة إذ دعا الرسول محمد ﷺ عليهم بأن يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِسِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ فَأَنْزَلَ بِهِمْ عَذَابَ الْقَحْطِ وَالْجُوعِ.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَالُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ﴾ (٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ :

أي: وَلَقَدْ قَبَضْنَا عَلَيْهِم بِالْعَذَابِ الَّذِي لَيْسَ بِالشَّدِيدِ عَلَى طَرِيقَةِ الْإِنْذَارِ الْأَوَّلِيِّ التَّأْدِيئِيِّ التَّمْهِيدِيِّ.

● ﴿فَمَا اسْتَكَالُوا لِرَبِّهِمْ﴾ : أي: فَمَا خَضَعُوا وَلَا ذَلُّوا لِرَبِّهِمُ الَّذِي يُمِدُّهُمْ بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ. بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ كُفْرٍ وَعِنَادٍ.

يقال لغة: اسْتَكَانَ الرَّجُلُ، أي: خَضَعَ وَذَلَّ.

● ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾: أي: وما كانوا يُوالُونَ التَّذَلُّ لِرَبِّهِمْ، داعِينَ، مُسْتَجِدِينَ أَنْ يُزْفَعَ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ ابْتِدَائِي، استعمال الفعل المضارع هنا يدلُّ على أن الدُّعَاءَ لِرَفْعِ الْبَلَاءِ بالعذاب يحتاج مُتَابَعَةً في التَّضَرُّعِ.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ (٧٧):

أي: واستَمَرُّوا غير مُسْتَكِينِينَ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ، حَتَّىٰ وَفَتْ فَتَحَ باب ذي عَذَابٍ شَدِيدٍ عليهم، بِالْقَتْلِ فِي بَذَرٍ وبِالْهَزَائِمِ الْمُنْكَرَةِ الَّتِي كَانَ فَتَحَ مَكَّةَ آخِرَهَا، إِذَا هُمْ فِي هَذَا الْعَذَابِ مُبْلِسُونَ.

﴿مُبْلِسُونَ﴾: أي: سَاكِتُونَ، سَاكِتُونَ، نَادِمُونَ، مُتَحَيِّرُونَ، غَيْرُ قَادِرِينَ على أَنْ يَصْنَعُوا شَيْئاً لِرَفْعِ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ عَنْهُمْ.

وكان قد نزل بشأنهم أيضاً قَوْلُ اللَّهِ تعالى في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١١٣):

كان هذا العذابُ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ تَأْدِيباً وَإِنْذَاراً وَتَهْدِيداً بما هو أشد، وهو ما جاء بيانه في النَّصِّ السَّابِقِ.

﴿رَغَدًا﴾: أي: كثيراً طَيِّباً وَاسِعاً غزيراً رَفِيهاً.

﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾: أي: من كُلِّ مَكَانٍ يُصَدَّرُ مِنْهُ رِزْقٌ بِالنَّشَاطِ التجاري.

﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾: في هَذِهِ الْعِبَارَةِ تَشْبِيهُ مَا نَزَلَ

بهم من جُوعٍ وَخَوْفٍ على حياتهم باللباسِ، لَأَنَّهُ كَانَ ذَا شُمُولٍ كَشُمُولِ
اللباسِ معظم البدنِ. وَشَبَّةٌ مِقْدَارَ مَا نَزَلَ بِهِمْ بِالذَّوْاقِ، لَأَنَّ الألم به كان
كالألم لدى ذَوَاقِ الشيء الشديد المرارة، أو الشديد الحرارة.

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾: أي: فقبَضَ عليهم العَذَابُ في
حالة كَوْنِهِمْ ظَالِمِينَ، متجاوزين حُدُودَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ، إِلَى
الْبَاطِلِ وَالْجورِ وَالشَّرِّ وَالرَّذِيلَةِ.



الفصل الثالث

حول بيان حال الكفار بمحمد ﷺ من أهل مكة وهو فيهم يدعوهم إلى دين الله الحق

(١) جاء في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) بِشَأْنِ حَالِ كُفَّارِ
مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يَنْبُتَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ رَسُولُهُ مُحَمَّدًا ﷺ:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ
فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا
يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن يَحْدِلَ إِلَّا لِسُنَّتِ اللَّهِ
تَبْدِيلًا وَلَن يَحْدِلَ إِلَّا لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾:

﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: أي: غاية ما لديهم من أيمانٍ مُؤَكَّدَةٍ مُشَدَّدَةٍ.

جَهْدُ الشَّيْءِ: يأتي في اللُّغَةِ بِمَعْنَى غَايَتِهِ وَنَهَايَتِهِ. وَبِمَعْنَى وَسْعِهِ
وِطَاقَتِهِ. وَيَأْتِي الْجَهْدُ بِمَعْنَى الْمَشَقَّةِ.

• ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾: أي: وَلَا يُصِيبُ وَلَا يَنْزِلُ
التَّذْيِيرُ السَّيِّئُ وَلَا يُحِيطُ إِلَّا بِأَهْلِهِ، الْمُسْتَحْقِّينَ أَنْ يُصِيبَهُمْ، وَهُمْ الْكُفَرَةُ
الظَّالِمَةُ الْمُفْسِدُونَ.

دَلَّ هَذَا النَّصُّ عَلَى أَنَّ كُتُبَاءَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، كَانُوا يَقُولُونَ قَبْلَ بَعَثَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُقْسِمِينَ بِاللَّهِ أُنْبَلِغْ أَيْمَانِهِمْ وَأَشَدِّهَا وَأَقْوَاهَا: لَيْتَن جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ، فَبَلَّغَهُمْ عَنِ اللَّهِ، وَبَشَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ، لِيَكُونَنَّ أَكْثَرُ هِدَايَةٍ مِنَ النَّصَارَى الَّذِينَ جَاءَهُمْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ جَاءَهُمْ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، بِحُسْنِ الْفَهْمِ، وَحُسْنِ الْإِتْبَاعِ، إِذْ كَانُوا يَرَوْنَ تَفَوُّقَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى عَلَيْهِمْ فِي الْهِدَايَةِ، بِسَبَبِ الرُّسُلِ الَّذِينَ بَعَثَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ لَهْدَايَتِهِمْ، وَالْكِتَابِ الَّتِي أَنْزَلَهَا إِلَيْهِمْ.

فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ مَا زَادَهُمْ مَجِيئُهُ فِيهِمْ إِلَّا تَفُورًا مِنْ دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ، وَتَمَسُّكَ بِشُرُكِهِمْ، وَجَاهِلِيَّاتِهِمْ، وَلَمْ يَقُوْا بِوَعْدِهِمْ السَّابِقَةِ الَّتِي كَانُوا يَقُولُونَهَا، مَفَاخِرَةً بِقَوْمِيَّتِهِمْ وَأَعْرَاقِهِمْ، وَاسْتِعْدَادَاتِهِمْ الْفَطْرِيَّةِ، فِي مَقَابِلِ شُعُورِهِمْ بِتَفَوُّقِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَيْهِمْ، بِسَبَبِ الرُّسُلِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، وَالْكِتَابِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَيْهِمْ، لَا بِسَبَبِ تَمَيُّزِهِمُ الذَّاتِيَّ عَلَيْهِمْ.

وَمِنَ الْمَلَا حِظِّ أَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَفْتَخِرُونَ بِأَعْرَاقِهِمُ الْقَوْمِيَّةِ يَقُولُونَ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ، إِذَا رَأَوْا غَيْرَهُمْ تَفَوُّقُوا عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ أَوْ حَضَارَةٍ، بِسَبَبِ خَارِجٍ عَنْ تَمَيُّزِهِمُ الذَّاتِيَّ بِخُصَائِصِ تَكْوِينِيَّةِ.

وَالسَّبَبُ الَّذِي جَعَلَ كُتُبَاءَ مُشْرِكِي مَكَّةَ يَزْفَضُونَ دَعْوَةَ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَيَنْفِرُونَ مِنْهَا، يَزْجِعُ إِلَى بَاعِثَيْنِ نَفْسَيْنِ:

الباعث الأول: الاستكبار في الأرض، إِذْ رَأَوْا إِيْمَانَهُمْ بِالرَّسُولِ يُلْزِمُهُمْ بِاتِّبَاعِهِ، وَالْخُضُوعَ لِقِيَادَتِهِ، وَهَذِهِ قَضِيَّةٌ تَتَنَاقَى مَعَ مَشَاعِرِ الْاسْتِكْبَارِ فِي نَفْسِهِمْ.

الباعث الثاني: أَنَّ الْإِيْمَانَ بِالرَّسُولِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ يَمْنَعُهُمْ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمُ الْمَادِّيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ الَّتِي يَخْضُلُونَ عَلَيْهَا، بِاسْتِخْدَامِ

أنواع من المكر السيئ الذي يَمَكرونه بجماهيرهم، وبغَيْرِهِمْ من الوافدين إليهم من شتى قبائل العَرَب.

فلاستَكْبَارُ والمَكْرُ السيئ هما الأمران اللذان جَعَلَاهُمْ يَنْفِرُونَ من دعوة الرسول ﷺ.

وبما أن المكر السيئ لا يَحِيقُ إِلَّا بِأَهْلِهِ، بمقتضى سُنَّةِ اللَّهِ في عباده، فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا بِالْكَفَّارِ السَّابِقِينَ في القرون السَّالفة، وهي سُنَّةُ التَّغْذِيبِ فالإهلاك الشامل، إذا وَصَلَ الْقَوْمُ إلى حالةٍ مَيُؤَسِّ مِنْ صَلَاحِهِمْ مَعَهَا عن طريق إِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّة.

وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ السَّابِقَةَ في تاريخ الناس تَبْدِيلًا لِمَضمُونِهَا في المستقبل، وَلَنْ تَجِدَ لَهَا تَحْوِيلًا عن مجراها.

(٢) وَجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بشأن كُبرَاءِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ أَيْضًا:

﴿وَلَكِنْ آخَرًا عَنْهُمْ الْعَذَابُ إِلَّا أَنتُمْ مَعْدُودُونَ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾:

● ﴿إِلَّا أَنتُمْ مَعْدُودُونَ﴾: أي: إِلَى مُدَّةٍ زَمَنِيَّةٍ مَعْدُودَةٍ الْأَجْزَاءِ عند الله.

● ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾: أي: لَيَقُولُنَّ عَلَى سَبِيلِ الاسْتِهْزَاءِ الدَّالُّ عَلَى إنكارهم نُذَرَ الْعَذَابِ: أَيُّ شَيْءٍ يَمْنَعُهُ عَنْ أَنْ يَنْزِلَ بِنَا، وَقَدْ بَلَغْنَا مِنْ دَعْوَةِ مُحَمَّدٍ أَبْلَغَ الْجُحُودِ، وَبَلَغْنَا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ الْاضْطِهَادَ، وَالْعَدَاءَ، وَالتَّهْيِئَةَ لِلْحَرْبِ.

● ﴿إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾: أي: تَنْبِيْهٌ عَامٌّ، يَوْمَ يَأْتِيهِمْ الْعَذَابُ الْمَقْدَرُ لَهُ مُدَّةٌ زَمَنِيَّةٌ مُحَدَّدَةٌ، اقْتَضَتْهَا الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ، لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ مُطْلَقًا مَهْمَا اتَّخَذُوا مِنْ وَسَائِلِ.

• ﴿وَحَافٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: أي: وأصابَهُمْ، وَنَزَلَ بِهِم العذابُ الَّذِي كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِالْإِنذَارَاتِ الَّتِي كَانَتْ تُوجَّهُ لَهُمْ بِشَأْنِهِ.



الفصل الرابع

حول ما جاء في القرآن بشأن مُسْتَقْبَلِ المَجْمَعَاتِ السَّكْنِيَّةِ وتوابعها في تاريخ البشرية المستقبلية

جاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) قول الله عز وجل:

﴿وَلَنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ آلِفِكَمَةٍ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٥٨)

أي: وَمِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ مِنْ قَرَأَ النَّاسُ فِي الْأَرْضِ يَظْلِمُونَ، وَيَسْتَحِقُّونَ بِمَقْتَضَى سُنَّةِ اللَّهِ الْإِهْلَاكَ أَوْ التَّعَذُّبَ الشَّدِيدَ، إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا إِذَا اسْتَحَقَّتِ الْإِهْلَاكَ، أَوْ مُعَذِّبُوهَا إِذَا اسْتَحَقَّتِ الْعَذَابَ دُونَ إِهْلَاكَ.

وَقَدْ يَكُونُ نَبَأًا عَامًّا شَامِلًا كُلَّ المَجْمَعَاتِ السَّكْنِيَّةِ لِلنَّاسِ فِي الْأَرْضِ، وَلِتَوَابِعِهَا. وَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ الْمَرَادُ، فَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ، أَنَّ النَّاسَ فِي كُلِّ مَجْمَعَاتِهِمُ السَّكْنِيَّةِ وَلَوْ أَحَقَّهَا، سَيَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا يَسْتَحِقُّونَ عَلَيْهِ بِمَقْتَضَى سُنَّتِهِ أَنْ يُهْلِكَهُمْ إِهْلَاكًا شَامِلًا كَمَا أَهْلَكَ كَثِيرًا مِنْ كُفَّارِ أَهْلِ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ، أَوْ يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يُعَذِّبُوا عَذَابًا شَدِيدًا.

وهذه الحقيقة المستقبلية مَسْطُورَةٌ مَكْتُوبَةٌ فِي الْكِتَابِ عِنْدَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَسَمَتْ حِكْمَتُهُ، وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ.



الفصل الخامس

**حول تطبيق سنة الله عز وجل في إهلاك الأمم إهلاكاً شاملاً
مقرونًا بتغذيتهم لأنهم صاروا بؤرة فساد وإفساد، وأمة
مبنية على صلاحهم عن طريق إرادات أفرادها الحرة**

(١) جاء في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول) قول الله عز وجل:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَمَّا شَكَّنْهُمْ
بَعْدَهُمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (٥٨):

أي: وعددًا كثيرًا من القرى أهلكناها جزاء أنها بطرت معيشتها والمراد
أهل هذه القرى.

﴿بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾: أي: بطرت في معيشتها التي كانت فيها ذات
نعم كثيرة ورخاء وسعة، والمراد الاستكبار بها، وجحود حق المنعم الذي
أنعم بها عليها، فكفرت به، واستكبرت عن الإيمان به وبرسوله، وعن
طاعته بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، فتمادت في ضلالها
وفسادها، حتى استحقت بحكمة الله أن يعذبها، ويهلكها إهلاكاً شاملاً،
ففعل ذلك بها.

وجاء في هذه الآية الكناية عن إهلاك أهل هذه القرى، بالإشارة إلى
مساكنهم التي لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً، وما جاء في هذا النص إهلاك
لم تدمر معه القرى.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾: أي: لم نجعل لمساكنهم خلايف يرثونها،
بل صارت لآمالك لها من الناس، وانكشف أن مالكها هو الله الرب
خالقها، الذي له ما في السماوات وما في الأرض.

(٢) وجاء في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) قول الله عز

وجل في معرض خطابه لمشركي أهل مكة إبان التنزيل:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: ويا كُفَّارَ مَكَّةَ قد أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيِ، كَقَوْمِ هُودٍ، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شُعَيْبٍ، لَأَنَّهُمْ وَضَلُّوا فِي الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ وَالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ إِلَى دَرَكَةٍ اسْتَحَقُّوا بِهَا الْإِهْلَاكَ الشَّامِلَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، قَبْلَ الْعَذَابِ الْخَالِدِ يَوْمَ الدِّينِ.

وَكُنَّا قَبْلَ إِهْلَاكِهِمْ صَرَّفْنَا الْآيَاتِ، أَي: نَوَّعْنَا فِي تَقْدِيمِ الْآيَاتِ لَهُمْ، لِنَحَاصِرَهُمْ بِالْأَدْلَةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَتَوَافَرَ لَدَيْهِمُ الْقِنَاعَةُ بِالْحَقِّ، فَيَسْتَغْفِرُوا وَيَتُوبُوا إِلَى بَارِئِهِمْ، وَيَرْجِعُوا إِلَى الَّذِي ابْتَعَدُوا عَنْهُ بِشِرْكِيَّاتِهِمْ وَجَاهِلِيَّاتِهِمْ وَضَلَالَاتِهِمْ.

● ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَهَةً﴾:

أي: فَهَلَّا نَصَرَهُمْ حِينَ وَجَّهَ اللَّهُ لَهُمْ أَسْبَابَ الْعَذَابِ وَالْإِهْلَاكِ الشَّامِلِ، الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ ءِلَهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَعَبَدُوهُمْ زَاعِمِينَ أَنَّهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ يُقَدِّمُونَ قُرْبَانًا إِلَى اللَّهِ.

الْقُرْبَانُ: كُلُّ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادَةٍ.

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾: أَي: لَمْ يَنْصُرُوهُمْ، بَلْ ضَاعُوا عَنْهُمْ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ أَثَرًا، أَوْ لَمْ يَجِدُوا لَهُمْ نَفْعًا.

﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: أَي: وَذَلِكَ التَّعْذِيبُ وَالْإِهْلَاكُ، هُوَ جَزَاءُ إِفْكِهِمُ الْمَعْجَلِ فِي الدُّنْيَا، وَجَزَاءُ مَا كَانُوا فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ يَفْتَرُونَ.

﴿إِفْكُهُمْ﴾: أَي: كَذِبُهُمْ عَلَى اللَّهِ.

﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾: أي: وما كانوا يَحْتَلِقُونَ من ضلالاتٍ، وَيَسُبُّونَهَا إلى الدِّينِ وَيَعْمَلُونَ بها.

(٣) وقول الله عز وجل في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ، في مَعْرِضِ بيان اغْتِرَاضِ قَوْمِهِ على بَشَرِيَّتِهِ، وَتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ، وَإِتْهَامِهِمْ له بِأَنَّهُ افْتَرَى الْقُرْآنَ من عِنْدِهِ وَنَسَبَهُ إلى الله:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظِلْمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَآ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَبُولْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلْدِينَ ﴿١٥﴾﴾:

● ﴿فَتَلَوُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: أي: فاسأَلُوا أَهْلَ الْعِلْمِ مِنْ حُقَاطِ تَارِيخِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ: هَلْ كَانَتْ أَنْبِيَآؤُهُمْ وَرُسُلُهُمْ إِلَّا رِجَالًا مِنَ الْبَشَرِ. اضْطَفَّاهُمْ اللهُ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ بِالْوَحْيِ إِلَيْهِمْ، وَبَعَثَهُمْ إِلَى أَقْوَامِهِمْ لِيُبَلِّغُوا النَّاسَ مَا أَنْزَلَ رَبُّهُمْ إِلَيْهِمْ.

وجاء استعمال «إن» في الشرط دون «إذا» للإشعار بأنَّهُمْ يَعْلَمُونَ هُذِهِ الْحَقِيقَةَ فَهُمْ لَا يَحْتَاجُونَ سَوْال أَهْلِ الذِّكْرِ، فَإِنَّ الشَّرْطِيَّةَ تُسْتَعْمَلُ كَثِيرًا فِيمَا هُوَ غَيْرُ وَاقِعٍ.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾: أي: وَمَا جَعَلْنَاهُمْ كَالْمَلَائِكَةِ، بَلْ هُمْ بَشَرٌ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ مِثْلَ سَائِرِ الْبَشَرِ.

● ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾: أي: بَلْ مَاتُوا كَمَا مَاتَ وَيَمُوتُ سَائِرُ النَّاسِ، إِذِ الْحَيَاةُ الْأُولَى لَا خُلُودَ فِيهَا لِأَحَدٍ.

● ﴿ثُمَّ صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ﴾ : أي: ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةٍ إِمْهَالٍ لِأَقْوَامِ الرُّسُلِ، لِقَطْعِ كُلِّ أَغْذَارِهِمُ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يَغْتَدِرُوا بِهَا، صَدَقْنَا رُسُلَنَا مَا كُنَّا وَعَدْنَاهُمْ إِيَّاهُ مِنَ النِّجَاةِ مِنْ كُلِّ مَكَايِدٍ مَكْذُوبِهِمْ مِنْ أَقْوَامِهِمْ، وَمِنْ تَغْذِيبٍ وَإِهْلَاكِ الْمَكْذِبِينَ الَّذِينَ أَرَادُوا بِهِمْ وَبِالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهُمْ شَرًّا وَضُرًّا.

● ﴿لَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ : أي: لَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا هُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي يُبَلِّغُكُمْ إِيَّاهُ رَسُولُنَا مُحَمَّدٌ. وفي هذا الكتاب ذِكْرُكُمْ، أي: فِيهِ شَرَفٌ لَكُمْ لِأَنَّهُ نَزَلَ بِلُغَتِكُمْ، فَالْخَطَابُ مُوجَّهٌ لِمَكْذِبِي الرُّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ قَوْمِهِ الْعَرَبِ.

وفي هذا الكتاب ذِكْرُكُمْ، أي: مَا يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَذْكُرُوهُ مِنْ شَرَائِعِ وَأَحْكَامِ رَبِّكُمْ الَّتِي اصْطَفَاهَا لَكُمْ، وَالَّتِي تَرْتَبِطُ بِاتِّبَاعِهَا سَعَادَتُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ. وَالْخَطَابُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى مُوجَّهٌ لِكُلِّ النَّاسِ مِنْ بَعْدِ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَهْوَاءَكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ بِإِرَادَةِ عَاقِلَةٍ حَازِمَةٍ، فَتَتَّبِعُونَ الْحَقَّ بِبَصِيرَةِ ذَوِي الْعَقْلِ الْعِلْمِيِّ وَالْعَقْلِ الْإِرَادِيِّ، فَلَا تَنْزِلُقُوا إِلَى شَقَاوَتِكُمْ، وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ الَّذِي أَعْتَدَهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ لِلْمُجْرِمِينَ الظَّالِمِينَ.

● ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ : أي: وَعَدَدًا كَثِيرًا مِنَ الْقُرَى سَبَقَ فِي تَارِيخِ النَّاسِ أَنَّنَا قَصَمْنَا أَهْلَهَا الظَّالِمِينَ، لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ وَأَجْرَمُوا.

﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ : أي: مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ، وَهَذَا الْإِطْلَاقُ هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ.

القَصَمُ فِي اللُّغَةِ: الْكَسْرُ، وَالْمُرَادُ مِنْ كَسْرِ أَهْلِ الْقُرَى الظَّالِمِينَ، إِهْلَاكُهُمْ بِقُوَّةٍ تَكْسِرُ وَتَحْطُمُ كُلَّ قَوَاهِمِ وَدِفَاعَاتِهِمْ وَحُصُونِهِمْ.

● ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ : أي: فلَمَّا أَحَسُّوا بحواستهم الظَّاهِرَةَ مُقَدِّمَاتِ
إِنزَالِ أسبابِ العذابِ والهلاكِ بهم.

البأس: العذاب.

● ﴿إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ : أي: فَاجْزُوا بِرُدُودِ أَفْعَالٍ سَرِيعَةٍ، يَبْتَغُونَ
الْفِرَارَ مِنْ مَّوَاطِنِ تَنْزِيلِ أسبابِ تَغْذِيهِمْ وإِهْلَاكِهم، فَجَعَلُوا يَرْكُضُونَ مِنْ جِهَةِ
مَسَاكِينِهِمْ إِلَى خَارِجِهَا.

لَكِنْ لَا يَنْفَعُهُمُ الْفِرَارُ، فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ وَسَائِلَ تَغْذِيهِمْ وإِهْلَاكِهم تَحِيْطُ
بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَتَحَاصِرُهُمْ حِصَاراً تَاماً.

● ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُلُونَ﴾ (١٣):

كَانَ لِسَانُ حَالِ كُلِّ جِهَةٍ يَرْكُضُونَ إِلَيْهَا يَقُولُ لَهُمْ: لَا تَرْكُضُوا فَارِينَ
مِنْ نَوَازِلِ أسبابِ العذابِ والهلاكِ، فَقَدْ أَحَاطَتْ هَذِهِ الْأَسْبَابُ بِكُمْ مِنْ كُلِّ
جَانِبٍ، وَارْجِعُوا إِنْ كَانَتْ لَكُمْ قُدْرَةٌ عَلَى الْحَرَكَةِ، إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ مِنْ
زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَعَصَيْتُمْ اللَّهَ بِهِ، وَاتَّخَذْتُمْ مِنْهُ وَسَائِلَ لِمُقَاوَمَةِ دَعْوَةِ رُسُلِ
رَبِّكُمْ، وَاضْطَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهُمْ، وَارْجِعُوا إِلَى مَسَاكِنِكُمْ الَّتِي
كُنْتُمْ تَتَفَاخَرُونَ بِهَا، وَتَخْتَمُونَ بِجُدْرَانِهَا وَأَسْوَارِهَا، لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ إِنْ وَصَلْتُمْ
إِلَيْهَا مِنْ قَبْلِ أَهْلِكُمْ عَنْ سَبَبِ هَذَا الْعَذَابِ الْمَهْلِكِ الَّذِي نَزَلَ بِكُمْ فَأَخَذْتُمْ
مِنْهُ تَغْيُرُونَ مَذْعُورِينَ، أَوْ تُسْأَلُونَ عَنْ مُسَاعَدَتِهِمْ بِأَسْبَابِ النِّجَاةِ.

فَإِنْ سُئِلْتُمْ فَسُتَجِيبُونَ بِأَنْكُمْ كُنْتُمْ ظَالِمِينَ، دَلٌّ عَلَى هَذَا مَا يَلِي:

● ﴿قَالُوا يَتَوَلَّآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (١٤) ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ
حَصِيدًا خَنِدِينَ﴾ (١٥):

أي: فَمَا زَالُوا يَرُدُّوْنَ قَوْلَهُمْ: ﴿يَتَوَلَّآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾: نَدَاءُ تَوَجُّعٍ
وَتَحَسُّرٍ وَنَدَمٍ بِسَبَبِ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ.

«وَيْلٌ» كَلِمَةُ عَذَابٍ، وَهِيَ تُقَالُ عِنْدَ نُزُولِ الْعَذَابِ، وَتُقَالُ عِنْدَ الْإِنذَارِ وَالتَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ بِهِ. وَنَدَاءُ هَذَا الْوَيْلِ نَدَاءُ نَدَمٍ وَتَحَسُّرٍ وَتَوَجُّعٍ.

إِنَّهُمْ يُرَدِّدُونَ هَذِهِ الْعِبَارَةَ، مُعْتَرِفِينَ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ ظُلْمٍ، عَالِمِينَ بِأَنَّ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ الْمَهْلِكِ، إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ، طَامِعِينَ بِأَنْ يَخَفِّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وَتَوَالَّتْ عَلَيْهِمْ ضَرْبَاتُ عَذَابِ اللَّهِ الْمَهْلِكِ، حَتَّى جَعَلَهُمْ رَبُّهُمْ كَحَصِيدِ الزَّرْعِ، هَلَكَى خَامِدِينَ، لَا حَرَكَةَ لَهُمْ، وَلَا حَرَارَةَ فِيهِمْ.

لَقَدْ خَمَدُوا كَمَا تَخْمَدُ النَّارُ فَتَصِيرُ رَمَادًا.

لَمْ يَنْفَعَهُمْ اعْتِرَافُهُمْ بِظُلْمِهِمْ حِينَئِذٍ، لِأَنَّهُ قَدْ انْتَهَى دَوْرُ الْإِبْتِلَاءِ مِنْذُ بَدْءِ نُزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ، وَجَاءَتْ مَرْحَلَةُ مُقَدَّمَاتِ الْجَزَاءِ.

(٤) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (مُحَمَّدٍ/ ٤٧ مِصْحَفٍ/ ٩٥ نَزُولٍ) قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خُطَابًا لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۖ﴾ (١٣) ﴿أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ يَنِينٍ مِّنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَّمْ سُوءُ عَمَلِهِ ۖ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ﴾ (١٤) ﴿:

﴿وَكَايْنٍ﴾: كَلِمَةُ مُنْهَةِ تَدُلُّ عَلَى تَكْثِيرِ الْعَدَدِ، ﴿مِّنْ قَرْيَةٍ﴾ تَمْيِيزُ مَجْرُورٌ بِـ «مِّنْ».

أَي: يَا مُحَمَّدُ، وَعَدَدًا كَثِيرًا مِنَ الْقُرَى (أَي: مِنْ أَهْلِهَا) هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ (وَهِيَ مَكَّةُ) الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَهَا، أَهْلَكْنَاهُمْ لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، وَعَصَوْهُمْ، وَأَكْثَرُوا فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ، وَحِينَ أَهْلَكْنَاهُمْ مَا كَانَ لَهُمْ نَاصِرٌ يَدْفَعُ أَوْ يَرْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابَنَا.

لَقَدْ زَيْنَ لَهُمْ قَبْلَ تَعْذِيبِهِمْ سُوءُ عَمَلِهِمْ، إِذْ كَانَ يَحَقُّ لَهُمْ مَا يَهْوَوْنَ وَيَسْتَهْوُونَ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم الَّتِي أَنْحَدَرَتْ بِهِمْ إِلَى حُضِيضِ الْكُفْرِ وَالْفَسَادِ

والبغي والطغيان، فجلب ذلك لهم نِقْمَةَ الله، فَأَنْزَلَ بِهِمِ الْعَذَابَ وَالْإِهْلَاكَ الشَّامِلِينَ.

وفي هذا النصّ طمأننة للرسول والذين آمنوا به وأَتَّبَعُوهُ، بأن الله جلّ جلاله سينصّرهم، وفيه إنذارٌ ضمنيّ للكُفَّارِ أَهْلِ مَكَّةَ، بأنهم إذا أَصْرُوا على كفرهم فإنه سَيَحُلُّ بِهِم نَظِيرُ الَّذِي حُلَّ بِالْقُرَى الْكَافِرَةِ مِنْ قَبْلِهِمْ.

(٥) وَجاء في سورة (الطلاق/ ٦٥ مصحف/ ٩٩ نزول) قول الله عزّ

وجل:

﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرِيْبَةٍ عَنَتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيْدًا وَعَذَّبْنَهَا عَذَابًا تُكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيْدًا... ۝١٠﴾ :

● ﴿عَنَتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا﴾ : أي: طَعَتْ واستكبرت مُتَجَاوِزَةً أَمْرَ رَبِّهَا بالمخالفة والعِصْيَان، ومتجاوزة أوامرِ رُسُلِ رَبِّهَا.

● ﴿فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيْدًا﴾ : على ما كان منها من ظُلمٍ وَعُتُوٍّ، وَقَدَرْنَا وَقَضَيْنَا أَنْ نُعَذِّبَهَا وَنُهْلِكَهَا.

● ﴿وَعَذَّبْنَهَا عَذَابًا تُكْرًا﴾ : أي: وعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا شَدِيْدًا صَغْبًا.

التَّكْرُ والتَّكْرُ: في اللَّغَةِ، الشَّدِيْدُ الصَّغْبُ.

● ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ : أي: فَأَحْسَتْ بِالْأَمِّ سُوءَ عَاقِبَةِ أَمْرِهَا فِي الْكُفْرِ وَالْعُتُوِّ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَأَوَامِرِ رُسُلِهِ.

● ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ : أي: وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا فِي الْكُفْرِ وَالْعُتُوِّ خُسْرًا لِّكُلِّ شَيْءٍ، إِذْ خَسِرَتْ أَنْفُسَهَا وَكُلَّ مَا كَانَتْ تَمْلِكُ.

● ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيْدًا﴾ : أي: وَلَا يَفْتَصِرُ الْعَذَابُ عَلَى الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّذِي تَمَّ بِهِ هَلَاكُهُمْ، فَقَدْ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيْدًا سَوْفَ يَذُوقُونَ آلَامَهُ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ.

(٦) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ

وَجَلَّ:

﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَثْرِ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَسَتَجِدُوكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَنَّهُ سَنَةٌ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾﴾:

● ﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾: أي: فكثير من أمم قَرَى أهلكناها حالة كونها ظالمة.

● ﴿فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾: أي: فالقَرْيَةُ المهلك أهلها خالية من ساكنين فيها. يقال لغة: خَوَى المكان يَخْوِي، أي: خَلَا.

﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾: تُطْلَقُ العُرُوشُ عَلَى السُّقُوفِ، وَعَلَى كُلِّ مَا يُظَلَّلُ، وَالْجَارُ وَالْمَجْرُورُ مُتَعَلِقَانِ بِمَخْدُوفٍ قَدَرُهُ الْمَفْسُورُونَ: «سَاقِطَةٌ» أي: فهي سَاقِطَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، أَخَذًا مِنْ وَاقِعٍ حَالٍ كَثِيرٍ مِنَ الْقُرَى الَّتِي أَهْلَكَ اللَّهُ مَنْ كَانَ يَسْكُنُهَا مِنَ الظَّالِمِينَ.

أقول: وَيُمْكِنُ تَقْدِيرُ «بَاقِيَةٌ» إِذْ تُوجَدُ قُرَى أَهْلَكَ اللَّهُ أَهْلَهَا وَسُقُوفُهَا بَاقِيَةٌ لَمْ تَتَهَدَّمْ وَلَمْ تَسْقُطْ، وَهِيَ خَاوِيَةٌ مِنَ السَّاكِنِينَ، وَهَذَا الْمَعْنَى يَلَاقِمُ وَضْفَهَا بِالْخَاوِيَةِ، لِأَنَّ سُقُوفَهَا لَوْ كَانَتْ سَاقِطَةً مُتَهَدِّمَةً لَأَغْنَى ذِكْرَ سُقُوفِهَا عَنْ ذِكْرِ خَوَائِهَا، فَالْبَيُوتُ الَّتِي تَهَدَّمَتْ سُقُوفُهَا لَا تُسْكَنُ مِنَ النَّاسِ.

وَيَلَاقِمُ أَيْضًا ذِكْرَ يَثْرِ مَعْطَلَةٍ، وَذِكْرَ قَصْرِ مَشِيدٍ.

● ﴿وَيَثْرِ مَعْطَلَةٍ﴾: أي: مُهْمَلَةٌ مَتْرُوكَةٌ، لَا يَسْتَقْبِي مِنْهَا الْوَارِدُونَ، مَعَ صَلَاحِهَا لِلْوُرُودِ مِنْهَا.

● ﴿وَقَصِّرْ مَشِيدَ﴾ : أي: وقصِّر رَفِيعِ البناءِ مَطْلِيَّ بالشَّيدِ. الشَّيدُ: كُلُّ مَا يُطْلَى بِهِ البناء من جصٍّ ونحوه.

وقد كانت هذه الآثَارُ مَوْجُودَةً بِكَثْرَةِ إِبَّانِ التَّنْزِيلِ، والنَّصُّ هُنَا يَتَحَدَّثُ عَنْ أُمَّمٍ أَهْلَكَتْ إِهْلَاكًا شَامِلًا، دُونَ أَنْ تُدَمَّرَ مَسَاكِنُهُمْ تَدْمِيرًا شَامِلًا، بَلْ بَقِيَتْ فِيهَا بَقَايَا.

● ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ : أي: أَلَزِمَ مُكَذِّبُوكَ يَا مُحَمَّدُ مَوَاطِنَ إِقَامَتِهِمْ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَرَوْا آثَارَ الْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ لِيَتَعَطَّوْا بِهَا، أَمْ سَارُوا فِي الْأَرْضِ وَرَأَوْهَا وَلَكِنْ رَأَوْهَا رُؤْيَا غَيْرَ ذَاتِ أَثَرٍ وَاعْظِ فِي قُلُوبِهِمْ، لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ مُصَابَةٌ بَعْمَى يَمْنَعُهَا مِنْ إِدْرَاكِ حَقَائِقِ دَلَالَةِ الْأَشْيَاءِ:

● ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ : أي: فَتَكُونُ لَهُمْ بِمُشَاهَدَةِ آثَارِ السَّابِقِينَ أَعْمَالٌ فِي أَجْهَازِ التَّفَكِيرِ وَالْفَهْمِ لَدَيْهِمُ الَّتِي هِيَ فِي دَاخِلِهِمْ، يَعْقِلُونَ بِهَا عَقْلًا عِلْمِيًّا فَيَذَرُوكُونَ سُنَنَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، وَيَعْقِلُونَ بِإِرَادَاتِهِمُ الَّتِي هِيَ فِيهَا، نَفُوسُهُمْ وَأَهْوَاءُهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ عَنِ الْإِنْتِزَاقِ إِلَى الْمِهَالِكِ الَّتِي تُزَلِّقُ إِلَيْهَا الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبُ وَالْآثَامُ، وَأَخْبَتْهَا الْكُفْرُ وَالشُّرْكُ بِاللَّهِ.

● ﴿أَوْ أَدَانُ سَمْعُونَ بِهَا﴾ : مِنْ تَالِي كِتَابِ اللَّهِ آيَاتِهِ الْمُنْزَلَاتِ، فَيَتَذَبَّرُونَهَا وَيَهْتَدُونَ بِهَذِيهَا.

وَتَكُونُ لَهُمْ أَبْصَارٌ يَرَوْنَ بِهَا آيَاتِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ الْمَدْهَشِ، رُؤْيَا بَاحِثِينَ مُتَدَبِّرِينَ مُهْتَدِينَ إِلَى الْحَقِّ، لَا رُؤْيَا مُسْتَمْتَعِينَ بِالظُّوَاهِرِ، غَافِلِينَ عَنِ الْبَوَاطِنِ وَدَلَالَاتِهَا، فَمَنْ يَكْتَفِي بِالْإِسْتِمْتَاعِ بِالظُّوَاهِرِ، فَإِنَّ قَلْبَهُ الْمَذْرُوكَ الَّذِي بِهِ يَفْهَمُ حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ وَبَوَاطِنَهَا قَلْبٌ أَعْمَى، لَا يَرَى الْحَقَّ.

● ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ : أي: لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ عَنْ إِدْرَاكِ بَوَاطِنِ الْآيَاتِ وَحَقَائِقِهَا، لِأَنَّهَا لَا تَمْلِكُ بِفِطْرَتِهَا هَذِهِ الْقُدْرَاتِ الْإِدْرَاكِيَّةَ.

● ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ : أي: وَلَكِنْ تَعْمَى عَنْ إِدْرَاكِ

دَلَالَات آيَاتِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ، أَجْهَزَةُ الْإِذْرَاكِ فِي الْقُلُوبِ الَّتِي فِي الصُّدُورِ، وَالْمَرَادُ بِالْقُلُوبِ مَرَائِزُ التَّفْكِيرِ فِي النَّاسِ، وَالْمَرَادُ بِالصُّدُورِ مَا فِي دَاخِلِهَا فِي غُمْقِ الْمَرَائِزِ الْإِذْرَاكِئَةِ. هَذِهِ هِيَ الَّتِي تَغْمَى، إِذْ تَمْلِكُ الْقُدْرَاتِ التَّفْكِيرِيَّةَ الْإِذْرَاكِئَةَ، فِي أَضْلٍ فِطْرَتِهَا الرَّبَّانِيَّةِ، وَلَكِنَّ الْأَهْوَاءَ وَالشَّهَوَاتِ وَرَغَبَاتِ الْإِسْتِمَاعِ بِمَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا تُغْشِي عَلَيْهَا، فَتُغْمِيهَا.

● ﴿وَسْتَجْلِبُوكَ بِالْعَذَابِ﴾: أَي: وَيَسْتَعْجِلُكَ يَا مُحَمَّدُ الَّذِينَ كَذَّبُوكَ بِتَحْقِيقِ مَا أَنْذَرْتَهُمْ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِلَاغًا عَنَّا.

وظَاهِرُ أَنَّهُمْ لَا يَطْلُبُونَ نَزُولَ الْعَذَابِ بِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ يَتَحَدَّوْنَهُ تَحَدِّيَ الْمَكْذَبِ لَهُ. أَي: إِنَّ مَا كُنْتُ تُبَلِّغُنَا إِيَّاهُ مِنَ الْإِنْذَارِ بِعَذَابِ اللَّهِ مُعْجَلٌ، فَذَ كَانَ تَبْلِيغًا كَاذِبًا تَفْتَرِيهِ عَلَى رَبِّكَ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي النَّصِّ مَا يَلِي:

● ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾: أَي: وَلَا بُدَّ أَنْ يَتَحَقَّقَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ، وَبَلَّغَهُ رَسُولُهُ، وَلَكِنَّ حِسَابَ الزَّمَنِ فِي مَقَادِيرِ اللَّهِ غَيْرُ حِسَابِ النَّاسِ لِلزَّمَنِ، فَالنَّاسُ يَسْتَبْطِئُونَ وَقُوعَ الْمَوْعُودِ بِهِ، بِحَسَبِ الْآيَامِ الَّتِي يَعُدُّونَهَا، أَمَّا اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ فَتَقْدِيرُ الزَّمَنِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَفْعَالِهِ فِي كَوْنِهِ كَمَا يَلِي:

● ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٤٧): أَي: فَلِذَا وَعَدَ اللَّهُ أَنْ يُخْدِثَ أَمْرًا بَعْدَ سَاعَةٍ مِنْ حِسَابِ زَمَانِهِ لِمَقَادِيرِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ السَّاعَةَ تَعَادِلُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي حِسَابِ النَّاسِ لِآيَاتِهِمْ. وَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ حَلِيمٌ صَبُورٌ، يُؤْمِلِي لِعِبَادِهِ، وَلَا يَعْجَلُ بِتَعْذِيبِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ، لِيُعْطِيَهُمْ أَطْوَلَ مَدَّةٍ يُرَاجِعُونَ فِيهَا أَنْفُسَهُمْ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَسْتَغْفِرُوا وَيَتُوبُوا، وَيَكُونُوا مِنْ أَهْلِ النِّجَاةِ، وَلِيَقْطَعَ فِيهَا كُلَّ أَغْذَارِهِمُ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يَغْتَذِرُوا بِهَا.

لَكِنَّ إِمْهَالَهَ جَلَّ جَلَالُهُ إِذَا أَخَذَ مَدَاهُ الْأَقْصَى، دُونَ أَنْ يَرْجَعَ عِبَادُهُ الظَّالِمُونَ عَنْ ظُلْمِهِمْ، فَإِنَّهُ يُنْزِلُ بِهِمُ الْعَذَابَ وَالْإِهْلَاكَ، ثُمَّ يَكُونُ مَصِيرُهُمْ

إليه يَوْمُ الدِّينِ، لِلْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ، وَقَدْ جَاءَ بَيَانُ هَذَا فِيمَا يَلِي:

• ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرِيْبَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لَّنَا أَخَذَتْهَا وَإِلَى الْمَصِيْرِ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿أَمَلَيْتُ لَهَا﴾: أي: طَوَّلْتُ مُدَّةَ إِمْهَالِهَا.

﴿لَّنَا أَخَذَتْهَا﴾: أي: ثُمَّ قَبَضْتُ عَلَيْهَا بِيَدِ الْعَذَابِ وَالْإِهْلَاكِ.

﴿وَإِلَى الْمَصِيْرِ﴾: أي: وَإِلَى مُنْتَهَاهُمْ وَعَاقِبَتُهُمْ.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ



(٢٤)

الملحق الثامن

حول رغبة الكافر أن يقضى الله له باستئناف رحلة امتحانه حتى تمنيه أن يكون تراباً

جاء في القرآن المجيد عَشْرَةُ نصوص، تبيِّن رغبة الكافر في أن يُسَمَّحَ له باستئناف رحلة امتحانه منذ اللحظة التي يَلْمَسُ فيها عتبة الموت، وَيُنْكَشِفُ له شيءٌ من أحوال ما بَعْدَ الموت، وَتُسْتَمِرُّ هذه الرغبةُ تتجدد لَدَيْهِ في المواقف حتى خُلُوده في عذاب النار، ويأسه، ومُطَالَبَتِهِ بأن يقضى الله عليه بالموت النهائي، وتمنيه أن يكون تراباً.

وفي بَعْضِ هَذِهِ المواقف يسأل رَبُّهُ أن يُرْجِعَهُ إِلَى الحياة الدُّنْيَا لِيَعْمَلَ صَالِحاً فَيَرْفُضَ طَلَبَهُ، وفي بَعْضِهَا يُعْلِنُ تَمَنِّيَهُ ذَلِكَ، وفي دارِ العذاب يجتمع مع الخالدين فيها، فينادون نداءً جماعياً داعينَ: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً، فلا يُسْتَجَابُ لَهُمْ، وفي بَعْضِهَا يَسْأَلُونَ بِاسْتِعْطَافٍ خَزَنَةَ جَهَنَّمَ لِيَتَوَسَّطُوا لَهُمْ عند رَبِّهِمْ داعينَ أن يُخَفِّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ يوماً من العذاب، وفي بَعْضِهَا يُنَادُونَ

مالكاً كبير خَزَنَةِ دَارِ الْعَذَابِ، يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ عَلَيْهِم بِالْمَوْتِ، فيقول لهم: إِنَّكُمْ مَا كُثُونَ، وأخيراً يَتَمَنُّونَ أَنْ يَكُونُوا تَرَاباً.

ولَدَى تَدَبُّرِ هَذِهِ التَّصَوُّصِ بَعْمَقٍ، لِفَهْمِ دَلَالَتِهَا، تَبَيَّنَ أَنَّهَا مُتَكَامِلَةٌ فِيمَا بَيْنَهَا، وَلَا يُوجَدُ نَصٌّ وَاحِدٌ مِنْهَا مُطَابِقاً لِأَيِّ نَصٍّ آخَرَ، وَتَبَيَّنَ أَنَّهَا تُعْبَرُ عَنْ مَوَاقِفَ عَشْرَةٍ، لَا عَنْ مَوْقِفٍ وَاحِدٍ، وَأَنَّهَا تَكُونُ فِي عَشْرِ مَرَاحِلٍ.

الموقف الأول

ما يكون منه عند الموت

قال الله عز وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بشأن الكافرين الظالمين.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۚ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۚ (١٠١)﴾.

دل هذه النص على أن الكافر الظالم إذا لَامَسَ عتبة الموت، وانكشفت لِنَفْسِهِ بعض مصايره في الآخرة، وبدأت الملائكة المأمورون بتعذيبه يضربون وجهه ودُبُرَهُ، يسأل رَبَّهُ بِذُلٍّ وانكسارٍ مُسْتَجِدِّياً بِتَعْبِيرِ فِيهِ تَعْظِيمٍ لِلرَّبِّ جَلَّ جلاله، قَائِلاً: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ في الحياة الدنيا، أي: مما كان يملك التصرف به فيها.

لقد كان في حياته كافراً بربه، جاحداً حقَّ رُبوبيته، مستنكفاً عن عبادته وخده لا شريك له، مُكَذِّباً رَسُولَهُ، وَمُكَذِّباً بما جاء به عن رَبِّهِ، ومُكَذِّباً بالجزاء ويوم الدين.

إنَّه لَا يَدْعُو بهذا الدُّعاء ما لم يكن قد رأى بعض مشاهد من عالم الآخرة، وَكُشِفَ لَهُ عَنْ نُزُلِهِ مِنَ النَّارِ، وذوقت نفسه بغض عذاب هو من

مَقْدَمَاتِ عَذَابِ يَوْمِ الدِّينِ، مما يكون في البُرْزَخِ الفاصل بين الحياة الدنيا وَبَيْنَ الْبُعْثِ.

وَدُعَاؤُهُ بِهَذَا الدُّعَاءِ يَدُلُّ عَلَى وَجُودِ أَمَلٍ لَدَيْهِ بِاحْتِمَالِ اسْتِجَابَةِ طَلْبِهِ، لَكِنَّ الْجَوَابَ الرَّبَّانِيَّ قَدْ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

• ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾.

﴿كَلَّا﴾: أَدَاءُ رَدْعٍ وَزَجْرٍ تُنْبِئُ عَنْ رَفْضِ طَلْبِهِ، فَقَدْ اسْتَوْفَى زَمَنَ ابْتِلَاؤِهِ الَّذِي مُنِحَ فِيهِ الْإِمْهَالُ الْكَافِي، طَوَالَ عُمُرٍ كَانَ يَكْفِيهِ مِنْهُ دَقَائِقُ قَبْلِ أَنْ يُلَاقِيَ عَتَبَةَ الْمَوْتِ، يُعْلِنُ فِيهَا إِيْمَانَهُ بِرَبِّهِ وَإِسْلَامَهُ لَهُ، عَلَى وَجْهِ يَحْمِيهِ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ.

• ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ هِيَ كَلِمَةُ دُعَائِهِ: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِمَّا كُنْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعْمَلَ بِهِ صَالِحًا إِذْ جَعَلْتَ يَا رَبِّ لِي عَلَيْهِ سُلْطَانًا، وَفِي عِبَارَةٍ: ﴿ارْجِعُونِ﴾ اسْتِعْمَالُ ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِ الْعَظِيمِ تَذَلُّلاً وَاسْتِعْظَافاً.

وَالْمُرَادُ بِكُونِهَا كَلِمَةً هُوَ قَائِلُهَا، أَنَّهُ غَيْرُ مَأْذُونٍ لَهُ بِأَنْ يَدْعُوَ بِهَا، لَسَبَقِ الْقَضَاءُ الرَّبَّانِيَّ بِأَنْ لَا يُسْتَجَابَ لَهُ، إِنَّ أَبْوَابَ الْاسْتِجَابَةِ مَوْصَدَةٌ قَبْلَتَهُ بَعْدَ انْتِهَاءِ رَحْلَةِ امْتِحَانِهِ، فَكَلِمَةُ دُعَائِهِ مَرْدُودَةٌ عَلَيْهِ بِمَوْتِهِ وَهُوَ عَلَى كُفْرِهِ وَظُلْمِهِ، وَهِيَ حَبِيسَةٌ فِي مَحِيطِ نَفْسِهِ لَا سَرِيانَ لَهَا.

بِخِلَافِ دُعَاءِ الدَّاعِي وَهُوَ مَأْذُونٌ لَهُ مِنْ رَبِّهِ بِأَنْ يَدْعُو، فَإِنَّ كَلِمَةَ دُعَائِهِ مَجْذُوبَةٌ إِلَى اللَّهِ بِجَاذِبِ اسْتِقْبَالٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، إِذْ قَالَ لِعِبَادِهِ وَهُمْ فِي رَحْلَةِ ابْتِلَائِهِمْ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فَكَلِمَةُ الدَّاعِي وَهُوَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَا تَكُونُ كَلِمَتُهُ وَخَدَهُ، بَلْ هِيَ كَلِمَةُ مَجْذُوبَةٌ إِلَى الْاسْتِجَابَةِ بِكَلِمَةِ اللَّهِ.

• ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ بِرَزْخٍ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، أَي: وَيُوجَدُ مِنْ وَرَائِهِمْ وَهُوَ زَمَنُ الْمُسْتَقْبَلِ، فَاصِلٌ يَفْصِلُ مَا بَيْنَ آخِرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَوَّلِ الْحَيَاةِ الْآخِرَى، الَّتِي تَبْدَأُ عِنْدَ الْبُعْثِ.

● ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾: النفخة التي يكون بها بَعَثُ الموتى، إلى الحياة الأخرى.

● ﴿فَلَا أُنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾: أي: فلا أنساب نافعة لهم يومئذٍ، إذ لا يستطيع أن ينصُرَ قَرِيبٌ قَرِيباً، ولا حَمِيمٌ حَمِيماً، وَلَا يَسْأَلُ أَحَدٌ أَحَدًا قَائِلاً له انصُرني بحَقِّ الرَّحِمِ، إذ لا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ يَوْمَئِذٍ أَنْ يَنْصُرَ أَحَدًا.

يومئذٍ يَفِرُّ المَرْءُ من أخيه، وأُمُّه وأبيه، وصاحبته وبنيهِ، لكل امرئٍ منهم يومئذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ.



الموقف الثاني ما يكون من الكافرين

في موقف الحشر بغد البعث عند حساب ربهم لهم

قال الله عز وجل في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (١٢).

وصف الله الكافرين الظالمين بأنهم المجرون، أي: المستحقون للخلود في عذاب جهنم، وأَبَانَ في هذه الآية حالتهم حينما يكونون في موقف أو أكثر من مواقف الحشر، وأشدّها ما يكون عند حسابهم بين يَدَي رَبِّهِمْ.

● أما حالتهم الجسدية فهُمْ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ، أي: مُطَاطَبُوا رُءُوسِهِمْ دُلاً وانكساراً وخضوعاً عند رَبِّهِمْ.

● وأما حَالُهُ تَغْيِيرَاتِهِمْ بِأَلْسِنَتِهِمْ، الدَّالَّةُ على رَغْبَاتِ أَنْفُسِهِم الدَّلِيلَةَ

المنكسرة، النادمة على ما أسلفت من جرائم في رحلة الحياة الدنيا، رحلة الامتحان، فقد دل عليها دُعاؤهم التالي:

﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ .

أي: يا ربنا أبصرنا اليوم بأعيننا، وسَمِعْنَا بِأَذَانِنَا، ما كُنَّا نَكْذِبُ بِهِ فِي الحياة الدنيا، حينما كان خَبَرًا، جاء عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِكَ، وَنَزَلَتْ بِهِ آيَاتُ كِتَابِكَ، فَتَحْنُ الْيَوْمَ مُوقِنُونَ بِكُلِّ مَا بَعَثْتَ بِهِ رُسُلَكَ، وَبِكُلِّ مَا أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، فَارْجِعْنَا إِلَى مِثْلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حَيَاةِ الْامْتِحَانِ، فَإِنَّا نُنْغِظُكَ يَا رَبَّنَا عَهْدًا بِأَنْ نَعْمَلَ صَالِحًا، بَعْدَ أَنْ صِرْنَا مُوقِنِينَ، إِذْ صَارَ مَا كَانَ خَبَرًا عَنْ غَيْبٍ أَمْرًا مَشْهُودًا، رَأَيْنَاهُ بِأَعْيُنِنَا وَسَمِعْنَاهُ بِأَذَانِنَا.

اليقين: هو العلم الذي لا شك فيه، مُوقِنٌ: اسم فاعل من فعل أيقن، أي: عَلِمَ الشَّيْءَ عِلْمًا كَامِلًا لَا يَخَالُطُهُ شَكٌّ.

ولكن ما قيمة اليقين بَعْدَ الشُّهُودِ الْحَسَنِيِّ، فِي قَضَايَا الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ الْوَاجِبِ، بِالْإِسْتِنَادِ إِلَى بُرَاهِينِ الْعَقْلِ وَأَدْلَتِهِ، وَهَذَا الْإِيمَانُ هُوَ قَاعِدَةُ الْامْتِحَانِ الْكَبِيرِيِّ، فِي رَحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

لَقَدْ سَقَطُوا فِي سَحِيقِ الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ، عِنْدَ عَقَبَةِ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، رَافِضِينَ الْبُرَاهِينَ الْعَقْلِيَّةَ، وَالْحُجَجَ الدَّامِغَةَ، وَمُتَعَلِّلِينَ بِأَنْ مَا جَاءَ بِهِ الدِّينُ عَنِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، وَعَنِ الْيَوْمِ الْآخِرِ، أُمُورٌ غَيْبِيَّةٌ غَيْرُ مَشْهُودَةٍ بِحَوَاسِهِمْ، فَهَمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، لِذَلِكَ فَهَمْ لَا يَعْمَلُونَ بِمَقْتَضَاهَا.

إِنَّ هَذَا الْيَقِينَ بَعْدَ الشُّهُودِ الْحَسَنِيِّ لَا يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ بِشَيْءٍ لِأَمْرَيْنِ:

الأمر الأول: أَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنْهُمْ فِي امْتِحَانِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْغَيْبِ.

الأمر الثاني: أَنَّ مُدَّةَ امْتِحَانِهِمْ قَدْ انْتَهَتْ بِمَوْتِهِمْ، وَقَدْ سَقَطُوا فِي هَذَا الْامْتِحَانِ، وَاسْتَحَقُّوا الْخُلُودَ فِي عَذَابِ النَّارِ.

على أن الله - جلّت حكمته - لو استجاب لطلبهم باستئناف رحلة امتحانهم، فإنه لن يُعِيدَهُمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَمْسَحَ مِنْ ذَكَرَاتِهِمْ كُلِّ مَا شَهِدُوهُ، ممّا هو مطلوب منهم أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ إيماناً غنيباً، وعندئذ يعودون إلى مثل ما كانوا عليه في الحياة الدنيا، وسيكفرون كما كفروا في الامتحان السابق، وسيجحدون كما جحدوا فيه، وسيكونون مجرمين كما سبق أن كانوا مجرمين، فازجأهم ليَعْمَلُوا صالحاً لن يُفِيدَهُمْ شيئاً، إذ لا يتغيّر من حال نفوسهم شيء، لقد أعطاهم الله عزّ وجلّ في الحياة الدنيا إمهالاً ليؤمنوا، وليكسبوا في إيمانهم خيراً ما، بِعَدَدِ سَاعَاتِ عُمرِهِمْ، فلم يفعلوا.

﴿فَأَرْجَعْنَا﴾ من فعل «رَجَعَهُ» المجرد - ويقال في اللغة أيضاً «أَرْجَعَهُ» ويأتي لازماً، فيقال: رَجَعَ المسافرُ من سفره.



الموقف الثالث

ما يكون من الكافرين حين يرون العذاب شهوداً بصرياً بعرض سريع

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿وَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ۖ ﴿٤٤﴾ وَتَرْتَبُّهُمْ يَعْزُّونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِّنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِّن طَرَفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ۖ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنْصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ۖ ﴿٤٦﴾﴾.

هذا النصّ يُعبّر عن موقِف من مواقف الكُفّار الظّالمين، الذين قضى الله عليهم بالخلود في عذاب النار يوم القيامة، وهو موقِفٌ عرضهم عَرْضاً مُرورياً على النار دار تغذيتهم المعدّة لخلودهم فيها، وقبل إيقافهم على أبوابها تمهيداً لكبتكبتهم في هاويّتها، إذ يرون ما فيها من هول ما سيلاقونه من عذاب، في عرض سريع.

إِنَّهُمْ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، أَوْ يَسْأَلُونَ الْمَلَائِكَةَ الْقَائِمِينَ عَلَى حَشَرِهِمْ وَسَوْقِهِمْ وَعَرْضِهِمْ عَلَى دَارِ عَذَابِهِمْ، قَائِلِينَ: هل إلى مَرَدٍّ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ سَبِيلٍ، حَتَّى نَعْمَلَ صَالِحًا، غَيْرَ الْعَمَلِ الْفَاسِدِ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ حِينَ كُنَّا فِي حَيَاةِ الْامْتِحَانِ؟

إِنَّهُمْ يَطْرَحُونَ هَذَا السُّؤَالَ عَلَى سَبِيلِ التَّمَنِّي، إِذْ سَبَقَ أَنْ رُفِضَ طَلِبُهُمْ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً عِنْدَ الْمَوْتِ، وَأُخْرَى وَهُمْ فِي مَوْقِفٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ مَوَاقِفِ الْحَشْرِ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ حِسَابِ رَبِّهِمْ لَهُمْ.

وَتَسْأَلُهُمْ هَذَا يُشْعِرُ بَأَنَّ أَمَلَهُمْ بِاسْتِئْثَافِ رِخْلَةِ امْتِحَانِهِمْ لَمْ يَنْقُطْ بَعْدُ.

● ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾: أَي: وَتَرَى يَا مَنْ يَشْهَدُ الظَّالِمِينَ، مِنْ دَرَكَةِ ظُلْمِ الْكُفْرِ، حِينَ يُذْنُونَ مِنْ دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ، وَيُعَرِّضُونَ عَرْضًا سَرِيعًا عَلَيْهَا لِيَشْهَدُوا قَبْلَ إِيقَافِهِمْ عِنْدَ أَبْوَابِهَا، مَا سَيَلَاقُونَ فِيهَا مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، بِالْحَرِيقِ وَغَيْرِهِ مِنْ مُعَذِّبَاتٍ مُؤَلِّمَاتٍ.

المراد بالظالمين هنا الكافرون المجرمون المحكوم عليهم بالخلود في دار العذاب، إذ هم الذين يَتَمَنُّونَ اسْتِئْثَافَ رِخْلَةِ امْتِحَانِهِمْ لِيُؤْمِنُوا وَيَعْمَلُوا صَالِحًا، ف (ال) فِي ﴿الظَّالِمِينَ﴾ هِيَ الدَّالَّةُ عَلَى بُلُوغِهِمُ الطَّبَقَةَ السُّفْلَى فِي الظُّلْمِ الْكَامِلِ.

﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾: أَي: لَمَّا رَأَوْا دَارَ الْعَذَابِ، وَلَمَحُّوا مَا فِيهَا مِنْ أَهْوَالٍ ذَاتِ تَغْذِيبٍ شَدِيدٍ، لَمَنْ هُمْ مِنْ أَصْحَابِهَا الْمَلْأَمِينَ لَهَا. حُذِفَ الْمُضَافُ وَأَقِيمَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ عَلَى طَرِيقَةِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ.

العذاب: اسم للعقاب وللنكال، وهو كُلُّ مَا فِيهِ إِيلَافٌ عِقَابًا عَلَى ذَنْبٍ، وَلَفْظُ «عَذَابٍ» اسْمٌ لِمُضْدَرٍ «عَذَبَ يُعَذِّبُ تَغْذِيبًا».

والمراد بالرؤية الرؤيَّةُ البَصَرِيَّةُ، لِأَنَّهُمْ يَكُونُونَ عِنْدَ عَرْضِهِمُ السَّرِيعِ

على دار عذابهم مُبْصِرِينَ، بخلاف حالهم عند حَشْرِهِمْ إذ يكونون حينئذٍ عَمِياناً.

● ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَرٍ مِّن سَبِيلٍ﴾؟ أي: يقولون مقالة سائل مُسْتَفْهِم، يتمنى أن يُقْضَىٰ له باستئناف حياة الامتحان: هَلْ لَنَا مِنْ سَبِيلٍ يوصل إلى تحقيق هذه الأُمْنِيَّة.

﴿مَرَرٍ﴾: أي: مَرْجِع إلى الحياة الأولى لإعادة الامتحان، وهو مُضْطَرٌ مِيمي من: «رَدَّةٌ يَرُدُّهُ رَدًّا» بمعنى: «أَرْجَعَهُ».

﴿مِّن سَبِيلٍ﴾: «مِنْ» حرف جرٌ زيد لتنْصِيفٍ على التعميم، أي: هل يوجد سبيلٌ ما نسلُكُهُ لإِزْجَاعِنَا إلى الحياة الدنيا، كي نستأنف امتحاننا، فنعملَ صالحاً غير الذي كُنَّا نعمل.

● ﴿وَتَرْتَبُّهُمْ يَعْزُّونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الدَّلِّ﴾: أي: وتَرى أيُّهَا المشاهدُ لهؤلاء الظالمين، حينَ عَزْضِهِمْ على دَارِ عذابهم، كيف يكون حالُهُمْ خَاشِعِينَ مِنَ الدَّلِّ.

الضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾ يَعُودُ عَلَى المضاف المحذوف قبل كلمة العذاب، وهي كلمة «دار» إذ الكلامُ على تقدير: لَمَّا رَأَوْا دار العذاب.

الخُشُوعُ: هو الخضوع، والخُوفُ، والسُّكُونُ. والخُشُوعُ فِي البَصَرِ، الانكسارُ والنَّظَرُ إِلَى الأرض من الدَّلَّةِ.

﴿مِّن الدَّلِّ﴾: الدَّلُّ، الضَّعْفُ والهُوان.

أي: يُعْزَّضُونَ عَرْضاً دُونَ وقوف على دار العذاب النَّارِ، لِيَشْهَدُوا ما فيها من أهوالِ ذَاتِ تَعْذِيبٍ شَدِيدٍ، دُونَ أَنْ يوقِفُوا عند أبوابها، هُمْ وسائر أصحابها من الجنِّ والإنس الذين سيَخْلُدُونَ فيها، فيكونون خَاشِعِينَ، أي: خَاضِعِينَ، خَائِفِينَ، سَاكِنِينَ، مِنْكَسِرَةً أَبْصَارَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى الأرض نظر الضعيف المَهَانِ المحتقر.

وجاء قَيْدُ ﴿مِنَ الذَّلِيلِ﴾ لِبَيَانِ أَنَّ خُشُوعَهُمْ لَيْسَ خُشُوعَ الْعَابِدِ لِرَبِّهِ، الْمُعْتَزِّ بِعِبَادِيَّتِهِ لَهُ، بَلْ هُوَ خُشُوعٌ مِنَ الذَّلِيلِ وَالْمَهَانَةِ وَالصُّغَارِ، وَالشُّعُورِ بِثِقَلِ الْجُزْمِ الَّذِي جَنَى بِهِ عَلَى نَفْسِهِ، فَكَانَ سَبَباً فِي الْحُكْمِ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مِنَ الْخَالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّارِ.

● ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾: أَي: يَنْظُرُونَ إِلَى مَا فِي دَارِ الْعَذَابِ الَّتِي سَتَكُونُ مَصِيرَهُمْ، مِنْ أَهْوَالِ شَدِيدَةِ التَّعْذِيبِ لِلَّذِينَ يَدْخُلُونَ فِيهَا. وَلَكِنَّهُمْ لَا يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا بِمِلْءِ عُيُونِهِمْ، بَلْ: ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ دُعْراً وَخَوْفاً فَيَقْتَصِرُونَ عَلَى بَعْضِ النَّظَرِ مُنْكَسِرِينَ أَذِلَّاءَ خَزَايَا نَادِمِينَ.

الطَّرْفُ: تَحْرِيكُ الْجَفْنِ، وَيُطْلَقُ أَيْضاً عَلَى الْعَيْنِ. وَمِنْ شَأْنٍ مِنْ كَانَ خَاشِعَ الْبَصَرِ مُنْكَسِرَهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْأَرْضِ مِنَ الذَّلَّةِ وَالْمَهَانَةِ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَرَى شَيْئاً يَقَعُ قَبَالَتَهُ دُونَ أَنْ يُمَعِّنَ النَّظَرَ إِلَيْهِ، خَوْفاً، أَوْ إِخْفَاءَ لِرُؤْيَيْهِ لَهُ، فَإِنَّهُ يُحَرِّكُ جَفْنَهُ بِسُرْعَةٍ، وَيُعِيدُهُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ انْكِسَارِ قُوَرَا، فَتَخْفَى حَرَكَةُ جَفْنِهِ عَلَى مَنْ يُرَاقِبُهُ، حَتَّى يَظُنَّ أَنَّهُ لَمْ يَرَ ذَلِكَ الشَّيْءَ.

هَذَا هُوَ الطَّرْفُ الْخَفِيُّ، أَي: الرُّؤْيَةُ الْخَفِيَّةُ، النَّاتِجَةُ عَنْ تَحْرِيكِ الْجَفْنِ بِسُرْعَةٍ.

و﴿مِنْ﴾ فِي عِبَارَةِ ﴿مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾: هِيَ فِيمَا أَرَى بِمَعْنَى: مِنْ بَعْضِ طَرْفٍ خَفِيٍّ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَفْتَحُونَ جُفُونَهُمْ لَدَى تَحْرِيكِهَا لِاسْتِرَاقِ النَّظَرِ فَتَحاً وَاسِعاً.

التبويض: مِنْ مَعَانِي حَرْفِ «مِنْ» الَّذِي هُوَ أَحَدُ حُرُوفِ الْجَرِّ.

● ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾:

أَي: وَحِينَ يَشْهَدُ الْمُؤْمِنُونَ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الدِّينِ، أَحْوَالَ الظَّالِمِينَ الْمَجْرَمِينَ، الْخَالِدِينَ فِي عَذَابِ الْجَحِيمِ، يَتَضَحُّ لَهُمْ بِالشُّهُودِ

الحَسْبِيَ خَسَارَةٌ هَؤُلَاءِ مِنَ الدَّرَكَةِ السُّفْلَى، وَيَزُونَ أَنَّ خَسَارَتَهُمْ هِيَ الْخَسَارَةُ الْكَامِلَةُ، إِذْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَالْقَوْهَا بِجَرَائِمِهِمْ فِي عَذَابِ الْجَحِيمِ الْخَالِدِ، وَهَذَا أَعْظَمُ الْخُسْرَانِ، وَخَسِرُوا الْإِنْسَ بِأَهْلِيهِمْ مِمَّنْ فَارَقُوا بَعْدَ رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَلَا لِقَاءَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، إِذِ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ، وَخَسِرُوا السَّعَادَةَ بِأَهْلِيهِمْ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ اللَّاتِي أَعَدَّهِنَّ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، بِشَرْطِ أَنْ يَمُوتُوا عَلَى إِيْمَانٍ صَحِيحٍ مَقْبُولٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، فَلَمَّا مَاتُوا كَافِرِينَ جَعَلَهُنَّ اللَّهُ مِيرَاثًا مُسْعِدًا لِلْمُؤْمِنِينَ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ. وَخَسِرُوا السَّعَادَةَ بِأَهْلِيهِمْ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ كَانُوا أَهْلَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

● ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ (٤٩):

هَذَا بَيَانٌ صَادِرٌ عَنِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، يُؤَكِّدُهُ اللَّهُ بِ «أداة الاستفتاح والتثنية - وبإان - وبالجملة الأسمية» فَيُثَبِّتُ فِيهِ أَنَّ الظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ، سَوْفَ يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِي دَارِ الْعَذَابِ، وَهَذَا الْعَذَابُ سَيَكُونُ مُحِيطًا بِهِمْ، وَمُقِيمًا إِقَامَةً دَائِمَةً عَلَى ذَوَاتِهِمْ، وَيُظْهِرُ أَنَّ هَذَا بَيَانٌ حُكْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِالْعَذَابِ الْمُقِيمِ.

● ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾:

أَي: وَحِينَ أَضْدَرَ اللَّهُ حُكْمَهُ عَلَى الظَّالِمِينَ، بَأَن يَكُونُوا فِي الْعَذَابِ الْمُقِيمِ، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِالْإِسْتِغْرَاقِ الشَّامِلِ أَيُّ نَصِيرٍ لَهُمْ يُوَالِيهِمْ وَيَنْصُرُهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَيَذْفَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ الْمُقِيمَ فِي الْجَحِيمِ.

«مِنْ» فِي: ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ زَائِدَةٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَأْكِيدِ الْإِسْتِغْرَاقِ فِي النَفْيِ، وَاللَّامُ فِي ﴿لَهُمْ﴾ هِيَ لَامُ الْجَحُودِ الْوَارِدَةُ بَعْدَ كَوْنِ مَنْفِيٍّ، وَمِثْلُ هَذِهِ الصِّيغَةِ هِيَ مِنْ أَبْلَغِ صِبْغِ النَّفْيِ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ.

﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: أَي: مِنْ غَيْرِ اللَّهِ الَّذِينَ هُمْ جَمِيعًا دُونَهُ، وَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى.

● ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾: أي: وَمَنْ يَحْكُمِ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالضَّلَالِ، لَأَنَّهُ كَانَ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِ ضَالًّا بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّةَ، فَمَالَهُ مِنْ سَبِيلٍ يُنْجِيهِ مِمَّا حَكَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ عِقَابٍ.

لا بصَرْفِ العذابِ عنه، ولا بَقَبُولِ عُذْرٍ مِنْهُ، وَلَا بَقَبُولِ فِدَاءٍ، وَلَا بَقَبُولِ شَفَاعَةٍ لَهُ مِنْ أَحَدٍ، وَلَا بِاسْتِجَابَةِ طَلْبِهِ فِي اسْتِنَافِ رَحْلَةِ امْتِحَانِهِ.

وجاء التعبير هنا بعبارة ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ مُنَاسِبًا لِقَوْلِ الظَّالِمِينَ لِمَا رَأَوْا الْعَذَابَ: ﴿هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤٤).

السَّبِيلُ: هُوَ الطَّرِيقُ الْحَسَنِيُّ، وَبِالتَّوَسُّعِ فِي الاسْتِعْمَالِ الْمَجَازِيِّ الْقَائِمِ عَلَى الاسْتِعَارَةِ، صَارَ يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ مُوَصِّلٍ مَعْنَوِيٍّ لَغَايَةٍ مِنَ الْغَايَاتِ الْحَسَنِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ.

وأصل هذه الاستعارة، تشبيهُ المُوَصِّلِ المَعْنَوِيِّ بِالسَّبِيلِ الْحَسَنِيِّ المُوَصِّلِ إِلَى مَكَانٍ مَّا مِنْ الْأَرْضِ.



الموقف الرابع

**ما يكون من الكافرين من بحث عمن يشفع لهم عند الله
بصَرْفِ العذاب عنهم أو بَرَدِّهم إلى حياة الابتلاء ليغفلوا صالحاً**

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) في معرض الحديث عن أصحاب النار الخالدين فيها:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ غَيْرِ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

بَعْدَ تَسَاوُلِ الْمُحَكَّمِ عَلَيْهِم بِالْخُلُودِ فِي عَذَابِ الْجَحِيمِ، لَمَّا رَأَوْا أحوال العذاب بأعينهم، إِذْ عَرِضُوا عَلَى النَّارِ عَرْضًا، قائلين: هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ، كما جاء بيانه في الموقف الثالث من مواقفهم يَوْمَ الدِّينِ، وَبَعْدَ تَشَاوُرِهِمْ فيما بَيْنَهُمْ، والوصول إلى أَنَّ اللَّهَ لَنْ يَسْتَجِيبَ طَلِبَتَهُمْ، إِذَا سَأَلُوهُ بصورة مباشرة، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ رَفَضَ اللَّهُ دُعَاءَهُمْ واستجدهاءَهُمْ مَرَّتَيْنِ.

بَعْدَ هَذَا يَتَسَاءَلُونَ عَنْ وُجُودِ شُفْعَاءٍ يَشْفَعُونَ لَهُمْ بِإِعْفَائِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، أَوْ بِأَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ لَهُمْ بِاسْتِنْفَافِ امْتِحَانِهِمْ، فِي حَيَاةٍ مِثَالَةِ لِلْحَيَاةِ الْأُولَى الَّتِي كَانُوا فِيهَا ظَالِمِينَ كَافِرِينَ، فَاسْتَحَقُّوا الْحُكْمَ عَلَيْهِم بِالْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ، دَارِ خُلُودِ الْمُجْرِمِينَ فِي الْعَذَابِ.

فجاء هذا النص من سورة (الأعراف) مبيناً لهذا الموقف الرابع من مواقفهم يوم الدين، الذي يُعَبَّرُونَ فيه عن رغبتهم في استئناف رِحلة امتحانهم.

● ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۖ﴾: أي: إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، كما جاء في الآية السابقة لهذا النص، وَالْحَالُ أَنَّنَا لَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ بَلَّغْنَاهُمْ إِلَيْهِ رُسُلُنَا، وَلَقَدْ فَصَّلْنَاهُ، أي: بَيَّنَّاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ كَامِلٍ بِحَقَائِقِ الْمَعْلُومَاتِ، الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِأُمُورِ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَيْنَاهُ لَهُمْ، تَفْصِيلًا يَتَنَاوَلُ كُلِّيَّاتِهَا وَجُزْئِيَّاتِهَا، كِبَارَهَا وَصِغَارَهَا، مِمَّا فِيهِ نَجَاتُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، فِي حُدُودِ تَطَوُّرِهِم الْبَشَرِيِّ الَّذِي وَصَلُوا إِلَيْهِ.

● ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢): أي: جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ مُفْصَّلٍ لِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ لَدَيْهِمُ الْإِسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا بِالْحَقِّ إِذَا جَاءَهُمْ، فَيَذْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمُ الْعَذَابَ، وَيَجْلِبُوا لِأَنْفُسِهِمُ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ، وَالنَّعِيمَ الْخَالِدَ.

﴿هُدًى﴾: أي: رَشَادًا، وَذَا دَلَالَةٍ إِلَى مَا يُوَصِّلُ إِلَى الْفَلَاحِ، وَطَرِيقًا وَاضِحًا جَلِيًّا يُوَصِّلُ إِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ، أَوْ مَا هُوَ الْأَصْلَحُ وَالْأَنْفَعُ.

﴿وَرَحَّةٌ﴾: أي: ورحمة من الله لعباده في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، إذ أبان الله عز وجل فيه لهم صراط سعادتهم في العاجلة، وفي الآجلة.

● ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾: أي: هل ينتظرون بعد الأدلة الكافية، والبراهين العقلية القاطعة، المُقْنِعة لمن أراد أن يقتنع، إِلَّا تَحَقُّقَ ما تَوُؤُل إليه الأخبار التي اشتمل عليها من أنباء يوم الدين، إذ تتحقَّق هذه الأنباء في الواقع، ويجدون أنفسهم في أنواع عذاب جهنم، بَعْدَ الحساب، وفضل القضاء، يذوقون آلام عقاب الله لهم.

﴿يَنْظُرُونَ﴾: أي: ينتظرون.

﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾: أي: إِلَّا الواقع التنفيذي الذي تَوُؤُل إليه.

● ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾: أي: يوم يأتي تحقُّقُ نبأ نُذِرِ العذاب، التي اشتمل عليها الكتاب، وهذا يكون في يوم الدين.

● ﴿يَقُولُ الَّذِينَ سَوَّاهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾: أي: يقول الكافرون الذين تركوا الإيمان بما جاء في كتاب ربهم لعباده، وتركوا العمل بأوامره ونواهيه ووصاياه: قد جاءت رُسُلُ رَبِّنَا بالحق.

أصل معنى النسيان: الترك.

إنهم يعترفون يوم الدين بأن رُسُلَ رَبِّهم قد جاؤوا بالحق، ولكن ما فائدة اعترافهم هذا، وقد كانوا في رحلة امتحانهم قد كذَّبُوهم، وكذَّبُوا بما جاءوهم به بلاغاً عن الله عز وجل.

● ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا؟﴾: أي: فلم نُؤْمِنْ برُسُلِ رَبِّنَا في حياة الامتحان، فقَضَى الله علينا بالعذاب الأبدي يوم القيامة، فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ يَشْفَعُونَ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا، فَيَرْفَعَ عَنَّا ما قَضَاهُ عَلَيْنَا مِنْ عَذَابٍ أَبَدِيٍّ.

• ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ : أي : أَوْ يَشْفَعُونَ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا فَيَرُدُّنَا إِلَى مِثْلِ مَا كُنَّا فِيهِ فِي حَيَاةِ الْامْتِحَانِ، لِنَسْتَأْنِفَ رَحْلَةَ امْتِحَانِنَا، فَنَعْمَلَ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ أَعْمَالٍ فَاسِدَةٍ إِجْرَامِيَّةٍ.

• ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٥٣) : هـَذَا تَعْقِيبُ رَبَّانِيٍّ يَدُلُّ بِالْكُنْيَاةِ لَا بِصَرِيحِ اللَّفْظِ، عَلَى أَنَّ أُمْنِيَّتِيهِمْ لَا يَكُونُ لَهُمَا أَثَرٌ فِي الْوَاقِعِ، إِذْ لَا يَجِدُونَ شَفِيعًا يَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَأْذُنُ لِأَيِّ شَافِعٍ بِأَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ مَهْمَا كَانَ ذَا قَرَبٍ مِنْ رَبِّهِ.

لَقَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ إِذْ قَدَّفُوا بِهَا إِلَى عَذَابِ الْجَحِيمِ خَالِدِينَ، وَضَاعَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مِمَّا يُنَافِي الْحَقَّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ رُسُلُ رَبِّهِمْ، فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ أَثَرًا. ﴿ضَلَّ﴾ : أي : ضَاعَ.

أَمَّا شُرَكَاءُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، لِيَجْلِبُوا لَهُمْ نَفْعًا، أَوْ يَدْفَعُوا عَنْهُمْ ضَرًّا، بِمَا جَعَلُوا لَهُمْ مِنْ بَعْضِ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ، افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، أَوْ لِيَقْرَبُوهُمْ إِلَى اللَّهِ زَلْفَى، أَوْ لِيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، افْتِرَاءً عَلَى دِينِ اللَّهِ، فَقَدْ ضَلُّوا عَنْهُمْ، أَي : ضَاعُوا عَنْهُمْ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ أَثَرًا، أَوْ لَمْ يَجِدُوا لَدَيْهِمْ شَفَاعَةً، وَلَمْ يَجِدُوا أَنَّهَا قَرَّبَتْهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ، بَلْ زَادَتْهُمْ عِبَادَتُهُمْ لَهُمْ خِيْبَةً وَخُسْرَانًا.



الموقف الخامس

مَا يَكُونُ مِنَ الْكَافِرِينَ حِينَمَا يَوْقِفُونَ عَلَى النَّارِ قَبِيلَ الْقَائِمِ فِيهَا

قال الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يُوقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْلَتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُنْكَدِبُ بِرَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٧) بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُمْ وَإِنَّهُمْ

لَكَذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٣١﴾ ﴿٣٢﴾ .

جاء في هذا النص بيان موقف الكافرين يوم الدين، وهو ما يكون منهم حين إيقافهم عند أبواب النار، تمهيداً لكبتهم في هاويتها. إنهم يتأذون متمنين أن يُردُّوا إلى حياة الامتحان، وأن لا يكذبوا بآيات ربهم، وأن يكونوا من المؤمنين.

إنهم يقتصرون على إعلان تمنّيهم بأسلوب النداء، دون أن يدعوا ربهم أن يحقق لهم أميّتهم، إذ سبق أن سألوهم ردّهم إلى حياة الامتحان فلم يستجب لهم، وهذا النداء يعلنون فيه ندمهم وحسرتهم.

وقد كانوا في المواقف السابقة بعد البعث يحاولون إخفاء ندمهم وحسرتهم، طمعاً في أن يجدوا وسيلة يتخلصون بها من دخول النار، أو من الخلود فيها، ولكنهم لما وقفوا على النار، وعانوا واقعهم فيها، وأنهم صاروا على شكّ إلقائهم فيها ليكونوا في عذابها خالدين، بدا لهم أن ينادوا بأصوات عالية جهيرة متحسرين نادمين، حتى يسمعهم في موقف الحشر من تصل إليهم أصواتهم، قائلين: يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ إِلَى حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ، لاستئناف رحلة امتحاننا، ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين.

لكنهم كاذبون في ادعاء أنهم لو رُدُّوا إلى حياة الامتحان لأمّنوا وعملوا صالحاً، بل سيعيدون سيرتهم الأولى، لأنّ ردّهم إلى حياة الامتحان لو كان، فلن يكون إلا بعد أن يمسح الله من ذاكرتهم كلّ مشاهد الآخرة التي أخافتهم، فهم يعودون إلى مثل ما كانت عليه نفوسهم من قبل، وسيكفرون كما كفروا في الاختبار السابق، وسيفعلون كما فعلوا في الاختبار السابق، وسيكونون ظالمين مجرمين.

● ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ تُفْعَلُ عَلَى النَّارِ﴾ : أي: ولو ترى أيها الرائي أيًا كنت الكافرين حين وقفوا عند أبواب النار قبيل إلقائهم في هاويتها، ليستقروا في مواقع عذابهم الخالد داخلها، استعمل الفعل الماضي في ﴿وَقِفُوا﴾ للدلالة على تحقق الوقوع مستقبلاً يوم الدين، حتى كأنه أمر قد وقع فعلاً.

﴿وَقِفُوا﴾: فعل ماضٍ لما لم يُسم فاعله، والمعنى: وقفتم الملائكة المأمورون بسوقهم وحشِرهم إلى أبواب دار عذابهم، بأمر ربهم الذي له الأمر والحكم.

يقال لغة: وَقَفَ فلانٌ فلاناً، أي: جعله يقف، ويُقال: وَقَفَهُ على الأمر، أي: أطلعَهُ عليه.

﴿عَلَى النَّارِ﴾ أي: على المكان المشرف على هاوية النار، وهذا يكون عند أبوابها.

وبهذا الوقوف يشهد المحكوم عليهم بالخلود فيها مواقعهم في داخلها، حيث تكون مصايرهم الأبدية.

وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف مقدر يفسره ما جاء في تنمة الآية، أي: لرأيتم ينادون ﴿يَلَيْتُنَا...﴾.

● ﴿فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِحَاثِرِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧).

﴿يَلَيْتُنَا﴾: عبارة تمنُّ وتَحْسِرٍ وَندَمٍ وَتَقْجَعٍ، كأنهم ينادون ما يَتَمَنُّونَهُ ممَّا هو بعيد جدًّا، أو هو وراء حُدُودِ الممكّنات.

﴿نُرَدُّ﴾: أي: نُزَجَّعُ إلى مثل حياة الامتحان التي سلفت في أزمان الحياة الدنيا.

﴿وَلَا نَكْذِبُ بِحَاثِرِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: بِنَضْبِ ﴿نَكْذِبُ﴾ في قراءة حَفْصٍ، وَحَمْزَةٍ، وَيَغْفُوبٍ، ومثله: ﴿وَنَكُونُ﴾ المعطوف عليه. ويرفع

الفاعلين في قراءة جمهور القراء العشرة. وقرأ ابنُ عامر: ﴿وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِكَ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فالنَّضْبُ هو بأن مضمرةً بعد الواو، أي: وأن لا نكذب. ونكون من المؤمنين، وهذا تابع للتمني:

والرَّفْعُ على الاستئناف، أي: ونحن إذا أُعِدْنَا إلى حياة الامتحان لا نكذبُ بآيات رَبَّنَا، وسنكون من المؤمنين، وهذا عهدٌ منهم يُقَدِّمُونَهُ.

وقراءة ابن عامر من الوجوه العربية الجائزة، ولا تخرج دلالتها عن القراءتين الآخرين.

● ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾: «بل» هنا: حرف إضراب انتقالي، أي: بل بدا لهم أن يُغْلَبُوا على رؤوس الأشهاد ندمهم وحسرتهم، بَعْدَ أَنْ عَايَنُوا أَبْصَارَهُمْ، وهم واقفون مُشْرِفُونَ على هاوية جهنم، وعند أبوابها، مَوَاقِعُهُمْ فيها، فاشتدَّ ذَعْرُهُمْ وخوفهم، وَلَعَلَّ فِي هَذَا الْإِعْلَانُ بِأَصْوَاتِهِمِ الْعَالِيَةِ الْجَهِيرَةِ اسْتِجْدَاءً لِلرَّحْمَةِ وَالْعُطْفِ عَلَيْهِمْ، وكانت لواعجُ النَّدَمِ والتَّحَسُّرِ والاستجداء أموراً يُخَفُّونَهَا فِي مَوَاقِفِهِمِ السَّابِقَةِ بَعْدَ بَغْيِهِمْ، واستمروا في إخفائها فيما بينهم أو في صُدُورِهِمْ، حتَّى عَايَنُوا مَبَاشَرَةَ مَصَابِرِهِمْ، وَهُمْ عِنْدَ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ خَائِفُونَ مَذْعُورُونَ.

ولم ينتبه المفسرون إلى هذا المعنى، فكانت لهم آراء متكلفة فيما أرى، ولا يحتمل النصُّ إرادة شيء منها.

● ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾:

أي: لو رُدُّوا إلى حياة الامتحان مرةً أخرى، لَعَادُوا لمثل الأمر الذي كانوا عليه في الحياة الدنيا، وهو الكُفْرُ والتَّكْذِيبُ بآيات الله والعصيانُ لربه بارتكاب الجرائم، وهو الأمر الذي كانوا قد نهوا عنه.

والسبب أن إعادة الامتحان تستلزم مَسَحَ كُلِّ مشاهد الآخرة من ذاكراتهم، فإذا أعيدوا إلى ظروف حياة أخرى كانت نُفُوسُهُمْ على مثل الْحَالِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا فِي الامتحان الأول لم يَتَغَيَّرَ فيها شيء، فهم يعودون إلى سيرتهم الأولى حتماً.

﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ لَكَذِبُهُمْ﴾: أي: في ادّعائهم أنهم إذا أعيدوا فسيكونون مؤمنين يعملون الصالحات، باعتبار أن واقع حالهم سيكون على نقیض هذا، وليس المراد أنهم كاذبون في التعبير عن مشاعرهم الداخلية لدى تقديم وعودهم بأنهم سيؤمنون ويعملون الصالحات، إذ هي مشاعر قد عبّروا عنها بصِدْقٍ وهم عند أبواب جهنم، لكنّها لا تُطَابِقُ واقع حالهم حينما يستأنفون رحلة امتحانهم.

● ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٢٩): عَبَّرَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَنْ أَوْهَامِ كُلِّ الْكَافِرِينَ، الَّتِي صَارَتْ لَدَيْهِمْ عَقِيدَةً مُوجَّهَةً لِسُلُوكِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَجَعَلَتْهُمْ يَكْذِبُونَ رُسُلَ اللَّهِ، وَيُكْذِبُونَ بِآيَاتِهِ، وَهِيَ أَنَّ الْحَيَاةَ مُقْتَصِرَةٌ عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَقَطْ، وَلَا تُوجَدُ حَيَاةٌ أُخْرَى بَعْدَهَا، فَلَا بَعَثَ وَلَا حَشَرَ، وَلَا حِسَابَ، وَلَا فَضْلَ قِضَاءِ رَبَّانِيٍّ، وَلَا جَزَاءَ.

﴿إِنْ﴾ هُنَا حَرْفُ نَفْيٍ بِمَعْنَى «مَا» النَّافِيَةِ ﴿هِيَ﴾ ضَمِيرٌ يَعُودُ عَلَى مَلَاخِظِ ذَهْنًا، وَهُوَ «حَيَاتُنَا» وَهَذَا الْمَلَاخِظُ فِي الذَّهْنِ مَفْسَّرٌ بِمَا جَاءَ بَعْدَ ﴿إِلَّا﴾. فَالْمَعْنَى: مَا حَيَاتُنَا الَّتِي لَنَا فِي الْوُجُودِ كُلُّهُ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا، وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ لِحَيَاةٍ أُخْرَى يَكُونُ فِيهَا الْحِسَابُ، وَفَضْلُ الْقِضَاءِ، وَتَنْفِذُ الْجَزَاءِ.

● ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾: أي: وَلَوْ تَرَى حِينَ وَقَفُوا عَلَى مَوْقِفٍ مُحَاكِمَةٍ رَبِّهِمْ لَهُمْ، لَرَأَيْتَ مَا تَضَمَّنَتْهُ الْبَيَانُ فِي تَمَّةِ الْآيَةِ.

حُذِفَ جَوَابُ «لَوْ» لِدَلَالَةِ تَمَّةِ الْآيَةِ عَلَيْهِ. وَحُذِفَ أَيْضاً «مَوْقِفٍ مُحَاكِمَةٍ» لِسَهُولَةِ اسْتِخْرَاجِهِ بِشَيْءٍ مِنَ التَّدْبِيرِ. وَهَذَانِ الْحَذَفَانِ الْمَدْرَكَانِ ذَهْنًا مِنَ الْإِيجَازِ الْمَعْهُودِ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

● ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؟: أي: قَالَ اللَّهُ لِلَّذِينَ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَافِرِينَ مُكَذِّبِينَ يَوْمَ الدِّينِ، أَلَيْسَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْفُرُونَ وَتَكْذِبُونَ بِالْوَاقِعِ الْحَقِّ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ.

الباء في ﴿بِالْحَقِّ﴾ زائدة للتأكيد، أي: أليس هذا حقاً مؤكّداً؟.

● ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾: أي: بلى هو الحقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، وأكّدوا اعترافهم بالقسم بربهم: ﴿وَرَبِّنَا﴾.

«بَلَىٰ» حرف جواب، ويختصُّ بالتثني، ويُفِيدُ إبطاله. وإبطال النفي هنا معناه إثبات أن هذا الذي يُشَاهِدُونَهُ يَوْمَ الدِّينِ حقٌّ، وفي هذا الاعتراف حُكْمٌ منهم على أنفسهم بأنهم كانوا في الحياة الدنيا كافرين.

● ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: أي: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ: فقد حكمنا عليكم بالخلود في عذاب النار حكماً عادلاً، على وفق بياناتنا التي بَلَّغْكُمْ إِيَّاهَا رُسُلُنَا، وأنزلناها إليكم في كتابنا، فذوقوا العذاب بسبب ما كنتم تَكْفُرُونَ جحوداً واستكباراً واتباعاً للهوى.

الفاء في ﴿فَذُوقُوا﴾ فصيحة عطف على محذوف يسهل على المتدبر إدراك معناه.

● ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ﴾: في هذا البيان تعليق ربّاني على ما جاء في سوابقه حول بيان بغض أحوال الكافرين يوم الدين، وعلى الحكم عليهم بالخلود في عذاب النار.

قد خَسِرُوا، وجاء في نصٍّ سابقٍ أنهم قد خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ.

والمراد بِلِقَاءِ اللَّهِ لِقَاؤَهُ لِمَحَاسِبَتِهِمْ، والحكم عليهم، والأمر بتنفيذ جزائهم، وهذا أمرٌ كانوا يكذبون به وهم في حياة الامتحان.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾: يُمَكِّنُ لَفْظُ السَّاعَةِ هُنَا عَلَى سَاعَةِ مَوْتٍ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وعلى سَاعَةِ انْتِهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كُلِّهَا، وعلى سَاعَةِ الْبَعْثِ.

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فجأة، فهي بَاغِتَةٌ لهم. ولفظ «بَغْتَةً» هُنَا مَصْدَرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ. وجواب إذا في العبارة التالية:

● ﴿قَالُوا يَحْسَرُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾: ﴿يَحْسَرُنَا﴾: عبارة يَقُولُهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، لَا يُغْلِنُهَا مَعَ نُظَرَائِهِ إِعْلَانًا جَمَاعِيًّا، لِمَا سَبَقَ بَيَانُهُ، وَهِيَ عِبَارَةٌ تُعَبِّرُ عَنِ النَّدَمِ وَالتَّحَسُّرِ وَالتَّفْجِعِ.

● ﴿عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾: أي: عَلَى مَا قَصَرْنَا وَضَيَّعْنَا وَتَرَكْنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مِمَّا هُوَ سَبَبُ نَجَاتِنَا وَسَعَادَتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

● ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾: أي: وَالْحَالُ أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ أَحْمَالَهُمُ الثَّقِيلَةَ عَلَى ظُهُورِهِمْ، مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي وَالْآثَامِ وَالْجَرَائِمِ، كَمَا تَحْمِلُ الْبَغَالُ وَالْحَمِيرُ الْأَحْمَالَ الثَّقِيلَةَ عَلَى ظُهُورِهَا.

الْوِزْرُ: الْحَمْلُ الثَّقِيلُ، وَأُطْلِقَ عَلَى الذَّنْبِ، وَجَمْعُهُ «الْأَوْزَارُ».

● ﴿... أَلَا سَاءَ مَا يَزُونُ﴾: ﴿أَلَا﴾: أَدَاةُ اسْتِفْتَاحٍ وَتَنْبِيهِ، يُؤْتَى بِهَا فِي أَوَّلِ الْجُمْلَةِ. ﴿سَاءَ﴾: كَلِمَةُ تُقَالُ لِإِنْشَاءِ الدَّمِّ، مِثْلُ: «بِئْسَ» ﴿مَا يَزُونُ﴾: أَي: مَا يَحْمِلُونَ مِنْ آثَامٍ وَجَرَائِمٍ، يُقَالُ لُغَةً: «وَزَرَ يَزِرُ وَزْرًا وَزِرَةً» أَي: حَمَلَ مَا يُثْقِلُ ظَهْرَهُ مِنْ جَرَائِمٍ ثَقِيلَةٍ.



الموقف السادس

مَا يَكُونُ مِنَ الْكَافِرِينَ بَعْدَ أَنْ يَكْتُبُوا فِي النَّارِ وَيُعَذَّبُوا فِيهَا
إِذْ يَتَجَدَّدُ لَدَيْهِمُ الْأَمَلُ أَنْ يَقْبَلَ طَلَبُهُمْ اسْتِنْفَافَ امْتِحَانِهِمْ

قال الله عز وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ

تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١١٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تُنَلِّئُ عَلَيْنَا ۖ

فَكُتِبَتْ لَهَا تَكْذِيبُكَ ﴿١١٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١١٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١١٧﴾ قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١١٨﴾ ﴿١١٩﴾

هذا النص يكشف موقف الكافرين يوم الدين بعد أن دخلوا النار وذاقوا بغض عذابها، وَلَفَحَتْ وُجُوهُهُمْ النارُ فَهُمْ فيها كالحون.

حينئذ يقول الله لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مَآبِقِي تُنَالِي عَلَيْكَ فَكُتِبَتْ لَكَ تَكْذِيبُكَ﴾؟ ﴿١١٥﴾ فيَعْتَرِفُونَ على أَنفُسِهِمْ بأنهم كانوا ضالين.

وَتُطْمَعُهُمْ مُحَادَثَةُ اللَّهِ لهم، فَيَتَجَدَّدُ لديهم الأمل بأن يستجيب الله دُعَاءَهُمْ، بشأن استئناف امتحانهم، وإعادتهم إلى مثل ما كانوا عليه في الحياة الدنيا، فيَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يُخْرِجَهُمْ من النار، ويرُدَّهُمْ إلى حياة الامتحان ليؤمنوا ويعملوا صالحاً. فيقول الله لهم: اخْسَرُوا فِي النَّارِ وَلَا تَكَلِّمُونِي، تَتَيْسَّأَلُهم من إجابة سؤالهم.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ﴿١٢٣﴾:

أي: وَمَنْ خَفَّتْ أَعْمَالُهُ الموزونة بموازين الرحمن يوم الدين، إِذْ كَانَتْ سَالِبَةً الضغط، لكُفْرِهِ وَسُوءِ أَعْمَالِهِ في الدنيا، فَلَمْ تَسْجُلْ لَهُ إشارات الموازين ثقلاً ما، لِعَمَلٍ إِرَادِيٍّ صالح، مَقْبُولٍ عِنْدَ اللَّهِ، فأولئك البعداء عن رَحْمَةِ اللَّهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ، إِذْ تَسَبَّيُوا فِي إلقاء أَنفُسِهِمْ في دار العذاب النار، يَذُوقُونَ العذاب فيها خَالِدِينَ.

● ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ النَّارُ﴾: أي: تَمَسُّ وُجُوهُهُمْ النَّارُ بِإِخْرَاقٍ غَيْرِ مُنْضِجٍ.

● ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ﴾: أي: وَهُمْ فِيهَا عَابِسُونَ، قَدْ غَيَّرَ لَفْحُ النَّارِ أَلْوَانَ وُجُوهِهِمْ.

الوجه الكالحي: هو الوجه الشاحب العابس، والذي قَصُرَتْ شَفَتُهُ عن أسنانه.

وقد سبق تدبّر هذا في الملحق الثالث من هذه الملاحق، خلال تدبّر النص السادس.

● ﴿أَلَمْ تَكُنْ تَكُنْ ءَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاكْتُمُ بِهَا تَكَذِّبُونَ﴾ (١٠٥): أي: أَلَمْ تَكُنْ تَكُنْ آيَاتِي الَّتِي أَنْزَلْتُهَا فِي كِتَابِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ، مِنْ قَبْلِ الرُّسُولِ، أَوْ مِنْ قَبْلِ الدُّعَاةِ وَالْمَذْكُرِينَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ؟!

استفهامٌ توبيخٌ وتأنيبٌ وتلويحٌ.

ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ جَوَابُهُمْ: بَلَى، فَهُمْ فِي الْعَذَابِ الَّذِي حَكَّمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ يَتَقَلَّبُونَ، وَلَوْ أَنْكَرُوا جُحُوداً لَزَادَ اللَّهُ مِنْ عَذَابِهِمْ.

● ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (١٠٦):

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [شَقَاوَتُنَا].

الشَّقْوَةُ، والشَّقَاوَةُ، والشَّقَاءُ: التَّعَاسَةُ، وَسُوءُ الْحَالِ، وَالشَّدَّةُ، وَالْعُسْرُ، وَالضَّلَالُ.

أي: رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيَّ إِرَادَاتُنَا وَعُقُولُنَا مُسَبِّاتٌ شِقْوَتُنَا، وَهِيَ أَهْوَاؤُهُمْ، وَشَهَوَاتُهُمْ، وَلَذَائُهُمْ، وَمَطَالِبُ نَفْسِهِمْ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكِبَرُهُمْ، وَرَغْبَاتُهُمْ فِي الْفُجُورِ، فَجَعَلَتْهُمْ يَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ، وَيَجْحَدُونَهُ، وَيَكْذِبُونَ بآيَاتِ اللَّهِ، وَيُعْرِضُونَ عَنْهَا، ثُمَّ يُذَبِّرُونَ.

﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾: أي: وَكُنَّا بِسَبَبِ ذَلِكَ قَوْمًا ضَالِّينَ،

بعيدين عن صراط الحق.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (١٠٧): أَطْمَعْتُهُمْ مُحَادَّةَ رَبِّهِمْ

لَهُمْ، وَلَوْ كَانَتْ عَلَى سَبِيلِ التَّوْبِخِ وَالتَّقْرِيعِ وَالتَّشْرِيبِ، فَقَالُوا: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ دَارِ الْعَذَابِ، وَاقْضِ لَنَا بِاسْتِثْنَائِ رَحَلَةِ امْتِحَانِنَا، فَإِنَّا سَنُؤْمِنُ بِمَا قَرَضْتَ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ، وَسَنَعْمَلُ صَالِحاً كَمَا أَمَرْتَنَا.

فَإِنْ عُدْنَا إِلَى مِثْلِ مَا كُنَّا عَلَيْهِ فِي الْامْتِحَانِ الْأَوَّلِ فَإِنَّا ظَالِمُونَ ظُلْمًا نَحْكُمُ بِهِ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ.

﴿قَالَ أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (١٧٨) : أي: كُونُوا بُعْدَاءَ أَذِلَاءَ فِي جَهَنَّمَ مَطْرُودِينَ مُخْتَقِرِينَ مُهَانِينَ، وَلَا تَكَلِّمُونِي.

يُقَالُ لُغَةً: خَسَأَ الْكَلْبُ وَنَحْوَهُ يَخْسَأُ خَسْأً وَخُسُوءًا، أَي: ذَلَّ وَبَعُدَ مُخْتَقِرًا مُهَانًا مَطْرُودًا.

وَلَا يَبْقَى لَهُمْ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ إِلَّا التَّمَنِّي فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ وَهُمْ يُعَذِّبُونَ وَيَتَخَاصِمُونَ فِي سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول): ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (١٧٩) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٨٠﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨١﴾ ﴿لو﴾ حرف تَمَنُّ هُنَا. «كَرَّةٌ» أَي: رَجْعَةٌ لِحَيَاةِ الْامْتِحَانِ.

الموقف السابع

مَا يَكُونُ مِنَ الْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ بَعْدَ أَنْ يَطُولَ عَذَابُهُمْ مِنْ تَظَاهِرَةِ جَمَاعَتِهِ يَضْطَرُّوْنَ فِيهَا وَيَضْجُوْنَ وَيَصِيحُوْنَ مَطَالِبِينَ بِاسْتِنْفَافِ امْتِحَانِهِمْ

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ (٣٦) وَهُمْ يَضْطَرُّوْنَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّكُمْ عَلَيْكُمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ :

دَلَّ هَذَا النَّصُّ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ بَغْيَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ عَذَابُ نَارِ جَهَنَّمَ، وَأَنَّ هَذَا الْعَذَابَ مُلَازِمٌ لَهُمْ دَوَامًا، فَلَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ بِالْمَوْتِ فَيَمُوتُوا، وَيَسْتَرِيحُوا بِالْمَوْتِ مِنَ الْعَذَابِ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ شَيْءٌ.

وَأَنَّ كُلَّ كَافُورٍ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجَنِّ يَجْزِيهِ اللَّهُ مِثْلَ ذَلِكَ الْجِزَاءِ الْعَظِيمِ الشَّدِيدِ.

وقرأ أبو عمرو: [وَكَذَلِكَ يُجْزَى كُلُّ كَافُورٍ] ومؤدى القراءتين واحد.

وجاء في هذا النص بيان موقف من مواقف المعدبين الخالدين في النار، بَعْدَ أَنْ يَطُولَ فِيهَا عَذَابُهُمْ، وهو موقف الاصطراخ في مظاهره جماعية ينادون فيها رَبِّهِمْ قائلين: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ من النار، وأرجعنا إلى حياة الامتحان [نَعْمَلْ] عَمَلًا ﴿صَالِحًا غَيْرَ﴾ العمل الفاسد ﴿الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ في الحياة الدنيا حياة الامتحان.

فيقول الله لهم: أَلَمْ تَحْمِلُوا الْأَمَانَةَ الَّتِي آتَيْنَاكُمْ حَمْلَهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ، وَكَانَ حَمْلُكُمْ لِلْأَمَانَةِ بِكَامِلٍ حُرِّيَّتِكُمْ، وَدَخَلْتُمْ حَيَاةَ الْامْتِحَانِ مُخْتَارِينَ غَيْرَ مَجْبُورِينَ ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ﴾ عمراً ﴿مَمَّا﴾ طويلاً كافياً لَأَنْ تَهْتَدُوا فِيهِ، وَتَضَعُوا فِي ذِكْرَاتِكُمْ خَلَالَهُ مَا يَجِبُ عَلَيْكُمْ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ، فَتُؤْمِنُوا وَتَعْمَلُوا صَالِحًا، وَهَذَا الْعُمَرُ ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ﴾ مستجيباً لمطلوب النجاة والسعادة ﴿مَنْ تَذَكَّرْ﴾ من عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ عَمِلُوا صَالِحًا ﴿وَجَاءَكُمْ﴾ الرُّسُولُ الْمُبْلَغُ عَنَّا آيَاتِنَا وَ ﴿الْذِّكْرُ﴾ لَكُمْ بِالْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ إِذَا كَفَرْتُمْ وَجَحَدْتُمْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّكُمْ، وَاتَّبَعْتُمْ سُبُلَ الضَّلَالِ وَالْعَنَى.

وهنا لا بُدَّ أَنْ يَقُولُوا: بلى.

عندئذٍ يقول الله لهم: ﴿فَذُوقُوا﴾ الْعَذَابَ دَوَامًا ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.

وجاء في آخر هذا النص بيان لِمَنْ يَخْطُرُ لَهُ اخْتِمَالُ صِدْقِ بَعْضِ الْكَافِرِينَ، الْمُطَالِبِينَ بِاسْتِنْفَافِ حَيَاةِ الْامْتِحَانِ لَهُمْ، إِذَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ فُرْصَةً إِعَادَةِ الْإِخْتِبَارِ، فِي رَحْلَةِ امْتِحَانٍ أُخْرَى.

وهذا البيان يُشير إلى أنهم سيكونون مثلما كانوا عليه في الامتحان الأول، ولو أُعْطُوا ما شاءوا من إعادة إلى حياة الامتحان، فاللَّهُ الذي يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، هو الْعَلِيمُ بذاتِ الصدور، وهي الأشياءِ المختصّة بالصدور، والمصاحبة لها دوماً، من نِيَّاتٍ وإِرَادَاتٍ موجّهات للسلوكِ الباطنِ والظاهر، فلو علم الله فيهم خيراً لَرَدَّهم إلى حياة الامتحان، ولمنحهم فرصة إعادة الاختبار.

لكنهم حينما يُرَدُّون إلى حياة الامتحان لو كان من الحُكْمَةِ رَدُّهم لَمَسَحَ الله من ذكراهم كلَّ مَشَاهِدِ الآخرة وذكرياتِها، فيعودون حينئذٍ إلى مثل ما كانوا عليه في الامتحان الأول.



الموقف الثامن

ما يكون من الكافرين وهم يُعَذَّبُونَ في النارِ بَعْدَ أَنْ يَشْتَدَّ ضَجْرُهُمْ مِنْ طَوْلِ عَذَابِهِمْ دُونَ انْقِطَاعِ إِذْ يَطَالِبُونَ بِتَخْفِيفِ يَوْمٍ مِنَ الْعَذَابِ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ۖ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۖ ﴿٥٠﴾﴾

دلَّ هذا النصُّ على أَنَّ المعذَّبِينَ في النار من الكافرين، يَصِلُونَ إلى دَرَكَةِ اليأس من استئناف امتحانهم، ومن إخراجهم من النار، فيَحَاوِلُونَ أَنْ يَسْتَجِدُّوا مِنْ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ، وهم ملائكةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَغْضُونَ الله ما أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ، أَنْ يَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ دَاعِينَ أَنْ يُخَفِّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ.

فيقول لهم خَزَنَةُ جَهَنَّمَ: أَلَمْ تَدْخُلُوا رِحْلَةَ امْتِحَانِكُمْ باختيارِكُمْ الحرُّ ﴿أَوَلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ من الآيات الإعجازية، والآيات

الْبُزْهَانِيَّةُ الْعَقْلِيَّةُ، والآيات المنزلات من ربكم لبيان مطلوب الله مِنْكُمْ في رحلة امتحانكم.

فيقول الخالدون في النار: ﴿بَلَىٰ﴾.

فيقول لهم خَزَنَةُ جَهَنَّمَ: [فَادْعُوا أَنْتُمْ] فَإِنَّا لَن نَدْعُو لَكُمْ، لَأَنَّ رَبَّنَا لم يَأْذُنْ لَنَا بِأَنْ نَدْعُوهُ مِنْ أَجْلِكُمْ، وَإِذَا دَعَوْتُمْ أَنْتُمْ فَلَن يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَكُمْ فقد كنتم في حياة امتحانكم كافرين: ﴿وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: في ضياع، فلا يكون له أثر نافع.

وجاء النص بأسلوب حكاية أمرٍ وقع ومضى، وهو من أحداث يوم الدين، للدلالة على أنه سوف يتحقق يوم الدين حتماً، فهو بمثابة أمرٍ قد وقع وَتَحَقَّقَ فعلاً.



الموقف التاسع

**ما يكون من الكافرين من اليأس النهائي من الخروج
ومن استئناف حياة الامتحان ومن التخفيف من العذاب**

إنهم بعد المواقف السابقة يَصِلُونَ إلى دركة اليأس الكامل من استئناف حياة امتحانهم، ومن التخفيف من العذاب، فينادُونَ مَالِكاً خَازِنَ النَّارِ الأكبر، قائلين بأصوات عالية جهيرة فيها صُراخٌ وضجيج: يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ. فيجيبهم بقوله: إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ.

إنهم يطالبون بالموت الأبدي، لَكِنْ لَا مَوْتَ بَعْدَ الْبَعثِ ليوم الدين، بل حياة خالدة.

قال الله عز وجل في سورة (الزُّحُف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَرِّجُهُمْ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَنَنْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ حَسَنْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿لَا يُقَرَّرُ عَنْهُمْ﴾ : أي: لَا يُخَفَّفُ عنهم العذاب، وَلَا يُسَكَّنُ، وَلَا تُلَيَّنُ شِدَّتُهُ.

﴿وَهُمْ فِيهِ مُلْسُونَ﴾ : أي: وهم فيه ساكنون يائسون.
 ﴿لَيَقْضَى عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ : أي: ليقض علينا بالموت النهائي الأبدي.
 ﴿إِنْ كُنتُمْ مَنكِتُونَ﴾ : أي: إِنْ كُنْتُمْ مُقِيمُونَ في العذاب لَا تَحْوُلْ لَكُمْ عنه.

وَبَعْدَ هَذِهِ اللَّقْطَةِ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ، أَبَانَ اللهُ لِعِبَادِهِ مَخَاطِباً لَهُمْ،
 بِأَسْلُوبٍ إِقْنَاعِي هَادِيٍّ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ:
 ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ ﴿٧٨﴾
 * * *

الموقف العاشر

ما يكون من تمنّي الكافر أن يكون تراباً

بعد كلِّ المواقف السابقة، والمحاولات التي اتخذها الكافرون للخلاص من عذاب الجحيم، لَا يَبْقَى أمام الكافر إلّا أن يتمنى أن يكون تراباً، كما عادت البهائم تراباً بَعْدَ بَعْثِهَا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (النَّبَأِ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):
 ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾.

وقد يكون هذا التمني مصاحباً لكلِّ مواقفه بعد إصدار الحكم عليه بالخلود في عذاب النار، في محكمة العدل الرَّبَّانِيَّةِ.



وبهذا تَمَّ تَتَبُّعُ وَتَدْبِيرُ النصوص الموزعة في القرآن حول هذا الموضوع، والحمد لله على توفيقه وفتحه.



سُورَةُ الْجِنِّ

٧٢ مَصْحَف ٤٠ نزول
وَهِيَ كُلُّهَا مَكِّيَّة

وُسِّمَتْ بِسُورَةِ الْجِنِّ لِأَشْتِمَالِهَا
عَلَى بَيَانِ قِصَّةِ نَفَرٍ مِنَ الْجِنِّ وَفَدُّوا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ
وَاسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ مِنْهُ، وَآمَنُوا بِهِ، وَانْصَرَفُوا دُعَاةَ بَيْنَ قَوْمِهِمْ

(١)

نص السورة وما فيها من قرش القراءات

سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا
عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا
﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ
كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ
الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ
يَعُودُونَ رِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ

من ٣ - ١٤ • قرأ ابن عامر، وحفص، وحزمة، والكسائي، وخلف، بفتح همزة «أَنَّ»
نسي: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى﴾ و﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ﴾ و﴿وَأَنَا ظَنَنَّا﴾ و﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ﴾
و﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا﴾ و﴿وَأَنَا لَسْنَا﴾ و﴿وَأَنَا كَمَا تَقَعُدُ﴾ و﴿وَأَنَا لَا تَدْرِي﴾ و﴿وَأَنَا يَنَا
السَّالِكُونَ﴾ و﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُشَجِّرَ اللَّهَ﴾، و﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَى﴾ و﴿وَأَنَا
يَنَا الْمُسْلِمُونَ﴾.

• وقرأ أبو جعفر بفتح «أَنَّ» في ثلاثة مما سبق، وهي: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى﴾ و﴿وَأَنَّهُ
كَانَ يَقُولُ﴾ و﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ﴾، والباقي بكسرها.

• وقرأ باقي القراء العشرة، بكسر «إِنَّ» في جميع هذه المواضع.

ففتح «أَنَّ» على أنها وما بعدها بتأويل مصدر عطفًا على ضمير (به) في ﴿فَآمَنَّا
بِهِ﴾.

وكسرها على أنها مغطوفة على: [إِنَّا سَمِعْنَا].

٥ - • قرأ يعقوب: [أَنَّ لَّنْ نَقُولَ]: أي: لَّنْ نَقُولَ. القول افتراء الكذب.

• وقرأ باقي القراء العشرة: [أَنَّ لَّنْ نَقُولَ].

أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا
 مُلْتَثًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدَ
 اللَّسْمِيعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَحْدُ لَهُمْ شِهَابًا رَصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا
 نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا
 ﴿١٠﴾ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴿١١﴾
 وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزُهُ هَرَبًا
 ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا
 يَحَافُ بِحَسَا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا
 الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَا
 الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَالْوِ اسْتَقَمُوا عَلَى
 الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْنِيَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ
 ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنْ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا
 تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا

- ٨ - • قرأ أبو جعفر: [مُلْتَثًا] بالياء بدل الهمزة. وكذلك حمزة في الوقف.
- وقرأ باقي القراء ﴿مُلْتَثًا﴾ بالهمزة.
- ١٧ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر: [نَسْلُكُهُ] بنون المتكلم العظيم.
- وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿يَسْلُكُهُ﴾ بياء الحديث عن الغائب والضمير يعود على الله.
- ١٩ - • قرأ نافع وشعبة: [وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ] بكسر هَمْزَةٍ «إِنْ» وهو على الاستئناف.
- وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ﴾ بفتح همزة «أَنْ» وهو على العطف.
- وهما وجهان عربيان صحيحان.

يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا
 ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ
 يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا
 بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ
 جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ
 فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ
 أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾
 عَلِيمٌ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ
 أَرَادَ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا
 ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَهُ رِسَالَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ
 وَأَخَصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ .

- ١٩ - • قرأ هشام: [لِبَدًا] بضم اللام في أحد وجهين له.
 • وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لِبَدًا﴾ بكسر اللام، وهي الوجه الآخر
 لهشام.
 والقراءتان وجهان عربيان للكلمة.
- ٢٠ - • قرأ عاصم، وحفزة، وأبو جعفر: ﴿قُلْ إِنَّمَا﴾.
 وقرأ باقي القراء العشرة: [قَالَ إِنَّمَا].
- وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، أي: أمره الله فقال.
- ٢٥ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [رَبِّي أَمَدًا] بفتح ياء
 المتكلم. وقرأ باقي القراء العشرة: بإسكانها مع المد في الوصل.
- ٢٨ - • قرأ رويس: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ بالبناء لما لم يسم فاعله، وقرأ باقي القراء [لِيَعْلَمَ].
 وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

(٢)

موضوع سُورَةِ الْجَنِّ

سورة الجن ذات موضوع واحد يتناول قصّة نُفَرٍ من الجن، استمعوا القرآن من الرسول ﷺ، ولم يكن الرسول يَعْلَمُ بِحُضُورِهِمْ ولا بِاسْتِمَاعِهِمْ القرآن من تلاوته، ولا بقصتهم.

وقد أعلمه الله عز وجل في هذه السورة بحضورهم، وبإستماعهم القرآن منه، وأنبأه بقصّتهم، وبما قالوه لإخوانهم من الجن حين رجّعوا إليهم، وأمره بأن يُخَبِّرَ النَّاسَ بما أنزلَ عليه من نبيّهم في هذه السورة، وبما قالوه.

وأتبع الله عز وجل قصّتهم ببيانٍ تكميليٍّ لأقوالهم الإيمانيّة، إشعاراً بصحّة أقوالهم التي قالوها.

وأتبع الله عز وجل ذلك ببياناتٍ تتعلّق بِرِسالة الرسول محمد ﷺ، وبما أوصاه أن يقوله لقومه، في المرحلة التي نزلت فيها هذه السورة، معالجةً للموقف الذي وصلَ إليه كُفَّارُ قومه في مكّة المكرمة.

(٣)

دروس سورة الجن

تشتمل سورة الجن على ثلاثة دروس كما يلي:

الدرس الأول: يتضمّن بيان قصّة النُفَر من الجن، الذين استمعوا القرآن من الرسول محمد ﷺ، فأمنوا به، وانصرفتوا إلى أقوامهم من الجن دُعاةً إلى دين الله الحقّ، الذي أنزله الله على خاتم أنبيائه ورُسُلِهِ، وجعله خاتم الرسالات الرّبّانية للناس.

وهو الآيات من (١ - ١٥).

الدرس الثاني: يتضمَّن بياناً من الله عزَّ وجلَّ مكِّملاً لبعض قضايا دينيَّة، جاءت مضافةً إلى القضايا الَّتِي ذكرها دُعاةُ الجنِّ بين أقوامهم، ومعطوفةٌ عليها، للإشعار بأنَّ ما ذكره هؤلاء النَّفَرُ من الجنِّ بيَّنَ أقوامهم حقَّ، وهو بمثابة التَّضديق من الله لها، واعتمادها، فتُنزَّلُ منزلةَ القول المباشر من الله جلَّ جلاله.

وهو الآيات من (١٦ - ١٩).

الدَّرْس الثالث: يتضمَّن تعليمًا من الله للرسول مُحَمَّد ﷺ، ما يقوله في دعوته، وقضايا هذا التعليم تُعْتَبَر من القضايا الدِّينيَّة الأصول، الَّتِي تتناسبُ مع القضايا الَّتِي ذكرها دعاةُ النفر من الجنِّ، والقضايا الأخرى الَّتِي أضافها البيان الرِّبَّاني المباشر، وتُلائِم المرحلة الدَّعويَّة الَّتِي نَزَلَتْ فيها سورة الجنِّ، وفيها معالجة الموقف الذي وصلَ إليه كبراء مشركي قومه في مكَّة المكرَّمة.

وهو الآيات من (٢٠ - ٢٨) آخر السورة.

وبهذا تظْهَرُ لَنَا وَخِدةُ مَوْضُوع السُّورة، ويظهر لنا ترابطُ قضاياها، وتَعانقُ آياتها.



(٤)

دراسة شاملة للجنِّ

تعريف بالجن :

دَلَّت النُّصوص على أَنَّ الجنَّ خُلِقَ من خَلْقِ الله يُشْبِهُونَ الْإِنْسَ في الصفاتِ الَّتِي تُؤْهِلُهُم لِلابْتِلَاءِ في ظُرُوفِ الحِياة الدُّنيا، وَقَدْ خَلَقَهُمُ اللَّهُ لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَكَلَّفَهُمْ في رحلة ابتلائهم أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بعبادته أَحَدًا.

وَبَعْدَ رحلة الابتلاء والموت، ومرور فاصل زمني بَعْدَ الموت، يكونُ
بَعَثُهُم للحياة الأخرى، لِيَلْقَوْا فيها حِسَابَهُمْ وَفَضْلَ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِمْ، وجزاءهم
في دار النعيم التي هي الجنة المَعْدَّةُ لِلْمُتَّقِينَ، أَوْ في دار العقاب والعذاب،
المَعْدَّةُ لِلْمُجْرِمِينَ، والكُفْرَةِ، والعاصِينَ.

أما طبيعة أجسامهم، فلطيفةٌ لَا تَرَاهَا أَغْيُنُ النَّاسِ بِحَسَبِ العادة،
وَبَحَسَبِ شروط رؤية الناس في الحياة الدنيا، لِكِنْ لَا يَمْنَعُ الْعَقْلُ مِنْ إِمكَانِ
رُؤْيَتِهِمْ، إِذَا تَشَكَّلُوا بِالْأَشْكَالِ الجَسَمَانِيَّةِ، الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَرَاهَا أَغْيُنُ الْإِنْسِ،
أَوْ كَانَ لَدَى الرَّائِي مِنَ الْإِنْسِ قُدْرَاتٌ خَاصَّةٌ تَوْهَلُهُ لِرُؤْيَتِهِمْ.

وَقَدْ دَلَّتِ التَّصَوُّصُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَعْطَاهُمُ الْقُدْرَةَ عَلَى
التَّشَكُّلِ بِأَجْسَادٍ يَرَاهَا الْإِنْسُ، وَهُمْ قَدْ يَتَشَكَّلُونَ بِهَا أحياناً.

وَلَا يَمْنَعُ الْعَقْلُ أَيْضاً مِنْ إِمكَانِ رؤيةِ بَعْضِ النَّاسِ لَهُمْ، دُونَ أَنْ
يَتَشَكَّلُوا بِالْأَشْكَالِ الجَسَمَانِيَّةِ الكثيفة، وَيَكُونَ هَذَا لِمَنْ وَهَبَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
قُدْرَاتٍ خَاصَّةً فَوْقَ قُدْرَاتِ النَّاسِ الْعَادِيَّةِ، وَهَذِهِ الرُّؤْيَةُ تَكُونُ فِي أَحْوَالٍ
نَادِرَةٍ.

وَقَدْ صَحَّ أَنَّ الرُّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى بِغَضِّ الْجَنِّ وَهُمْ عَلَى أَضَلِّ
طَبِيعَتِهِمْ، دُونَ أَنْ يَتَشَكَّلُوا بِالْأَشْكَالِ الجَسَمَانِيَّةِ، الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَرَاهَا أَغْيُنُ
الْإِنْسِ.

وَيُوجَدُ لَدَى بَعْضِ النَّاسِ طَاقَاتٌ نَفْسِيَّةٌ نَادِرَاتٌ، لَا يُوجَدُ نَظِيرُهَا لَدَى
سَائِرِ النَّاسِ، وَبِهَذِهِ الطَّاقَاتِ النَفْسِيَّةِ النَادِرَاتِ قَدْ يَرَوْنَ الْجَنِّ وَهُمْ عَلَى أَضَلِّ
طَبِيعَتِهِمْ دُونَ أَنْ يَتَشَكَّلُوا.

وَإِنْكَارُ مِثْلِ هَذِهِ الْحَقَائِقِ مَكَابِرَةٌ لَا تَغْيِرُ مِنَ الْحَقِّ وَالْوَاقِعِ شَيْئاً، وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَلَا يَنْفِي وُجُودَ أَضَلِّ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَفَرُّهُ الدَّعَاوِي الكاذبة، الَّتِي يَدَّعِيهَا

المَشْتَغِلُونَ بالسُّحْرِ، والمَشْغُودُونَ، ومُدَّعُو الصَّلَةِ بالجنِّ، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ
السُّحْرَ والشَّعْوَذَةَ مَهْنَةً لَهُمْ، يَنْتَزُونَ بِهَا أَمْوَالَ الْبُسْطَاءِ، وَالسُّدُجِ، وَضُعْفَاءِ
العُقُولِ، الَّذِينَ يَجْرُونَ وَرَاءَ الْأَوْهَامِ، وَيَتَّبِعُونَ الْمَشْغُودِينَ، وَالذَّجَالِينَ،
وَالْمَحْرُوفِينَ.



مادة كلمة (الجن) عند أهل اللغة:

أخذاً مما جاء في «لسان العرب» وغيره من المعاجم العربية حول مادة
كلمة الجن، أذكر البيان التالي:

المادة اللَّغَوِيَّةُ لكلمة «الجن» تَدُلُّ في كُلِّ صِيَغِهَا على مَعْنَى السُّتْرِ.
فيقال: جَنَّ فُلَانٌ الشَّيْءَ يَجْنُهُ جَنًّا، أي: سَتَرَهُ.

وَكُلُّ شَيْءٍ سُتِرَ عَنْكَ، فَقَدْ جُنَّ عَنْكَ.

ويقال: جَنَّهُ اللَّيْلُ يَجْنُهُ جَنًّا وَجُنُونًا، أي: سَتَرَهُ، ويقال: جَنَّ عَلَيْهِ
اللَّيْلُ يَجْنُ جَنًّا وَجُنُونًا وَجِنَانًا، وَأَجْنُهُ، أي: سَتَرَهُ.

وَمِنْ هَذَا سُمِّيَ «الجن» بهذا الاسم لاستتارهم، واختفائهم عن أبصار
الناس. وَيُطْلَقُ عَلَيْهِمْ أَيْضاً لَفْظُ «الجنَّة».

وَالْجَنِينُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ سُمِّيَ «جَنِينًا» لاسْتِتَارِهِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ.

ويقال لغة: جَنَّ الْجَنِينُ فِي الرَّحِمِ يَجْنُ جَنًّا، وَأَجْنَتْهُ الْحَامِلُ. أي:
حَمَلَتْ بِهِ.

وَيُسَمَّى الثُّرْسُ: «مِجَنًّا» لِأَنَّهُ آلَةٌ تُسْتَخْدَمُ لِسْتِرِ الْمُقَاتِلِ مِنْ ضَرَبَاتِ
سِلَاحِ خَصْمِهِ الْمُحَارِبِ لَهُ.

وَيُسَمَّى الدُّرْعُ: «جُنَّةً» لِأَنَّهُ يَسْتُرُ وَيَقِي مِنْ سِلَاحِ الْعَدُوِّ، وَكُلُّ وَاقٍ
وَوَاقِيَةٍ يُسَمَّى: «جُنَّةً».

وَيُسَمَّى الْقَبْرِ: «جَنَنًا» لِأَنَّهُ يَسْتُرُ الْمَيِّتَ، وَكَذَلِكَ يُسَمَّى الْكَفَنُ.

وَيُقَالُ: أَجَنَّهُ، أَي: كَفَّنَهُ، أَوْ دَفَنَهُ فِي الْقَبْرِ.

وَيُسَمَّى الْقَلْبُ «جَنَانًا» لِاسْتِتَارِهِ فِي الصَّدْرِ.

وَتُسَمَّى الْحَدِيقَةُ ذَاتُ الْأَشْجَارِ الْكَثِيرَةِ الْمُتَقَارِبَةِ «جَنَّةً» لِأَنَّ أَشْجَارَهَا تَسْتُرُ أَرْضَهَا.

وَهَكَذَا تَدُورُ صَيَغُ هَذِهِ الْمَادَّةِ دَالَّةٌ عَلَى مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ، تَشْتَرِكُ جَمِيعُهَا بِمَعْنَى السَّتْرِ وَالِاسْتِتَارِ.

وَيُقَالُ لِلوَاحِدِ مِنَ «الْجِنِّ» لَفْظُ «الْجِنِّي» فَهُوَ اسْمُ جَنْسٍ جَمْعِي يُفْرَقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَاحِدِهِ بِالْيَاءِ.

قَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ (مِنْ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ): «الْجِنُّ نَوْعٌ مِنَ الْعَالَمِ، سُمُوا بِذَلِكَ، لِاجْتِنَانِهِمْ عَنِ الْأَبْصَارِ، وَلِأَنَّهُمْ اسْتَجَنُّوا مِنَ النَّاسِ، فَلَا يُرَوْنَ» اهـ.



الْجِنُّ مَخْلُوقُونَ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَالْإِنْسُ مِنَ الطِّينِ:

وَذَلَّتِ النُّصُوصُ الثَّابِتَةُ الصَّحِيحَةُ عَلَى أَنَّ الْجِنَّ مَخْلُوقُونَ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، أَي: مِنْ أَخْلَاطٍ لَهَبٍ صَافٍ مِنَ النَّارِ، وَهَذِهِ النَّارُ قَدْ اشْتَدَّ تَوَقُّدُهَا بِسَبَبِ السَّمُومِ، وَهِيَ الرِّيحُ ذَاتُ الْحَرَارَةِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي تَنْفُذُ فِي مَسَامِ الْأَشْيَاءِ وَالْأَبْدَانِ.

أَمَّا الْإِنْسُ فَهُمْ مَخْلُوقُونَ مِنَ الطِّينِ، وَأَمَّا الْمَلَائِكَةُ فَهُمْ مَخْلُوقُونَ مِنَ الثُّورِ.

هَذِهِ الْحَقَائِقُ قَدْ ذَلَّتْ عَلَيْهَا نُصُوصٌ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَمِنْهَا مَا

يَلِي:

(١) رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ».

أي: وَخُلِقَ آدَمُ مِنْ طِينٍ، كَمَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

الْجَانُّ: هُوَ أَبُو الْجِنِّ كَمَا ذَكَرَ الْمَفْسَّرُونَ، أَوْ هُوَ جِنْسُ الْجِنِّ، كَمَا ذَكَرَ بَعْضُ اللُّغَوِيِّينَ، وَعَلَى هَذَا تُحْمَلُ بَعْضُ التَّصَوُّصِ الْقُرْآنِيَّةِ.

(٢) قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٦٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٦٧﴾﴾.

(٣) وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾﴾.

(٤) وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الرَّحْمَنُ/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿مِنْ صَلْصَلٍ﴾: الصَّلْصَالُ: هُوَ الطِّينُ الْيَابِسُ الَّذِي إِذَا نُقِرَ بِشَيْءٍ أُعْطِيَ صَوْتًا فِيهِ تَرْجِيعٌ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَكُونُ صَلْصَالًا حَتَّى يَمُرَّ بِمَرْحَلَةِ الطِّينِ، وَقَبْلَ الطِّينِ كَانَ تُرَابًا وَمَاءً.

﴿مِنْ سُلَالَةٍ﴾: السُّلَالَةُ: مَا اسْتُلْتُ مِنَ الشَّيْءِ وَانْتَزِعَ بِرَفْقٍ، كَانْتِزَاعِ الشَّعْرَةِ مِنَ الْعَجِينِ الطَّرِيقِ اللَّيِّنِ.

وهكذا تُسْتَلُّ أَغْذِيَةُ النَّبَاتَاتِ مِنَ الطِّينِ، وَتُسْتَلُّ عَنَاصِرُ بِنَاءِ الْأَجْسَادِ مِنَ الْأَغْذِيَةِ، وَتُسْتَلُّ عَنَاصِرُ النُّطْفَةِ الْمُنَوَّيَّةِ مِنَ الْأَجْسَادِ الْحَيَّةِ.

﴿مَنْ حَمَلْ مَسْتَوْنٌ﴾: الْحَمَأُ: هُوَ الطِّينُ الْأَسْوَدُ الْمُتَيَّنُّ. الْمَسْتَوْنُ: هُوَ الْمَصَوَّرُ الْمَضْفُوقُ الْمُمَلَّسُ.

﴿كَالْفَخَّارِ﴾: الْفَخَّارُ: الْأَوَانِي والأدواتُ الَّتِي تُصْنَعُ مِنَ الطِّينِ، وَتُسَوَّى فِي النَّارِ حَتَّى تَشْتَدَّ وَتَتَصَلَّبَ.

﴿وَلَبَّانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾ (٢٧): أَي: وَخَلَقْنَا الْمَخْلُوقَ الْأَوَّلَ مِنَ الْجَنِّ مِنْ نَّارٍ تَوْقَدَتْ مِنْ رِيحٍ حَارَّةٍ شَدِيدَةِ الْحَرَارَةِ، وَهِيَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا: «السَّمُومُ» لِقُوِّهَا فِي الْمَسَامِ.

وهذه النَّارُ الْمَلْتَهَبَةُ لَهَا صَافِيَاءُ مُكَوَّنَةٌ مِنْ عَنَاصِرٍ مُخْتَلِطَةٍ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ وَقودَهَا عَنَاصِرٌ مُخْتَلِطَةٌ مُخْتَلِفَةٌ.

﴿مِنْ قَبْلُ﴾: أَي: مِنْ قَبْلِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ.

﴿وَخَلَقَ الْجَبَّانَ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾ (١٥): الْجَبَّانُ: أَبُو الْجَنِّ. مِنْ مَّارِجٍ: أَي: مِنْ مُخْتَلِطٍ. الْمَارِجُ: الْمَخْتَلِطُ، فَهُوَ ذُو الْعَنَاصِرِ الْمَخْتَلِطَةِ الْمُخْتَلِطَةِ. وَيُقَالُ: مَرَجَ اللَّهَبُ إِذَا ارْتَفَعَ. وَالْمَارِجُ: اللَّهَبُ الصَّافِي مِنْ الدُّخَانِ.



إِبْلِيسُ مِنَ الْجَنِّ:

إِبْلِيسُ مِنْ نَوْعِ الْجَنِّ، فَهُوَ مِنْ سَلَالَةِ «الْجَبَّانِ» أَبِيهِمْ.

لَقَدْ كَانَ إِبْلِيسُ مِنَ الْجَنِّ فَاثِدَسٌ فِي صُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، لَوْجُودِ تَشَابُهِ ظَاهِرِيٍّ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجَنِّ، وَجَعَلَ يُتَظَاهَرُ بِالْعِبَادَةِ لِلَّهِ كَالْمَلَائِكَةِ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى صُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى.

فَفَسَقَ خَارِجاً عَنْ طَاعَةِ أَمْرِ رَبِّهِ، إِذْ رَفَضَ أَنْ يَسْجُدَ لِآدَمَ، وَكَانَ قَدْ أَمَرَهُ اللَّهُ بِأَنْ يَسْجُدَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ آتَدَسَ فِيهِمْ، وَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِأَنْ يَسْجُدُوا لِآدَمَ، فَكَشَفَ بِمَعْصِيَتِهِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ صِنْفِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ بِالْفِطْرَةِ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، فَأَخْرَجَهُ اللَّهُ وَطَرَدَهُ، وَجَعَلَهُ مِنَ الْمَطْرُودِينَ الْمَلْعُونِينَ وَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، إِذْ أَصْرَّ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَلَمْ يَسْتَغْفِرْ، بَعْدَ ثَلَاثِ جَلْسَاتٍ كَرَّرَ اللَّهُ فِيهَا مُحَاكَمَتَهُ، لِيَمْنَحَهُ فُرْصَةَ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ فَلَمْ يَفْعَلْ.

قال الله عز وجل في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.



الْجِنُّ سُلَالَةٌ كَالْإِنْسِ أَصْنَافٌ وَأَلْوَانٌ وَلَهُمْ مَذَاهِبٌ شَتَّى وَهُمْ يَرَوْنَنَا مِنْ حَيْثُ لَا نَرَاهُمْ:

وَالْجِنُّ سُلَالَةٌ كَالْإِنْسِ أَقْوَامٌ وَقِبَائِلٌ، وَأَصْنَافٌ وَأَلْوَانٌ، وَلَهُمْ مَسَاكِينُ وَمَنَازِلٌ، يَرَوْنَنَا مِنْ حَيْثُ لَا نَرَاهُمْ، وَقَدْ يَجْلِسُونَ مَعَنَا، وَيُسَاكِنُونَنَا فِي بُيُوتِنَا.

وَمِنْهُمْ الْأَقْرَامُ وَمِنْهُمْ الْعِمَالِقَةُ، وَمِنْهُمْ الضُّعَفَاءُ وَمِنْهُمْ الْأَشْدَاءُ الْأَقْوِيَاءُ، وَمِنْهُمْ الْغَوَاصُونَ فِي الْبَحَارِ، وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَ الْقِيَامَ بِأَعْمَالِ الْبِنَاءِ، وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَ الْقِيَامَ بِأَعْمَالِ الصَّنَاعَاتِ كَالْإِنْسِ.

دَلَّ عَلَى هَذَا مَا جَاءَ فِي قِصَّةِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذْ سَلَطَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْجِنِّ، فَقَالَ فِي عَرْضِ لِقَاطَاتٍ مِنْ قِصَّتِهِ فِي سُورَةِ (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿مَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦) ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾ (٣٧) ﴿وَأَخْرَيْنَ مُفْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (٣٨) ﴿.

وقد سبق تدبر سورة (ص) فليزجج إليها. الشياطين: هم كفرة الجن والدعاة إلى الكفر.

وجاء في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) قول الله عز وجل:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (٧) ﴿: يُوزَعُونَ﴾ أي: يُصَفُّونَ وَيُرْتَبُونَ بانتظام.

فأبانت هذه الآية أن الله عز وجل قد سلط سليمان عليه السلام على الجن، فاتخذ منهم جنوداً، وأنه جمعهم مع جنوده من الإنس، وجنوده من الطير، ليسوقهم إلى الجهاد في سبيل الله، وهذا لا يدل على أن الإنس كانوا يرون جنوده من الجن.

وقال الله عز وجل في سورة (سبا/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَن آثَرِنَا نِدْفَهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَحِفَانٍ كَلْجَوَابٍ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا مَا لَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (١٣) ﴿فَلَمَّا فَضَّيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ أَلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُمْ فَلَمَّا خَرَ بَيَّيْنَتْ لِلْجِنِّ أَن لَو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لِسُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (١٤) ﴿.

المحارب: جمع «محارب» وهو صذر البيت، وأكرم موضع فيه، والغرفة، وأرفع بيت في الدار، وأرفع مكان في المسجد، ومحارب بني إسرائيل مساجدهم التي كانوا يجلسون فيها.

التمثيل: المجسمات التي تُصنع على صور الأحياء وغيرها.

الجفان: القصاص التي تُقدم فيها الأطعمة للأكل منها.

﴿كَالْجَوَابِ﴾ : أي: كالأخواضِ مِنَ الماء، مَفْرُذُهَا «الْجَابِيَةُ» .
 ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ : الْقُدُورُ: هي الأواني التي يُطَبَّخُ الطَّعَامُ فيها،
 الواحدة منها «قِدْر». رَاسِيَتٌ: أي: ثَابِتَاتٌ لَا تَتَقَلَّلُ لِعَظَمِهَا .
 ﴿دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ : هي الأرضة، وهي دُوبَّةٌ تَأْكُلُ الخَشَبَ ونحوه .
 ﴿تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ : الْمِنْسَأَةُ: العصا الغليظةُ الَّتِي تكون مع الراعي .
 لقد حفظ الله جَسَدَ سليمان وهو على كرسِيَّه متكىً على عَصَاهُ بَعْدَ
 موته، حَتَّى أَكَلَتْهَا الْأَرْضُ فَضَعِفَتْ فَخَرَّ جَسَدُهُ إِلَى الْأَرْضِ .

وقال الله عزَّ وجلَّ في عرض بعض قِصَّتِهِ في سورة (النمل/ ٢٧
 مصحف/ ٤٨ نزول) بشأن عَرْشِ بَلْقِيسَ ملكة سَبَأَ:

﴿قَالَ يَبْنَائِيهَا أَلَمْ لَوْ أَتِيكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِيهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٢٨) قَالَ عِفْرِيتٌ
 مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيْ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ .

﴿عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ : أي: قَوِيٌّ مَّاكِزٌ مِنْهُمْ، وكان هذا الجنِّي العِفْرِيتُ
 أَحَدَ الْمَلَأِ الْكِبَارِ مِنْ جُلَسَاءِ مَجْلِسِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَام، وَيُظْهَرُ أَنَّ سُلَيْمَانَ
 كَانَ يَعْطَاءُ خَاصًّا مِنْ رَبِّهِ يَرَى الْجِنَّ، وَيَضْطَفِي مِنْهُمْ صَفْوَةً لِمَجَالِسِهِ، فَكَانَ
 يَرَاهُمْ فِيهَا، فِي حِينٍ أَنَّ غَيْرَهُ مِنْ جُلَسَاءِ مَجْلِسِهِ لَا يَرَوْنَهُمْ، وَكَانَ يَسْمَعُ
 أَحَادِيثَهُمْ وَأَسْنَنَتَهُمْ وَأَجْوِبَتَهُمْ فِي حِينٍ أَنَّ جُلَسَاءَ مَجْلِسِهِ لَا يَسْمَعُونَهَا .

﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ : أي: قَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ وَقْتُ مَجْلِسِكَ الْمَعْتَادِ
 الَّذِي تَجْلِسُ فِيهِ لِلنَّاسِ .



الْجَنُّ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَتَنَاسَلُونَ:

دَلَّتِ التُّصَوُّصُ الصَّحِيحَةُ عَلَى أَنَّ الْجَنَّ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ،
 وَيَتَنَاسَلُونَ، وَإِنَّمَا أَنَّ كَيْفِيَّاتِ طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ وَتَنَاسُلِهِمْ
 وَتَنَاسُلِهِمْ مَجْهُولَةٌ لَنَا .

ومن الأدلة على هذه الصفات للجن ما يلي:

(١) روى مسلم والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا تَسْتَنْجُوا بِالرُّوثِ وَلَا بِالْعِظَامِ، فَإِنَّهَا زَادُ إِخْوَانِكُمْ مِنَ الْجِنِّ». الرُّوث: هو ما تخرجه البهائم من فضلات طعامها، وهو طعام دواب إخواننا المؤمنين من الجن.

(٢) وروى أبو داود بإسناد صحيح عن ابن مسعود أيضاً قال: «لَمَّا قَدِمَ وَفَدَ الْجِنُّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ أُمْتُكَ أَنْ يَسْتَنْجُوا بِعَظْمٍ أَوْ رَوْثَةٍ أَوْ حُمَمَةٍ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ لَنَا فِيهَا رِزْقًا، فَتَنَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ».

حُمَمَةٌ: أي: فَحَمَةٌ، وَجَمْعُهَا «حُمَم».

(٣) وروى مسلم عن ابن مسعود أيضاً قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ، فَذَهَبْتُ مَعَهُ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ». قَالَ: فَانْطَلَقَ بِنَا قَارَأَنَا آثَارَهُمْ، وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ، وَسَأَلُوهُ الزَّادَ، فَقَالَ: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عُلْفٌ لِدَوَابِّكُمْ».

فقال رسول الله ﷺ:

«لَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا، فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ».

(٤) وروى مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ».

وبما أَنَّ الشياطينَ من الجنِّ، فقد دَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ الْجِنَّ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَأَنَّهُمْ ذَوُو أَيْدٍ كَمَا لِلْإِنْسِ أَيْدٍ، يَعْمَلُونَ بِهَا أَعْمَالَهُمْ، وَيَأْكُلُونَ بِهَا، وَيَشْرَبُونَ بِهَا.

(٤) وروى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقول:

«إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَذْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ».

(٥) وروى مُسْلِمٌ أَيْضاً عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ طَعَاماً، لَمْ نَضْغْ أَيْدِينَا حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَضْغَ يَدَهُ، وَأَنَا حَضَرْنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَاماً، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ، فَذَهَبَتْ لِتَضْغَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهَا، ثُمَّ جَاءَ أَغْرَابِيٌّ كَأَنَّهُ يُدْفَعُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَجِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهِذِهِ الْجَارِيَةِ لِيَسْتَجِلَّ بِهَا، فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا، فَجَاءَ بِهِذَا الْأَغْرَابِيُّ لِيَسْتَجِلَّ بِهِ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِهَا».

فدَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ الْجِنَّ يَأْكُلُونَ، وَأَنَّ الشَّيَاطِينَ مِنْهُمْ يَسْتَجِلُّونَ الْأَكْلَ مَعَ الْإِنْسِ مِنْ طَعَامِهِمْ، إِذَا لَمْ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَإِذَا ذَكَرُوا اسْمَ اللَّهِ كَانَ هَذَا الذِّكْرُ مَانِعاً لَهُمْ مِنْ مُشَارَكَةِ الْإِنْسِ فِي طَعَامِهِمْ، بِقُوَى غَيْبِيَّةٍ يُسَخِّرُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَلَائِكَةٍ تَمْنَعُهُمْ مِنْ مَدِّ أَيْدِيهِمْ إِلَى الطَّعَامِ، وَمِنَ الْأَكْلِ مِنْهُ.

على أَنَّ مَوْضِعَ الْجِنَّ وَتَصَرُّفَاتِهِمْ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ غَيْبٌ عَنْ حَوَاسِّنَا هِيَ وَأَثَارُهَا فِينَا، بِاسْتِثْنَاءِ بَعْضِ الْأَثَارِ الَّتِي تَبْدُو فِي الدِّينِ يُصِيبُهُمْ

مَسَّ مِنَ الْجَنِّ، بِسَبَبِ عَدَمِ تَحْصُنِهِمْ بِذِكْرِ اللَّهِ، والدُّعَاءِ، وتلاوة القرآن،
مع وجود الاستعداد في طبيعتهم النفسية لتقبل المس.



رسالة محمد ﷺ رسالة عامة للإنس والجن:

دلّت سورة (الجن) ونصوص قرآنية أخرى، وأحاديث نبوية، على أن
الرسول محمداً ﷺ قد جاء برسالة عامة شاملة للإنس والجن، وهو خاتم
الأنبياء والمرسلين جميعاً إنسهم وجنهم.



هَلْ بَعَثَ اللَّهُ رُسُلًا مِنَ الْجَنِّ إِلَى الْجَنِّ؟

اختلفت آراء علماء المسلمين في الإجابة على هذا السؤال، لكن
ترجح لدي أن الله عز وجل قد أرسل إلى الجن رُسُلًا منهم، فقد كانوا
موضوعين موضع الامتحان في الحياة الدنيا قبل خلق آدم عليه السلام،
ومكلفين أن يؤمنوا، ويعملوا الصالحات، ويتركوا السيئات، إذ لهم إرادات
حرّة، وقدرات فكريّة على إدراك الخير والشر، والحسن والقبيح، والظلم
والعدل، والتقوى والبرّ والإحسان، ولهم غرائز وأهواء وشهوات، وقدرات
ما على تنفيذ ما يريدون من طاعة لله ومعصية له.

ومن سنة الله العائمة، أن يُرْسَلَ لِمَنْ يَضَعُهُمْ مَوْضِعَ الامتحانِ رُسُلًا
لهم طبائع من يُرْسَلُونَ إليهم.

وصحّ مع هذه السُنّة أن يُرْسَلَ إلى الجن رُسُلًا بشرًا، لأنّ للبشر
طبائع نفسية مشابهة لطبائع الجن.

ولما كان الجن مخلوقين قبل الإنس، كان من مقتضى حكمه الله أن
لا يدعهم دون رُسُلٍ في المدة التي هم فيها مُمتَحَنُونَ، مع أنّه لم يكن

يُوجَدُ يَوْمَئِذٍ بَشَرٌ، وَلَا يَكُونُ رُسُلُ الْجِنِّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، لِأَنَّ طَبِيعَةَ الْمَلَائِكَةِ مُخَالِفَةٌ لَطَبِيعَةِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَهُمْ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، بِخِلَافِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، فَقَدْ أَبَانَ الْوَاقِعَ أَنَّهُمْ ذَوُو طَبَائِعٍ قَابِلَةٍ لِأَنْ تُطِيعَ أَوْ تَعْصِيَ بِإِرَادَةِ حُرَّةٍ.

وقد جاء في القرآن المجيد ما يدلُّ على أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَرْسَلَ إِلَى الْجِنِّ رُسُلًا مِنْهُمْ، فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حِكَايَةً لِمَا سَوْفَ يُخَاطَبُ بِهِ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَوْمَ الْحَشْرِ، فِي سُورَةِ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿يَمْعَشَرَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُزِدُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْغَبْوَةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿يَمْعَشَرَ﴾: المعشر: كُلُّ جَمَاعَةٍ أَمْرُهُمْ وَاحِدٌ.

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾: أَي: يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي بِتَتَبُعٍ مُسْتَقْصٍ كَلِمَةً فَكَلِمَةً، وَآيَةً فَآيَةً.

تقول لغة: قَصَصْتُ الشَّيْءَ، إِذَا تَتَبَعْتَ أَثَرَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا، قَصًّا وَقَصَصًا.

فقول الله عَزَّ وَجَلَّ لِلْجِنِّ وَالْإِنْسِ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾؟ يَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّ الْجِنَّ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رُسُلٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّ الْإِنْسَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رُسُلٌ مِنْهُمْ.

وَحَمْلُ النَّصِّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ بَابِ تَغْلِيْبِ الْإِنْسِ عَلَى الْجِنِّ خِلَافَ الظَّاهِرِ، وَلَا مُقْتَضِي لَهُ.

ويضافُ إِلَى دَلَالَةِ هَذَا النَّصِّ مَا جَاءَ فِي قِصَّةِ إِبْلِيسَ وَهُوَ مِنَ الْجِنِّ، فَفَسَقَ خَارِجًا عَنْ طَاعَةِ أَمْرِ رَبِّهِ، وَأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ بَاطِنًا قَبْلَ آدَمَ، وَقَبْلَ أَنْ يَكُونَ آدَمُ رَسُولًا، وَقَبْلَ أَنْ يُرْسِلَ اللَّهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَحَدًا.

وما دَلَّت عليه التُّصَوُّصُ مِنْ أَنَّ الْجِنَّ كَانُوا مَكْلَفِينَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِرَبِّهِمْ وَيُسَلِّمُوا لَهُ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا مُبَلِّغِينَ بِأَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا دَارُ امْتِحَانِهِمْ، وَأَنَّهَا سَتَنْتَهِي ظُرُوفُهَا، وَأَنَّهُمْ سَيَبْعَثُونَ لِلْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ.

دَلَّ عَلَى هَذَا مَا جَاءَ فِي قِصَّةِ مُحَاكَمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِإِبْلِيسَ عَلَى مَعْصِيَّتِهِ، وَرَفْضِهِ أَنْ يَسْجُدَ لِآدَمَ، إِذْ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَسْجُدَ لَهُ مَعَ مَلَائِكَةِ الْمَلَائِكَةِ، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ كَانَ مُنْذَسًا فِيهِمْ مُنَافِقًا، وَمُتَظَاهِرًا بِالْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ، كَأَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ، طَمَعًا فِي أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمْ ذَا رِيَاسَةٍ، فَقَدْ جَاءَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنَّ فَفَسَقَ عَنْ طَاعَةِ أَمْرِ رَبِّهِ، وَأَنَّهُ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُنْظِرَهُ إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قِضِيَّةَ الْبُعْثِ لِلْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ، مِنَ الْقَضَايَا الَّتِي أَمَرَ الْجِنَّ بِأَنْ يُؤْمِنُوا بِهَا، وَكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ.

وَإِذْ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رُسُلٌ مِنَ الْإِنْسِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الرُّسُلُ الْمُرْسَلُونَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْجِنَّ.

فَيَنْبَغِي حَمْلُ الْآيَةِ عَلَى ظَاهِرِهَا دُونَ تَأْوِيلِ، وَإِثْبَاتِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَرْسَلَ إِلَى الْجِنَّ رُسُلًا مِنْهُمْ.

لَكِنْ بَعْدَ أَنْ أَرْسَلَ اللَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانُهُ - إِلَى الْبَشَرِ رُسُلًا مِنْهُمْ، مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَصَارَ بِاسْتِطَاعَةِ الْجِنَّ أَنْ يَتَبَلَّغُوا دِينَ اللَّهِ عَنْ طَرِيقِ الرُّسُلِ مِنَ الْإِنْسِ، وَلَمَّا كَانَ تَكْوِينُ الْإِنْسِ أَكْمَلَ وَأَحْسَنَ تَقْوِيمًا مِنَ الْجِنَّ، مَعَ الْإِشْتِرَاكِ فِي طِبَائِعِ نَفْسِيَّةٍ مُتَشَابِهَةٍ، فَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْإِكْفَاءُ بِرُسُلِ الْإِنْسِ، لِتَبْلِيغِ الْجِنَّ دِينَ رَبِّهِمْ.

وَرُبَّمَا كَانَ لَهُمْ أَيْضًا مَعَ الرُّسُلِ مِنَ الْإِنْسِ رُسُلٌ مِنَ الْجِنَّ فِي عُضُورِ سَلَفَتِ، قَبْلَ بَغْتَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، إِذْ جَعَلَهُ اللَّهُ رَسُولًا لِلْإِنْسِ وَالْجِنَّ، وَخَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ جَمِيعًا.

وَكُونُ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَكَوْنُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ فِي ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الثُّبُوتَ وَالْكِتَابَ، كَمَا جَاءَ فِي النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ، لَا يَتَعَارَضُ مَعَ الَّذِي تَرَجَّحَ لَدَيْ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ، فَقَدْ يَكُونُ لِلْجِنِّ رُسُلٌ قَبْلَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ يَكُونُ مَا جَاءَ بِشَأْنِ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ خَاصًّا بِالْإِنْسِ، لِأَنَّ سَوَابِقَ النُّصُوصِ وَلَوْ أَحَقَّهَا تَتَحَدَّثُ عَنِ الْإِنْسِ دُونَ الْجِنِّ.



الْجِنُّ يُمُوتُونَ وَيُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ وَالْقَضَاءِ وَالْجَزَاءِ :
ثَبَتَ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ أَنَّ الْجِنَّ يُمُوتُونَ، وَأَنَّهُمْ يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِلْحِسَابِ، وَفُضِّلَ الْقَضَاءُ، وَتَنْفِذُ الْجَزَاءِ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْأَحْقَافِ/ ٤٦ مِصْحَفِ/ ٦٦ نَزُولِ) بِشَأْنِ الْكَافِرِينَ الْخَاسِرِينَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ :

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

فَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا النَّصِّ أَنَّهُ قَدْ خَلَتْ قَبْلَ الْكَافِرِينَ الْمَعَاصِرِينَ لِرِسَالَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ أُمَّةٌ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ تَنْقَسِمُ إِلَى قَسْمَيْنِ :

● قِسْمٌ مِنَ الْجِنِّ .

● وَقِسْمٌ مِنَ الْإِنْسِ .

﴿خَلَتْ﴾ : أَيِ : مَضَتْ بِالْمَوْتِ، فَنِظَامُ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ نِظَامٌ يَشْمَلُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ .

وَقَدْ عَلِمَ إِبْلِيسُ وَهُوَ مِنَ الْجِنِّ، أَنَّهُ خَاضِعٌ لِنِظَامِ الْمَوْتِ، كَسَائِرِ

الجنّ، فَسَأَلَ رَبَّهُ بَعْدَ أَنْ حَكَمَ عَلَيْهِ بالإخراج من المَلَأِ الأعلى، والطَّرْدِ واللّعن، أَنْ يُنْظَرَهُ فَلَا يُمِيتَهُ إِلَى يومِ البعث، فَوَعَدَهُ اللهُ - جَلَّتْ حُكْمَتُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ - بِأَنْ يُنْظَرَهُ وَلَكِنْ لَا إِلَى يَوْمِ الْبَعثِ، بَلْ إِلَى وَفْتٍ إِنِّهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ضَمَّنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَبَعْدَهَا لَا يَبْقَى حَيٌّ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

قال الله عز وجل في آخر سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ودلّ على أنّ الجنّ يموئتون، ما رواه البخاريّ وابن جرّان، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما - أنّ النبيّ ﷺ كان يقول: «أعوذ بِعِزَّتِكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ».

وجاء في بيان تَغْذِيبِ كَفَرَةِ الْجِنِّ في النار يومَ الدين قولُ الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكاية لما يُخاطَبُ به الَّذِينَ كَانُوا يَفْتَرُونَ على الله كذباً، وَيُكَذِّبُونَ بآيَاتِهِ كافرين:

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ... ﴿٣٨﴾﴾.

فدلّ هذا النصّ على أنّ حالَ الجنّ كحالِ الإنسانِ امتحاناً وتكليفاً في الدُّنْيَا، وجزاء يومَ الدين.

وجاء فيها أيضاً قولُ الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

وقول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَنَمَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَآنَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

مَا وَرَدَ بِشَأْنِ وُفُودِ الْجِنِّ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ:
أَوَّلًا:

جاء في القرآن الكريم بشأن من وفدَ إلى الرسول ﷺ من الجنّ نصاباً:

النّص الأول: مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الْجِنِّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول) وَهُوَ النّصُ الَّذِي أُجْتَهَدَ فِي تَدْبِيرِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، خِلَالِ تَدْبِيرِ دُرُوسِ السُّورَةِ.

النّص الثاني: مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الْأَحْقَافِ/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) وَهُوَ الْآيَاتُ مِنْ (٢٩ - ٣٢) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ.

وَقَدْ دَلَّ مَا جَاءَ فِي النّصِ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (الْجِنِّ) عَلَى أَنَّهُ يَتَحَدَّثُ عَنْ وَفْدٍ لَمْ يَغْلَمْ الرَّسُولُ ﷺ بِحُضُورِهِمْ، وَاسْتِمَاعِهِمُ الْقُرْآنَ مِنْهُ، وَلَمْ يَغْلَمْ بِإِيمَانِهِمْ، وَلَا بَانْصِرَافِهِمْ إِلَى قَوْمِهِمْ دُعَاةً إِلَى دِينِ اللَّهِ، حَتَّى أَعْلَمَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ سُورَةَ (الْجِنِّ) وَأَمَرَهُ بِأَنْ يُحَدِّثَ النَّاسَ بِخَبَرِهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ.

أَمَّا مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الْأَحْقَافِ) فَلَيْسَ فِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ بِحُضُورِهِمْ لَدَيْ وَفُودِهِمْ إِلَيْهِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُخْمَلَ عَلَيْهِ بَعْضُ مَا وَرَدَ مِنَ الْأَحَادِيثِ، الَّتِي جَاءَ فِيهَا ذِكْرُ وَفَادَةِ الْجِنِّ إِلَى الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَيَحْسُنُ تَدْبِيرُ النّصِ الْقَصِيرِ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (الْأَحْقَافِ) قَبْلَ الدُّخُولِ فِي تَدْبِيرِ سُورَةِ (الْجِنِّ) ذَاتِ الْبَيَانِ الطَّوِيلِ الَّذِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ حِكَايَةُ أَقْوَالِهِمْ، لِيَتَضَحَّ التَّكَامُلُ بَيْنَ النّصَّيْنِ لَدَى الْمَقَارَنَةِ بَيْنَهُمَا.

تدبر نص الأحقاف بشأن وفد من وفود الجن إلى الرسول:

قال الله عز وجل في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم مِّنْ عَذَابِ آلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

● ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾ : أي: وَضَعَ فِي ذَاكِرَتِكَ يَا مُحَمَّدُ هَذَا الْحَدِيثَ الَّذِي جَرَىٰ وَقْتُ صَرْفِ نَفَرٍ مِّنَ الْجِنِّ عَمَّا كَانُوا فِيهِ، وَأَرْسَلْنَاهُمْ إِلَيْكَ، وَادْكُرْهُ فِي بَيَانَاتِكَ الَّتِي تَدْعُو بِهَا إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ.

ضُمِّنَ فِعْلُ «صَرَفَ» مَعْنَى فِعْلِ «أَرْسَلَ» وَعُدِّي تَعْدِيَّتُهُ، فَأَعْنَتِ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا دَلَّ عَلَيْهَا الْفِعْلُ فِي ﴿صَرَفْنَا﴾ وَالْأُخْرَى دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ ﴿إِلَيْكَ﴾ وَهَذَا مِنَ الْإِيجَازِ الْبَدِيعِ فِي الْقُرْآنِ.

أَضْلُ فِعْلُ «صَرَفَ» يُعْدَى بِحَرْفِ «عَنْ». يَقَالُ صَرَفَهُ عَنْ الْأَمْرِ، أَوْ عَنْ الْعَمَلِ. وَالْمُنَاسِبُ لِلتَّغْدِيَةِ بِـ ﴿إِلَيْكَ﴾ فِي هَذَا الْبَيَانِ فِعْلُ «بَعَثَ» أَوْ «أَرْسَلَ».

وَتَحَدَّثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا الْبَيَانِ بَنُوْنَ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ هَذَا الصَّرْفَ وَهَذَا الْإِرْسَالُ، قَدْ كَانَا بَوَسَائِلَ لَطِيفَةٍ خَفِيَّةٍ، لَا يَمْلِكُهَا إِلَّا الرَّبُّ الْقَدِيرُ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

● ﴿نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ : النَّفَرُ: يُطْلَقُ عَلَى عَدَدٍ مِّنَ الرِّجَالِ مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ. ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحذُوفٍ هُوَ صِفَةٌ لِلْفِظِ ﴿نَفَرًا﴾.

● ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ : جُمْلَةٌ فِي مَحَلِّ نَضْبٍ عَلَى أَنَّهَا صِفَةٌ لِّ «نَفَرًا» أَي: نَفَرًا مُسْتَمْعِينَ لِلْقُرْآنِ بِعُنَايَةٍ وَقَضْدٍ، وَيَدُلُّ هَذَا عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغَتْهُمْ أَنْبَاءُ بَعْثَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَنُزُولِ كِتَابٍ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ،

فَانْبَعَثُوا لاسْتِمَاعِ بَعْضِ مَا جَاءَ فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ تِلَاوَةِ الرَّسُولِ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ. فَاَلْمَعْنَى: نَفَرًا مَوْصُوفِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ الْجِنِّ، وَبَأَنَّهُمْ قَدِمُوا وَهُمْ يَقْصِدُونَ مِنْذُ بَدْءِ تَوَجُّهِهِمْ اسْتِمَاعَ الْقُرْآنِ مِنَ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ مِنْ فَضْلَاءٍ وَعُقْلَاءٍ وَسَادَةِ قَوْمِهِمْ مِنَ الْجِنِّ، وَلَعَلَّهُمْ قَدْ وَقَدُّوا إِلَى الرَّسُولِ بِطَلَبِ مِنْهُمْ، إِذِ انْتَشَرَ بَيْنَ الْجِنِّ أَنَّ رَسُولًا فِي مَكَّةَ أَرْسَلَهُ اللَّهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا.

أَمَّا كَيْفَ صَرَفَهُمُ اللَّهُ إِلَى الرَّسُولِ فَلَمْ يَأْتِ فِي النَّصِّ وَلَا فِي بَيِّنَاتِ الرَّسُولِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ.

● ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾: أَي: فَحِينَ حَضَرُوا الْقُرْآنَ وَالرَّسُولُ يَتْلُوهُ. يُقَالُ لُغَةً: حَضَرَ فَلَانٌ الْمَجْلِسَ وَنَحْوَهُ، أَي: شَهِدَهُ.

فَاَلْمَعْنَى: فَحِينَ شَهِدُوا تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ.

● ﴿قَالُوا أَنْصِتُوا﴾: أَي: قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اسْكُتُوا، وَلَا يَكُنْ مِنْ أَحَدِكُمْ صَوْتُ مَا، حَتَّى نُحْسِنَ الْاسْتِمَاعَ.

الْإِنْصَاتُ: هُوَ السُّكُوتُ وَعَدَمُ الْكَلَامِ، وَعَدَمُ إِحْدَاثِ أَيِّ صَوْتٍ بِمَعْنَى أَوْ بَغَيْرِ مَعْنَى، وَالسَّبَبُ فِي طَلَبِ الْإِنْصَاتِ تَهَيُّةُ الْجَوْ لِلْاسْتِمَاعِ الْجَيِّدِ.

يُقَالُ لُغَةً: أَنْصَتَ فَلَانٌ فَلَانًا، أَي: أَسْكَنَهُ.

● ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾: أَي: فَحِينَ أَنْهِيَ الْمُقَدَّارُ الَّذِي كَانَ الرَّسُولُ قَدْ عَمَدَ إِلَى تِلَاوَتِهِ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿قُضِيَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وَنَائِبِ الْفَاعِلِ ضَمِيرٌ يَعُودُ عَلَى الْقُرْآنِ الَّذِي كَانَ الرَّسُولُ يَتْلُوهُ.

● ﴿وَلَوْ أَنَّ قَوْمَهُمْ مُنْذِرِينَ﴾: ﴿وَلَوْ﴾: أَي: أَذْبَرُوا وَنَأَوْا ذَاهِبِينَ

﴿إِلَّا قَوْمَهُ﴾ مِنَ الْجَنِّ ﴿مُنْذِرِينَ﴾: أي: مبلّغين أولاً، وداعين إلى دين الله، ومُبَشِّرِينَ من آمَنَ بالنعيم المقيم، ومُنْذِرِينَ أخيراً مَنْ كَفَرَ بعذابٍ أليمٍ، حَرِيقاً في الجحيم.

جاء التعبيرُ بالإنذارِ آخِرَ فِقْرَةٍ من فِقَرَاتِ الدَّعْوَةِ إلى دين الله، ليدُلُّ باللزومِ الذَّهْنِيَّ على مَا يَكُونُ قَبْلَهُ من فِقَرَاتٍ دَعْوِيَّةٍ، يقتضيها الترتيبُ الحكيم، في البَيَانِ والإعلام، والدَّعْوَةِ للدُّخُولِ في دينٍ متكامل البنیان، راسخ الأركان، عظيم الإلتقان.

الإنذارُ: الإعلامُ بما هو مَخُوفٌ منه، ويجب على أهل العقل والرُّشْدِ أَنْ يَتَّقُوهُ. والإنذارُ: التحذير والتخويف من شرٍّ.

● ﴿قَالُوا يَنْقُومَنَا﴾: هذا بيانٌ تمهيديٌّ لبَدْءِ دَعْوَتِهِمْ قَوْمَهُمْ مِنَ الْجَنِّ، وهذا يدلُّ على أَنَّ الْجَنِّ أَقْوَامٌ يُشْبِهُونَ في تَقْسِيمَاتِهِمْ أَقْوَامَ الْإِنْسِ.

● ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾: أي: إِنَّا سَمِعْنَا آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ رَبَّانِي، أُنْزِلَ عَلَى رَسُولٍ مِنْ بَعْدِ مُوسَى وَكِتَابِهِ التَّوْرَةِ.

ويُشْعِرُ هذا البيانُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الثُّفَرِ مِنَ الْجَنِّ كَانُوا يَهُوداً، لذكرهم مُوسَى عليه السَّلام وكتابه، وَعَدَمِ ذِكْرِهِمْ عِيسَى عليه السَّلام والكتاب الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ.

● ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أي: مُصَدِّقًا لِمَا سَبَقَ إِنْزَالُهُ مِنْ كُتُبِ رَبَّانِيَّةٍ، ولِلأنبياء والرُّسُلِ السَّابِقِينَ لِلرُّسُولِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ هذا الكتاب الَّذِي سَمِعْنَا بَعْضَ آيَاتِهِ الْمُنْزَلَاتِ.

الزمان الماضي هو ما بين يدي الأحياء المدركة، وأما المستقبلُ فهو الَّذِي يَكُونُ خَلْفَهُمْ لِأَنَّهُمْ يَجْهَلُونَهُ.

● ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: أي: يَهْدِي بِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ من بيانٍ إلى أَصْلَيْنِ رَئِيسَيْنِ، هما:

الأصل الأول: الحق في بيان العقائد الإيمانية، وفي بيان الأخبار الماضية والحاضرة والمستقبلية، وفي بيان ما في الكون.

الأصل الثاني: الطريق المستقيم، وهو طريق سلوك ذوي الإرادات الحرة، في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، سواء أكان سلوكاً ظاهراً أم باطناً.

يقال لغة: هدى فلان فلاناً الطريق، وهده له، وهده إليه، أي: عرفه به، وبيّنه له.

هذه هي المقالة الأولى التي وجهوها لقومهم في دغوتهم قومهم إلى دين الإسلام.

● ﴿يَقَوْمًا لِّمِيبُوا دَاعِي اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ نداء دعوِي بَعْدَ النداء التمهيدي الأول. أي: يا قومنا أطيعوا داعي الله فيما يدعو إليه من إيمان وعمل.

يقال لغة: أجاب دعوة الداعي، أي: قبل دعوته، وأطاعه، وحقّق ما طلب منه.

وصفوا الرّسول محمّداً بأنّه داعي الله، أي: الداعي المبلّغ دين الله.

وكذلك وصّفوا القرآن بأنه داعي الله، أي: البَيانُ المبيّن دين الله.

وكُلُّ منهما ينادي: استجيبوا لدعوة الله، وأطيعوه، ولا تعصوا، ونحن نناديكم فندعوكم إلى قبول الدعوة، والطاعة، والاستجابة بالإيمان بالحق، وسلوك الطريق المستقيم في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا.

● ﴿وَأَمِنُوا بِهِ﴾: الضمير يعود على الداعي، وهو يشمّل الرّسول والقرآن، أما الرّسول فلائّه رّسول الله الذي يُبلّغ عن الله كتابه، وبيانات الدين الذي أرسله الله به، وأمّا القرآن فلائّه كِتَابُ الله المُشتمِلُ على مطلوب الله من عباده في رحلة امتحانهم.

● ﴿يَقْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾: أي: يَسْتُرْ لَكُمْ بغض ذُنُوبِكُمْ بسبب الإجابة والإيمان، وإذا سَتَرَهَا فَإِنَّهُ لَا يُحَاسِبُكُمْ عَلَيْهَا، ولا يجازيكم بعذابٍ عليها. ذكروا بعض الذنوب احترازاً من الذُّنُوبِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِهَا حَقُوقُ العباد.

غَفِرُ الذُّنُوبِ سَتَرَهَا، وَفَوْقَهُ الْعَفْوُ، وَفَوْقَهُمَا رَفَعُ الْجَنَاحِ، وَفَوْقَهَا جَمِيعاً أَنْ يُبَدِّلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ الْمَذْنِبِينَ حَسَنَاتٍ.

● ﴿وَيُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾: أي: وَيَحْمِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ فِي جَهَنَّمَ، فلا يُعَذِّبُكُمْ بِالْحَرِيقِ فِيهَا بِسَبَبِ إِيْمَانِكُمْ، فالإيمانُ يكون سبباً في وقايتكم.

يقال لغة: أَجَارَ فُلَانٌ فُلَاناً، أي: حَمَاهُ، وَحَفِظَهُ، وَدَفَعَ عَنْهُ مَا يَكْرَهُ، وَوَقَاهُ مِمَّا اسْتَجَارَ بِهِ مِنْهُ.

فالجنُّ يَعَذِّبُونَ فِي النَّارِ كَالْإِنْسِ، إِذَا كَانُوا مِنَ الْكَافِرِينَ الْمَجْرَمِينَ.
ومن أَجَارَهُ اللهُ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ أَذْخَلَهُ الْجَنَّةَ لَا مُحَالَةَ، سواءً أكان من الإنس أم من الجنِّ، لقول الله عزَّ وجلَّ خطاباً للجنِّ والإنس في سورة (الرَّحْمَنُ/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ فَإِنَّا إِلَهُكُمْ فَاتَّقُوا رَبَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿٤٧﴾

ومعلوم أن المتقين من الجنِّ قد خافوا مقام ربهم يوم الدين.

الفعلان ﴿يَقْفِرْ﴾ و﴿يُجْزِئُ﴾ مجزوان على أنَّهما واقِعَانِ فِي جَوَابِ الطَّلَبِ فِي: ﴿أَجِيبُوا دَعَايَ اللَّهِ﴾.

● ﴿وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَعَايَ اللَّهِ﴾: أي: وَمَنْ يَغْصِ بِعَدَمِ إِجَابَتِهِ دَعْوَةَ الرَّسُولِ، وَدَعْوَةَ الْقُرْآنِ، إِلَى الْإِيْمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ لِلْمَوْضُوعَيْنِ مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ رَبِّهِمْ. ﴿مَنْ﴾ اسْمُ

شَرْطُ جَازِمٍ ﴿لَا يُحِبُّ﴾ الْفِعْلُ مجزوم على أنه فِعْلُ الشَّرْطِ. وجوابه دَلَّتْ عليه عبارة:

● ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾: أي: فَلَيْسَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَفْلِتَ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ، مَهْمَا كَانَتْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى الْهَرَبِ، وَاجْتِيَازِ الْمَسَافَاتِ بِسُرْعَاتٍ فَائِقَاتٍ، إِذْ هُوَ مُحَاطٌ بِقُدْرَةِ الرَّبِّ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ الْأَبْعَادِ، الَّتِي يَتَوَهَّمُ أَنَّه يُمَكِّنُ أَنْ يَهْرَبَ إِلَيْهَا، بِقُدْرَاتِهِ الْعَفْرِيَّةِ.

وقد جاءت هذه العبارة كِنَايَةً عَنْ جَوَابِ الشَّرْطِ، الَّذِي يَدُلُّ دَلَالَةً مُبَاشِرَةً عَلَى نُزُولِ الْعِقَابِ بِهِ لَا مُحَالَةً.

والمعنى: فَهُوَ مُعَذَّبٌ عَذَابًا أَلِيمًا لَا مُحَالَةً، فَلَوْ حَاوَلَ الْهَرَبَ لِيُفْلِتَ مِنَ الْعَذَابِ، فَلَيْسَ بِمُعْجِزِ الْمَلَائِكَةِ الْمَأْمُورِينَ بِالْقَبْضِ عَلَيْهِ، وَبِتَعْذِيبِهِ، وَبِإِذْخَالِهِ جَهَنَّمَ دَارَ عَذَابِ الْكَافِرِينَ الْمَجْرَمِينَ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُعْجِزَ اللَّهَ هَرَبًا، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُ وَمَتَّحَهُ قُدْرَاتِهِ الَّتِي يَقْطَعُ بِهَا الْمَسَافَاتِ الشَّاسِعَاتِ، بِسُرْعَاتٍ فَائِقَاتٍ.

وَجَاءَتْ عِنَايَةُ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْجَنِّ، بِالتَّوْجِيهِ فِي دَعْوَتِهِمْ لِقَوْمِهِمْ، لِحَقِيقَةِ أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ رَبَّهُمْ فِي الْأَرْضِ، إِذَا أَرَادَ اللَّهُ مُعَاقَبَتَهُمْ، نَظْرًا إِلَى أَنَّ قَوْمَهُمْ مِنْ صِنْفِ الْجَنِّ الطَّيَّارِينَ، الَّذِينَ قَدْ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى الْهَرَبِ مِنْ جُنُودِ اللَّهِ، بِسَبَبِ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ سُرْعَاتٍ فَائِقَاتٍ.

● ﴿وَلَيْسَ لِمَنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾: أي: وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ نُصَرَاءُ يَنْصُرُونَهُ، فَيَذْفَعُونَ عَنْهُ عَذَابَ اللَّهِ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَكُفْرِهِ.

الأولياء: هُنَا النُّصَرَاءُ الَّذِينَ يَخْرِضُونَ عَلَى نُصْرَةِ أَتْبَاعِهِمْ، أَوْ إِخْوَانِهِمْ، وَالَّذِينَ كَانُوا فِي أَرْزَامِ الْامْتِحَانِ يَحْرِضُونَ مِنْ يَتَّبِعُهُمْ عَلَى الْإِثْمِ وَالظُّلْمِ وَنَشْرِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

● ﴿..أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٢): جاءت الإشارة إلى ﴿وَمَنْ لَا يُحِبَّ دَاعِيَ اللَّهِ﴾ باسم الإشارة الذي يُشارُ به إلى الجمع، نظراً إلى أن اسم الشرط «مَنْ» له اعتباران، فلفظه لفظٌ مُفْرَدٌ، ومعناه قَدْ يكون جمعاً، فعلى لفظه يُعامل معاملة المفرد، وعلى اعتبار معناه يجوز معاملته معاملة الجمع.

وجاء اسم الإشارة الموضوع للمشارٍ إليهم البعيدين، للإشعار بِبُعْدِهِمْ مُتَسَفِّلِينَ في اتجاه الدرك الأسفل، أو هم من أهل الدرك الأسفل من النار، وهذا البُعد السَّحِيقُ قَدْ أَبْعَدَهُمْ عن تَنْزِلَاتِ رَحْمَاتِ اللَّهِ، إِذْ جَعَلُوا بَيْنَهُمْ وبينها حُجُباً من الكُفْرِ بِاللَّهِ وِبرُسُولِهِ وَبِكِتَابِهِ، وَعَدَمِ اتِّبَاعِهِمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لعباده الموضوعين موضع الامتحان، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِ.

ونلاحظ في دَعْوَةِ هؤلاء الفضلاء من الجن، أَنَّهُمْ اخْتَارُوا لِدَعْوَتِهِمْ قَوْمَهُمْ، التوجيه للكلّيات الكبرى، الَّتِي تَقَعُ فِي الدَّرَجَةِ الْأُولَى مِنَ الْأُولَوِيَّاتِ الدَّعَوِيَّةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ.



ثانياً:

ومما جاء في السُّنَّةِ بِشَأْنِ وفاداتٍ وفودٍ من الجنّ إلى الرسول محمد ﷺ، لاستماع القرآن، ولتلقّي ما يُحَدِّثُهُمْ به من قضايا الدين ما يلي:

(١) روى البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وغيرهم عن ابن عباسٍ قال: انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ.

قَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ، فَأَضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، لِتَعْرِفُوا مَا هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ.

فَانْطَلَقُوا فَضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، يَنْظُرُونَ مَا هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ.

قال: فَانْطَلَقَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِنَخْلَةٍ^(١)، وَهُوَ عَامِدٌ إِلَى سُوقِ عُكَازٍ^(٢)، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَسَمَّعُوا لَهُ، فَقَالُوا: هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهَنَالِكَ رَجِعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الْآرْشِدِ قَاتِمًا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ:

﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ۖ وَإِنَّمَا أُوْحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ.

وَرُوي عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ جُنِّ نَصِيبِينَ.

(٢) وَرُوي مُسْلِمٌ عَنْ عَلْقَمَةَ، قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ، فَقُلْتُ، هَلْ شَهِدَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْجِنِّ؟.

قَالَ: لَا، وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ. فَفَقَدْنَاهُ، فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالشَّعَابِ. فَقُلْنَا: اسْتَطِيرَ^(٣)، أَوْ اغْتِيلَ.

قال: فَبِثْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٌ مِنْ قِبَلِ جِرَاءٍ.

(١) نخلة: أخذ واديين على ليلة من مكة في اتجاه الطائف، يقال لأحدهما: نخلة الشامية، ويقال للآخر: نخلة اليمانية.

(٢) عكاظ: مكان قريب من الطائف.

(٣) استطير: أي: طارت به الجن.

قال: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَدْنَاكَ، فَطَلَبْنَاكَ، فَلَمْ نَجِدْكَ، فَبَشَّرَ لَيْلَةً بَاتَ بِهَا قَوْمٌ. فقال:

«أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ، فَذَهَبْتُ مَعَهُ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ» قال: فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ، وَأَثَارَ نِيرَانِهِمْ، وَسَأَلُوهُ الزَّادَ، فقال: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا، وَكُلُّ بَغْرَةٍ عُلْفٌ لِدَوَابِّكُمْ». فقال رسول الله ﷺ:

«فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا، فَإِنَّهُمَا طَعَامٌ إِخْوَانِكُمْ».

وروي عن ابن مسعود أنهم سبعة أخذهم زُوبعة، وروي عنه أنهم كانوا تسعة.

وظاهر أَنَّ مَا جَاءَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، يَدُلُّ عَلَى وَفَادَةِ لِلْجِنِّ غَيْرِ الْوَفَادَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْحَدِيثُ الَّذِي جَاءَ ذِكْرُهُ قَبْلَهُ.

وجاء بيانُ وَفَادَاتِ الْجِنِّ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي أَحَادِيثٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَنَفْهِمُ مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْمُتَعَدِّدَةِ، أَنَّ وَفَادَاتِ الْجِنِّ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ قَدْ كَانَتْ مُتَعَدِّدَةً، أَوْصَلَهَا بَعْضُهُمْ إِلَى سِتِّ وَفَادَاتٍ.

وَبَيَّأَ عَلَى هَذَا فَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الْجِنِّ) يَدُلُّ عَلَى حَادِثَةٍ غَيْرِ الْحَادِثَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا النَّصُّ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (الْأَحْقَافِ).

وَتَوَجَّدَ وَفَادَاتُ أُخْرَى لَمْ يَأْتِ بَيَانُ عَنْهَا فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

(٣) وَمِنْ هَذِهِ الْوَفَادَاتِ لِقَاءَ الرَّسُولِ ﷺ بِالْجِنِّ فِي مَكَّةَ، فِي مَكَانٍ يُعْرَفُ بِالْحَجُّونِ، وَيُوجَدُ فِيهِ الْآنَ مَسْجِدٌ يُسَمَّى «مَسْجِدَ الْجِنِّ».

وقد اسْتَضْحَبَ الرَّسُولُ ﷺ حِينَ أَرَادَ الْخُرُوجَ إِلَيْهِمْ، «عَبْدَ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ» وَأَجْلَسَهُ الرَّسُولُ فِي مَكَانٍ، وَخَطَّ عَلَيْهِ خَطًّا فِي الْأَرْضِ، وَقَالَ لَهُ: «لَا تُجَاوِزَهُ».

ثُمَّ مَضَى إِلَى الْحُجُونِ، وَابْنُ مَسْعُودٍ يَنْظُرُ، وَكَانَ الْجَنُّ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ كَثِيرِينَ، حَتَّى غَشَوْهُ مِنْ كَثَرَتِهِمْ، فَصَارَ ابْنُ مَسْعُودٍ لَا يَرَاهُ، فَأَسْمَعَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ الْقُرْآنَ.

وَسَأَلُوهُ الزَّادَ، فَرَوَدَهُمُ الْعَظَمُ مِنْ بَقَايَا طَعَامِ الْمُسْلِمِينَ، وَزَوَّدَهُمُ الْبَعْرَ، أَيُ: لِدَوَابِّهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي صَرِيحِ بَعْضِ الرِّوَايَاتِ.

وجاء في بعض الروايات كلمة «الرَّوْثُ» بدل «البعر».

(٤) وَمِنْ هَذِهِ الْوَفَادَاتِ لِقَاءُ الرَّسُولِ ﷺ وَفَدَا مِنْ الْجَنِّ بِالْمَدِينَةِ، بَعْدَ الْهَجْرَةِ، وَاسْتَضَحَبَ الرَّسُولُ مَعَهُ فِي هَذَا اللَّقَاءِ الزَّبِيرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَمَشَى بِهِ حَتَّى ابْتَعَدَ عَنِ الْجِبَالِ، وَوَصَلَ إِلَى أَرْضٍ فُضَاءٍ وَاسِعَةٍ.

قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: وَأَفْضَيْنَا إِلَى أَرْضٍ بَرَّازٍ، فَإِذَا رِجَالٌ طَوَالٌ كَأَنَّهُمُ الرَّمَّاحُ، مُسْتَثْفِرِي ثِيَابِهِمْ^(١)، مِنْ بَيْنِ أَرْجُلِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ غَشَيْتَنِي رِغْدَةً شَدِيدَةً، حَتَّى مَا تُمَسِّكُنِي رِجْلَايَ مِنَ الْفَرَقِ^(٢)، فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنْهُمْ، خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَنْبِهَامِ رِجْلِهِ فِي الْأَرْضِ خَطًّا، فَقَالَ لِي:

«أَقْعُدْ فِي وَسْطِهِ».

فَلَمَّا جَلَسْتُ ذَهَبَ عَنِّي كُلُّ شَيْءٍ أَجْدُهُ مِنْ رَبِيبَةٍ، وَمَضَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَتَلَا قُرْآنًا رَفِيعًا حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، ثُمَّ أَقْبَلَ حِينَ مَرَّ بِي فَقَالَ لِي: «الْحَقُّ». فَجَعَلْتُ أَمْشِي مَعَهُ، فَمَضَيْنَا غَيْرَ بَعِيدٍ، فَقَالَ لِي: «الْتَفَيْتَ فَأَنْظُرْ هَلْ تَرَى حَيْثُ كَانَ أَوْلَيْكَ مِنْ أَحَدٍ؟».

(١) الاستثفار بالثوب: هو لَمَّ أطرافه وأخذها مِنْ بَيْنِ الفخذين، فربطها في الوسط، وهذا عند الاستعداد للمصارعة ونحوها.

واستفار الحائض هو اتخاذها خِزْقَةً عَرِيضَةً بَيْنَ فَخْذَيْهَا تشدها في حزامها.

(٢) الفرق: الخوف.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْ سَوَاداً كَثِيراً، فَحَفَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَنَظَّمَ عَظْماً بَرُوثاً^(١)، ثُمَّ رَمَى بِهِ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ:

«رَشَدَ أَوْلَئِكَ مِنْ وَفْدِ قَوْمٍ، هُمْ وَفْدُ نَصِيبِينَ، سَأَلُونِي الزَّادَ، فَجَعَلْتُ لَهُمْ كُلَّ عَظْمٍ وَرَوْثَةً».

قال الزُّبَيْرُ: فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْتَنْجِيَ بِعَظْمٍ وَلَا رَوْثَةٍ أَبَداً.

قال الهيثمي في مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ: رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

فَالْعَظْمُ الَّذِي يَزِمِيهِ الْمُسْلِمُونَ يَجْعَلُ اللَّهُ مِنْهُ طَعَاماً لِإِخْوَانِهِمُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْجَنِّ، وَرَوْثُ دَوَابِّ الْمُسْلِمِينَ يَجْعَلُ اللَّهُ مِنْهُ طَعَاماً لِدَوَابِّ إِخْوَانِهِمُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْجَنِّ، لِذَلِكَ فَلَا يَحِلُّ لَنَا أَنْ نُنَجِّسَ لَهُمْ طَعَامَهُمْ، لَمَا فِي ذَلِكَ مِنْ إِيْذَاءٍ لَهُمْ، وَإِفْسَادٍ لَمَا جَعَلَ الرَّسُولُ ﷺ لَهُمْ وَلِدَوَابَّهُمْ مِنْ طَعَامٍ.



احتمال حضور الجن مجالس الرسول اليومية:

واحتمال أن من الجن من كانوا يحضرون مجالس الرسول ﷺ اليومية، لتلقي المعارف الدينية، وتبليغها لأقوامهم، احتمال قائم، وهو الراجح، لأنهم بعد أن يتبلغوا ويؤمنوا، فإنه يجب عليهم أن يتعلموا أمور الدين الذي آمنوا به، واتبعوا رسوله، وإن كنا لا نملك دليلاً من القرآن والسنة على هذا.



(١) أي: جمعهما بيده.

تمة متفرقات عن الجن في النصوص القرآنية: النص الأول:

قول الله عز وجل في سورة (الناس/ ١١٤ مصحف/ ٢١ نزول):

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ سَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

جاء في هذه السورة ذِكرُ للجن الذين يُوسسونَ في صُدُورِ الناس، لإغوائهم، وإغرائهم، بمغصية الله، وبفعل الشر، وهؤلاء هم من شياطين الجن.

الجن والجنة: لفظان يُطلقان على جنس من مخلوقات الله عز وجل، يشبهون في صفاتهم النفسية الإنس، ويختلِفون عن الإنس في تكوين أجسادهم، وهم مسْتُورُونَ عن أعين الإنس.

النص الثاني:

قول الله عز وجل في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) مُتَحَدِّياً للإنس والجن أن يأتوا بِمِثْلِ هذا القرآن، الذي يُنزلُهُ على رُسُوله مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ، وقد أمرَ الله رُسُوله بأن يُوجِّه هذا التحدي:

﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴿٨٨﴾﴾.

وبدأ الله بالإنس لأنهم المغنيون بالدرجة الأولى بالتحدي، ولأنهم الأقدَر بياناً، والأعْلَم بمواطن الإعجاز البلاغي.

[ظهيراً]: الظهير: المعين.

النص الثالث:

قول الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بشأن طائفة من المشركين الَّذِينَ جَعَلُوا بَغْضَ الْجَنِّ شُرَكَاءَ لِلَّهِ:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَمْ يَنْبِ وَبَنَتِ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٣١﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿وَخَرَقُوا لَمْ يَنْبِ وَبَنَتِ﴾: أي: واختلقوا افتراءً وكذباً، فَنَسَبُوا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ، مَعَ أَنَّهُ - جَلُّ جَلَالِهِ وَعَظَمُ سُلْطَانِهِ - مُبْدِعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ، وَيَسْتَحِيلُ عَقْلاً أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، أَوْ أَنْ تَكُونَ لَهُ صَاحِبَةٌ.

كَيْفَ يَكُونُ لَهُ صَاحِبَةٌ أَوْ وَلَدٌ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ.

النص الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

أي: وَكَذَلِكَ الَّذِي حَصَلَ مِنْ عَدَاوَةِ الْمُشْرِكِينَ وَأَوْلِيائِهِمْ مِنَ الْجِنِّ لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، جَعَلَ اللَّهُ عز وجل بمقتضى التكوين الْقَدَرِيِّ العام، الَّذِي هُوَ نَتِيجَةُ طَبِيعِيَّةٍ لَجْعَلِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مُخَيَّرِينَ غَيْرَ مُجْبُورِينَ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ، أَنْ يُوجَدَ فِي الْإِنْسِ وَالْجِنِّ كُفْرَةٌ مُجْرِمُونَ، وَأَنْ يَكُونُوا بِمَقْتَضَى كُفْرِهِمْ أَغْدَاءَ لِلْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْهُدَى، وَأَعْدَاءَ لِدَعَاةِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْهُدَى.

وَفِي مُقَدِّمَةِ هَؤُلَاءِ الدَّعَاةِ رُسُلُ اللَّهِ وَأَنْبِيَآؤُهُ.

وحين يَلْتَقِي الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى مُعَادَاةِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْهُدَى،
فَلَا بُدَّ أَنْ يُوجِيَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ خُطَطَ مُقَاوَمَةٍ هَؤُلَاءِ الدُّعَاةِ، وَمُقَاوَمَةٍ
وَمُقَارَعَةٍ وَقَمَعَ دَعْوَتَهُمْ، بِأَقْوَالٍ بَاطِلَةٍ، إِلَّا أَنَّهَا مُزَيَّنَةٌ بِزُخْرُفٍ ذَهَبِيٍّ فِي
صُورَتِهِ الظَّاهِرَةِ، لِلإِغْرَاءِ وَالإِغْوَاءِ.

الرُّخْرُفُ: الذَّهَبُ.

﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾: أي: الكلامُ المزيَّنُ بما يَخْدَعُ وَيَغُرُّ، لِتَزْيِينِ الْبَاطِلِ
وَالْكَذِبِ، شُبَّهَ الْكَلَامُ الْبَاطِلُ الْمَزَيَّنُ الْمُنَمَّقُ بِالْأَشْيَاءِ الْحَقِيرَةِ الْمُزَخْرَفَةِ
بِالذَّهَبِ، طَلَاءً أَوْ نَحْوِهِ.

النص الخامس:

قول الله عز وجل في سُورَةِ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً:

﴿...وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجْدِلُواكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ
لَمُشْرِكُونَ﴾ (١١٦).

أي: وَإِنْ أَطَعْتُمُ الْمُشْرِكِينَ فِيمَا أَوْحَتْ بِهِ إِلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ، أَوْصَلُوكُمْ
إِلَى الشَّرِّ حَتْمًا، وَعِنْدَئِذٍ سَتَكُونُونَ مُشْرِكِينَ مِثْلَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لَهُمْ، إِذْ صَارَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ مُنَاصَرَّةٌ وَتَعَاوُنٌ عَلَى الْإِثْمِ
وَالْعُدَاوَانِ وَمَغْصِبَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

الشَّيَاطِينُ: كفرة الجنِّ، وجنودُ إبليس المَضَلَّلُونَ بِالإِغْرَاءِ وَتَزْيِينِ
الْبَاطِلِ.

النص السادس:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَنْمُقِشَرُ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْرَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ
أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمِعْ بَعْضَنَا بَعْضًا وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ
النَّارُ مَثُونٌ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١١٨) وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ

بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمْعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ❖

❖ وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرِ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ❖ :

الْمَعْشَرُ: كُلُّ جَمَاعَةٍ أَمْرُهُمْ واحد.

أي: وَيَوْمَ يَخْشَرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عُصَاةَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَمِيعًا، لِلْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، يُنَادِيهِمْ قَائِلًا: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَّا اتِّخَاذِ أَوْلِيَاءَ مِنَ الْإِنْسِ، تَنْصُرُونَهُمْ وَيَنْصُرُونَكُمْ عَلَى الضَّلَالِ وَالْإِثْمِ وَالْعِصْيَانِ.

فَيَعْتَرِفُونَ بِخَطَايَاهُمْ، هُمْ وَأَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ، لِأَنَّهَا مُسَجَّلَةٌ عَلَيْهِمْ بِالصُّورَةِ وَالصُّوَرِ وَالْأَفْكَارِ وَالنِّيَّاتِ، ذَلَّ عَلَى هَٰذَا الاعْتِرَافِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ:

❖ وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ❖ :

أي: وَجَدْنَا فِي التَّنَاصُرِ فِيمَا بَيْنَنَا مَنَافِعَ اسْتَمْتَعَ بِهَا بَعْضُنَا بِمَنَاصِرَةِ بَعْضٍ، وَهَٰذَا الَّذِي جَعَلْنَا نَرْكَبُ مَرَائِبَ الْمَعْصِيَةِ، وَيَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَوْلِيَاءَ.

❖ وَكَلَفْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا. ❖ :

أي: وَاسْتَمَرَّ حَالُنَا كَذَلِكَ، حَتَّى انْتَهَتْ أَجَالُنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَمَا قَضَيْتَهَا وَقَدَّرْتَهَا لَنَا يَا رَبَّنَا دُونَ أَنْ نَتُوبَ مِنْ آثَامِنَا.

❖ قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ. ❖ :

أي: قَالَ اللهُ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، وَهَٰذَا عَلَى سَبِيلِ حِكَايَةِ مَا سَوْفَ يَقَعُ فَكَأَنَّهُ وَقَعَ فِعْلًا، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ حَتْمًا، فَهُوَ يَشْبُهُ أَمْرًا وَاقِعًا:

﴿النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ﴾ : أي: النار مكان إقامةكم واستقراركم.
 يُقال له: ثَوَى بالمكان يَثْوِي ثَوَاءً وَثَوِيًّا، أي: أقام به واستقر.
 ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ : أي: باقين فيها دوماً بلا نهاية.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ : الذي يظهر أن بغضهم قد يكون مع كثرة جرائمه وآثامه، قد بقي لديه الإيمان بكلمة التوحيد، وبها يستحق الخروج من النار، والدخول في الجنة، فقال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وهذا يرجع إلى علم الله بعبيده، ومشيئته المطلقة التي لا تفارق حكمته.
 وهذا يكون بحسب ظاهره من الكفرة الخالدين في عذاب النار.
 • ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٢٩).

أي: وكذلك الذي حصل بين الجن وأوليائهم من الإنس من تناصر على الضلال، تجري سنة الله عز وجل في كل الظالمين، الإنس مع الإنس، والجن مع الجن، والإنس مع الجن.
 وسبق تدبر الآية (١٣٠) من هذا النص.

النص السابع:

قول الله عز وجل في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) في بيان بعض عقائد بعض المشركين، إذ جعلوا بين الله سبحانه وتعالى وبين سادات الجن وكبرائهم نسباً، افتراء على الله، والتزاماً بما يُثبت العقل بطلانه.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (١٥٨) ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٥٩) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ (١٦٠).

• قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب [المخلصين] بكسر اللام.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بفتح اللام على أنه اسم مفعول.

فَبَيَّنَ القراءَتَيْنِ تكامُلٌ في تأدية المعنى المراد، وقد يكون المراد بالمُخْلِصِينَ بفتح اللام، المغضومون من الجن، وهم أنبياءهم ورسلهم.

ذكر أبو حيان في البخر: أنه روي عن الكفار في ذلك مقالات شنيعات، منها أن الله سبحانه وتعالى صاهر سروات الجن، فولد منهم الملائكة، وهم فرقة من بني مذلج، وذكر أن بعض الكفار ذكر هذا الأمر لأبي بكر رضي الله عنه.

أقول: إن حَمَلَ لفظ «الجنة» على الجن، هو الذي يتفق مع الاستعمالات القرآنية لهذه اللفظة، وهو الذي يتسق مع السوابق واللواحق في السورة، ولا يصح حمل لفظ «الجنة» على الملائكة كما توهم بعضهم.

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (١٥٨):

أي: ولقد علمت الجنة الكافرون بما جاءهم من بلاغ عن الله إنهم لمُحْضَرُونَ في العذاب في نار جهنم. كُسِرَت همزة [إنهم] لوقوع اللام في خبر «إن».

دَلَّ على أن المراد بالجنة المحضرين في العذاب في نار جهنم الكافرون منهم، الاستثناء في قول الله عز وجل: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ (١٥٨) على القراءتين بفتح اللام وبكسرها. أي: إلا عباد الله الذين اصطفاهم الله من الجن بالنبوة، وإلا عباد الله الذين آمنوا بالله صادقين مُخْلِصِينَ، غير مُتَافِقِينَ ولا كاذبين.

وَحَمَلَ عبارة: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ على الإحضار في العذاب في نار جهنم، هو الذي يتناسب مع نظائر هذا النص في السورة، مع دلالة استثناء عباد الله المُخْلِصِينَ والمُخْلِصِينَ.

فقد جاء في هذه السورة بشأن قوم إلياس عليه السلام:
﴿كَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٧٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٧٨﴾﴾ :
فيها أيضاً القراءتان الآنفتان الذكر بفتح اللام وبكسرهما. ومعلوم أن
المكذّبين يُحْضَرُونَ إكراهاً في عذاب نار جهنم.
وجاء في هذه السورة أيضاً، بشأن مُحَاطَبَةِ الْمُؤْمِنِ وهو في الْجَنَّةِ،
لِلَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا قَرِينَهُ يُوسُوسُ لَهُ لِلْغَوِيَةِ:
﴿تَأْلَمَعُ قَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتَزْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا
نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ :
﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ : أي: فِي وَسْطِ الْجَحِيمِ. قال الرَّجَّاجُ: سَوَاءُ كُلِّ
شَيْءٍ وَسْطُهُ.

أي: ولولا نعمة ربّي عليّ إذ لَمْ أَسْتَجِبْ لِإِغْوَائِكَ، لَكُنْتُ مِنَ
الْمُحْضَرِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ كَمَا أَخْضَرْتَ أَنْتَ فِيهِ.

النص الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (سبا/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) يَغْرِضُ
لِقُطَّةٍ مِنْ مَّشَاهِدِ يَوْمِ الْحَشْرِ، وفيها يَسْأَلُ الْمَلَائِكَةُ عَنْ عِبَادَةِ بَغْضِ
الْمُشْرِكِينَ لَهُمْ كَمَا يَزْعُمُ الْمُشْرِكُونَ:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١﴾ قَالُوا
سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾﴾ :

هذا النص يدلّ على أنّ الجنّ كانوا في الدُّنْيَا يَخْدَعُونَ أَوْلِيَاءَهُمْ مِنَ
الْإِنْسِ، فَيَكْذِبُونَ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ يَزْعُمُونَ لَهُمْ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ، مِنْ أَهْلِ الْمَلَأِ
الْأَعْلَى، فَيَسْتَسْلِمُونَ لَهُمْ، وَيَطِيعُونَهُمْ فِيمَا يَأْمُرُونَهُمْ بِهِ، مُشَارِكِينَ اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَّ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، لِيَحْقِّقُوا مَا تَكْفَلُ بِهِ إِبْلِيسُ مِنْ إِغْوَاءِ بَنِي آدَمَ، وَسَوْقِهِمْ
مَعَهُ إِلَى جَهَنَّمَ يَوْمَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ.

النص التاسع:

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) بِشَأْنِ قُرْنَاءِ الْإِنْسِ مِنْ شَيَاطِينِ الْجَنِّ، الَّذِينَ يُوسْوِسُونَ فِي صُدُورِهِمْ بِالشَّرِّ، إِغْرَاءً وَمُخَادَعَةً لِيُغْوُوهُمْ، وَيَجْعَلُوهُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَالنَّصُّ يَتَحَدَّثُ عَنِ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِقُرْنَائِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْجَنِّ، فَحَقَّ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الدِّينِ أَنَّهُمْ فِي الْعَذَابِ خَالِدُونَ:

﴿وَقِضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (٢٥):

● ﴿وَقِضْنَا لَهُمْ﴾: أي: وهَيَّأْنَا لَهُمْ. [قرناء] جمع «قرين» وهو المقارنُ المصاحب، وهؤلاء القرناء هم من الجن، مُهَيَّؤُونَ لِلْوَسْوَسَةِ فِي الصُّدُورِ، وَلِلْإِغْوَاءِ وَالِاسْتِدْرَاجِ إِلَى الْإِثْمِ وَالْغَوَايَةِ، وَهُمْ شَيَاطِينُ مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ.

وَيُقَارَنُ الْإِنْسَانُ مَعَ الْقَرِينِ مِنَ الشَّيَاطِينِ، قَرِينٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يُزَيِّنُ لَهُ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَالصَّالِحَاتِ، وَيُقَبِّحُ لَهُ فِعْلَ الْآثَامِ وَالْمُنْكَرَاتِ، فَتَتَعَادَلُ الْكُفْتَانُ، وَإِرَادَةُ الْإِنْسَانِ الْحُرَّةُ هِيَ الْمَرْجَحَةُ ذَاتُ الْيَمِينِ أَوْ ذَاتُ الشَّامَلِ.

● ﴿فَزَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: أي: فَحَسَّنُوا لَهُمْ مَا كَانُوا قَدْ فَعَلُوهُ مِنْ إِثْمٍ وَبَغْيٍ وَعِصْيَانٍ، فَهُوَ يَزَيِّنُ أَيْدِيَهُمْ فِي جَانِبِ الْمَاضِي إِذْ هُوَ مَعْلُومٌ لَهُمْ. وَلَهُ فِي نَفْسِهِمْ ذِكْرِيَّاتٌ لَذَاتِ، وَحَسَّنُوا لَهُمْ أَنْ يَزْتَكِبُوا الْآثَامَ وَالْمُنْكَرَاتِ وَالْمَعَاصِيَ فِي مُسْتَقْبَلِ حَيَاتِهِمْ، فَالْمُسْتَقْبَلُ خَلْفُهُمْ، إِذْ هُوَ مَجْهُولٌ لَهُمْ غَيْرُ مَعْلُومٍ ﴿وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾.

● ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾: أي: وَحَقَّ عَلَيْهِمْ قَوْلُ اللَّهِ الْمَبِينُ مَصِيرُ الْكَافِرِينَ الْمَجْرَمِينَ، بِأَنَّهُمْ فِي عَذَابِ النَّارِ خَالِدُونَ.

● ﴿فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾: أي: وَحَقَّ عَلَيْهِمْ

القولُ حَالَةٌ كَوْنُهُمْ دَاخِلِينَ فِي عُمُومِ أُمَّةٍ كَافِرَةٍ مُجْرِمَةٍ، قَدْ مَضَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ.

● ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾: أي: إِنَّهُمْ صَارُوا بِمَا قَدَّمُوا مِنْ سُوءِ إِيْمَانٍ وَعَمَلٍ خَاسِرِينَ كُلَّ شَيْءٍ، إِذْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِاخْتِيَارِ سُلُوكِ طَرِيقِ جَهَنَّمَ، دَارِ عَذَابِ الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمِينَ، الَّتِي يَخْلُدُونَ فِيهَا وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ، وَهَذَا هُوَ الْخَسْرَانُ الْأَعْظَمُ.

النص العاشر:

قول الله عز وجل في سُورَةِ (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) أَيْضاً
بَيَاناً لِمَا يَقُولُهُ الْكَافِرُونَ وَهُمْ يُعَذِّبُونَ فِي النَّارِ:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ آمَنَّا مِنَ الْيَحْيِ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا نَحْتَهُ أَقْدَامَنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٢٩).

النص الحادي عشر:

قول الله عز وجل في سورة (الذَّارِيَّاتِ/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨):

﴿الْمَتِينُ﴾: الصُّلْبُ الشَّدِيدُ الْقَوِيُّ. يُقَالُ لُغَةً: مَتْنُ الشَّيْءِ يَمْتَنُ مَتَانَةً، أَيُّ: صُلْبَ وَاشْتَدَّ وَقَوِيَ، وَلَفْظُ «الْمَتِينِ» مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى.

أي: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِمْتَحِنِينَ مُخْتَبَرِينَ، إِلَّا لِيَكُونَ الْمَطْلُوبُ مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ أَنْ يَغْبُدُونِي، لَا أَنْ يُقَدِّمُوا لِي رِزْقاً وَلَا أَنْ يُقَدِّمُوا لِي طَعَاماً، كَمَا يَتَوَهَّمُ الْمُشْرِكُونَ، إِذْ يُقَدِّمُونَ الْقَرَابِينَ وَالْأَزْزَاقَ وَالْأَطْعِمَةَ لَشُرَكَائِهِمْ.

وَإِذْ تَسَاوَى الْجَنُّ وَالْإِنْسُ فِي الْإِبْتِلَاءِ وَالتَّكْلِيفِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ
لِكُلِّ مِنْهُمَا حِسَابٌ وَجَزَاءٌ بِالثَّوَابِ أَوْ بِالْعِقَابِ، عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِهِمْ.

النَّصُّ الثَّانِي عَشَرَ:

قول الله عز وجل في سورة (السَّجْدَةِ/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣):

أي: وَلَوْ شِئْنَا أَنْ نُؤْتِيَ كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا بِسُلْطَانِ الْجَبْرِ، لَسَلَبْنَا الْجَنُّ
وَالْإِنْسَ اخْتِيَارَاتِهِمْ وَإِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةَ، وَلَجَعَلْنَاهُمْ مَجْبُورِينَ غَيْرَ مُخَيَّرِينَ،
وَجَبِينِذٍ يَكُونُ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ نُؤْتِيَ كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا، إِذْ لَا تَكُونُ نَفْسٌ
مَجْبُورَةً عَلَى الضَّلَالَةِ، لِمُنَافَاةِ هَذَا لِحِكْمَةِ الْحَكِيمِ وَعَدْلِهِ.

وَلَكِنْ قَضَيْتِ الْحِكْمَةُ بِأَنْ يَكُونَ الْجَنُّ وَالْإِنْسُ مُخَيَّرِينَ لِإِبْتِلَاءِ إِرَادَاتِهِمْ
فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَعَمِلَ صَالِحًا، كَانَ مِنْ أَهْلِ دَارِ
النَّعِيمِ، وَمَنْ كَفَرَ وَعَصَى كَانَ مِنْ أَهْلِ دَارِ الْعَذَابِ، وَإِذْ سَيَكُونُ هَؤُلَاءِ هُمُ
الْأَكْثَرِينَ بِحَسَبِ سَابِقِ الْعِلْمِ بِحَالِهِمْ وَاخْتِيَارَاتِهِمْ، فَقَدْ حَقَّ وَثَبَتَ الْقَوْلُ
مِنِّي:

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

النَّصُّ الثَّالِثُ عَشَرَ:

قول الله عز وجل في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿يَمَعَشَرُ الْجَنُّ وَالْإِنْسُ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
فَأَنْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (٣٣) ﴿فَإِنِّي مَآلِكَةٌ مُنْكَذِرَانِ﴾ (٣٤) ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا
شَوْابٌ مِّنْ نَّارٍ وَنَحَّاسٌ فَلَا تَنْصَرَانِ﴾ (٣٥).

المَغْشَرُ: كُلُّ جَمَاعَةٍ أَمْرُهُمْ وَاحِدٌ، وَخَطَابُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ مَعاً يُشْعِرُ
بَأَنَّ اللَّهَ يَتَحَدَّى كَفَرَةَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، إِذْ يَجْمَعُهُمْ جَامِعُ الْكُفْرِ.

الشُّوَاطِ: اللَّهَبُ الَّذِي لَا دُخَانَ لَهُ.

وَالنَّفُودُ مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ هُوَ الْخُرُوجُ عَنْ دَائِرَةِ الْكُؤْنِ
كُلِّهِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَسْتَطِيعُهُ مَخْلُوقٌ مَا.

أَمَّا الْوُصُولُ إِلَى الْقَمَرِ وَالْمَرِيخِ وَنَحْوَهُمَا، فَهُوَ تَجَوُّلٌ فِي أَقْطَارِ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا تُفَوِّدُ مِنْهُمَا وَخُرُوجٌ عَنْهُمَا.

النص الرابع عشر:

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الرَّحْمَنِ/ ٥٥ مَصْحَف/ ٩٧ نَزُول) أَيْضاً
بِشَأْنِ أَخْدَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (٣٩):

إِذْ يَرَى كُلُّ وَاحِدٍ ذُنُوبَهُ مُسَجَّلَةً فِي كِتَابٍ عَمَلِهِ، شَرِيطاً مُسَجَّلاً
بِالصُّورَةِ وَالصُّوْتِ، وَالنِّيَّاتِ وَالْخَوَاطِرِ.

النص الخامس عشر:

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الرَّحْمَنِ) أَيْضاً بِشَأْنِ زَوَاجَاتِ الْمُؤْمِنِينَ
الْأَبْرَارِ مِنَ الثَّقَلَيْنِ، فِي الْجَنَّتَيْنِ الْمَعْدَّتَيْنِ لِلْإِنْسِ وَالْجَنِّ ضِمْنَ عُمُومِ الْجَنَّةِ
الْوَّاحِدَةِ:

﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْإِطْرَفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِنَّسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ (٥٦):

﴿قَصِيرَاتُ الْإِطْرَفِ﴾: أَي: يَقْصُرْنَ أَبْصَارَهُنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، فَلَا يَنْظُرْنَ
إِلَى غَيْرِهِمْ.

﴿لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ﴾: أَي: لَمْ يَفْتَضَّ بِكَارَتْهِنَّ إِنْسٌ قَبْلَ أَزْوَاجِهِنَّ وَلَا

جَانٌّ.

﴿إِنْسٌ﴾ : اسمُ جنسٍ لنوع الإنسان.

﴿جَانٌّ﴾ : اسمُ جنسٍ لنوع الجن.

النص السادس عشر:

قول الله عز وجل في سورة (الرَّحْمَنِ) أيضاً بشأنِ ما للمؤمنين المتقين

من حور عين:

﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ

إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٨﴾﴾.



(٥)

التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة

وهو الآيات من (١ - ١٥)

قال الله عز وجل:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِيَّائِيَ أَنَّهُ سَمِعَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنْتُمْ تَعْلَوْنَ جُدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَنِيعَهُ وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ يَقُولُ سَفِهْنَاهُ عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَبُوذُونَ رِجَالًا مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنْتُمْ ظَنُّوْا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثِمَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَحِذُّ لَهُمْ شُهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمِّنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تُعْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ تُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا وَمِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَدِيطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَدِيطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾:

تمهيد:

هذا الدرس يُبَيِّنُ قِصَّةَ نَفَرٍ مِنَ الْجِنِّ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ،
دُونَ أَنْ يَعْلَمَ بِحُضُورِهِمْ، وَلَا بِاسْتِمَاعِهِمْ، وَلَا بِأَقْوَالِهِمْ، حَتَّى أَوْحَى اللَّهُ
إِلَيْهِ بِذَلِكَ، وَيَشْتَمِلُ عَلَى ذِكْرِ أَقْوَالِهِمْ بِالتَّفْصِيلِ.

وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ قِصَّةُ هَؤُلَاءِ هِيَ الْقِصَّةُ الَّتِي جَاءَ ذِكْرُهَا فِي الْحَدِيثِ
الْأَوَّلِ، الَّذِي سَبَقَ بَيَانَهُ، لَدَى بَيَانِ بَعْضِ مَا جَاءَ فِي السَّنَةِ بِشَأْنِ وَفَادَاتِ
وَفُودٍ مِنَ الْجِنِّ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، وَهُوَ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ
وَأَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمْ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

التدبر:

● ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ . .﴾ ﴿١﴾:

بَدَأَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ السُّورَةَ بِخَطَابٍ لِّرَسُولِهِ يَأْمُرُهُ فِيهِ، بِأَنْ يُخْبِرَ عَنْ
وِفَادَةِ نَفَرٍ مِنَ الْجِنِّ لَاسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ مِنْهُ، دُونَ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِمَقْدَمِهِمْ إِلَيْهِ،
وَاسْتِمَاعِهِمُ الْقُرْآنَ مِنْ تِلَاوَتِهِ لَهُ، وَأَنْ الْعِلْمَ بِمَقْدَمِهِمْ إِلَيْهِ وَاسْتِمَاعِهِمُ الْقُرْآنَ
مِنْهُ، وَالْعِلْمَ بِمَا تَذَكَّرُوا بِهِ، وَبِمَا نَقَلُوهُ إِلَى قَوْمِهِمْ دُعَاءً، فَضَايَا أَوْحَى اللَّهُ
بِهَا إِلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ بِالنُّسْبَةِ إِلَيْهِ إِذْرَاكَ حِسِّيًّا مُبَاشَرًا فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ،
بَلْ جَاءَهُ بِشَأْنِهَا خَبَرٌ صَادِقٌ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْحَى اللَّهُ بِهِ إِلَيْهِ فِي قُرْآنٍ
يُتْلَى، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ.

وَفِي تَوْجِيهِ الْأَمْرِ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ بِكَلِمَةِ ﴿قُلْ﴾ تَكْلِيفٌ إِلْزَامِيٌّ لَهُ بِأَنْ
يُحَدِّثَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ أَنْ يَقُولَهُ، حَتَّى آخِرِ الْأَقْوَالِ الَّتِي قَالَهَا هَؤُلَاءِ النَّفَرُ
مِنَ الْجِنِّ، الَّتِي جَاءَ بَيَانُهَا فِي السُّورَةِ.

فَإِذَا اسْتَحْضَرْنَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ كَلَّفَهُ أَنْ يُبَلِّغَ كُلَّ الْقُرْآنِ، أَذْرَكْنَا
أَنْ تَكْلِيفَهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ . .﴾ وَحَتَّى آخِرِ

أَقْوَالَهُمْ، فِيهِ مَزِيدٌ تَأْكِيدٍ بَأَن يُعَلِّمَ النَّاسَ بِوَفْدِ الْجِنِّ وَأَقْوَالَهُمُ الْإِيمَانِيَّةَ.
وَنَسْتَفِيدُ مِنْ هَذِهِ الْعِبَارَةِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي بَدَأَ اللَّهُ بِهَا سُورَةَ (الْجِنِّ) عِدَّةَ
قَضَايَا:

القضية الأولى: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَلِّغُ الْمُؤْمِنِينَ بِحَادِثَةِ حُضُورِ نَفَرٍ مِنَ
الْجِنِّ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، وَاسْتِمَاعِهِمُ الْقُرْآنَ مِنْ تِلَاوَتِهِ، بِأَسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ،
مَعَ تَبْلِيغِ الرَّسُولِ بِطَرِيقَةٍ مُبَاشِرَةٍ، فَيَتَحَقَّقُ بِهَذَا تَبْلِيغَانِ، أَحَدُهُمَا مِنْ
قَبْلِ اللَّهِ، وَالْآخَرُ مِنْ قَبْلِ الرَّسُولِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَا يَأْمُرُ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَهُ يَتَضَمَّنُ بِلَاغًا مِنَ اللَّهِ
لِلْمُؤْمِنِينَ.

القضية الثانية: إِنْْعَادُ الشُّبْهَةِ الَّتِي كَانَ قَدْ طَرَحَهَا فِي بَدْءِ رِسَالَةِ
الرَّسُولِ بَعْضُ الْمَشْرِكِينَ، بِأَنَّ الْوَحْيَ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ هُوَ رِئْيٌ^(١) مِنَ
الْجِنِّ، كَانَ يَأْتِي إِلَيْهِ فَيُحَدِّثُهُ، إِذْ دَلَّتْ سُورَةُ (الْجِنِّ) عَلَى أَنَّ أَوَائِلَ وَفُودِ
الْجِنِّ لاسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ مِنْهُ، وَتَلْقَى مَعَارِفَ الدِّينِ عَنْهُ، لَمْ يَكُنِ الرَّسُولُ يَعْلَمُ
بِوَفَادَتِهِمْ إِلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ كَانَ لَهُ مَعَ الْجِنِّ لِقَاءٌ، لَا قَبْلَ الثُّبُوتِ وَلَا
بَعْدَهَا.

وَالْحَكْمَةُ مِنْ هَذَا أَنَّ لَا يَخْتَلِطُ عَلَى النَّاسِ الْأَمْرُ، وَيَخْدُثُ فِي قُلُوبِهِمْ
الشُّكُّ، فَيَخْلِطُوا بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَهُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبَيْنَ
لِقَاءَاتِ الرَّسُولِ لِلْجِنِّ، فَجَبْرِيلُ مَلَكٌ يُبَلِّغُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْجِنُّ عِبَادُ
مَمْتَحَنُونَ مَكْلُفُونَ مَتَلَفُونَ مَتَعَلِّمُونَ مِنَ الرَّسُولِ كَالْإِنْسِ، وَلِهَذَا لَمْ
يُهِئِ اللَّهُ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَلْتَقِيَ الْجِنُّ قَبْلَ الرِّسَالَةِ، مَعَ اسْتِعْدَادِهِ
الْفُطْرِيِّ لَذَلِكَ، وَلَمْ يُهِئِ لَهُ أَنْ يَلْتَقِيَهُمْ بَعْدَ الرِّسَالَةِ حَتَّى مَضَتْ مُدَّةٌ مِنَ

(١) الرِّئْيُ: بِفَتْحِ الرَّاءِ وَكَسْرِهَا، الْجَنِيُّ يَغْرِضُ لِلْإِنْسَانِ وَيُخْبِرُهُ بِمَا يَزْعَمُ أَنَّهُ مِنَ الْغَيْبِ.

رِسَالَتِهِ تَزِيدُ عَلَى تِسْعِ سِنِينَ، كَمَا تُدُلُّ أَحْدَاثُ السَّيْرِ المَحْمَدِيَّةِ، وَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ سُورَةً دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ اتِّصَالٌ بِالْجِنِّ، وَأَعْلَمَهُ اللهُ فِي سُورَةِ (الْجِنِّ/ ٤٠) نَزُولَ) بِأَنْ نَفَرُوا مِنْهُمْ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ مِنْهُ وَهُوَ يَتْلُوهُ، فَقَالُوا مَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ.

ثُمَّ أَعْلَمَهُ فِي سُورَةِ (الْأَحْقَافِ/ ٦٦) نَزُولَ) بِأَنَّهُ صَرَفَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ عَمَّا كَانُوا فِيهِ، وَبَعَثَهُمْ إِلَيْهِ، لِيَتَّبِعُوا الدِّينَ، وَيَرْجِعُوا إِلَى أَقْوَامِهِمْ مُبَلِّغِينَ دَعَاةً وَمُعَلِّمِينَ فَمُنْذِرِينَ، وَكَانَ هَذَا فِي الثَّلَاثِ الْآخِرِ مِنَ الْمَرَحَلَةِ الْمَكِّيَّةِ.

القضية الثالثة: إِبْلَامُ اللَّهِ النَّاسَ عَنْ طَرِيقِ تَكْلِيفِ رِسُولِهِ، بِأَنَّ الْجِنَّ مَخْلُوقُونَ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِلْإِنْسِ مَخْلُوقُونَ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَيْضًا لِهَذِهِ الْحِكْمَةِ، وَأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لِهَئِمَّا هِيَ دَارُ الْحِسَابِ، وَقُضِيَ الْقَضَاءُ، وَتَنْفِيزُ الْجَزَاءِ، وَأَنَّ الْجِنَّ مَكْلُفُونَ أَنْ يَسْتَمِعُوا آيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ، لِيَعْلَمُوا مَا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ ابْتِلَائِهِمْ كَالْإِنْسِ.

ولهذا جاء نَفَرٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ لاسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ، وَلِيَقُومُوا بِتَبْلِغِ أَقْوَامِهِمْ هَذَا الدِّينَ الَّذِي خَتَمَ اللَّهُ بِهِ رِسَالَتِهِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ.

وَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الْأَحْقَافِ/ ٤٦) مَصْحَفِ/ ٦٦) نَزُولَ) تَضَمَّنَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اصْطَفَى نَفَرًا مَخْتَارِينَ مِنَ الْجِنِّ فَصَرَفَهُمْ عَنْ اتِّجَاهَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ السَّابِقَاتِ الَّتِي كَانُوا مُشْتَغِلِينَ بِهَا، وَأَرْسَلَهُمْ إِلَى الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بِوَسِيلَةِ لَمْ يَذْكُرْهَا اللهُ لَنَا، لِيَتَّبِعُوا الْقُرْآنَ مِنْهُ، وَلِيَرْجِعُوا إِلَى أَقْوَامِهِمْ مُبَلِّغِينَ دِينَ اللَّهِ الْخَاتَمِ، الَّذِي أَنْزَلَهُ إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَمُنْذِرِينَ بِعَذَابِ اللَّهِ مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ مِنَ الْجِنِّ لِدَعْوَةِ هَذَا الدِّينِ الْعَامِّ الشَّامِلِ الَّذِي اصْطَفَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِتَبْلِغِهِ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ مِنَ الْإِنْسِ، وَهُوَ أَفْضَلُ رُسُلِ اللَّهِ وَأَنْبِيَائِهِ أَجْمَعِينَ.

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾: جاء لفظ ﴿أُوحِيَ﴾ بصيغة المبني لِما لَمْ يُسَمَّ فاعله، لأنَّ الفاعل المرسلَ لملك الوحي جبريل عليه السَّلام، قد صار معلوماً للمؤمنين والكافرين بأنَّه الله جلَّ جلاله وعظم سلطانه، بَعْدَ مُرور سنين على إعلانهِ نبوّته، وأنَّه رَسولُ الله، وأنَّه يَتَلَقَّى الوحي عنه.

الوحي: هو في اللغة الإعلامُ الخفيُّ السَّريُّ، مهما اختلفت أسبابُ هذا الإعلام، ولهذا فهو يُطلَقُ على الإيماء، وعلى الإشارة السريعة، وعلى الكلام الخفي، وعلى الكتابة، وعلى إلقاء المعنى في النفس، وعلى الإلهام، وعلى الرؤيا الصالحة الجليّة.

أما الوحي إلى الأنبياء والمرسلين، فهو ناموسُ الإعلامِ الرّبّانيِّ للمصطفّين من عباده لرسّالته، أو لنبوّته، وبوحي الله إليهم ينطبع فيهم ما يُنزلُه عليهم مِنْ مَعَانٍ أَوْ أَقْوَالٍ وَعُلُومٍ انطباعاً جليّاً واضحاً لا يَحْتَمِلُ الشكَّ، وتكونُ لديهم مَعَارِفٌ يَقِينَةٌ مَقْطُوعاً بها.

ونستطيع أن نُعرّف الوحي الخاصّ بالأنبياء والرُّسل بأن نقول: هو إعلام الله رسولاً من رُسُله أو نبياً من أنبيائه بما يشاء من كلام أو معنى بطريقة تُفِيدُ مَنْ يُوحى إليه العِلْمُ اليقينيُّ القاطع بما أعلمه الله به.

وَجُوهُ تَكْلِيمِ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ مِنْ عِبَادِهِ:

وقد أبان الله عزّ وجل أنَّ وَحْيَهُ إلى المصطفّين مِنْ عِبَادِهِ، له ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أن يَكُونَ بالإنلقاء في القلب مباشرةً من الله يقظةً أو مناماً.

وتحقيقه أن يَخْلُقَ اللَّهُ جَلَّ جلاله في قلبِ الموحى إِلَيْهِ المعصوم، علماً ضرورياً بإذراكِ مَا شاءَ اللَّهُ أنْ يُذَكِّرَكَ مِنْ كَلَامِهِ تبارك وتعالى.

الوجه الثاني: أَنْ يُسْمِعَ اللَّهُ الْمَوْحَى إِلَيْهِ كَلَامَهُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، كَمَا حَصَلَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الوجه الثالث: أَنْ يَكُونَ بَوَسَاطَةِ إِزْسَالِ رَسُولٍ مَلَكَ تُرَى صَوْرَتُهُ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا، وَقَدْ يَتِمَثَّلُ بِصُورَةٍ أُخْرَى، كَصُورَةِ إِنْسَانٍ، وَهُوَ يُبَلِّغُ النَّبِيَّ أَوْ الرَّسُولَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِتَبْلِيغِهِ إِيَّاهُ.

وهذا الوجه هو الغالبُ من وجوه الوحي بالنسبة إلى الأنبياء والمرسلين عليهم السَّلَامُ، فغالبُ أحوالهم أَنْ يَكُونَ الْوَحْيُ إِلَيْهِمْ بَوَسَاطَةِ رَسُولٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ فِي الْغَالِبِ أَمِينُ الْوَحْيِ، وَهُوَ الرَّسُولُ الَّذِي يُرْسِلُهُ اللَّهُ غَالِبًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، لِيَقُومَ بِالسَّفَارَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ مِنَ الْبَشَرِ.

وقد دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَى حَكِيمٍ ﴿٥١﴾﴾.

يقال لغة: أَوْحَى إِلَيْهِ، وَأَوْحَى لَهُ. وَيُقَالُ: وَحَى إِلَيْهِ، وَوَحَى لَهُ. وَالَّذِي اسْتُغْمِلَ فِي الْقُرْآنِ صِيغَةُ «أَوْحَى».

﴿اسْتَمَعَ﴾: أَي: سَمِعَ بَعْنَايَةٍ وَأَضْعَى، يُقَالُ لُغَةً: اسْتَمَعَهُ، وَاسْتَمَعَ إِلَيْهِ، وَاسْتَمَعَ لَهُ.

دَلَّتْ صِيغَةُ «افْتَعَلَ» بِزِيَادَةِ التَّاءِ، الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْعِنَايَةِ وَالتَّكَلُّفِ، عَلَى مَعْنَى الْقَضْدِ بَعْنَايَةٍ وَإِصْغَاءٍ وَإِنْصَابٍ.

﴿نَفَرٌ مِّنَ الْإِنِّ﴾: التَّفَرُّ: يَطْلُقُ لُغَةً عَلَى عَدَدٍ مِنَ الرِّجَالِ مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ.

فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا رِجَالًا مِنَ الْجِنِّ لَا نِسَاءَ، وَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ عَنِ ثَلَاثَةِ، وَلَا يَزِيدُونَ عَلَى عَشْرَةٍ.

وَحُذِفَ الْمَفْعُولُ بِهِ «الْمُسْتَمَعَ» لِفِعْلِ «اسْتَمَعَ» وَهُوَ الْقُرْآنُ، لِدَلَالَةِ مَا جَاءَ فِي الْآيَةِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ بَيَانِ قَوْلِهِمْ، ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾. وَهَذَا مِنْ قَبِيلِ الْحَذْفِ مِنَ الْأَوَائِلِ، لِدَلَالَةِ مَا فِي الْآخِرِ.

وَيُظْهَرُ أَنَّ مَا جَاءَ فِي السُّورَةِ مِنْ بَيَانِ أَقْوَالِهِمْ، هُوَ عَنَّاوَيْنُ الْمَقَالَاتِ الَّتِي تَحَدَّثُوا بِهَا، وَيَتَرَجَّحُ لَدِي أَنَّهَا مَقَالَاتٌ دَعْوِيَّةٌ وَجْهُوهَا لِقَوْمِهِمْ مِنَ الْجِنِّ.

أَمَّا الْقَضَايَا الَّتِي تَحَدَّثَ بِهَا هَؤُلَاءِ النَّفَرُ مِنَ الْجِنِّ، وَذَكَرَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي السُّورَةِ، مُقَرَّرًا لَهَا، وَمُثْنِيًّا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ إِيمَانٍ وَمِنْ التَّزَامِ بِأَنْ لَا يُشْرِكُوا فِي مُسْتَقْبَلِ حَيَاتِهِمْ بِرَبِّهِمْ أَحَدًا، بِأَسْلُوبِ ذِكْرِهَا إِخْبَارًا عَنْهُمْ، فَهِيَ سَبْعُ عَشْرَةَ قَضِيَّةً:

القضية الأولى:

دَلَّتْ عَلَيْهَا جُمْلَةٌ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾:

أَي: إِنَّا سَمِعْنَا كَلَامًا مُنْزَلًا فِي كِتَابٍ يُقْرَأُ قُرْآنًا جَدِيدًا بِالِاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ، وَتَدَبُّرِ مَعَانِيهِ، إِذْ هُوَ عَجَبٌ فِي مَبَانِيهِ، وَفِي مَعَانِيهِ.

لَفْظُ «قُرْآن» مُضَدَّر «قَرَأَ» وَأُطْلِقَ الْمُضَدَّرُ هُنَا عَلَى الْكَلَامِ الَّذِي يُقْرَأُ، وَالْقِرَاءَةُ تَكُونُ عَادَةً لِكَلَامٍ مَكْتُوبٍ، فَدَلَّ قَوْلُهُمْ:

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا﴾ عَلَى أَنَّهُمْ سَمِعُوا آيَاتِ كِتَابٍ يُقْرَأُ.

وَجَاءَ وَضْفُ هَذَا الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ «عَجَبٌ» فَقَالُوا: ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾. وَلَفْظُ «عَجَبٌ» مُضَدَّرُ «عَجَبَ» تَقُولُ لَعَةً: «عَجِبَ يَعْجَبُ عَجَبًا».

وَالْوَضْفُ بِالْمُضَدَّرِ فِيهِ مُبَالَغَةٌ فِي التَّعْبِيرِ، إِذْ فِيهِ ادِّعَاءُ أَنَّ ذَاتَ الشَّيْءِ

صارت عينَ مفهوم المضدر، فهنا يقوم التَّصَوُّرُ عَلَى أَنَّ ذاتَ المقروءِ من كثرةِ عجائبه صارتَ عجباً، فَلَا شَيْءَ من عناصرِه وأجزائه إِلَّا هو عجب. ونظيرُه مثلاً: رأيتَ عليّاً العَدْلَ. وَصِفَ بالمصدرِ بَدَلِ اسمِ الفاعلِ «عادلٍ» حتى كأنَّه هو العدل.

ولَا يكون القرآنُ عجباً في مَبَانِيهِ وفي معانيه إِلَّا إِذَا كَانَ مُعْجِزاً، متَفَرِّداً متميزاً عن كلِّ كلامٍ آخر، فلا تَسْتَطِيعُ الخلائقُ أَنْ تأتيَ بمِثْلِهِ، ولو كان بعضهم لبغضٍ ظهيراً بالمساعدة والمعاونة والاشتراك في العمل، فَهُوَ إِذَنْ كَلَامٌ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَقَدْ عَبَّرَ هَؤُلَاءِ النَّفَرُ مِنَ الْجَنِّ عَمَّا أَذْرَكُوا من عناصرِ إعجازِ القرآنِ الكثيرةِ بقولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾.

القضية الثانية:

دَلَّتْ عَلَيْهَا جُمْلَةُ: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ وَضَفَا لَهَا سَمِعُوا من القرآنِ المجيد، من تِلَاوَةِ الرُّسُولِ ﷺ.

﴿يَهْدِي﴾: أي: يَدُلُّ وَيُرْشِدُ، يقالُ لَغَةً: هَدَى فُلَانًا الطَّرِيقَ، وَهَذَاهُ لَهُ، وَهَذَاهُ إِلَيْهِ، إِذَا عَرَفَهُ بِهِ، وَبَيَّنَّهُ لَهُ.

﴿إِلَى الرُّشْدِ﴾: الرُّشْدُ: هو السُّلُوكُ الفِكْرِيُّ أو النُّفْسِيُّ، أو الْعَمَلِيُّ، المُوَافِقُ لِلْحَقِّ وَالصُّوَابِ، أَوْ لِمَا هُوَ الْأَفْضَلُ وَالْأَحْسَنُ وَالْأَكْثَرُ نَفْعاً، وَالْأَبْعَدُ عَنِ الضَّرَرِ أَوْ الْأَذَى.

فَوْضِفَ الْقُرْآنُ بِأَنَّهُ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ، وَضَفَّ يَجْمَعُ كُلَّ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ دَعْوَةٍ إِلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ، وَمَا هُوَ الْأَفْضَلُ وَالْأَحْسَنُ، وَالْأَنْفَعُ، وَالْأَبْعَدُ عَنِ الضَّرَرِ وَالْأَذَى، حَالاً، وَمُسْتَقْبَلاً قَرِيباً، وَمُسْتَقْبَلاً بَعِيداً، حَتَّى يَوْمَ الدِّينِ يَوْمِ الْحِسَابِ، وَفَضَّلَ الْقَضَاءَ وَتَنْفِيزَ الْجَزَاءِ، فِي دَارِ النِّعَمِ، أَوْ فِي دَارِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

القضية الثالثة:

دلّت عليها عبارتهم: ﴿فَتَأْمَنَّا بِيَدِهِ﴾ ففي هذه العبارة إعلان منهم بأنهم آمنوا بهذا القرآن الذي سمعوه من تلاوة الرسول ﷺ له.

ومعلوم أنّ إيمانهم بالقرآن يستلزم إيمانهم بالرسول الذي يبلغه عن ربه، وإيمانهم بسائر أركان الإيمان، وإيمانهم بكلّ القضايا الدينية، والخبرية، والعلمية، التي اشتملت عليها آيات القرآن المجيد، وهي تشتمل على كلّ ما يجب الإيمان به في رحلة الامتحان إجمالاً وتفصيلاً.

الإيمان: هو التّصديق الإراديّ القلبيّ المقترن بالاعتراف والتّسليم، والباعث على العمل.

القضية الرابعة

دلّت عليها عبارتهم: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾: فأعلنوا بهذه العبارة عزمهم الإراديّ على أن لا يشركوا في مستقبل حياتهم برّبهم أحداً، لا في ربوبيته، ولا في إلهيته. وهذا منهم وعدٌ بعهدٍ جازم قطعوه على أنفسهم.

وقد دلّ إلزامهم أنفسهم بهذا الوعد والعهد، على أنّ ما استمعوه من القرآن قد تضمّن فيما تضمّن التحذير من الشرك في ربوبية الله، أو في إلهيته، مهما كان نوع الشرك جزئياً وهيناً، كشرك الذين يعبدون غير الله ليقرّبوهم إلى الله زلفى، لأن الله عز وجل لا يغفر أن يشرك به لا في ربوبيته، ولا في إلهيته، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

ودلّ هذا أيضاً على أنّهم قد كانت لهم قبل استماعهم القرآن من الرسول ﷺ، شركيات تحلّوا عنها، وأعلنوا أنّهم لن يعودوا إليها ولا إلى مثلها.

فلو أنّهم كانوا من نصارى الجن فإنّ عباداتهم لعيسى عليه السلام

وَأُمُّهُ مِنَ الشِّرْكِ فِي إِلَهِيَّةِ اللَّهِ الْوَاحِدَةِ، وَإِنْ اغْتَفَادَهُمْ فِي أَنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ
هُوَ مِنَ الشِّرْكِ فِي رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ الْوَاحِدَةِ.

ولو أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ وَثْنِي الْجِنِّ، فَشِرْكُهُمْ كَشِرْكِ وَثْنِيِّ الْإِنْسِ.

وَإِذْ قَدْ تَخَلَّوْا عَنِ الشِّرْكِ بِرَبِّهِمْ الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِهِ رَبًّا خَالِقًا لَا شَرِيكَ
لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ، فَإِنَّهُمْ عَنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ الَّتِي
هِيَ أَشَدُّ مِنَ الشِّرْكِ أَكْثَرُ تَبَرُّيًا وَابْتِعَادًا، وَأَكْثَرُ التِّزَامًا بِأَنْ لَا يَقْرَبُوا شَيْئًا
مِنْهَا.

القضية الخامسة

دَلَّتْ عَلَيْهَا مَقَالَتُهُمْ: ﴿وَأَنْتُمْ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾: ﴿٢﴾:

في هذه المقالة إشعار بوصولهم إلى قناعة تامة، وقُدرة على إقناع
غيرهم من قومهم، بتعالى الله عز وجل في صفاته السَّيِّئَةِ عَنْ أَنْ يَتَّخِذَ
صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا.

فَاتَّخَذَ الزُّوجَاتِ مِنْ صِفَاتِ النِّقْصِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ الْحَادِثَاتِ،
وإِنجَابِ الْأَوْلَادِ مُشَارَكَةً لِلَّهِ فِي خَصَائِصِ دَاتِهِ الْأَزَلِيَّةِ، وَاللَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ
وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ - مُتْرَهُ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ.

وَاتَّخَذَ الْأَوْلَادِ بِالتَّبَنِّيِ افْتِرَاءً عَلَى الْحَقِيقَةِ، فَالْعَبْدُ الْمَخْلُوقُ لَا يَكُونُ
ابْنًا لَخَالِقِهِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عُلُوًّا كَبِيرًا.

قراءة: ﴿وَأَنْتُمْ﴾ لَوْحِظْ فِيهَا الْعَطْفُ عَلَى ضَمِيرِ ﴿يَهُ﴾ فِي قَوْلِهِمْ
﴿فَتَأْمَنَّا يَهُ﴾: أَي: فَأَمَّا بِهِ وَيَأْنَهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا.

وقراءة: ﴿وَأِنَّهُ﴾ لَوْحِظْ فِيهَا الْعَطْفُ عَلَى قَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾.

وفي القراءتين تكامل فكري، فإِخْدَى الْقِرَاءَتَيْنِ يُعْبَرُونَ بِهَا عَنْ عِلْمٍ
يَقْرَرُونَهُ، وَالْأُخْرَى يُعْبَرُونَ بِهَا عَنْ إِيْمَانٍ يُؤْمِنُونَ بِهِ.

﴿تَعَلَّى﴾: أي: هو بالغُ العلو الذي لا حُدودَ له، ولا نهايةَ له، فهو مَرَفَعٌ عن كلِّ الصِّفَاتِ الَّتِي لَا تَلِيْقُ بِجَلَالِهِ، وَأَزْلِيَّتِهِ، وَأَبْدِيَّتِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، وَأَحَدِيَّتِهِ وَصَمَدِيَّتِهِ، وَمُنَزَّةٌ عَنِ الْحَاجَةِ لِذَاتِهِ، أَوْ لصفاته.

﴿جَدُّ رَبَّنَا﴾: الجدُّ في اللُّغَةِ هو الحَظُّ والغِنَى، وَجَدُّ الرَّبِّ جَلٌّ جَلَالُهُ هو حَظُّهُ من كمال الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ الَّتِي يَتَصَفُّ بِهَا، وَغِنَاهُ سُبْحَانُهُ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ، فَهُوَ بِكَمَالِ صِفَاتِهِ وَبِغِنَاهُ عَمَّا سِوَاهُ لَا يَتَخَذُ صَاحِبَةً، وَلَا يُنْجِبُ وَلَدًا، وَلَا يَتَّبِعُ وَلَدًا.

وعبارة: ﴿تَعَلَّى جَدُّ رَبَّنَا﴾ على ما فهمنا منها هي بمثابة الدليل العقلي الذي يدلُّ على أنه سبحانه ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ فتقديمها تمهيدٌ حكيم، وهو من أساليب تقديم الدليل قبل تقرير الدَّعْوَى.

وعبارة: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ فيها حذفٌ يكشفُ التَّدْبِيرَ بِأَنَاءةٍ، والتقدير: ما اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا أَنْجَبَ وَلَا تَبَنَّى وَلَدًا، وهو من قبيل الإيجاز بالحذف، كقول الشاعر:

وَرَزَجْنَحْنَ الْحَوَاجِبَ وَالْعُيُونَا^(١).

أي: وَرَزَجْنَحْنَ الْحَوَاجِبَ، وَكَحَلْنَ الْعُيُونَ.

وكلمة: ﴿صَاحِبَةً﴾ نَعْمُ كُلُّ أُنْثَى تَتَّخِذُ لِلْمُعَاشَرَةِ، سواءً أَكَانَتْ زَوْجَةً أَمْ غَيْرَ زَوْجَةٍ.

القضية السادسة

دَلَّتْ عَلَيْهَا مَقَالَتُهُمْ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾:

(١) التَّرْجِيحُ فِي الْحَوَاجِبِ: جَعَلَهَا دَقِيقَةً طَوِيلَةً مُقَوَّسَةً.

فَأَبَانَ هَؤُلَاءِ النَّفَرُ مِنَ الْجَنِّ بِمَقَالَتِهِمْ هَٰذِهِ أَنَّ سَفِيهِهْمُ إِبْلِيسَ وَكُلُّ مَنْ اسْتَجَابَ لَهُ، وَاتَّبَعَ كُفْرَهُ بِرَبِّهِ، كَانَ يَقُولُ عَلَى اللَّهِ قَوْلًا شَطَطًا، أَي: بعيداً عن الحق جائراً.

وظاهرٌ أَنَّ كُلَّ قَوْلٍ بَعِيدٍ عَنِ الْحَقِّ هُوَ بَاطِلٌ وَكَذِبٌ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ بَاطِلٍ وَكَذِبٍ يُنْسَبُ إِلَى اللَّهِ هُوَ كُفْرٌ بِذَاتِهِ أَوْ بِصِفَاتِهِ، أَوْ بِحَقِّ رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ إِلَهِيَّتِهِ.

قُرِءَ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ مَعَ نَصِّ السُّورَةِ بِفَتْحِ هَمْزَةٍ ﴿وَأَنَّهُ﴾ وَبَكْسَرِهَا، وَسَبَقَ تَوْجِيهُ الْقَرَاءَتَيْنِ فِي نَظِيرَتَيْهِمَا فِي الْقَضِيَّةِ الْخَامِسَةِ.

الشَّطَطُ: هُوَ فِي اللُّغَةِ الْبُعْدُ، وَتَجَاوُزُ الْحَدِّ، وَالْجَوْرُ، وَكُلُّ مَا بَعْدَ، وَتَجَاوُزُ حُدُودِ الْحَقِّ، وَجَارَ عَنِ الطَّرِيقِ السَّوِيِّ، فَهُوَ بَاطِلٌ، وَهُوَ فِي الْأَخْبَارِ كَذِبٌ.

﴿كَانَ يَقُولُ سَفِيهًا﴾ هُوَ مِنَ التَّنَازُعِ عِنْدَ النَحْوِيِّينَ، فَيَجُوزُ عِنْدَهُمْ أَنْ يَكُونَ لَفْظُ «سَفِيهِ» مِنْ «سَفِيهًا» اسْمٌ ﴿كَانَ﴾ أَوْ فَاعِلٌ [يَقُولُ] وَيُقَدَّرُ لِلْآخِرِ ضَمِيرٌ مُلَائِمٌ.

أَقُولُ: هَذَا مِنَ الْإِيجَازِ فِي اللَّفْظِ، وَيُمْكِنُ اغْتِبَارُ جُمْلَةٍ ﴿يَقُولُ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ سَادَّةً مَسْدً اسْمَ كَانَ وَخَبَرَهَا.

السَّفِيهِ: هُوَ فِي اللُّغَةِ نَاقِصُ الْعَقْلِ، الَّذِي لَا يُحْكِمُ أَمْرَهُ بِرُشْدٍ، فَيُجَانِبُ الْحَقَّ وَالصَّوَابَ وَسَبِيلَ الْهُدَى.

وإِبْلِيسُ إِمَامٌ سَفَهَاءِ الْجَنِّ، إِذْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلطَّرْدِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَمَنَازِلِ الْقُرْبِ مِنْ رَبِّهِ، وَلِلْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ، وَالشَّقَاءِ الدَّائِمِ، إِذْضَاءَ لِنَزْعَةِ الْكِبَرِ وَالْحَسَدِ فِي نَفْسِهِ، إِذْ رَفَضَ أَمْرَ رَبِّهِ لَهُ بِأَنْ يَسْجُدَ لِآدَمَ، وَجَحَدَ حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي طَاعَتِهِ بِمَا يَشَاءُ.

وهَذَا مِنْ فَرْطِ سَفَاهَتِهِ، وَقِلَّةِ عَقْلِهِ الْإِرَادِي، إِذْ لَمْ تَقَوْ إِرَادَتُهُ عَلَى ضَبْطِ جَمَاحِ هَوَاهُ فِي الْكِبَرِ وَالْحَسَدِ، مَعَ وَفَرَةِ ذِكَاثِهِ الْعَلِمِيِّ وَوَاسِعِ حِيلَتِهِ. وَيَتَّبِعُ إِبْلِيسَ فِي السَّفَاهَةِ كُلَّ كَفَرَةِ الْجَنِّ الَّذِينَ اتَّبَعُوا سُبُلَهُ، وَعِبَارَةٌ: ﴿سَفِيهَتَا﴾ تَعْمُ كُلَّ كَفَرَةِ الْجَنِّ، مُتَنَاولَةً إِبْلِيسَ إِمَامَهُمْ أَوَّلَ مَا تَتَنَاوَلُ.

أَمَّا الشُّطْطُ الَّذِي أَضَلَّ بِهِ إِبْلِيسُ كَفَرَةَ الْجَنِّ، فَيَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ قَوْلٍ يَتَضَمَّنُ وَصْفَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ فِي ذَاتِهِ، أَوْ فِي صِفَاتِهِ، أَوْ فِي أَفْعَالِهِ، أَوْ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَشَرَائِعِهِ لِعِبَادِهِ، وَتَصَارِيفِهِ فِي كَوْنِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ مَا فِيهِ طَعْنٌ أَوْ تَشْكِيكٌ فِي حَكَمَتِهِ.

وَيَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ قَوْلٍ يَتَضَمَّنُ إنْكَارَ أَوْ جُحُودَ وَصْفٍ مَا، مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ الثَّابِتَةِ لَهُ.

وَكُفْرِيَّاتُ الْجَنِّ مُشَابِهَةٌ لَكُفْرِيَّاتِ الْإِنْسِ، إِذْ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنْ يُوجِيَ بِغَضَبِهِمْ إِلَى بَعْضِ زُخْرُفِ الْقَوْلِ غُرُورًا، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْأَنْعَامِ/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٧﴾ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

القضية السابعة:

دَلَّتْ عَلَيْهَا مَقَالَتُهُمْ: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾. قُرِئَ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ مَعَ نَصِّ السُّورَةِ بِفَتْحِ هَمْزَةِ: ﴿وَأَنَا﴾ وَبِكَسْرِهَا، وَقَدْ سَبَقَ تَوْجِيهِ الْقَرَاءَتَيْنِ فِي نَظِيرَتَيْهِمَا فِي الْقَضِيَّةِ الْخَامِسَةِ.

أَبَانَتْ هَذِهِ الْمَقَالَةُ أَنَّ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ مِنَ الْجَنِّ كَانُوا مَخْدُوعِينَ بِأَقْوَالِ

كَانُوا يَسْمَعُونَهَا مِنَ الْإِنْسِ وَمِنَ الْجِنِّ، وَفِيهَا كَذِبٌ عَلَى اللَّهِ، فَيَقْبَلُونَهَا، ظَانِّينَ ظَنًّا تَوْهُمِيًّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، فَلَمَّا اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ الْعَجَبَ مِنَ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ مَا كَانُوا يَسْمَعُونَهُ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ مِنْ أَقْوَالٍ عَلَى اللَّهِ، وَمِنْهَا أَقْوَالُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَأَقْوَالُ الْوَيْتَيْنِ هِيَ أَقْوَالٌ كَاذِبَةٌ بَاطِلَةٌ، إِذْ كَانَتْ مُضَادَّةً لِمَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْقُرْآنِ، فَمَنْ اعْتَقَدَهَا وَآمَنَ بِهَا كَفَرَ بِرَبِّهِ.

وكما دلَّت هذه العبارة على أَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ مَخْدُوعِينَ بِأَقْوَالِ كُفْرِيَّةٍ كَاذِبَةٍ كَانُوا يَسْمَعُونَهَا مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَقَدْ دَلَّتْ أَيْضًا عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ كَفَرُوا بِهَا الْآنَ، وَآمَنُوا بِمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ. وقرأ يعقوبُ فقط: [أَنْ لَنْ تَقُولَ]: أي: لَنْ تَتَقَوْلَ، التَّقَوْلُ: هو افتراء القول، واختلافه.

وَبَيَّنَ الْقَرَاءَتَيْنِ ﴿تَقُولَ﴾ وَ [تَقُولَ] تَكَامُلٌ فِي أَدَاءِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ.

فَقِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ: ﴿تَقُولَ﴾ دَلَّتْ عَلَى الْأَقْوَالِ الَّتِي يَنْقُلُهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ حِكَايَةً وَرَوَايَةً عَنْ غَيْرِهِمْ، دُونَ أَنْ يَتَحَقَّقُوا مِنْ صِدْقِهَا، وَلَيْسُوا هُمْ الْمَفْتَرِينَ لَهَا، وَكَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَنْقُلُوا أَقْوَالَ تَتَعَلَّقُ بِاللَّهِ دُونَ تَحَرِّيِ أَنْ تَكُونَ حَقًّا.

وقراءة يعقوب: [تَقُولَ] بِتَشْدِيدِ الْوَاوِ الْمَفْتُوحَةِ، دَلَّتْ عَلَى الْأَقْوَالِ الَّتِي يَفْتَرِيهَا وَيَخْتَلِقُهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قَدَّمُوا الْإِنْسَ فِي عِبَارَتِهِمْ لَشُعُورِهِمْ بِأَنَّ الْإِنْسَ أَفْضَلُ مِنَ الْجِنِّ بِأَصْلِ تَكْوِينِهِمْ.

القضية الثامنة:

دَلَّتْ عَلَيْهَا مَقَالَتُهُمْ: ﴿وَأَنْتَ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَوُدُّونَ رِجَالًا مِنَ الْغَيْنِ فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾: ﴿١١﴾

قُرِءَ كما سَبَقَ بيانه مع نَصِّ السورة بفتح همزة ﴿وَأَنْتُمْ﴾ وَبَكْسِرِهَا، وقد سَبَقَ توجيهُ القراءَتَيْنِ في تَظْيِيرَتَيْهِمَا في القضيَّة الخامسة.

وقد أَبَانَتْ هذه المقالةُ من مقالاتِ النفر من الجنِّ أمراً واقعاً كَانَ يَجْرِي بين الإنس والجنِّ، وهو أَنَّ رِجَالاً من الإنسِ الَّذِينَ هم أَحْسَنُ تَقْوِيماً من الجنِّ، وأكثرَ علماً وذكاءً، كَانُوا يَلْجَأُونَ إلى رِجَالٍ من الجنِّ، مستعِيزِينَ بهم، لِيُعِيزُوهم وَلِيُعِيزُوهم مِمَّا يخافون، وذلك من فساد مَفْهُومَاتِهِمْ وَتَصَوُّرَاتِهِمْ عَنْ عَالَمِ الجنِّ، وَكَانَ الرِّجَالُ من الجنِّ يَزِيدُونَ المستعِيزِينَ بِهِمْ من الإنسِ سَفْهاً وَحِمَاقَةً، وَجَهْلًا وَإِثْمًا، وَعَنَاءً بتكاليف ثَقِيلَةٍ، وَيَزِيدُونَهُمْ من رُكُوبِ الشَّرِّ، وَغِشْيَانِ المَآثِمِ والمعاصي والشَّرِكِيَّاتِ.

وَيُشْعِرُ هذا البيانُ بَأَن هَؤُلَاءِ النفرِ يَسْتَخِفُّونَ وَيَسْتَهَيِّنُونَ بالإنسِ الذين يَعُودُونَ بالجنِّ.

﴿يُودُونَ﴾: أي: يَلْتَجِئُونَ، وَيَعْتَصِمُونَ، بِرِجَالٍ من الجنِّ، وَيَلْزَمُونَ الالتصاقَ بهم.

يقال لغة: عَاذَ بِهِ، يَعُودُ، عَوْذًا، وَعِيَاذًا، أي: اَلْتَجَأَ إِلَيْهِ، وَاعْتَصَمَ بِهِ، وَلَزِمَهُ، رَجَاءَ الحِمَايَةِ وتحقيقِ المطالب.

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾: أي: فزَادُوهُمْ تَعَبًا، وَسَفْهًا، وَحِمَاقَةً، وَجَهْلًا وَإِثْمًا، وَضَلَالًا.

الرَّهَقُ: يَأْتِي في اللُّغَةِ بمعنى: السَّفْهِ، وَالْحِمَاقَةِ، وَالْجَهْلِ، وَالْإِثْمِ، وَحَمْلِ المشاقِّ وَالمُتَعَبَاتِ، وَرُكُوبِ الشَّرِّ وَالظُّلْمِ، وَغِشْيَانِ المحارمِ، وَارتكابِ كِبَائِرِ الإِثْمِ.

وَيَدْخُلُ في هذا مُمَارَسَةُ الشَّرِكِيَّاتِ وَسَائِرِ الكُفْرِيَّاتِ.

وَيُقَالُ لغة: أَرَهَقَ فُلَانٌ فُلَانًا، إِذَا حَمَلَهُ مَا لَا يُطِيقُ.

وَالرَّهَقُ: مَضَدَرٌ «رَهَقَ، يَرْهَقُ».

وهذا البيان من هؤلاء النفر من الجنّ بعبارةِ الفِعْلِ الماضي: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ لَآ يُفِيدُ تَوَقُّفَ هَذَا الْأَمْرِ، إِذْ هَذِهِ الاسْتِعَاذَةُ بِالْجَنِّ مِنْ قَبْلِ الْإِنْسِ مَا زَالَتْ، وَلَنْ تَزَالَ مَا دَامَ فِي الْأَرْضِ عَصَاةٌ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ.

فالنفر من الجنّ قد عَبَّرُوا عَنْ أَمْرِ عِلْمُوهُ مِمَّا مَضَى، وَلَمْ يَتَحَدَّثُوا عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ وَمَا سَيَجْرِي فِيهِ، إِذِ الْمُسْتَقْبَلُ غَيْبٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ.

رُوي عن الحسنِ وابنِ زَيْدٍ وغيرهما: أَنَّهُ كَانَ مِنْ اسْتِعَاذَاتِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ بَوَادٍ قَالَ: أَعُوذُ بِسَيِّدِ هَذَا الْوَادِي مِنْ شَرِّ سَفَهَاءِ قَوْمِهِ، فَيَبِيتُ بِجَوَارِهِ حَتَّى يُضْجَحَ.

وَيُوكِّدُ الْمُشْتَغِلُونَ بِمَوْضُوعِ أَعْمَالِ السَّحَرَةِ، وَأَعْمَالِ الَّذِينَ يَتَّصِلُونَ بِالْجَنِّ، لاسْتِخْدَامِهِمْ فِي بَعْضِ مَا يُرِيدُونَ مِنْهُمْ، أَنَّ الْجَنِّ الَّذِينَ يُلْجَأُونَ إِلَيْهِمْ، لَا يُؤَدُّونَ لَهُمُ الْخِدْمَاتِ الْمَطْلُوبَةَ مِنْهُمْ، مَا لَمْ يَقُمْ مُسْتَعْدِمُهُمْ بِأَعْمَالٍ أَوْ أَقْوَالٍ فِيهَا شِرْكٌ، أَوْ فِيهَا بَعْضُ كِبَائِرِ الْإِثْمِ، مَعَ أَعْمَالٍ أُخْرَى فِيهَا حِمَاةٌ وَسَفَهَةٌ وَجَهَالَةٌ.

فهم بهذه الأعمال والأقوال التي يطلبون منهم تنفيذها يريدونهم رَهَقًا، أي: يزيدونهم سَفَهًا وَحِمَاةً وَجَهْلًا وَإِثْمًا، وَفِي مَعْظَمِ الْأَحْوَالِ يَأْمُرُونَهُمْ بِعِزَائِمٍ مِنْ أَقْوَالٍ غَيْرِ مَفْهُومَةٍ، وَهِيَ ذَاتُ مَضَامِينٍ شِرْكِيَّةٍ فِي لَعْنَةٍ قَدْ تَكُونُ مِنَ اللُّغَاتِ الْقَدِيمَةِ، أَوْ يَأْمُرُونَهُمْ بِأَعْمَالٍ هِيَ مِنَ الْكُفَرَاتِ الْعَمَلِيَّةِ، كَاللِّقَاءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَوْ آيَاتِ مِنْهُ فِي النِّجَاسَاتِ.

ومعظم الجنّ الذين يحضرون بالعزائم القولية للمستعيزين بهم من الإنس، هم من الشياطين الكفرة، جنود إبليس عليهم لعنة الله والملائكة والمؤمنين أجمعين.

وهؤلاء الجنّ الذين يحضرون للمستعيزين بهم من الإنس بالعزائم، قد

يُوهَمُونَ المستعِيزِينَ بِهِمْ أَنَّهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَقَدْ يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ عِبَادَتَهُمْ، أَوْ عِبَادَةَ سَيِّدِهِمْ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ الَّتِي يَقْصِدُونَهَا إِبْلِيسُ عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، وَقَدْ يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ عِبَادَةَ وَثْنٍ أَوْ صَخْرَةٍ أَوْ شَجَرَةٍ أَوْ حَيَوَانَ أَوْ إِنْسَانٍ حَيٍّ أَوْ مَيِّتٍ.

وعبارة: ﴿رِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ تفيد أَنَّ الْجِنَّ فِيهِمْ رِجَالٌ وَنِسَاءً، وَأَنَّهُمْ يَتَزَاوَجُونَ، وَيَتَنَاسَلُونَ كَالْإِنْسِ.

وبما أَنَّهُمْ يُشَبِّهُونَ فِي صِفَاتِهِمُ النَّفْسِيَّةِ الْإِنْسَ، وَهُمْ مَوْضُوعُونَ مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَالْإِنْسِ، وَإِنْ نَزَلَتْ رُبَّتُهُمْ عَنِ الْإِنْسِ بِوَجْهِ عَامٍّ، وَبِمَا أَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِلُغَاتِ الْإِنْسِ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْسِنَتِهِمْ، مَعَ احْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ لُغَاتٌ خَاصَّةٌ يَتَخَاطَبُونَ بِهَا، فَلَيْسَ مِنَ الْمُسْتَغْرَبِ أَنْ يُسَمَّوْا ذُكُورَهُمُ الْبَالِغِينَ رِجَالًا، وَأَنْ يُسَمَّوْا إِنَاثَهُمُ الْبَالِغَاتِ نِسَاءً، أَوْ يَكُونَ النُّصْرُ الْقُرْآنِيُّ تَرْجَمَةً لِّمَا قَالُوا. فَلَا يُقَالُ إِنَّ لَفْظَةَ «رِجَالٍ» خَاصَّةً بِالذُّكُورِ الْبَالِغِينَ مِنَ الْإِنْسِ.

أَمَّا الْمَلَائِكَةُ فَبِمَا أَنَّهُمْ لَا يَتَنَاسَلُونَ وَلَا يَتَنَاسَلُونَ، فَلَيْسَ فِيهِمْ ذُكُورٌ وَلَا إِنَاثٌ، وَلَا رِجَالٌ وَلَا نِسَاءً.

وَأَمَّا ذُكُورٌ وَإِنَاثُ الْبِهَائِمِ فَلَا يُقَالُ لِمَنْ بَلَغَ مِنْهَا رِجَالٌ وَلَا نِسَاءً، لِأَنَّهَا غَيْرُ عَاقِلَةٍ، وَغَيْرُ مَوْضُوعَةٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ.

وبهذا التحليل يَسْقُطُ الْعَرَضُ، وَتَتَدَفَّعُ الْإِشْكَالَاتُ، وَيُثَبَّتُ أَنَّ فِي الْجِنِّ رِجَالًا وَنِسَاءً، وَأَنَّهُمْ يَتَنَاسَلُونَ، وَأَنَّ لَهُمْ ذُرِّيَّاتٍ، وَلِهَذَا أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ لِإِبْلِيسَ ذُرِّيَّةً يُضِلُّونَ وَيُغْوُونَ بِالْوَسْوَسَةِ وَالتَّسْوِيلِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْكَهْفِ/ ١٨ مَصْحَفِ/ ٦٩ نَزُولِ):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

القضية التاسعة

دلت عليها مقاتلتهم: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ (٧):

فُرى كما سَبَقَ بيانه مع نصِّ السُّورة بفتح همزة: ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ وبكسرها، وقد سَبَقَ تَوَجُّيهُ القراءَتَيْنِ في نظيرتيهما في القضية الخامسة.

فأَبَانَ هَؤُلَاءِ النِّفَرُ مِنَ الْجَنِّ لِقَوْمِهِمْ أَنَّ الْإِنْسَ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا مِثْلَ نَظَرَانِهِمْ مِنَ الْجَنِّ، قَدْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَحَدًا، فَلَا حِسَابَ، وَلَا فَضْلَ قَضَاءٍ، وَلَا تَنْفِيزَ جَزَاءٍ.

أقول: وَمِنْ شَأْنِ هَذَا الظَّنِّ التَّوَهُمِيِّ الْبَاطِلِ، الْمُنْكَرُ لِبِرَاهِينِ الْعَقْلِ، وَأَنْبَاءِ الدِّينِ الَّتِي بَلَّغَهَا عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، أَنْ يَجْعَلَ صَاحِبَهُ عَاصِيًا لِلَّهِ، غَيْرَ مُتَّبِعٍ مَا أَنْزَلَ لِعِبَادِهِ فِي كُتُبِهِ، وَبَلَّغَهَا عَنْهُ رُسُلُهُ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ مُنْطَلِقًا فِي ارْتِكَابِ الْآثَامِ فَاجِرًا، وَأَنْ يُزَيِّنَ لَهُ الشَّرَكِيَّاتِ الَّتِي يَتَوَهَّمُ أَنَّهَا تَنْفَعُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. وَمِنْهَا بَغْضُ الْخِدْمَاتِ الْحَقِيقَاتِ الَّتِي تُقَدِّمُهَا لَهُ الشَّيَاطِينُ.

فَالْإِيمَانُ بِالْبَعْثِ لِلْحِسَابِ وَفَضْلُ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيزُ الْجَزَاءِ، هُوَ الرَّادُّ الْأكْبَرُ لِلْمَخْلُوقِ الْمَذْكُورِ ذِي الْإِرَادَةِ الْحُرَّةِ، الْمَوْضُوعِ مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَقَدْ اهْتَمَّ هَؤُلَاءِ الثَّقَرُ بِبَيَانِ رُكْنِ الْإِيمَانِ بِالْبَعْثِ، لِإِيمَانِهِمْ بِأَنَّ الْجِنَّ سَوْفَ يُبْعَثُونَ وَيُحَاسَبُونَ وَيُجَازَوْنَ، كَمَا سَوْفَ يُبْعَثُ الْإِنْسُ لِيَوْمِ الدِّينِ.

وَأَكَّدَ هُنَا أَنَّ مُؤْمِنِي الْجَنِّ الْمُتَّقِينَ هُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ كَالْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ مِنَ الْإِنْسِ، كَمَا أَنَّ كُفَّارَهُمْ وَعُصَاةَهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي جَهَنَّمَ كَنَظَرَانِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ.

وَرَأَى بَغْضُ أَهْلِ الْجَاهِدِ وَأَهْلِ التَّأْوِيلِ أَنَّ الْجِنَّ يُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ

على كُفْرِهِمْ ومعاصيهم، لَكُنْهُمْ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِذَا آمَنُوا واستقاموا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، فتوابعهم يكون بالنجاة من عذاب النار.

أما جُمْهُورُ أهل العلم من أهل الاجتهاد، وجُمْهُورُ المفسرين، فقالوا: الجنُّ كالإنس في الابتلاء وفي البعث، وفي الحساب، وفُضِّلَ القضاء، وتنفيذ الجزاء، فَسُئِلَ اللهُ في النوعَيْنِ سواء.

وأقول: بما أَنَّ الجنَّ ممتحنون في الحياة الدنيا بالإيمان والإسلام والعبادة كالإنس، وبما أَنَّ خصائصَهُمُ النفسيةَ مُشابهة لخصائصِ الإنس، في اللَّذَاتِ والآلام، والأهواء والشهوات، والإذراكِ وَحُرِّيَّةِ الإرادة، فإنَّ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ نُذَكِّرَهُ أَنْ حِكْمَةَ اللهِ - جَلَّ جَلَالُهُ - تقضي بأن يكونَ لمؤمنيهِمْ في الآخرةِ ثوابٌ بنعيم في الجنة، كما أَنَّ لكفارهم وعصاةيهم عقاباً وعذاباً أليماً في النار، والملتقون من الجنَّ يدخلون في عموم المتقين الذين أعدت لهم جنات النعيم.

وقد ثبت في قواطع النصوص أَنَّ الجنَّ يُخْشَرُونَ وَيُحَاسَبُونَ على ما كَسَبُوا واكْتَسَبُوا في الحياة الدنيا، وفيما يلي طائفة منها:

(١) قول الله عزَّ وجلَّ لِإِبْلِيسَ رَئِيسَ شَيَاطِينِ الْجِنِّ، حِينَ أَلَزَمَ نَفْسَهُ بِإِغْوَاءِ بَنِي آدَمَ، في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٥).

(٢) وقول الله عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (السَّجْدَةِ/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣).

(٣) وقول الله عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ...﴾ (٢٨).

هذا الخطاب يُوجّه يوم الدين بَعْدَ الحساب، وَفَضِلِ القضاء، من الله جلّ جلاله، لِلَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وهو يشمل الإنس والجن.

(٤) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿فَكُبِّكُوا فِيهَا مِمَّنْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَخُنُودٌ أَيْلِسَ آجَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

(٥) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الرّحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول)

مُبِيناً بَغْضَ الثَّوَابِ الَّذِي يُخَصِّصُ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ اتَّقَى اللَّهَ وَخَافَ مَقَامَهُ يَوْمَ الدِّينِ :

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾﴾.

ومعلوم أَنَّ مُتَّقِي الجنَّ مِمَّنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ.

(٦) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الرّحمن) أيضاً:

﴿فِيهِنَّ قَصِيرَتٌ الْأَطْرَفِ لَمْ يَطْمِئْنَنْ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿لَمْ يَطْمِئْنَنْ﴾ : أي: لَمْ يَفْتَضْ بِكَارَتْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَ أَزْوَاجِهِنَّ الَّذِينَ

هُنَّ مُخَصَّصَاتٌ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ.

الطَّمْتُ: جماعٌ تفضُّ به البكارة.

ولولا أَنَّ مُؤْمِنِي الجنِّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، ولو لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ رِجَالٌ

يَبَاشِرُونَ الزَّوْجَاتِ كَالْإِنْسِ، لَمَا كَانَ لِهَذَا الْاِحْتِرَازِ فَائِدَةٌ.

ولهذا النَّصُّ دَلَالَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ أَنَّ رِجَالَ الجنِّ لَهُمْ زَوْجَاتٌ فِي

الْجَنَّةِ مُخَصَّصَاتٌ لَهُمْ، لَمْ يَطْمِئْنَنْ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ. وَيَدُلُّ أَيْضاً عَلَى

إِمْكَانِ التَّزْوِجِ بَيْنَ الجنِّ وَالْإِنْسِ، وَلَوْ ضِمْنَ شُرُوطٍ خَاصَّةٍ.

القضية العاشرة

دَلَّتْ عَلَيْهَا مَقَالَتُهُمْ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَهَا مِثْلَ ثَحَالِثٍ حَرَسًا شَدِيدًا

وَشُهْبًا ﴿٨﴾﴾.

قُرِئَ كما سبق بيانه مع نصّ السورة بفتح همزة: ﴿وَأَنَّا﴾ ويكسرهما، وقد سبق توجيه القراءتين في نظيرتيهما في القضية الخامسة.

فأَبَانَ هؤلاء النَّفَر من الجنّ في دعوتهم قَوْمَهُمْ إلى الإيمان بالقرآن وبالرسول محمد ﷺ، وبما جاء به عن ربه، أَنَّهُمْ ارتَقَوْا حتى لَمَسُوا السَّمَاءَ لاسْتِرَاقِ السَّمْعِ من الملائكة كعادتهم السابقة فوجدوا السَّمَاءَ قَدْ مِلَّتْ حَرَساً شَدِيداً، وَمِلَّتْ شُهْباً تلاحق مُسْتَرَفِي السَّمْعِ من الجنّ بِالرَّجْمِ بالشُّهْبِ.

فدلّت هذه المقالة على أَنَّ هؤلاء النَّفَر هم من فئة الجنّ الطيارين، الذين لهم قُدْرَةٌ على الارتقاء في الجوّ باتّجاه السَّمَاءِ الدنْيَا لاستراق السَّمْعِ، فهم يُخْبِرُونَ عَنْ ظَاهِرَةِ جَدِيدَةٍ في السماء، وهي امتلاء كُلِّ الأَماكن التي كانوا يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِذَا وَصَلُوا إِلَيْهَا، لَمْنَعِهِمْ من الاقتراب واستِرَاقِ السَّمْعِ.

﴿لَمَسْنَا﴾ اللَّمَسُ: هُوَ الْمَسُّ بِالْيَدِ، يقال لغة: لَمَسَهُ يَلْمِسُهُ وَيَلْمُسُهُ، أَي: مَسَّهُ بِيَدِهِ، وَلَامَسَهُ مُلَامَسَةً وَلِمَاساً، أَي: تشاركاً في الْمَسِّ، فكلُّ منهما مَسٌّ الْآخَرِ.

فيظهِرُ أَنَّ ارتقاءَهُمْ لم يَكُنْ يَزِيدُ على بُلُوغِ مَوَاطِنِ الْمَسِّ، دُونَ الدُّخُولِ فِي السَّمَاءِ، حَيْثُ الْمَلَائِكَةُ مُتَشِيرُونَ يَعْبُدُونَ رَبَّهُمْ.

﴿مِلَّتْ﴾: التَّعْبِيرُ بِالْمَلَاءِ قَدْ يَدُلُّ على أَنَّهُ كَانَ فِي السَّمَاءِ حَرَسٌ، وَكَانَ الْجَنُّ الْمُسْتَرِقُونَ لِلسَّمْعِ يُطَرِّدُونَ رَجْماً بِالشُّهْبِ، لَكِنَّهَا لم تَكُنْ مَمْلُوءَةً بِالْحَرَسِ وَالشُّهْبِ، بَلْ كَانَ فِيهَا أَمَاكِنُ غَيْرَ مَحْرُوسَةٍ.

﴿حَرَساً﴾: مُفْرَدُهُ «حَرَسِيٌّ» فهو اسْمُ جِنْسٍ جَمْعِيٌّ، يوصف بالمفرد وبالجمع. الْحَرَسُ: هم الجنُّ الَّذِينَ يُرْتَبُونَ لحفظ ذي السلطان وحراسِهِ. وَوُصِفَ لَفْظُ ﴿حَرَساً﴾ بلفظ ﴿شَدِيداً﴾ أَي: قَوِيّاً، صَغْباً، عَظِيمَ الْقُدْرَةِ.

﴿وَشُهْباً﴾: الشُّهْبُ: جمع «شِهَابٍ» وهو الشعلة السَّاطعة من النار.

والنجم المضيء اللامع. وَجِزْمٌ سَمَويٌّ يَسْبَحُ في الفضاء، فإذا دخل في جو الأرض جذبته الأرض فاشتعل وهو يَنْطَلِقُ كالسهم وصَارَ رَمَادًا.

فإذا كان المراد بالشُّهُبِ الأجرام السَّماويَّة السَّابِحة في الفضاء، وأنها هي التي تلاحِقُ مسترقي السَّمع بالرَّجَم، كان مُسْتَرْقُو السَّمع من الجن لا يجاوزون في ارتقاءاتهم آخِرَ حدود الغلاف الغازي المحيط بالأرض، وهذا يُطْلَقُ عَلَيْهِ لفظ «السماء» في اللغة.

وَيَشْهَدُ لهذا ما رواه الإمام مُسْلِمٌ عن عبد الله بن عباس قال: أَخْبَرَنِي رَجُلٌ من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، أَنَّهُم بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مع رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ. فقال لهم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ في الجاهليَّة إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟».

قالوا: اللَّهُ ورسوله أعلم، كُنَّا نَقُولُ: وَلَدَ اللَّيْلَةِ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ.

فقال رسول الله ﷺ:

«فَإِنَّهَا لَا يُزْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ رُبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ، إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا.

ثُمَّ قَالَ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟
فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ».

قال: «فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ بَعْضًا، حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَتَخْطِفُ الْجِنُّ السَّمْعَ، فَيَقْدِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ، وَيُزَمُّونَ بِهِ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ».

يَقْرِفُونَ: أَي: يَكْذِبُ أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ، وَيُخْلَطُونَ.

فدلّ هذا الحديث على أنّ المراد بالشُّهْبِ الأَجْرَامُ السَّمَاوِيَّةُ الَّتِي تَسْبَحُ فِي الْفُضَاءِ فَوْقَ الْغُلَافِ الْغَازِيِ الْمَحِيطِ بِالْأَرْضِ، فَإِذَا دَخَلَ الْوَاحِدُ مِنْهَا فِي جَوْ الْأَرْضِ، اشْتَعَلَ وَتَوَهَّجَ، وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يُسَمُّونَ هَذِهِ الشُّهْبَ نُجُومًا، وَظَاهِرٌ أَنَّ لَهَا وَظِيفَتَيْنِ: وَظِيفَةً تَزْيِينِ السَّمَاءِ، وَوِظِيفَةً رَجَمِ الشَّيَاطِينِ، مُسْتَرْقِي السَّمْعِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِذَا وَصَلُوا ضِمْنَ الْغُلَافِ الْغَازِيِ الْمَحِيطِ بِالْأَرْضِ، إِلَى حَيْثُ يُبْلَغُ بَعْضُ أَهْلِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى مَلَائِكَةُ الْأَرْضِ مَا قَضَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، لِيَقُومَ كُلُّ ذِي وَظِيفَةٍ مِنْهُمْ بِوِظِيفَتِهِ فِي الْأَرْضِ، ضِمْنَ نِظَامِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ فِي كُونِهِ، وَهُوَ جَلٌّ وَعَلَا الْخَلْقِ الْفَعَالُ لِمَا يَشَاءُ، مِنْ خِلَالِ قَنَوَاتِ الْأَسْبَابِ.

وعلى مَا جَاءَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ يُمَكِّنُ حَمْلُ مَا رَوَاهُ الْبَخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنَحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَالسُّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ^(١)، قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟»

قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرْقُو السَّمْعِ، وَمُسْتَرْقُو السَّمْعِ هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرٍ.

وَوَصَفَ سُفْيَانُ^(٢) بِيَدِهِ، وَفَرَجَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ الْيُمْنَى، نَصَبَ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ.

«فَرَبَّمَا أَذْرَكَ الشُّهَابُ الْمُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَزِمِي بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ فَيُخْرِقُهُ، وَرَبَّمَا لَمْ يُذْرِكْهُ حَتَّى يَزِمِي بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ، إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ،

(١) فُزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ: أَي: أزيلَ الْفَزَعُ عَنْهَا.

(٢) أَحَدُ رَوَاةِ الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

حَتَّى يُلْقُوا إِلَى الْأَرْضِ، فَتُلْقَى عَلَى فَمِ السَّاحِرِ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِثَّةَ كَذِبَةٍ،
فَيَصْدُقُ، فيقولون: أَلَمْ يُخْبِرْنَا: يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، يَكُونُ كَذَا وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ
حَقًّا؟ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعْتَ مِنَ السَّمَاءِ».

وروى البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: سمعت
رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ^(١)، فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ،
فَتَسْرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ، فَتَسْمَعُهُ، فَتُوجِّهُهُ إِلَى الْكُفَّانِ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِثَّةَ
كَذِبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ».

وَيَذُلُّ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ مِنْ صِنْفِ الْجِنِّ الطَّيَّارِينَ، بَيَانُ أَنَّهُمْ كَانُوا
يَزْتَفُونَ لَاسْتِرَاقِ السَّمْعِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَنْزِلُونَ فِي الْعَنَانِ، وَمَا رُوِيَ عَنْ
النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَنَّ الْجِنِّ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ، وَمِنْهُمْ صِنْفٌ طَيَّارُونَ لَهُمْ أَجْنَحَةٌ
يَطِيرُونَ بِهَا فِي الْهَوَاءِ.

أَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ
نُفَيْرٍ، عَنْ أَبِي ثُعَلْبَةَ الْخُسَيْنِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«الْجِنُّ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ لَهُمْ أَجْنَحَةٌ يَطِيرُونَ بِهَا فِي الْهَوَاءِ،
وَصِنْفٌ حَيَّاتٌ وَكِلَابٌ، وَصِنْفٌ يَجْلُونَ وَيَطْعَنُونَ».

وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ نَحْوَهُ، وَصَحَّحَهُ، وَتَابَعَهُ الذَّهَبِيُّ.

وَيُظْهِرُ أَنَّ الْعِغْرِيَّتَ^(٢) مِنَ الْجِنِّ الَّذِي عَرَضَ عَلَى النَّبِيِّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، أَنَّ يَأْتِيَهُ بِعَرْشِ بَلْقِيسَ، قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَقَامِهِ فِي مَجْلِسِ الْحُكْمِ
كَأَنَّ مِنْ صِنْفِ الْجِنِّ الطَّيَّارِينَ.

(١) العنان: ما يبدو لك من السماء إذا نظرت إليها. والعنان: السحاب.

(٢) العغريت: القوي الماكر.

فَمِنْ جُمْلَةِ النُّصُوصِ، مَعَ تَتَبُّعِ البَحْثِ الْعِلْمِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَنِ السَّمَاءِ، تَبَيَّنَ لِي أَنَّهُ قَدْ يُرَادُ بِالسَّمَاءِ الدُّنْيَا الْغِلَافُ الْهَوَائِيَّ الْغَازِيَّ الْمَحِيطَ بِالْأَرْضِ، فَهُوَ فِي اللُّغَةِ يُسَمَّى سَمَاءً، إِذْ كُلُّ مَا عَلَا فَأَظْلَّ فَهُوَ سَمَاءٌ فِي اللُّغَةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَوَّلَ عُلُوٍّ فَوْقَ سَطْحِ الْأَرْضِ هُوَ هَذَا الْغِلَافُ الْغَازِيَّ، وَقَدْ تَبَيَّنَ لِي أَيْضاً، أَنَّهُ قَدْ يُرَادُ بِلَفْظِ النُّجُومِ فِي النُّصُوصِ، مَا كَانَ الْعَرَبُ يَعْتَبِرُونَهُ مِنَ النُّجُومِ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ أَجْرَامٌ وَكَتَلٌ صَخْرِيَّةٌ مُنْبَثَّةٌ فِي الْفَرَاغِ فَوْقَ الْغِلَامِ الْغَازِيِّ حَوْلَ الْأَرْضِ، وَدُونَ مَجَالِ الْكَوَاكِبِ التَّابِعَةِ لِلشَّمْسِ، وَهِيَ مِنْ مَجْمُوعَتِهَا كَالْأَرْضِ، وَتَجْرِي فِي أَفْلَاكِ حَوْلِهَا.

فَمُسْتَرَقُّو السَّمْعِ مِنَ الْجَنِّ لَا يَتَجَاوَزُونَ هَذَا الْغِلَافَ، وَهُمْ يُزَجَّمُونَ مِنْ هَذِهِ الْأَجْرَامِ، فَإِذَا دَخَلَتْ هَذِهِ الْأَجْرَامُ الْغِلَافَ الْجَوِّيَّ التَّهَبَّتْ وَسَطَعَ ضَوْوُهَا، وَطَرَدَتِ الْمَتَسَمِّعِينَ، لَدَعَا بِالنَّارِ، إِذْ تَكُونُ شُهْباً مُوجَّهَةً عَلَيْهِمْ فَتُؤْذِي فِي أَغْوَينِ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ وَظِيفَةُ التَّزْيِينِ، مَعَ النُّجُومِ الْعَظْمَى الَّتِي فِي الْمَجَرَّاتِ، وَتُؤْذِي وَظِيفَةُ رَجْمِ مُسْتَرَقِي السَّمْعِ مِنَ الْجَنِّ، بِأَمْرِ خَفِيِّ عَنْ إِحْسَاسَاتِنَا.

وَهَلْ رَجِمَ مُسْتَرَقِي السَّمْعِ مِنَ الْجَنِّ بِالشُّهُبِ يَكُونُ سَبَباً فِي قَتْلِهِمْ، أَوْ لَا يَقْتُلُهُمْ، بَلْ يَمَسُّهُمْ بِحَرِيقٍ، أَوْ يَوْقِعُ بِهِمْ عَذَاباً مُضْنِياً؟
أَقُولُ: يُمَكِّنُ أَنْ يَقْتُلَ بَعْضُهُمْ، وَيُمَكِّنُ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى إِنْزَالِ الضَّرَرِ وَالْعَذَابِ بِهِمْ مِنْ دُونِ الْقَتْلِ، فَالنُّصُوصُ لَيْسَ فِيهَا تَصْرِيحٌ بِأَنْ طَرَدَهُمْ بِالشُّهُبِ يُسَبِّبُ قَتْلَهُمْ، فَاحْتِمَالُ الْأَمْرَيْنِ قَائِمٌ، وَالْغَرَضُ أَنْ يَكُونُوا مَغْرُولِينَ عَنْ تَلَقِّي مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى أَلْسِنَةِ أَهْلِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، لِإِعْلَامِ الْمَلَأِ مِنْ مَلَائِكَةِ الْأَرْضِ، بِمَا قَضَاهُ اللَّهُ.

نظرة تدبرية إلى النصوص القرآنية بشأن حفظ السماء من الشياطين:

وَضَمَّنَ هَذَا الَّذِي تَبَيَّنَ لِي يُمَكِّنُ فَهُمْ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، حَوْلَ هَذَا الْمَوْضُوعِ، وَلَدَيْنَا أَرْبَعَةٌ نُصُوصٍ مُوزَّعَةٍ فِي أَرْبَعِ سُورٍ:

النص الأول:

قول الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) في معرض الحديث عن القرآن:

﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾.

﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾: أي: وَمَا يَسْهُلُ لَهُمُ التَّوَصُّلُ إِلَى تَلْقَى الْقُرْآنِ مِنْ مَلَائِكَةٍ، وَمَا يَصْلُحُونَ لِمِثْلِ هَذَا التَّلْقَى حَتَّى يَنْتَزِلُوا بِهِ، فَهُمْ مَعَزُولُونَ بِسُلْطَانِ الْقَهْرِ الرَّبَّانِيِّ عَنْ هَذَا التَّلْقَى، وَعَنْ هَذَا التَّنَزُّلِ.

النص الثاني:

قول الله عز وجل في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مِنْ أَسْفَرٍ أَلْسَعُ فَأَتْبَعُهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

من المعلوم علمياً أَنَّ نُجُومَ السَّمَاءِ المَوْزَعَةَ فِي مَجَرَّتِنَا، وَمَا فَوْقَهَا، لَا تَظْهَرُ زِينَتُهَا لِأَعْيُنِ النَّاظِرِينَ فِي الْأَرْضِ، إِلَّا بوساطة الخصائص التي خَلَقَهَا اللَّهُ عز وجل فِي الغلاف الغازي حول الأرض، ولولاهُ لَمْ تَكُنْ زِينَةً لِلنَّاظِرِينَ.

وقَدْ حفظ الله السَّمَاءَ بدءاً من نهايات الغلاف الغازي، الذي جعله الله محيطاً بالأرض، من كُلِّ شَيْطَانٍ مَرْجُومٍ مطرود، فهو لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَرْقَ السَّمْعَ من مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ، لَدَى تَبْلِيغِهِمْ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ لِمَلَائِكَةِ الْأَرْضِ.

وَحِينَ يَسْتَرْقُ بَعْضُهُمُ السَّمْعَ فَيَخْطَفُ شَيْئاً بِحِيلَتِهِ وَسُرْعَتِهِ، فَإِنَّ شِهَاباً مُبِيناً يَتَّبِعُهُ فَيُخْرِقُهُ فَيُمِيتُهُ، أَوْ يُعْطِلُ أَجْهَزَتَهُ، فَيَجْعَلُهُ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى نَقْلِ مَا اخْتَطَفَهُ وَتَبْلِيغِهِ، أَوْ تَجْعَلُهُ يَتَقَلَّبُ فِي عَذَابٍ مُوجِعٍ.

﴿فَأَتْبَعُهُ﴾: أي: فَتَبِعَهُ سُرْعَةً وَقُوَّةً.

النص الثالث :

قول الله عز وجل في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿إِنَّا زَيْنًا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا زَيْنَةً الْكَوَكِبِ﴾ (٦) وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧)
لَّا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِمًا إِلَّا أَلَمًا أَلْعَلَّى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ
(٩) إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْمَلَفَقَةَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) .

● قرأ شعبة: [زَيْنَةُ الْكَوَكِبِ] بتنويل «زينة» ونُضِب الكواكب.

أي: بزينة بديعة رائعة، أغني الكواكب، فجاء التنكير في كلمة «زينة» للتفخيم والتعظيم. وجاء نُضِبَ لفظ [الْكَوَكِبِ] بفعل محذوف تقديره «أغني» بياناً للشيء العظيم الفخم، الذي حصل به التزيين، إنها كواكب السماء.

والمراد بالسَّماء الدنيا هُنا، الدائرة الهوائية الغازية حول الأرض، التي تَبْدُو الكواكب زينة فيها، لأنَّ الَّذِينَ يخرجون فوق هذه الدائرة لا يَرَوْنَ النجوم والكواكب ذات زينة ضوئية. والمراد بالكواكب النجوم.

● وقرأ حفص، وحمزة: ﴿زَيْنَةُ الْكَوَكِبِ﴾ بتنوين «زينة» وبجر «الْكَوَكِبِ» على أنها بدلٌ من لَفْظِ «زينة» أي: وزَيْنَا السَّماءَ الدُّنْيَا بالكواكب التي هي بنورها وتوزيعها في السماء زينة للناظرين إليها من سُكَّانِ الأرض.

● وقرأ باقي القراء العشرة: [زَيْنَةُ الْكَوَكِبِ] بإضافة لفظ «زينة» إلى الكواكب، والإضافة على تقدير اللام، أو مِن، فالمعنى: بزينةٍ لِلْكَوَكِبِ، أو بزينةٍ من الكواكب.

ومؤدَّى هذه القراءات مُتَّشَبِه، وهي من قبيل التفنن في التعبير الجميل.

﴿وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ (٧): أي: وحفظناها حِفْظًا شديداً محكماً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ. ﴿وَحِفْظًا﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف.

﴿شَيْطَانٍ﴾: المراد به هُنا المغوي المضلُّ المفسدُ مِنْ كَفَرَةِ الْجَنِّ.

﴿مَّارِدٍ﴾: أي: بالغ الغايَةِ في العتوّ والخُبثِ، واتّخاذِ وسائل الإغواء والإضلال والمهارة في اصطناع المكاييد الشريرة.

وإذا كانت السَّمَاءُ محفوظة من كلِّ شيطان مَّارِدٍ، فهي محفوظةٌ حتماً من الشياطين الذين لم يَنَلُغُوا أن يكونوا مَرَدَّةً.

﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمٍ إِلَّا أَعْطَى﴾: قرأ حفصٌ، وحمزةٌ، والكسائي، وخلفٌ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾: أي: لَا يَتَسَمَّعُونَ، أذغمت التاء بالسين فصارت سينا مشددة، والمعنى: لا يَقْدِرُونَ على أن يَتَسَمَّعُوا ولو تكلفوا ذلك.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾: أي: لا يَقْدِرُونَ أن يَسْمَعُوا لأنهم عن السَّمْعِ معزولون محجوبون مَمْنُوعُونَ.

الملا: السَّادَةُ والأشراف، والذين لهم التقدّم، والكلمة المسموعة، ولهم الأمرُ والنهي والتبليغ.

والمُرَادُ بِـ ﴿الْمَلَأَ الْأَعْلَى﴾ أَصْحَابُ الرِّيَاسَةِ وحملَةُ رِسَالَاتِ اللَّهِ من ملائكة السَّمَاءِ، ومنهم سَادَةٌ ملائكة السَّمَاءِ الدُّنْيَا، الَّذِينَ يَنْقُلُونَ إِلَى مَلَأِ ملائكة الأرض مَا قَضَاهُ اللَّهُ، أو أنزل به بياناً. وَصِفَ الْمَلَأُ بِالْأَعْلَى لِأَنَّهُ اسم جنس، ويجمع على أملاء. ولكلِّ سماءٍ من السماوات السَّبْعِ مَلَأٌ، وللأرض مَلَأٌ منهم.

﴿وَيَقْدُفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾: أي: وَيُرْمَوْنَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ من جوانب السَّمَاءِ الدُّنْيَا، بالأجرام المنبثة في الفضاء الخارجي، وهي التي تَصِيرُ شُهْباً تَخِرُّ إِذَا دَخَلَتْ فِي الغلاف الغازي الذي يُحِيطُ بِالْأَرْضِ، فمِنْهَا مَا يُطْرَدُ به الشياطين عن استراق السَّمْعِ، من المَلَأِ الْأَعْلَى، أي: من مَلَأِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا.

﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾: دُحُورًا: أي: طرداً بعنف وشدة مع إهانة وإذلال. وهو مَصْدَرُ «دَحَرَهُ، يَذْحِرُهُ، دَحْرًا، وَدُحُورًا» أي: أبعدَه وطرده بعنف وشدة.

و ﴿دُحُورًا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: يُذَحِّرُونَ دُحُورًا. والعذاب الواصب: هو العذاب الدائم الذي لا يَنْقُطِع، وهو عذاب يوم الدين في نار جهنم.

﴿إِلَّا مَنْ خَظَفَ الْخُطْفَةَ﴾: أي: إلا مَنْ اسْتَمَعَ اسْتِمَاعًا يَسِيرًا، على سبيل الخطف، فإنه لا يَسْتَطِيع أن يَهْرُبَ به لتبليغه إلى أهل الأرض، إذ يَتَّبِعُهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ فيَقْتُلُهُ، أو يُعْطِلُ أداة التبليغ عنده. ﴿فَاتَّبَعُهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾: أي: فَتَبِعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ فأذركه فقتله، أو عَطَلَ أداة التبليغ عنده.

شَهَابٌ ثَاقِبٌ: أي: شهاب ناري مُلْتَهَبٌ مُحْرِقٌ بناره المتوقدة.

النص الرابع:

قول الله عز وجل في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

المصابيح: جمع «المِصْبَاح» وهو شُعْلَةُ النَّارِ التي تُرَى في القنديل، أو في السراج. وهذه المصابيح تُنْطَبِقُ على الشُّهُبِ أكثر من انطباقها على النجوم العليا.

فتكاملت النُصُوصُ في الدَّلَالَةِ على أَنَّ المراد بِالسَّمَاءِ الدُّنْيَا الغلافُ الغازيُّ الهوائي المحيطُ بالأَرْضِ، فهي المَزَيَّنَةُ لِلنَّاطِرِينَ مِنْ سُكَّانِ الْأَرْضِ بِالْكَوَاكِبِ، وَبِالْمَصَابِيحِ، وَضَمَّنَ حُدُودَهَا تُحَاوِلُ الشَّيَاطِينُ أَنْ تَتَسَمَّعَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ، النَّازِلِينَ إِلَى مَلَائِكَةِ الْأَرْضِ بِالرَّسَائِلِ الرَّبَّانِيَةِ.

القضية الحادية عشرة:

دَلَّتْ عَلَيْهَا مَقَالَتُهُمْ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْمَعُ آلَانَ يَجِدْ لَّهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾.

قُرِئَ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ مَعَ نَصِّ السُّورَةِ بِفَتْحِ هَمْزَةٍ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا ۝٩﴾ وَيَكْسِرِهَا، وَقَدْ سَبَقَ تَوْجِيهِ الْقِرَاءَتَيْنِ فِي نَظِيرَتَيْهِمَا فِي الْقَضِيَّةِ الْخَامِسَةِ.

فَأَبَانَ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ مِنَ الْجَنِّ أَنَّهُمْ كَانُوا يَضَعُدُونَ، فَيَقْعُدُونَ عِنْدَ الْأَمَاكِنِ الَّتِي تَتَلَقَّى بِهَا مَلَائِكَةُ الْأَرْضِ، مِنْ مَلَأَ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ، مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَخْدَاطِ الَّتِي قَضَى اللَّهُ أَنْ تَخْذُثَ فِي الْأَرْضِ، فَيَلْتَقِطُونَ مِنْهُمْ مَا يَسْتَطِيعُونَ التَّقَاطُطُ، وَيَهْرَبُونَ بِهِ هَابِطِينَ إِلَى الْأَرْضِ، مُتَحَاشِينَ أَنْ تَصِيبَهُمُ الشَّهْبُ، وَهَذِهِ الْأَخْبَارُ الَّتِي كَانُوا يَسْتَرْقُونَهَا، قَدْ يُلْقَوْنَهَا إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ.

أَمَّا قُعُودُهُمْ فِي مَوَاطِنَ مِنَ الْغُلَافِ الْغَازِيِ الْمَحِيطِ بِالْأَرْضِ، فَأَمْرٌ سَهْلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْجَنِّ الطَّيَّارِينَ، إِذْ هُمْ بِأَجْسَادِهِمُ الرَّقِيقَةِ الْخَفِيفَةِ أَقْدَرُ عَلَى الْإِنْتَظَارِ طَوِيلًا فِي أَيِّ مَكَانٍ مِنْ هَذَا الْغُلَافِ مِنَ الطَّيْرِ الَّتِي تَلْبَثُ صَافَاتٍ.

وَكَانَ غَرَضُهُمْ مِنْ هَذَا الْقُعُودِ اسْتِرَاقُ السَّمْعِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ النَّازِلِينَ بِمَا قَضَى اللَّهُ، لِتَبْلِيغِهِ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ مَلَائِكَةِ الْأَرْضِ.

لَكِنَّهُمْ وَجَدُوا الْآنَ بَعْدَ بَغْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَمَا بَعْدَ الْآنَ، أَنَّ مِنْ يُحَاوِلُ أَنْ يَسْمَعَ فَإِنَّهُ يَجِدُ شِهَابًا رَّصَدًا يُوجِّهُ لَهُ لَطْرَدَهُ أَوْ قَتْلَهُ، أَوْ إصَابَتَهُ بِضَرَرٍ بِالْغ.

﴿الْآنَ ۝٩﴾: أَي: بَدْءًا مِنْ زَمَنِ بَغْثَةِ الرَّسُولِ ﷺ، فَمَا يَأْتِي مِنْ أَزْمَانٍ لَّاحِقَاتٍ.

﴿شِهَابًا ۝٩﴾: سَبَقَ بَيَانُهُ قَرِيبًا.

﴿رَصَدًا﴾: الرّصْدُ: الرّاصِدُ الذي يُرَاقِب بعناية بالغية ما يترقّبهُ ويرصّده.

يقال لغة: «رَصَدَهُ، يَرِصُّدُهُ، رَصَدًا، وَرَصَدًا» أي: قَعَدَ لَهُ على الطريق يَرِصُّهُ.

القضية الثانية عشرة:

دَلَّتْ عَلَيْهَا مَقَالَتُهُمْ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (١١).

قرىء كما سبق بيانه مع نصّ السورة بفتح همزة: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي﴾ وبكسرها، وقد سبق توجيه القراءتين في نظيرتيهما في القضية الخامسة.

فأبان هؤلاء النفر من الجنّ بَعْدَ منعِ الجنّ من استراق السَّمْعِ، إِذْ مُلِئَتِ السَّمَاءُ حَرَسًا شَدِيدًا، جَهْلُهُمْ بِالْغَايَةِ مِنْ هَذَا الْإِجْرَاءِ الرَّبَّانِيِّ، هَلْ هُوَ لَشَرٍّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ عِقَابًا لَهُمْ، عَلَى مَا انتشر فيهم مِنْ شَرٍّ وَفَسَادٍ وَكُفْرٍ، كإِهْلَاكِ شَامِلٍ، دُونَ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ عَلَى عِلْمٍ بِهِ مِنَ الْجِنِّ أَوْ مِنَ الْإِنْسِ. أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ أَمْرًا رَشَدًا، يَمْنَعُ بِهِ عَنْهُمْ كِهَانَةَ الْكُهَّانِ، وَمَا تُوجِي بِهِ إِلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ مِنَ الْأَنْبَاءِ الَّتِي تَنْزِلُ بِهَا مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ.

وَنَفَهُمْ مِنْ سَوَابِقِ هَذَا الْبَيَانِ وَلَوَاجِحِهِ، أَنَّ تَحْيِيرَهُمْ هَذَا قَدْ كَانَ قَبْلَ أَنْ يَطُوفُوا الْأَرْضَ بِأَحْثِينَ عَنِ السَّبَبِ، وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَمِعُوا الْقُرْآنَ الْعَجَبَ مِنْ تِلَاوَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَلَمَّا اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ عَرَفُوا السَّبَبَ، وَذَهَبَ عَنْهُمْ التَّحْيِيرُ، وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَرَادَ بِأَهْلِ الْأَرْضِ أَمْرًا رَشَدًا، إِذْ مَنَعَ عَنْهُمْ مَا كَانَتْ الشَّيَاطِينُ تُوجِيهِ إِلَى أَوَّلِيائِهِمُ الْإِنْسِ، مِنْ أَخْبَارِ حَقِيقِيَّةٍ يَسْتَرْقُونَهَا مِنْ مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ، حِينَمَا يَتَلَقَّاهَا مَلَائِكَةُ الْأَرْضِ، لِيَقُومَ مَلَائِكَةُ الْأَرْضِ بِوِظَائِفِهِمْ فِي الْأَرْضِ عَلَى مَقْتَضَاهَا.

﴿رَشَدًا﴾: الرَّشْدُ السُّلُوكُ الموافق للحق والصواب، أما لما هو الأفضل، والأخسَنُ والأكثر نفعاً.

القضية الثالثة عشرة:

دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَتُهُمْ: ﴿وَإِنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا﴾: ﴿١١﴾

قُرِئَ كما سَبَقَ بَيَانُهُ مع نَصِّ السورة بفتح همزة ﴿وَإِنَّا مِنَّا﴾ وبكسرها، وقد سَبَقَ توجيهِ القراءتين في نظيرتهما في القضية الخامسة.

فأبان هؤلاء النفر من الجن واقع حال قومهم من الجن، وأنه يُوجَدُ مِنْهُمْ صَالِحُونَ، ويوجدُ منهم آخرون تنازلاً في الدَرَجاتِ والدَرَكاتِ حتَّى أَحْسَهَا وَأَسْفَلَهَا.

﴿الصَّالِحُونَ﴾: جمع «الصالح» وهو ضدُّ الفاسد، وقد جاء في القرآن لفظ «الصالحين» وصفاً للأنبياء والمرسلين، والمؤمنين الذين يأْمُرُونَ بالمعروف وينهَوْنَ عن المنكرِ ويُسَارِعُونَ في الخيرات.

وأدخل الله عز وجل في الصَّالِحِينَ الأوَّابِينَ، الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا بَعْضَ المعاصي والمخالفات، رَجَعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِالتَّوْبَةِ والاستغفار على وَجْهِ السُّرْعَةِ دُونَ إِبْطَاءٍ، ولو تَكَرَّرَ مِنْهُمْ ذَلِكَ.

فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْفُسَّاقَ وَالْعُصَاةَ فَاسِدُونَ، لِأَنَّهُمْ بِالْعَمَلِ الْفَاسِدِ غَيْرِ الصَّالِحِ قَدْ عَرَّضُوا نُفُوسَهُمْ لِلْفَسَادِ، بِاسْتِنَاءِ الْأَوَّابِينَ التَّوَّابِينَ، الَّذِينَ يُدَاوُونَ مَا أَصَابَ نُفُوسَهُمْ مِنْ عَوَارِضِ الْفَسَادِ، بِمَا يُضْلِحُهَا وَيُعِيدُهَا إِلَى الصُّحَّةِ وَالسَّلَامَةِ، فَيَعُودُونَ بِسَبَبِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ صَالِحِينَ.

وَشَرُّ الْفَاسِدِينَ الْكَافِرُونَ، وَتَتَفَاقَمُ شُرُورُهُمْ بِحَسَبِ دَرَكَاتِ كُفْرِهِمْ، وَظَلَمِهِمْ، وَبَغْيِهِمْ، وَعَدْوَانِهِمْ، وَإِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ، وَأَعْمَالِهِمِ الْإِغْوَايَةِ الْإِضْلَالِيَّةِ، وَمَعَ أَهْلِ الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنْهُمْ أَخْبَاثُ الْمُنَافِقِينَ.

فَكُلُّ هَؤُلَاءِ الْمُتَنَازِلِينَ فِي الدَّرَجَاتِ، فَالدَّرَكَاتِ، عَنْ دَرَجَاتِ الصَّالِحِينَ، تَعْمَهُمْ عبارة: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: دُونَ فريقِ الصَّالِحِينَ، مَرَاتِبَ وَدَرَجَاتٍ وَدَرَكَاتٍ.

وعبارتهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ تُفِيدُ أَنَّهُ قَدْ كَانَ فِي الْجَنِّ جُنٌّ صَالِحُونَ قَبْلَ وُضُوعِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهِمْ، إِذْ كَانُوا عَلَى مِلَّةٍ مَقْبُولَةٍ عِنْدَ اللَّهِ، غَيْرَ مَنْسُوحَةٍ بِمِلَّةٍ لَاحِقَةٍ.

أَمَّا بَعْدَ أَنْ وَصَلْتُ إِلَى الْجَنِّ دَعْوَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَا يُوصَفُ بِالصَّلَاحِ إِلَّا مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا مُسْلِمًا تَقِيًّا، مُتَّبِعًا رِسَالَةَ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَتَمُّ التَّسْلِيمِ.

وَيَقُولُ الَّذِينَ لَهُمْ أَطْلَاعٌ عَلَى بَعْضِ أَحْوَالِ الْجَنِّ: إِنَّ فِيهِمْ يَهُودًا وَنَصَارَى وَصَابِئِينَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ، فَأَحْوَالُهُمْ وَمَذَاهِبُهُمْ، مَنَاطِرَةٌ لِأَحْوَالِ الْإِنْسِ وَمَذَاهِبِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا﴾: أَي: ذَوِي مَذَاهِبَ وَعَقَائِدَ وَمِلَلٍ وَأَهْوَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ مُتَقَطَّعَةٍ، لَا جَامِعَةً تَجْمَعُ بَيْنَهَا، فَنَحْنُ فِرْقٌ شَتَّى.

﴿طَرَائِقَ﴾: جَمْعُ «طَرِيقَةٍ» وَهِيَ فِي اللُّغَةِ تُطْلَقُ عَلَى السَّيْرِ، وَالْمَذْهَبِ، وَالْحَالِ، وَالْفِرْقَةِ.

وَإِطْلَاقُ لَفْظِ «طَرَائِقَ» عَلَى الْجَنِّ بِمَعْنَى الْفِرْقِ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَأْوِيلٍ وَلَا إِلَى تَقْدِيرٍ.

أَمَّا إِطْلَاقُ لَفْظِ «طَرَائِقَ» عَلَى الْجَنِّ بِمَعْنَى الْمَذَاهِبِ وَالسَّيْرِ وَالْأَحْوَالِ، فَهُوَ عَلَى تَقْدِيرٍ: كُنَّا ذَوِي طَرَائِقَ، بِحَذْفِ الْمُضَافِ لَفْظًا وَمُلَاحَظَةِ ذَهْنًا، أَوْ هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ، مِنْ إِطْلَاقِ الشَّيْءِ عَلَى صَاحِبِهِ، نَظِيرَ قَوْلِي:

هو الْجُودُ إِلَّا أَنَّ لِلْجُودِ زُلَّةً. هُوَ الْبِرُّ وَالتَّقْوَى بِلَا صَبَوَاتٍ.

أي: هو صاحب الجود والبر والتقوى، أو هو عين الجود والبر والتقوى لعظم هذه الصفات فيه، فكأنه هي.

﴿قَدَا﴾: جَمْعُ «قِدَّة» وهي الْقِطْعَةُ من الشيء، والفِرْقَةُ من الناس المتميزة بهوى، أو مذهب.

وأصل مادة الْقَدَّ، يَدُلُّ على الْقَطْعِ المستأصل، وعلى الشَّقِّ طَوْلًا، يقال لغة: «قَدَّ الْجُلْدَ، يَقْدُهُ، قَدَا» أي: قَطَعَهُ قَطْعًا مُسْتَطِيلًا، فاستخرج منه سَيْرًا.

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إذا استغلى في الحزب قَدَّ، أي: قَطَعَ مُنَازِلَهُ المَحَارِبَ لَهُ طَوْلًا، وكان إذا اغْتَرَضَ قَطَّ، أي: قَطَعَ غَرَضًا.

القضية الرابعة عشرة:

دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَتُهُمْ: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُنَجِّرَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ (١٢):

قرئ كما سبق بَيَانُهُ مع نصِّ السورة بفتح همزة: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا﴾ وبكسرها، وقد سبق توجيه القراءتين في نَظِيرَتَيْهِمَا في القضية الخامسة.

فَأَبَانَ هَؤُلَاءِ الثَّقَرُ مِنَ الْجَنِّ أَنَّهُمْ جَعَلُوا يُفَكِّرُونَ فِي أَنَّ اللَّهَ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ - لَوْ شَاءَ أَنْ يُنْزِلَ بِالْعَصَا مِنْ عِبَادِهِ عِقَابَهُ وَعَذَابَهُ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ أَقْوَى رِجَالِ الْجِنِّ، وَأَقْدَرِهِمْ عَلَى الْمَقَاوِمَةِ أَوْ الْهَرَبِ، فَهَلْ يَسْتَطِيعُونَ مُقَاوِمَةَ وَسَائِلِ عِقَابِهِ، بِالمَصَارَعَةِ، أَوْ بِاتِّخَاذِ مَلَاجِيءٍ وَوَاقِيَاتٍ تَحْمِيهِمْ، أَوْ بِالْهَرَبِ مِنْ مَوَاقِعَ تَنْزِلِ أَسْبَابِ عَذَابِ اللَّهِ، وَهُمْ خَلَقَ مَنْ خَلَقَهُ، وَهُوَ الَّذِي مَنَحَهُمُ الْقُوَى، وَجَعَلَهُمْ يَفْعُدُونَ فِي الْأَجْوَاءِ الْعُلْيَا مَقَاعِدَ لِلْسَّمْعِ، لالْتِقَاطِ أَخْبَارِ السَّمَاءِ مِنْ مَلَائِكَةِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى.

وبَعْدَ التَّفْكِيرِ الْمَتَأَنِّي غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِمْ، أَنَّهُمْ لَنْ يُعْجِزُوا اللَّهَ إِذَا أَرَادَ مَعَاقِبَتَهُمْ وَالْإِنْتِقَامَ مِنْهُمْ، لَا بِالْمُقَاوِمَةِ وَالْمَصَارَعَةِ، وَلَا بِاتِّخَاذِ الْمَلَاجِي وَالْوَأَقِيَّاتِ، وَلَا بِالْهَرَبِ إِلَى أَمَاكِنَ آمِنَةٍ.

وكان هذا الظنُّ مِنْهُمْ ظَنًّا رَاجِحًا لَمْ يَنْبُلْغْ مَبْلَغَ الْيَقِينِ، إِذْ هُمْ يُحَدِّثُونَ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ قَبْلَ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ مِنَ الرُّسُولِ، وَقَبْلَ الْإِيمَانِ بِهِ وَبِالرُّسُولِ وَبِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ.

وسبق إلى أذهان بعض المفسرين أنَّ هؤلاء النفر من الجنِّ يُحَدِّثُونَ عَنْ حَالِهِمْ بَعْدَ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ وَبَعْدَ الْإِيمَانِ بِهِ، فَفَسَّرُوا الظَّنَّ هُنَا بِمَعْنَى الْعِلْمِ وَالْيَقِينِ، وَقَدْ نَظَرْتُ مُتَّفَكِّرًا فِي اسْتِعْمَالَاتِ مَادَةِ الظَّنِّ هُنَا بِمَعْنَى الْعِلْمِ وَالْيَقِينِ، وَقَدْ نَظَرْتُ مُتَّفَكِّرًا فِي اسْتِعْمَالَاتِ مَادَةِ الظَّنِّ فِي الْقُرْآنِ مَعَ الْإِسْتِقْرَاءِ التَّامِّ، فَثَبَّتَ لَدَيَّ أَنَّهُ لَمْ يُسْتَعْمَلِ الظَّنُّ فِي آيَاتِهِ إِلَّا بِمَا هُوَ دُونَ الْيَقِينِ، وَنَزُولًا حَتَّى الظَّنُّ الضَّعِيفُ الْمَرْفُوضُ، الَّذِي لَا يَصِحُّ الْأَخْذُ بِهِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ. أَمَّا الظَّنُّ الْمَقْبُولُ فَهُوَ الظَّنُّ الرَّاجِحُ، وَيَصِحُّ الْعَمَلُ بِهِ حَتَّى يَأْتِيَ مَا هُوَ أَزْجَحُ مِنْهُ وَأَقْوَى دَلِيلًا.

وفي إعلان هؤلاء النفر من الجنِّ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يُؤْمِنُوا، وَهُمْ يَقُومُونَ بِدَعْوَةِ قَوْمِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، اسْتِخْدَامَ لِلْأَسْلُوبِ الْحَكِيمِ فِي دَعْوَتِهِمْ، إِذْ أَغْلَنُوا تَدْرِجَهُمْ فِي الْإِقْتِنَاعِ، حَتَّى بَلَّغُوا إِلَى الْيَقِينِ فَأَمَّنُوا، وَهَذَا الْأَسْلُوبُ مِنْ أَنْجَحِ الْأَسَالِيبِ الْحَكِيمَةِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي الْمَدْعُوعِينَ، لِأَنَّ طِبَاعَ النَفُوسِ فِي التَّدْرِجِ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْحَقِّ مُتَّشَابِهَةٌ.

القضية الخامسة عشرة:

دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَتُهُمْ: ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدْدَى ءَامَنَّا بِهِ...﴾ (١٣) ﴿:

قُرِئَ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ مَعَ نَصِّ السُّورَةِ بِفَتْحِ هَمْزَةٍ: ﴿وَأَنَا لَمَّا وَبَكْسَرِهَا، وَقَدْ سَبَقَ تَوْجِيهِ الْقَرَاءَتَيْنِ فِي نَظِيرَتَيْهِمَا فِي الْقَضِيَةِ الْخَامِسَةِ.

فَأَبَانَ هَؤُلَاءِ النِّفَرِ فِي دَعْوَتِهِمْ لِقَوْمِهِمْ مِنَ الْجَنِّ، أَنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَى، آمَنُوا بِهِ، إِذْ رَأَوْهُ حَقًّا وَدَاعِيًّا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَيَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ.

اتَّخَذُوا الْأُسْلُوبَ الْمُؤَثِّرَ الْحَكِيمَ بِالْحَدِيثِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ لَدَى دَعْوَتِهِمْ قَوْمَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَالْاهْتِدَاءِ بِهَذِي الْقُرْآنِ.

القضية السادسة عشرة:

دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَتُهُمْ: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ (١٣):

هذا البيان من هؤلاء النفر من الجن أبان أَنَّهُمْ حَمَلَةُ رِسَالَةِ دَعْوَةِ فِي قَوْمِهِمْ، إِلَى الْإِيمَانِ بِالرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ إِيْمَانًا كَامِلًا، وَهَذَا الْإِيمَانُ الْكَامِلُ الصَّحِيحُ يَسْتَلْزِمُ الْإِيمَانَ بِكُلِّ مَا جَاءَ عَنْ اللَّهِ، وَبِكُلِّ مَا أَمَرَ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَالْإِيمَانُ يَسْتَلْزِمُ إِعْلَانَ الطَّاعَةِ وَالْإِسْلَامَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِاسْتِلَامٍ كَامِلٍ.

﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾: أي: فلا يخاف نقصاً من أجرِ إيمانه ولوازم إيمانه. وَلَا يَخَافُ ظُلْمًا. بل يُؤْفِقُهُ اللَّهُ أَجْرَهُ عَلَى إِيْمَانِهِ، إِذْ هُوَ جَلَّ جَلَالُهُ كَرِيمٌ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ.

الْبَخْسُ: هو في اللُّغَةِ النِّقْصَانُ وَالظُّلْمُ، يُقَالُ لُغَةً: بَخَسَ فُلَانٌ فُلَانًا، أَي: ظَلَمَهُ بِنِقْصَانٍ مِنْ حَقِّهِ الَّذِي هُوَ لَهُ.

﴿وَلَا رَهَقًا﴾: الرَّهَقُ يَأْتِي لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ، سَبَقَ بَيَانُهَا لَدَى تَذَكُّرِ الْآيَةِ (٦) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ، وَأَنْسَبُهَا لَمَّا جَاءَ هُنَا فِي عِبَارَةٍ: ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ وَلَا يَخَافُ أَنْ يُحْمَلَ مَا لَا يُطِيقُ.

قال الأزهري في هذه الآية: الرَّهَقُ اسْمٌ مِنَ الْإِزْهَاقِ، وَهُوَ أَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ مَا لَا يُطِيقُ.

أقول: إِنَّ الْإِيمَانَ بِالْخَالِقِ الرَّبِّ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ - يَسْتَلْزِمُ

قبول التكاليف التي يكلفه الله إياها، لكن رَحْمَةُ الله عز وجل قد جعلت هذه التكاليف ضمن حُدود الطاقة والاستطاعة واليسر، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، فمن يؤمن بربه فهو لا يخاف رَهَقاً من تكاليف لا يطيق حملها.

ولعل هؤلاء النفر قد استفادوا هذه الحقيقة مما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) إذ جاء فيها قول الله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

وظاهر من ترتيب النزول أن سورة (الأعراف) قد نزلت قبل سورة (الجن).

القضية السابعة عشرة:

دَلَّتْ عَلَيْهَا مَقَالَتُهُمْ: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

قُرِئَ كما سبق بيانه مع نص السورة بفتح همزة: ﴿وَأَنَا مِنَّا﴾ وبكسرها، وقد سبق توجيه القراءتين في نظيرتيهما في القضية الخامسة.

هاتان الآيتان اشتملتا على بيان من هؤلاء النفر من الجن، عن حال قومهم من الجن، بعد أن قاموا برسالة الدعوة إلى الله، وإلى صراطه المستقيم بينهم، فاستجاب لدعوتهم فريق منهم، ورفض الاستجابة فريق آخر.

فأبأنوا أن من استجاب منهم فأسلم قد اجتهدوا في طلب الحق وفي طلب الصواب، وهذا هو تحرّي الرشد.

وأبأنوا أن الذين جازوا وعدلوا عن الحق والصواب، وعن صراط

الْهُدَى، فَلَمْ يَتَحَرَّوْا الرُّشْدَ، قَدْ عَرَّضُوا أَنْفُسَهُمْ لِعَذَابِ أَلِيمٍ خَالِدٍ فِي جَهَنَّمَ، إِذْ جَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ بِاخْتِيَارِهِمُ الْكُفْرَ وَالْعِصْيَانَ، مُؤْثِرِينَ ذَلِكَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ لِرَبِّهِمْ، وَقُدَّأَ لَجَهَنَّمَ يَوْمَ الَّذِينَ مَعَ الْحِجَارَةِ وَسَائِرِ الْكَفَرَةِ الْمُجْرِمِينَ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، فَهُمْ كَالْحَطَبِ لَجَهَنَّمَ، إِلَّا أَنْ الْحَطَبَ يَفْنَى بِالْحَرِيقِ فَيَصِيرُ رَمَادًا، أَمَّا الْمُجْرِمُونَ الَّذِينَ يَذُوقُونَ عَذَابَ الْحَرِيقِ فِي جَهَنَّمَ، فَكُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِذَلَّهُمْ اللَّهُ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ.

● ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ أي: وَأَنْ قَوْمَنَا بَعْدَ أَنْ دَعَوْنَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ صَارُوا فَرِيقَيْنِ:

الفريق الأول: الْمُسْلِمُونَ، وَهُمْ الَّذِينَ أَعْلَنُوا إِسْلَامَهُمْ، وَاتَّبَاعَهُمْ لِأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ وَشُرَائِعِهِ، إِذْ اسْتَجَابُوا لِدَعْوَةِ إِخْوَانِهِمُ النَّفَرِ مِنَ الْجَنِّ الَّذِينَ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ فَأَمَّنُوا بِهِ وَبَمَنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ، وَأَطَاعُوا رَبَّهُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ.

وبإعلانهم هذا اختاروا لأنفسهم أَنْ يَسْلُكُوا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ، وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

الفريق الثاني: الْقَاسِطُونَ، أي: الْجَائِرُونَ الَّذِينَ عَدَلُوا عَنِ الْحَقِّ، وَانْحَرَفُوا عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَالسَّبَبُ فِي غَدُولِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، أَنَّهُمْ لَمْ يُسْلِمُوا، فَجَاءَ الْإِسْلَامُ بَيِّنَاتٍ جَوْرِهِمُ الْكُلِّيَّ عَنْ ذِكْرِ عَدَمِ إِسْلَامِهِمْ.

أَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَجُورُونَ جَوْرًا كُلِّيًّا، وَلَا يَتَنَكَّبُونَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ تَنَكُّبًا كُلِّيًّا شَامِلًا، وَإِنْ عَصَوْا مُعَاصِيَّ مُتَفَرِّقَةً، فَالْمُعَاصِي مِنْ دُونِ الْكُفْرِ لَا تَدْمَعُهُمْ بِأَنَّهُمْ الْقَاسِطُونَ الْجَائِرُونَ جَوْرًا كُلِّيًّا عَامًّا.

استفدنا معنى جورهم الكلّي العام الشامل من أداة التعريف «ال» في كلمة ﴿الْقَاسِطُونَ﴾: فهي هنا «ال» المستغرقة لكل معاني الجور وعناصره، وهذا إنما يكون بالكفر.

القاسط: هو في اللغة، الجائر الذي يَغْدِلُ عن الحق، وعن طريق الهدى، يقال لغة: «قَسَطَ، يَقْسِطُ، قَسْطًا، وَقُسُوطًا، فهو قَاسِطٌ» أي: عَدَلَ عن الحق وعن طريق الهدى، وطريق الهدى هو الصراط المستقيم، الذي أَوْضَحَ معالمه وحدوده دِينُ رَبِّ العالمين.

أما «قَسَطَ يَقْسِطُ قَسْطًا» (بكسر القاف في المصدر) وأقْسَطَ يُقْسِطُ إقْسَاطًا فهو مُقْسِطٌ، أي: عَادِلٌ غَيْرُ جَائِرٍ.

● ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾:

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾: أي: فمن أَعْلَنَ اسْتِسْلَامَهُ لِلَّهِ صَادِقًا مُخْلِصًا، وَأَعْلَنَ قبولَهُ أَنْ يَدْخُلَ في دين الإسلام طائِعًا مختارًا، على ما أنزَلَ الله لعباده، وَبَعَثَ به رُسُلُهُ مُحَمَّدًا ﷺ.

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المستَحِقُّونَ لَأَنْ يُشَارَ إليهم باسم الإشارة الموضوع للمشار إليهم البَعِيدِينَ، للدلالة على ارتفاع منزلتهم، وَسُمُّوْا دَرَجَتِهِمْ، عند رَبِّهِمْ.

﴿تَحَرَّوْا﴾ أي: قَصَّدُوا باهْتِمَامٍ واجتهادٍ وعنايةٍ أَفْضَلَ الأمور، واجتهدوا في الطَّلَبِ مع التدقيق.

يقال لغةً: تحرَّى الأمرَ أو الشيءَ، إِذَا قَصَّدَهُ وَتَوَخَّاهُ، وتوجَّهَ له، واجتَهَدَ في طَلَبِهِ مُدَقِّقًا بِعنايةٍ.

﴿رَشَدًا﴾: الرُّشْدُ، والرُّشْدُ. والرَّشَادُ: الاهْتِدَاءُ إِلَى الحقِّ والصواب، والأفضل والأحسن.

يُقَالُ لغةً: «رَشَدَ، يَزْشُدُ، فهو راشِدٌ» و«رَشِدَ، يَزْشُدُ، رَشْدًا، وَرَشَادًا، فَهُوَ رَشِيدٌ» أي: اهْتَدَى إلى الحقِّ والصواب والأفضل.

ومن الاهْتِدَاءِ إِلَى الحقِّ والصواب وَمَا هُوَ الْأَفْضَلُ، السُّلُوكُ الْفَكْرِيُّ،

والنَفْسِيَّ، والْخَلْقِيَّ، وَالْعَمَلِيَّ، الموافق للحق والصواب، أو لما هو الأفضل والأحسن والأكثر نفعاً والأبعد عن الضر والأذى.

وَيُفْهَمُ من تحرِّي الذين أسلموا الرشد، أَنَّهُمْ يَجْتَهِدُونَ مُدَقِّقِينَ فِي قَضْدِ والتزام ما يُحَقِّقُ لَهُمُ السَّعَادَةَ العاجلة والآجلة يوم الدين، وهذه السَّعَادَةُ إِنَّمَا تَتَحَقَّقُ لَهُمُ بِالْإِيمَانِ بِالْحَقِّ، والأخذ بالصواب والعمل الصالح. ولوحظ في اسم الموصول في عبارة: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ معنى الجمع فأشير إليه باسم الإشارة ﴿فَأُولَئِكَ﴾.

● ﴿وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (١٥): أي: وأما الجائرون بعدم إسلامهم، وهم الَّذِينَ عَدَلُوا عن سلوك سبيل الهدى، وهو صراط الله المستقيم، إذ لم يُؤْمِنُوا بما أنزل الله عز وجل على رسوله، بل أَصْرُوا على ما كانوا عليه من ضلالتهم السابقات، وشركياتهم وكُفْرِيَّاتِهِمُ المختلفات، فجعلوا أنفسهم باختيارهم الحرُّ مُسْتَحَقِّينَ لَأَن يَكُونُوا لِجَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ، بمثابة الحطب الذي يُعَدُّ لِتَوْقَدَ بِهِ النَّارُ، أو لِيَزِيدَ بِهِ وَقُودُهَا.

وهذا من التشبيه البليغ، إذ حُدِفَتْ مِنْهُ أداة التشبيه ووجه الشبه. إنَّهُمْ سوف يُطْرَحُونَ وَيُكْبَوْنَ في جهنم كما يُطْرَحُ وَيُكَبُّ الحطب في النار.

فالنار تزيد وقوداً بأجسادهم، وكلما احترقت جلودهم ونضجت، بدلَّهم الله جلوداً غيرها ليدوقوا العذاب.

وفي تشبيههم بالحطب دلالة أخرى، وهي أَنَّهُمْ بجحودهم للحق، ورفضهم أَن يَسْتَجِيبُوا لِنداء رَبِّهِمْ في كتابه المنزل، وإبائهم أَن يَتَّبِعُوا الهدى، وَيَسْلُكُوا الصراط المستقيم، صاروا كَمَنْ فَقَدَ قُوَى الإذراك فيه، ثُمَّ فَقَدَ قُوَى الإحساسِ الباطنة والظاهرة، فصار لا يُؤَثِّرُ فِيهِ التَّخْوِيفُ والترهيب من عذاب الله في النار، ولا يُؤَثِّرُ فِيهِ الإطْمَاعُ والترغيب في نعيم الله الخالد في الجنة.

وَمَنْ فَقَدَ الْإِذْرَاكَ وَالْإِخْسَاسَ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ جِسْمٌ نَامَ مُذْرِكٌ ذُو حَوَاسٍ ظَاهِرَةٍ وَبَاطِنَةٍ، صَارَ كَشَجَرَةٍ مَجْثُوثَةٍ لَا حَيَاةَ فِيهَا، وَقَدْ يَبْسُتُ بِمُرُورِ الزَّمَنِ، فَهِيَ قِطْعَةٌ مِنَ الْحَطَبِ الَّذِي تُوقَدُ بِهِ النَّارُ.

وقد فهم هؤلاء النفر من الجن، أن الكافرين منهم الذين يجورون فلا يتبعون صراط الله المستقيم، يُعَذَّبُونَ في جهنم، مما سبق أن أنزله الله من قرآن قبل إنزال سورة (الجن).

فقد جاء في بعض السور النازلة قبلها أن الجن يُعَذَّبُونَ في نار جهنم كالإنس، إذا اختاروا لأنفسهم في الحياة الدنيا أن يكونوا كافرين، على أي مذهب من مذاهب الكفر بالحق، وبما أنزل الله لعباده، وفق آخر تنزيل أنزله إليهم.

ويلاحظ في عبارة: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۖ وَأَمَّا الْفَنِيسُونَ فَكَانُوا لِحِجَّتِهِمْ حَطَبًا ۖ﴾ ما يُسَمَّى عند علماء البلاغة الاختيباك، وهو الحذف من الأوائل لدلالة الأواخر، والحذف من الأواخر لدلالة الأوائل.

إذ المعنى في هذه العبارة: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۖ﴾ فكانوا من أهل الجنة دار النعيم يُنْعَمُونَ فيها يوم الدين ﴿وَأَمَّا الْفَنِيسُونَ ۖ﴾ فاتبعوا غيًا ولم يتحرروا رَشَدًا ﴿فَكَانُوا لِحِجَّتِهِمْ حَطَبًا ۖ﴾ يُعَذَّبُونَ فيها.

وبهذا ينتهي الدرس الأول من دروس السورة الثلاثة

والحمد لله على فتحه وتوفيقه

ولا حول ولا قوة إلا بالله



التدبر التحليلي للدرس الثاني من دُرُوس السورة وهو الآيات من (١٦ - ١٩)

قال الله عز وجل:

﴿وَالْوِاسْطَقُمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا ۝١٦ لَتَنفِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝١٨ وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾

تمهيد:

هذا الدرس الثاني من دروس السورة الثلاثة، درسٌ يَغِطُ الله عز وجل فيه بعضَ قضايا دينية لا على سبيل الحكاية لمقالات الثَّغَر من الجن، بل على سبيل إضافة قضايا جديدة يَبْنِيها الله عز وجل، هي بمثابة تَتَمَّاتٍ من عند الله عز وجل لمقالات الثَّغَر من الجن.

وقد ظهر لي أنَّ الغرض من هذا الأسلوب البياني الإشعارُ بتصديق ما ذكر هؤلاء الثَّغَر من الجن في مقالاتهم، وبهذا التصديق تكونُ مقالاتهم بمثابة مقالاتٍ صادراتٍ عن الله عز وجل مباشرة.

نظير أن يُقَرَّر تلميذُ الشيخ بحضوره أحكاماً تتعلق بمسألةٍ من مسائل العلم، حتَّى إذا أتمَّ التلميذُ كلامه، وأرادَ الشيخُ أن يُشعِرَ الحاضرين المستمعين بأنَّه يُقرُّ تلميذه على ما قال، وأراد أن يضيفَ أشياء من عنده لم يذكرها التلميذ، فيبني كلاماً من عنده، ويغطفه على ما سبق أن ذكره تلميذه.

أي: كُلُّ ما ذَكَرَهُ حقٌّ وصدقٌ، وأضيف إليه كذا وكذا. ولهذا فنَّ إيجازي في الكلام بديع، ونستطيع أن نَضَع له عنواناً نقول فيه:

«تصديق المتكلم بعطف كلام لم يقله على كلامه مع الإشعار بأنَّه ليس من كلامه».

وهذا القيد لازم للاحتراز من الإذراج، ومن التدليس.

القراءات:

● قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف، ويعقوب: ﴿يَسْأَلُكَ﴾
بياء الغائب. وقرأ باقي القراء العشرة «نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر: [نَسْأَلُكَ] بنون المتكلم العظيم.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني، إذ جاءت إحداها بأسلوب الحديث عن الغائب. وجاءت الأخرى بأسلوب حديث المتكلم العظيم عن نفسه.

ومعلوم أن الله عز وجل غائب عن حواس المخاطبين، وحاضر غير غائب بعلمه، وسمعه، وبصره، وسلطانه، وهيمته على عباده.

● وقرأ نافع، وشعبة عن عاصم: [وَلِإِنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ] بكسر همزة [وَلِإِنَّهُ] وقرأ باقي القراء العشرة: [وَأَنَّهُ] بفتح الهمزة.

أما فتح الهمزة فلوحظ فيه العطف على نظائرها، المبدوءة في أول السورة بقول الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾.

وأما كسر الهمزة فلوحظ فيه العطف على جملة ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ فهي مقول فعل: ﴿قُلْ﴾ ومعلوم أن همزة «إِنْ» تُكسر إذا كانت مقول القول، أو معطوفة عليه.

والقراءتان هما من قبيل التفنن في التوجيه الإعرابي، ومؤداهما من جهة المعنى متشابهان.

● وقرأ هشام في إحدى روايتين عنه: [لُبْدًا] بضم اللام. وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لِبْدًا﴾ بكسر اللام، وهو الوجه الثاني لهشام.
والقراءتان لغتان عربيتان في اللفظ، والمعنى فيهما واحد.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

• ﴿وَالْوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا ۖ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ...﴾.

﴿وَالْوِ اسْلُهَا «وَأَنْ لَّو» كُتِبَتْ كَمَا تُنطَقُ، إِذْ تُدْعَمُ النون باللام، فتصير لاماً مُسَدَّدةً.

«أَنْ» هي المخففة من الثقيلة «أَنْ» التي يؤتى بها لتأكيد مضمون الجملة التالية لها، واسمها صَمِيرُ الشَّانِ العظيم، وَخَبَرُهَا جملة: «لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَاهُمْ مَاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ».

والمعنى: وَأَنَّ الشَّانَ العظيم المؤكَّد هو ما يلي: لو حَصَلَتْ منهم الاستقامة على الطريقة المثلى، التي اصطفاه ربُّهم لهم، وأنزلها في هذا الدين الخاتم، وهو صراط الله المستقيم، لَأَسْقِينَاهُمْ بعظمة رُبوبيَّتينا وفيض عَطَايانا ماءً وفيراً كثيراً، فكان السَّبَبُ في كثرةِ النبات، ووفرة الأنعام، وكُلِّ رزقٍ طيِّبٍ نافع في الأرض، ولعاشُوا في مَتَاعٍ حَسَنٍ، ورَغَدٍ من الرزق، وكان امتحانهم في هذه الحياة الدنيا بوافر النعم وغزيرها.

والحديث في هذا البيان عن الجن والإنس معاً، لأنَّ هذين النوعين كليهما ممتَحَنان في ظروف الحياة الدنيا، والامتحان يكون بما يُجِبُّ العَبْدُ الممتَحَنُ وبما يَكْرَهُ.

واستقامتُهُمْ على الطريقة المثلى تتضمَّنُ قيامهم بِشُكْرِ الله على نِعَمه، والشُّكْر يجلبُ مَزِيدَ عطاءٍ من فضل الله، ضِمْنَ سُنَّتِهِ الثابتة في ظروف هذه الحياة الدنيا.

• [وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا]: «لَوِ» حرف شرط للتعليل في الماضي، وتقتضي لزوم امتناع جوابها لامتناع شَرْطِها.

اسْتَقَامُوا: أي: اغْتَدَلُوا واستَوَوْا وَلَمْ يَنْحَرِفُوا خُرُوجاً عن الطريقة المثلى. الاستقامة: هي الاعتدال والاستواء وَعَدَمُ الاغْوِجَاجِ خروجاً عن الصراط السوي.

فعل «اسْتَقَامَ» مثل فعل «قَامَ» بمعنى «اعْتَدَلَ» إِلَّا أَنَّ «اسْتَقَامَ» أُبْلِغَ وأقوى في الدلالة على معنى الاعتدال، نظراً إلى زيادة المبنى التي تُفِيدُ في العربية زيادة المعنى.

وقد تَدُلُّ هذه الصيغة على معنى المطاوعة لمطلب الاعتدال، فهم يستقيمون على صراط الله المستقيم طاعةً لأوامره ونواهيه، وإسلاماً واستسلاماً له جلّ جلاله.

● ﴿عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾: الطَّرِيقَةُ: هي السَّيْرَةُ الكَامِلَةُ المثلى في الإيمان والعمل الصالح، وهي صراط الإسلام، صراطُ اللَّهِ المستقيم.

ونفهم كمال الطريقة من أداة التعريف «ال» الدالة هنا على الكمال بمساعدة القرائن. ومعلوم في الدين أن الطريقة المثلى عند الله جلّ جلاله، صراطه المستقيم.

والمعنيون بضمير: ﴿اسْتَقَمُوا﴾ الجن والإنس، لأن الحديث في السُّورَةِ متعلّق بهما وابتلائهما.

● ﴿لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ اللام واقعة في جواب «لو» الشرطيّة. والماء الغدق، هو الماء الغامر الكثير.

أسقيناهم: يقال لغة: سَقَاهُ سَقِيًّا، وأسقاه إسقَاءً. والمرادُ إنزالُ الماءِ من السَّمَاءِ لسُقْيَا أَرْضِهِمْ وأنعامهم، ولِسُقْيَاهُمْ بأفواههم، ولاستخدام الماء في منافعهم ومصلحتهم المختلفة، كما قال الله عز وجل في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف / ٤٢ نزول):

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِّنُخْرِجَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْفَعًا وَأَنَاسِيًّا كَثِيرًا ۖ﴾ (٤٩).

وجاء تخصيص إسفائهم الماء بالذكر، لأن الماء من أجل نعم الله على الأحياء، وبه تتحقق سائر منافع الأرض لهم.

وقد أبان الله عز وجل أن من سنته أن يفيض الله على عباده بركات من السماء والأرض، إذا آمنوا واتقوا، فقال الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۖ﴾ (٩٦).

وقال جل جلاله وعظم سلطانه في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) بشأن أهل الكتاب:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ۖ﴾ (١١٦).

﴿مُّقْتَصِدَةٌ﴾: أي: لا يتوسعون في فعل الخيرات والصالحات من مرتبة البر والإحسان، بل يقتصرون مقتصدين على درجات مرتبة التقوى.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾: أي: وكثير منهم عصاة فاسقون ظالمون مسرفون في ارتكاب الآثام، حتى ذرعة الكبائر الكبرى، فأعمالهم تستحق أن تذم بأشد عبارات الذم، فيقال بشأنهم: «سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ» أي: ما أشد سوء ما يعمَلون.

أي: فلو أن أهل التوراة أقاموا التوراة، ولو أن أهل الإنجيل أقاموا الإنجيل، فعملوا بما فيهما، لأكلوا من فوقهم من ثمار الأشجار بلا مصائب ولا جوائح، ولأكلوا من تحت أرجلهم مما تخرج الأرض من خيرات بلا

مصائب ولا جوائح، ولكنهم لم يقيموا التوراة والإنجيل، فأنزل الله بهم الجوائح والقحط والجذب، والمصائب في الأرزاق والأموال، إذ إن الكثير منهم ما أشد سوء ما يعملون.

ووعد كل من نوح وهود عليهما السلام أقوامهما بأن يُرسل الله السماء عليهما مذراراً إذا استغفروا ربهم وتابوا إليه.

قال الله عز وجل في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول) حكاية لقول نوح عليه السلام لربه عما وجهه لقومه:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانُمْ أَفْهَارًا ۝١١﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٢﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيئَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٣﴾ ۝.

وقال الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكاية لما قال هود عليه السلام لقومه:

﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ۝٥٦﴾ ۝.

وقد أخطأ من قال في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقْنُمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ۝١٦﴾:

«وأن لو استقاموا على الطريقة التي هم عليها من الكفر». وخطأ هذا القول يظهر من التحليل التالي:

(١) إن الكافرين ليست لهم استقامة ما على طريقة، بل لهم طرائق قد مقطعة متفرقة، كما قال النفر من الجن: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَا ۝١٦﴾:

(٢) وصف الله عز وجل صراطه بأنه صراط مستقيم، وأمر الناس باتباعه، ونهاهم عن اتباع السبل لأنها سبل الشيطان ومتبعي الشيطان فقال الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ .

(٣) إِنَّ التَّوَسُّعَ عَلَى الْكَافِرِينَ لَيْسَتْ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ الثَّابِتَةِ، وَإِنَّمَا تَكُونُ بَعْدَ وَضُولِهِمْ إِلَى ذَرَكَةِ مَيْوُوسٍ مِنْ صِلَاحِهِمْ فِيهَا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحُرَّةِ، وَقَبْلَ إِهْلَاكِهِمُ الشَّامِلِ، إِذْ يُوسِّعُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَنْكَشِفَ طُغْيَانُهُمْ انْكَشَافًا تَامًا، وَعِنْدَئِذٍ يَنْزِلُ اللَّهُ بِهِمُ الْإِهْلَاكَ الشَّامِلَ بِصُورَةٍ مُبَاغِتَةٍ.

وقد أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ السُّنَّةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءِآلَاءُنَا الضَّرَّاءَ وَالسَّرَّاءَ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ .

● ﴿لِنَبْتَلِيَنَّهُمْ فِيهِ﴾ : أَي: لِنَمْتَحِنَهُمْ وَلِنَخْتَبِرَهُمْ فِيمَا تُوسِّعُ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمٍ كَثِيرَةٍ، سَبَّبَهَا إِفَاضَةُ الْمَاءِ الْغَدَقِ عَلَيْهِمْ.

الفتنة: فِي اللُّغَةِ تَأْتِي بِمَعْنَى الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِمْتِحَانِ وَالْإِخْتِبَارِ، وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ مِنْ مَعَانِيهَا.

وَلِلْفَتْنَةِ فُرُوعٌ مَعَانٍ أُخْرَى لَا تَصْلُحُ هُنَا.

وَنَحْنُ نَعْلَمُ مِنْ نصوص قرآنية كثيرة أَنَّ الْإِبْتِلَاءَ بِالنِّعَمِ وَالْمَصَائِبِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، هُوَ الْغَايَةُ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ فِي ظُرُوفِ هَذِهِ الْحَيَاةِ بِصِفَاتِهِمُ الَّتِي فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا، وَأَجَلُّهَا الْإِرَادَةُ الْحُرَّةُ، وَالْقُدْرَةُ الْإِدْرَاكِيَّةُ، وَالصِّفَاتُ النَّفْسِيَّةُ، وَالتَّمَكُّيْنُ بِالتَّسْخِيرِ الرَّبَّانِيِّ مِنْ تَنْفِيذِ الْمَرَادِ.



قول الله عز وجل:

• ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ (١٧).

وفي القراءة الأخرى: [نسلُكُهُ] بثُون المتكلم العظيم، لإلقاء الرُهبَةِ مِنْ عَذَابِ الرَّبِّ العظيم.

• ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾:

الإعراض: مَنَزَلَةٌ وَسَطَى بَيْنَ الإِقْبَالِ والإِذْبَارِ، وَأَضْلُ الإِعْرَاضِ إعْطَاءُ الْجَانِبِ، وَعُزْضُ الشَّيْءِ فِي اللَّغَةِ جَانِبُهُ، وَعَارِضًا الْإِنْسَانُ صَفْحَةً خَدِّيهِ.

ذَكَرَ الرَّبُّ هُوَ الْكِتَابَ الْمَنْزُولَ مِنْ لَدُنْهُ، وَهُوَ الْقُرْآنُ بَعْدَ أَوَّلِ مَرَاكِحِ إِنْزَالِهِ عَلَى خَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، إِذْ أَنْزَلَهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ ذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ، أَيْ: لِيَتَبَلَّغُوهُ وَلِيَتَذَبَّرُوهُ، وَلِيَضَعُوهُ فِي خَزَائِنِ ذَاكِرَاتِهِمْ، ثُمَّ لِيَذْكُرُوا بَيَانَاتِهِ وَأَحْكَامَهُ وَأَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ كُلَّمَا دَعَا أَمْرٌ أَوْ حَدَثٌ لَتَذْكُرِهَا، مِنْ أَجْلِ اتِّبَاعِهَا وَالْعَمَلِ بِهَا.

واختصاراً لهذه المطالب بشأن القرآن سَمَّاهُ اللَّهُ ذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي صُورَةِ (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بشأن القرآن:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٨٧) وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ بَعْدَ حِينٍ﴾ (٨٨).

والإعراض عن القرآن يَكُونُ بَعْدَ التَّوَجُّهِ لِتَلْقِيهِ وَتَذَبُّرِ مَعَانِيهِ، وَتَفْهَمِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ حَقٍّ وَهَدَايَةٍ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَمَا فِيهِ مِنْ وَصَايَا وَبَيَانَاتٍ وَأَحْكَامٍ وَشَرَائِعٍ.

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْقُرْآنِ هَذَا الإِعْرَاضَ، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي نَفْسِهِ ذِكْرٌ مَا، بَلْ يَسْتَمِرُّ طَوَالَ حَيَاتِهِ مُسْتَغْرِقًا فِي مَطَالِبِهَا، وَفِي مَطَالِبِ أَهْوَائِهِ وَشَهَوَاتِ نَفْسِهِ خِلَالِهَا، وَمُسْتَغْرِقًا فِي ضَلَالَاتِهِ وَمَعَاصِيهِ، مَفْتُونًا بِهَا.

وَأَشَدُّ مِنَ الإِعْرَاضِ الإِذْبَارُ وَالتَّوَلَّى، وَقَدْ اكْتَفَى النَّصُّ بِذِكْرِ

الإعراض، عن ذكرِ الإذبار والتَّوَلَّى، لَأَنَّ ذِكْرَ الْأَخْفِ يَدُلُّ عَلَى الْأَشَدِّ مِنْ بَابِ أُولَى عَقْلًا.

فَمَنْ يُعْرِضُ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ طَوَالَ حَيَاتِهِ، وَيَأْتِيهِ أَجَلُهُ وَهُوَ عَلَى إِعْرَاضِهِ، وَتَنْزِلُ بِهِ مَنِيَّتُهُ، يَسْأَلُكَ رَبُّهُ عَذَابًا صَعَدًا، أَي: يُدْخِلُهُ كَمَا يُدْخِلُ السَّلَكُ فِي الثَّقَبِ الضَّيِّقِ لِتَغْذِيهِ فِي جَهَنَّمَ تَغْذِيًا شَدِيدًا، وَلِيَذُوقَ بِهَذَا الْإِذْخَالَ عَذَابًا شَدِيدًا، جِزَاءَ إِعْرَاضِهِ عَنْ دَعْوَةِ رَبِّهِ لَهُ، وَعَدَمِ اسْتِجَابَتِهِ لِنِدَاءِ الدُّعَاةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ، وَاتِّبَاعِ كِتَابِهِ الْقُرْآنَ الْمَجِيدِ.

● ﴿يَسْأَلُكَ عَذَابًا صَعَدًا﴾:

يُقَالُ لُغَةً: «سَلَكَ الشَّيْءُ فِي الشَّيْءِ سَلَكًا فَانْسَلَكَ» أَي: أَدْخَلَهُ فِيهِ فَدَخَلَ.

قال ابن الأعرابي من أئمة اللُّغة: سَلَكَتُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَتُهُ غَيْرِي، فَجَعَلَ مِنْ اسْتِعْمَالَاتِ فِعْلِ «سَلَكَ» أَنَّهُ يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ، فَإِذَا كَانَ فِعْلُ «سَلَكَ» يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ إِلَى مَفْعُولَيْنِ كَمَا ذَكَرَ، فَكَلِمَةُ ﴿عَذَابًا﴾ مَفْعُولٌ بِهِ ثَانٍ.

وَإِذَا كَانَ فِعْلُ «سَلَكَ» لَا يَتَعَدَّى إِلَّا إِلَى مَفْعُولٍ بِهِ وَاحِدٍ، فَكَلِمَةُ ﴿عَذَابًا﴾ مَنْصُوبَةٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ، وَالْأَضْلُ: «فِي عَذَابٍ».

أَي: فِي مُحِيطٍ بِهِ يَذُوقُ مِنْهُ عَذَابًا دَوَامًا.

وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ الْعِبَارَةُ جَارِيَةً عَلَى تَضْمِينِ فِعْلِ ﴿يَسْأَلُكَ﴾ مَعْنَى فِعْلٍ «يُذَيِّقُهُ» وَالتَّقْدِيرُ: يَسْأَلُكَ مُذِيقًا إِيَّاهُ عَذَابًا. وَهَذَا التَّضْمِينُ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، إِذْ تُغْنِي الْجُمْلَةُ الْوَاحِدَةُ بِهِ عَنْ جُمْلَتَيْنِ، ذَكَرَ مِنْ إِحْدَاهُمَا عَامِلُهَا، وَذَكَرَ مِنَ الْآخَرَى مَعْمُولُهَا، وَهَذَا مِنْ بَدَائِعِ الْإِيجَازِ فِي الْقُرْآنِ.

وَمَعْنَى الْعِبَارَةِ عَمُومًا: يُدْخِلُهُ مُكْرَهًا فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ مِنْ جَهَنَّمَ يُعَذِّبُهُ بِهِ عَذَابًا شَدِيدًا.

﴿صَعَدًا﴾: أي: شاقاً شديداً، جاءت هذه الكلمة وصفاً لكلمة:
﴿عَذَابًا﴾. فالمعنى: يَسْلُكُهُ وَيُذِيقُهُ عَذَابًا شاقاً شديداً.

الصَّعْدُ: هو في اللغة المشقة. وَيُقَالُ لُغَةً: عَذَابٌ صَعْدٌ، أي: شديدٌ شاقٌ.

وعبارة ﴿يَسْلُكُهُ﴾ التي دَلَّتْ عَلَى الإِذْخَالِ فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ لَا يَتَسَّعُ لَأَكْثَرِ مِنْهُ، قد جاء التصريح به في قول الله عز وجل في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ يَبْعِدُ سَمِعُوا لَهَا نَفَيْطًا وَزَفِيرًا﴾ (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ (١٤).

الثُّبُور: الْهَلَاكُ بِالْمَوْتِ، ولكن لا مَوْتَ بَعْدَ الْبَعْثِ لِيَوْمِ الدِّينِ. فالمكذَّبون بيوم الدين، الْمُعْرِضُونَ عَنِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ ذِكْرُ رَبِّهِمْ، يُلْقَوْنَ إلقاءً مُّهِيناً مُّذْلاً فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ مِنْ جَهَنَّمَ، حَيْثُ السَّعِيرُ مُلْتَهَبٌ فِيهَا، فَيُسْلَكُونَ فِيهِ سَلَكًا، عَلَى مَقَادِيرٍ مُحِيطٍ أَجْسَادِهِمْ، لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.

فالتَّعْبِيرُ بِالسَّلَكِ الَّذِي مِنْهُ سَلَكُ الْخَيْطِ فِي ثَقْبِ الْإِبْرَةِ، مِنْ أَدَقِّ التَّعَابِيرِ وَأَبْرَعِهَا، لِلدَّلَالَةِ عَلَى إِحَاطَتِهِمْ بِالْوَسَائِلِ الَّتِي تُدْخِلُ إِلَى مَرَاكِزِ الْإِحْسَاسِ فِي ذَوَاتِهِمْ مَا يُعَذِّبُونَ بِهِ.

هذا العذاب لا يَعْرِفُ مَقْدَارَهُ، وَلَا يَسْتَطِيعُ تَصَوُّرُهُ، إِلَّا مَنْ أُدْخِلَ فِي قَنَازٍ مِنَ الْحَدِيدِ الْمَحْمِيٍّ بِحَرَارَةِ شَدِيدَةٍ، مَعَ بَقَائِهِ حَيًّا مُحِجًّا وَاعِيًّا لِكُلِّ مَا يَجْرِي لَهُ، وَهَذِهِ الْقَنَازَةُ الْحَدِيدِيَّةُ عَلَى قَدْرِ جِسْمِهِ، أَوْ أَضْيَقُ قَلِيلًا مِنْ جِسْمِهِ، فَهُوَ يُسْلَكُ فِيهَا بِدَفْعٍ أَوْ جَذْبٍ شَدِيدَيْنِ.



قول الله عز وجل:

• ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ١٨:

هذا الخطاب في هذه الآية موجّه للإنس والجن معاً.

﴿الْمَسْجِدَ﴾: جَمْعُ الْمَسْجِدِ، وكَلِمَةُ «مَسْجِدٍ» على وزن «مَفْعِل» تأتي «اسم مكان» وتأتي: «اسم زمان» وتأتي «مَصْدَرًا مِيمِيًّا». وأضِلْ قياسها «مَسْجِدٌ» بفتح الجيم لأن مضارع فَعْلِهَا على وزن «يَفْعُل» بضم العين، تقول: «سَجَدَ يَسْجُدُ».

قال علماء العربية: ويصح فيما جاء مسموعاً على خلاف القياس أن يُنطق على وفق القياس.

وأطلق لفظ «مَسْجِدٍ» في الاصطلاح العام الذي يُغْتَبَرُ عُزْفاً شائعاً على كل مكان بُنِيَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ عز وجل.

وبالنظر إلى المعاني اللغوية التي يُطلق عليها لفظ «مَسْجِدٍ». وجمعه «مساجد».

وبالنظر أيضاً إلى أن كل ما في الوجود سوى الله عز وجل، هو مِلْكٌ لِلَّهِ لَا يُشَارِكُهُ فِي مِلْكِيَّتِهِ لَهُ أَحَدٌ.

كانت عبارة: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ﴾ صالحةً للدلالة على أن كل ما يُطَلَقُ عَلَيْهِ لفظ «مسجد» وجمعه «مساجد» هو مِلْكٌ لِلَّهِ وَخَدَهُ، لَا يُشَارِكُهُ فِي مِلْكِيَّتِهِ أَحَدٌ، وَهُوَ حَقٌّ لِلَّهِ وَخَدَهُ إِذَا كَانَ مَصْدَرًا مِيمِيًّا بِمَعْنَى السُّجُودِ.

ولهذا جاء في أقوال المفسرين في تفسير كلمة ﴿الْمَسْجِدَ﴾ في هذا النص ما يلي:

• هي الأماكن المخصصة للعبادة.

• هي الأرض كلها، إذ جعل الله الأرض كلها للرسول محمد ﷺ مَسْجِداً وَطَهوراً، وهذه من خصوصيات هذه الرسالة الربانية الخاتمة.

- هي الأَعْضاء الَّتِي يَسْجُدُ المَصَلِّي بها على الأرض في صلاته، وهي: جَبْهَتُهُ، وَأَنْفُهُ، وَكَفَاهُ، وَرُكْبَتَاهُ، وَعَظْمَتَا قَدَمَيْهِ.
- هي أَعْمَال السُّجُود كُلِّهَا، إِذْ هِيَ حَقٌّ لِلَّهِ وَخَدَهُ.

أقول:

إِنَّ من الأسْلُوبِ المَتَّبَعِ في القرآن المجيد لتحقيق الإعْجَازِ في الإيجاز البديع، اسْتِغْمَالَ اللَّفْظِ في كُلِّ المعاني الَّتِي يَضْلُحُ لها في السِّيَاقِ والسَّبَاقِ من جُمْلَةِ المعاني الَّتِي يَدُلُّ عَلَيْهَا.

ولهذا ما ذَهَبَ إِلَيْهِ أَيْمَةُ المذاهب الثلاثة: «مَالِكٌ، والشافعي، وأحمد» رضي الله عنهم، وأَجْزَلَ مَثُوبَتُهُمْ.

ولفظ «المساجد»، هُنَا يَضْلُحُ للدَّلَالَةِ على كُلِّ معانيه، فلا داعي للتخصيص، إِذْ كُلُّ ما يُطْلَقُ عَلَيْهِ لفظ «مسجد» هو مِلْكٌ لله عَزَّ وَجَلَّ.

• ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ خطاباً للإنس والجن، أي: فلا تَعْبُدُوا مع الله أحداً.

أصل الدِّعاء في اللَّغَةِ النَّدَاءُ، ويأتي بمعنى الرُّغْبَةِ إلى الله والَطَّلَبِ منه لأُمُور الدُّنْيَا أو الآخِرَةِ، ويأتي بِمَعْنَى مُطْلَقِ العِبَادَةِ لله عَزَّ وَجَلَّ.

والدِّعاء بِمَعْنَى سَوْأَلِ الله من خَيْرِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، هو من العِبَادَةِ، بَلْ هو رَأْسُ العِبَادَةِ وَمُخْهَا، وأَحَدُ عناصرها الكبرى.

فالأولى أَنْ تُحْمَلَ الْعِبَادَةُ على مُطْلَقِ العِبَادَةِ، لَمَّا فيها من شمول.

وَيَدْخُلُ في العِبَادَةِ تبليغ دين الله، وتبليغ كتاب اللّهِ القرآن، وشرح معانيه ودلالات آياته وعباراته وَجَمَلِهِ، والإقْناع بما فيها من حقٍّ وَهُدًى.

وهذا التبليغ من أَفْضَلِ العِبَادَاتِ وَأَجَلِّهَا، إِذْ هُوَ وَظِيفَةُ الْمُرْسَلِينَ.



قول الله عز وجل:

﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۖ﴾ (١٦)

﴿لِبَدًا﴾ بكسر اللام لجمهور القراء، وفي قراءة لهشام عن ابن عامر: [لُبْدًا] بضم اللام، وهما لغتان والمعنى فيهما واحد. «لِبْدًا» جَمْعُ «لِبْدَةٍ» و«لُبْدًا» جَمْعُ «لُبْدَةٍ».

اللُبْدَةُ واللِبْدَةُ: في اللُّغَةِ الجماعةُ من الناس. ويقال لغة: النَّاسُ لُبْدٌ، أي: مجتمعون. ومالٌ لُبْدٌ، أي: كثيرٌ لا يُخَافُ فناؤه، كأنه التَّبَدُّ بَعْضُهُ على بعض. ولِبْدَةُ الأسد: الشعر المتراكب بين كتفيه وسميت الجماعة من الناس لِبْدَةً، لتلبدهم كالصُوفِ الذي يَلْتَبَدُّ بَعْضُهُ على بعض. أو كالشعر المتراكب بعضه على بعض.

وروي عن ابن عباس في تفسير: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾: أي: مجتمعين بعضهم على بعض. قال: ومعنى «لبد»: يَرْكَبُ بعضهم بعضاً^(١).

أقول: الجماعات المتألبّة ضِدّه، هذا أنسب المعاني الملائمة للسياق في النص، لعبارة: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ كما سيأتي إن شاء الله إيضاحه في التدبر.

● ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾: أي: لَمَّا قام عبد الله مُحَمَّد ﷺ بوظيفته التي كلفه الله إياها، وهي الدَّعْوَةُ إلى الله.

﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾: أي: كَادَ رَافِضُو دَعْوَتِهِ يَكُونُونَ جَمَاعَاتٍ مُجْتَمِعَةً بِكَثَافَةٍ ضِدّه لمقاومة دَعْوَتِهِ، ولمنعه من أداء رسالة رَبّه.

لقد شَرَفَ اللَّهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا بِأَنَّهُ عَبْدُهُ، لَأَنَّهُ قَدْ تَحَقَّقَ بِعُبُودِيَّتِهِ لَهُ تَحَقُّقًا هُوَ أَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُهُ الْكَامِلُونَ مِنَ الْبَشَرِ بِاخْتِيَارِهِمُ الْحَرَ، ضمن مفهومات العبوديّة الاختياريّة.

(١) انظر، «لسان العرب» لابن منظور: مادة «لبد».

أَمَّا الْعُبُودِيَّةُ الْجَبَرِيَّةُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهِيَ وَضَفَ مَلَاذِمَ لِلْأَنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ، وَلِكُلِّ حَيٍّ، لِأَنَّهُمْ جَمِيعاً خَلَقَهُ، فَهُوَ بِمُقْتَضَى خَلْقِهِ لَهُمْ هُوَ مَالِكُهُمْ، وَبِمُقْتَضَى سُلْطَانِهِ عَلَيْهِمْ دَوَاماً، وَإِمْدَادُهُ لَهُمْ بِالْبَقَاءِ دَوَاماً، وَبِمُقْتَضَى خُضُوعِهِمْ لِمَقَادِيرِهِ دَوَاماً، فَهُمْ عَبِيدُهُ دَوَاماً عُبُودِيَّةً جَبَرِيَّةً، لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ الْخُرُوجَ عَنْهَا طَرْفَةً عَيْنٍ وَلَا أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ، فَالْكَفَّارُ وَالْفَجَّارُ عَبِيدُ اللَّهِ بِالْقَهْرِ.

وَأَمَّا تَحَقُّقُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعُبُودِيَّةِ الْاِخْتِيَارِيَّةِ، فَهُوَ فِي الْغَالِبِ مِنْ أَحْوَالِهِمْ، وَفِي مَعْظَمِ أَفْرَادِهِمْ، تَحَقُّقٌ نَاقِصٌ، لَوْفَرَةِ مَا يَزْتَكِبُونَ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ وَالْخَطَايَا.

وَقَدْ شَرَّفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الرُّسُلَ وَالْأَنْبِيَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بِالْعُبُودِيَّةِ الْاِخْتِيَارِيَّةِ الْخَاصَّةِ، ذَاتِ الدَّرَجَاتِ الْقَرِيبَاتِ مِنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ.

وَمُنَحَ بِفَضْلِهِ جَمِيعُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عُبُودِيَّةً ذَاتَ تَفْضِيلٍ مَا، بِحَسَبِ مَرَاتِبِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ فِي الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، وَالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ.

وَالْقُرْآنُ فِي النُّصُوصِ تَدُلُّ بِإِشَارَاتِهَا عَلَى مُسْتَوَى الْمَرْتَبَةِ وَالذَّرَجَةِ فِي الْعُبُودِيَّةِ التَّشْرِيفِيَّةِ الَّتِي يَمْنَحُهَا اللَّهُ لِعَبْدِهِ، أَوْ لَطَوَائِفَ وَزُمَرٍ مِنْ عِبَادِهِ.

وَمَنْ مَنَحَهُمُ اللَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ - مَرْتَبَةً عُبُودِيَّةً تَشْرِيفِيَّةً رَفِيعَةً جَدًّا:

(١) رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَمَنْ أَوْضَحَ النُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ الْعَظِيمَةِ وَالذَّرَجَةِ الرَّفِيعَةِ فِيهَا، قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْإِسْرَاءِ/ ١٧ مَصْحَف/ ٥٠ نَزُول):

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

(٢) رُسُلُ اللَّهِ: «إبراهيمُ وإسحاقُ ويعقُوبُ» عليهم السَّلام، ومن أوضح النصوص الدَّالَّةُ على مَرْتَبَتِهِم العظيمة في عبوديتهم لله عزَّ وجلَّ وَدَرَجَتِهِم الرَّفِيعَة فيها، قول الله عزَّ وجلَّ بشأنهم في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَلَئِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ .

ومع ما في ذكرِ العبوديَّةِ التَّشْرِيفِيَّةِ لِلَّهِ عزَّ وجلَّ وضفاً للكاملين من البشر، وتنويعاً بارتفاع مَرْتَبَتِهِم وَدَرَجَتِهِم فيها، فإنَّ فيها تَنْبِيهاً على أنَّ أحداً سِوَى اللَّهِ مَهْمَا اِرْتَفَعَتْ مَنْزِلَتُهُ قُرْباً مِنْ رَبِّهِ، حَتَّى عُرِجَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَإِنَّهُ لَا يَخْرُجُ عَنْ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ - جَلَّ جلالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانُهُ - فَلَنْ يَكُونَ ابْنًا لِلَّهِ، وَلَا شَرِيكاً لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ رُبوبِيَّتِهِ، وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ إلهيَّتِهِ، فَاللَّهُ عزَّ وجلَّ غَنِيٌّ بِذاته، وبصِفاتِهِ، عَنْ أَنْ يَتَّخِذَ صَاحِبَةً، أَوْ وَلَدًا، أَوْ شَرِيكاً، وَمُنَزَّةٌ عَنْ أَنْ يُلِدَ أَوْ يُوَلَدَ، وَعَنْ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ كُفُؤاً لَهُ سُبْحَانَهُ.

إِنَّهُ - جَلَّ جلالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانُهُ - أَحَدٌ صَمَدٌ.

ولهذا قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ بشأن عيسى عليه السَّلام وبشأن الملائكة المقربين، في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا ﴿١٧٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٧﴾﴾ .

اسْتَنْكَفَ: أي: أَنْفَ وامْتَنَعَ، يقال لغة: اسْتَنْكَفَ مِنَ الشَّيْءِ، واسْتَنْكَفَ عَنْهُ، أي: أَنْفَ وامْتَنَعَ كَارِهًا لَهُ. واستنكفَ عن الْعَمَلِ امتنع عن القيام به كَارِهًا لَهُ، وقد تكون الكراهية ناشئة عن الاستكبار.

وَلَيْلًا: أي: سَيِّدًا يَخْتَمُونَ به .

وَلَا نَصِيرًا: أي: وَلَا نَصِيرًا يَنْصُرُهُمْ، فَيَذْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابَ اللَّهِ الْأَلِيمِ .

● ﴿يَدْعُوهُ﴾: أي: يَعْبُدُ اللَّهَ بِتَبْلِيغِ دِينِهِ، والدَّعْوَةُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ، والتَّزَامِهِ بِأَنْ يَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ الْمُجَاهِدِينَ، الصَّادِعِينَ بِالْحَقِّ، الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ، والملتجئين إليه بالدُّعَاءِ .

فالدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ مع الالتزام بشروطها، ومنها أَنْ يَكُونَ مُطَبَّقًا مَا يَدْعُو إِلَيْهِ، أَشْرَفُ الْعِبَادَاتِ وَأَكْمَلُهَا .

سَبَقَ أَنْ ظَهَرَ لَنَا بِالتَّحْلِيلِ أَنَّ الدُّعَاءَ يَشْمَلُ كُلَّ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ .

وَلَمَّا قَامَ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ يَدْعُو رَبَّهُ، فَيَعْبُدُهُ بالدَّعْوَةِ إِلَى دِينِهِ، بِجِهَادٍ مُتَوَاصِلٍ، وَمُتَابَعَةٍ بِصَبْرٍ وَدَأْبٍ، وَيُبَلِّغُ مَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ، لَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْئًا، أَرْعَجَ بِجِهَادِهِ وَصَبْرِهِ وَدَأْبِهِ الْمَشْرُكِينَ، وَسَائَرَ الْكَافِرِينَ، وَهَاجَهُمْ، وَاسْتَنَارَ غَضَبَهُمْ، وَلَا سِيَّمَا حِينَمَا أَخَذَ أَتْبَاعُهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاسْتَجَابُوا لِدَعْوَتِهِ يَتَكَاثَرُونَ، وَيَكُونُونَ مِنْ حَوْلِهِ قُوَّةً مُنَاصِرَةً مُؤَاوِرَةً .

وَخَافَ كِبَرَاءَ قَوْمِهِ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ، أَنْ يَفْقِدُوا فِي قَوْمِهِمْ مَكَانَاتِهِمُ الَّتِي لَهُمْ، وَأَنْ يَسْلُبَهُمْ مُحَمَّدٌ سُلْطَانَهُمْ وَرِعَامَاتِهِمْ، وَخَافُوا أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ الَّتِي يَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهَا هِيَ الْعُلْيَا، وَأَنْ تَكُونَ كَلِمَاتُهُمْ هِيَ السُّفْلَى فِي مَجْتَمِعِهِمْ، عِنْدَئِذٍ تَدَاعَوْا عَلَيْهِ مُتَنَاصِرِينَ جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ، حَتَّى كَادُوا أَنْ يَكُونُوا ضِدَّهُ لِبَدَأٍ، لِيُوَاجِهُوا دَعْوَتَهُ بِالْقُوَّةِ الَّتِي تَقْمَعُهَا، وَتُفَرِّقُ أَنْصَارَهَا، بِالِاضْطِهَادِ وَالْعَنْفِ الْقَاسِرِ .

وَكَانَ هَذَا قُبَيْلَ إِنْزَالِ سُورَةِ (الْجَنِّ) وَإِبْرَانِ إِنْزَالِهَا، وَهَذَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ . لَمْ يَصِيرُوا بَعْدَ عَلَيْهِ لِبَدًا، جَمَاعَاتٍ مُتَالِبَةٍ ضِدَّهُ، لِمَقَاوِمَةِ دَعْوَتِهِ، وَاضْطِهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، لَكِنَّهُمْ كَادُوا أَنْ يَكُونُوا كَذَلِكَ .

هذه العبارة تصِفُ المرحَلةَ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا مُشْرِكُو مَكَّةَ مِنْ تَارِيخِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَدْ جَاءَتْ بَعْدَهَا مَرَا حِلُّ أَشَدُّ مِنْهَا.

وَلَدَيْ مَلاحِظَةٍ تَشْبِيهِ مُقَاوِمِي دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ فِي أَوَاسِطِ المَرحِلةِ المَكِّيَّةِ بِاللُّبْدِ، وَمِنْ مَعَانِي اللَّبْدِ جَمْعُ «لَيْدَةٍ» وَهِيَ الشَّعْرُ المَتْرَاكِبُ بَيْنَ كَتِفَيْ الأَسَدِ، نَجِدُ إِحْيَاءَ بَأَنَّ جَمَاعَاتٍ مُقَاوِمِي دَعْوَتِهِ، وَلَوْ وَصَلُوا حَتَّى صَارُوا لَبْدًا بِالْفِعْلِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوهُ شَيْئًا، لِأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَيْهِ مِثْلُ لَيْدَةِ الأَسَدِ بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهِ، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَامِيهِ، وَنَاصِرُ دِينِهِ وَخَازِلُ كُلِّ مَنْ يُعَادِيهِ وَيُقَاوِمُ دَعْوَتَهُ، وَيَضْطَهِدُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي تَحَقَّقَ فِيمَا بَعْدَ.

فَالْمَعْنَى الَّذِي نَسْتَخْلَصُهُ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ ﴿١٩﴾ كَمَا يَلِي:

وَأَنَّهُ لَمَّا نَهَضَ عَبْدُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ بِهِمَّةٍ وَحَزْمٍ وَعَزْمٍ وَحِكْمَةٍ وَصَبْرِ وَدَابٍّ، مُتَحَلِّيًا بِالعُبُودِيَّةِ الاختياريَّةِ الكَامِلَةِ لِرَبِّهِ، يُبْلَغُ كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي يَنْتَزِلُ عَلَيْهِ، وَيَدْعُو إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، مُطَبَّقًا بِذَاتِهِ أَحْكَامَ الإِسْلَامِ وَشَرَائِعَهُ، فَاسْتَجَابَ لِدَعْوَتِهِ مِنْ قَوْمِهِ فَرِيقٌ صَالِحُونَ مُؤْمِنُونَ مُجَاهِدُونَ، وَصَارَ أَمْرُهُ مَخُوفًا بِالنَّسْبَةِ إِلَى كِبَرَاءِ قَوْمِهِ الْمُشْرِكِينَ، إِذْ صَارُوا يَحْذَرُونَ مِنْ انْتِشَارِ دَعْوَتِهِ أَنْ يَفْقِدُوا مَكَانَتَهُمْ وَمَصَالِحَهُمْ وَزَعَامَتَهُمْ.

لَمَّا حَصَلَ ذَلِكَ تَنَادَى هَؤُلَاءِ الكِبَرَاءِ الكَافِرُونَ لِمُقَاوِمَتِهِ، وَإِسْكَاتِ دَعْوَتِهِ، وَاضْطِهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، فَأَخَذُوا يَحَاوِلُونَ تَجْمِيعَ جَمَاعَاتِ مُتَكَاثِفَاتِ مُتَلَبِّدَاتٍ، بُغْيَةِ الإِحَاطَةِ بِالرَّسُولِ حَوْلَ رَقَبَتِهِ، كإِحَاطَةِ لَيْدَةِ الأَسَدِ حَوْلَ رَقَبَتِهِ.

وَبالنَّظَرِ إِلَى السُّورِ الَّتِي نَزَلَتْ قَبْلَ سُورَةِ (الْجَنِّ) فِي نَجُومِ التَّنْزِيلِ، نَجِدُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ، تَتَحَدَّثُ عَنْ طَوْرِ تَطَوُّرَاتٍ إِلَيْهِ مَوَاقِفُ كِبَرَاءِ مُشْرِكِي مَكَّةَ

قُبِيلُ نُزُولِ سُورَةِ (الجن) وَهُوَ طَوْرُ التَّكْثِيلِ فِي جَمَاعَاتٍ ضِدَّ الرُّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ.

وَهَذِهِ مَرْحَلَةٌ طَبِيعِيَّةٌ اِزْتِقَائِيَّةٌ فِي الْعِدَاءِ، وَهِيَ تَكْشِيفُ الطَّوْرِ الْجَدِيدِ الَّذِي تَحَوَّلَتْ إِلَيْهِ مَوَاقِفُ كُبَرَاءِ أَعْدَاءِ دَعْوَتِهِ فِي مَكَّةَ.

لَقَدْ كَانَ الطَّوْرُ إِبَّانُ نُزُولِ سُورَةِ (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) طَوْرًا كَانَ فِيهِ هَؤُلَاءِ الْكُبَرَاءِ فِي عِزَّةٍ وَشَقَاقٍ.

وَإِبَّانُ نُزُولِ سُورَةِ (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول) تَرَفُّؤًا إِلَى طَوْرِ مِنْ يَحَاوِلُ الْاجْتِمَاعَ الْمَتَلَبِّدَ لِحَرْبِهِ، وَبِهَذَا تَظْهَرُ حَرَكِيَّةُ الْأَطْوَارِ فِي مَوَاقِفِ كُبَرَاءِ كَفَّارِ مَكَّةَ تَجَاهَ دَعْوَةِ الرُّسُولِ ﷺ.

أَمَّا مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ، مِنْ أَنَّ الْجَنَّ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبْدًا حِينَمَا حَضَرُوا وَاسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ مِنْهُ، فَهُوَ لَا يَتَلَاءَمُ مَطْلَقًا مَعَ كَوْنِهِمْ نَفَرًا لَا يَتَجَاوِزُونَ الْعَشْرَةَ، وَجَاءَ فِي الرِّوَايَاتِ أَنَّهُمْ كَانُوا سَبْعَةً أَوْ تِسْعَةً، وَلَا يَتَلَاءَمُ مَعَ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ لِكَلِمَةِ «لَيْدٌ» كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ.

وَأُظُنُّ أَنَّهُمْ قَدْ اخْتَلَطَتْ عَلَيْهِمْ حَادِثَةُ لِقَاءِ الْجَنِّ فِي الْحُجُونِ أَوَّاخِرِ الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ عَلَى مَا رَوَاهُ ابْنُ مَسْعُودٍ، بِحَادِثَةِ الثُّفَرِ الَّذِينَ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ مِنَ الرُّسُولِ، وَهُوَ لَا يَغْلَمُ بِهِمْ، حَتَّى أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ بِقِصَّتِهِمْ.

وَبِهَذَا انْتَهَى تَدْبِيرُ الدَّرْسِ الثَّانِي مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى تَوْفِيقِهِ وَمَعُونَتِهِ وَفَتْحِهِ.



(٧)

التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس التورة وهو الآيات من (٢٠ - ٢٨) آخر السورة.

قال الله عز وجل خطاباً لرسوله محمد ﷺ ومُعَلِّماً ما يقوله:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلَّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ .

القراءات:

● قرأ عاصم، وحزمة، وأبو جعفر: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ ﴿قُلْ﴾ فِعْلٌ أمر. وقرأ باقي القراء العشرة [قَالَ] فعلاً ماضياً.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، أي: قال الله له: [قُلْ] فل[قَالَ] كما أمره الله.

● وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [رَبِّي أَمَدًا] بفتح ياء المتكلم. وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿رَبِّي أَمَدًا﴾ بإسكانها ومَدَّهَا وضلاً. وهما وجهان عربيان لنطق ياء المتكلم.

● وقرأ رؤيس: [لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا] ببناء «يَعْلَمَ» لما لم يُسَمَّ فاعله. وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ بالبناء للمعلوم، والفاعل ضمير يعود على لفظ ﴿رَبِّي﴾ في الآية (٢٥).

وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد، فقراءة الجمهور دلّت على عِلْمِ الله خاصّة، وقراءة «رؤيس» دلّت على وجود هذا العِلْمِ عند غير الله كالملائكة المكلفين أن يُسجّلوا أعمال العباد.

تمهيد:

هذا الدرس الثالث من دروس السورة، دُرِسَ يُعَلِّمُ الله عزّ وجلّ فيه رُسُولَهُ ما يقوله لكفّارِ قَوْمِهِ، في المرحلة التي نزلت فيها سورة (الجن). في مواجهة الطّور الذي وصلوا إليه، حتّى كادوا يكونون مُتَأَلِّبِينَ جماعاتٍ على عداوته، ومقاومة دَعْوَتِهِ، واضطهاد الذين آمنوا به واتّبعوه، وهذه الجماعات متكاثفة متلبّدة كتلبّد الصّوف، أو الشّعْر حين يترابكبُ بغضه على بعض، كما سبق بيانه في الدرس الثاني من دروس السورة، لدى تدبّر قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدَا ۖ﴾ (١٩)

إنّ هذا الطّور يستدعي مقالاتٍ يُوجِّهها الرّسول ﷺ لرافضي الاستجابة لدَعْوَتِهِ، يُبَيِّنُ لهم فيها مَسْئُولِيَّتَهُ ثُجَاةَ رَبِّهِ، وَخَوْفَهُ مِنْ مُخَالَفَةِ مَا كَلَّفَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ مِنْ تَبْلِيغِ دِينِهِ، وَيُحَذِّرُهُمْ فِيهَا مِنْ عَاقِبَةِ مَعْصِيَتِهِمْ لِلَّهِ وَلِرُسُولِهِ، وَيُجِيبُهُمْ فِيهَا عَلَى تَسْأُلَاتِهِمُ الْمُتَعَلِّقَةِ بِمَا كَانَ قَدْ أَنْذَرَهُمْ بِهِ، مِنْ انتصار الحقّ الذي جاء به عن ربّه، على باطلهم المصيرين على الالتزام به بعنادٍ واستكبار، وما وَعَدَهُمْ بِهِ مِنْ انتصار من آمَنَ به منهم، على مَنْ كَفَرَ ووقف مواقف العداء، والاستعداد للمقاومة والحزب، حتّى كادوا يُجَمِّعُونَ جماعاتهم اللَّبِيدَ لَقَمْعِ دَعْوَتِهِ، واضطهاد أنصاره الذين آمنوا به واتّبعوه، اضطهاداً يوقف مَسِيرَةَ دعوة الإسلام وانتشارها.

وكلُّ قول يَقُولُهُ الرّسول ﷺ لكفّارِ الْإِنْسِ، هو قولٌ مُوجَّهٌ أَيْضاً لكفّارِ الْجَنِّ، لأنّ الجنّ في قضايا الدّين وبلغاته تابِعُونَ لِنُظَرَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ في رسالة محمّد ﷺ، الخاتمة لرسالاتِ الله لعباده.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ (٢٠).

وفي القراءة الأخرى: [قَالَ]، أي: كما سبق بيانه: ﴿قُلْ﴾ [قَالَ] كما أمره ربه.

والمعنى: قل: يا مُحَمَّدُ: مَا أَعْبُدُ إِلَّا رَبِّي فِي سُلُوكِي الشَّخْصِي، وَفِي دَعْوَتِي إِلَى سَبِيلِهِ، وَفِي الْبَلَغَاتِ الَّتِي أَمَرَنِي بِأَنْ أُبَلِّغَهَا لِعِبَادِهِ، وَأَنَا لَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حَصْرٍ، وهي في معناها تَدُلُّ عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ التَّنْفِي والاستثناء بـ«إِلَّا» بَعْدَهُ، وَالْمَقْصُورُ بِهَذِهِ الْأَدَاةِ هُوَ مَا يَلِيهَا مُبَاشَرَةً، وَالْمَقْصُورَ عَلَيْهِ هُوَ الَّذِي يَجِيءُ بَعْدَهُ. فالمعنى: أَقْصُرُ دُعَائِي عَلَى رَبِّي، أَي: مَا دُعَائِي إِلَّا لِرَبِّي، فَرَبِّي وَخَدَهُ هُوَ الْمَوْصُوفُ بِأَنِّي أَدْعُو إِلَيْهِ، وَهُوَ قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ مِنْ قَبِيلِ قَصْرِ الصِّفَةِ عَلَى الْمَوْصُوفِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْبَلَاغَةِ.

فقال الرسولُ مُحَمَّدٌ وَفَق دَلَالَةُ الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ: إِنَّنِي فِيمَا أَدْعُو، وَفِيمَا أُبَلِّغُ عَنْ رَبِّي، أَقُومُ بِمَا يَجِبُ عَلَيَّ مِنْ عِبَادَةِ تُجَاهَ رَبِّي الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَلَا فِي إِلَهِيَّتِهِ. فَأَنَا لَا أَتَلَقَّى الْأَوَامِرَ مِنْكُمْ وَلَا مِنْ آلِهَتِكُمْ الْبَاطِلَةِ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حَتَّى أَتَوَقَّفَ عَنْ عِبَادَتِي لِرَبِّي فِي الْقِيَامِ بِمَا يَجِبُ عَلَيَّ مِنْ دَعْوَةٍ إِلَى سَبِيلِهِ، وَفِيمَا يَجِبُ عَلَيَّ مِنْ تَبْلِيغِ كِتَابِهِ الَّذِي يُنْزِلُهُ عَلَيَّ تَبَاعًا نَجْمًا فَتَجْمًا.

إِنَّكُمْ تُطَالِبُونَنِي بِأَنْ أَتَوَقَّفَ عَنْ دَعْوَتِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّي، وَبِأَنْ أَتَوَقَّفَ عَنْ تَبْلِيغِ الْقُرْآنِ الَّذِي يُنْزِلُهُ عَلَيَّ، وَأَنَا لَا اسْتَجِيبُ لِمَطْلَبِكُمْ هَذَا، فَأَنَا أَعْبُدُ رَبِّي الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهُوَ الَّذِي كَلَّفَنِي أَنْ أَقُومَ بِهَذَا التَّبْلِيغِ، وَأَنْ أَدْعُو إِلَى سَبِيلِهِ، وَسَأَتَابِعُ عِبَادَتِي لِرَبِّي فِي تَبْلِيغِ دِينِهِ، وَنَشْرِهِ بَيْنَ عِبَادِهِ، مَهْمَا

جَمَعْتُهُمْ جُمُوعَكُمْ لِحَزْبِي، ومقاومة دَعَوَتِي، وَمَهُمَا تَلَبَّدْتُمْ عَلَيَّ، مُتَوَاطِئِينَ ضِدِّي، وضاعِطِينَ عَلَى صَدْرِي، لَقَطَعَ أَنْفَاسِي، وَإِسْكَانَ لِسَانِي.

لَقَدْ أَشْعَرَ هَذَا الْقَوْلَ: ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ * مع قَرِينَةٍ تَلَبَّدَ كُبرَاءُ مشركي قَوْمِهِ بَأَنَّهُمْ طَالِبُوهُ بِالْحَاجِ أَنْ يَكْفَ عَنْ دَعْوَتِهِ إِلَى الدِّينِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَإِلَّا قَاوَمُوهُ بِقُوَّةٍ، أَوْ أَنْزَلَ بِهِ إِلَهُتَهُمْ شِرًّا، وَأَشْعَرَ أَيْضًا عَنْ طَرِيقِ اللُّزُومِ الْفِكْرِي بَأَنَّهُ لَا يَخْشَى مِنْهُمْ وَلَا مِنْ آلِهِتِهِمْ، فَآلِهِتُهُمْ بَاطِلَةٌ لَا يُؤْمِنُ هُوَ بِهَا، وَلَا يَخْشَى شِرًّا يَأْتِيهِ مِنْ قِبَلِهَا، إِذْ لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ إِلَّا رَبُّ وَاحِدٌ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْإِلَهُ الْأَحَدُ، الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا وَالِدَ، وَلَا صَاحِبَةَ وَلَا وَلَدَ. وَهُوَ لَا يَخْشَى أَيْضًا مِنْهُمْ، لِأَنَّ رَبَّهُ الَّذِي كُلَّفَهُ الْقِيَامَ بِرِسَالَتِهِ سَيَخْمِيهِ.

وَأَخَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِحُكْمَتِهِ، تَعْلِيمَ رَسُولِهِ مَا يُجِيبُهُمْ بِهِ إِجَابَةً صَرِيحَةً، عَلَى تَهْدِيدِهِمُ الْعَمَلِيَّ لَهُ، بِمَا يُجْمَعُونَ مِنْ جُمُوعٍ لِمُقَاوَمَةِ دَعْوَتِهِ، وَرُبَّمَا افْتَرَزَ بِهَذَا التَّهْدِيدِ الْعَمَلِيِّ مِنْهُمْ تَهْدِيدَ قَوْلِي أَيْضًا، إِذْ جَاءَ فِي هَذَا الدَّرْسِ التَّعْلِيمِيَّ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْذُنْ لَهُ بِمُقَاوَمَتِهِمْ مُقَاوَمَةً دِفَاعِيَّةً مُسَلَّحَةً، وَجَاءَ فِيهِ مَا يُشْعِرُ بَأَنَّهُ يُؤْثِرُ تَحْمُلَ أَذَاهُمْ، وَتَحْمُلَ اضْطِهَادِهِمْ لَضِعْفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، مَهْمَا بَلَغَ ذَلِكَ، إِذْ هُوَ يَخْمِي نَفْسَهُ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ الشَّدِيدِ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ لَوْ كَفَّ عَنْ دَعْوَتِهِ، وَلَمْ يَصْدَغْ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَصْدَغَ بِهِ.

وَنَحْنُ نَعْلَمُ مِنْ سِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّ الْعَهْدَ الْمَكِّيَّ كَانَ عَهْدَ سِيَاسَةِ الصَّبْرِ وَتَحْمُلِ الْأَذَى، وَكَفَّ الْأَيْدِي عَنْ مُقَاوَمَةِ الْقُوَّةِ الْمَادِيَّةِ بِقُوَّةٍ مَادِيَّةٍ مُسَلَّحَةٍ.



قول الله عز وجل خطاباً لرسوله:

• ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ﴿٢١﴾

إذا تأملنا بتدقيق في الطُّورِ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ أعداء دعوة الرُّسُولِ ﷺ بمكة، إِيَّانَ نزول سورة (الجن) وَجَدْنَا أَنَّهُمْ، مع تَخَوُّفِهِمْ من تَفَاقُمِ دَعْوَتِهِ وتكاثر أنصارِهِ - مَا زَالُوا يَشْعُرُونَ بِأَنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا معه، لَا يَمْلِكُونَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ قُوَى دِفَاعٍ تُحَصِّنُهُمْ مِنْ قُوَى مُشْرِكِي مَكَّةَ، لو اجْتَمَعُوا عَلَيْهِمْ، وَأَعَدُّوا الْعُدَّةَ لِقَمْعِهِمْ، لَكِنْ أَمَرَهُمْ بِتَفَاقُمِ يَوْمًا قِيَوْمًا، فَهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَتَخَوَّفُوا مِنْ اخْتِمَالِاتِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يُسَارِعُوا حَتَّى يَتَذَكَّرُوا الْأَمْرَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَفْجَلَ، وَيَقْلَتَ زَمَانُهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ.

وَالسِّيَاسَةُ الْحَكِيمَةُ فِي مُوَاجَهَةِ هَذَا الطُّورِ الَّذِي بَلَغَهُ مُشْرِكُو مَكَّةَ، تَقْتَضِي إِعْطَاءَهُمْ جِزَعَاتٍ تَهْدِئُهُ تَحْدَرُهُمْ، وَتُبْرِدُ لَهَيْبَ تَوَجُّسِهِمْ مِنْ اخْتِمَالِاتِ تَفَاقُمِ قُوَّةِ الرُّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ.

فَجِئْنَا يَقُولُ لَهُمْ: ﴿إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ، فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ يُوقِعُ فِي مَشَاعِرِهِمْ أَنَّهُ مَا زَالَ بَعِيدًا بَعْدًا كَبِيرًا عَنِ الْاسْتِعْدَادِ لِمُقَارَعَتِهِمْ بِقُوَّةٍ دِفَاعِيَّةٍ، فَتَبْرُدُ حِمَاسَتُهُمْ، وَيَتَوَقَّفُ وَلَوْ إِلَى حِينٍ تَجْمَعُهُمْ لِلْقَمْعِ، وَلِإِعْدَادِ الْقُوَى الْقِتَالِيَّةِ لِإِقْظَافِ امْتِدَادِ الْقُوَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

● ﴿إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾: أَي: مَاذَا أَفْعَلُ مَعَكُمْ، وَحَالِي أَنِّي لَا أَمْلِكُ فِي مُقَابَلَةِ تَلَبُّدِكُمْ مُجْتَمِعِينَ ضِدَّ دَعْوَتِي، وَسَبِيلَةَ مَادِيَّةٍ أَضْرُكُمْ بِهَا ضَرًّا مَا، لَا مُنْعَ بِهَا تَأْلِبُّكُمْ عَلَيَّ وَعَلَى الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَاتَّبَعُونِي، وَأَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَغْصِي رَبِّي بِالتَّوَقُّفِ عَنِ تَادِيَةِ رِسَالَتِهِ الَّتِي اصْطَفَانِي لَهَا، وَأَمَرَنِي بِأَنْ أَقُومَ بِأَدَائِهَا؟

وَيَطْوِي الرُّسُولُ ﷺ فِي نَفْسِهِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَأْذَنْ لَهُ بَعْدُ بِذَلِكَ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ بَعْدُ بِإِعْدَادِ الْعُدَّةِ لَهُ، وَأَنَّ اللَّهَ سَيَأْذِنُ لَهُ مُسْتَقْبَلًا بِقِتَالِهِمْ، حِينَما تَكُونُ الظُّرُوفُ مُوَاطِئَةً، وَتَكُونُ اخْتِمَالِاتُ النُّصْرِ مَرْجُوءَةً ضِمْنَ سُنَنِ اللَّهِ السَّبِيَّةِ فِي كُونِهِ.

ولا يَخْفَى ما في هذا الإِغْلَانِ من سياسة حكيمة مُهَدَّئَةٍ لَقَلَّتِ
المشركين، وَثَوَّرَتِهِمْ ضِدَّهُ، وَمُبَرِّدَةٍ لِحَرَارَةِ الحمَّاسَةِ لِتَجْمِيعِ الْقَوَى، وإِغْدَادِ
الْعُدَّةِ، إِذْ لَا يَمْلِكُ مُحَمَّدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا به وَاتَّبَعُوهُ من الوسائل المَادِّيَّةِ مَا
يَخْشَوْنَ تَفَاقُمَهُ الْآنَ، فما الدَّاعِي إِلَى القَلَقِ الدَّافِعِ إِلَى اتِّخَاذِ الْقَوَى المَادِّيَّةِ
قَبْلَ أَنْ تُوجَدَ المُشْكِلَةُ في الواقع؟

● ﴿وَلَا رَشْدًا﴾: أي: وَلَا أَمْلِكُ وَسَلِيَّةَ أَلْزِمُكُمْ بها إِنْزَامًا قَسْرِيًّا
إِكْرَاهِيًّا أَنْ تَكُونُوا رَاشِدِينَ، مُسْلِمِينَ، مُتَّبِعِينَ صِرَاطِ الْهُدَى، ضَامِنِينَ
لأنفُسِكُمْ سَعَادَةَ الدَّارَيْنِ.

لَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ النَّاسَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُخَيَّرِينَ غَيْرَ مَجْبُورِينَ،
لِيَمْتَحِنَهُمْ وَيَبْلُوَهُمْ فيما آتَاهُمْ، ثُمَّ لِيَحَاسِبَهُمْ، وَيَفْصِلَ الْقَضَاءَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ
يَجَازِيَهُمْ عَلَى ما قَدَّمُوا في رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

هذه المقالة تدلُّ على أمرين:

الأمر الأول: أَنَّهُ لَنْ يُلْزِمَهُمْ يَوْمًا ما على الإيمان به وَاتِّبَاعِهِ، وهذا
يزيد في تَبْرِيدِ حَرَارَةِ حِمَاسَتِهِمْ لمقاومةِ دَعْوَتِهِ وَقَمْعِهَا.

الأمر الثاني: أَنَّهُ يُحْمَلُهُمْ مَسْئُولِيَّةُ اخْتِيَارِهِمُ الحَرَ تَجَاةَ رَبِّهِمْ، الَّذِي
سَيُحَاسِبُهُمْ وَسَيَجَازِيَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، وَرَبِّمَا يُعَجِّلُ لَهُمْ بَعْضَ الْعِقَابِ في
الحياة الدُّنْيَا، كما عَجَّلَ لِكُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ، الَّذِينَ طَغَوْا وَبَغَوْا في
الأَرْضِ.



قولُ الله عزَّ وجلَّ خِطَابًا لِرَسُولِهِ:

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ
اللَّهِ وَرِسَالَتِيَّ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ (٢٣) :

رُويَ أَنَّ كَفَّارَ قَرِيشٍ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّكَ جِئْتَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَقَدْ عَادَيْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ فَارْجِعْ عَنْ هَذَا فَتَنْحُنْ نُحِيرُكَ.

فاقتضى هذا أَنَّ يُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ مَسْئُولٌ تُجَاهَ رَبِّهِ عَنْ تَبْلِيغِ مَا يَأْمُرُهُ بِتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ، وَإِنَّ لَمْ يَقُمْ بِهَذَا الْوَاجِبِ الْعَظِيمِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُعَاقِبُهُ عِقَاباً شَدِيداً، وَلَنْ يُجِيرَهُ فِيخْمِيَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَحَدٌ، وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَكَاناً يَمِيلُ إِلَيْهِ، وَيَلْتَجِئَ فِيهِ، لِيَذْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ عَذَابَ اللَّهِ، لَوْ أَنَّهُ تَرَكَ دَعْوَتَهُ إِلَى دِينِ رَبِّهِ، وَكَفَّ عَنِ الْقِيَامِ بِأَدَاءِ رِسَالَتِهِ، فَانْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ هَذَا التَّعْلِيمَ.

● ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي﴾: أَي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَكُذُّ لَكُمْ أَنِّي إِذَا اسْتَجَبْتُ لَطَلِبِكُمْ فَلَنْ يَمْنَعَنِي وَلَنْ يَخْمِيَنِي مِنْ عَذَابِ اللَّهِ الشَّدِيدِ أَحَدٌ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَإِنِّي أَخَافُ مِنْ عَذَابِهِ.

أصل هذا التعبير أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَخْمُونَ وَيَمْنَعُونَ مَنْ يَدْخُلُ فِي جَوَارِهِمْ مَنْ يُرِيدُهُ بِشَرٍّ، لِأَنَّ جَارَهُمْ عَزِيزٌ بِهِمْ، وَكَانَ عَزِيزُ الْقَوْمِ إِذَا أَعْلَنَ أَنَّ فُلَانًا جَارٌ لَهُ، فَقَدْ أَعْلَنَ أَنَّهُ يَمْنَعُهُ وَيَخْمِيهِ، كَمَا يَمْنَعُ أَهْلُهُ وَيَخْمِيهِمْ، وَيُقَالُ لِكُلِّ مِنَ الْمُسْتَجِيرِ وَالْمَجِيرِ: «جَار».

وكَانَ مَنِيَّ قَالَ أَحَدٌ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ فِي مَجْتَمَعِ عَرَبِيَّيْ أَنَا جَارُ فُلَانٍ، وَكَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَزِيزاً فِي قَوْمِهِ، فَإِنَّ أَحَدًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْسَهُ بِمَا يَكْرَهُ، وَإِنْ فَعَلَ نَصَرَهُ الْمُسْتَجَارُ بِهِ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ وَعِزَّةٍ.

● ﴿مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾: أَي: لَنْ يُجِيرَنِي مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ وَانْتِقَامِهِ مَنِيَّ أَحَدٌ، وَإِنِّي أَخَافُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

﴿لَنْ﴾ أَدَاةُ نَفْيٍ فِيهَا مَعْنَى تَأْكِيدِ النَّفْيِ، وَيُقْهَمُ التَّابِيدُ هُنَا مِنْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ الْقَادِرَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ الْأَزَلِيِّ الْأَبَدِيِّ هُوَ الْمَخُوفُ مِنْ عَذَابِهِ.

● ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً﴾: أَي: وَلَنْ أَجِدَ مِنْ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ

إِذْ هُوَ دُونَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ مُلْجَأً اَلْتَّجِئُ إِلَيْهِ، وَأَخْتَمِي بِهِ، إِنْ أَرَادَ اللَّهُ مُعَاقِبَتِي، فِيمَا لَوْ لَمْ أَقُمْ بِأَدَاءِ رِسَالَاتِهِ.

الْمُلْتَحِذُ: هُوَ الْمُلْجَأُ الَّذِي يَمِيلُ اللَّاجِئُ إِلَيْهِ لِيَخْتَمِيَ بِهِ. إِنَّهُ لَا يُوجَدُ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ مُلْجَأٌ يَخْمِي مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ أَدْعِيَةِ الرَّسُولِ ﷺ خُطَاباً لَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْأَدْعَاءِ عِبَارَةً: «لَا مُلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ».

روى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ:

اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ. اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ».

بما أن التكليف بتبليغ رسالات الله موجة من الله جلَّ جلاله وعظم سلطانه، وبما أنه هو وخده المحاسب والمجازي، وبما أنه هو الملك والمالك للوجود كله، فهل يوجد في الوجود من يُجِيرُ وَيَخْمِي من عذابه إذا شاء تغذيب من عصاه؟ وهل يوجد ملجأ يلجأ إليه العاصي، فيقي فيه نفسه من عذابه؟

● ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً...﴾ (٣٣) ﴿

الْبَلَاغُ: اسْمٌ بِمَعْنَى الْمَضَرِّ الَّذِي هُوَ الْإِبْلَاغُ، أَوِ التَّبْلِيغُ، وَالْإِبْلَاغُ هُوَ إِصْلَاحُ رِسَالَةٍ كَلَامِيَّةٍ أَوْ غَيْرِ كَلَامِيَّةٍ إِلَى مَنْ أُرْسِلَتْ إِلَيْهِ.

وإذا نظرنا بإمعان في سوابق هذا الاستثناء وجدنا قضيتين يمكن أن يكون هذا الاستثناء تعقيباً عليهما.

القضية الأولى: ما تَضَمَّنَتْهُ عبارة: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾: أي: وَلَنْ أَجِدَ مُلْجَأً يَخِمِينِي وَيَغْصِمُنِي مِنْ عِقَابِ اللَّهِ، إِلَّا مُلْجَأً وَاحِدًا هُوَ أَنْ أَطِيعَهُ فَأَقُومَ بِتَبْلِيغِ مَا أَمَرَنِي اللَّهُ بِتَبْلِيغِهِ مِمَّا أَوْحَى بِهِ إِلَيَّ، وَأَنْ أُوصِلَ رِسَالَاتِهِ إِلَى الَّذِينَ كَلَّفَنِي أَنْ أُوصِلَهَا إِلَيْهِمْ.

القضية الثانية: ما تَضَمَّنَتْهُ عبارة: ﴿لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾: أي: لَا أَمْلِكُ بِنَفْسِي ضَرًّا أَضُرُّكُمْ بِهِ، لِأَدْفَعِ بِهِ أَذَاكُمْ وَاضْطِهَادَاتِكُمْ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعُونِي، وَلَا أَمْلِكُ لَكُمْ رَشَدًا أَكْرِهُكُمْ عَلَيْهِ بِالْقَسْرِ، عَلَى خِلَافِ مَا تَخْتَارُونَ أَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ.

لَكِنْ أَمْلِكُ إِبْلَاغَكُمْ مَا أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ أُوصِلَهُ إِلَيْكُمْ، مِمَّا أَوْحَى بِهِ إِلَيَّ، وَأَمْلِكُ أَنْ أُوصِلَ إِلَيْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي الَّتِي أَرْسَلَنِي بِهَا إِلَيْكُمْ. وَالْمَعْنَيَانِ كِلَاهُمَا صَحِيحَانِ، وَجَدِيرَانِ بِالْبَيَانِ، وَقَدْ دَلَّتْ عَلَيْهِمَا نُصُوصٌ قَرَأْنِيَّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ.

وَأُخَذَ بِقَاعِدَةٍ حَمَلَ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ عَلَى الْمَعَانِي الْمُتَعَدِّدَةِ، الَّتِي يَحْتَمِلُهَا احْتِمَالًا تَكَامُلِيًّا لَا تَنَاقُضَ فِيهِ وَلَا تَضَادَّ، أَرَى أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ وَارِدٌ عَلَى الْقَضِيَّتَيْنِ، أَحَدُهُمَا اسْتِثْنَاءٌ مِنْ عُمُومِ الْمَلَاغِي، وَالْآخَرُ اسْتِثْنَاءٌ بِمَعْنَى «لَكِنْ» وَهُوَ لَدَى التَّأَمُّلِ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ عُمُومِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا يَمْلِكُهَا لَهُمْ، وَالْمَعْنَى: لَا أَمْلِكُ لَكُمْ إِلَّا بِلَاغًا مِنْ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ.

وَالْعِبَارَةُ عَلَى تَقْدِيرٍ: إِلَّا إِبْلَاغٌ وَخِيٍّ مِنَ اللَّهِ أَمَرَنِي بِإِبْلَاغِهِ، وَإِبْلَاغٌ رِسَالَاتِ اللَّهِ الَّتِي أَمَرَنِي بِتَوْصِيلِهَا إِلَيْكُمْ.

هَذَا مَا أَمْلِكُكُمْ لَكُمْ، وَهَذَا هُوَ الْمُلْجَأُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَخِمِينِي وَيَغْصِمُنِي مِنْ عِقَابِ اللَّهِ، لَا مَا تُطَالِبُونَنِي بِهِ مِنْ تَرْكِ هَذَا الْأَمْرِ، وَالْكَفُّ عَنِ الْقِيَامِ بِالذُّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّي.

● ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾: ﴿٢٢﴾

أي: قل لهم يا مُحَمَّدُ هذا البيان المنزل إليك من رَبِّكَ، فَحَذِّرْهُمْ من عَاقِبَةِ مَعْصِيَتِهِمْ لِلَّهِ ورسُولِهِ، في عَدَمِ الاستجابة للدَّعْوَةِ إلى الإيمان بما أُنْزِلَ إليكم من عند رَبِّكم، وإعلان الإسلام لِلَّهِ والاستِسْلَامَ لأحكام دينه الذي اصطفاه لعباده، بَعْدَ أَنْ تُبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّكَ عُرْضَةٌ لعقابِ اللَّهِ إذا عَصَيْتَهُ، إِذْ إِنَّكَ عَبْدٌ مِثْلُهُمْ مُكَلَّفٌ من رَبِّكَ، وَلَنْ يُجِيرَكَ من اللَّهِ أَحَدٌ، وَلَنْ تَجِدَ من دُونِهِ مُلْتَحِداً إِذَا عَصَيْتَهُ، وَخَالَفْتَ أَمْرَهُ، وفي مُقَدِّمَتِهَا تَبْلِيغُ دينه كما أَمَرَكَ.

والمراد بالمَعْصِيَةِ الَّتِي تَسْتَوْجِبُ الْخُلُودَ في نارِ جَهَنَّمَ جمعاً من مختلف النُّصُوصِ مَعَ هذا النص، المعصية الكبرى بِرَفْضِ الدُّخُولِ في الإسلام، ورفض الإيمان بالحقِّ الَّذِي اشتملت عليه أركان الإيمان.

وهذه المعصية هي المَعْنِيَّةُ في سَبَاقِ الآيَةِ وَسِيَّاقِهَا، إِذِ الْحَدِيثُ فِيهِمَا يَتَعَلَّقُ بِالْكَافِرِينَ الَّذِينَ رَفَضُوا الاستجابة لدَّعْوَةِ الرَّسُولِ، وَهُمْ الَّذِينَ وَصَلُوا إلى طور تكوين جماعات متألِّبَةٍ ضِدَّهُ تُحَاوِلُ الإِحَاطَةَ بِمَقَاتِلِهِ، وإبعاد الَّذِينَ آمَنُوا به وَاتَّبَعُوهُ عَنْهُ بما يستطيعون من وسائل.

وجاء في هذه الآيَةِ تَأْكِيدُ الْخُلُودِ الَّذِي قَدْ يَسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى طُولِ أَمَدِ الْبَقَاءِ بِكَلِمَةِ، ﴿أَبَدًا﴾ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى التَّأْيِيدِ بِلا نهاية، ولو كان المرادُ طُولُ أَمَدِ الْبَقَاءِ فَقَطْ، لَمَا كَانَ لِكَلِمَةِ ﴿أَبَدًا﴾ فائدة حَتَّى يُوْتَى بِهَا في النص، وَكُلُّ من مَارَسَ تَذَبُّرَ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ يُدْرِكُ أَنَّهُ لَا إِطْنَابَ فِيهِ بِغَيْرِ فائدة.

وَقَدْ صَارَتْ كَلِمَةُ «أَبَدًا» في المفهوم الديني تَغْنِي الأَزْمَانَ الْمُتتَابِعَةَ في المستقبلِ بِلا نهاية، إِذَا جَاءَتْ مُطْلَقَةً من دُونِ قَيْدٍ.

ومعلومٌ أَنَّ كَثِيرًا من الكلمات العربية، قد اكتسبت في الاستعمالات الإسلامية معاني إسلامية خاصة، لم تَكُنْ مَعْرُوفَةً في استِغْمَالِ الْعَرَبِ لَهَا، مثل كلمات النفاق، والزُّكَاة، والإسلام، والإيمان، والكفر وغيرهما، ومنها كلمة «أَبَدًا» بمعنى أزمان المستقبل بلا نهاية.

لفظ ﴿مَنْ﴾ في عبارة: ﴿وَمَنْ يَمِصْ اللَّهُ رَسُولُهُ﴾ في الآية، يجوز في العربية إعادة الضمير عليه بالإفراد مُرَاعَاةً لِلْفِظَةِ المفرد، ويجوز إعادة الضمير عليه بالجمع رِعَايَةً لمعناه إذا كان المراد به جمعاً، وَقَدْ أُعِيدَ الضمير عليه في الآية بالإفراد أولاً مُرَاعَاةً لِلْفِظَةِ، وَبَعْدَهُ رُوعِيَّ معناه الدالُّ على الجمع فقال تعالى: ﴿خَلْدَيْنَ فِيهَا أَبَدًا﴾.



قول الله عز وجل:

● ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ (٢٤).

● ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾: أي: أَمْهَلُهُمْ يَا مُحَمَّدُ وَاصْبِرْ عَلَيْهِمْ، حَتَّىٰ الْوَقْتِ الَّذِي يَرَوْنَ فِيهِ مَا يُوعَدُونَ.

دلَّ على هذا المحذوف المقدر ذهنًا، وهو إمْهَالُهُمْ وَالصَّبْرُ عَلَيْهِمْ، ما جاء في آية: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (٢١): أي: فَأَمْهَلُهُمْ وَاصْبِرْ عَلَيْهِمْ وَتَرَقَّبْ مَا تُدْبِرُهُ ضِدَّهُمْ، وَتُنْزِلُهُ بِهِمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فَإِنَّهُمْ سَيَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ مِنْ نَكَبَاتٍ تَنْزِلُ بِهِمْ، إِذْ تَنْصُرُكَ وَتَنْصُرُ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ عَلَيْهِمْ، فَتَكُونُوا أَنْتُمْ الْغَالِبِينَ، وَهُمْ الْمَغْلُوبُونَ الْمَهْزُومُونَ.

الْوَعْدُ: يَسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ، وَيَسْتَعْمَلُ فِي الشَّرِّ، وَقَدْ يُخَصَّصُ الْوَعْدُ بِالْخَيْرِ وَالْإِعَادَ بِالشَّرِّ، فَيُقَالُ: وَعَدَهُ بِخَيْرٍ، وَيُقَالُ: أَوْعَدَهُ بِشَرٍّ، وَلَكِنْ هَذَا غَيْرُ لَازِمٍ.

وجاء في الآية استعمال «السَّيْنِ» في: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ للدلالة على المستقبل غير البعيد.

أما في المستقبل البعيد فالغالب أن يستعمل للدلالة عليه حرف التسويف: «سَوْفَ».

جاءت هُذِهِ الْآيَةُ فِيمَا أَرَىٰ بَيَانًا مُّوجِّهًا مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، مُعَالَجَةً لِّلْفُوسِهِمِ الْمَكْتَبِيَّةِ بِسَبَبِ مَكَائِدِ كُفَّارِ مَكَّةَ وَاضْطِهَادَاتِهِمْ لَهُمْ، إِذْ فِيهَا طَمَآنَةٌ لَهُمْ بِأَنَّ عَاقِبَةَ مُضْطَهَدِيهِمْ إِلَى خِذْلَانٍ وَهَزِيمَةٍ وَتَنَاقُصٍ فِي أَعْدَادِهِمْ، أَمَّا عَاقِبَةُ الْمُؤْمِنِينَ فَهِيَ النَّصْرُ وَالظَّفَرُ وَتَكَاثُرُ الْأَعْدَادِ.

وَفِيهَا تَلْوِيخٌ لِّكِبْرَاءِ مُشْرِكِي مَكَّةَ وَأَنْصَارِهِمْ بِأَنَّ عَاقِبَةَ أَمْرِهِمْ إِلَى خِذْلَانٍ، وَهَزَائِمٍ، وَتَنَاقُصٍ فِي الْأَعْدَادِ، وَفِيهَا إِشَارَةٌ إِلَى مَا سَبَقَ إِنْزَالَهُ بِشَأْنِهِمْ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْأَعْرَافِ/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَأَن عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٥).

وقول الله عز وجل في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ (١١).

وَفِيهَا أَيْضًا تَذَكِيرٌ بِسَوَابِقِ الْمَوَاعِيدِ الَّتِي وَعَدَهَا اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعِزَّةِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمَكُّينِ، وَهِيَ فِي مُعَارِضِهَا نُصُوصٌ وَعِيدٌ لِلْكَافِرِينَ، الَّذِينَ يُعَامِلُونَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْاضْطِهَادِ وَالْإِذْلَالِ وَالتَّهْجِيرِ وَالتَّشْرِيدِ.

إِنَّ مِنْ دِقَّةِ التَّدَبُّرِ لآيَاتِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ كُلَّ جَوَابٍ يَسْتَدْعِي سَوْالًا، سَوَاءٌ ذُكِرَ فِي النَّصِّ أَمْ لَمْ يُذْكَرْ. وَأَنَّ كُلَّ تَوْجِيهِ عِلَاجِي يَسْتَدْعِي أَنَّ الْوَاقِعَ كَانَ يَشْتَمِلُ عَلَى حَالَةٍ مِنْ شَأْنِهَا تَوْجِيهِ هَذَا الْعِلَاجِ، سَوَاءٌ ذُكِرَتْ هَذِهِ الْحَالَةُ فِي النَّصِّ الْقِرَائِيِّ أَمْ لَمْ تُذْكَرْ، وَهَكَذَا إِلَى سَائِرِ النِّظَائِرِ وَالْأَشْبَاهِ.

وهذا من أساليب الإيجاز القرآني البديع.

والوعد الذي يشير إليه قول الله عز وجل: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَّاصِرًا

وَأَقْلُ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ في الآية هو وغدٌ بانتصار المؤمنين عليهم في الدنيا، حينما يكون المؤمنون أقوى ناصراً، وأكثر عدداً.

وقد دلّت هذه العبارة على أنه يُوجد للكافرين يومئذٍ ناصرون، إلا أنهم أضعف من أنصار المؤمنين، وتكون لهم جماعة ذات عددٍ، إلا أن عددهم أقل من عدد جيش المؤمنين.

وقد ظهر هذا فعلاً في الغزوات التي انتصر فيها المؤمنون على مشركي مكة.

ففي غزوة بدر جاء إبليس في جنّدٍ من الشياطين على صور الناس، كما روي عن ابن عباس، فقال للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جازٍ لكم، وأقبل جبريل إلى إبليس، فلما رآه ولّى مذبراً هو وشيعته، وقال لمن حوله من المشركين: إني أرى ما لا تزوّن، إني أخاف الله، واللّه شديد العقاب، فكان ناصرُ المشركين ناصراً ضعيفاً، وأمدّ الله المسلمين بالملائكة فكان ناصرهم، ناصراً قوياً.

وفي سائر المعارك بعد غزوة بدر كان الرسول والمؤمنون معه أقوى ناصراً، وكانوا في بعضها كفّح مكة أقوى ناصراً وأكثر عدداً، كما جاء في الآية، وهذا من الأخبار الغيبية المستقبلية التي تحققت، فهو من عناصر المعجزات الخبرية القرآنية، إذ حقّق اللّه وعده، ونصّر عبده، وهزم الأحزاب وخذه.

وقد نزل بعد نزول سورة (الجن) عدة نصوص تتضمّن إنذارهم بعذاب معجل، أو بعذاب اللّه يوم القيامة، ومن هذه النصوص ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ ﴿٧٥﴾.

أي: إمّا العذاب المعجّل في الدنيا بالإهلاك الانتقامي، أو بنصرِ الرّسول والمؤمنين معه، وإمّا السّاعة التي يلقون فيها الحساب، وفصل القضاء، والجزاء في نار جهنّم.

وفي هذا التّزديد إخفاء للخُطّة المدبّرة التي منها الإعداد لمواجهات قتاليّة.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشّعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿أَفِيعَدَاتِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٢٠٩) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢١٠﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢١٧﴾ وَمَا أَهْلَكَنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢١٨﴾ ذَكَرْنَاهُ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴿

أي: أَفَرَأَيْتَ أيّها الرائي المتفكّر بتصاريف ربّك الحكيمه، إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ فيما هُمْ فيه وهم يُعَادُونَ رُسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا معه، سِنِينَ مَّغْدُودَةً قَلِيلَةً، ثُمَّ جَاءَهُمْ بَعْدَهَا مَا كَانُوا يُوعَدُونَ فِي آيَاتِنَا الْمُنْزَلَاتِ، وَعَلَى لِسَانِ رُسُولِنَا، مِنْ هَزِيمَتِهِمْ وانتصار المسلمين المؤمنين عليهم، وَقَتْلِ عُتَاتِهِمْ وَجَبَابِرَتِهِمْ؟

كَيْفَ يَكُونُ خَالَهُمْ يَوْمَئِذٍ انْكَسَاراً وَذَلَّةً وَخِزْياً؟

وَيُظْهِرُ يَوْمَئِذٍ أَنَّ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ بِهِ مِنْ مَالٍ وَقُوَّةٍ وَجُنُودٍ لَمْ يُغْنِهِمْ شيئاً.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول)

خُطَاباً لِمَشْرِكِي مَكَّةَ، وَتَعْلِيماً لِرَسُولِهِ مَا يَقُولُهُ لَهُمْ:

﴿إِنِّ أَنَا نُوعِدُكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا بِمُعْجِزِينَ﴾ (١٣٢) قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴿

في هذا إنذاران:

الأول: إِنْذَارٌ مِنَ اللَّهِ مُبَاشَرَةً لِلْمَعْنِيِّينَ بِالخطاب، بأنَّ الَّذِي يُوعَدُونَهُ مِنْ نَضْرِ رَسُولِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، لَأَتِ حَتْمًا، وَأَنَّ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ قُوَّةٍ وَجُنُودٍ وَأَنْصَارٍ، لَنْ تَكُونَ مُعْجَزَةً لِمَنْ يَفْضِي اللَّهُ لَهُمْ بِالْعِزَّةِ وَالنَّضْرِ وَالظَّفَرِ، وهذا ما أشارت إليه الآية (١٣٤).

فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُبَيِّنُ لَهُمْ بِخَطَابِهِ مَا مَعْنَاهُ: إِنَّ مَا تُوعَدُونَ فِي التَّصَوُّصِ الْمَتَابَعَةِ لَأَتِ حَتْمًا، إِذْ هُوَ قَضَاءٌ مُبَرَّمٌ مِنَ اللَّهِ بِنَضْرِ رَسُولِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، وَهَذَا النَّضْرُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِإِهْلَاكِ شَامِلٍ لَهُمْ، كَمَا حَصَلَ لَأَقْوَامِ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ، وَإِمَّا بِإِنْزَالِ الْهَزِيمَةِ وَالْخِيْبَةِ وَالْخِذْلَانِ بِالْكَافِرِينَ فِي مَعَارِكٍ قِتَالِيَّةٍ، يَمْنَحُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا التَّأْيِيدَ وَالنَّضْرَ لِلرُّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، وَاللَّهُ يَخْتَارُ مَا هُوَ الْأَخْكَمُ الْمُنَاسِبُ لِحَالِ الْقَوْمِ.

وَالَّذِي تَحَقَّقَ فِي الْوَاقِعِ هُوَ هَذَا الْاِخْتِيَارُ الثَّانِي، وَهُوَ الَّذِي جَاءَتْ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ فِي الْآيَةِ (١١) مِنْ سُورَةِ (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) وَفِي الْآيَةِ (٢٤) مِنْ سُورَةِ (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول).

الثاني: تَكْلِيفٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ أَنْ يُنْذِرَهُمْ بِعَذَابِ يَوْمِ الدِّينِ، فَجَاءَ فِي هَذَا التَّعْلِيمِ الرَّبَّانِيُّ لَهُ.

﴿قُلْ يَتَقَوِّمُوا أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾:

المكانة: مؤنث المكان، وهي: الموضع، والجهة، والناحية النائية عن موضع الحق.

أي: يَا قَوْمِ اغْمَلُوا حَالَةً كَوْنِكُمْ ثَابِتِينَ عَلَى مَكَاتِبِكُمْ النَّائِيَةِ عَنْ مَكَانِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْهُدَى، إِنِّي عَامِلٌ وَأَنَا ثَابِتٌ عَلَى الْمَكَانِ الْمَشَاقِّ لِمَكَاتِبِكُمْ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ يَوْمَ الدِّينِ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ التَّفَيْسَةِ الرَّفِيعَةِ الْمَعْدَةِ لِلْمُتَّقِينَ السُّعْدَاءِ، وَهِيَ الْجَنَّةُ.

إِنَّكُمْ بِثَابِتِكُمْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ ظَالِمُونَ، وَإِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ.
 الْفَلَاحُ: الفوز والنجاة والظفر، وَأَضْلُ الْفَلَاحِ الْبَقَاءُ فِي النِّعَمِ وَالْخَيْرِ.
 وَالظَّالِمُونَ لَا قَوْزَ وَلَا نَجَاةَ وَلَا ظَفَرَ لَهُمْ، فَلَا يَنَالُونَ يَوْمَ الدِّينِ نَعِيمًا
 وَلَا خَيْرًا، بَلْ يَنَالُونَ عَذَابًا أَلِيمًا.



قول الله عز وجل:

● ﴿قُلْ إِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ مِمَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِمِ رَبِّي أَمَدًا ۖ﴾ (٢٥)

من الطبيعي أن يتساءل القوم فيقولوا: متى يتحقق هذا الوعد الذي
 نُحَذِّرُنَا مِنْهُ يَا مُحَمَّدٌ؟

إن هذا الموقف يقتضي بياناً تعليمياً من الله عز وجل لرسوله ﷺ،
 يبين له فيه ما يقوله لهم، فجاء هذا النص الرباني معلماً.

● ﴿إِنْ أَذْرِي ۖ﴾: أي: ما أذري، ﴿إِنْ﴾ هنا حرف نفي بمعنى «ما»
 النافية. ﴿أَذْرِي ۖ﴾: أي: أعلم. يقال لغة: ذرى الشيء، وذرى به، إذا
 علمه. فعبارة: ﴿إِنْ أَذْرِي ۖ﴾ معناها: ما أعلم، فالرسول يبين بهذا لكفار
 مكة المعادين له ولدعوته، أنه يبلغ عن ربه ما أعلمه الله به، وأذن له بأن
 يبلغه.

أما تحديد الوقت الذي يُحقق الله فيه وعده، بإهلاك أعدائه أو نصره
 عليهم، فلم يعلمه الله به.

فالرسول ﷺ يومئذ ما كان يذري: أقرب هذا الوقت، أم يجعل الله
 له أمداً متوسطاً، أم أمداً بعيداً بعداً نسبياً يتناسب مع أعمار الناس.

الأمْدُ: في اللغة الزمن الذي يكون غايةً للأجل، وتكون عنده نهاية
 المدة.

والمراد هنا: أم يجعل له رَبِّي غَايَةً لَيْسَتْ بالقريبة، فإذا حُلَّ زَمَنُ هذه الغَايَةِ تحَقَّقَ تنفيذ الوعد، وفُهِمَ نَفْيُ قُرْبِ هذه الغَايَةِ من التقابل مع: ﴿أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ﴾.

ويُطْلَقُ الأَمَدُ أيضاً على الزَمَنِ الَّذِي يَبْدَأُ عِنْدَهُ عُمُرُ الشَّيْءِ الحادث، كَوَقْتِ ميلاد الحي.

فحين يقول الرَّسُولُ ﷺ لهم ما أَمَرَهُ اللهُ به في هذه الآية، فإنه يُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ الله لم يُعَلِّمَهُ بوقتِ تحقيق ما وَعَدَهُمُ اللهُ به.

وما لَمْ يُعَلِّمَهُ اللهُ به لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْلَمَهُ، ولا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُخَبِّرَ بما لَمْ يَعْلَمْ، والله عزَّ وجلَّ يُخْفِي مَا يَشَاءُ من مقاديرِ المُسْتَقْبَلِ، أو أوقات وقوعِها، لِمَا لَهُ سُبْحَانَهُ من حِكْمٍ جَلِيلَةٍ في إِخْفَاءِ ذَلِكَ.



قول الله عزَّ وجلَّ في تَعْلِيمِ ما يقوله لقومه:

● ﴿عَلِّمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ...﴾:

● ﴿عَلِّمُ الْغَيْبِ﴾: وصفٌ لعبارة: ﴿رَبِّي﴾ ممَّا جاء في الآية السابقة: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ أي: رَبِّي الموصوفُ بأنه عَالِمُ الغيب، وهو وصفٌ ثناءً عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ بأنه عَالِمُ كُلِّ مَا يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ بأنه غَيْبٌ، ولو كَانَ غَيْباً بالنسبةِ إلى بعضِ الخلائقِ دونَ بَعْضِ، أي: عَالِمٌ بكلِّ شيءٍ هو غَيْبٌ بالنسبةِ إلى الخلائقِ.

أو هو خَبَرٌ لمُبتَدَأٍ مَحْذُوفٍ تقديره: هو عالم الغيب، ولهذا يُفِيدُ الثناء والمُذح أيضاً.

نظرات شاملة إلى مفهوم الغيب:

الغيب: كَلِمَةٌ تُطْلَقُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ غَابَ عَنْ إِدْرَاكِ حَوَاسِّ الْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ أَوْ بَعْضِهِمْ، أَمَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ فَلَا شَيْءَ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ هُوَ غَيْبٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، بَلْ كُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ هُوَ مِنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ.

وَيَدْخُلُ فِي الْغَيْبِ مَا تُدْرِكُهُ الْعُقُولُ دُونَ الْحَوَاسِّ، فَإِذَا كَانَ الْعُقُولُ لَهُ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ إِلَى عَالَمِ الشَّهَادَةِ، وَلِهَذَا كَانَ التَّصَدِيقُ بِأَرْكَانِ الْإِيمَانِ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، مَعَ أَنَّهَا أُمُورٌ تُدْرِكُ بِالْعُقُولِ بِبَرَاهِينٍ قَطْعِيَّةٍ.

وَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ - الْمَخْلُوقَاتِ ذَوَاتِ الْإِدْرَاكَاتِ الْحَسِّيَّةِ، جَعَلَ حَوَاسِّهَا قَاصِرَةً عَنْ إِدْرَاكِ كُلِّ مَا فِي الْوُجُودِ، وَلَوْ كَانَ حَوْلَهَا مُبَاشَرَةً، أَوْ دَاخِلًا فِي ذَوَاتِهَا، وَجَعَلَهَا مُتَفَاضِلَةً فِي إِدْرَاكَاتِهَا الْحَسِّيَّةِ.

فَبَعْضُ الْخَلَائِقِ تُدْرِكُ بِحَوَاسِّهَا مَوْجُودَاتٍ لَا تُدْرِكُهَا خَلَائِقُ أُخْرَى بِحَوَاسِّهَا، مِنْ نَوْعِهَا أَوْ مِنْ جَنْسِهَا، أَوْ مِنْ غَيْرِ نَوْعِهَا وَجَنْسِهَا، وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ عِلْمِيًّا، وَمُشَاهَدَةٌ فِي عَوَالِمِ الْأَحْيَاءِ.

فَمَا يُدْرِكُهُ الْمَخْلُوقُ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الْحَسِّيَّةِ بِحَاسَّةٍ مِنْ حَوَاسِّهِ الظَّاهِرَةِ، بِطَرِيقَةٍ مُبَاشِرَةٍ يُعْتَبَرُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ مِنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ، وَمَا لَا يُدْرِكُهُ مِنْهَا بِحَاسَّةٍ مِنْ حَوَاسِّهِ الظَّاهِرَةِ بِطَرِيقَةٍ مُبَاشِرَةٍ، يُعْتَبَرُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ.

مِنْ أَجْلِ هَذَا نُلَاحِظُ أَنَّ مَا هُوَ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ، هُوَ مِنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَخْلُوقَاتٍ أُخْرَى، هَذِهِ الْحَقِيقَةُ تَنْطَبِقُ عَلَى أَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَنْوَاعِهَا، وَأَجْنَاسِهَا، وَتَنْطَبِقُ أَيْضًا عَلَى أَفْرَادِ الصَّنَفِ الْوَاحِدِ أَوْ النَّوْعِ الْوَاحِدِ، أَوْ الْجَنْسِ الْوَاحِدِ، فَبَعْضُ الْأَفْرَادِ قَدْ يَهْبُهُ اللَّهُ مَزِيدًا مِنْ قُوَى الْإِدْرَاكِ الْحَسِّيِّ، وَبِهِ يُدْرِكُ إِدْرَاكَاً مُبَاشِراً

أشياء من موجودات الكون، في حين أن أفراداً آخرين لا يُدركونها، فهي بالنسبة إلى مُدركيها بالحواس إدراكاً مباشراً من عالم الشهادة، وهي بالنسبة إلى غير مُدركيها كذلك من عالم الغيب.

وبناءً على هذا فالغُيوب كثيرة جداً، وهي قضايا نسيئة تخضع لحالات ذوي الإدراك الحسي من أفراد ما خلق الله.

الجنُّ والملائكة يَرَوْنَ ما لا نرى، فما يَرَوْنَهُ بأبصارهم ونحن لا نراه، هو بالنسبة إليهم من عالم الشهادة، وهوم بالنسبة إلينا من عالم الغيب.

وبغض البهائم تُدرك بحواسها ما لا يُدركه النَّاسُ بحواسهم المباشرة، فهو بالنسبة إليها من عالم الشهادة، وهو بالنسبة إلى الناس من عالم الغيب. وبغض الناس يُدركون ببغض حواسهم إدراكاً مباشراً ما لا يُدركه غيرهم، فما أَدْرَكُوهُ فَهُوَ بالنسبة إليهم من عالم الشهادة، وهو بالنسبة إلى غيرهم الذين لم يُدركوه من عالم الغيب.

وأحداث الماضي التي لم نشهدها شهوداً مباشراً بحواسنا، هي بالنسبة إلينا من عالم الغيب، وقد كانت مشهودة لمن حَضَرَهَا، وكذلك الأحداث الآتية في المستقبل هي بالنسبة إلى الخلائق من عالم الغيب، لأنهم لم يشهدوها بحواسهم شهوداً مباشراً، إذ لم تقع بعد.

والعلم بشيء منها علم من أنباء الغيب إذا أعلم الله به، إذ هي من علم الله الذي أحاط بكل شيء علماً.

وبغض ما هو غيب عن بغض الحواس الكليّة الضعيفة، قد يصير مشهوداً بوسائل كاشفة، كمعرفة ما في أرحام النساء، الذي توصل علماء الصناعات، والأجهزة الإلكترونية، إلى اكتشاف وسائل، وتصنيع أجهزة تكشف ما في أرحامهن من حمل، وتكشف نوع هذا الحمل ذكراً كان أم أنثى، وتقدم الأجنة للمشاهدة بالأبصار، فصار ما نُدركه منها بهذه الأجهزة

من عالم الشهادة إذا رأيناه، وَيَبْقَى ما لا نُذَرِكُهُ منها ضِمْنَ أُمُور الغيب.

والشيء الواحد قد يكون غيباً بالنسبة إلى مَنْ لَمْ يُذَرِكْهُ بإحدى حَوَاسِهِ
إدراكاً مباشراً، وقد يكون مشهوداً بالنسبة إلى مَنْ أذَرَكْهُ.

إِنَّ معظم ما في أَجْسَادِنَا وَمَا في الجبال وما في باطنِ الأَرْضِ، وما
في السَّمَاءِ، وَكُلُّ ما هو بعيد عَنْ مجال إدراكنا الحسِّي المباشر، ولو كَانَ
من الممكن أَنْ نُذَرِكْهُ بحواسِنَا، أو بإحداها، هو غَيْبٌ عَنَّا حتى نُذَرِكْهُ،
فإذا أذَرَكْنَاهُ بِبَعْضِ حَوَاسِنَا إدراكاً مُبَاشِراً صار بالنسبة إِلَيْنَا أمراً مشهوداً،
وَيَبْقَى بالنسبة إِلَى مَنْ لَمْ يُذَرِكْهُ إدراكاً مباشراً بإحدى حَوَاسِهِ أمراً مِنْ أُمُورِ
الغيب عنه.

وكانت الجرائم بالنسبة إلى أَبْصَارِ النَّاسِ أشياء من عالم الغيب، وَلَمَّا
وُجِدَتِ المجاهرُ الَّتِي تُكَبِّرُ الأشياءَ آلافَ المَرَّاتِ من أحجامِها الحقيقية،
صارت من الأشياءِ الَّتِي يُمَكِّنُ رُؤْيُهَا بالأبصارِ بوساطَةِ المجاهر، فمن رآها
بمَجْهَرِ منها فقد أذَرَكْ بِبَصَرِهِ مَخْلُوقَاتٍ حَيَّةً، هي من عالم الغيب بالنسبة
إلى أَبْصَارِ النَّاسِ العاديَّةِ دُونَ استخدامِ المجاهر.

وقد يكون الشيءُ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ عن حَوَاسِنَا، لَكِنَّا نُذَرِكُ وَجُودَهُ
وَوُجُودَ بَعْضِ صِفَاتِهِ بِبَرَاهِينٍ عَقْلِيَّةٍ، والإدراكُ بِالْبُرْهَانِ الْعَقْلِيِّ لَا يَنْقُلُ
الشيءَ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ إِلَى عَالَمِ الشَّهَادَةِ، لَكِنْ يَجْعَلُهُ معلوماً بَعْدَ أَنْ كَانَ
غَيْرُ مَعْلُومٍ.

إِنَّا نُذَرِكُ بِعُقُولِنَا وَفَقَّ ما تُلْزِمُنَا بِهِ البراهين القواطع، وَجُودَ الرَّبِّ
الخالِقِ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ - وَنُذَرِكُ طَائِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ، وَنُؤْمِنُ إِيمَاناً
رَاسِخاً بما أذَرَكْنَاهُ، وهذا من الإيمان بالغيب، لأنَّ هذا الإدراك قد أَكْسَبَنَا
عِلْماً، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ إدراكاً بالحسِّ المباشر، فهو من العلم بالغيب،
والإيمان بالغيب، بالنسبة إلى حَوَاسِنَا.

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ أَوَّلَ ابْتِلَاءٍ لِلنَّاسِ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، هُوَ ابْتِلَاؤُهُمْ بِقَضَايَا الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا دَلَائِلُ الْفِطْرَةِ، مِنَ الْعُقُولِ، وَمِنْ مَشَاعِرِ الْقُلُوبِ وَالنُّفُوسِ، وَتَنْبُئُهُ عَلَيْهَا الْآيَاتُ الرَّبَّانِيَّةُ الْكُونِيَّةُ، وَالْآيَاتُ الْبَيَانِيَّةُ الْمَنْزَلَةُ.

وَنُطَالِعُ فِي النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ، فَنَجِدُ أَنَّ كَلِمَةَ «الْغَيْبِ» قَدْ أُطْلِقَتْ عَلَى أَحْدَاثٍ وَوَقَائِعَ جَرَتْ فِي تَارِيخِ الْإِنْسِ أَوْ الْجِنِّ أَوْ الْمَلَائِكَةِ، وَقَدْ كَانَتْ مِنَ الْأُمُورِ الْمَشْهُودَةِ لِمَنْ شَهِدَهَا مِنْهُمْ، لَكِنَّمَا بَعْدَ انْتِهَائِهَا وَمُرُورِ الزَّمَنِ عَلَيْهَا صَارَتْ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ، وَصَارَ الْإِخْبَارُ عَنْهَا إِخْبَاراً عَنْ مَغْيِبَاتٍ.

ومن هذه النصوص ما يلي:

(١) قول الله عز وجل في سُورَةِ (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) مخبراً عن أنباءٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَنْ امْرَأَةِ عِمْرَانَ، وَمَرْيَمَ، وَزَكَرِيَّا، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَمُبَيِّنًا فِي أَثْنَاءِ الْحَدِيثِ عَنْهُمْ أَنَّ هَذِهِ الْأَنْبَاءَ هِيَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ...﴾ (٤٤)

(٢) وقول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) يَغْرِضُ طَائِفَةً مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذِيبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ (٤٩)

(٣) وقصَّ الله عز وجل قِصَّةَ يُوسُفَ الَّتِي كَانَتْ أَخْدَاتُهَا أُمُوراً مَشْهُودَةً لِمَنْ شَهِدَهَا فِي زَمَانٍ خُدُوتِهَا، وَقَالَ تَعَالَى بَعْدَ أَنْ عَرَضَهَا بِإِنْدَاعٍ رَائِعٍ فِي سُورَةِ (يُوسُفُ/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٢)

وَيُوجَدُ قِسْمٌ عَظِيمٌ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ اخْتَصَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ نَفْسَهُ،
ومنه طائفةٌ من تراتيبِ قضائه وقدره، لأحداثِ المستقبل.

وإنَّ الغيبَ الَّذِي انفرد الله عَزَّ وَجَلَّ بِالْعِلْمِ بِهِ، فأضافه إلى نَفْسِهِ،
بقوله: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ هُوَ غَيْبٌ قَضَتْ حُكْمَتُهُ جَلَّ جلاله،
أَنْ لَا يُطْلِعَ عَلَيْهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ قَضَتْ حُكْمَتُهُ
بأنَّ يُكَلِّفَهُ الْقِيَامَ بِرِسَالَةٍ مَا حَوْلَهُ.

ومن غَيْبِهِ جَلَّ جلاله مَقَادِيرُ إِهْلَاكِ قَوْمٍ مَا، أو مَقَادِيرُ نَصْرِ قَوْمٍ مَا،
وَمَوَاقِيتُ تَنْفِيزٍ مَا وَعَدَ مِنْ خَيْرٍ أو شرٍّ بحسبِ حكمته.

وَيُوجَدُ غَيْبٌ لَمْ يُطْلِعِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ أَحَدًا، مثل وقت قيام
السَّاعَةِ، فهي لَا تَأْتِي إِلَّا بَغْتَةً.

﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ﴾: أي: فلا يُطْلِعُ عليه. يُقَالُ لغة: أَظْهَرَ فلاناً
على السِّرِّ، أي: أَطْلَعَهُ عليه.

﴿أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾: أي: إِلَّا مَنْ رَضِيَهُ باختيارٍ حَكِيمٍ
فَجَعَلَهُ رَسُولًا، لأداءِ رسالةٍ ما تَتَعَلَّقُ بِالْغَيْبِ الَّذِي أَظْهَرَهُ عَلَيْهِ.

وسُنَّةُ الله المعروفة لنا أن يكون هؤلاء الرُّسُلُ من الملائكة ذوي
المكانة فيهم، وقد يكونون من غيرهم لعموم اللفظ في النص. وهو يَدُلُّ
أيضاً على أن الله عالم الغيب على اختلاف تنوع الغيوب بالنسبة إلى
الخلائق.



قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَإِنَّهُمْ يَسْتَلُكُنْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رَصَدًا﴾ (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَتَبَلَّغُوا رِسَالَاتِ
رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨).

دَلَّ هَذَا النَّصَّ عَلَى أَنَّ مَنْ يَخْتَارُهُ اللَّهُ مِنْ رُسُلِهِ، فَيُطْلِعُهُ عَلَى بَعْضِ «غَيْبِهِ» الَّذِي اخْتَصَّ نَفْسَهُ بِهِ، يُتَابِعُهُ جَلَّ جَلَالُهُ بِرُقَبَاءٍ يَزُودُونَ كُلَّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِهِ، لِلتَّحَقُّقِ مِنْ أَنَّهُ أَبْلَغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ مِنْهُ، دُونَ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ، وَلَا تَحْرِيفٍ وَلَا تَبْدِيلٍ وَلَا خِيَانَةٍ لِلْأَمَانَةِ.

﴿يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾:

﴿يَسْلُكُ﴾: أي: يُدْخِلُ، يُقَالُ لُغَةً: سَلَكَ فُلَانٌ فُلَانًا الْمَكَانَ، أَيْ أَدْخَلَهُ إِيَّاهُ، وَالْفَاعِلُ لِفِعْلٍ: [يَسْلُكُ] هُوَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ.

﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾: أي: مِنْ أَمَامِهِ وَمِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ.

﴿رَصَدًا﴾ مَفْعُولٌ بِهِ. وَالرَّصْدُ: هُوَ الرَّقِيبُ الْمَتَابِعُ، وَهُوَ لَفْظٌ يَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وَغَيْرُهُ، وَالْمَذْكُرُ وَغَيْرُهُ.

وَفِعْلٌ: ﴿يَسْلُكُ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ رَاصِدِي الرُّسُولِ الْمُرْتَضَى لِإِطْلَاعِهِ عَلَى بَعْضِ الْغَيْبِ الْمُخْتَصِّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَدْخُلُونَ مِنْ مَدَاخِلٍ لَا يَرَاهَا الرُّسُولُ الْمُرَاقِبُ، وَهَؤُلَاءِ الرَّاوِدُونَ الْمُرَاقِبُونَ يَكُونُونَ مِنْ أَمَامِهِ، وَمَنْ خَلْفَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ فَهُمْ يَزُودُونَ حَرَكَاتِهِمْ، وَأَعْمَالَهُمْ، وَأَقْوَالَهُمْ، وَسَائِرَ تَصَرُّفَاتِهِمْ، وَيَسْجُلُونَهَا لَدَيْهِمْ، لِيَبْلُغُوهَا رَبَّهُمْ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِهَا.

● ﴿لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَتْلَفُوا رَسَلَتِ رَبِّهِمْ﴾:

أي: إِنَّ مَنْ يُطْلِعُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الرُّسُلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَى غَيْبِهِ، الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ سَائِرِ الْغُيُوبِ الَّتِي وَزَعَ الْإِطْلَاعَ عَلَيْهَا بَيْنَ خَلْقِهِ، يَجْعَلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ رَصَدًا، لِيُسْجَلَ هَؤُلَاءِ الرُّصْدُ عَلَيْهِمْ كُلَّ تَصَرُّفٍ يَقُومُونَ بِهِ، وَلِيَقْدُمُوا مَا سَجَّلُوهُ لِلَّهِ، لِيَعْلَمَهُ عَنْ طَرِيقِ شَهَادَتِهِمْ، مَعَ أَنَّهُ سَبْحَانَهُ عَلِيمٌ بِهِ مُبَاشَرَةً.

قرأ جمهور القراء العشرة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ بالبناء للمعلوم، والفاعل ضمير

يعود على: ﴿رَبِّي﴾. وَقَرَأَ رُوَيْسٌ عن يعقوب: [لِيُعْلَمَ] بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فاعله، وبين القراءتين تكامل فكري، أي: لِيُعْلَمَ الله، وَلِيُعْلَمَ مِنْ قَبْلِ الْمُخْتَصِّينَ بهذا العلم من أهل الملأ الأعلى.

وهذه العبارة جاءت بمثابة جواب لسؤال يُقَالُ فيه: لِمَ هَؤُلَاءِ الرَّاصِدُونَ من الملائكة؟ والجواب:

﴿لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَتْلَفُوا رَسَلَتِ رَبِّهِمْ﴾.

وقد يقول قائل: أَلَيْسَ الله عز وجل عليمًا بكلِّ حركاتهم وسكناتهم، ومحيطًا بكلِّ شيءٍ عليمًا، فلا تخفى عليه خافية.

والجواب: بلى، وهذا ما دلَّ عليه البيان في النص، على سبيل الاستدراكِ لدفعِ تَوَهُّمِ حَاجَةِ اللَّهِ سبحانه وتعالى إلى تحصيل هذا العلم عن طريق الرّاصِدِينَ، وهو قول الله تعالى فيه:

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (٢٨).

الإحاطة بالعلم بالشيء، هي العلمُ المستغرقُ كُلَّ صَغِيرَةٍ وكبيرة.

فهو جلّ جلاله مُحِيطٌ عِلْمًا بِكُلِّ ما لَدَيْهِمْ مِنْ عَمَلٍ، وَقَوْلٍ، وَخَاطِرَاتٍ، وَأَحَادِيثِ نَفْسٍ، وَدِقَّةٍ فِي التَّنْفِيدِ، أَوْ خِلَافِ ذَلِكَ، فَلَا يَغْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ سبحانه مثقالُ ذَرَّةٍ فِي كُلِّ الْأَكْوَانِ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ، مع كُلِّ زَمَنٍ حَتَّى أَصْغَرَ أَجْزَاءِ الثَّانِيَةِ.

وعبارة: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ تَشْمَلُ أَيْضًا إِحَاطَتَهُ بِهِ، بِقُدْرَتِهِ وَسَائِرِ صِفَاتِهِ ذَاتِ الْهَيْمَةِ عَلَى أَكْوَانِهِ، وَالتَّضَرُّيفِ فِيهَا عَلَى مَا يَشَاءُ.

وقد يقول قائل: بما أَنَّ اللَّهَ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَتْ حِكْمَتُهُ - مُحِيطٌ بِكُلِّ أَجْزَاءِ كُلِّ شَيْءٍ، هَؤُلَاءِ الْإِحَاطَةُ الشَّامِلَةُ، فَمَا الْحِكْمَةُ مِنْ أَنْ يَسْلُكَ رَصْدًا مِنْ بَيْنِ أَيْدِي الَّذِينَ يَزْتَضِيهِمْ مِنْ رُسُلِهِ لِإِطْلَاعِهِمْ عَلَى بَعْضِ غَيْبِهِ،

ومن خَلَفِهِمْ، لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ؟!!!

أقول:

إِنَّ الله عزَّ وجلَّ قَدْ أَقَامَ الكونَ كُلَّهُ ما هُوَ غَيْرُ مَنْظُورٍ مِنْهُ لبعض خَلْقِهِ، وَمَا هُوَ مَنْظُورٌ، وَفَقَّ نظامَ الأسبابِ والمسبِّباتِ، وهو سبحانه يُجْرِي مقاديرَهُ من داخلِ قنواتِ الأسبابِ، وَيَرْبِطُ النَّتَاجَ والمحاسباتِ، والأحكامِ، والأقضية، والجزاءاتِ، وفق ما تُقَدِّمُهُ الأسبابُ والمسبباتُ من بيانات عن الواقع، فهو سبحانه يحاسبُ ويَحْكُمُ وَيُجَازِي بناءً على ما تُثْبِتُهُ الأدلَّةُ السَّبِيَّةُ من عِلْمٍ، ولا يَنْبِي على عِلْمِهِ الخاصِّ المحيط بكلِّ شيءٍ، لِيُعْطِيَ الوِلَاةَ، والقُضَاةَ، والحُكَّامَ، من عباده أَسْوَةَ مَنْ نَفْسُهُ جَلَّ جلالُهُ، حتَّى لا يَحْكُمُوا على العباد من خلال عِلْمِهِمُ الخاصِّ، بَمَنْ يَحْكُمُونَ لَهُ أو عَلَيْهِ.

وَسُنُّنُ الله عزَّ وجلَّ في كونه سُنُّنٌ ثابِتَةٌ ذَاتُ شُمُولٍ عامٍّ، وَكَوْنُ الملائكةِ مَعْصُومِينَ، لا يَعْصُونَ الله ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ، وَكَوْنُ المختارينَ مِنْهُمْ للقيام برسالاتِهِ، هُمْ أَكْثَرُ عِصْمَةٍ عن المعاصي، لا يتنافى مع إجراء الأنظمة السَّبِيَّةِ، التي جعلها الله عزَّ وجلَّ من سُنَنِه الثابتة.

وقد تَدُلُّ إحاطَتُهُم بالرَّاصِدِينَ لهم، المراقبين لأعمالهم، على احتمالِ تَعَرُّضِ الملائكةِ المختارين للخطأ، أو السَّهْوِ، دُونَ قَصْدٍ مِنْهُمْ، وهذا لا يُسَمَّى معصيةً ولا مخالفةً لأوامر الله، فتكونُ وَظِيفَةُ الرَّصْدِ لَفَتْ النِّظَرَ للخطأ غير المقصود، أو للسَّهْوِ الذي لم يَأْتِ عن تهاون.

وقد يَدُلُّ أيضاً على احتمالِ تَتَبُّعِ الجنِّ لهم وهم في الأرض لاستراق السَّمْعِ منهم، أو لِعَرَقَلَةِ بعض أعمالهم، ولا سيما إذا كانوا من الشياطين، فتكون وظيفَةُ الرَّصْدِ طَرْدَ هَوْلَاءِ عَنْهُمْ، أو تَنْبِيهِهُمْ عليهم، حتَّى يُؤدُّوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ كاملةً، وبغاية الدِّقَّةِ، دون تفريطٍ و لا غُلُوٍّ في صغير ولا كبير.

والله أَعْلَمُ بمراده.

تمة حول بعض مفهومات عن الغيب في القرآن المجيد:

بقي علينا أن نستكمل بعض المفهومات القرآنية المتعلقة بالغيب، وهي تدخل بوجه عام تحت عنوان لفظ «الغيب».

أولاً:

جاء في القرآن الكريم أن الغيب كله لا يعلمه إلا الله، فشُمول علم الله للغيب كله صفة خاصة به جلّ جلاله، لا يشاركه فيها أحد. ومما دلّ على هذه الحقيقة ما يلي:

(١) قول الله عز وجل في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُعْثَرُونَ﴾ (٦٥).

أي: وما يعلم كل من في السموات والأرض المؤمنين لأن يعلموا، من الملائكة والجن والإنس، كل الغيب، بل يعلمون من الغيب بغضه مؤزعا بينهم. إنما يعلم الغيب كله الله وحده لا شريك له.

«ال» في ﴿الْغَيْبِ﴾ لاستغراق كل أفراد الغيوب، دلّ على هذا الاستغراق، أن الملائكة يعلمون أشياء هي غيب عن الإنس والجن، وأن الجن يعلمون أشياء هي غيب عن الإنس، وأن بعض الإنس يعلمون أشياء هي غيب عن غيرهم من الإنس.

فالمراد إذن من الغيب استغراق كل أفراد الغيوب.

(٢) وقول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ...﴾ (١٢٣).

أي: ولله وحده علم كل غيب السموات والأرض، لا يشاركه في هذا الشمول العلمي أحد.

ثانياً:

وجاء في القرآن بيان أن مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا الله جلّ جلاله وعظم سلطانه.

فقال الله عز وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَعِنْدُ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿مَفَاتِحِ الْغَيْبِ﴾: المِفْتَاح، والمِفْتُحُ: آله يُفْتَحُ بها، وجمعُها: «مَفَاتِحٍ ومَفَاتِيحٍ».

أي: لا يَعْلَمُ مَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى عِلْمِ كُلِّ مَا فِي الْغَيْبِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ يَعْلَمُ هذه المَفَاتِيحَ، أَمَّا بَعْضُ مَا هُوَ غَيْبٌ فَقَدْ يُطْلِعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَلْقَهُ، عَلَى التَّوْزِيعِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، دُونَ أَنْ يَشْمَلَ ذَلِكَ كُلَّ الْغُيُوبِ، عَلَى مَا سَبَقَ بَيَانُهُ مُفَصَّلًا، لَدَى تَدَبُّرِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ (الجن):

﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ . . . ﴾.

ومن شُمُولِ عِلْمِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ - بذكر بعض التفصيلات، أَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْبَرِّ، وَإِنْ دَقَّ وَصَغُرَ، وَيَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْبَحْرِ، وَإِنْ دَقَّ وَصَغُرَ، وَيَعْلَمُ كُلَّ حَدِيثٍ وَتَغْيِيرٍ يَجْرِي فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَمِنْهُ سَقُوطُ كُلِّ وَرَقَةٍ مِنْ أَوْرَاقِ الْأَشْجَارِ فِي زَمَانِهَا وَمَكَانِهَا، وَمِنْهُ أَحْدَاثُ كُلِّ حَبَّةٍ مَهْمَا دَقَّتْ وَصَغُرَتْ وَلَوْ كَانَتْ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ ظَاهِرًا أَوْ بَاطِنًا، وَمِنْهُ أَحْدَاثُ كُلِّ شَيْءٍ، رَطْبًا كَانَ أَمْ يَابَسًا، وَهَذَا تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَخْصِيصٍ.

وبالإضافة إلى علم الله الشامل لكل شيء فَإِنَّ عِلْمَهُ - جَلَّ جَلَالُهُ - مُدَوَّنٌ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ جَلِيٍّ وَاضِحٍ، وَالْعِبَارَةُ عَلَى تَقْدِيرٍ: وَلَا أَحْدَاثٌ وَتَغْيِرَاتٌ كُلُّ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا أَحْدَاثُ كُلِّ رَطْبٍ وَلَا أَحْدَاثُ كُلِّ يَابِسٍ إِلَّا مُدَوَّنَةٌ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ.

ثالثاً:

وجاء في القرآن بيان أن الله عنده وخده علم الساعة، فلم يُطْلِع عليه أحداً، وأثبت سبحانه لنفسه أنه يعلم كل ما في الأرحام، دون أن يرد في النص القرآني قَصرُ علم ما في الأرحام عليه جلّ جلاله، بصيغة من صيغ القصر في العربية.

فقال الله عز وجل في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):
﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾.
قصر علم الساعة على الله جلّ جلاله استفيد هنا في هذه الآية من تقديم المسند ﴿عنده﴾ على المسند إليه ﴿علم الساعة﴾ والترتيب الأصلي في الجملة الاسمية تقديم المبتدأ «وهو المسند إليه» على الخبر «وهو المسند». وهذه الجملة خبر ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾.

أما عبارة: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ وعبارة: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ وعبارة: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ فلا حصر ولا قصر في شيء منها. ونحن نعلم أن قصر علم الساعة على الله جلّ جلاله وعظم سلطانه قد جاء في نصوص أخرى قطعية الدلالة، ولا تحتل التأويل، ومنها قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) خطاباً لرسوله:
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لِوَفِيهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

وقد سبق تدبر هذه الآية لدى تدبر سورة (الأعراف).

وبهذا تم تدبر سورة (الجن).

والحمد لله على توفيقه وفتحته وإمداده بالمعونة والتيسير.



ملاحق لتدبر سورة (الجن)

الملحق الأول: نظرة إجمالية عامة إلى وحدة موضوع سورة الجن.

الملحق الثاني: مُسْتَخَرَّجَات بلاغية من السورة.

الملحق الثالث: الابتلاء والفتنة في نصوص القرآن المجيد.

(٨)

الملحق الأول

نظرة إجمالية عامة إلى وحدة موضوع سورة الجن

سبق لدى تدبر السورة أنها تشتمل على ثلاثة دروس:

الدرس الأول: يتضمّن عرض قصّة النفر من الجنّ الذين استمعوا قَدْراً ما من القرآن من تلاوة الرّسول ﷺ له، وذهبوا إلى جماعاتهم دُعَاة إلى الإسلام بينهم، دون أن يكون الرسول على علم بهم، ولا بحضورهم، وبما كان من أمرهم، حتّى أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ بذلك في هذا الدّرس.

الدرس الثاني: يتضمّن بعض القضايا الدينية التكميلية من الله عزّ وجلّ لمقالات الجنّ، ومعطوفة عليها، للإشعار بتصديق أقوال هؤلاء النفر من الجنّ، في كلّ ما حكى الله عنهم، وهي تتضمّن تمهيداً للدّخول في قضايا الدّرس الثالث.

الدرس الثالث: يتضمّن دَرْساً تَغْلِيْمِيّاً من الله عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ ﷺ، يُعَالج بمقتضاه مواقف المشركين منه، ومن الذين آمَنُوا به وأَتَبَعُوهُ، في الطّور الذي وصلّوا إِلَيْهِ إِبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (الجنّ) وَفَيْلَهُ.

وجاء في هذا الدّرس علاج من الله عزّ وجلّ للمؤمنين الواقعين تحت الاضطهاد، بأنّ عَاقِبَةَ الأمر ستَكُونُ لهم، وأنّ الله سينصّرهم، وسيَخْذُلُ مضطّهديهم، مع ما في هذا من تَغْرِيضٍ وتَلْوِيحٍ للمضطّهدين بسوء العاقبة الّتي ستَكُونُ لهم في المستقبل غير البعيد.

وَسَبَقَ لَدَى تَدَبُّرِ السُّورَةِ اكْتِشَافُ تَرَابُطِ وَتَعَانُقِ آيَاتِهَا وَقَضَايَاهَا، وَتَسْلُسُلِهَا فِي وَحْدَةِ مَوْضُوعٍ، مِنْ ثَلَاثَةِ دُرُوسٍ مُطَابِقَةٍ لِلطُّورِ الَّذِي كَانَ قَدْ وَصَلَ إِلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ وَهُمْ فِي شِقِّ، وَالْمُسْلِمُونَ وَهُمْ فِي شِقِّ مُقَابِلٍ مُضَادٍّ، خِلَالَ الْمَرَحَلَةِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا السُّورَةُ.

وهو الزمن الذي بدأت فيه دعوة الإسلام تنتشر في جماعات من الجن.

● بدأت السورة بتكليف الرسول ﷺ أن يقول: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ أَسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ وَأَن يَحْكِيَ مَقَالَاتِهِمْ دَاعِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ بَيْنَ جَمَاعَاتِهِمْ كَمَا أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ، وَقَدْ فَهَمْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا دُعَاةَ بَيْنَ قَوْمِهِمْ، مِنْ إِيْحَاءَاتِ التَّرَابُطِ الْفِكْرِيِّ بَيْنَ مَقَالَاتِهِمْ.

● كَانَ أَسْلُوبُهُمْ فِي بَدْءِ دَعْوَتِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ بَيْنَ قَوْمِهِمْ مِنَ الْجِنِّ، يَتَضَمَّنُ إِنْبَاءَهُمْ بِالْحَدَثِ الْجَدِيدِ الَّذِي اكْتَشَفُوهُ فِي عَالَمِ الْإِنْسِ، وَأَنَّهُمْ سَمِعُوا قِرْآنًا عَجَبًا مُّعْجَزًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَأَمَنُوا بِهِ، وَتَخَلَّصُوا مِنَ الشُّرْكِ الَّذِي كَانُوا يَغْتَقِدُونَهُ، وَلَنْ يَعُودُوا إِلَيْهِ، وَأُبْعَدُوا عَن تَصَوُّرَاتِهِمْ خُرَافَةً أَنَّ يَتَّخِذَ اللَّهُ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا، كَمَا يَظُنُّ النَّصَارَى.

● وَبَعْدَ هَذَا الْإِعْلَانِ الْإِبْتِدَائِيِّ أَخَذُوا يُبَيِّنُونَ بَيْنَ قَوْمِهِمْ مَا كَانُوا عَلَيْهِ قَبْلَ إِيْمَانِهِمْ بِالْقُرْآنِ، وَاتَّبَاعِهِمُ الرَّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ مُسْلِمِينَ.

فَذَكَرُوا مَنَشَأَ الضَّلَالِ الَّذِي ضَلُّوا بِهِ، وَضَلَّ بِهِ جَمَاعَاتٌ كَثِيرَاتٌ مِنَ الْجِنِّ، وَهُوَ مَا كَانَ يَنْشُرُهُ بَيْنَهُمْ سَفِيهِهُمُ الْأَكْبَرُ إِبْلِيسَ، وَسُفْهَاءُ الْجِنِّ مِنْ وَرَائِهِ مِنْ ضَلَالَاتٍ.

وَأَنَّ تَأَثُّرَهُمْ بِهِ كَانَ بِسَبَبِ اعْتِمَادِهِمْ عَلَى الظَّنِّ الْبَاطِلِ، الَّذِي جَعَلَهُمْ يُصَدِّقُونَ الْكَاذِبِينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ لَنْ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا.

● وعرضوا من أخطأ ضلالات الإنس أن رجالاً منهم كانوا يعودون برجال من الجن الذين كانوا لا ينفعونهم، بل يزيدونهم أثقالاً مزرهقة ومتاعب.

وعرضوا أيضاً من ضلالات الإنس المماثلة لضلالات الجن، إنكارهم البعث للحساب وفضل القضاء وتحقيق الجزاء يوم الدين، اعتماداً على الظن التوهمي الباطل.

● وبعد هذا العرض انتقلوا إلى بيان سبب تحولهم وبخثهم عن الحقيقة.

فذكروا أنهم صعدوا إلى السماء كعادتهم، إذ هم من الجن الطيارين، ليسترقوا السمع من الملائكة، فلما لمسوا السماء، وجدوها قد ملئت حرساً شديداً وشهباً، وأنها صارت مخروسة كل المنافذ والمقاعد.

وأنهم أخذوا يفكرون في أسباب هذه الظاهرة الجديدة، أهي لشر وإهلاك أريد بأهل الأرض، أم أراد بهم ربهم رشداً، إذ منع الشياطين الذين يسترقون السمع من السماء، لنقل الأخبار إلى أوليائهم من الإنس، حتى يقطع دابر الكهانة، التي كانت تضل كثيراً من الناس؟

وأجابوا على سؤال يمكن طرحه على إيرادهم الاحتمالين على سبيل التكافؤ، بأن الجن فيهم الصالحون من الدرجة الممتازة، وحال هؤلاء لا يستدعي إنزال الإهلاك الشامل، وفيهم دون الصالحين حتى أحسن دركات الكفر والإجرام، وحال هؤلاء قد يستدعي الإهلاك الشامل.

فتكافأ الاحتمالان في نظرهم.

وعلى تقدير احتمال الإهلاك الشامل، فهل هم قادرون على حماية أنفسهم، في ملاجئ من الأرض، أو حماية أنفسهم بالهرب في الآفاق بعيداً عن الأرض، وهم من الجن الطيارين؟! لكنهم ظنوا ظناً راجحاً أنهم لن يعجزوا الله في الأرض، ولن يعجزوه هرباً في اتجاه السماء.

● وَبَعْدَ أَنْ أَتَمُّوا وَضَفَ حَالَهُمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، قَبْلَ أَنْ يَسْمَعُوا الْقُرْآنَ وَيُؤْمِنُوا بِهِدَاهُ، لَا بُدَّ أَنْ نُذَرِكَ أَنَّهُمْ مَلَكَوا لَدَى فَرِيقٍ مِنَ الَّذِينَ يَنْشُرُونَ دَعْوَةَ الْإِسْلَامِ بَيْنَهُمْ إِمْكَانِيَّةَ التَّأْثِيرِ فِيهِمْ.

عندئذٍ أَبَانُوا أَنَّ هَذَا الَّذِي عَرَضُوهُ قَدْ كَوَّنَ لَدَيْهِمْ قَنَاعَةً كَافِيَةً بِضَرُورَةِ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ، فَأَمَّنُوا، وَقَالُوا:

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُدَىءَ ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣﴾.

وهنا نُذَرِكُ أَنَّ فَرِيقًا مِنَ الْجَنِّ اسْتَجَابُوا لِدَعْوَةِ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ، تَأَثَّرًا بِأَقْوَالِهِمُ الصَّادِقَةِ، فَاسْلَمُوا وَاتَّبَعُوا الْهُدَى، وَأَنَّ فَرِيقًا آخَرِينَ أَبَوْا أَنْ يَسْتَجِيبُوا، كَشَّانَ كُلِّ ذَوِي الْإِرَادَاتِ الْحُرَّةِ، فَكَانَ مِنْ حَالِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَبَوْا أَنَّهُمْ جَارُوا وَعَدَلُوا عَنِ السَّبِيلِ الْحَقِّ، مُتَّبِعِينَ أَهْوَاءَهُمْ، وَمُلْتَزِمِينَ ضَلَالَاتِهِمْ.

ثُمَّ نُذَرِكُ أَنَّ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ مِنَ الْجَنِّ، تَابَعُوا دَعْوَتَهُمْ بَيْنَ قَوْمِهِمْ بَعْدَ مَا انْضَمَّ إِلَيْهِمُ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لَهُمْ، وَأَمَّنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنُوا بِهِ، وَأَسْلَمُوا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فأضافوا إلى مقالاتِهِمُ السَّابِقَاتِ مَقَالََةً جَدِيدَةً، حَكَاهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ:

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾.

وبهذا انتهى الدرس الأول من دروس السورة.

وهنا دَخَلَ الدرس الثاني من كلامِ اللَّهِ بَيَانًا، لَا عَلَى سَبِيلِ الْحِكَايَةِ لِمَقَالَاتِ النَّفَرِ مِنَ الْجَنِّ، وَجَاءَتْ قَضَايَاهُ مَعْطُوفَةٌ بِحَرْفِ الْعُطْفِ (الواو)

على مقالات الجن، للإشعار ضمناً بتضديق الجن في مقالاتهم، ولإضافة بيان قضايا من الدين تُعْتَبَر في المرحلة التي نزلت فيها سورة (الجن) ذات شأن، فقال الله عز وجل:

﴿وَالْوَّاسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا ۖ لَنَقْنِئَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّيْهِ سَلَكَهُ عَذَابًا صَعَدًا ۖ﴾ (١٧) وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۖ ﴿١٨﴾

وأضاف إلى هذه القضايا قضية مُمهِّدة للدُّخُول في الدرس الثالث من دروس السورة، فقال الله عز وجل:

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۖ﴾ (١٩)

أي: كاذ كبراء مُشركي مكة يجتمعون ضده لحزبه، ومقاومة دعوته، واضطهاد الذين آمنوا به واتبعوه، اجتماعاً متراصاً متلبداً كاللُّبُود التي يَضْغُطُّ فيها الصُّوف بَعْضُهُ على بَعْضٍ، أو كالشعر المتراكب بغضه على بعض كلبدة الأسد.

وبهذا فُتِحَ الباب للدُّخُول إلى الدرس الثالث، الذي يُعَلِّمُ الله فيه رُسُولَهُ كَيْفَ يُعَالِجُ المُشْرِكِينَ ببياناته، في تلك المرحلة التي بدؤوا فيها يتجمعون ضده، وضد الذين آمنوا به واتبعوه، تجمعاً تكتلياً يُشْعِرُ بالإغداد لمُحَارَبَتِهِمْ لَهُ وَلَمَنْ آمَنَ بِهِ حَرْباً عَشْكَرِيَّةً مُسْلَحَةً.

إنهم لم يَبْلُغُوا بَعْدُ إلى هذا الاجتماع المكثف ضدَّ الرُّسُولِ ودعوته، لكنَّهُمْ كَادُوا يَبْلُغُونَ ذلك، وهذا من دَقَّةِ الأداء في التعبير لمطابقة الواقع، وعَدَمُ اللُّجُوءِ إلى المغالاة في البيان.

إنَّ مُحَاوَلَاتِ تَجْمُعِهِمْ ضِدَّ الرُّسُولِ ودعوته، قد كانت من أَجْلِ صَرْفِهِ عنها، وجَعْلِهِ يَكْفُ عَمَّا هُوَ فيه من تَبْلِيغِ رِسَالَاتِ رَبِّهِ، وإِقْنَاعِ النَّاسِ بما جاءهم به عنه تبارك وتعالى.

ولا بُدَّ أن يكونوا قد أَمَرُوهُ بأنْ يَكُفَّ عَنْ تَبْلِيغِ رَسَالَاتِ رَبِّهِ، تَخَوُّفاً مِنْهُمْ أَنْ تَتَحَوَّلَ السِّيَادَةُ وَالرِّيَاسَةُ إِلَى مُحَمَّدٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا ذَكَرَهُ كُتَّابُ السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ وَرَوَاتُهَا.

لَكِنْ كَانَ هَذَا مِنْهُمْ تَدْخُلًا فِي أَعْظَمِ قَضِيَّةٍ دِينِيَّةٍ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهَا شَيْئاً، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ مَشَارَكَةٌ لِلَّهِ عِزٍّ وَجَلٍّ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الدَّاعِيَ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ إِنَّمَا يَعْْبُدُ اللَّهَ فِي دَعْوَتِهِ، فَإِذَا أَطَاعَ الْكَافِرِينَ فِي تَرْكِ هَذِهِ الْعِبَادَةِ، فَقَدْ رَضِيَ بِأَنْ يَجْعَلَهُمْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ.

وَالْجَوَابُ الْمُنَاسِبُ لَتَدْخُلِهِمْ فِي خَصَائِصِ رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ، كَمَا جَاءَ فِي تَعْلِيمِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ:

﴿.. إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۖ﴾

أي: لَا أَعْبُدُ فِي دَعْوَتِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّي إِلَّا رَبِّي وَخُدَّه، وَلَا أَشْرِكُ بِعِبَادَتِي لَهُ أَحَدًا، وَإِنِّي لَسْتُ أَعْبُدُكُمْ، وَلَسْتُ أَعْبُدُ آلِهَتَكُمْ الْبَاطِلَةَ، وَلَسْتُ أَجْعَلُ أَحَدًا شَرِيكًا لِرَبِّي، حَتَّى أَطِيعَهُ فِي أَمْرِ أَغْصِي فِيهِ أَمْرَ رَبِّي.

وَهُنَا يَقُولُ لِسَانُ خَالِهِمْ لَهُ: إِذَنْ فَانْتِ تَهَيَّئُ اسْبَابَكَ وَوَسَائِلَكَ لِمَحَارَبَتِنَا، وَانْتِزَاعِ سُلْطَتِنَا مِنَّا، وَإِكْرَاهِنَا عَلَى اتِّبَاعِكَ وَاتِّبَاعِ الدِّينِ الَّذِي جِئْنَا بِهِ.

فَاقْتَضَى هَذَا الْأَمْرُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ كَمَا جَاءَ فِي تَعْلِيمِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ:

﴿إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۖ﴾

أي: إِنِّي لَا أَمْلِكُ وَسَائِلَ مَادِيَّةٍ أَضُرُّكُمْ بِهَا، حَتَّى أَوْقِفَ إِذَاءَكُمْ لِي، وَغُدُوَانَكُمْ عَلَى الدِّينِ آمَنُوا بِي وَاتَّبِعُونِي.

وَإِنِّي لَا أَمْلِكُ أَيْضًا وَسَائِلَ إِكْرَاهٍ وَجَبَرٍ حَتَّى تَقْبَلُوا دِينِي الَّذِي أَدْعُوكم إِلَيْهِ، فَاللَّهُ عِزٌّ وَجَلٌّ لَمْ يَأْذَنْ لِأَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ بِذَلِكَ، إِذِ الدِّينُ لَا إِكْرَاهَ فِيهِ،

وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ جَبْرًا، فالإبتلاء الصَّحِيحُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَضْحُوبًا بِحُرِّيَّةِ الإرادة، وحرِّيَّة الاختيار.

وقد اقتضت الحكمة في الدَّعْوَة توجيَه هذا البيان، لتهدئة نفوس كُبراء المشركين، المتوجَّسة من تفاقم توسُّع القاعدةِ البشريَّة العريضة، من المستجيبين إلى الإسلام والدُّخول فيه، وَلَطَمَاتِهِمْ بِأَنَّ الدَّعْوَة لَا تُعِدُّ لِحَرْبٍ عسْكَرِيَّةٍ مُسَلَّحَةٍ ضِدَّ خُصُومِهَا وَأَعْدَائِهَا، ولبیان حقيقة أَنَّ الدِّين لَا يَكُونُ بالجبر، ولا بالإكراه، أمَّا الجبرُ فيكونُ بِسَلْبِ الإرادة الحرة، وأمَّا الإكراهُ فَيَكُونُ بِالْقَسْرِ وَالْقَهْرِ مَعَ رَفْضِ الإرادة وَإِبَائِهَا، وكلاهما مَرْفُوضَانِ فِي الدِّين.

واقْتَضَى حَالُ المشركين الَّذِينَ أَخَذُوا يَتَجَمَّعُونَ ضِدَّ الرُّسُولِ وَدَعْوَتِهِ، وَضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ يَخْشَى عِقَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِذَا لَمْ يُؤَدِّ رِسَالَتِهِ، وَلَمْ يُبَلِّغْ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ، وَأَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ عِقَابَ اللَّهِ إِذَا نَزَلَ بِهِ، فَإِنَّهُ لَنْ يُجِيرَهُ مِنْهُ أَحَدٌ، وَأَنَّهُ لَا يَجِدُ لِلتَّخَلُّصِ مِنْهُ مَلْجَأً يَلْتَجِئُ إِلَيْهِ، فجاء في التَّعْلِيمِ الرَّبَّانِي:

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٢).

واقترن بهذا التعليم استثناء يؤكد مضمونه، وهو مَنْ قَدْ تَأَكَّدَ الفكرة بما يُؤهِمُّ فِي بَدْءِ الْكَلَامِ الاستثناء مِنْهَا، فجاء في التعليم:

﴿إِلَّا بَلَّغْنَا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ...﴾ (٢٣).

أي: إِنَّ الَّذِي يَمْلِكُهُ لَهُمْ وَيُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ هُوَ أَنْ يُتَابَعَ تَبْلِيغٌ مَا يَأْمُرُهُ اللَّهُ بِتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ، وَأَنْ يُؤَدِّيَ الرِّسَالَاتِ الَّتِي يَأْمُرُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ يُوصِلَهَا لِلنَّاسِ.

واقْتَضَى هَذَا الْأَمْرُ تَحْمِيلَهُمْ مَسْئُولِيَّاتِهِمْ نُجَاةَ رَبِّهِمْ، وَإِنْدَارَهُمْ بِعِقَابِ اللَّهِ، إِذَا عَصَوْا اللَّهَ وَرُسُولَهُ الْمَبْلَغَ عَنْهُ، فجاء في البيان الرَّبَّانِي:

﴿... وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۝﴾

واستتبع هذا الإنذار تنبيههم على أن ما يشعرون به الآن (أي: في المرحلة التي نزلت فيها سورة الجن) من تفوق في العدد وفي القوة الغالبة، فإنهم سيجدون أنفسهم أضعف قوة وأقل عدداً من المؤمنين المسلمين، إذا جاء وغد الله.

وقد جاء البيان مُجَمَّلاً غَيْرَ صَرِيحٍ بأنه سيكون في الدنيا قبل الآخرة، لئلا يكون التّصريح بالوعد الديني مُحَرَّضاً لهم على المبادرة باتخاذ وسائل القمع الشديد، قبل أن يجد المسلمون قاعدة أرض يتمكّنون فيها، ويجمعون فيها جمعهم، ويعدّون فيها عدّتهم القتالية، فجاء في البيان قول الله عز وجل:

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ۝﴾

هذا البيان مُوجّه للمؤمنين لطمأنيتهم وبشارتهم بنصر الله بعد حين، وفيه تعريض وتلويح بأسلوب غير مباشر لمضطهدين، بأنهم سيكونون أضعف ناصراً وأقل عدداً، وجاء غَيْرَ صَرِيحٍ بأن هذا الأمر سيكون في معارك قتالية بينهم وبين الرّسول وأتباعه، ليُمكّن صرّفه إلى وعد الجزاء يوم الدين، أو إنزال عقاب ربّاني عليهم من السماء، حتّى لا يكون دليلاً على أن الخطّة المدبّرة سيكون من مراحلها محاربتهم في معارك قتالية حربيّة، يكون فيها انتصار الرّسول والمؤمنين معه عليهم.

وقد يسبق إلى أذهان المشركين أن المراد الوعد بالعذاب الأخروي، أو بكوارث ربّانية دنيويّة فيسألون: متى يكون تحقيق هذا الوعد، إننا لا نُشاهد له أثراً؟

وقد يضعون في احتمالهم أن يكون المراد بالوعد، انتصار المسلمين، وهزيمة مضطهدين.

فاتضح استبطاؤهم هذا الوعد، واستهانهم به، حتّى كأنه وعد كاذب

لَا يَتَحَقَّقُ، أَنْ يَأْتِيَ فِي الْبَيَانِ مَا يُشْعِرُ بِأَنَّ الْوَعْدَ سَيَتَحَقَّقُ حَتْمًا، فجاء في التعليم:

﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مِمَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَكُمْ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رِسَالَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾.

وهكذا ظهر لنا تعانق دروس السورة الثلاثة، وترابط آياتها وقضاياها ترابطاً فكرياً بديعاً.

ولا بُدَّ من التنبيه على أن إظهار الترابط بين دروس السورة القرآنية وآياتها يستدعي تأملاً دقيقاً في ملء الفراغات بما تقتضيه اللوازم الفكرية، وما تقتضيه مطويات يُمكن استنباطها من قبَلِ أهلِ التدبر المتأني، وما تقتضيه أسئلة تُثيرها بعض القضايا، وهي تستدعي إجابات ملائمة.

فَلْيَكُفَّ طائفةٌ من المستشرقين المضللين، عن إيهاماتهم، إذ يَتَنَقَّدُونَ القرآنَ المَجِيدَ كَذِباً وَتَزْيِيفاً وافتراءً، بأنه مُفَكِّكٌ لَا تَرَابُطَ بَيْنَ فَرَاقِهِ وَآيَاتِهِ.

إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ لَا بُدَّ لِحُسْنِ فَهْمِهِ، مِنْ مُتَدَبِّرِينَ مُؤَهَّلِينَ لَتَدْبِيرِهِ، صَادِقِينَ فِي اكْتِشَافِ دَلَالَاتِهِ، مُؤْمِنِينَ بِهِ.



(٩)

الملحق الثاني

مستخرجات بلاغية من السورة

توجد في سورة (الجن) أمثلة بلاغية متعددة، وقد فتح الله عليّ باستخراج الأمثلة التالية منها:

أولاً:

من الإيجاز، وهو في اللغة، اختصار الكلام وتقليل ألفاظه مع بلاغته.

وتعريفه في اصطلاح البلاغيين: هو التعبير عن المراد بكلام قصير ناقص عن الألفاظ التي يُؤدّي بها عادةً في متعارف الناس، مع وفائه بالدلالة على المقصود.

وهو ينقسم إلى إيجاز القصير، وإيجاز الحذف.

ونجد في هذه السورة من الإيجاز الأمثلة التالية:

● فمن أمثلة إيجاز القصير: ما جاء في السورة من عرض أقوال النّفر من الجنّ، بما يُشبه ذكرَ عُنواناتِ الموضوعات التي طرّحها بينَ قَوْمِهِمْ دُعاةً إلى دينِ الله، وكلُّ واحد من هذه العنوانات قابلٌ للشرح والتفصيل في مقالات مطوّلات.

وهي (١٧) مقالة.

● ومن أمثلة إيجاز الحذف ما يلي:

المثال الأول: حذف المفعول به، إذ يُوجد في الكلام ما يدلُّ عليه، وهو إيجاز لا يخسُنُ العدول عنه، ونجدُ هذا الإيجاز في قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾:

حُذِفَ المفعول به من عبارة: ﴿اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ لدلالة ما جاء في العبارة التي بعدها: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾.

أي: استمع نفرٌ من الجنّ آياتٍ من القرآن فقالوا: إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا عَجَبًا.

فهذا من الإيجاز بالحذف الذي يوجد في الكلام ما يدلُّ عليه، وهو من الإيجاز الذي لا يخسُنُ في الكلام البليغ الرفيع العدول عنه.

وهو من قبيل الحذف من الأوائل لدلالة الأواخر.

المثال الثاني: ما في الآية التالية من حذف:

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۖ﴾ (٣):

ففي عبارة: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ دَلَّ الْفِكْرُ عَلَى الْمَحذُوفِ منها، والتقدير: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا﴾ أَنْجَبَ وَلَا تَبَنَّى ﴿وَلَدًا﴾.

المثال الثالث: ما في عبارة: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ

...﴾ (٢٢) أي: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَنِي مِنَ﴾ عَذَابِ ﴿اللَّهُ أَحَدًا﴾ إِنَّ أُنَا عَصِيَّتُهُ

فَلَمْ أَقْمِ بِتَأْدِيَةِ رِسَالَاتِهِ الَّتِي اصْطَفَانِي لِتَبْلِيغِهَا وَأَمَرَنِي بِهِ. وَالْمَحذُوفُ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ يَدُلُّ عَلَيْهِ التَّدْبِيرُ الْفِكْرِيُّ.

المثال الرابع: ما في الآية التالية من حذف:

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ۖ﴾ (٢٤):

فالعبرة في هذه الآية على تقدير: أَمْهَلُهُمْ يَا مُحَمَّدُ وَاضِرٌ عَلَيْهِمْ، وَلَا تُقَابِلْ إِيْدَاءَاتِهِمْ بِمِثْلِهَا، وَانْتَظِرْ ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ مِنْ نَصْرِ اللَّهِ لَكَ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا بِكَ وَاتَّبَعُوكَ ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾.

دَلَّ عَلَى الْمَحذُوفِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ التَّدْبِيرُ الْفِكْرِيُّ، مَعَ قَرِينَةٍ مَا جَاءَ فِي

آية: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (٢١) أي: لَا أَمْلِكُ مَا أَقَاتِلُكُمْ

بِهِ، وَلَا أَمْلِكُ مَا أَكْرَهُكُمْ بِهِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَالْمَعْنَى: أَمْهَلُهُمْ وَاضِرٌ عَلَيْهِمْ، وَتَرَقَّبْ مَا تُدْبِرُهُ ضِدَّهُمْ، وَتَنَزَّلْ بِهِمْ مُسْتَقْبَلًا، فَإِنَّهُمْ سَيَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ مِنْ نَكَبَاتٍ تَنْزِلُ بِهِمْ.

المثال الخامس: وهو من قسم الإيجاز الذي يُسَمِّيهِ الْبَلَاغِيُونَ «الْإِحْتِيَاكَ».

الْإِحْتِيَاكُ: أَنْ يُحَذَفَ مِنَ الْأَوَائِلِ مَا جَاءَ نَظِيرُهُ أَوْ مُقَابَلُهُ فِي الْآخِرِ،

وَيُحَذَفُ أَيْضًا مِنَ الْآخِرِ مَا جَاءَ نَظِيرُهُ أَوْ مُقَابَلُهُ فِي الْأَوَائِلِ.

وَمِنَ الْإِحْتِيَاكِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَا جَاءَ فِي الْآيَتَيْنِ التَّالِيَتَيْنِ حِكَايَةً لِقَوْلِ

مِنْ أَقْوَالِ النَّفَرِ مِنَ الْجَنِّ:

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنَ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

فالتقدير: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنَ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾ فكَانُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ دَارِ النِّعَمِ الَّتِي يَنْتَعِمُونَ فِيهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ﴾ قَاتِبُوا عَيًّا وَلَمْ يَتَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

دلٌّ على المحاذيف في هذا النَّصِّ حُسْنُ التَّدْبِيرِ، مع التفكير في التَّعَابُلِ في النَّصِّ ما بين المسلمين وبينَ القَاسِطِينَ.

المثال السادس: وهو من فُتُون الإيجاز الَّتِي فَتَحَ اللَّهُ عَلَيَّ بَاكِتِشَافَهَا، وَأَضَعُ لِهَذَا الْفَنِّ الْعِنَانِ التَّالِي:

«تَضْدِيقُ الْمُتَكَلِّمِ بِعَطْفِ كَلَامٍ لَمْ يَقُلْهُ عَلَى كَلَامِهِ مَعَ الْإِشْعَارِ بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِهِ».

وَقَيْدٌ: «مَعَ الْإِشْعَارِ بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِهِ» قَيْدٌ لَازِمٌ لِلْإِحْتِرَازِ مِنَ الْإِذْرَاجِ وَمِنَ التَّدْلِيلِ.

وَمِنْ أَمْثَلَةِ هَذَا الْفَنِّ أَنْ يُقَرَّرَ تَلْمِيذُ الشَّيْخِ بِحُضُورِهِ أَحْكَامًا تَتَعَلَّقُ بِمَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ الْعِلْمِ، حَتَّى إِذَا أَتَمَّ التَّلْمِيذُ كَلَامَهُ، وَأَرَادَ الشَّيْخُ أَنْ يُشْعِرَ الْحَاضِرِينَ الْمُسْتَمْعِينَ بِأَنَّهُ يُقَرِّرُ تَلْمِيذَهُ عَلَى مَا قَالَ، وَأَرَادَ أَنْ يُضَيِّفَ إِلَى أَقْوَالِهِ قَوْلًا مِنْ عِنْدِهِ لَمْ يَذْكُرْهُ تَلْمِيذَهُ، فَيَبْنِي كَلَامًا مِنْ عِنْدِهِ، وَيَعْطِفُهُ عَلَى مَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرَهُ تَلْمِيذَهُ.

وَقَدْ هَدَانِي إِلَى هَذَا الْفَنِّ مِنْ فُنُونِ الْإِيجَازِ مَا جَاءَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، مِنْ عَطْفِ قَوْلٍ تَأْسِيسِيٍّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى أَقْوَالِ الثَّقَرِ مِنَ الْجَنِّ الَّتِي حَكَاهَا اللَّهُ عَنْهُمْ.

وهو قول الله عز وجل:

﴿وَالْوِاسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لَنَقْنَنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ وَحَتَّى آخِرِ الْآيَةِ (١٩).

وفي هذا الكلام المعطوف على أقوال النفر من الجن، ما يُشعرُ بأنه من كلام الله وليس من أقوال النفر.

وفي هذا الإجراء البيانيّ تَصْدِيقٌ لِلنَّفَرِ مِنَ الْجَنِّ فِي مَقَالَاتِهِمْ، مع إنشاء بيان جَدِيدٍ أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيَانَهُ وإضافته.

ولهذا الفنّ الإيجازي أمثلة أخرى في القرآن المجيد، ومنه ما جاء في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول) إذ جاء فيها ذُكْرُ بَيَانٍ رَبَّانِيٍّ مُبَاشِرٍ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ضَمَّنَ وَصَايَا لُقْمَانَ لابنه.

فالأيتان (١٤ و ١٥) من السُّورَةِ بَيَانٌ رَبَّانِيٌّ مُبَاشِرٌ جَاءَ ضِمْنًا وَصَايَا لُقْمَانَ لابنه، إذ الآية (١٣) اشتملت على بَعْضِ وَصَايَا لُقْمَانَ لابنه، والآيات (١٦ - ١٩) جاءت حكايةً لبقية وصايا لقمان لابنه.

فدَلَّ هذا الإجراء البيانيّ الرَّبَّانِيَّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقْرَأُ مَا جَاءَ فِي وَصَايَا لُقْمَانَ، فَهِيَ بِحُكْمِ الْكَلَامِ الصَّادِرِ عَنِ اللَّهِ جَلَّ جلاله، وقد يكون لُقْمَانُ قد تَعَلَّمَهَا مِنْ كِتَابِ رَبَّانِيٍّ سَابِقٍ.



ثانياً:

من الكناية، وهي اللَّفْظُ الْمُسْتَعْمَلُ فِيمَا وَضَعَ لَهُ فِي اصْطِلَاحِ التَّخَاطُبِ، لِلدَّلَالَةِ بِهِ عَلَى مَعْنَى آخَرَ لَازِمٍ لَهُ أَوْ مُصَاحِبٍ لَهُ، أَوْ يُشَارُ بِهِ عَادَةً إِلَيْهِ، لَمَّا بَيَّنَّهُمَا مِنَ الْمَلَابَسَةِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ.

ومن أمثلة الكناية في هذه السُّورَةِ ما جاء في الآيتين (١٤ و ١٥) حكايةً لبعض أقوال النفر من الجن:

﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

القاسِطُونَ: هُمُ الجائِرُونَ أُطْلِقَ هَذَا اللَّفْظُ كِنَايَةً عَنْ كَوْنِهِمْ لِم يُسْلِمُوا، لِأَنَّ مِنْ لَوَازِمِ عَدَمِ إِسْلَامِهِمْ أَنْ يَجُوزُوا وَيَبْتَغِدُوا عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

فَكُنِّي بِإِطْلَاقِ اللَّزَامِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَلْزُومِهِ، وَهُوَ عَدَمُ إِسْلَامِهِمْ.
ثالثاً:

من الْقَصَرِ، وَهُوَ فِي اصْطِلَاحِ عُلَمَاءِ الْبَلَاغَةِ، تَخْصِيصُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ بِعِبَارَةِ كَلَامِيَّةٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ.

وَيُقَالُ فِي تَعْرِيفِهِ: جَعَلَ شَيْءٍ مَقْصُوراً عَلَى شَيْءٍ آخَرَ، بِوَاحِدٍ مِنْ طُرُقٍ مَخْصُوصَةٍ مِنْ طُرُقِ الْقَوْلِ الْمَفِيدِ لِلْقَصْرِ.

وَنَجِدُ مِنْ أَمْثَلَةِ الْقَصْرِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَثَالَيْنِ:

المثال الأول: مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي السُّورَةِ:

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً ﴿٧٧﴾ إِلَّا بَلَقًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً...﴾.

فِي هَذَا النَّصِّ قَصْرُ الْمَجِيرِ وَالْمُلْجَأِ عَلَى تَأْدِيَةِ الْوَاجِبِ الرَّبَّانِيِّ وَهُوَ تَبْلِيغُ رِسَالَاتِ اللَّهِ عَلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ رَسُولُهُ.

وَهُوَ مِنْ قَبِيلِ قَصْرِ صِفَةِ الْحِمَايَةِ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ عَلَى الْقِيَامِ بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَفِي مَقْدَمَةٍ مَا فُرِضَ عَلَيْهِ أَنْ يَقُومَ بِتَبْلِيغِ مَا أَمَرَهُ بِتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ.

وَفِي هَذَا الْاسْتِثْنَاءِ مِنَ الْبَدِيعِ فَنَّ تَأْكِيدَ الْفِكْرَةِ بِمَا يُوْهِمُ فِي بَدْءِ الْكَلَامِ الْاسْتِثْنَاءَ مِنْهَا.

المثال الثاني: ما جاء في قول الله عز وجل في السورة:

﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ۖ . . . ﴾:

ففي هذا النص ما يدل على قُصْرِ إظهارِ عِلْمِ الْغَيْبِ الَّذِي استأثرَ اللَّهُ عز وجل بعِلْمِهِ به، على مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ، فَلَا يُظْهِرُ عَلَيْهِ أَحَدًا سِوَاهُ.

وهو من قبيل قُصْرِ الصِّفَةِ على الموصوف، وهو قُصْرُ حَقِيقَتِي.

رابعاً:

ومن المجاز المرسل، ما جاء في عبارة: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أي: ذوي طرائق قِدَدٍ، بحذف المضاف، مع ملاحظته ذهناً، أو من إطلاق الشيء وإرادة صاحب الشيء.

خامساً:

ومن التشبيه ما جاء في عبارة: ﴿وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي: كانوا شبيهين بالحطب، الَّذِي يُعَدُّ لثَوَقَدَ به النار، أو ليزيد به وَقُودَهَا.

إن الجائرين الَّذِينَ لم يُسَلِّمُوا سَوْفَ يُطْرَحُونَ وَيَكْبُونَ في جَهَنَّمَ كما يُطْرَحُ وَيَكْبُ الحطبُ في النار.

وهذا من التشبيه البليغ، إذ حُذِفَتْ منه أداة التشبيه وَوَجِهَ الشُّبُه.

سادساً:

وجاء في السورة عدة بدائع معنوية.

(١) فمنها بديعية «التنكيث» وهو أن يَقْصِدَ المتكلم إلى كلمة أو كلام بالذَّكْرِ، دُونَ غَيْرِهِ مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّهُ، لِأَجْلِ نُكْتَةٍ في المذكور تُرْجَحُ مجيئه على ما سِوَاهُ.

ومن أمثلة بديعية «التنكيث» في السورة مثالان:

المثال الأول: عبارة ﴿سَفِينًا﴾ في الآية (٤): ﴿وَأَنْتُمْ كَأَن يَقُولُ سَفِينًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾.

اختيرت عبارة ﴿سَفِينًا﴾ دون اسمه العَلَم: «إيليس» لِنُكْتَةِ جَدِيرَةٍ بالعناية، وهي:

● وصفه بالسفاهة، التي هي قِلَّةُ العقل التي ساقته للشر والخلود في عذاب النار.

● إذْخَالَ كُلَّ جُنُودِهِ من شياطين الجنّ ضمن عبارة: ﴿سَفِينًا﴾ فالنكرة المضافة، إلى معرفة تَعُمُّ كُلَّ الأفراد التي يَنْطَبِقُ على الواحد منها النكرة المضافة.

مثل: خذ من شاة الغني، وِدْزِهِمِهِ وِدِينَارِهِ، أي: من شياهه ودراهمه، ودنانيره.

المثال الثاني: عبارة ﴿يَسْلُكُهُ﴾ في الآية (١٧) وهي قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكُهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.

كان من الممكن أن يقول «يُدْخِلُهُ عَذَابًا صَعَدًا» لكن اختيار عبارة ﴿يَسْلُكُهُ﴾ كَانَ لِنُكْتَةِ في المعنى لا تُؤَدِّيها عبارة «يُدْخِلُهُ» فالسُّلُكُ الذي من مَعَانِيهِ إِذْخَالُ الْخَيْطِ فِي ثَقْبِ الْإِبْرَةِ، يُفِيدُ معنى إحاطة المدخول فيه بالداخل، إحاطة تَشْمُلُ كُلَّ حَجْمِ جَسْمِهِ، إِمْعَانًا في إِيْلَامِهِ من كُلِّ جانب، بخلاف الدخول، فهي كلمة عامّة تَصْلُحُ للدخول ولو مع سَعَةِ المدخول فيه، كَالْعُرْفَةِ والمدينة على سَعَتِهَا.

(٢) ومنها بديعية: «المبالغة».

والمبالغة تنقسم إلى:

أ - تبليغ .

ب - وإغراق .

ج - وغُلُو .

والأول منها مقبول . ومنه الوصف بالمضدر، إذ هو قائم على ادعاء
أن الموصوف قد عَظُم الوصف فيه حتى كان كله بمثابة عينِ الموصوف،
وهذا من الأمور المستعملة المقبولة .

ومن الوصف بالمضدر في السورة ﴿قُرْآنًا عَجَبًا﴾ : أي : من كثرة
عجائبه صار كأنه هو العجب .

(٣) ومنها بديعة «الإدماج» .

الإدماج في علم البديع، إدخال فكرة في فكرة، أو غرضٍ بلاغي في
غرضٍ آخر، أو وجهٍ من وجوه البديع في وجهٍ منه آخر، بأسلوب من
الكلام لا يظهر منه إلا إحدى الفكرتين، أو أحد الغرضين، أو أحد
الوجهين .

ونجد في سورة (الجن) من أمثلة الإدماج، إدماج الثناء على النفر من
الجن ضمن عرض أقوالهم عرضاً بيانياً، بطريقة تُشعرُ بصدقهم فيها، وتُشعرُ
بفضلهم إذ قاموا بين قومهم دعوةً إلى دين الله، وتُشعرُ بأن ما توصلوا إليه
من قضايا دينية قضايا مطابقة للحق والواقع والمفاهيم الدينية الصحيحة .

(٤) ومنها بديعة فتح الله عليّ باكتشافها، لم أجِدْ أحداً ذكرها من
المهتمين بعلم البديع، وهي :

«تقديم ما هو بمثابة الدليل لما يأتي بعده» .

ومن أمثلته في سورة (الجن) قول الله عز وجل حكاية لمقالة من
مقالات النفر من الجن الذين استمعوا القرآن فآمنوا به .

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ ٢٠:

فعبارة: ﴿تَعْلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: تَعَالَىٰ حَظُّ رَبِّنَا من كمال الصفات الذاتية، والتَّعْزِيزِ عن النقص والحَاجَةِ، تَعَالَىٰ لَا حَدَّ لَهُ كَمَالاً وَغِنَىٰ بِذَاتِهِ وصفاته عن كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ. هذه العبارة هي بمثابة الدليل العقلي للعبارة التالية لها في الآية، وهي: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ ٢٠ إِذْ لَوْ اتَّخَذَ صَاحِبَةً أَوْ أَنْجَبَ أَوْ تَبَنَّىٰ وَلَدًا، لَكَانَ مُحْتَاجًا إِلَى الصَّاحِبَةِ، أَوْ مُحْتَاجًا إِلَى الْوَلَدِ، وَالْعَقْلُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُحْتَاجَ لَشَيْءٍ لَا يَكُونُ ذَا غِنَىٰ عَنْهُ.

فالعبارة الأولى تمهيد حكيم للعبارة التالية لها، وهذا الإجراء البياني من أساليب تقديم الدليل قبل تقرير الدَّعْوَى. وأكْتَفَيْ بِهَذِهِ الْمُسْتَخْرَجَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ غَيْرِ الْمُسْتَقْصِيَةِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى فَتْحِهِ وَتَيْسِيرِهِ.



(١٠)

الملحق الثالث

نصوص الابتلاء والفتنة في القرآن المجيد وفيه أربع مقولات

المقولة الأولى:

تعريفات وبيانات تأسيسية:

جاء في النصوص الإسلامية استعمال كلمتي الابتلاء والفتنة بمعنى الاختبار والامتحان، وبيان أن الله عَزَّ وَجَلَّ خلق الناس لِيَبْلُوَهُمْ فِي ظُرُوفِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وجاء فيها بيان أن الله سَخَّرَ لِلنَّاسِ مَسْخَرَاتٍ تَظْهَرُ فِيهَا اخْتِيَارَاتُهُمْ فِي امْتِحَانِ اللَّهِ لَهُمْ.

وعلينا قبل شرح ذلك أن ننظر في تعريفات كلمات: «الابتلاء والفتنة والتسخير ومشتقاتها» وننظر في العلاقة بين الابتلاء والتسخير.

أولاً: الابتلاء:

مادة الابتلاء تدلُّ في أصل معناها على معنى الامتحان والاختبار لكشف ما لدى المُبتلى مِنْ صفاتٍ كامناتٍ، بعملٍ إراديٍّ ذي أثرٍ يُدرِكُ في النفس أو في حركاتٍ وتصرفاتٍ الجسد الإردادية.

قال أهل اللغة: بَلَوْتُ الرَّجُلَ بَلَوًّا وَبَلَاءً، وابتليته ابتلاءً، أي: اختبرته.

وبَلَاءُهُ يَبْلُوهُ بَلَوًّا إِذَا جَرَّبَهُ وَاخْتَبَرَهُ. وابتلاءه الله، أي: امتحنه.

ويقال: بُلِيَ بالشيءِ بَلَاءً، وابتلي به ابتلاءً.

والاسم: البَلْوَى، والبَلْوَةُ، والبَلِيَّةُ، والبَلِيَّةُ، والبَلَاءُ. كلها بمعنى الامتحان والاختبار، فعلى هذا المعنى تدور مادة الابتلاء ومشتقاتها في أكثر استعمالاتها.

وقد يُراد من مادة الابتلاء والبلاء مُطلقُ الكشف مثل قول الله عز وجلّ في سورة [الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول] بشأن خلق الإنسان ورجعه يوم الدين:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۖ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) ۚ﴾

أي: يومَ تُكشَفُ السَّرَائِرُ التي كانت النفوس تُسرّها في الحياة الدنيا من نيات ومقاصد وغيرها من أعمال القلوب كالحسد والحُب والكراهية، للمحاسبة والجزاء.

وقد يُراد من مادة الابتلاء الوسيلة التي يكون بها الامتحان ولا سيما إذا كانت من المصائب الشديدة، فيقال فيها: بلاء عظيم.

وقد يأتي فعل: «أبلى بلاء» بمعنى اجتهد في العمل والبذل، وبمعنى «أنعم». يقال: أبلاه الله، إذا أنعم عليه وأكرمه، ومنه: ﴿وَلِيَسْبِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا﴾ أي: ولينعم عليهم بالنصر والغنيمة.

ابتلاء الإرادة: وابتلاء الإرادة الحرّة: هو امتحانها لكشف ما تختار من عمَلٍ إراديٍّ ظاهر أو باطنٍ في رحلة الحياة الدنيا، إذ وهبها الله عز وجل للمخلوق مصحوبةً بالصفات التي تؤهله لأن يكون في هذه الحياة الدنيا مخلوقاً ممتحناً مختبراً.

وبعد الامتحان يأتي الحسابُ والجزاء، وإلا كان الامتحان عبثاً، والله عزّ وجلّ مُنزَّهٌ عن العبث.

المبتلى به: والمبتلى به كُلُّ ما يخضع لإرادة المخلوق الحرّة من عمل باطنٍ أو ظاهر، ومن الباطن أعمالُ القلوب والنفوس الإرادية كالحب والكراهية والحسد.

موادّ الابتلاء: وموادّ الابتلاء في ظروف هذه الحياة الدنيا كُلُّ ما فيها ممّا يَسُرُّ ويَلْذُّ فعْله أو تركه، أو مَسُّه أو الإصَابَة به، أو الخلاصُ منه، وكلُّ ما فيها ممّا يَسُوءُ أو يُؤْلِمُ أو يَشْقُّ فعْله أو تركه، أو مَسُّه أو الإصَابَة به، أو الحرمانُ منه.

المطلوب في الابتلاء: والمطلوب من العبد فيما هو مبتلى به حَمْدُ الله والثناء عليه فيما يَسُرُّ وفيما لا يَسُرُّ، وطاعةُ الله والعملُ بمراضيه فيما تحبُّ النفس وفيما لا تحبُّ على ما يُريدُ جلّ جلاله في مقاديره، وفي أوامره ونواهيه الإلزاميّة أو الترغيبية.

والمؤلماتُ وكلّ ما يَشْقُّ على النفس تَكْشِفُ مقادير الصبر لدى العبد المبتلى، والسّاراتُ وكلّ ما فيه مُتعةٌ للنفس تَكْشِفُ مقادير الشكر لله لدى العبد المبتلى، مع مقدار الحمد لله في كلّ منهما، والتزام طاعته وعدم معصيته.



ثانياً: الفتنة:

الفتنة: هي في الأصل الصهرُ بالنار للمعدن، كالذهب والفضة، لتمييز الرديء من الجيد.

تقول لغة: فَتَنَ الصَّائِغُ الذَّهَبَ يَفْتِنُهُ فَتْنًا وَفُتُونًا، أي: أذابه بالنار ليختبره.

ثمَّ صارت مادة هذه الكلمة تدلُّ على مطلق الابتلاء والامتحان والاختبار، فهي كلمات مترادفات.

وبما أنَّ اختبار الإرادة يكون غالباً بما تكرَّه النفوس من مصاعب ومشقات، أو يخالف أهواءها وشهواتها، فإنَّ جنس الألم الذي يُخْدِثُهُ مَسُّ النار باقٍ في دلالة المادة، مع دلالتها على مطلق الاختبار. ومن التوسعات اللغوية في دلالة هذه المادة ما يلي:

(١) إطلاقها على الإحراق بالنار أو على مطلق التعذيب، أو على التعذيب بالنار، عقاباً أو انتقاماً، أو عدواناً وظلماً، وَيَسْقُطُ معنى الاختبار حيثئذٍ.

(٢) وإطلاقها على فتنة الرجل مثلاً بالمرأة، إذا أحَبَّها فَوَلَّهَتْهُ، لأنَّ في ذلك معنى اختباره بها، واكتوائه بنار حُبِّها والشَّغَفَ بها.

(٣) وإطلاقها على الإعجاب بالشيء، لأنَّ الإعجاب ببعض الأشياء قد يُورِطُ صاحبه فيوقعه بما تكرَّهه عاقبته.

(٤) وإطلاقها على الضلال وارتكاب الإثم، لأنَّ مَنْ زُوِّنَ له الضلالُ فوقع في الخطيئة، استحقَّ العقاب فناله ما يكرَّه، ورُبَّما استحقَّ العذاب بالنار.

ومن هذا يقال: فَتَنَ الشَّيْطَانُ الْإِنْسَانَ إذا أغراه بوساوسه وتسويلاته، فاستجاب لخداعه وغروره، حتى أضلَّه فأغواه، وعَرَّضَهُ لعذاب الله، ولهذا

يُسَمَّى الشَّيْطَانُ فَاتِنًا وَفَتَانًا، وَكَذَلِكَ كُلُّ مُضِلٍّ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، أَوْ مُؤْتِرٍ
أَثَرًا يَصْرِفُ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ، أَوْ يُكَرِّهُ النَّاسَ بِهِ.

(٥) وَيُقَالُ لِمَنْ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ مَا ذَهَبَ بِهَا مَالُهُ وَعَقْلُهُ: إِنْسَانٌ مَفْتُونٌ،
أَي: مجنون، وفي هذا يُقَالُ: فُتِنَ فَهُوَ مَفْتُونٌ، مثل: جُنَّ فَهُوَ مجنون.

(٦) وَتُطْلَقُ الْفِتْنَةُ عَلَى مُجَرَّدِ إِزَالَةِ الْإِنْسَانِ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ
محمود العاقبة إلى أمرٍ مكروهٍ العاقبة.

(٧) وَتُطْلَقُ الْفِتْنَةُ عَلَى الاضطراب وبلبلة الأفكار وتعاضلها في
المجتمع، ومناصرة كلِّ فريق لما رُئِيَ له، وهذه الفتنة تُقَارَنُ الْأَحْدَاثُ
المثيرة للجمهور العام، وهي بمثابة نارٍ تشتعل في النفوس.

(٨) وَتُطْلَقُ الْفِتْنَةُ عَلَى الْإِدْعَاءِ الْكَاذِبِ، بُغْيَةِ الْعِزِّ أَوْ التَّضْلِيلِ،
والمعنى فيها الرِّغْبَةُ بِتَضْلِيلِ الْمَخَاطَبِ عَنِ الْحَقِّ، وَتَحْوِيلِهِ عَنْ وَجْهِ
الصَّوَابِ.



ثالثاً: التسخير:

التسخير: تطويع المخلوق بِالْجَبْرِ لِلْعَمَلِ وَالتَّحَرُّكِ عَلَى وَفْقِ إِرَادَةِ
الْمُسَخِّرِ، وَيَأْتِي بِمَعْنَى تَذْلِيلِ الْمَخْلُوقِ لِعَمَلِ مَا أَوْ أَمْرٍ مَا، وَجَعَلَهُ مَطَاوِعًا
لِمَا يَرَادُ مِنْهُ ضِمْنُ قَانُونِ تَسْخِيرِهِ، وَهَذِهِ الْمَطَاوِعَةُ قَدْ تَكُونُ بِالطَّبْعِ،
كَتَسْخِيرِ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ وَالنَّارِ وَعِنَاصِرِ الْأَرْضِ وَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا حَيَاةَ
لَهَا. وَقَدْ تَكُونُ بِالْقُوَّةِ مَعَ التَّذْلِيلِ كِتَسْخِيرِ الْعِجَمَاوَاتِ لِلْإِنْسَانِ. وَقَدْ تَكُونُ
بِالِاخْتِيَارِ الْحَرِّ لِمَا فِي الْمَطَاوِعَةِ مِنْ مَصْلَحَةٍ لِلْمَطَاوِعِ أَوْ تَخْلُصٍ مِمَّا يَكْرَهُ،
كَتَسْخِيرِ بَعْضِ النَّاسِ لِبَعْضٍ، وَلَوْ مَلَكُوا تَحْقِيقَ مَصَالِحِهِمْ دُونَ أَنْ يَكُونُوا
مُسَخَّرِينَ لِمَا أَطَاعُوا.

والتسخير الجبري قد يكون ضمن سُنَّةٍ ثابتة، كَسُنَنِ الله وقوانين خلقه في كونه. وقد يكون دون سُنَّةٍ ثابتة، مثل المعجزات وخوارق العادات، ومنها تسخير عصا موسى عليه السلام، فيما أجرى الله فيها من معجزات.

والتسخير كله لا يخرج عن دائرة التحرك ضمن إرادة الرب الخالق وخلقِه دوماً.

وقد سَخَّرَ الله للنَّاسِ قِسْماً من طاقاتهم في ذواتهم، وسَخَّرَ لهم كثيراً من مخلوقاته في كَوْنِهِ، في الأرض وفي السَّمَاوَاتِ، وَهُمْ يَسْتَفِيدُونَ من الْمُسَخَّرَاتِ لَهُمْ أَوْ يُحَرِّكُونَهَا بِإِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةِ الَّتِي مَنْحَهُمُ اللهُ إِيَّاهَا، وَأَعْطَاهَا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَقُدْرَتِهِ الْقُدْرَةَ عَلَى أَنْ تَشَاءَ بِحُرِّيَّةٍ، لِيُخْتَبَرِ اخْتِيَارَاتِهَا، وَحِينَمَا تَشَاءُ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ شَيْئاً فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ مَجْبُورَةً فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي شَاءَتْهُ، لِأَنَّهَا مُمَكَّنَةٌ بِإِرَادَةِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ مِنْ أَنْ تَشَاءَ بِحُرِّيَّةٍ دُونَ جَبْرِ.

العلاقة بين الابتلاء والتسخير:

● قد شاء الله الرَّبُّ الخالق العزيز العليم الحكيم أن يَخْلُقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، مُرَوِّدًا بِالصِّفَاتِ الَّتِي تَوْهَلُهُ لِأَنْ يَكُونَ مُمْتَحِنًا فِي ظُرُوفِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَنْ يَكُونَ مَنَاطُ الْمَسْئُولِيَّةِ فِيهِ جِهَازَ إِرَادَتِهِ الْحَرَّةِ، الْمَصْحُوبَةِ بِالْإِذْرَاقِ الْعِلْمِيِّ الْكَافِي لِلتَّكْلِيفِ، وَالْمَصْحُوبَةِ بِالْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَنَزَعَاتِ الْخَيْرِ وَنَزَعَاتِ الشَّرِّ، وَالْمُمَكَّنَةِ مِنْ تَوْجِيهِ طَاقَاتِهِ لِفَعْلِ مَا تَخْتَارُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَطَاعَةٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ.

● وَإِذْ تَمَّتْ بِهَذَا مَشِئَةُ الرَّبِّ الْخَالِقِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ، فَقَدْ اقْتَضَى هَذَا الْأَمْرُ أَنْ يُسَخَّرَ لِلْإِنْسَانِ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَخَلْقِهِ ضَمْنُ سُنَنِ ثَابِتَةٍ قِسْماً مِنْ طَاقَاتِ الْعَمَلِ وَالْحَرَكَةِ فِي دَاخِلِ جَسَدِهِ، وَأَنْ يُسَخَّرَ لَهُ فِي الْكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِ مُسَخَّرَاتٌ كَثِيرَاتٌ، تَعْمَلُ لَهُ بِطَاقَاتِهَا وَتُطِيعُهُ، لِتَحْقِيقِ مَا يُرِيدُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، مَتَى اهْتَدَى بِمَا وَهَبَهُ الرَّبُّ مِنْ حَوْلٍ وَحِيلَةٍ وَفِكْرٍ، إِلَى مَفَاتِيحِ

ما هي مُسَخَّرَةٌ فيه، ضَمَّنَ سُنَّ الله وقوانينه فيها، وأَحَسَّنَ استخدامَ هذه المفاتيح على الوجه الذي تَعَمَّلُ به وتَحَرَّكُ، مَوْجَّهَةً طاقاتها المؤثراتِ، باعتبارها أسباباً تَعَمَّلُ بقضاء الله وقدره وَسُنَّه الثابتة فيما هي مُسَخَّرَةٌ فيه من عَمَلٍ في هذا الكون، وتَحَدَّثُ بها المُخَدَّثَاتُ التي قضى الله وقدر في سُنَّه أَنْ تَحَدَّثَ بها.

فبالتمكن من الاختيار الحرِّ وبالتسخير تَمَّتْ شروط الابتلاء الأمثل في ظروف هذه الحياة الدنيا، وكلُّ منهما لا يوجَدُ إلا بخلقِ الله عزَّ وجلَّ، المسبوق بقضائه وقدره وعلمه الشامل وحكمته الجليلة.



المقولة الثانية:

نظرات تحليلية

حول حكم الله في النعم والمصائب

كُلُّ من مارس العيش في هذه الحياة الدنيا، وكان ذا إدراكٍ واعٍ، فلا بُدَّ أَنْ يُشَاهِدَ فيها أشياءً وأحداثاً ومقاديرَ وتصاريفَ، وعلاقاتٍ اجتماعية، وصراعاتٍ ومُنَافَساتٍ مختلفات الصور والأشكال والتأثير في النفوس، ولدى تصنيفها يُلاحظُ أنها تَرَجُّعُ إلى صِنْفَيْنِ:

الصنف الأول: صنف تجتمع أفرادُه في جدول ما تُحِبُّ النفس الإنسانية وتُسَرُّ به، على اختلاف الصور، وتفاوت الدرجات، من أعلى ما تُحِبُّ مِنْ محابٍّ وأعظمِها درجةً وأشدّها إمتاعاً وإسعاداً، حتى أدناها درجةً وأقلّها إمتاعاً للنفس أو الجسد، بما يَلَذُّ أو يَسُرُّ.

ويُطَلِّقُ الناس على ما يَدْخُلُ في هذا الصنف اسم «النعم» مفردُها

«نِعْمَةٌ» وقد يُسَمِّيها الناسُ «خَيْرًا» مع أَنَّها ربَّما كانت جالبةَ شَرٍّ، أو سبباً لنزول شرٍّ، وعلى هذا المعنى جاء استعمال لفظ الخير في بعض النصوص، كاستعماله بمعن المال على وفق استعمال العرب له.

الصنف الثاني: صنفٌ تجتمع أفرادُه في جدولٍ ما تكرهُ النَّفْسُ الإنسانية وتستاءُ به، على اختلاف الصور، وتفاوتِ الدَّرَكَاتِ، من أشدِّ ما تكرهُ النَّفْسُ من مكاره، وأخسِّها دَرَكَةً، حتى أَوَّلِ دَرَكَاتِ المكروهاتِ، وأخفِّها إيلاًماً للنفس أو الجسد.

ويُطَلِّقُ الناس على ما يدخل في هذا الصنف اسم «المصائب» مفردها «مصيبية» وقد يُسَمِّيها الناس «شَرًّا» مع أَنَّها ربَّما كانت جالبةَ خيرٍ، أو سبباً للحصول عى خيرٍ عظيم، وعلى هذا المعنى جاء استعمال لفظ الشر في بعض النصوص على وفق استعمال العرب له.

وتتداخلُ أفراد هذين الصنفين «النَّعم والمصائب» في ظروف هذه الحياة الدنيا، ويَمُرُّ الإنسانُ في رحلة حياته يُقَلِّبُه الله عزَّ وجلَّ بحكمته على أفرادهما، ما قوَّى منها وكثُرَتْ نسبته كَمًّا وكيفاً، وما ضَعُفَ منها وقَلَّتْ نسبته كَمًّا وكيفاً، وما كان بين ذلك.

ويخضعُ النَّفْسُ على هذين الصنفين لنوعين من مقادير الله عز وجل:

الأول: مقاديرُ الله ذاتُ السُّنَنِ العامَّة، التي تُصيب الجميع ضمن مجاري حكمته العامة، ثم يكون الجزاء بالعدل، والثواب بالفضل يوم الدين.

الثاني: مقاديرُ الله التي يختص بها في الحياة الدنيا من يشاء على ما يشاء، بحسب حكمته وعلمه بخلقه، إنه جلَّ جلالُه عليم حكيم، كإيتاء الله المُلْكَ بعض عباده، وكإغنائه بعضهم وإفقاره بعضهم، إلى غير ذلك من صور ومفردات يصعبُ حصرها.

أنواع حكمة الله في النعم والمصائب:

من استقرأ النصوص من القرآن والسُّنة، وتأملها تأملاً دقيقاً بمنظارٍ إيمانيٍّ في لطائفِ حِكَمِ الله عزَّ وجلَّ فيما تَجْرِي به مقاديره، من نِعَمٍ ومصائب، ضَمَنَ ظروف الحياة الدنيا، اِكْتَشَفَتْ أَنَّ حِكَمَ الله في مقاديرِ النُّعم والمصائب التي يُقَلِّبُ عباده ضَمَنَ أفرادهما ذوات النَّسَبِ المختلفة شِدَّةً وَضَعْفًا، تَرْجِعُ إلى ثلاثِ حِكَمٍ كُبْرَى، قد تجتمع كلها أو بعضها وقد تَفْتَرِقُ.

الحكمة الأولى: «الابتلاء»:

وهو امتحانُ الموضوع في الحياة الدنيا موضع الاختبار، ليجري بمقتضى نتائجه الحسابُ والجزاء يوم الدين.

وهذه الحكمة تختصُّ بالمُمتَحَنِينَ المكلفين، وهي في الحقيقة أولى الحِكَمِ وأجلُّها وأعظمها.

● فمن حكمة الله عزَّ وجلَّ في الامتحانِ بالنعمة كَشَفُ ما لدى الممتَحِنِ مِنْ حَمْدِ الله المنعم، وشكْرِ له على نعمته التي تَفَضَّلَ بها عليه، ومن الشكرِ القيامُ بطاعةِ الله فيما أنعم به عليه، واستخدامِ النعمة في مراضيه عزَّ وجلَّ، وعدم استخدامها في معصيته، ليجزِيَهُ على حَمْدِهِ وشُكْرِهِ ثواباً عظيماً؛ ويجعله به من المتقين إذا فَعَلَ الواجبات وترك المحرَّمات، فمن الأبرار فالمحسنين إذا توسَّع في القُرْبَاتِ بفعل المندوبات وترك المكروهات، وأحسن عمله كأنه يشاهد ربَّه.

● ومن حكمة الله عزَّ وجلَّ في الامتحانِ بالمصيبة كَشَفُ ما لدى الإنسان من حَمْدِ الله المُبْتَلِي، وصَبْرٍ على ما اختار له في امتحانه ممَّا يكرَهُه من أمورٍ مؤلمة أو غير سارة، ليجزِيَهُ على حَمْدِهِ وصبرِهِ ثواباً عظيماً، وقد يرفَعُهُ الصَّبْرُ غيرُ الواجب إلى منازل الأبرار فالمحسنين.

وكلُّ من الابتلاء بالتَّعَمِّ والمصائب يدخلُ في مفهوم الخير المطلق، إذ هو وسيلةٌ لتحقيق التمييز بين الطَّيِّبِ والخبيث من النفوس، وهذا التمييز هو من الخير، والله عزَّ وجلَّ لا يَصُدُّرُ عنه إلا الخير، والشرُّ المُطلق المحض لا يكون من الله ولا يصدُّرُ عنه سبحانه، لكن قد يصدُّرُ عنه ما يُسمِّيه الناسُ في عُرْفِهِم شَرًّا، إذ هو وسيلة مؤقَّتة لتحقيق الخير العظيم الجليل.

الحكمة الثانية: «التربية والتأديب»:

هذه الحكمة تشملُ المكلفين ومن هم خارج دائرة التكليف، كالأطفال الذين لم يبلغوا مبلغ الامتحان والتكليف.

فالتَّعَمُّ والمصائب التي يتعرَّض لها كلُّ الناس صغاراً وكباراً، ضمن مجاري سُنَنِ الله وقوانينه العامة، قد تكون الحكمة منها تربيةً وتأديباً مَنْ تنزل بهم.

إنَّ مما يُذكره الحكماء من المربيين المؤدِّبين أنَّهم قد يُربُّون مَنْ يتولَّون تربيتهم وتأديبهم، بما يُحبُّون أحياناً، وبما يكرهون أحياناً أخرى، وما يكرهون قد يكون هو خيراً لهم، وما يحبُّون قد يكون هو شراً لهم، لو عقلوا وتدبَّروا النتائج والعواقب.

إنَّ الناشئ الذي لا يتعرَّض لما يكرهه ولما يؤلِّمه، لا يكون في المستقبل رجلاً قادراً على تحمُّل ما قد يواجه من مصائب الحياة ومؤلِّماتها.

وإنَّ الناشئ الذي لا يذوق طَعْم ما يحبُّ أحياناً ثم طعم ما يكره أحياناً، لا يكون إنساناً سَوِيًّا، قادراً على أن يواجه ألوان تصارييف الله في كونه ضمن سُنَنِه العامة.

ونلاحظ أنَّ الضُّبَّاط العسكريين الذين يُشرفون على تربية وتأديب الجنود، قد يحملون جنودهم أعباءً شديدة، ويكلفونهم القيام بأعمال شاقَّة

جداً، مما يكرهون من أعباء وأعمال شاقة، نظراً إلى أن هذه الأعباء والأعمال الشاقة ضرورية لتدريبهم وتربيتهم وتأديبهم، حتى يكونوا جنوداً صالحين قادرين على مواجهة الأعداء في الحرب، وحتى تكون أجسادهم ونفوسهم قادرة على مواجهة الصعوبات الجسدية والمشقات الجسدية والنفسية.

فمن سُنَن الله في خَلْقِهِ أن اكتساب القُوَّة في مختلفات الأمور الجسدية والنفسية إنما يكون بالتدريبات والممارسات طوال أزمان تناسب أحوالها، واستعدادات النفوس لاكتسابها.

ومُدْرَبُ الرياضة البدنية يُحْمَل من يُشْرِف على تربيتهم وتدريبهم مشقات ذوات شدة تكرهها النفوس، ثُمَّ يُذَيِّقُهُمْ حلاوة القدرة على اجتياز العقبات والصعوبات، أو حلاوة السُّبُق على المنافسين.

وفي كُلِّ من الصورتين المكروهة والمحجوبة للنفوس تدريبات يجب أن يتعرض لها ممارس الرياضة أو مُمتَهِئُها.

ومن التربية اللازمة في ظروف هذه الحياة الدنيا التربية على أن يذوق الإنسان الشَّبَع أحياناً، والجوع أحياناً أخرى، والصحة أحياناً والمرض أحياناً أخرى، والسَّراء أحياناً والضَّراء أحياناً أخرى، وهكذا إلى سائر النعم والمصائب. والله جَكَمَ لطيفة في عباده، إذ يُعْطِي كُلَّ فَرْدٍ من وسائل التربية والتأديب وصورهما ما يُلائِم ما فَطَرَهُ تبارك وتعالى عليه نَفْساً وَفِكْراً وجسداً.

وكلُّ من التربية والتدريب بالنَّعَم والمصائب يَدْخُل في مفهوم الخير المطلق، إذ هو وسيلة لازمة لتحقيق فضيلة جسدية أو نفسية، ونسبة الشر في المصائب تنحصر في مشاعر الألم المؤقت، أو كراهية النفس المؤقتة، أما الخير الذي ينجم عنها فهو خير أعظم وأجل وأبقى.

الحكمة الثالثة: «الجزاء المعجل بالثواب أو بالعقاب»:

● قد يَمْنَحُ الله بعض عباده بعضَ نِعَمِهِ في الحياة الدنيا ثواباً لهم على ما قَدَّمُوا من إيمانٍ وعَمَلٍ صالحٍ، أو على ما تَحَمَّلُوهُ ابتغاءَ مرضاته من مشاقِّ وآلامٍ وجهادٍ وصبرٍ وبذلٍ وتَضَحُّيةٍ ونحو ذلك من خيراتٍ، أو على صبرِهِمْ على ما ابتلاهم به من مصائبٍ، أو على شُكْرِهِمْ لله فيما أولاهُمْ من نِعَمٍ وأفاضَ عليهم من خيراتٍ حسانٍ.

ففي منحهم بعضَ الثوابِ المعجَّلِ إكرامٌ لهم، وتثبيتٌ لهم على الحقِّ، كما يذوقون به نموذجاً مصغراً يُحاكي ما أعدَّ الله لهم من أجرٍ عظيمٍ، وثوابٍ جزيل يوم الدين، في جنَّاتِ النعيم.

● وقد يُذيق الله عز وجل الكافرين والعصاة بمعاصٍ دون الكُفر، مساً من مكاره الحياة الدنيا وآلامها، أو يُنْزِلُ بهم مصائبَ ذواتِ آلامٍ شديدةٍ، عُقوبةً لهم على ما قَدَّمُوا من أعمالٍ سيئةٍ.

وهذه العقوبات قد تكون عقوباتٍ تذكيرٍ لهم لعلهم يرجعون، أو عقوباتٍ تكفيرٍ لخطاياهم، وقد تكون جزءاً من عقاب الله الأخير لهم، ثُمَّ يُعَذِّبُهُم الله يومَ الدينِ العذابَ الأكبرَ، ومنه ما أبانهُ الله بقوله تبارك وتعالى في سورة [الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول]:

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَنْتَهُمْ أَلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَإِذَا فَعَهُمُ اللَّهُ لِلْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

ومن حِكَمِ تَعْجِيلِ العقابِ للمجرمين وظالمي أنفسهم تقديمُ أمثلةٍ ونماذج من عقاب الله عز وجل للكافرين والعصاة، ليعتبر بها غيرُهُمْ من معاصري زمانهم الذين لم تَبْلُغْ حالُهُمْ إلى مستوى إنزالِ العقابِ بهم، أو من الذين سيأتون بعدهم من القرون القادمة.

ففي العقوبات المعجَّلات لمستحقِّيها من المذنبين عِبَرٌ يَعْتَبِرُ بها أولو الألباب، وعظاَّتٌ يتعظون بها.



المقولة الثالثة :

استعراض نصوص «الابتلاء»
بنظرات تدبرية إليها

النص الأول :

جاء في سورة [القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول] ثاني سورة مكية نصٌ مدنيٌّ مضافٌ إليها، أبان الله فيه أنه ابتلى أهل مكة بعباءات النعم، إلا أنهم كفروا بنعمة الله عليهم فلم يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ ولا بما أنزل الله عليه فسلبَهُم النعمة عقاباً لهم، وقد جاء هذا البيان ضمن تشبيه حالهم بحال أصحاب الجنة إذ أقسموا أن يقطعوا ثمرها في الصُّباح وأن يَحْرِمُوا المساكين حقوقهم، فطاف عليها طائف من الرَّبِّ مُهْلِكٌ لها وهم نائمون، فأصبحت هالكة تالفة، فلما رأوها كذلك أقبل بعضهم على بعض يتلاومون، واعترفوا بأنهم كانوا ظالمين طاغين، وقد جاء في أول عرض القصة قول الله عز وجل:

﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ .

وجاء في آخرها :

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

النص الثاني :

قول الله عز وجل في سورة [الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول]:

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَنَنِ ﴿١٦﴾﴾ كَلَّا ... ﴿١٧﴾ .

فقدَرَ عليه رزقه: أي: فضيقَهُ عليه ولم يجعله واسعاً.

أبان هذا النص أنّ فيوضَ عطاءات المال ووفرة الرزق ليست تكريماً من الله لعبده، وأنّ تضيق العطاء وتقديره وتقديره ليس إهانة من الله لعبده، بل كلّ منهما ابتلاء من الله لعبده.

فَأَكْرَمَهُ: بمعنى فوسّع عليه الرزق.

رَبِّي أَكْرَمَنِي: أي: شرفني وأعظمني.

كلاً: أي: ليس التخصيص بفيوض النعم وكثرة العطايا تكريماً، وليس التخصيص بالتقدير والتضييق إهانة، بل كلّ منهما للابتلاء، كما جاء في قوله تعالى في كلّ منهما: ﴿إِذَا مَا أُنْزِلَتْ﴾.

النص الثالث:

قول الله عزّ وجلّ لبني إسرائيل في سورة [الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول]:

﴿وَإِذْ أَخْبَرْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَالُونَ أَبْنَاءُكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيمٌ: أي: وفي ذلكم التمكين الذي مكّن ربكم به آل فرعون من أن يسوموكم سوء العذاب ابتلاء عظيم بمصائب شديدة من مصائب الحياة الدنيا التي يكون سببها الناس بعضهم لبعض.

ثم أنجاكم منه بعبور البحر وإغراق أعدائكم في مكان عبوركم.

ونظير هذا النصّ ما جاء في الآية (٤٩) من سورة [البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول] وفي الآية (٦) من سورة [إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول].

النص الرابع :

قول الله عز وجل في سورة [الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول] المكية
خطاباً لرسوله بشأن بني إسرائيل، في نصّ مدنيّ التنزيل مضموم لها:
﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي
السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا
تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

لقد حرّم الله على بني إسرائيل العمل يوم السبت، وكان قسمٌ منهم
يسكنون قرية عند خليج العقبة، يقال هي: «إيلة». وكان من مهنتهم صيد
السمك، وكانوا كثيري الفسق، فامتحنهم الله بأمر شديد على نفوسهم،
فجعل حيتان البحر تأتي قريباً من شاطئ قريتهم ظاهرةً وافرةً يوم السبت،
أما سائر الأيام فلا تأتيهم فيها، بل تظلّ في الغمر البعيد، وهم يعلمون أن
العمل في يوم السبت من الكبائر الكبرى في أحكام شريعتهم، وهو من
الإصر الذي كان عليهم بسبب ظلمهم.

فخالفوا حكم شريعتهم، وعصّوا أمر ربّهم، فوعظهم واعظون منهم،
فما استجابوا فأخذهم الله بعذاب بئيس، تذكيراً لهم لعلمهم يرجعون، فما
ارعَوْا بل عتَوْا عن أمر ربّهم فمسخهم الله على أشكال القردة خاسئين.

النص الخامس :

جاء في سورة [النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول] عرض لقطات من قصة
سليمان عليه السلام، ومنها ما كان بينه وبين «بلقيس» ملكة اليمن، وكيف
أحضر له الذي عنده علم من الكتاب عرشها قبل أن يَرْتَدَّ إليه طُرفه، ولَمَّا
وَجَدَ عرشها حاضراً عنده قال:

﴿... هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرْيَمٌ ﴿٤١﴾﴾.

عَلِمَ سليمان عليه السلام أَنَّ نعمة الله عليه بإحضار عرش ملكة سبأ القادمة إليه تابعة طائعة، إنما كانت لابتلائه وامتحانه أَيَشْكُرُ رَبَّهُ أم يكفره، ولم يَزَهِهَا نعمةً مكافئةً ولا ثوابٍ ولا تكريم، وهكذا فهم الرُّسُل، والأنبياء، والمخلصين من عباد الله العلماء الصالحين.

النص السادس:

جاء في سورة [يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول] في وصف يوم الحشر:

﴿هَٰؤُلَاءِ تَبْلَوْنَ كُلَّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ...﴾ (٣٠)

تَبْلَوْنَ: في هذه الآية بمعنى تكشف، أي: تكشف في سجل أعمالها فتشاهد ما سبق أن أسلفت في الحياة الدنيا، إذ لا يوجد امتحان يوم الدين، فالبلاء هنا بمعنى الكشف، وقرأ حمزة والكسائي وخلف: «تَتَلَوْنَ» من التلاوة، أي: تتابع ما في كتاب أعمالها من مُسَجَّلَاتٍ عليها.

النص السابع:

قول الله عز وجل في سورة [هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول]:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ فِي سِتَّةِ اَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ اَيْكُمْ اَحْسَنُ عَمَلًا...﴾ (٧)

دلّ هذا النص على أن الله عز وجل خلق السماوات والأرض وخلق الناس، لِيَمْتَحِنَهُمْ في ظروف الحياة الدنيا أيهم أحسنُ عملًا، أي: فمن هو دون ذلك حتى أخسهم في الدَرَكَاتِ وأسفلهم، والامتحان يستلزم عقلاً الحساب والجزاء.

النص الثامن :

قول الله عز وجل في سورة [الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول]:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلْقَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْئَلُكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ .

دلّ هذا النصّ على بعض مَوَازٍ الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وهو تفاضل درجات عطاء الله لعباده، وهذا يشمل كلّ ما آتى الله عباده من أشياء مادية، وأشياء معنوية، ومما هو مشاهد في الناس أنّهم يتفاضلون في الصفات الفكرية وفي الصفات النفسية، وفي الصفات الجسدية، وفي مقادير الأرزاق، وفي المنازل الاجتماعية، إلى غير ذلك من أمور يتفاضلون فيها، وكلّ إنسان مُمْتَحَنٌ من خلال عطاءات الله له، وبمقدار عطاءات الله له، ومُتَمَتِّحٌ فيما هو مسؤول عنه تُجَاهَ عطاءات الله لغيره، كعدم الحسد.

النص التاسع :

جاء في سورة [الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول] بيان قصة امتحان سيدنا إبراهيم عليه السلام بأمره أن يذبح ولده إسماعيل، وكان هذا بلاء من الله عظيماً مُبيناً، فاستجاب عليه السلام لأمر الله، وأطاع إسماعيل عليه السلام، وعند بدء التنفيذ فداه الله عز وجل بذبح عظيم، قال الله تعالى فيها:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّمَ لِلْجَبِينِ ﴿١٢٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٢٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٢٦﴾ وَنَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٢٧﴾﴾ .

إنّ هذا لهو البلاء المُبين: أي: الامتحان الواضح بِمُصِيبَةٍ واضحة.

ووصف الله إبراهيم وإسماعيل بأنهما من المحسنين إمّا لأنّ الأمر بالذبح لم يكن تكليفاً واجباً، بل كان ندباً، وإمّا لأنّ مرتبة الإحسان بالنسبة

إلى الرّسل تشتمل على أوامر واجبة عليهم، إذ هي في الأصل من مرتبة الإحسان بالنسبة إلى غيرهم فلو أمروا بها لم يكن أمرٌ إلزام.

النص العاشر:

جاء في سورة [الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول] عرض لقطات من قصة بني إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام، ومنها قول الله عز وجل:

﴿وَأَيِّنُّهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: ما فيه امتحان واختبار لهم مبين، وقد اشتملت هذه الآيات على نعم كثيرة، منها ما أنزل الله عليهم من المنّ والسّلوى، ومنها الاثنتا عشرة عيناً التي فجرها لهم من الحجر الذي ضربه موسى عليه السلام بعصاه، ومنها تظليلهم من حرّ الشمس بالغمام.

واشتملت هذه الآيات على ما لم يكونوا يُحِبُّون، فمنها زلزلة الأرض من تحتهم في رحلة الاعتذار من عبادة العجل الذهبي، التي اختار لها موسى عليه السلام صفوة قومه سبعين رجلاً. ومنها رفعُ الجبل فوقهم كأنه ظُلة ليأخذوا ما آتاهم الله من شريعة بقوة.

فالبلاء في هذا النصّ على أصل معناه، وهو الامتحان والاختبار.

النص الحادي عشر:

قول الله عز وجلّ في سورة [الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول]:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾.

في هذه الآية بيان أن جميع ما على الأرض، ممّا هو مُزَيَّن للناس، من مآكل ومشارب وقصور وممتلكات ومراكب ومُمْتِعَاتِ وأشياء فيها للأنفس لذات، هي موادّ لامتحان الإنسان في ظروف هذه الحياة الدنيا،

فمن نال منها شيئاً فقد ابتليَ بالنعمة، ومن سلب شيئاً منها أو حرّمه، فقد ابتليَ بالمصيبة، أو بما يكرهه، أو بما يخالف هواه.

النص الثاني عشر:

جاء في سورة [النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول] الأمر بالفداء بالعهد، والنهي عن نقض الأيمان بالله بعد توكيدها، وجاء بعد هذا قول الله عز وجل:

﴿... إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ...﴾ (٩٢).

أي: يمتحنكم ويختبركم في الوفاء بعهودكم، وعدم نقضكم لأيمانكم.

النص الثالث عشر:

قول الله عز وجل في سورة [الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول]:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣٥).

المراد بالشر في هذه الآية المصائب والمكاره، كمصيبة الموت، والمراد بالخير النعم ومحاب النفوس، وليس المراد بهما الخير الحقيقي المطلق، والشر الحقيقي المطلق، بل الخير والشر في مفهوم الناس.

وَبَلَّوْكُمْ: أي: ونختبركم ونمتحنكم.

فِتْنَةً: أي: اختباراً وامتحاناً.

فدلّت هذه الآية على أنّ من امتحان الله لعباده امتحانهم بالمصائب وبما يكرهون، وبالنعم وبما يحبّون.

النص الرابع عشر:

جاء في سورة [المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول] عَرَضُ لِقَطَاتٍ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ، وَمَا واجهوه به مِنْ تَكْذِيبٍ، وبأنه رُجِلَ به جِثَّةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَى إِلَيْهِ بِأَنْ يَصْنَعَ الْفُلْكَ، وَأَنَّهُ قَضَى بِإِغْرَاقِ كُفَّارِ قَوْمِهِ، وَقَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ عَرْضِ اللَّقَطَاتِ:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَلِنَكُونَنَّ لِمَنْ تَلْمِزُنَا وَلِنَكُونَنَّ لِمَنْ تَلْمِزُنَا﴾.

أي: لِمُخْتَبِرِينَ نُوحًا وَقَوْمَهُ فِي الْأَحْدَاثِ الَّتِي جَرَتْ.

النص الخامس عشر:

قول الله عز وجل في سورة [الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول]:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

فدلَّ هذا النصُّ على أَنَّ الغَايَةَ مِنْ خَلْقِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ فِي ظُرُوفِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ابْتِلَاءُ النَّاسِ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَالِابْتِلَاءُ يَسْتَلْزِمُ عَقْلًا الْحِسَابَ وَالْجَزَاءَ، وَيَكُونَانِ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَى بَعْدَ الْمَوْتِ.

وهو العزيز الغفور: أي: وهو سبحانه وتعالى القويُّ الغالب الذي يُعَاقِبُ الْكُفْرَةَ وَالْعَاصِينَ، وَيَغْفِرُ لِلْمُذْنِبِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، إِذْ هُوَ غَفُورٌ كَثِيرُ الْغَفَرَانِ.

النص السادس عشر:

قول الله عز وجل في سورة [البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول]:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالتَّمَرَّتِ وَيَنْشُرُ الْمُصْذِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

فدلّ هذا النصّ على أن الله عز وجل يمتحِنُ عباده بشيءٍ من مصائب الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات، وأنّ المطلوب منهم في هذه المصائب الصُّبرُ، وأن يقولوا: إنّنا لله وإنا إليه راجعون.

وجاء فيها أنّ طالوت ملك بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام لما خرج بهم إلى الجهاد في سبيل الله قال لهم:

﴿...إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ...﴾ (٢٤٩)

أي: إنّ الله مُمتَحِنُكُمْ بِنَهَرٍ ستصِلُون إلىهِ، والمطلوبُ منكم أن لا تشربوا منه، فمن شرب منه فلا يُتابع معي المسير إلى الجهاد باستثناء من اغترف غرفة بيده.

النص السابع عشر:

جاء في سورة [آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول] عَرَضُ بعض أحداث ووقائع غزوة أُحد، ومنها معصية الرّماة وطمَعُهُمْ بحيازة الغنائم، وفي هذا العرض خاطب الله المؤمنين بقوله:

﴿...ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ...﴾ (١٥٦)

أي: ليختبر صِدْقَ إيمانكم وثباتكم على الحق.

وعلمَ الله رسوله ما يقوله للمنافقين الذين اعترضوا على الخروج، فقال له:

﴿...قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ...﴾ (١٥٤)

أي: وَلِيَكْشِفَ الله ما في صدوركم من شك أو نفاق.

النص الثامن عشر:

وجاء في سورة [الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول] عرض بعض أحداث ووقائع غزوة الأحزاب، وما تعرّض له المؤمنون من خوف شديد، وما دارت في نفوسهم من ظنون، وقال الله عز وجل في أثناء هذا العرض:

﴿هَٰذَا لَكِ آيَاتُ الْيَوْمِ وَالْغَدِ وَلَوْلَا إِدْرَاقٌ أَتَيْنَا بِكَ الْيَوْمَ فَجْأَ جَمْعٍ مِّنَ الْمُنَافِقِينَ أُولَٰئِكَ يَفْعَلُونَ﴾

أي: هنالك امتحان المؤمنون امتحاناً قاسياً شديداً، بما تعرّضوا له من شدة وخوف زلزل قلوبهم ونفوسهم.

النص التاسع عشر:

قول الله عز وجل في سورة [محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول] خطاباً للذين آمنوا:

﴿فَإِذَا لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ فَاذْكُرْهُ لعلَّكَ تَتَذَكَّرُ﴾

بَعْدَ وَمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَصْعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ

أفحسبتموهم: أي: أوقعتم فيهم قتلاً كثيراً، وغلبتموهم وتمكثتم منهم تمكناً تاماً.

أبان هذا النصّ للمؤمنين أنّ الله يدعوهم إلى قتال الكافرين ليس لأنه بحاجة إلى نُصرتهم له، إذ لو يشاء لانتصر من الكافرين ذوّن أن يدعو المؤمنين إلى قتالهم، فأمرُ إهلاكهم هيّن عليه، ولكنه سبحانه يدعو المؤمنين إلى قتال الكافرين ليبلّو بعضهم ببعض، إذ ينكشف في القتال المجاهدون الصابرون، والضعفاء المتخاذلون، والمنهزمون، ويظهر الصادقون من غير الصادقين.

والذين قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَنْ يُضَيِّعَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ.

فالقتال في سبيل الله مَادَّة من مواد الامتحان في ظروف الحياة الدنيا .
وَشَرَحَ الله عز وجلَّ الابتلاء بالقتال في سبيله بقوله في الآية (٣١) من
السورة :

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ﴾ ﴿٣١﴾ .

وَنَبْلُو أَخْبَارَكُمْ: أي: ونكشف بالواقع العملي أخباركم التي هي آثار
اختياراتكم الإرادية في مجالات الجهاد في سبيل الله، ولا سيما الجهاد
بالقتال .

النص العشرون:

قول الله عز وجل في سورة [الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول]:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿٢٠﴾ .

أَمْشَاجٍ: أي: أخلط من عناصر ذات صفات مختلفات .

نَبْتَلِيهِ: أي: مُبْتَلِينَ مختبرين له مستقبلاً حينما يبلغ مبلغ المسؤولية
والتكليف، فالجملة حالية من قبيل الحال المقدرة، والحال المقدرة تشبه في
المعنى ما تدخل عليه لام التعليل، ففي نحو: «ادخلوها خالدين» نلاحظ أنه
بمنزلة ادخلوها لتخلدوا، أو لتكونوا خالدين فيها .

النص الحادي والعشرين:

قول الله عز وجل في سورة [المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول]:

﴿...وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ
فَاسْتَقِيمُوا الصِّرَاطَ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ .

أي: ولو شاء الله أن يجعلكم أُمَّةً واحدةً لَسَلَبَكُمْ إراداتكم الحرة
فكنتم مجبورين، وعندئذ يجعلكم أُمَّةً واحدةً مهديين جميعاً، كالملائكة، لا

تَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَكُمْ وَتَفْعَلُونَ مَا تَأْمُرُونَ، لكن ما شاء الله ذلك بل شاء أن يَمْنَحَكُمْ إِرَادَاتٍ حُرَّةً كَرَّمَكُمْ بِهَا لِيَبْلُوكُمْ فيما آتاكم من قوى وطاقاتٍ وَمُسَخَّرَاتٍ.

وإذ كُنْتُمْ مُمْتَحَنِينَ فيما آتاكم رَبُّكُمْ، فاستبقوا الخيرات لتنالوا عند الله ثواب أعمالكم، ولتحموا أنفسكم من عذاب الله وعقابه باجتناب الكفر والفسوق والعصيان، فإنكم بعد رحلة امتحانكم يكون رُجوعكم جميعاً إلى الله وحده، ويوم الدين يُنْبئكم الله بما كنتم فيه تختلفون من عقائد ومفاهيم ومذاهب وأعمالٍ وغير ذلك، ويحاسبكم ويجازيكم على مكتسباتكم الإرادية.

النص الثاني والعشرون:

قول الله عز وجل في سورة [المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول]:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ إِشْعَىٰ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ... ﴿٩٥﴾﴾.

حَرَّمَ الله عَزَّ وَجَلَّ على الْمُحْرِمِ بالحج أو بالعمرة الصَّيْدَ، وَأَبَانَ الله للمؤمنين في هذا النص أنه سَيَمْتَحِنُهُمْ بشيءٍ من الصَّيْدِ يأتي إليهم وَهُمْ مُحْرِمُونَ، حَتَّىٰ تَسْتَطِيعَ أَيْدِيهِمْ أن يتناول بعضه، لكونه صغيراً أو ضعيفاً، وَأَمَّا بَعْضُهُ الآخر فيستطيعون أن يتناولوا منه برماحهم، فمن اتقى الله لم يتناول من الصيد شيئاً وهو مُحْرِمٌ، ومن عصى واعتدى فله عذابٌ أليم.

رُوي أن هذا النص نَزَلَ عام الحديبية، وقد ابتلى الله المؤمنين حينئذٍ بأن الصيد كان يأتيهم إلى منازلهم وهم مُحْرِمُونَ، ليكشف بهذا الامتحان مَنْ يُطِيعُ منهم ومن يَعْصِي.



في السنة :

وجاء في السنة استعمال مادة «البلاء» بمعنى الامتحان، والأكثر فيها استعمالها في الامتحان بالمصائب.

● روى الترمذي وابن ماجه والدارمي عن سَعْدٍ، قال: سئل النبي ﷺ: أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال:

«الأنبياء، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُنْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ صُلْبًا فِي دِينِهِ اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ هُوَ عَلَى، فَمَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى الْأَرْضِ مَا لَهُ ذَنْبٌ».

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح (المشكاة ١٥٦٢).

● وروى البخاري عن أنس قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله سبحانه وتعالى: «إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ ثُمَّ صَبَرَ عَوِضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ» يريد: عَيْنَيْهِ.

● وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الزَّرْعِ لَا تَزَالُ الرِّيحُ تُمِيلُهُ وَلَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ يُصِيبُهُ الْبَلَاءُ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الْأَرْزَةِ لَا تَهْتَزُّ حَتَّى تُسْتَحْصَدَ».

المقولة الرابعة :

استعراض نصوص «الفتنة» بنظرات تدبرية إليها

النص الأول :

جاء في سورة [المذثر/ ٧٤ مصحف/ ٤ نزول] الحديث عن «سَقَر» اسم علم من أسماء جهنم دار العذاب يوم الدين، سُميت بهذا الاسم لِبُعْدِ قَعْرِهَا، وَلَشِدَّةِ حَرِّهَا الْمَذِيبِ لِلْأَجْسَامِ. فَالْسَّقَرُ فِي اللُّغَةِ يَأْتِي بِمَعْنَى الْبُعْدِ،

ويأتي بمعنى شدة الحر، يقال: سَقَرَتْهُ الشمسُ إذا ضربت دماغه وأذاخته، وجاء فيها عن «سَقَر» أنَّ عليها تِسْعَةُ عَشْرَ مُعَذِّبًا لتعذيب أهلها.

فقال أبو الأشدِّين الجُمَحِيُّ وكان قوياً شديداً البأس: أنا أكفيكم سبعة عشر، واكفوني أنتم اثنين، فأنزل الله قوله في السورة:

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرِثَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا لَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ۝﴾.

● أي: وما جعلنا عددَ المُشْرِفين على تعذيب المعذَّبين في سَقَرٍ مُّحدداً بمقدارٍ قليلٍ هو تسعة عشر إلا امتحاناً فيه إغراء الذين كفروا بالاستهانة بهذا العدد القليل، حتى قال أبو الأشدِّين ما قال، وهذا الامتحان الإغرائي أحدُ معاني الفتنة، وأحدُ صور الابتلاء.

● ولدفع توهم أنَّ هؤلاء التسعة عشر أمثال البشر، أبان الله عز وجل أنَّهم ملائكة، والمشركون يعلمون أنَّ الملائكة أصحاب قوى عظيمة، فمنهم مَنْ يَدْمُرُ الْمُدُنَ وَيَنْسِفُ الْجِبَالَ نَسْفًا.

● وأضاف في أواخر الآية قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: إنَّ هؤلاء التسعة عشر من الملائكة الذين هُمُ المشركون على تعذيب المعذَّبين في سَقَرٍ هُمُ بعضُ جُنُودِ رَبِّكَ، أمَّا سائر جنوده فهُمُ كثيرون جداً، ولا يعلمُهُمُ جميعاً ولا يعلم أعدادهم إلا الله وحده.

● وهذه الفتنة نَفْسُهَا تجعلُ الذين أُوتوا الكتاب من علماء اليهود والنصارى يَسْتَيْقِنُونَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ وَأَنَّ الرِّسُولَ مُحَمَّدًا صَادِقٌ فِيمَا يُبْلَغُ عَنْ رَبِّهِ، إذْ هُمُ يَعْلَمُونَ مِنْ كُتُبِهِمْ هَذَا الْعَدَدَ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَجْحَدُونَ وَلَا يَعْتَرِفُونَ فِي أَلْسِنَتِهِمْ بِمَا اسْتَيْقَنَتْهُ قُلُوبُهُمْ، وفي بيان استيقانهم

قال الله عز وجل: ﴿لِئَسْتَفِينَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ﴾ وهذه العبارة بذل من عبارة ﴿فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الآية.

● وهذه الفتنة نفسها تجعل الذين آمنوا يزدادون إيماناً، إذ تُثِيرَ فيهم الخوف من عذاب الله الشديد يوم الدين، فقال الله عز وجل: ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾.

● وتشكيك المشككين من المشركين في توهماتهم حول هذا الموضوع لا يُؤَثِّرُ على يقين علماء أهل الكتاب، ولا على الذين آمنوا، إذ هي لا تجعل قلوبهم ترتاب، فقال الله عز وجل: ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

ولكن الذين في قلوبهم مرضُ النفاق أو ما هو قريب منه، وكذلك سائر الكافرين من غير طارحي التشكيك السابق، فإنهم كما أبان الله عز وجل يقولون: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾؟ أي: إنهم يتأثرون بتشكيكات المشككين من المشركين، فيقولون: إذا كان التسعة عشر الذين ذكرهم الله في القرآن قد جعلهم مثلاً من جنوده الكثيرين الذين يُعَذَّبُونَ مُسْتَحَقِّي العذاب من عباده، فما هو المراد من بيان كونهم تِسْعَةً عَشَرَ؟ وهل لهذا العدد سِرٌّ خاصٌ حتى يُخْتَارَ دون غيره من الأعداد؟

● وهكذا يطرحون تساؤلاتٍ لا علاقة لها بأصل الموضوع، إذ البيان يدور حول إنذار المكذبين بالرسول وبالقرآن ويوم الدين، بأنهم سَيُعَذَّبُونَ يوم الدين في سَقَرٍ التي يُشْرِفُ على التعذيب فيها تسعة عشر. إنه لو كان المشرف على تعذيبهم فيها ملكاً واحداً أو أكثر إلى ما لا حصر له، فإن ذلك لا يُغَيِّرُ من أصل القضية شيئاً، إذ يكفي مَلَكٌ واحد يُعْطِيهِ الله القدرة على تعذيب كلِّ الكائنات الحية لو شاء الله ذلك، بل يكفي أمرُ الله بالتعذيب دون وساطة أحدٍ من مخلوقاته.

● أما السؤال عن الحكمة الربانية من تحديد عدّة «التسعة عشر» فهو يجرّ أسئلة لا حصر لها، حول أنظمة الله عز وجل في الأعداد التي جعلها ضمن أنظمته التكوينية للكائنات كلّها، كأعداد السماوات السبع، وأعداد أبواب جهنم، وأعداد أبواب الجنة، إلى غير ذلك من كلّ ما هو خاضع لأنظمة عددية، مما يلاحظه العلماء في العناصر الكونية، وفي الذرات، وفي الخلايا، وفي الحواس، وفي أنظمة العظام والسلاّميات والأسنان إلى ما لا تستطيع الخلائق حصره.

● وأخيراً فإنّ هذه الفتنة الاختبارية ينتج عنها ظهور فريقين من الممتحّنين.

الأول: فريق يَصِلُ باختياره الحرّ، فيُضِلُّه الله بِحِكْمَتِهِ، أي: يحكّم عليه بالضلال، استناداً إلى واقع حاله، وحكّم الله عز وجل بضلال هذا الفريق يتمّ بمشيئته المطلقة، التي لا يجبره عليها شيء، لكن تقتضيها حكمته، ومعلوم أنّ حكمته من صفاته سبحانه.

الثاني: فريق يهتدي إلى الحقّ ويؤمن باختياره الحرّ، فيهديه الله بحكمته، أي: يحكّم له بالهداية، استناداً إلى واقع حاله، وحكّم الله بهداية هذا الفريق يتمّ بمشيئته المطلقة، التي لا يجبره عليها شيء، لكن تقتضيها حكمته، ومعلوم أنّ حكمته من صفاته سبحانه.

فقال الله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كذلك الحكم على الذين كفروا في هذه الفتنة الاختبارية في موضوع الملائكة التسعة عشر بالضلال، والحكم للذين آمنوا بالهداية، والذين دلّ عليهما ذكرُ فريق بعنوان: «الذين كفروا» وذكرُ فريقٍ آخرَ بعنوان: «الذين آمنوا» ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: في سائر صور الاختبار في الحياة الدنيا للمكلّفين من ذوي الإرادات الحرة الموضوعين موضع الابتلاء فيها.

قول الله عز وجل في آخر الآية: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ أي: وما سَقَرُ إذْ نتحدّث عنها وعن صفاتها إلا ذكرى للبشر، أي: لغرض أن يكون العِلْمُ بها لدى المؤمنين المتقين مُستَقْرّاً في ذاكراتهم، يستدعونهُ عند المناسبات، فإذا تذكروها كانت دافعةً لهم عن طريق اختيارهم الحرّ إلى أن يتَّقُوا المعاصي والمخالفات التي تجعل مُرتكبيها يستحقُّون عذابَ الله فيها.

النص الثاني:

وجاء في سورة [القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول] عرض لقطاتٍ من قصة صالح عليه السلام وقومه ثمود، وجاء فيها بيان امتحان الله لهم بإجابة طلبهم أن يُخْرِجَ لهم بدعاء رسولهم ناقةً وصفوها من صخرة عَيْنُهَا، ولَمَّا أجاب الله طلبهم جعل للناقة في حياتها بينهم شروطاً قاسيةً عليهم في طعامها وشرابها فتنةً لهم، أي: امتحاناً قاسياً، فلم يصبروا على شروطها فعقروها فأهلكهم الله، قال الله عز وجل فيها، حكايةً لما خاطب به صالحاً عليه السلام:

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَلِرْ ۖ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَظَرٌ ۖ (٢٨) فَادَّوْا صَاحِبَكُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ۖ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۖ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْطِرِ ۖ (٣١)﴾

فِتْنَةً لَهُمْ: أي: امتحاناً واختباراً.

قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ: أي: بينهم وبين الناقة لهم شِرْبٌ يَوْمٍ معلوم، ولها شِرْبٌ يَوْمٍ معلوم.

فَتَعَاطَى: أي: فتناول قائماً على أطراف أصابع قدميه ورافعاً يديه إلى الشيء، ليتناوله أو ليُصِيبه.

فَعَقَرَ: عَقَرُ الناقة أو البعير: قطع إحدى قوائمه ليسقط فيُنَحِر. فذلَّ

تعاطيه حتى يَصِلَ إلى قطع إحدى قوائمها على أنها ناقة عظيمة جداً، إذ مكان عَقْرِهَا من إحدى قوائمها أعلى من قامة عاقِرِها ماذا يديه وواقفاً على أطراف أصابعه، وهذا يدلُّ على أن نِصْفَ قائمتها أطولُ من مِثْرَيْنِ تقريباً.

كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ: أي: كأعواد الحطب التي يجمعها من يُريد إقامة حظيرة لدوابه أو أنعامه.

فدلَّ هذا النص على أن الله عز وجل امتحن قوم صالح بهذه الناقة التي أخرجها لهم بطريقة خارقة للعادة، وجعل شروط حياتها فيهم شروطاً قاسية عليهم، فسقطوا في الامتحان وأصروا على كفرهم فأهلكهم، وأنجى صالحاً والذين آمنوا معه.

النص الثالث:

وفي سورة [ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول] أبان الله عز وجل أنه فَتَنَ، أي: امتحنَ كلاً من داود وابنه سليمان عليهما السلام، ودلَّ داود على أنه لم يعملْ ما كان ينبغي له، عن طريق الخصمين اللَّذِينَ اسْتَفْتِيَاهُ إذ دخلا عليه وهو في خلوته، وهما من الملائكة جاءوا على صورة بشر متعديّين الأسوار المحصنة المحروسة. فقال تعالى فيها:

﴿...وَلَمَّا دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَمْ ذَلِكَ وَإِنَّ لَنَا عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أما سليمان عليه السلام فقال تعالى بشأنه:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾.

فَتَنَّا سُلَيْمَانَ: أي: امتحنَّاه، وكان ما امتحنه الله به شديداً على نفسه، فقد رأى فيه أن مُلْكُهُ قد انْتَزَعَ مِنْهُ.

النص الرابع :

في سورة [الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول] جاء بيان خطاب الله عز وجل بني آدم منذ عهد آدم وإلى أن تقوم الساعة، فحذَّره من أن يفتنَّهم الشيطان كما فتنَّ أبويهم فأخرجهُما من الجنة، والفتنة هنا هي بمعنى الإغواء والإغراء للإخراج عن صراط الله المستقيم، وهذا المعنى لا يخرجُ عن أصل معنى الامتحان لأنَّ ما يُغريهم الشيطانُ به هو من العناصر التي جعلها الله في كونه للابتلاء والاختبار.

قال الله عز وجل فيها :

﴿يَبْنِيْٓءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطٰنُ كَمَا اَخْرَجَ اٰبَوَيْكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسُهُمَا لِيَرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا ۚ اِنَّكُمْ بَرَكْتُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِيْنَ اَوْلِيَآءَ لِلَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ ۝﴾

النص الخامس :

وفي سورة [الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول] أيضاً عرض الله عز وجل ضمن قصة موسى وبني إسرائيل بياناً عن الميقات الثاني ميقات الاعتذار الذي اختار موسى عليه السلام له خلاصة قومه وصفوتهم وكانوا سبعين رجلاً، فلما حضروا إلى جانب جبل الطور أخذتهم الرجفة الإنذارية التأديبية، فخاف موسى عليه السلام أن تكون هذه الرجفة لإهلاكهم، فأسرع دون روية إذ جعل الله في طبعه حدة تغلبه، فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَلَئِنِّي أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا ۖ﴾؟

وعقب ذلك مباشرة فاء إلى رُشده، وتنبَّه إلى تسرُّعه في الاعتراض الذي انطلقَ بجِدِّته دون روية، فتجاوز ما قال مُستدركاً كأنه لم يقله، فقال: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنْتَ وَلِيُّنَا ۖ وَدَعَا رَبُّهُ بَعْدَ ذَلِكَ .

رأوا أنها لازمة حتى يُسلموا بأنه رسول صادق أرسله الله حقاً، وربما أحرزَ الرسولَ هذا الأمرُ، فقال الله عز وجل له فيها مسلماً ومبيناً له أنه مُمتَحَنُ كسائر الممتحنين، فعلاقات الناس بعضهم ببعض إحدى مواد الامتحان في ظروف الحياة الدنيا فقال الله عز وجل فيها لرسوله:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

النص الثامن:

وجاء في سورة [طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول] عرض لقطات من قصة موسى وقومه، وفي هذا العرض أبانَ الله عز وجل أنه قال لموسى عليه السلام إذ كلمه بجانب الطور، وكلّفه أن يذهب رسولاً إلى فرعون وقومه وهو راجع بأهله من أهل مدين:

﴿... وَفَنَّاكَ فُتُونًا ... ﴿٤٠﴾﴾.

أي: وامتحنَّاك امتحاناً شديداً، فنجحتَ في الامتحان.

وجاء في هذا العرض بيان أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام في لقاء الميقات الأول بعد خروجه مع قومه من مصر، وإهلاك فرعون وجنوده:

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: قد امتحنَّاهم، بعجلٍ ذهبيٍّ له خوار صنعه السامريُّ لهم، وأوهمهم أنه هو إله موسى.

لكنَّ هارون عليه السلام قال لهم كما أخبرنا الله فيها:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَنْقُورِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴿٩٠﴾﴾.

إنما فُتِنْتُمْ بِهِ: أي: ما فُتِنْتُمْ فِتْنَةً إِغْرَاءٍ فخرجتُمْ عن صراطِ الهدى إلا بهذا العجل الذهبي الذي صنعه لكم السامري.

النص التاسع:

قول الله عز وجل في سورة [طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول] أيضاً خطاباً لرسوله فكلّ داعٍ إلى الله من بعده وكلّ مؤمنٍ:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقَ رَبُّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿٤٦﴾.

أي: ولا تَنْظُرْ نَظَرَ تَطْلُعٍ وَحَسَدٍ وَتَشَهُ، إلى ما مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا (أي: أصنافاً) منهم حالة كون ما مَتَّعْنَاهُمْ بِهِ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا هي سريعة الزوال لا بقاء لها كزهر الأشجار، لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ، أي: لِنَخْتَبِرَهُمْ أَيْشْكُرُونَ ويطيعون الله فيه، أم يَعْصُونَ ولا يشكرون. وبعد الامتحان الحساب والجزاء.

ورزقَ رَبُّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ مما يعطيه الناس من فضول أموالهم، أو رزق ربك في الآخرة في الجنة خيرٌ مما أوتوه في الدنيا وأبقى في جنسه أو نوعه، لأنّ رزقه يومئذ لا ينفد.

النص العاشر:

وعرض الله عز وجل في سورة [النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول] لقطاتٍ من قصة صالح عليه السلام وقومه ثمود، وجاء فيها أن ثموداً قالوا له كما جاء في قوله الله فيها:

﴿قَالُوا أَطِئْنَا بِكَ وَيَمَنُ مَعَكَ قَالَ طَأْتِئُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ ﴿٤٧﴾.

أَطِئْنَا: أي تَطِئْرُنَا، بمعنى تشاءمنا بك وبمن معك، إذ نزلت بهم عوامل قحط وجذبٍ ومصائب في الأموال والأنفس، فزعموا أن ما نزل بهم

قد كان بسبب دعوة صالح لهم إلى الدين الذي جاءهم به، ومخالفة العقيدة الوثنية.

قال طائرکم عند الله: الطائر: يأتي بمعنى الحظ والنصيب من الخير أو الشرّ، سواءً أكان ابتلاءً ابتداءً، أو تربيةً وتأديباً، أو جزاءً للتذكير والإنذار. ويأتي بمعنى ما يتفأّل به الإنسان أو يتشاءم.

فقول صالح عليه السلام لهم: «طائرکم عند الله» أي: حظّکم من الخير أو من الشر عند الله، فهو الذي يُنزل بكم بحكمته، إما لامتحانکم، أو لتأديبکم وتربيتکم أو ليجزيکم على أعمالکم جزاءً معجلاً للتذكير، والإنذار بالعذاب الأكبر.

بل أنتم قومٌ تُفْتَنون: أي: تُمنحون وتُختَبَرُونَ بما كرهتم ممّا تشاءمتم به. أو تُفْتَنون بمعنى تُصرفون عن معرفة الحق بإغراء الشيطان إذ يوحى إليکم أنّ ما نزل بکم قد كان بسبب رسولکم والذين آمنوا معه، والمعنى على هذا أنهم امتحنوا فأغراهم الشيطان فصرفهم عن الحق والإيمان به.

النص الحادي عشر:

قول الله عز وجل في سورة [الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول] خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿... وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ۝﴾.

وما جعلنا الرؤيا التي أريناك: هي ما شاهده الرسول ﷺ ليلة الإسراء شهوداً ببصره.

إلا فِتْنَةً للناس: أي: إلا امتحاناً واختباراً، فمن كان صادق الإيمان بالله ورسوله لم يُشكَّ بأن ما جرى للرسول محمد ﷺ ليلة أسري به حقٌّ

وَصِدْق، وَمَنْ كَانَ كَافِرًا وَتَأَكَّدَ لَهُ أَنْ مَا يَخْبِرُ بِهِ الرَّسُولُ حَقٌّ وَصِدْقٌ مُطَابِقٌ لِلْوَاقِعِ زَعَمَ أَنَّهُ سِحْرٌ، وَلَمْ يُصَدِّقْ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَسْرَى بِهِ فِعْلًا إِسْرَاءً بِالْجَسَدِ وَالرُّوحِ مَعًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ.

وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ: هِيَ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ الَّتِي تَنْبُتُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، وَقَدْ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي جَهَنَّمَ طَعَامَ الْأَثِيمِ، وَهِيَ أَيْضًا فِتْنَةٌ، وَنَفْهَمُ مِنْ كَوْنِهَا فِتْنَةً مَعْنِينَ:

الأول: أَنَّ الْإِخْبَارَ بِهَا امْتِحَانٌ يُقَابِلُهُ الْمُؤْمِنُونَ بِالتَّصَدِيقِ، إِيْمَانًا بِأَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْبِتَ فِي دَاخِلِ النَّارِ شَجَرًا، فَيَزِيدُونَ إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا، وَيُقَابِلُهُ الْكَافِرُونَ بِالتَّكْذِيبِ قَائِلِينَ: كَيْفَ تَنْبُتُ أَشْجَارٌ فِي دَاخِلِ النَّارِ، زَاعِمِينَ أَنَّ النَّظَامَ الَّذِي يُشَاهِدُونَهُ لِلنَّبَاتِ فِي الْأَرْضِ نِظَامٌ وَاجِبٌ بِطَبْعِهِ، وَلَيْسَ نِظَامًا وَضَعَهُ اللَّهُ لَهُ، فَيَزِيدُونَ بِتَكْذِيبِهِمْ كُفْرًا.

الثاني: أَنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ نَفْسَهَا يَعَذِّبُ اللَّهُ بِهَا الظَّالِمِينَ فِي الْجَحِيمِ يَوْمَ الدِّينِ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ عَرَفْنَا أَنَّ التَّحْرِيقَ وَالتَّعْذِيبَ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا مَادَّةُ الْفِتْنَةِ، وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى يُحْمَلُ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ شَجَرَةِ الزَّقُّومِ فِي سُورَةِ [الْصَّافَاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول]:

﴿أَذْلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ سَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۖ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ۝١٣﴾
 ﴿إِنَّهَا سَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝١٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ۝١٥ فَأَنَّهُمْ لَاكُلُونَهَا مِنْهَا قَلِيلًا وَهُمْ لَا يَبْغُونَ ۝١٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيمٍ ۝١٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ۝١٨﴾.

﴿لَشَوْبًا مِنْ حِمِيمٍ﴾ أَي: لِسَائِلًا مَخْلُوطًا مِنْ عُنَاصِرٍ فِي مَاءٍ شَدِيدِ

الْحَرَارَةِ.

النص الثاني عشر:

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ [الْأَنْعَامِ/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول]:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّا سُرَّكَاكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ

﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَفَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كَذِبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٥﴾

ثم لم تكن فتنتهم: الفتنة هنا هي بمعنى الادعاء الكاذب، بغية الاعتذار والتهرب من الإدانة بشركهم الذي كان منهم في الحياة الدنيا، فالنص يتحدث عن حالهم يوم الحساب والجزاء في الآخرة.

قالوا: هذه الآية مدنية مضمومة إلى سورة مكية.

النص الثالث عشر:

طلب كبراء مشركي مكة من الرسول ﷺ أن يطرد عن مجالسه فقراء المؤمنين حتى يتبعوه، ازدراء منهم لهؤلاء المؤمنين الفقراء والضعفاء، واستكباراً عن أن يتساووا معهم في المجلس، فأنزل الله عز وجل على رسوله قوله في سورة [الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول]:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ما عليك من حساب الناس من شيء إذا كفروا ولم يؤمنوا، بل كل واحد منهم يحاسب عن نفسه، فلا تطرد الفقراء طمعاً بإيمان الكبراء الأغنياء لتتخلص من مسؤولية محاسبتك على عدم إيمانهم، إذ لا تحيل أنت من حسابهم شيئاً، وبما أنك تقوم بواجب التبليغ فإن عليهم أن يتبألخوا ويشاركوا في مجالس التبليغ سائر طالبي الهداية.

وأنت مسؤول عن تبليغ دين الله للجميع على سواء، فقراء الناس

وأغنيائهم، ضعفاء الناس وساداتهم، فإذا طردت الفقراء والضعفاء وأبعدتهم عن مجالسك استجابةً لطلب الأغنياء والكبراء، فإنك تعرّض نفسك للمحاسبة والمؤاخذه على إبعادهم عن مجالس العلم الديني، الذي أمرك ربك بتبليغه للناس دون تمييز ولا تخصيص، وإن أغنياء المشركين وكبراءهم الذين تريد إرضاءهم والاستجابة لطلبهم ليسلموا لا يحملون عنك من مسؤولية الحساب شيئاً، بل ستُدان وحدك بطرد الفقراء والضعفاء وعدم تبليغهم دين ربهم.

وعلى هاتين القاعدتين من قواعد المسؤولية والمحاسبة جاء التفريع بقول الله عز وجل لرسوله: ﴿فَتَطَرَّدُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: فطرد الفقراء بعد بيان هاتين القاعدتين ظلم، فلا تستجب لطلب الأغنياء والكبراء فتطرّد الفقراء والضعفاء فتكون بطردهم من الظالمين.

بعد هذا أبان الله أن من سُنَّته في الاجتماع البشري امتحان الناس بعضهم ببعض، ومنه امتحان الأغنياء والكبراء بالفقراء والضعفاء، وبالعكس، فقال الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: وكذلك الامتحان الذي جرى لأغنياء المشركين وكبرائهم تُجاة فقراء المؤمنين وضعفائهم، فتنا «= امتحنا» بعض الناس ببعض، ليقول الأغنياء والكبراء أهؤلاء الفقراء والضعفاء من الله عليهم من بيننا؟! وجاء الجواب الرباني: أليس الله بأعْلَمَ بالساكرين؟!!!

النص الرابع عشر:

قول الله عز وجل في سورة [الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول]:

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا: وهبناه وملكناه نعمة منا.

بل هي فِتْنَة: أي: بل النعمة التي وهبناها له وملكناه إياها إنما هي فتنة، أي: ابتلاء وامتحان.

فمن خلائق الإنسان أنه إذا مسَّهُ ضرٌّ دعا ربّه، ثم إذا أنعم الله عليه بنعمة زعم أنه إنما أصابها بعلمه ومهارته وقدرته على كسب المال، وتحصيل ما يلذه ويُمّته ويسرّه.

فردّ الله عليه بأن ما خوَّله إياه من نعمة إنما كان لابتلائه واختباره، كما أنه لم يكن بعلمه ومهارته، بل بعتاءٍ من الله له.

وهذه الحقائق لا يعلمها أكثر الناس، بحسب تعلّقهم بالأسباب دون مُسببها.

النص الخامس عشر:

تحدّث الله عز وجل عن الكافرين إبان نزول القرآن، وأنذرهم بعذاب كبير، يوم تأتي السماء بدخانٍ مُبينٍ يغشى الناسَ هذا عذابٌ أليمٌ، وأعقبه بقوله عز وجل في سورة [الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول]:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾.

أي: ولقد امتحنّا قبلهم قومَ فِرْعَوْنَ، فكذبوا رسول ربهم، فأهلكهم الله.

النص السادس عشر:

قول الله عز وجل في سورة [الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول]:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

سبق في مادة (الابتلاء) شرح هذه الآية:

وفي أواخر هذه السورة علّم الله رسوله أن يُنذَرَ من يتولى عن دعوته،

وَأَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ لَا يَدْرِي أَقَرِيبَ أَمْ بَعِيدٌ مَا يُوعَدُونَ، وَأَنَّهُ لَا يَدْرِي
لَعَلَّ اللَّهَ قَضَىٰ بَأَن يُؤَخَّرَ أَجَلَ تَعْذِيبِهِمْ لِيُطِيلَ مُدَّةَ امْتِحَانِهِمْ، وَيُمَتِّعَهُمْ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِلَىٰ حِينٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿إِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِن أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا
تُوعَدُونَ ﴿١٩٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٠٠﴾ وَإِن
أَدْرَىٰ لَعَلَّكُمْ فِتْنَةً لَّكُمْ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٠١﴾﴾.

فتنة لكم: أي: ابتلاء لكم وامتحان.

النص السابع عشر:

قول الله عز وجل في سورة [العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٤٩ نزول]:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الدُّنْيَا سَوَاءٌ لَّهُمْ فِتْنَةٌ وَفِتْنَةٌ لِّمَن يَلْبِسْ
إِيمَانَهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الدُّنْيَا سَوَاءٌ لَّهُمْ فِتْنَةٌ وَفِتْنَةٌ لِّمَن يَلْبِسْ ﴿٢٠٢﴾﴾.

أي: أَحْسِبَ النَّاسَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَقُولُوا: آمَنَّا وَهُمْ لَا يُمْتَحَنُونَ بِمَا
يَكْرَهُونَ مِنْ صُنُوفِ بَلَاءٍ، وَلَقَدْ امْتَحَنَّا بِصُنُوفٍ مِنَ الْبَلَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ
قَبْلِهِمْ، إِذْ هَذَا الْامْتِحَانُ هُوَ مِنَ السَّنَنِ الرَّبَّانِيَةِ الثَّابِتَةِ فِي كُلِّ الْأُمَمِ الْحَاضِرَةِ
وَالْمَاضِيَةِ وَالْآتِيَةِ، لِهَذَا جَاءَ فِي النَّصِّ: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ﴾؟ وَهُوَ اسْتِفْهَامُ
إِنْكَارِيٍّ.

النص الثامن عشر:

وجاء في سورة [البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول] بَيَانُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ عِلْمًا ذَا تَأْثِيرٍ غَيْبِيٍّ شَبِيهِ بَتَأْثِيرِ
السَّحْرِ، وَأَنَّهُمَا كَانَا يُعَلِّمَانِ هَذَا الْعِلْمَ، وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا
نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ، أَي: إِنَّمَا نَعْلَمُ عِلْمًا فِيهِ امْتِحَانٌ لِمَنْ يَتَعَلَّمُهُ إِذْ قَدْ
يُسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ وَالتَّأْلِيفِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي الشَّرِّ

والتفريق بين المرء وزوجه، والأعمال التي تُستخدم لتحقيق المقاصد بمقتضى هذا العلم منها أعمالٌ صالحةٌ ليس فيها معصية لله عز وجل، ومنها أعمالٌ فاسدةٌ فيها معصيةٌ لله من مستوى يُوصلُ إلى الكفر، وكأنا يُحذّران المتعلّم من الكفر ومن كلّ ما يوصل إليه.

لكن الذين كانوا يتعلّمون منهما كانوا يتعلّمون منهما ما يضر ولا ينفع لفساد نفوس الناس.

فقال الله عز وجل فيها في معرض الكلام على فريق من اليهود:

﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِ هَارُوتَ وَمَرْوَتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَقًّا يَقُولَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

فدلّ هذا النصّ على أنّه ما من وسيلة في الكون ظاهرة كالوسائل الماديّة المشهودة للناس بالحواس الظاهرة ووسائلها، أو خفيّة كأعمال السحر وأعمال شبيهة بالسحر، وهي ما كان يُعلّمه الملكان هاروت وماروت، إلّا وهي قابلة لأن تُستعمل في الخير ولأن تستعمل في الشر، إلّا أنّ الناس بالنسبة إلى الوسائل الخفية تغلبهم نزعات الإثم والعدوان فيستعملون الوسائل الخفية في الشر، وربما استعملوا منها ما فيه كفر أو يوصل إلى الكفر.

وامتحان من يتعلّمها امتحانٌ صعبٌ جداً قلّما ينجو منه أحد، ولذلك حرّم الإسلام السحر، وجاء في بيان الرسول ﷺ أن الساحر يُقتل، وقد تعلّم فريق من اليهود السحر فكفروا وصنعوا شروراً كثيرة، واستخدموه في

الإضرار بعباد الله، وهُمْ آمِنُونَ من التعرّض للإدانة من قبل الحكام من البشر، لكنّ الله يتولى معاقبتهم، فالساحر لا يُفلح حيثُ أتى.

النص التاسع عشر:

وفي سورة [الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول] خاطب الله عز وجل الذين آمنوا بقوله:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٧٥﴾.

وَاتَّقُوا فِتْنَةً: أي: واتقوا عقاباً مؤلماً لكم لا يقتصرُ على إصابة الظالمين منكم فقط، بل يعمُ الظالمين وغيرهم، فيكون للظالمين عقاباً، ويكون لغير الظالمين امتحاناً واختباراً، أو تربيةً وتأديباً.

فلفظ الفتنة في هذا النص مستعمل بمعنى العقاب بدليل ما جاء في الآية من أنها لا تُصيبُ الذين ظلموا خاصة، ومن تذييلها بقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

النص العشرون:

قول الله عز وجل في سور [الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول] أيضاً خطاباً للذين آمنوا:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ٧٨﴾.

فِتْنَةٌ: أي: إنما أموالكم وأولادكم من عناصر امتحانكم وابتلائكم في ظروف الحياة الدنيا، فإذا التزمتم بطاعة الله عز وجل كانَ لكم عندهُ أجرٌ عظيم.

ونظيره ما جاء في الآية (١٥) من سورة [التغابن/ ٦٤ مصحف/ ١٠٨

نزول].

النص الحادي والعشرون:

ما جاء في الآية (٩١) من سورة [النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول] فلفظ الفتنة الوارد فيها هو بمعنى الابتلاء والاختبار.

النص الثاني والعشرون:

قول الله عز وجل في سورة [الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول]:
 ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾
 وإن أصابته فتنة: أي: وإن أصابته مصيبة لاختباره وابتلائه.
 وجاء في الآية (٥٣) منها لفظ الفتنة بمعنى الاختبار والابتلاء.

النص الثالث والعشرون:

قول الله عز وجل في سورة [المائدة ج/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول]
 خطاباً لرسوله:

﴿... وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنْ أَلَلِهِ شَيْئاً... ﴿٤١﴾﴾
 أي: ومن يريد الله امتحانه في ظروف هذه الحياة الدنيا لكشف ما في نفسه من خير وطاعة، أو شرٍّ ومعصية، فلن تملك له من الله شيئاً لهدايته هداية جبرية، لأن من شروط الامتحان منح الإرادة الحرة.

خاتمة هذا الملحق:

بهذا العرض الاستقرائي التدبري ظهرَ لنا التطابق بين ما جاء من مادة «الابتلاء» ومادة «الفتنة» في أن معظمه مُستعملٌ للدلالة على معنى الامتحان والاختبار، وأنَّ كُلَّ ما في الحياة الدنيا ممَّا يخضع سلوكُ الإنسان تُجاهه للإرادة الحرة هو مادةٌ من مواد الامتحان في ظروف هذه الحياة الدنيا، سواءً أكان هذا السلوك سلوكاً ظاهراً بالأعمال الجسدية، أو سلوكاً باطناً بالأعمال النفسية أو القلبية أو الفكرية.

خاتمة المجلدين الرابع والخامس

هذا ما فتح الله به علي من تدبّر لسورتي (الأعراف) و(الجن)
وللملاحق التابعة لهذا التدبّر، والحمد لله على ما تفضل عليّ ومنّ، إنه
جزيل العطاء، وعظيم المنّ.

وكان الفراغ من كتابة المجلدين الرابع والخامس الجامعين لتدبّر
السُورَتَيْنِ المذكورتَيْنِ آنفاً، ولِمَلَأَحِقِهِمَا، يوم الجمعة/ ٢٧ من شهر رجب
١٤٢٠ هجرية.

الموافق ل/ ٥/ ١١/ ١٩٩٩ ميلادية.

اللَّهُمَّ انْفَعْ بما وفقتني لكتابته، وقضيت لي به، واجعله بفضلك ومنك
وكرمك من صالح العمل الذي تكتب لي به عندك أجراً عظيماً، وثواباً
جزيلاً في جنات النعيم يوم الدين.

وصلّى الله وسلّم على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم
بإحسان.

عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني.

الفهرس

الصفحة

الموضوع

تابع سورة الأعراف

(١١) التدبّر التحليلي للدرس السابع من دروس سورة (الأعراف) وهو الآيات

من (١٧٢ - ١٧٤) ٥

القراءات ٥

تمهيد ٦

التدبّر ٩

• ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾ (١٧١) ٩

• ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا...﴾ (١٧٢) ١٠

الزمن الملائم لهذا الحدث من تاريخ أطوار وجود بني آدم ١١

• ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ ١٣

• ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا

فَعَلِ الْمُبْطِلُونَ﴾ (١٧٣) ١٤

ما هي الأمانة التي عرضها الربّ جلّ جلاله؟ ١٦

الأشياء التي وضعها الربّ جلّ جلاله أمانة تحت سلطان الإنسان ٢٠

كيف كان حال معظم أفراد الإنسان بعد دخولهم رحلة الامتحان ٢١

• ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٧٤) ٢٢

التفصيل في الأشياء ٢٣

استعراض النصوص حول تفصيل الآيات ٢٤

(١٢) التدبّر التحليلي للدرس الثامن من دروس سورة (الأعراف) وهو الآيات

من (١٧٥ - ١٧٧) ٢٧

٢٨	تمهيد
٢٨	• ﴿وَأَنزَلُ عَلَيْهِم﴾ (١٧٥)
٢٩	• ﴿وَأَنزَلُ عَلَيْهِم نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا﴾ (١٧٥)
٣٠	• ﴿فَانْسَلَخْ مِنْهَا﴾
٣١	• ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ...﴾ (١٧٥)
٣١	• ﴿فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ...﴾ (١٧٥)
٣١	• ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا...﴾ (١٧٦)
٣٢	• ﴿وَلِكَيْتُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ...﴾ (١٧٦)
٣٢	• ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ وَإِنْ تَنْرُكْهُ يَلْهَثَ...﴾ (١٧٦)
٣٢	• ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَافْضُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٧٦)
٣٣	• ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٧٧) ...
٣٤	بيان عامٌ حول هذا الدرس
	(١٣) التدبُّر التحليلي للدرس التاسع من دروس سورة (الأعراف) وهو الآيتان:
٣٩ (١٧٨ و ١٧٩)
٤٠	تمهيد
٤٢	• ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي...﴾ (١٧٨)
٤٣	• ﴿وَمَنْ يَضِلُّ فَلَاوَلِيكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٨)
٤٤	• ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ...﴾ (١٧٩)
	• ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا
٤٦	يَسْمَعُونَ بِهَا...﴾ (١٧٩)
٤٩	• ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ...﴾ (١٧٩)
٥١	• ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١٧٩)
	(١٤) التدبُّر التحليلي للدرس العاشر من دروس سورة (الأعراف) وهو الآية
٥١ (١٨٠)

- القراءات ٥١
- تمهيد ٥٢
- ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا...﴾ (١٨٠) ٥٤
- ﴿... وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ...﴾ (١٨٠) ٥٦
- ﴿... سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨١) ٥٧
- (١٥) التدبر التحليلي للدرس الخامس عشر من دروس سورة (الأعراف) وهو
الآيات من (١٨١ - ١٩٨) ٥٧
- القراءات ٥٨
- تمهيد ٦١
- ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١) ٦٢
- بقاء طائفة من أمة محمد ظاهرين على الحق ٦٥
- ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٢) ٦٦
- ﴿وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (١٨٣) ٦٨
- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (١٨٤) ٧٠
- ﴿... إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ٧٣
- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي مَلَكَوَتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ
وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٥) ٧٤
- ﴿... وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ...﴾ (١٨٥) ٧٥
- ﴿... فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٥) ٧٥
- ﴿مَنْ يَضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٨٦) ٧٦
- ﴿... وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٨٦) ٧٨
- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا...﴾ (١٨٧) ٧٩
- ﴿... قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً...﴾ (١٨٧) ٨٢

- ﴿... يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَافِيٌ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ ٨٨
- ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ ٩١
- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبُّهُمَا لَعْنِ آتَيْنَا صَلَاحًا لِنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٦﴾﴾ ٩٣
- تمهيد ٩٣
- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴿١٩٦﴾﴾ ٩٤
- ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبُّهُمَا لَعْنِ آتَيْنَا صَلَاحًا لِنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ ٩٥
- ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٦﴾﴾ ٩٦
- ﴿... فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٦﴾﴾ ٩٩
- ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ ١٠٠
- ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ ١٠١
- ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاكُمْ عَلَيْهِمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا... ﴿١٩٥﴾﴾ ١٠٢
- تمهيد ١٠٣
- ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ... ﴿١٩٦﴾﴾ ١٠٤
- ﴿سِوَاكُمْ عَلَيْهِمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ ١٠٤

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ
- ١٠٥ ﴿١٩٤﴾ ﴿١٩٥﴾
- ﴿أَلَهُمْ أَزْجَلُ يَمْسُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا...﴾ ﴿١٩٥﴾ ١٠٦
- ﴿... أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا...﴾ ﴿١٩٥﴾ ١٠٧
- ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ...﴾ ﴿١٩٥﴾ ١٠٩
- ﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٩٦﴾ ١٠٩
- ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ *
- وَأَنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا
- يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٩٨﴾ ١١٠
- (١٦) التدبر التحليلي للدرس الثاني عشر من دروس سورة (الأعراف) وهو
- ١١٢ الآيات من (١٩٩ - ٢٠٦) آخر السورة
- ١١٣ القراءات
- تمهيد ١١٤
- ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿١٩٩﴾ ١١٥
- (١) شرح الوصية الأولى: [خُذِ الْعَفْوَ] ١١٥
- (٢) شرح الوصية الثانية: [وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ] ١١٧
- (٣) شرح الوصية الثالثة: [وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ] ١١٩
- ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٠٠﴾ ١٢٠
- تمهيد ١٢٠
- ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ...﴾ ﴿٢٠٠﴾ ١٢١
- ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٠٠﴾ ١٢١
- جاء تأكيد مضمون الآية (٢١٠) في الآيات من (٣٣ - ٣٦) من سورة
- ١٢٣ (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) مع تدبر هذا النص
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ
- مُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢١١﴾ ١٢٧

- ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُم فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (٢٢٧) ١٢٨
- ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِيَهُمْ بَآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا...﴾ (٢٢٣) ١٣٠
- ﴿... قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي...﴾ (٢٢٣) ١٣٣
- ﴿... هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٢٣) ١٣٣
- ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٢٤) ١٣٦
- ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٢٢٥) ١٣٩
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (٢٢٦) ١٤٣
- ملاحق لتدبر سورة (الأعراف) ١٤٦
- (١٧) الملحق الأول: مُسْتَخَرَّجَاتُ بِلَاغِيَّةٍ مِنْ سُورَةِ (الأعراف) ١٤٧
- (١٨) الملحق الثاني: السؤال في محكمة العدل الربّانية يوم الدين ١٨١
- (١٩) الملحق الثالث: الوزن في مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ يوم الدين ٢٠٥
- (٢٠) الملحق الرابع: حول اتخاذ الدين لهُوَ وَلَعِباً وَهَزْوَاً والاغترار بالحياة الدنيا ٢٢٤
- (٢١) الملحق الخامس: دراسة تكاملية للنصوص بشأن لوط عليه السلام وقومه في القرآن ٢٧٩
- (٢٢) الملحق السادس: دراسة تكاملية للنصوص بشأن شعيب عليه السلام وقومه ٣٥١
- (٢٣) الملحق السابع: حول ما جاء في القرآن بشأن سُنَنِ اللَّهِ فِي الْأُمَمِ حَتَّى اسْتَحَقَّاقَهَا الْإِهْلَاكُ الشَّامِل ٤٣٠
- (٢٤) الملحق الثامن: حول رَغْبَةِ الْكَافِرِ أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ لَهُ بِاسْتِثْنَاءِ رِخْلَةٍ امْتِحَانَهُ حَتَّى تَمْنِيَهُ أَنْ يَكُونَ تَرَاباً ٤٨٨

سُورَةُ الْجَنِّ

٧٢ مصحف ٤٠ نزول

- (١) نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات ٥١٧
- (٢) موضوع سورة الجن ٥٢٠

- (٣) دُرُوس سورة الجن ٥٢٠
- (٤) دراسة شاملة للجن ٥٢١
- تعريف بالجن ٥٢١
- مادة كلمة (الجن) عند أهل اللغة ٥٢٣
- الجن مخلوقون من مارج من نار والملائكة من نور، والإنس من الطين ٥٢٤
- إبليس من الجن ٥٢٦
- الجن سلالة كالإنس، أصناف وألوان ولهم مذاهب شتى، وهم يزورنا من حيث لا نراهم ٥٢٧
- الجن يأكلون ويشربون ويناكحون ويتناسلون ٥٢٩
- هل بعث الله رُسلاً من الجن إلى الجن ٥٣٢
- الجن يموتون ويَبْعَثُونَ يَوْمَ القيامة للحساب والقضاء والجزاء ٥٣٥
- تَدْبُرُ نَصْرَ الْأَخْقَافِ بشأن وفدٍ من وفود الجن ٥٣٧
- مما جاء في السُّنَّة بشأن وفادات وفود من الجن إلى الرسول ﷺ ٥٤٤
- تَبَيَّنَتْ مُتَفَرِّقَاتُ عَنِ الْجَنِّ فِي التَّصَوُّصِ الْقِرَائِيَّةِ ٥٤٩
- (٥) التدبر التحليلي للمدرس الأول من دُرُوس سورة (الجن) وهو الآيات من (١ - ١٥) ٥٦٠
- تمهيد ٥٦١
- ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ...﴾ (١) ٥٦١
- ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ﴾ ٥٦٤
- وجوه تكليم الله لبشرٍ من عباده ٥٦٤
- ﴿نَفَرَ مِنْ الْجَنِّ﴾ ٥٦٥
- ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ ٥٦٦
- ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ ٥٦٧
- ﴿فَأَمَّا بِهِ﴾ ٥٦٨

- ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (٢) ٥٦٨
- ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ (٣) ٥٦٩
- ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ (٤) ٥٧٠
- ﴿وَأَنَّهُ ظَنَّنَا أَنْ لَنْ يَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (٥) ٥٧٢
- ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (٦) ٥٧٣
- ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ (٧) ٥٧٧
- ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَاهَا مُلْتَثَّ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ (٨) ٥٧٩
- نظرة تدبرية إلى النصوص القرآنية بشأن حفظ السماء من الشياطين ٥٨٤
- ﴿وَأَنَّا كُنَّا تَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ (٩) ٥٨٩
- ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (١٠) .. ٥٩٠
- ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا﴾ (١١) ٥٩١
- ﴿وَأَنَّا ظَنَّنَا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ (١٢) ٥٩٣
- ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ...﴾ (١٣) ٥٩٤
- ﴿... فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ ٥٩٥
- ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (١٥) ٥٩٦
- (٦) التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (الجن) وهو الآيات من (١٦ - ١٩) ٦٠١
- تمهيد ٦٠١
- القراءات ٦٠٢
- ﴿وَأَوَّلُوا اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا﴾ (١٦) لِنَفْسِهِمْ فِيهِ... ﴿ ٦٠٣
- ﴿... وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ (١٧) ٦٠٧
- ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١٨) ٦١١

- ٦١٣ ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۖ﴾ (١٩) ﴿.....
- (٧) التدبر التحليلي للدرس الثالث من دُرُوسِ سُورَةِ (الجن) وهو الآيات من
- ٦١٩ (٢٠ - ٢٨) آخر السورة
- ٦١٩ القراءات
- ٦٢٠ تمهيد
- ٦٢١ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَنْ أُشْرِكَ بِهِ أَحَدًا ۖ﴾ (٢٠) ﴿.....
- ٦٢٢ ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۖ﴾ (٢١) ﴿.....
- ٦٢٢ ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلَّا
- بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ
- ٦٢٤ فِيهَا أَبَدًا ۖ﴾ (٢٢) ﴿.....
- ٦٢٦ ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ...﴾ (٢٣) ﴿.....
- ٦٢٧ ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (٢٤) ﴿.....
- ٦٢٩ ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلَّ عَدَدًا ۖ﴾ (٢٥) ﴿.....
- ٦٣٤ ﴿قُلْ إِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ مَا تُوَعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ۖ﴾ (٢٥) ﴿.....
- ٦٣٤ ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ﴾ (٢٦) ﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ
- ٦٣٥ رَسُولٍ...﴾ (٢٦) ﴿.....
- ٦٣٦ نظرات شاملات إلى مفهوم الغيب
- ٦٣٦ ﴿فَإِنَّهُ يَسْنَلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لَيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا
- ٦٤٠ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخَصَّىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۖ﴾ (٢٨) ﴿.....
- ٦٤٤ تَبَيَّنَ حَوْلَ بَعْضِ مَفْهُومَاتِ عَنِ الْغَيْبِ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ
- ٦٤٧ ملاحق لتدبر سورة (الجن)
- ٦٤٧ (٨) الملحق الأول: نَظَرَةٌ إِجْمَالِيَّةٌ عَامَّةٌ إِلَىٰ وَخْدَةِ مَوْضُوعِ سُورَةِ (الجن) ...
- ٦٥٥ (٩) الملحق الثاني: مُسْتَخَرَّجَاتُ بَلَاغِيَّةٍ مِنْ سُورَةِ (الجن)
- (١٠) الملحق الثالث: نصوصُ الابتلاء والفتنة في القرآن المجيد وفيه أربع
- ٦٦٤ مقولات:

الموضوع	الصفحة
المقولة الأولى: تَعْرِيفَات وَبَيَانَات تَأْسِيسِيَّة	٦٦٤
المقولة الثانية: نظرات تحليلية حَوْلَ حِكْمِ اللَّهِ فِي النُّعْمِ وَالْمَصَائِبِ	٦٧٠
المقولة الثالثة: اسْتِعْرَاضُ نصوص «الابتلاء» بنظراتٍ تَدْبِيرِيَّةٍ إِلَيْهَا	٦٧٦
المقولة الرابعة: اسْتِعْرَاضُ نصوص «الْفِتْنَةِ» بنظراتٍ تَدْبِيرِيَّةٍ إِلَيْهَا	٦٨٨
خاتمة المجلدين الرابع والخامس	٧٠٧



